الإحاطة
فى أخبار غرناطة

ذخائر العرب
١٧

الإحاطة

في أخبار غرناطة

للوزير لسان الدين بن الخطيب

حققه وقدم له
محمد عبد الله عنان

المجلد الأول

دار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يكن من برنامج أعمالى فى الدراسات الأندلسية التى أضطلع بها منذ أعوام طويلة ، أن أعنى بنشر شيء من الآثار الأندلسية المخطوطة التى تقع فى حيز بحوثى ؛ وكان جل مقصدى فى هذه الناحية، هو البحث عن هذه الآثار أينما وجدت ، والتوفر على دراستها ، والرجوع إليها ، فيما أقوم بوضعه من مؤلفات فى تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها .

ولكنى آنست خلال رحلاتى الأندلسية، واتصالى بالمعاهد والدوائر العلمية ، التى تعنى بتراث الأندلس ودراسته ، وبالعلماء الذين تخصصوا فى هذه الدراسة من المستشرقين الأسبان وغيرهم ، أن هنالك اهتماماً خاصًّا بآثار وزير الأندلس ومفكرها العظيم ابن الخطيب ، ولا سيما مؤلفه الجامع « الإحاطة فى أخبار غرناطة » . وهذا الاهتمام بآثار ابن الخطيب قديم ، يرجع بالأخص إلى عصر ازدهار الدراسات العربية الأسبانية ، فى أواخر القرن الماضى حينما كانت هذه الآثار مستقى خصباً لأعلام المستشرقين الأسبان،أمثال سيمونيت، وأما دور دى لوس ريوس ، وكوديرا، وألتاميرا ، وريبيرو ، ونبيتو ، وكونتريراس ، ولوثينا ؛ بل يرجع هذا الاهتمام إلى أقدم من ذلك بكثير ، حيث نرى المؤرخين والمستشرقين الأسبان منذ القرن السادس عشر ، ولا سيما الغرناطيين منهم ، يرجعون إلى ابن الخطيب فى كثيرمما يتعلق بتاريخ غرناطة ، وخططها وآثارها .

وقد رأيت هذا الاهتمام بآثار ابن الخطيب يقترن فى الوقت نفسه برغبة حارة فى العمل على نشر آثاره ؛ وسنرى فيما بعد ، أن ما نشر من هذه الآثار قليل ، بالنسبة لما تركه لنا ابن الخطيب من تراث منوع ضخم .

ولما كانت القاهرة قد غدت فى العصر الأخير ، مركزاً هاماً لنشر الآثار العربية الأسبانية ، فإن العلماء المستشرقين — نظراً لما أصاب حركة الاستشراق والبحوث الإسلامية فى الغرب من الضعف والركود ، عقب الحرب العالمية الثانية — يتطلعون إلى طلب المزيد من هذا النشاط المثمر . وقد كان لما صدر فى الأعوام الأخيرة بالقاهرة من أمهات الآثار الأندلسية ، مثل القسم الذى صدر من الذخيرة لابن بسّام ، والقسم الذى صدر من أزهار الرياض للمقرى ، ومعجم ما استعجم للبكرى ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، وتاريخ قضاةالأندلس للنباهى، وجذوة المقتبس للحميدى، والمُغرب فى حُلى المَغرب بقسميه لابن سعيد . والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية : كان لصدور هذه الآثار الأندلسية الجليلة أطيب الأثر فى دوائر المستشرقين ، ولا سيما فى اسبانيا حيث تحظى هذه الآثار كلها بتقدير خاص ، لأهميتها كمصادر للبحوث العربية الأسبانية .

ولما كان كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، هو أقيم أثر فى موضوعه ، وما زال حتى يومنا يعتبر أهم مرجع إسلامى لتاريخ مملكة غرناطة ، وتاريخ رجالاتها وآدابها وحضارتها ، هذا فضلا عن كونه يعتبر موسوعة لتراجم أعلام الأندلس بصفة عامة ؛ ولما كنت من جهة أخرى ، أعنى بهذا القسم من تاريخ الأندلس عناية خاصة ، وكانت آثار ابن الخطيب ولا سيما « الإحاطة » من أهم مراجع بحوثى الأندلسية ، فإنى لم أجد بأساً من أن أشترك فى العمل فى تحقيق كتاب « الإحاطة » وإخراجه .

وهى مهمة شاقة ، لأن ما يوجد من نسخ كتاب « الإحاطة » أو أجزائه المخطوطة لا يساعد على مهمة إخراجه بسهولة . ذلك أن النسخة الوحيدة الكاملة منه ، وهى

التى توجد فى مكتبة جامع الزيتونة بتونس، توسم فى نهايتها بأنها «مختصر الإحاطة». أما الأجزاء المخطوطة الأخرى منه، وهى التى توجد بالقاهرة، ومكتبة دير الإسكوريال الملكى، ومكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمدريد، والمكتبة الوطنية بمدريد، فإنها لا تكمل بعضها بعضاً بصورة منتظمة، بل توجد بينها مفارقات كثيرة، واختلاف بين فى ترتيب التراجم؛ هذا إلى ما يوجد بها جميعاً من ضروب التحريف التى لا نهاية لها.

وفضلا عن ذلك فإن هذه الأجزاء المختلفة، من مخطوط الإحاطة يرد فى معظمها، سواء فى سياق الكلام ذاته، أو فى نهايتها ما يدل أيضاً على أنها قطع من «مختصر الإحاطة»، وهذا باستثناء القطعة المخطوطة من الجزء الأول، المحفوظة بدار الكتب المصرية، فإنه يبدو أن لها شأناً آخر، وذلك حسبما نفصل عند حديثنا عن أوصاف هذه المخطوطات ومحتوياتها.

وإنه لمما يدعو إلى الأسف والدهشة معاً ألّا تصل إلينا نسخة كاملة من «كتاب الإحاطة» الأصلى؛ وقد ذكر لنا المقرى فى «نفح الطيب» أن النسخة الأصلية من «الإحاطة» تقع فى ثمانية مجلدات، وأن مؤلفه ابن الخطيب كان قد بعث منه بنسخة كاملة إلى القاهرة لتوقف على طلبة العلم بها، أودعت بخانقاه سعيد السعداء، ورأى المقرى أثناء إقامته بالقاهرة منها الجزء الرابع[1]. ولكن المقرى لا يذكر لنا شيئاً عن حجم هذا المجلد أو صفحاته. وأما كون اسبانيا، وهى وريثة التراث الأندلسى، ووريثة المكتبات الأندلسية، لا تحتفظ بنسخة كاملة من «الإحاطة»، ولا تملك مكتبة الإسكوريال، وهى مستودع تراث الأندلس الفكرى، منه سوى قطعتين ناقصتين، فذلك يرجع إلى المحن المؤلمة، التى أصابت هذا التراث، عقب سقوط مملكة غرناطة فى يد اسبانيا النصرانية، وانتهاء دولة الإسلام بالأندلس سنة ١٤٩٢ م.

---

(١) نفح الطيب – بولاق. ج ٤ ص ٦٥٧.

ذلك أن السياسة الأسبانية اتجهت عقب ظفرها إلى إرغام المسلمين على التنصر ؛ وفى سنة ١٤٩٩ م . أمر الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، وعميد الكنيسة الأسبانية ، بجمع جميع الكتب والآثار العربية فى غرناطة، و إحراقها فى ساحات المدينة ، تجريداً للشعب المغلوب من غذائه الروحى والنفسى القديم . وهلكت على هذا النحو نحو مائة ألف أو تزيد من الآثار العربية ، ولم يبق من تراث الأندلس الفكرى ، سوى بقية وأشتات يسيرة ، من المجموعات الخاصة ، هى التى جمعت فيما بعد ، وأودعت فى قصر الإسكوريال .

وفى عصر فيليب الثالث أسر البحارة الأسبان فى مياه جبل طارق ، سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة مولاى زيدان سلطان مراكش (سنة ١٦١٤) وقوامها ثلاثة آلاف مجلد فى مختلف العلوم والفنون ؛ وحملت هذه الغنيمة الأدبية الزاهرة إلى قصر الإسكوريال، و بلغت بذلك مجموعة الكتب العربية فى الإسكوريال فى أوائل القرن السابع عشر زهاء عشرة آلاف مجلد ، وكانت أعظم وأنفس مجموعة من نوعها .

ولكن حريقاً شب فى قصر الإسكوريال فى سنة ١٦٧١ ، والتهم معظم هذا الكنز الفكرى الأندلسى ، ولم ينقذ منه سوى نحو ألفى مجلد ، تثوى اليوم فى أقبية مكتبة دير الإسكوريال . وهذه البقية الباقية من الكتب الأندلسية والمغربية هى التى قام العلامة اللبنانى ميشيل الغزيرى بدراستها ، ووضع عنها فهرسه الشهير فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهو الذى ما زال مرجع الباحثين إلى يومنا(١) .

تلك هى مأساة تراث الأندلس الفكرى ، وذلك هو السبب الأول فى أن كثيراً من أمهات الكتب الأندلسية قد دثر ولم يصل إلينا ، ومنها كتاب « الإحاطة » ؛ و إنك لترى اليوم بين هذه البقية الباقية من تراث الأندلس كثيراً من الكتب التى

---

(١) وهو باللاتينية وعنوانه : Casiri: Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis
« المكتبة العربية الأسبانية فى الإسكوريال » .

ما زالت تحمل اسم صاحبها « مولاى زيدان » سلطان مراكش ، ومنها إحدى قطعتى كتاب « الإحاطة » اللتين سوف نتحدث عنهما .

وهناك واقعة تاريخية أخرى قد تفسر لنا فقد النسخ الكاملة من كتاب « الإحاطة » . وهى أن كتب ابن الخطيب ، وفى مقدمتها كتاب « الإحاطة » ، قد جمعت وأحرقت فى غرناطة فى سنة ٧٧٣ هـ ، حينما اتهم مؤلفها بتحريض خصومه ، بالإلحاد والزندقة ، وحكم بإدانته وإحراق كتبه على ما نفصل بعد .

بيد أنه إذا كانت جهود الباحثين لم تسفر حتى اليوم عن العثور على نسخة كاملة أصلية من كتاب « الإحاطة » فإن المستقبل قد يسفر عن ظهور مثل هذه النسخة أو بعض أجزائها الأصلية ، على نحو ما حدث فى المغرب من ظهور بعض نسخ مخطوطة من آثار أندلسية كان ميئوساً من وجودها ، ومن ذلك ماوقع بالنسبة لكتاب الذخيرة لابن بسّام وغيره .

(١)

ولنعرض الآن إلى دراسة ما انتهى إلينا من مخطوطات كتاب « الإحاطة » فى مختلف الجهات .

ولقد قمنا لهذا الغرض خلال رحلاتنا المتوالية إلى اسبانيا بدراسات وافية لآثار ابن الخطيب المخطوطة كلها فى مكتبات مدريد ، وأكاديمية التاريخ الملكية والإسكوريال ؛ وفى الإسكوريال بالأخص توجد عدا « الإحاطة » ، عدة مخطوطات أخرى من آثار ابن الخطيب ، قمنا بدراستها كلها بغية التحقيق والمقارنة .

ولنبدأ بدراسة ما لدينا من قطع الإحاطة بالقاهرة ، وهى ليست فى ذلك أقل ثروة من غيرها .

(١) ففى دار الـكتب المصرية قطعة كبيرة من كتاب « الإحاطة » ، هى الجزء الأول أو معظم هذا الجزء ، لا تحمل تاريخاً معيناً لـكتابتها ؛ ولـكن يبدو مع ذلك من أوراقها العتيقة البالية المخرمة ، ومن نوع كتابتها ، أنها من أقدم القطع المخطوطة التى وصلتنا من « الإحاطة » إن لم تكن أقدمها جميعاً[١] .

وهى تقع فى ١٢٢ ورقة ، أعنى فى ٢٤٤ صفحة من القطع الـكبير ، مكتوبة بخط أندلسى أو مغربى قديم ، فى كل صفحة ٢٣ سطراً ، وفى كل سطر نحو ١٤ كلمة . وقد وضعت ضمن مجموعة مخطوطة تحتوى فى نفس الوقت على قطعتين مخطوطتين من الجزء الأول من كتاب « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » للسيوطى ، وتشغل إحداهما ثمانى لوحات من لوحة ١٢٣ — ١٣١ ، وتشغل الثانية اثنتين وستين لوحة من لوحة ١٣٢ — ١٩٤ ، وقد كتبت كلتاهما ، بخط مغربى مخالف هو أميل إلى النسخ ولـكن على ورق مشابه .

وتحمل صفحة العنوان من قطعة الإحاطة المذكورة العبارات الآتية :

« السفر الأول من الإحاطة فى أخبار غرناطة ، مما عنى بتأليفه الشيخ الأديب البارع المتفنن ابن الخطيب السلمانى رحمه الله تعالى ورضى عنه » .

وكتب تحت هذا العنوان العبارة الآتية :

« أوقف هذا الـكتاب المبارك السيد أحمد عبد السلام المسيسى غفر الله ولجميع المسلمين » .

وكتب فى ذيل الصفحة بخط مغربى ردىء ما يأتى : « ملك لله فى يد عيسى ابن أحمد بن إبراهيم لطف الله به بمنه وكرمه » .

ولا نستطيع إزاء خلو هذه القطعة من أية إشارة لـكتابتها ، أو اقتنائها ، أن نحدد

---

(١) تحفظ هذه القطعة المخطوطة بدار الكتب ، تحت رقم ٣٤٨ تاريخ .

تاريخ كتابتها بصورة محققة ، ولكنا نستطيع على ضوء قدمها ونوع خطها ، أن نقول إن كتابتها ترجع على الأرجح إلى القرن التاسع الهجرى .

ومما يجدر ذكره أيضاً أن هذه القطعة لم ترد بها أية إشارة إلى أنها « مختصر » للإحاطة مثلما ورد فى بعض القطع المخطوطة الأخرى .

وتوجد من هذه القطعة بدار الكتب أيضاً ، نسخة مصورة أخذت عن النسخة المخطوطة المحفوظة بالمتحف البريطانى ، والتى نقلت عن نسخة دار الكتب بتاريخ سنة ١٢٩٦هـ(١) .

(٢) وتحتفظ دار الكتب كذلك بقطعتين أخريين مصورتين من كتاب الإحاطة ، نقلتا عن نسخة مغربية ، وتحتوى الأولى منهما على ١٠١ لوحة من ذات الصفحتين فى كل صفحة منهما ١٩ سطراً وفى كل سطر نحو ١١ كلمة .

وتبدأ هذه القطعة بترجمة ابن الخطيب لنفسه ، وتحتوى على ست وخمسين ترجمة أخرى كلها من حرفى الميم والنون . وتحتوى الثانية على ١١١ لوحة من نفس الحجم وتحتوى على تسع وسبعين ترجمة من أحرف الصاد والعين والغين والفاء والقاف والسين والياء بلا ترتيب . وقد كتبت كلتا القطعتين بخط مغربى جميل وكتبت العناوين بخط ثلث كبير متداخل منمق(٢) .

وتحمل القطعة الثانية فى نهايتها العبارة الآتية : « كمل مختصر الإحاطة بحمد الله وحسن عونه على يد كاتبه الفقير إلى الله تعالى أحمد بن مسعود الوزانى بتاريخ أوايل ذى الحجة عام ٩٨٧ عرفنا الله خيره ، ووقانا شره » . صلى الله على مولانا محمد وعلى آله .

وإذن فنحن هنا أمام تعريف صريح ، بأن الأمر فى هاتين القطعتين يتعلق « بمختصر الإحاطة » .

---

(١) تحفظ هذه النسخة المصورة بدار الكتب برقم ٢٩٦٢ تاريخ .

(٢) تحفظ هاتان القطعتان المصورتان بدار الكتب برقم ١١٤٢٩ ح .

وقد لاحظنا بمراجعة النص فى هاتين القطعتين المخطوطتين ، أن به تحريفاً كثيراً ، مما يدل على ضعف الناسخ من الناحية الأدبية .

(٣) وأخيراً تحتفظ دار الكتب (المكتبة التيمورية) بنسخة مصورة من الجزء الثانى من كتاب « مركز الإحاطة بأدباء غرناطة » وهو الذى اقتبسه الأديب المصرى بدر الدين البشتكى من أدباء أواخر القرن الثامن الهجرى من كتاب الإحاطة وضمنه تراجم الكتاب والأدباء والشعراء ، الذين يضمهم كتاب الإحاطة ، وذلك على سبيل الاختصار . وقد نقل هذا المخطوط المصور الذى يتكون من مائة وخمسين لوحة من ذوات الصفحتين عن الأصل المحفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس ، وهو يحتوى على مائة وست وثلاثين ترجمة موجزة من حرفى الميم والعين .

(٤) وتحتفظ مكتبة الأزهر بنسخة مخطوطة من الجزء الأول من كتاب الإحاطة حديثة الكتابة (سنة ١٣١٤ هـ) وتحتوى على ١٩٠ ورقة ، وتزيد قليلا عن مخطوطة دار الكتب . وأغلب الظن أنه قد نقل عن نسخة منقولة من نسخة مكتبة جامع الزيتونة بتونس — وسوف نتحدث عنها ؛ وهو يزيد عنها صفحة واحدة فقط . وهذا الجزء ملىء بالأخطاء والتحريف ولم نذكره إلا على سبيل استكمال البحث والاستقصاء .

(٥) على أنه توجد بمكتبة رواق المغاربة بالجامع الأزهر ، قطعة كبيرة مخطوطة من كتاب الإحاطة ، تتكون من مائة وسبعين ورقة ، أعنى ٣٤٠ صفحة من القطع المتوسط ، فى كل صفحة ١٩ سطراً ، وفى السطر نحو عشر كلمات ، ليس لها أول ولا آخر ، ومكتوبة بخط مغربى قديم . ويبدو من حالة ورقها وخطها ، أنها قديمة ، وقد ترجع إلى القرن التاسع الهجرى أو القرن العاشر .

ويؤيد هذا الفرض من قدم هذه المخطوطة المغربية ، أن بهوامشها تعليقات واستدراكات للمقرى صاحب كتاب نفح الطيب وبخطه . ومنها فى صفحة ٢٧٩

هامش كتبه تأييداً لقرشية نسب جده أبى عبد الله المقرى ، وفى نهايته ما يأتى : « قال هذا وكتبه الفقير أحمد بن محمد المقرى التلمسانى نزيل فاس بالقاهرة المحروسة سنة ١٠٢٩ هـ عرفنا الله خيره » .

وقد عكفنا على دراسة هذه المجموعة الخطية من « الإحاطة » ، وانتهينا بالبحث والمقارنة ، إلى أنها تتكون من عدة أقسام متناثرة ، لا تكون مجموعاً موحداً أو متتالياً ، وإن كان بعضهم قد وضع عليها أرقاماً متتالية ؛ وتبدأ أوراقها الأولى ببقية ترجمة بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية ، ثم تليها فى ص ٦ ترجمة تاشفين بن على بن يوسف أمير المسلمين المرابطى ، وهى واردة بالجزء الأول من الإحاطة (نسخة دار الكتب ، والنسخة المطبوعة ج ١ ص ٢٧٨) وتحتوى على مائة وثلاث وتسعين ترجمة ، معظمها من حرفى الميم والياء ، وقد اختلطت بها تراجم من أحرف أخرى مثل الألف والحاء ، وتنتهى بترجمة يحيى بن أصبغ بن السمح الفهرى فى ص ٣٤٠ .

وقد راجعنا عدة تراجم من النسخة المطبوعة من الإحاطة من الجزأين الأول والثانى ، على نظائرها فى هذا المخطوط المغربى ، فتبين لنا بوضوح : أولا أن هذه المجموعة عبارة عن قطع متناثرة ليست كلها موصولة ولا متتالية ، وثانياً أنها بلا ريب قطعة مما يعرف « بمختصر الإحاطة » لما ثبت من أنه يوجد بالنسخة المطبوعة ، زيادات كثيرة عما أثبت فيها ، وثالثاً أن هذه القطع المتناثرة تدخل فى أجزاء كتاب الإحاطة الأول والثانى والثالث . بيد أننا تبينا فى الوقت نفسه أن هذه النسخة المغربية تحتوى على بضعه تراجم موجزة لم ترد فى المخطوطات الأخرى ، وأنها فيما تضمنته أقرب إلى الصحة ، وأقل فى التحريف ، وأنها تحتوى أحياناً على زيادات وتصحيحات مفيدة .

— ٢ —

ولنعرض الآن إلى نسخ الإحاطة الموجودة خارج مصر :

إن النسخة الوحيدة الكاملة المعروفة من الإحاطة أو بالحرى من « مختصر الإحاطة » هى النسخة المحفوظة بمكتبة جامع الزيتونة بتونس ، وقد نقلت عن هذه النسخة نسخ عديدة ، ومنها نسخة كاملة بأجزائها الثلاثة نقلت على يد العلامة المستشرق الأسبانى فرنسيسكو كوديرا برسم مكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمدريد ، وهى ما زالت تحتفظ بها الى اليوم . وقد قمنا بدراستها عوضاً عن نسخة تونس ، إذ هى فى الواقع تامة المطابقة .

وعلى ذلك فسوف نتحدث مباشرة عن نسخ الإحاطة الموجودة بمكتبات اسبانيا ، وهى تحتفظ منها بعدة قطع هامة . وقد عنى المستشرق الأسبانى بونس بويجس بتعداد هذه المخطوطات ووصفها فى كتابه « معجم فهرسى للمؤرخين والجغرافيين الأندلسيين »(١) . ولم يتغير الوضع بالنسبة لعدد هذه المخطوطات أو حالتها منذ صدور معجم بويجس ، أعنى منذ نحو نصف قرن ، وهذا ما انتهينا إليه بدراستنا للمخطوطات المشار إليها .

ويوجد من مخطوطات الإحاطة فى المكتبات الأسبانية ثلاث مجموعات هى :

أولا — يوجد فى مكتبة أكاديمية التاريخ الملكية مخطوطان .

ثانياً — يوجد فى مكتبة دير الإسكوريال الملكية قطعتان مخطوطتان .

ثالثاً — يوجد فى المكتبة الوطنية بمدريد قطعتان هما فى الواقع نسختان منقولتان عن قطعتى مكتبة الإسكوريال الأصليتين .

---

(١) F. Pons Boigues: Ensayo Bio-Bibliogràfico sobre los Historiadores y Geografos Aràbigo-Espanoles (Madrid 1898) p. 334-347.

المجموعة الأولى

بمكتبة أكاديمية التاريخ

(١) نسخة كوديرا :

تحتفظ مكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمدريد Biblioteca de la Real Academia de Historia أولا بنسخة مخطوطة كاملة من كتاب الإحاطة ، وثانياً بمجلد مخطوط يحتوى على السبعة الأسفار الأولى من الإحاطة ؛ والنسخة الأولى تقع فى ثلاثة مجلدات ، وتحفظ بمكتبة الأكاديمية برقم XXXIV . وقد جاء فى المذكرة الخاصة بها أنها نسخت بمدينة فاس من نسخة مسجد تونس منذ أربعين سنة ، ونسخة مسجد تونس هى نسخة مكتبة جامع الزيتونة التى سبقت الإشارة إليها .

وقد قام باستنساخ هذه النسخة العلامة كوديرا أستاذ اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة مدريد وعضو أكاديمية التاريخ ، وذلك فى أواخر القرن الماضى ضمن مجموعة أخرى من الكتب المخطوطة قام باستنساخها برسم مكتبة الأكاديمية خلال رحلة قام بها فى شمال إفريقية لهذا الغرض ، ولهذا لانرى بأساً من أن نسمى هذه النسخة بمخطوط كوديرا[١] .

ويحتوى المجلد الأول من هذه النسخة على ١٩٨ ورقة (وهى تقابل ١٨٠ ورقة من المخطوط الأصلى) . وينتهى هذا المجلد بترجمة « محمد بن يوسف بن إسماعيل ابن فرج بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر » فى الورقة ١٨٠ (ا) . وتشغل هذه الترجمة حتى نهاية المجلد فى الورقة ١٩٨ (ا) . وتأتى هـذه الترجمة فى بداية الجزء الثانى من نسخة القاهرة المطبوعة .

---

(١) راجع تقرير العلامة كوديرا عن مهمته العلمية فى تونس والجزائر :
Misiòn Historica en Argelia y Tunez (Madrid 1872) p. 174 & 175

وقد راجعنا محتويات هذا الجزء الأول من مخطوط كوديرا على محتويات نظيره المطبوع فى القاهرة باباً باباً وترجمه ترجمة ، فألفيناها جميعاً متطابقة من حيث الوضع والترتيب والنص . وألفينا المطبوع يحتوى على ترجمة واحدة لم ترد فى المخطوط وهى ترجمة « أبى بكر المخزومى الأعمى المُدَوّرى » (ص ٢٥٩ — ٢٦٢)

ويلاحظ أيضاً أن هذا الجزء يزيد عن الجزء الأول المخطوط بمكتبة الأزهر صفحة ونصف حيث ينتهى مخطوط الأزهر فى ص ١٩٧ منه .

ويحتوى المجلد الثانى من مخطوط كوديرا على ١٦٩ ورقة . ويبدأ بالعبارة الآتية : « أما بعد حمد الله الذى لانشرك به أحداً ، ولا نجد من دونه ملتحدًا ، يبتلى قلوب المؤمنين أيها أقوى جلدًا ، وأبعد فى الصبر مدًى ». وترد هذه العبارةفى ص ٣٢ من الجزء الثانى من المطبوع ، فى بداية نداء كتبه ابن الخطيب على لسان السلطان أبى الحجاج يوسف .

هذا وقد راجعنا محتويات الجزء الثانى ، من المخطوط ، على نظائرها فى المطبوع فوجدنا المطابقة تامة دون نقص ولا زيادة .

وينتهى هذا الجزء الثانى بترجمة « محمد بن قاسم بن احمد بن إبراهيم الأنصارى » فى الورقة ١٦٧ (ا) .

أما الجزء الثالث من مخطوط كوديرا فهو أكبرها وهو يحتوى على ٢١٨ ورقه ، ويبدأ بترجمة « محمد بن محمد بن حسان الغافقى » . وينتهى بترجمة « يحيى بن إبراهيم ابن عيسى البرغواطى »

وهو ينتهى فى الواقع فى الورقة ١٨٧ (ب) . ويختتمه الناسخ بهذه العبارة : « كمل مختصر الإحاطة بحول الله تعالى وقوته ». ثم تأتى بعد ذلك ترجمة ابن الخطيب لنفسه وتفتتح على النحو الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً . يقول مؤلف هذا الديوان تغمد الله خطله فى ساعات أضاعها ، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها ، وأوقات الاشتغال بما لا يعنيه استبدل بها اللهو لما باعها » . وتستغرق ترجمة ابن الخطيب بقية المخطوط حتى نهايته .

ثم يختتم المخطوط بهذا البيت :

إذا لم يكن منى لنفسى زاجرا   فياليت شعرى كيف أفعل فى أخرتى

وتليه العبارة الآتية : « انتهى كتاب الإحاطة » .

وظاهر من العبارة التى وردت بالمخطوط قبل ترجمة مؤلفه ، أن الأمر يتعلق هنا بمختصر لكتاب الإحاطة .

وهذا ما انتهى إليه العلامة كوديرا منذ نصف قرن إذ يقول عن هذه النسخة فى تقريره الذى كتبه عن رحلته فى شمال إفريقية : « يبدو أن الكتاب كامل ، ولست أدرى إذا كان هذا مختصراً « compenido » كما هو مذكور في نهاية الجزء الثالث ، حيث جاء فى ظهر الورقة ١٨٧ منه « كمل مختصر الإحاطة » ، و بمقارنة المقدمة و بعض تراجم بنظائرها فى نسخة السنيور جاينجوس — وسوف نتحدث عنها بعد — لم توجد فروق ذات شأن ، مما يدل على أنه توجد ثمة عدة مختصرات لهذا المؤلف . وقد ذكر السيوطى فى تراجم النحاة أنه رجع إلى هذا الكتاب وأنه يحتوى على ثمانية مجلدات ، فى حين أن مخطوطنا يتكون فقط من ثلاثة ليست كبيرة الحجم ، وهذا مما يوحى بأن هذا المخطوط هو مختصر ولكنه أوفى من المختصرات المعروفة »[1] .

(٢) نسخة العلامة جاينجوس .

وتحفظ بمكتبة الأكاديمية برقم CXLII وهو ضمن مجموعة العلامة المستشرق

---

(١) راجع المعجم : Pons Boigues; ibid., p. 542 ، وتقرير العلامة كوديرا المشار إليه Mision Historica, p. 174-175

دون پاسكوال جاينجوس « Gayangos » مترجم الجزء التاريخى من كتاب « نفح الطيب » إلى اللغة الإنجليزية[١] وهومن أعظم المستشرقين الأسبان فى القرن الماضى . وكان أيضاً عضواً فى أكاديمية التاريخ .

وقد عنينا بدراسة هذه النسخة عناية خاصة لقدمها وأهميتها . وهى عبارة عن مجلد كثيف يحتوى على مائتين وتسعين ورقة ، أعنى ٥٨٠ صفحة ، فى كل صفحة ٢١ سطراً ، فى كل سطر ١٥ كلمة . وقد كتبت بخط أندلسى قديم ولكن مستقيم واضح ، وفى نهايته عدة أوراق مخرمة وتالفة ، ولا تحمل الصفحة الأولى من المخطوط عنواناً ولكنه يبدأ فى الصفحة الثانية على النحو الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

« قال الشيخ الأديب البارع

« أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب »

ويختتم المخطوط بالعبارة الآتيـة : « انتهى الجزء الأول بحمد الله وحسن عونه ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً ، على يد عبيد الله المقصر فى حقه الراجى رحمته ، يحيى بن عثمان بن على ، تاب الله عليه ، يوم الأربعاء السادس لصفر عام كتبه (أو هى كلمة غير واضحة) » . ويبدو على أى حال أن المخطوط قديم يرجع على الأقل إلى أواخر القرن التاسع . ويعتقد المستشرق پونس بويجس أنه كتب فى سنة ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م) .

وينتهى الجزء الأول من مطبوع القاهرة فى الورقة ١٤٩ (ب) من مخطوط جاينجوس ، وينتهى الجزء الثانى من المطبوع فى الورقة ٢٦٣ (ب) منه ؛ ومعنى ذلك أن المخطوط يضم عدا الجزءين المطبوعين ٢٧ ورقة أخرى ، أعنى ٥٤ صفحة .

وينتهى هذا المخطوط بترجمة « محمد بن على بن شامخ الأمين » . وهذه الترجمة ترد

---

(١) وعنوان هذه الترجمة الإنجليزية هو :
History of the Mohamedan Dynasties in Spain; 2. V. (London 1840-1843)

فى الورقة ١٦١ (ب) من الجزء الثانى من مخطوط كوديرا ، ومعنى ذلك أن مخطوط جاينجوس يضم الجزء الأول كله ومعظم الجزء الثانى من مخطوط كوديرا أو مخطوط جامع الزيتونة .

و بمقارنة بعض التراجم فى مخطوط كوديرا بنظائرها فى مخطوط جاينجوس، وجدت فروق بسيطة من إسقاط بعض كلمات أو إضافة غيرها ، ولا سيما فى المخطوط الأخير .

ويوجد فى أول المخطوط فهرس لموضوعاته وما يتضمن من التراجم ، والظاهر أنه مكتوب بخط العلامة جاينجوس .

وقد حصلنا بموافقة أكاديمية التاريخ على نسخة فتوغرافية كاملة لهـذا المخطوط نظرًا لأهميته وقدمه ، وسلامة نصوصه ، وما يتضمن من إضافات قيمة . ورأينا أن يكون الى جانب الجزء الأول من مخطوط دار الكتب ، كلاهما أصل مقارن للنشر .

المجموعة الثانية

بمكتبة دير الإسكوريال

ويوجد بمكتبة دير سان لورنزو الملكية بالإسكوريال Real Biblioteca del Monasterio de San Lorenzo de El Escorial وهى مثوى تراث الأندلس الفكرى، قطعتان من كتاب الإحاطة : إحداهما أقدم قطعة انتهت منه إلينا .

وتحمل إحدى القطعتين رقم ١٦٦٨ من فهرس ميخائيل الغزيرى (ج ٢ ص ٧١) (ورقمها الحالى ١٦٧٣) . وتحمل الثانيـة رقم ١٦٦٩ (ج ٢ ص ١١٨) من فهرس الغزيرى (ورقمها الحالى ١٦٧٤) .

أما الأولى وهى رقم ١٦٧٣ فهى أكبر قطعة وصلتنا من الإحاطة ، وهى عبارة عن مجلد ضخم يقع فى خمسمائة صفحة كبيرة الحجم، فى كل صفحة ٣٢ سطراً وفى كل سطر ١٥ كلمة

وقد كتبت بخط أندلسى واضح ، وكتبت أسماء أصحاب التراجم بخط كبير أسود .

وقد كتبت على صفحة العنوان من هذا المخطوط ما يأتى :

« هذا السفر الثانى من مختصر الإحاطة » .

وفى وسط هذه الصفحة ما يأتى :

« الحمد لله تملكه عبد الله تعالى زيدان أمير المؤمنين ابن أحمد .

المنصور أمير المؤمنين الحسنى خار الله له ولوالديه ولجميع المسلمين » .

وإذن فقد كان هـذا الجزء من الإحاطة أو مختصر الإحاطة ضمن مكتبة مولاى زيدان سلطان مراكش[١] ، وهى المكتبة الشهيرة التى ظفر بها البحارة الأسبان فى سفينة مغربية كانت مشحونة بها وبتحف أخرى لمولاى زيدان فى سنة ١٦١٤م ، وأودعت محتوياتها مكتبة الإسكوريال الملكية . وما زالت مكتبة الإسكوريال تضم إلى يومنا عدداً كبيراً من المخطوطات الأندلسية المغربية التى كانت تضمها مكتبة مولاى زيدان وتحمل اسمه ، وبعضها مكتوب بخطوط مذهبة ومجلد بجلود فاخرة .

وتبدأ الصفحة الأولى من هذا المجلد بالعبارة الآتية :

« ومن السفر السابع المفتتح بقوله ،

ومن الطارئين منهم فى هذا الباب » .

ثم تليها أولى التراجم فى هذا القسم ، وهى ترجمة محمد بن أحمد بن محمد أبى خيثمة الجبائى . ويلاحظ أن مخطوط المكتبة الوطنية المنقول عن هذه القطعة ، يبدأ بترجمة محمد بن أحمد الحداد الوادياشى ، وهذه الترجمة تأتى فى اللوحة التاسعة من مخطوط الإسكوريال .

وينتهى السفر السابع المشار إليـه فى بداية المخطوط فى اللوحة نمرة (١٠٥) حيث جاء فيها :

(١) حكم مولاى زيدان مراكش من سنة ١٦٠٨ حتى وفاته فى سنة ١٦٢٧ م .

« انتهى ما قيده صاحبنا رحمه الله مما ألفاه بخط الأستاذ المذكور ، وعلقته أنا هنا فى هذا السفر صوناً له وعناية به » . ويبدأ السفر التالى فى اللوحة ١٠٦ حيث جاء فيها : « ومن السفر الثامن فى ترجمة المقربين والعلماء » .

ويختتم هذا المجلد بترجمة « يحيى بن إبراهيم بن يحيى البرغواطى » فى ص ٤٢٥ ، وفى بداية هذه الصفحة توجد عبارة الاختتام وهى : « كمل كتاب الإحاطة » .

ثم يلى ذلك ترجمة ابن الخطيب لنفسه . وتستغرق هذه الترجمة من ص ٤٢٥ إلى ص ٤٩٩ ، ويضيف إليها الناسخ تكملة من تاريخ ابن خلدون فى محنة ابن الخطيب ووفاته . ثم يختتم المخطوط كله بما يلى :

« انتهى من السفر الأخيرمنه حيث عرف بنفسه وشيوخه رحمة الله على الجميع » ، « قلت وهنا انتهى ما قصدناه وتم بحول الله ما أردناه واستوفيناه واستلحناه . وذلك بغرناطة ، أقالها الله وصانها ، وعمر بالعلماء الأعلام وصالحى الإسلام عمرانها ، وبتاريخ أوايل شهر ربيع الآخر عام خمسة وتسعين وثمانمائة ، والحمد الله على عباده الذين اصطفى » .

وفى هذه العبارة الختامية ما يدعو إلى التأمل . ذلك لأن تاريخ الانتهاء ، من كتابه المخطوط ، وهو ربيع الآخر سنة ٨٩٥ هـ . يوافق مارس سنة ١٤٩٠ م . وهى فترة مزعجة فى تاريخ مملكة غرناطة ، إذ كانت الجيوش القشتالية بقيادة الملكين الكاثوليكين — فرديناند وإيسابيلا — تهاجم قواعد الأندلس الأخيرة عندئذ ، وتسقط هذه القواعد تباعاً فى يد النصارى . وكانت أهم القواعد الأندلسية الباقية قد سقطت بالفعل فى أيديهم : رندة فى جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ . ومالقة فى شعبان سنة ٨٩٢ هـ . وبسطة فى المحرم سنة ٨٩٥ هـ . وكان مصير غرناطة يهتز يومئذ فى يد القدر. وفى هذه الفترة الحرجة كتب المخطوط، وتدلى عبارة الكاتب « وذلك بغرناطة أقالها الله وصانها » بما كان يشعر به أهل غرناطة يومئذ من ضروب التوجس والجزع

على مصير غرناطة ومصايرهم . وقد سقطت غرناطة بالفعل فى يد النصارى بعد ذلك بقليل فى يناير سنة ١٤٩٢ م . وانتهت بسقوطها دولة الإسلام فى الأندلس .

هذا وقد نقل العلامة ميخائيل الغزيرى واضع فهرس الإسكوريال ، فى فهرسه ، نبذاً كثيرة من مخطوط الإحاطة تشغل نحو خمسين صفحة (ج ٢ ص ٧٠ — ١٢٠) .

وأما القطعة الثانية وهى رقم ١٦٧٤ فهى صغرى القطعتين ، وتقع فى ١٩٥ صفحة من الحجم الكبير فى كل صفحة ٢٢ سطراً ، وفى كل سطر ١٥ كلمة ، ومكتوبة بخط أندلسى واضح ، ولكن أوراقها قديمة جداً ، وكثير منها قد محيت أجزاؤها العليا أو كادت ، وليس للقطعة بداية ولا نهاية ، ولكنها تبدأ بالعنوان الآتى : « المقرئون الأصليون » ثم بترجمة « موسى بن عبد الرحمن بن يحيي العربى الحميرى من أهل غرناطة » .

وتحتوى فى مختلف أبوابها على تراجم تبلغ زهاء المائة والخمسين ، معظمها من حرف العين — وتنتهى بها بترجمة « عبد الواحد بن الخليفة يعقوب بن الخليفة محمد عبد المؤمن بن على »

ويختتم المخطوط بالعبارة الآتية :

« تم هذا السفر بحمد الله تعالى وحسن عونه بتاريخ الخميس

« خامس عشر لشهر رمضان المعظم من عام ست وثمان مائة

« عرف الله المسلمين خيره و بركته وفضله » .

وعلى ذلك فإن هذه القطعة المخطوطة من كتاب الإحاطة ، هى أقدم قطعة وصلتنا منه ، إذ أنها كتبت بعد وفاة مؤلف الكتاب فى سنة ٧٧٦ هـ . بثلاثين عاماً فقط .

المجموعة الثالثة

بمكتبة مدريد الوطنية

تحتفظ مكتبة مدريد الوطنية ، بقسم المخطوطات ، بنسخة خطية من قطعتى كتاب الإحاطة المحفوظتين بمكتبة الإسكوريال . وقد قام بكتابة هذه النسخة فى أواخر القرن الثامن عشر ، المستشرق الأسبانى خوان آمون دى سان خوان ، كما قام بنسخ مخطوطات كثيرة أخرى توجد اليوم بالمكتبة الوطنية .

وتتألف هـذه النسخة التى كتبت بخط عربى أوربى واضح ، أولا من مجلدين كبيرين يضمان القسم الأول من مخطوط الإسكوريال ، وهو القسم الكبير ، وقد سمى هذا القسم فى فهرس المكتبة الوطنية بكتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، وذكر فى التعريف به أنه نقل من مخطوط الإسكوريال، وأن هذا القسم يبدأ بترجمة « محمد بن أحمد بن الحداد الوادياشى » وينتهى بترجمة « يحيى بن إبراهيم البرغواطى » ويشغل ذلك حتى صفحة ٨١٥ من المخطوط ، ثم ينتهى بترجمة ابن الخطيب وهى تشغل من ص ٨١٥ حتى ص ٩٤٥ .

وذيل هذا التعريف بهامش جاء فيه أن الدون جاينجوس ، يملك مخطوطاً يحتوى على السبعة الأسفار الأولى من الإحاطة من حرف الألف حتى حرف الميم [١] .

وقد راجعنا أوائل الأسفار فى هذه النسخة لوضوحها ، ولأن لها فهرساً كتبه ناسخها المذكور ، فألفينا أن السفر السابع ينتهى بترجمة « محمد بن أحمد بن داود بن موسى بن مالك اللخمى » وقد ذيلت بالعبارة الآتية :

« انتهى ما اختصرته من السفر السابع من كتاب الإحاطة فى تاريخ غرناطة يتلوه فى

---

(١) يراجع فهرس المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية بمدريد ص ١٣ ، وقد رقمت نسخة الإحاطة فيه برقم 92-4891 .

السفر الثامن بعده إن شاء الله، ومن السفر الثامن من ترجمة المقر بين والعلماء رحمهم الله».

ثم « ومن السفر الثامن من ترجمة المقر بين والعلماء » أوله « محمد بن أحمد بن محمد بن على الغسانى من أهل مالقة ، يكنى أبا القاسم ويعرف بابن حفيد الأمين » .

ثم « ومن السفر التاسع من ترجمة القضاة من حرف الميم » .

ثم « ومن السفر العاشر ، العمال الأثرا فى هذا الحرف » .

وينتهى المجلد الأول فى صفحة ٥١٧ ويستطرد الترقيم فى المجلد الثانى ؛ وتقرأ فى صفحة ٦٥٣ منه ما يأتى :

« ومن السفر الحادى عشر من ترجمة الطارئين فى ترجمة العمال الأثرا »

ثم ، وفى صفحة ٨٠٠ ما يأتى : « ومن ترجمة الشعراء من السفر الأخير ، وهو الثانى عشر » . وينتهى كما قدمنا بترجمة يحيي البرغواطى ، ثم بترجمة ابن الخطيب لنفسه ، حيث ينتهى المخطوط بنهايتها فى صفحة ٩٤٥ .

وينقل الناسخ تاريخ كتابة النسخة الأصلية فى نهايتها، وهو كما قدمنا سنة ٨٩٥ هـ.

وأما القطعة الأخرى من مخطوط المكتبة الوطنية فهى نسخة من القسم الثانى من مخطوط الإسكوريال وهو القسم الأصغر ، ولكنه يسمى فى فهرس المكتبة الوطنية « كتاب التكملة » لابن الخطيب . ومذكور فى التعريف به أنه « يعتبر تكملة للإحاطة »[١]. ويقع هذا القسم فى ١٦١ صفحة ويحتوى على مجموعة من التراجم تبدأ كما قدمنا فى شأن مخطوط الإسكوريال بترجمة « موسى بن عبد الرحمن بن يحيي العربى الحميرى » وفى هذا القسم يبدو التباين فى الأبواب وفى التراجم واضحاً . وينتهى المخطوط بترجمة « عبد الودود بن عبد الرحمن بن علىّ بن عبد الملك الهلالى نزيل لواته » . وهى ترد بعد ترجمة « عبد الواحد بن الخليفة يعقوب » التى يختتم بها مخطوط الأسكوريال مما يدل على انه قد فقدت من هذا المخطوط ورقة من نهايته .

---

(١) يظهر أن وصف « التكملة » هذا قد نقل عن وصف الغزيرى لنفس القطعة المخطوطة بالإسكوريال وهو "Suplementum" (راجع فهرس الغزيرى ج ٢ ص ١١٨)

وقد عنينا بدراسة مخطوط المكتبة الوطنية بالرغم من أنه ليس إلا نسخة مطابقة لمخطوط الإسكوريال لأسباب: منها أنه كتب فى وقت كان فيه مخطوط الإسكوريال أكثر جدة ووضوحاً ، وأنه قد حفظ لنا مخطوط الإسكوريال بطريقة واضحة ، بعد أن أصاب التلف والتخريم كثيرًا من صفحاته ، وأنه فوق ذلك يمتاز باحتوائه على فهرس التراجم والصفحات من وضع ناسخه ، مما يسهل سبل البحث والمقارنة فيه .

(٣)

والآن بعد أن استعرضنا سائر المخطوطات التى انتهت إلينا من كتاب الإحاطة نستطيع أن نجمل نتائج هذا البحث فيما يلى :

أولا — أن هذه المخطوطات كلها ، سواء منها النسخة الكاملة أو أجزاؤها المختلفة توسم كلها « بمختصر الإحاطة » وليس بكتاب الإحاطة الأصلى .

ثانياً — أن مخطوط جاينجوس ومخطوطى الإسكوريال تكمل بعضها بعضاً بطريقة لا بأس بها .

ثالثاً — أنه لا توجد فروق كبيرة أو جوهرية بين محتويات هذه النسخة ، ومحتويات النسخة الكاملة التى توجد بتونس ، والتى توجد نسختها فى مكتبة أكاديمية التاريخ .

رابعاً — أن أقدم قطعة وصلتنا من كتاب الإحاطة هى مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٤ وهى أصغر القطعتين ، إذ كتبت فى سنة ٨٠٦ ﻫ أعنى بعد وفاة المؤلف بثلاثين عاماً فقط .

وهنا تعرض أهم نقطة فى هذا البحث ، وهى ما قيمة هذه المختصرات التى انتهت إلينا من كتاب الإحاطة بالنسبة للمؤلف الأصلى ؟ وما هو مدى الفروق التى توجد بين المختصر والنسخة الكاملة ؟

نعتقد أننا نستطيع على ضوء بعض المقارنات أن نصل إلى تقرير هـــذه الحقائق بصورة واضحة .

وتشمل هذه المقارنات أولا بعض مؤلفات ابن الخطيب الأخرى التى وصلت إلينا كاملة ، وتشمل ثانياً عدداً من التراجم التى نقلها المقرى بنصها الأصلى من كتاب الإحاطة الكامل .

فأما عن حجم كتاب الإحاطة الكامل ، فقد ذكر لنا المقرى عنه روايتين ، الأولى أنه يقع فى ثمانية مجلدات ، والثانية أنه يقع فى ستة ، ولكنه لم يذكر لنا ما هو حجم هذه المجلدات بالتفصيل[١] . وذكر لنا ابن الخطيب فى ترجمته لنفسه بيان مؤلفاته ، وذكر لنا أحجام بعضها مقدرة « بالأسفار » لا بالمجلدات وذلك على النحو الآتى :

(١) كتاب الإحاطة فى خمسة عشر سفراً .

(٢) كتاب ريحانة الكتاب فى أسفار ثمانية .

(٣) كتاب نفاضة الجراب فى أربعة أسفار[٢] .

والظاهر أن الأسفار التى كان ابن الخطيب يقسم إليها بعض مؤلفاته كانت تتردد فى أحجام متقاربة ، ولكل كاتب فى الواقع خطة يجرى عليها فى تقسيم مؤلفاته ، تستقر مع الزمن ، ثم تغدو من خصائص مؤلفاته .

وقد انتهت إلينا عدة من كتب ابن الخطيب كاملة بنصها الأصلى ، ومن بينها « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » و « نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب » وكلاهما يوجد كاملا فى مكتبة الإسكوريال .

فأما «ريحانة الكتاب» فهو مجلد ضخم يقع فى٢٨١لوحة كبيرة أعنى ٥٦٢ صفحة فى كل صفحة ٢٧ سطراً وفى كل سطر ١٢ كلمة ، ومكتوبة بخط أندلسى باهت ،

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٥ و ٧٥٧ .

(٢) ورد ذكر مؤلفات ابن الخطيب وبيان الأحجام لبعض منها فى مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ، ص ٤٣٣ .

ومذكور فى نهايتها أنها كتبت فى سنة ٨٨٨ هـ . وفيه يختار ابن الخطيب شذوراً من كتبه السابقة ثم يورد عدداً كبيراً من الرسائل التى كتبها عن السلاطين الذين خدمهم بالأندلس والمغرب . ولما كان هذا المؤلف يتكون وفقاً لقول مؤلفه ابن الخطيب من ثمانية أسفار فمعنى ذلك أن السفر الواحد يضم سبعين صفحة(١) .

وأما كتاب « نفاضة الجراب » فيقع فى ١٥٩ لوحة أعنى ٣١٨ صفحة فى كل صفحة ١٩ سطراً ، وفيه يقص ابن الخطيب بعض أخباره ورحلاته خلال إقامته منفياً فى المغرب ، ويفصل بعض حوادث الأندلس التى وقعت أثناء غيابه ، ثم يورد بعض رسائله وقصائده . وقد ذكر لنا ابن الخطيب أن « نفاضة الجراب » يقع فى أربعة أسفار ومعنى ذلك أن السفر منه يحتوى على ٨٠ صفحة ، ويلاحظ أن صفحات هذا الكتاب أصغر حجماً من صحف « ريحانة الكتاب »(٢) .

ولما كان كتاب الإحاطة الكامل يتكون وفقاً لقول مؤلفه من خمسة عشر سفراً فمعنى ذلك — وعلى ضوء مقارنته بكتابى ريحانة الكتاب ونفاضة الجراب — أنه يجب أن يحتوى على نحو ألف ومائة أو ألف ومائتى صفحة كبيرة .

وما نملكه نحن من كتاب الإحاطة يمكن أن نصنفه إلى مجموعتين كاملتين .

الأولى — مخطوط جاينجوس بمكتبة أكاديمية التاريخ ، وهو يحتوى على الأسفار الستة الأولى وبداية السفر السابع ويقع فى ٥٨٠ صفحة كبيرة ، وينتهى فى صفحة ٤٩٠ إلى بداية قطعة الإسكوريال الكبيرة ، ثم تكملة هذه القطعة التى تحتوى على ٥٠٠ صفحة كبيرة ، ومجموع هذه الصفحات هو ٩٩٠ صفحة .

الثانية — نسخة جامع الزيتونة بتونس ، وهى التى نقلت عنها نسخة أكاديمية التاريخ فى ثلاثة أجزاء تحتوى على التوالى على ١٩٨ و١٦٩ و٢١٨ لوحة

---

(١) يحمل هذا المخطوط رقم ١٨٢٥ بمكتبة الإسكوريال ، وتوجد منه قطعة كبيرة بمكتبة الفاتيكان بروما .

(٢) يحمل هذا المخطوط رقم ١٧٥٥ بمكتبة الإسكوريال .

ومجموعها ٥٨٥ ورقة أعنى ١١٧٠ صفحة من القطع المتوسط ، فلو اختصرناها إلى الثلثين لـكانت ٧٨٠ صفحة كبيرة .

وعلى ضوء هذه المقارنة ، يبدو لنا أن كتاب الإحاطة كما وصل إلينا عن طريق المخطوطات السابقة ، و باعتباره (مختصراً) للمؤلف الأصلى ، هو مختصر واف ، وأنه من ناحية الحجم ، لا يكاد ينقص عن الأصل الكامل ، أ كثر من الربع أو الخمس .

وقد راجعنا فضلا عن ذلك عدة تراجم مما نقل المقرى فى كتاب نفح الطيب ، وهو ينقل من نسخة الإحاطة الـكاملة ، بنظائرها فى القسم المطبوع ، وهو مأخوذ عن مختصر الإحاطة ، فانتهينا إلى أنه لا تـكاد توجد من حيث النص أو الحجم أية فروق ذات شأن و إليك بعض الأمثلة :

(١) بمقارنة ترجمة المقرى (جد المؤرخ) وهو محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر ابن علىّ بن عبد الرحمن التى وردت فى نفح الطيب (ج ٣ ص ١١٢ — ١١٨) بنظيرتها فى « الإحاطة » (الإحاطة المطبوع ج ٢ ص ١٣٦ — ١٤٣) ألفيناهما متطابقتين حتى ذكر شيوخ المترجم ، ثم اختلف القول بين تقديم وتأخير . ثم راجعنا القصائد التى نقلها نفح الطيب من الإحاطة الأصلية (ج٣ ص ١٧١—١٧٣) بنظائرها فى الإحاطة (ج ٢ ص ١٤٦ — ١٥٦) فألفيناها مطابقة كذلك .

(٢) بمقارنة ترجمة ابن الحاج ، وهو أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم ابن قاسم النميرى الواردة فى نفح الطيب (ج ٤ ص ٦٥٩) بنظيرتها فى الإحاطة (ج ١ ص ١٩٣ وما بعدها) ألفيناها ملخصة فى نفح الطيب بطريقة مخلة فى حين أنها وردت كاملة فى الإحاطة .

(٣) بمقارنة ترجمة الوزير ابن زَمرك ، وهو محمد بن يوسف بن محمد الصريحى الواردة فى نفح الطيب (ج ٤ ص ٦٧٩ وما بعدها) بنظيرتها الواردة فى الإحاطة

(ج ٢ ص ٢٢١ وما بعدها) ألفينا الترجمتين متطابقتين فى النص ، وكذلك فى الشعر الوارد فى كل منهما ، مع زيادة مفيدة فى الإحاطة المطبوعة (ج ٢ ص ٢٣٤) ، ومع زيادة قطعة نثرية كبيرة فى الإحاطة أيضاً (ج ٢ ص ٢٣٧ — ٢٤٠) .

(٤) بمقارنة ترجمة المؤرخ ابن خلدون الواردة فى نفح الطيب (ج ٤ ص ٤١٤ — ٤٢٦) بنظيرتها الواردة فى مخطوط الإحاطة (الجزء المصور بدار الكتب لوحة ١٥٦ — ١٦٢) وجدناهما من حيث تاريخ المترجم متطابقتين مع فروق يسيرة فى بعض عبارات وكلمات ناقصة أو زائدة فى هذه الترجمة أو تلك ، ومع احتواء المخطوط على فقرة من عشرة أسطر عن حياه ابن خلدون فى بجاية وخدمته لأميرها ثم لأمير تونس لم تنقل فى نفح الطيب ، ثم احتواء نفح الطيب على قصيدتين كبيرتين لابن خلدون هما قصيدة «أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى» من أربعة وخمسين بيتاً ، وقصيدته فى وصف هدية ملك السودان لملك المغرب وهى فى ست وثلاثين بيتاً .

ويبدو من هذه المقارنات أيضاً أنه لا توجد فى معظم الأحيان بين النصوص فروق جوهرية ، وأنه إذا كانت توجد أحياناً فى النصوص المطبوعة المنقولة عن النسخة الأصلية أو المطولة بعض زيادات ، فإنه توجد أحياناً أمثالها زائدة فى النصوص المخطوطة .

والخلاصة أن الدلائل كلها تدل على أننا ، بما وصل إلينا من مخطوطات كتاب الإحاطة أو مختصر الإحاطة ، نضع أيدينا على معظم محتويات النسخة الأصلية ، وأننا لم نفقد كثيراً من نصها الأصلى .

* * *

ولا بد لنا أن نشير فى النهاية إلى السبب الذى يدعونا أن نقوم بنشر كتاب الإحاطة كله من جديد فى حين أنه قد نشر منه فى سنة ١٣١٩هـ (١٩٠١م) أعنى منذ أربعة وخمسين عاماً ، جزءان بمدينة القاهرة (عن شركة طبع الكتب العربية)

أولهما فى ٣٧٥ صفحة والثانى فى ٣١٣ صفحة ، وهو ما يستغرق القطعة المخطوطة بدار الكتب (الجزء الأول من المطبوع) وقسما من الجزء الثانى ، من مخطوط جامع الزيتونة ؛ أو بعبارة أخرى مايستغرق الجزء الأول من نسخة مكتبة الأكاديمية ، ومن الجزء الثانى حتى لوحة ١١٩ وهو يحتوى على ١٦٧ لوحة .

والسبب واضح ، فالقسم الذى نشر ملىء بالأخطاء والتحريف بصورة تدعو إلى الرثاء بحيث يقع هذا التحريف فى كل صفحة من صفحاته بل فى كل سطر من سطوره ، وهذا ما يفقده كثيراً من قيمته ، هذا فضلا عما يتخلله فى أحيان كثيرة من صنوف الاختراع الذى يدنو إلى التزييف . وقد نوه العلامة المستشرق زيبولد بهذا النقص المؤسف منذ أكثر من أربعين عاماً ، وأعرب عن أمله فى أن تنشر من الإحاطة نسخة كاملة مصححة[١]. ثم إن النص المطبوع نقل على علاته من قطعة دار الكتب المخطوطة وجزء منقول عن نسخة تونس مشحون بالأخطاء ، ولم يقم الناشر بأى مقارنة أو تحقيق للنصوص ،ولم يعن بالأخص بتحقيق الأعلام الأندلسية والأسبانية. ولم يقرن النص بأية هوامش أو تعليقات تفسيرية . وهذا ما نعتزم نحن أن نعنى به فى نشر النص الجديد المحقق من الإحاطة ، بصورة تتفق مع ما لهذا الأثر الأندلسى النفيس من أهمية ، ومع ما تتطلبه المناهج العلمية الحديثة من أساليب البحث والتحقيق المقارن .

ابن الخطيب
مؤلف هذا الكتاب

— ١ —

كان القرن الثامن الهجرى فى مملكة غرناطة بالنسبة لدولة التفكير والأدب ، عصر النضج والازدهار ، وفيه ظهرت طائفة من أكابر المفكرين والكتاب

(١) فى مقاله عن ابن الخطيب فى دائرة المعارف الإسلامية .

والشعراء ، الذين أعادوا روعة الأدب الأندلسى فى أعظم عصوره ، أمثال ابن خاتمة شاعر المرّية ، والوزير ابن الحكيم اللخمى ، والوزير ابن الجياب ، والوزير ابن الخطيب ، والوزير ابن زمرك ، وابن لب ، وأبى الحسن النباهى وغيرهم ، حفل بهم هذا العصر ، وزخرت دولة التفكير والأدب بآثارهم التى انتهى إلينا منها الكثير .

وكان ابن الخطيب من بين هذا الحشد الحافل ، أعظم شخصية ظهرت بالأندلس فى القرن الثامن . وكان عبقرية متعددة النواحى ، فهو طبيب ، وفيلسوف ، وهو كاتب وشاعر من الطراز الأول ، وهو مؤرخ بارع ، وهو أخيراً وزير وسياسى ، ثاقب النظر قوى الإدراك .

وقد دون لنا ابن الخطيب ترجمة نفسه كاملة فى كتاب « الإحاطة » ، هذا عدا ما أورده فى سياق الكتاب عن مراحل خدمته السلطانية[(١)] ، وقص علينا كثيراً من حوادث حياته السياسية فى مختلف كتبه الأخرى ، ولا سيما كتاب « اللمحة البدرية » وكتاب « ريحانة الكتاب » الذى يضم كثيراً من رسائله السلطانية . ودون له معاصره وصديقه المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ترجمته فى تاريخه الكبير ، ووصف لنا مأساة مصرعه المؤثر[(٢)] .

وهو لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبد الله [بن محمد بن محمد بن عبدالله][(٣)] بن سعيد بن عبدالله بن سعيد بن على بن أحمد السّلمانى . وأصل بيتهم من قرطبة . وتدل نسبتهم إلى سلمان وهو موضع فى اليمن تنسب إليه بعض البطون القحطانية[(٤)] على أنهم من

---

(١) وردت ترجمة ابن الخطيب لنفسه فى مخطوطة الإسكوريال الكبيرة ص ٤٢٥ حتى ص ٤٩٩ أعنى فى نهاية المخطوط ، كما وردت فى مخطوطة دار الكتب المصورة (رقم ١١٤٢٩ ح) لوحة ١ حتى لوحة ٣٠ ، ونقلها المقرى فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٤ وما بعدها) .

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ — ٣٣٦ و ٣٤١ — ٣٤٢ .

(٣) هذه الزيادة فى النسبة واردة فى نسبة عبد الله بن الخطيب والد لسان الدين فى ترجمته فى مخطوطة دار الكتب المصوره (لوحة ١٣٣) .

(٤) نفح الطيب ج ٣ ص ١٠ .

اليمنية الذين وفدوا على الأندلس عقب الفتح ، واستقروا فى قرطبة . والظاهر أنهم كانوا ينتمون إلى الحزب المعارض للبلاط أيام الحكم بن هشام أمير الأندلس ، فلما حدثت واقعة الربض المشهورة (ضاحية قرطبة) وثار أهل قرطبة بتحريض حزب الفقهاء المعارض للحكم (سنة ٢٠٢ هـ — ٨١٧ م) واستطاع الحكم أن يمزق الثورة ، وأن ينكل بأهل الربض ، غادر قرطبة كثير من المعارضين من الفقهاء وغيرهم ، وكانت منهم أسرة المترجم . رحلت كما يحدثنا ابن الخطيب إلى طليطلة ، واستقرت بها زهاء قرن ونصف . ولما شعرت الأسرة فى أواسط القرن الخامس الهجرى بالخطر يحدق بطليطلة ، وأنها غدت مطمح النصارى ، يدبرون أمرهم للاستيلاء عليها ، غادرتها إلى مدينة لوشة ، التى غدت فيما بعد مسقط رأس ابن الخطيب .

ويحدثنا ابن الخطيب بأن بيتهم كان يسمى ببنى الوزير ، ثم سموا ببنى الخطيب ، وسبب التسمية الأخيرة هو أن جد ابن الخطيب المسمى سعيداً ، وهو أول من استوطن من الأسرة مدينة لوشة كان عالماً ورعاً ، وكان يلقى دروسه ومواعظه تحت ظلال برج يجاور أملاك أسرته ، ويقع على الطريق العام الممتد من غرناطة إلى لوشة ، ثم إلى إشبيلية ، ومن ثم غلب عليه اسم الخطيب ، وأورث اللقب لبنيه فعرفوا ببنى الخطيب من ذلك الحين .

وولد ابن الخطيب فى مدينة لَوْشة[١] فى الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٧١٣ هـ (١٦ نوفمبر سنة ١٣١٣ م) . وتقع لوشة فى غربى مدينة غَرناطة على قيد خمسة وخمسين كيلومتر منها ، وقد كانت أيام الدولة الإسلامية من مدن الأندلس الزاهرة . وسقطت فى يد النصارى خلال حرب غرناطة الأخيرة فى شهر مايو سنة ١٤٨٦ م (٨٩١ هـ) بعد دفاع مجيد . أما اليوم فإن لوشة تغدو مدينة أسبانية متوسطة الحجم ، ذات شوارع كبيرة ، يقوم بعض مبانيها فوق ربوة صخرية عالية ،

---

(١) وتسمى بالإسبانية Loja (لوخا) .

ويقوم البعض الآخر فى منخفض الوادى ، ويخترقها نهر شَنيل من الشمال ، ويقع على مقربة منها بسيط كبير من المزارع والحدائق الغناء ، يمتد حتى سفح الجبال القريبة منها . ويبلغ سكان لوشة اليوم نحو عشرين ألفاً ، وقد كانوا أيام الدولة الإسلامية يبلغون أضعاف هذا العدد .

وتتخذ خطط لوشة الحديثة شكل صليب . وتقع الكتدرائية أو الكنيسة العظمى فى وسطها . ولم يبق فى لوشة اليوم من آثارها الأندلسية القديمة سوى أطلال القصبة القديمة أو القلعة ، وما تزال تقوم فى باطنها بقايا بناء يظن أنه كان مسجداً ، وهى عبارة عن ثلاثة عقود على صفين ، وليست بها أية نقوش أو كتابات ، وقد غدت طللا دارساً يغمره الخراب والعفاء . ويسمى هذا المكان بالجب Aljibi ، وتقول الأسطورة المحلية إنه يحتوى على كنز للمسلمين . وتقع الكتدرائية على مقربة من أطلال القصبة، وفوق موقع المسجد القديم فيما يرجح، وذلك جريا على تقليد السياسة الكنسية الأسبانية ، من إقامة الكنيسة العظمى فى كل بلد أندلسى مفتوح ، على أنقاض المسجد الجامع ، وقد كان المسجد الجامع يقام دائماً فى وسط المدينة .

وقد طفت بأرجاء مدينة لوشة والذكريات تغمر ذهنى ، فألفيتها مدينة مشرقة عامرة ، تتجه أحياؤها من طرفيها إلى الربوة العالية ، وتتجه أحياؤها الوسطى إلى بطن الوادى ، وأحياؤها الجانبية ضيقة الدروب والمسالك على الطريقة الأندلسية ، وشارعها الرئيسى الذى يخترقه الطريق إلى إشبيلية طويل فسيح ، وبه كثير من المتاجر والفنادق والمقاهى .

وكان شبح ابن لوشة العظيم ، ووزيرها العبقرى ابن الخطيب ، يتراءى لى وأنا أجوس خلال دروبها الساحرة . ولكنى لم أستطع مع الأسف أن أظفر بأية آثار أو معلومات تتعلق بحياته أو موقع بيته ، وقد كان استقصاء آثاره جل مقصدى من هذه الزيارة .

* * *

ونشأ ابن الخطيب فى بيت علم وفضل وجاه ، وكان أبوه عبد الله من أكابر العلماء والخاصة ، وهو يترجمه لنا فى الإحاطة(١) . وقد ولد سنة ٦٧٢ هـ واستقر حيناً فى غرناطة ثم عاد إلى لوشة مقر أسرته . ثم عاد إلى غرناطة ليلتحق بخدمة السلطان أبى الوليد إسماعيل ، الذى جلس على عرش غرناطة سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤ م) .

ولما توفى السلطان أبو الوليد قتيلا فى سنة ٧٢٥ هـ ، خدم من بعده ولده السلطان أبا عبد الله محمد ، ثم أخيه السلطان أبا الحجاج يوسف أعظم سلاطين غرناطة . وقد ولى العرش سنة ٧٣٣ هـ . وخدم عبد الله فى ديوان الإنشاء مع الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبى الحسن على بن الجياب ، وأسبغ عليه لقب الوزارة ، ثم توفى قتيلا مع ولده الأكبر أخى لسان الدين فى موقعة طريف الشهيرة(٢) التى هزم فيها المسلمون بقيادة السلطان أبى الحسن المرينى ملك المغرب ، والسلطان أبى الحجاج يوسف ، أشنع هزيمة ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ (أكتوبر سنة ١٣٤٠ م) وسقطت على أثرها طريف والجزيرة الخضراء فى يد النصارى ، وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون فى المغرب والأندلس مثلها منذ بعيد .

ونشأ ابن الخطيب فى غرناطة وتلقى بها دراسته(٣) . ومع أنه نزل بها منذ حداثته فإنه لم ينس قط مسقط رأسه ومرتع طفولته « لوشة » فكانت لها فى قلبه دائماً منزلة « الأم » ، وكان يتغنى بها فى شعره و يسميها « بنت الحضرة »(٤) أى بنت

---

(١) مخطوطة دار الكتب المصورة لوحة رقم ١٣٣ – ١

(٢) وتسمى الموقعة بالإسبانية موقعة « سالادو » لوقوعها على ضفاف النهر المسمى بهذا الاسم والذى يصب فى المحيط شمالى مدينة طريف . وقد غنم الأسبان فى تلك الموقعة علما للسلطان أبى الحسن المرينى ، ما زال يحفظ حتى اليوم بدير برغش الملكى Real Monasterio de las Huelgas ، وقد رأيناه هناك ونقلنا نقوشه .

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ .

(٤) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٧ .

غرناطة ، وأحياناً « فتية » غرناطة[١] . وكانت غرناطة « أو الحضرة » الأندلسية يومئذ أعظم مركز للدراسات الإسلامية فى الغرب الإسلامى ، وكانت مجمع جمهرة من أكابر العلماء والأدباء . ودرس اللغة والشريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر مثل أبى عبد الله بن الفخار الإلبيرى شيخ النحاة فى عصره ، وأبى القاسم محمد بن على الحسنى السبتى ، والمحدث شمس الدين بن جابر الوادى آشى ، وأبى عبد الله بن مرزوق فقيه المغرب الكبير ، والقاضى أبى البركات بن الحاج البلفيقى . وأخذ الأدب والشعر عن الوزير أبى عبد الله بن الحكيم اللخمى ، وعن ذى الوزارتين الرئيس أبى الحسن على بن الجيّاب . وقد وصفه ابن الخطيب فى الإحاطة فى قوله « وهو شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ » ، وعن أبى سعيد فرج بن لب وغيرهم . ودرس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه الشيخ أبى زكريا يحيى بن هذيل واختص بصحبته[٢] ، وبرز فى النظم والنثر منذ حداثته ، وكان أبوه أبو عبد الله بن الخطيب يشغل يومئذ مركزاً فى القصر فى خدمة السلطان أبى الوليد إسماعيل يصفه ابن خلدون بأنه « الإشراف على مخازن الطعام » ، ولكنه تقدم فيما بعد فى الخدمة السلطانية ، وخدم فى ديوان الإنشاء مع الرئيس أبى الحسن الجيّاب ، وكان بارعاً فى النظم والنثر ، ثم توفى قتيلا فى موقعة طريف سنة ٧٤١ هـ مع ولده الأكبر حسبما قدمنا .

وتأثر ابن الخطيب منذ فتوته بهذا الأفق السلطانى ، الذى عاش والده فى كنفه ، وتطلع إلى غزوه . فلما توفى والده سنحت الفرصة المرجوة ، ودُعى للخدمة مكان أبيه ، وكان يومئذ فتًى فى الثامنة والعشرين من عمره . وتولى أمانة السرّ لأستاذه الرئيس أبى الحسن الجيّاب وزير السلطان أبى الحجاج يوسف وكاتبه .

وتلقى ابن الخطيب فى ديوان الإنشاء على يد أستاذه الكاتب الشاعر المبدع

---

(١) ورد ذلك فى ترجمة أسلم بن عبد العزيز الواردة فى هذا المجلد من الإحاطة .

(٢) ترجم ابن الخطيب لشيوخه فى الإحاطة. وقد نقل إلينا المقرى هذه التراجم فى نفح الطيب ج ٣ فى الباب الثالث ص ١٠٤ وما يليها .

ابن الجياب ، أرفع أساليب النظم والنثر فى هذا العصر ، وظهرت براعته فى تدبيج الرسائل السلطانية . ولما توفى ابن الجياب فى الوباء الكبير أو الطاعون الجارف ، فى شوال سنة ٧٤٩ هـ (يناير سنة ١٣٤٩ م) خلفه ابن الخطيب فى الوزارة ، وتقلد ديوان الإنشاء للسلطان أبى الحجاج يوسف ؛ وكان كبير الوزراء يومئذ الحاجب أبو النعيم رضوان . وهنا بزغ نجم ابن الخطيب ، وعظمت منزلته ، وأغدق السلطان عليه عطفه وآثره بثقته ، وجعله كاتب سره ولسانه ، فى المكاتبات السلطانية ، وصدرت منها بقلم ابن الخطيب يومئذ طائفة من أبدع الرسائل الملوكية التى ينعتها ابن خلدون « بالغرائب » لروعتها . وقد جمع ابن الخطيب الكثير منها فيما بعد فى كتابه « ريحانة الكتاب و نجعة المنتاب »[١] وكذلك نقل إلينا المقرى فى « نفح الطيب » عدة منها[٢] .

ويصف لنا ابن الخطيب فى « الإحاطة » مركزه فى الوزارة يومئذ وما حباه به السلطان من الثقة والإيثار فى قوله : « فقلدنى السلطان سرّه ، ولما يستكمل الشباب ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ورسوم الوزارة ، واستعملنى فى السفارة إلى الملوك ، واستنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى يدى بخاتمه وسيفه ، وائتمننى على صوان حضرته وبيت ماله وسجوف حرمه ومعقل امتناعه » .

ولما توفى السلطان يوسف أبو الحجاج قتيلا فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ (أكتوبر سنة ١٣٥٤ م) خلفه فى الملك ولده السلطان محمد الغنى بالله . واستمر الحاجب رضوان فى الاضطلاع برياسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب فى منصبه معاوناً له ، ونُدب للوصاية على الأمراء القصر أبناء السلطان المتوفى . وأرسله السلطان الجديد لأول ولايته سفيراً إلى السلطان أبى عنان المرينى ، ملك المغرب ، على رأس وفد من رجالات الأندلس ،

---

(١) سنتحدث عن هذا المؤلف فيما بعد عند الكلام على مؤلفات ابن الخطيب .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٠ وما بعدها ، وج ٤ حيث يورد طائفة منها فى عدة مواضع .

يستنصره و يطلب عونه على مقاومة مَلك قَشتالة ، وليؤكد بينهما عهد الصداقة والمودة جرياً على سنة أسلافه من ملوك بنى الأحمر . فاستقبله السلطان بحفاوة وأنشد بين يديه شعراً قال فيه :

خليفةَ الله ، ساعدَ القدرُ عُلاكَ ما لاح فى الدُّجى قمرُ
ودافعَتْ عنك كفٌّ قُدْرته ما ليس يستطيع دفْعَه البَشَرُ
وجْهُك فى النائبات بَدْرُ دُجًى لنا وفى المَحْل كفُّك المطَرُ
والناس طُرًّا بأرض أندلُس لولاك ما أوْطَنوا ولا عَمَروا
وغاية الأمر أنه وَطَنٌ فى غير علياك ما له وَطَرُ

فتأثر السلطان لإنشاده أيما تأثر ، ووعد بإجابة سائر مطالبهم . و يصف لنا ابن الخطيب نجاح سفارته فى قوله :

« وكان الانصراف بأفضل مما عاد به سفير من واد أصيل و إمداد موهوب . . . وقد نجح السعى ، وأثمر الجهد ، وصدقت المخيلة » .

واستأثر الخطيب بثقة الغنى بالله كما استأثر بثقة أبيه من قبل ، وأسبغ عليه لقب ذى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة . وهو يجمل لنا عهد خدمته فى تلك الفترة فى قوله : « رلما هلك السلطان « يعنى أبو الحجاج » ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى ، وقصر الشورة على نصحى ، إلى أن كانت عليه الكائنة، فاقتدى فى أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة . ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته على القبض علىّ ، فكان ذلك » .

وهذه الكائنة التى يشير إليها ابن الخطيب هى الثورة التى نشبت فى غرناطة فى شهر رمضان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) وفقد فيها الغنى بالله ملكه . وتفصيل ذلك أن الأمير إسماعيل أخا السلطان كان معتقلا فى بعض أبراج قلعة الحمراء ، وكانت تؤازره جماعة من الزعماء الناقمين على الغنى بالله ، وفى مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله ،

وتعمل سرًّا لإسقاط الغنى بالله ، و إجلاسه فى الملك مكانه . وكانت أمه المقيمة بالقصر تؤيد مشاريعه بالسعى والبذل الوفير . وكان السلطان قد تحول بولده إلى سكنى قصر « جنة العريف » الواقع شمال شرقى قصر الحمراء ، فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك ، وهاجموا قلعة الحمراء (٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ) ونفذوا إلى دار الحاجب رضوان ، وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا بإسماعيل أخى السلطان ملكا مكانه . وشعر محمد بعبث المقاومة ففرَّ إلى وادى آش . وألفى ابن الخطيب نفسه بين عشية وضحاها ، مسلوب الحظوة والمنصب ، فسعى إلى مصانعة السلطان الجديد ، فاستبقاه فى الوزارة ، ولكن لأسابيع قلائل فقط ، ثم ارتاب فى ولائه وقبض عليه بتحريض خصومه ، وكان ابن الخطيب يقيم يومئذ ، بقصره الذى بالحضرة ، بمدينة الحمراء ، مقر اقامته الرسمية[1] فأمر بكبسه كما أمر بكبس دوره الأخرى ، ومصادرة سائر أملاكه ومتاعه ؛ ونفذت هذه الأوامر بغلظة وشناعة ، وفقد ابن الخطيب ثروته العريضة فى لمحة، وهو يقص علينا تفاصيل محنته فى الإحاطة فيما يلى:

« وتُقُبِّض علىّ ، ونكث ما أبرم من أمانى ، واعتقلت بحال ترفيه ، و بعد أن كُبست المنازل والدور ، واستكثر من الحرس ، وختم على الأغلاق ، وأبرد إلى ما نأى ، فاستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ، ولا ربات الأمثال ، فى تبحر الغلة ، وفراهة الحيوان ، وغبطة العقار ، ونظافة الآلات ، ورفعة الثياب ، واستجادة العدة ، ووفور الكتب ، الى الآنية والفرش والماعون والزجاج والطيب ، والذخيرة والمضارب والأقمشة . واكتسحت السائمة وثيران الحرث ، وظهر الحمولة ، وقوام الفلاحة والخيل ، فأخذ الجميع البيع ، وتناهبتها الأسواق ، وصاحبها البخس ، ورزأتها الخونة ، وشمل الخاصة والأقارب الطلب ، واستخلصت القرى ، وأعملت الحيل ، وطوقت الذنوب ، أمد الله تعالى بالعون ، وأنزل السكينة ، وانصرف اللسان

(١) الإحاطة (المطبوع . ح ٢ ص ١٢) ، وأزهار الرياض . ح ١ ص ٦٢ .

إلى ذكر الله تعالى ، وتعلقت الآمال به ، وطبقت نكبة مُصْحَفيه[١] مطلوبها الذات، وسببها المال حسبما قلت عند إقالة العثرة والخلاص من الهفوة »[٢] .

والواقع أن ابن الخطيب كان خلال هذه الأعوام التى سطع فيها نجمه ، يعيش فى ترف وأبهة و بذخ تناسب مركزه الرفيع فى الدولة، وثراءه الطائل، أحيانا بقصره بالحمراء ، وأحيانا بقصره الفخم الذى أنشأه فى بقعة الحدائق والجنات المسماة « بعين الدمع » بجوار غرناطة والتى اشتهرت بجمالها وروعتها ، وكانت يومئذ مسكن الكبراء والسادة . وقد أورد لنا « فى الإحاطة » نص أبيات نظمها فى التغنى بجمال « عين الدمع » ، ونقشت فى قبة قصره المذكور .

ولكن محنة ابن الخطيب لم تطل ، وسرعان ما جاء الإنقاذ ، وكان مجيئه من الضفة الأخرى من البحر . ذلك أن السلطان المخلوع محمداً الغنى بالله ، كانت تربطه بملك المغرب السلطان أبى سالم ولد السلطان أبى الحسن المرينى ، علائق مودة وثيقة ، وكان أبو سالم قد لجأ إلى الغنى بالله حينما تغلب عليه أخوه السلطان أبو عنان ، ونفاه إلى الأندلس ، فأكرم الغنى بالله مثواه . فلما وقع الإنقلاب بالأندلس ، وفقد الغنى بالله عرشه ، وفر منبوذاً إلى وادى آش، رعى له أبو سالم عهد الصداقة والوفاء ، وأرسل فى الحال إلى غرناطة سفيراً هو الشريف أبو القاسم التلمسانى يسعى لدى حكومتها الجديدة في إجازة السلطان المخلوع ، ووزير المعتقل ابن الخطيب ، إلى المغرب ، ولم يسع السلطان إسماعيل المتغلب على عرش أخيه إلا الاستجابة لرغبة سلطان المغرب حفظاً لمودة بنى مرين ، واستبقاء لنجدتهم ومعاونتهم ، التى أنقذت الأندلس من عدوان النصارى غير مرة . وهكذا نجح السفير المغربى فى مهمته ، وأفرج عن

---

(١) نسبه إلى الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى وزير الخليفة الحكم المستنصر بالله الأموى ثم وزير ولده الخليفة هشام المؤيد من بعده ، وقد نكبه المنصور ابن أبي عامر المتغلب على الدولة ، حينما اشتد بأسه ، وألقاه فى سجن الزهراء حتى مات .

(٢) نقل المقرى هذه الفقرة فى نفح الطيب محرفة قليلا (ج ٣ ص ٤١) .

ابن الخطيب ، ولحق بسلطانه المخلوع إلى وادى آش . وعبر الغنى بالله مع وزيره القديم ، ونفر كبير من أهله وصحبه البحر من مَرْبّله ، ومعه السفير إلى ثغر سبته ، ثم سافر الركب إلى فاس فوصلها فى السادس من المحرم سنه ٧٦١هـ ، واستقبلهم السلطان أبو سالم أجمل استقبال ، واحتفل بقدومهم فى يوم مشهود ؛ وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة من أروع ما نظم ، يدعوه فيها لنصرة سلطانه وهذا مطلعها :

سَلَا هل لديها من مُخبِّرة ذِكر ... وهل أعْشَبَ الوادى ونَمَّ به الزَّهر
وهل باكَرَ الوَسْمِىُّ داراً على اللوِّى ... عَفَت آيُها ألا التّوهُّم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيشُ فَينْانُ مُخضَرُّ
وجوِّى الذى ربَّى جَناحِىَ وكرُه ... فها أنا ذا مالى جَناحٌ ولا وَكْرُ

ومنها :

قصدناكَ يا خيرَ الملوك على النَّوى ... لتَنْصِفَنَا مما جَنَى عبدُكَ الدهر
كَفَفْنَا بك الأيام عن غُلوَائها ... وقد رابنا منها التعسُّفُ والكِبْر
وعُذْنا بذاكَ المَجْد فانصَرمَ الرَّدى ... ولُذنا بذاكَ العَزْم فانهزم الشَّرُّ
ولمّا أتينا البحر يُرهَبُ موجه ... ذَكَرْنا نداكَ الغمْرَ فاحتُقِر البحر

ومنها :

وأنت الذى تُدعى إذا دَهِم الرّدى ... وأنت الذى ترجى إذا أَخْلَفَ القَطْرُ
ومثلُكَ من يَرْعى الدَّخيل ومن دعا ... بيا لَمَرِين جاءه العزُّ والنصر
وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره ... ففى ضمن ما تأتى به العزُّ والأجر (١)

---

(١) وهى فى ثمانين بيتاً وقد نقلها المقرى كاملة فى نفح الطيب ج ٣ ص ٤٦ — ٤٨ وفى أزهار الرياض ج ١ ص١٩٧ — ٢٠٠ وكذا وردت فى اللمحة البدرية ص ١١٠ — ١١٣ .ونقلها ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٧ — ٣٠٩ .

وكان المؤرخ الكبير ابن خلدون ، وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة فى بلاط فاس ، من شهود ذلك الحفل ، وهو يصفه لنا ، ويقول لنا إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى .

ويقول لنا ابن الخطيب نفسه إن القوم كانوا يرتجفون تأثراً لأقواله ، وتسيل منهم العبرات[١] . والتقى ابن خلدون وابن الخطيب فى هذا الحفل لأول مرة . وكان هذا اللقاء بين الرجلين العظيمين حادثاً فى حياة كل منهما له أثره ونتائجه . وكان كل منهما يسمع عن صاحبه ويتوق إلى لقائه ، حتى جمعت بينهما الحوادث . وكانت تجمع بينهما مشابهات عديدة أدبية ومادية ، فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة ، وكان كلاهما شخصية بارزة فى حوادث عصره ، يتصل منها بأوثق صلة ، ويخوض غمارها ، متقلباً بين الظفر والمحنة ، وكان كلاهما وزيراً مستبداً ، ومستشاراً لأمراء عصره ، ومحرضاً لهم أو عليهم . كان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى كان يشغله ابن الخطيب فى الأندلس ، وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة التى كان يستأثر بها ابن الخطيب فى الأندلس ، وقد جمعت بين الرجلين أواصر الحب والصداقة فى البداية ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويجله ، ويكبر مواهبه وخلاله ، وقد ترجم كلاً منهما الآخر ، وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال[٢] وتبادلا طائفة من الرسائل الشخصية والسياسية ، تعتبر من أبدع نماذج النثر والترسل فى هذا العصر[٣] .

---

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ ؛ وابن الخطيب فى الإحاطة (المطبوع ج ٢ ص ١٣) .

(٢) اقتبست هذه النبذة من كتابى ابن خلدون (الطبعة الثانية) ص ٤١ .

(٣) أورد لنا ابن خلدون فى التعريف عدداً من هذه الرسائل . راجع « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٨٢ – ٩٢ وص ١٠٣ – ١٢٨ .

وعاش ابن الخطيب حينا فى كنف سلطان المغرب . يقول « و بالغ ملـكه فى برى ، منزلا رحبا ، وعيشاً خفضاً و إقطاعاً جماً ، وجراية ما وراءها مرمى ، وجعلنى بمجلسه صدراً ، ثم أسعف قصدى فى تهيؤ الخلوة بمدينة سلا » . واستقر ابن الخطيب فى ثغر سلا زهاء عامين ، عزيز الجانب موفور الرزق ، وقد اقتنى بها الدور والرياض، وتوثقت بينه و بين ابن خلدون أواصر الصداقة والمحبة ، وتوالت مدائحه للسلطان أبى سالم ، ومنها قصيدة طويلة يهنىء فيها السلطان بفتح تلمسان ، فى رجب سنة ٧٦١هـ هذا مطلعها :

أطاع لسانى فى مديحك إحسانى وقد لَهِجَتْ نفسى بفتح تِـلِمْسان
فاطلعتها تَفْتَرُّ عن شنب المُنى وتَسْفِر عن وجهٍ من السَّعد حيّانى
كما ابتسم النُوّار عن أدمع الحيا وجف نجد الورد عارض نيسان
كما صفقت ريح الشَّمال شمولَهَا فبان ارتياحُ السُّكر فى غُصن البان(١)

ولبث محمد بن الأحمر ، سلطان غرناطة المخلوع من جانبه فى فاس يرقب الحوادث، و يتطلع إلى استرداد ملكه ؛ وكان يعوِّل فى تحقيق هذه الغاية أولا على معاونة پيدور الثانى (بطره) ملك قشتالة ، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما ، ولـكن ملك قشتالة لم يسعفه فى مشروعه ، وآثر أن يعقد السلم مع سلطان غرناطة الجديد . وفى أثناء ذلك حدث انقلاب فى فاس فقد فيه السلطان أبو سالم عرشه ، ولقى مصرعه (فى ذى القعدة سنة ٧٦٢هـ) واستبد بالدولة مدبر الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله ، فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه على استرداد ملـكه . فاستجاب له الوزير ، وما زال يدبر أمره بمعاونته حتى تهيأت له الفرصة بوقوع ثورة جديدة فى غرناطة قتل فيها أخوه ومنافسه السلطان إسماعيل ، على يد المتغلب عليه الرئيس أبى سعيد . فعندئذ جاز محمد إلى

---

(١) أورد المقرى هذه القصيدة برمتها وهى فى نحو مائة وعشرين بيتاً (نفح الطيب ج ٣ ص ١٦ – ١٩) .

الأندلس واستولى على ما لقة ، ثم سار فى صحبه إلى غرناطة ، فاستولى عليها ، وفر الرئيس أبو سعيد إلى قشتالة ، واسترد الغنى بالله ملكه ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ ﻫ (١٣٦١م) .

(٢)

وما كاد محمد الغنى بالله يجلس من جديد على عرشه حتى كتب إلى وزيره المنفى ابن الخطيب ، رسالة رقيقة مؤرخة فى ٢٤ جمادى الآخرة ، ينعته فيها بأرفع النعوت : « الفقيه الوزير الجليل ، الصدر الأوحد المثيل العالم العلم . . . إمام البلغاء ، وصدر الخطباء ، وعلم العلماء ، وكبير الرؤساء » ، ويخبره فيها بنجاحه ، ويطلب إليه العودة لتقلد منصبه[١] . فنزل ابن الخطيب عند رغبته ، وجاز إلى الأندلس وبرفقته أسرة السلطان وولده ، ووصل إلى غرناطة فى أواخر شعبان من تلك السنة . وفى الثانى من شهر رمضان أصدر السلطان « ظهيراً » (مرسوما) بإعادته إلى منصبه « قلده فيه نجاد الوزارتين ، وحلاّه بحلى الرياستين » .

عاد ابن الخطيب إلى سابق مكانته فى الوزارة ، ولكنه لم ينعم تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه ، إذ كان ينافسه فى السلطة عندئذ ، شيخ الغزاة عثمان بن أبى يحيى[٢] وكان السلطان يقربه ويسبغ عليه وافر عطفه ، لما قام به من معاونته فى استرداد ملكه . والظاهر أن ابن الخطيب لم يشأ إلا أن يسترد سلطانه المطلق كاملا ، فنشبت بين الرجلين منافسة شديدة ، وحقد ابن الخطيب على منافسه ، وما زال يحرض السلطان ويحذره من نفوذ عثمان وعصبته ، وينوه له بخطر أطماعهم ومشاريعهم ،

---

(١) أورد ابن الخطيب نص هذه الرسالة فى ترجمته فى الإحاطة (مخطوطة دار الكتب المصورة لوحة ٤) .

(٢) شيخ الغزاه أعنى قائد الجيش العام .

ويذكره بسابق غدرهم ، حتى انتهى السلطان إلى التأثر بتحريضه ، ونكبهم فى شهر رمضان سنة ٧٦٤هـ . وبذلك خلا الجو لابن الخطيب ، واستعاد سلطانه المطلق ، دون مناوأة أو منافسة .

وفى ذلك الحين ، وفد صديقه ابن خلدون على الأندلس ، بعد أن فقد حظوته ونفوذه فى بلاط فاس واضطرته أعاصير السياسة والثورات المتوالية إلى مغادرة المغرب. وكان ابن خلدون قد أسدى إلى السلطان الغنى بالله أثناء إقامته بفاس كثيراً من الخدمات ، فاستقبله حين مقدمه إلى غرناطة فى أوائل سنة ٧٦٤هـ . استقبالا حافلا ، وأغدق عليه عطفه وصلاته ، وجعله من خاصته ، وبعث به سفيراً إلى ملك قشتالة (سنة ٧٦٥هـ) فأدى ابن خلدون سفارته خير أداء ؛ واستقبله صديقه ابن الخطيب فى البداية بمنتهى المودة ، ولكن الظاهر أنه غص بعد ذلك بما ناله ابن خلدون من حظوة سلطانه ، ففترت بينهما العلائق . ثم تبين ابن خلدون إعراض السلطان عنه ، وشعر بأثر ابن الخطيب فى هذا التحول ، فغادر الأندلس ، وعاد إلى المغرب ليخوض غمار حوادثه كرة أخرى (سنة ٧٦٦هـ) .

ويصف لنا ابن الخطيب سيرته فى الحكم يومئذ فى قوله : « فاستعنت الله تعالى ، وعاملت وجهه فيه من غير تلبس بجراية ، ولا تشبث بولاية ، مقتصراً على الكفاية ، حذراً من النقد ، خامل المركب ، معتمداً على المنسأة ، مستمتعاً بخلق النعل ، راضياً بغير النبيه من الثوب ، مشفقاً من موافقة الغرور ، هاجر الزخرف ، صادعاً بالحق فى أسواق الباطل ، كافاً عن السخال براثن السباع . ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكر الحسنات بهذه الخطة ، بل بالجزيرة فيما سلف من لمدة ، فتأتى بمنة الله تعالى ، من صلاح السلطان، وعفاف الحاشية ، والأمن ، وروم الثغور ، وتثمير الجباية ، وإنصاف الحماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، فى إيثار المصلحة الدينية ، والصدع فوق المنابر ، ضماناً من السلطان بترياق سم الثورة ، وإصلاح بواطن الخاصة

والعامة ، ما الله تعالى المجازى عليـه ، والمعوض من سهر خلعته على أعطافه ، وخطر اقتحمته من أجله » . (١)

والظاهر أن ابن الخطيب كان يومئذ ، قد سئم الخدمة السلطانية ومظاهرها البراقة ، ومسئولياتها الفادحة . وساورته رغبة فى الزهد والاعتكاف ، والسفر إلى الحج ؛ هذا إلى أنه لم يكن بالرغم من حياته المترفة الناعمة يتمتع بصحة طيبة . تدل على ذلك إشارته فى مقدمة الإحاطة إلى سوء حالته الصحية ، كما يدل عليه ما ذكره من إصابته بالأرق المزمن . فلم يكن ينام من الليل سوى اليسير . وقد سجل ابن الخطيب ذلك فى إحدى رسائله الطبية المسماة : « الوصول إلى حفظ الصحة فى الفصول » ، وأبدى عجبه من أنه وهو طبيب يدون لغيره وسائل العلاج ، لم يستطع معالجة نفسه من هـذا الداء .

بل يلوح لنا أن ابن الخطيب ربما ساورته رغبة فى الهجرة من الأندلس قاطبة . وقد التمس بالفعل إلى سلطانه إقالته ، وتمكينه من تحقيق هـذه الرغبة ، واشتهر عنه يومئذ هذا العزم ، ونمى إلى صديقه الشاعر الكبير ابن خاتمة ، وهو بالمرية ، فكتب إليـه رساله مؤثرة تفيض بلاغة وتقديراً ، يحاول فيها أن يثنيه عن عزمه ، وأن يقنعه بضرورة البقاء فى وطنه . ومما جاء فيها فى مخاطبته لابن الخطيب قوله : « إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطراز فلكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على العموم والخصوص ؛ ثم أنتم مدار أفلاكها، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبيب مارستانها ، والذى عليه عقد إدارتها ، و به قوام إمارتها ، ولديه يحل المشكل ، و إليه يلجأ الأمر المعضل، فلا غرو أن تتقيد بكم الأسماع والأبصار ،وتحدق نحوكم الأذهان والأفكار». فرد عليه ابن الخطيب برسالة بليغة يقول فيها ، أنه وقد أشرف على المشيب والكهولة

---

(١) راجع نفح الطيب ، ج ٣ ص ٤٢ .

قد عاف زخارف الدنيا ومتاعها ، وأنه يضطرم شوقاً إلى زيارة الحرمين وأداء الفريضة[١] .

والظاهر أيضاً أن ابن الخطيب يريد بهذا التنويه ، الذى يشير فيه إلى حسن سيرته فى الوزارة ، ومراعاة الحق والعدل فى تصرفاته ، أن يدحض أقوال القائلين بأنه جنح يومئذ إلى الاستبداد ، وسوء المسلك والسيرة ؛ ولكن لدينا من جهة أخرى شهادة صديقه ابن خلدون ، الذى عاشره ، وعاش إلى جانبه فى تلك الفترة زهاء عامين ، وهو يصف لنا هذه المرحلة من حياة ابن الخطيب فيما يلى :

« وخلا لابن الخطيب الجو، وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير المملكة ، وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعُلقت عليه الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتوافقوا على السعاية فيه »[٢] .

وما تدلى به هذه العبارات الموجزة القوية ، هو أن ابن الخطيب كان فى هذه المرحله من حياته الوزارية يتمتع بالسلطان المطلق . والواقع أن ابن الخطيب كان عندئذ حاكما بأمره ، وكان استئثاره بالسلطان والنفوذ على هذا النحو يذكى سخط منافسيه ، ويثير من حوله ضراماً من البغض والحسد . وكان السلطان ثقة منه بوزيره الأكبر ، وبمقدرته وكفايته ، يترك له زمام الأمور ، ويعرض عن الإصغاء لأعدائه ومنافسيه ؛ ولكنه بدأ فى النهاية يتأثر بسعايتهم ، ويرى فى استبداد ابن الخطيب اعتداء على سلطانه . وشعر ابن الخطيب من جانبه بأن سلطانه قد بدأ يتغير عليه ، وأخذ يتوجس شراً من العواقب . وكان فى مقدمة خصومه والساعين فى حقه ، تلميذه ومعاونه فى

---

(١) أورد ابن الخطيب نص الرسالتين فى الإحاطة ، (فى ترجمة ابن خاتمة) . ونقلهما المقرى فى نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣٦ – ٣٣٨ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٥ .

الوزارة الكاتب والشاعر الكبير محمد بن يوسف ، أبو عبد الله بن زَمْرَك ، وقاضى الجماعة (قاضى القضاة) فى غرناطة أبو الحسن على بن عبد الله النُّباهى . وكان الأول يتزعم ضد ابن الخطيب الخصومة السياسية ، ويتزعم الثانى حملة أشد خطورة وخطراً ، وهى اتهام ابن الخطيب بالإلحاد ، والخروج على الدين وأحكام الشريعة ، اعتماداً على بعض ما ورد فى كتبه . و بلغت الأمور ذروتها فى أوائل سنة ٧٧٣ هـ ؛ وشعر ابن الخطيب بأن السعاية قد أثمرت ، وأنه فقد عطف مليكه ، وأن الخطر يحدق به . والظاهر أنه كان قبل ذلك بقليل ، يتصل سراً بالسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن المرينى ملك المغرب ، وكان يومئذ يقيم فى مدينة تِلِمسان التى افتتحها من يد بنى عبد الواد (سنة ٧٧٢ هـ) . وكانت العلائق بين بلاط فاس ، و بلاط غرناطة قد فترت يومئذ ، وأخذ كل فريق يمالئ خصوم الآخر ، ويحشدهم لمناوأته . ولما اطمأن ابن الخطيب ، إلى وعود السلطان عبد العزيز بالحماية والرعاية ، عول على مغادرة الأندلس ، واستأذن ابن الأحمر فى تفقد الثغور الغربية ، فأذن له ، وسار مع ولده على وجماعة من الفرسان إلى الجنوب ؛ فلما وصل إلى جبل طارق ، تلقاه قائدها فى قواته ، وكانت جبل طارق يومئذ من أملاك بنى مرين . وكان السلطان عبد العزيز قد أصدر أوامره باستقبال ابن الخطيب ، وتجهيز السفن اللازمة لنقله هو ومن معه إلى المغرب . ونجحت المحاولة ، وركب ابن الخطيب ومن معه البحر إلى سَبته . ولكنه قبل أن يغادر جبل طارق ، بعث إلى سلطانه الغنى بالله رسالة مؤثرة ، يودعه فيها ، ويوضح أسباب تصرفه ، ويطلب إليه المغفرة ، ويؤكد له بقاءه على الود ، ويلتمس رعايته لأسرته وولده . ويستهل ابن الخطيب رسالته بأبيات هذا مطلعها :

بانوا فمن كان باكيا يبكى   هذى ركاب السرى بلا شك

ثم يبدؤها بقوله : « مولاى ، كان الله لكم ، وتولى أمركم : أسلم عليكم سلام الوداع ، وأدعوا الله فى تيسر اللقاء والاجتماع ، من بعد التفرق والانصداع ، وأقرر

لديكم أن الإنسان أسير الأقدار، مسلوب الاختيار، متقلب فى حكم الخواطر والأفكار، وأنه لابد لكل أول من آخر، وأن التفرق لما لزم كل اثنين بموت أو فى حياة ، ولم يكن منه بد ، كان خير أنواعه الواقعة بين الأحباب ، ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور » .

ثم يقول بعـد الإشارة إلى خدماته أنه قد غلبته « حال شديدة ، هزمت التعشق بالشمل الجميع والوطن المليح ، والجاه الكبير ، والسلطان القليل النظير » ، وأنه عمل بمقتضى قوله : « موتوا قبـل أن تموتوا » ، وأنه قد أقدم على أمر صعب المرام ، « ولكن سهله على أمور ، منها أن الانصراف لما لم يكن منه بد لم يتعين على غير هذه الصورة ، إذ كان عندكم من باب المحال ، ومنها أن مولاى لو سمح لى فى غرض الانصراف ، لم تكن لى قدرة على موقف وداعه ، لا والله ولكان الموت أسبق إلىّ ؛ وكفى بهذه الوسيلة الحسنة التى يعرفها وسيلة ، ومنها حرصى على أن يظهر صدق دعواى فيما كنت أهتف به ، وأظن أنى لا أصْدُق ، ومنها اغتنام المفارقة فى زمن الأمان والهدنة الطويلة والاستغناء ، إذ كان الانصراف المفروض ضرورياً قبيحاً فى غير هذه الحال ، ومنها وهو أقوى الاعذار أنى مهما لم أطق تمام هذا الأمر ، أو ضاق ذرعى به لعجز أو مرض أو خوف طريق ، أو نفاد زاد أو شوق غالب ، رجعت رجوع الأب الشفيق إِلى الولد البر الرضى ، إذ لم أخلف ورأى مانعاً من الرجوع ، من قول قبيح ولا فعل ، بل خلفت الوسائل المرعية ، والآثار الخالدة ، والسير الجميلة » .

ثم يقول : « وإن فسح الله فى الأمد ، وقضى الحاجة ، فأملى العودة إلى ولدى وتربتى ، وأن قطع الأجل ، فأرجو أن أكون ممن وقع أجره على الله ، فإِن كان تصرفى صواباً وجارياً على السداد ، فلا يُلام من أصاب ، وإن كان عن حمق وفساد عقل ، فلا يلام من اختل عقله وفسد مزاجه ، بل يُعذر ويشفق عليه ويُرحم ؛ وإن لم يعط مولاى أمرى حقه من العدل ، وجليت الذنوب ، ونشرت بعدى العيوب

فحياؤه وتناصفه ينكر ذلك ، ويستحضر الحسنات ، من التربية والتعليم ، وخدمة السلف ، وتخليد الآثار ، وتسمية الولد ، وتلقيب السلطان ، والإرشاد إلى الأعمال الصالحة ، والمداخلة والملابسة ، لم يتخلل ذلك قط خيانة فى مال ولا سر ، ولا غش فى تدبير ، ولا تعلق به عار ولا كدره نقص ، ولا حمل عليه خوف منكم ، ولا طمع فيما بيدكم ، وإن لم تكن هذه دواعى الرعى والوصلة والإبقاء ، ففيم تكون بين بنى آدم ، وأنا قد رحلت فلا أوصيكم بمال ، فهو عندى أهون متروك ، ولا بولد فهم رجالكم وخدامكم ، ومن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم ، ولا بعيال فهى من مزيات بيتكم وخواص داركم . . . »

ويسوق ابن الخطيب بعد ذلك النصح إلى سلطانه ثم يقول : «واعلموا أيضاً على جهة النصيحة ، أن ابن الخطيب مشهور فى كل قطر ، وعند كل ملك ، واعتقاده وبره والسؤال عنه ، وذكره بالجميل والإذن فى زيارته ، حنانة منكم وسعة ذرع ودهاء ، فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت ثم أقشعت ، وتركت الأزاهر تفوح ، والمحاسن تلوح . . . »[1]

وهذه عبارات تدل على مبلغ اعتزاز ابن الخطيب بنفسه ، وبرفيع مركزه ومنزلته لدى قصور عصره ، وعلى أنه لم يفقد ثقته بنفسه حتى فى أقسى أيام محنته .

وسار ابن الخطيب من سبتة الى تلمسان حيث كان بلاط المغرب ، وهناك استقبله السلطان عبد العزيز أجمل استقبال ، وأرسل فى الحال سفيراً إلى سلطان غرناطة ، ليسعى فى استقدام أسرة الوزير المنفى ، فأتى بها معززة مكرمة ، وكان ذلك فى اواسط سنة ٧٧٣ هـ (١٣٧١ م) .

---

(١) نشر ابن خلدون هذه الرسالة برمتها فى كتاب العبر (ج ٧ ص ٤٣٧ – ٤٣٩) وكان ابن الخطيب قد أرسل إليه صورتها . ويرى ابن خلدون أنها من أغرب الرسائل وأروعها بلاغة وإجادة .

(٣)

استقر ابن الخطيب في مقامه الجديد، بعيداً عن الأهل والوطن ، ولـكن ما حباه به السلطان من كرم المثوى وعلو المكانة ، وجزيل العطاء والنعمة ، خفف كثيراً من مرارة المنفى ؛ وهكذا استرد ابن الخطيب فى بلاط المغرب مكانته المفقودة ، وكتب إلى صديقه القديم ابن خلدون ، وكان يومئذ يقيم فى بِسْكِرَة ينبئه بخبره ، ويعتب عليه فيما كان منه بحقه حين مقامه بالأندلس ، فرد عليه ابن خلدون برسالة مؤثرة، يؤكد فيها تقديره وحبه لصديقه ، ويدفع عن نفسه مظنة الفتور والوقيعة ، ويهنئه بنجاته (١).

ولـكن فرار ابن الخطيب على هذا النحو لم يهدىء من ثورة خصومه ، بل كان بالعكس حجة جديدة لديهم تنهض على إدانته فيما يرمونه به من التهم ، وغصوا لإفلاته ونجاته من مكائدهم فضاعفوا سعيهم لملاحقته وسحق هيبته ، وتلويث سمعته ؛ فاتهموه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، ونسبوا إليه فى ذلك أقوالا ومقالات مما جاء فى بعض كتبه ورسائله ، أوّلوها وفق مقاصدهم ، وزعموا أن منها ما يتضمن طعناً فى النبى ، والقول بالحلول ، ومجاراة مذهب الفلاسفة الملحدين ، وأن كتب ابن الخطيب التاريخية ، وما اشتملت عليه من تراجم الأحياء المعاصرين ، والأموات الأقربين ، وما يتخللها من الطعن المُر فى كثير منهم ، هى من قبيل الغيبة المحرمة . وكان تلميذ ابن الخطيب وخلفه فى الوزارة ، أبو عبد الله بن زَمْرك ، أكبر مروج لهذه الدعاية القوية . وتولى صوغ الاتهام عدوٌّ ابن الخطيب الألد القاضى أبو الحسن النُّباهى ، وأفتى بوجوب حرق كتبه التى تتناول « العقائد والأخلاق » . ويقول لنا القاضى أبو الحسن ، إن هذه الـكتب قد تم إحراقها بالفعل فى حضرة غرناطة فى

---

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٤٣٤ – ٤٣٦ .

منتصف عام ٧٧٣ هـ « بمحضر من الفقهاء والمدرسين من العلماء وأماثيل الفقهاء ، لما تضمنته الكتب المذكورة من المقالات التى أوجبت ذلك عندهم ، وحققته لديهم »[١] .

وقد وجه القاضى أبو الحسن إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة ، نقل إلينا المقرى نصها ، وهى بمثابة دعوى اتهام شخصية وشرعية معاً ، يعدد فيها أبو الحسن معايب ابن الخطيب ، وما يسند إليه من تهم الإلحاد والزندقة ، و بالرغم من أن هذه الرسالة تحمل طابع التحامل ، والضغن الشخصى ، فإنها تلقى ضوءاً كبيراً على ما كان يُرمى به ابن الخطيب خلال توليه الحكم ، وعلى بعض الوقائع التى اتخذت سنداً لاتهامه بالخروج على أحكام الإسلام ، والحكم بعد ذلك بإدانته ونكبته . ويحسن قبل أن نعرض إلى محتويات هذه الرسالة أن نقول إن القاضى أبا الحسن النباهى ، كان فى البداية من أنصار ابن الخطيب وأوليائه ، وان ابن الخطيب هو الذى ندبه ليكون قاضياً للجماعة ، واستصدر ظهير تعيينه ، أيام توليه الوزارة للغنى بالله فى المرة الثانية ، وذلك فى فاتحة عام ٧٦٤ هـ ، وفيه ينعته بأرفع النعوت والصفات ، من علم وفضل وتقى ونزاهة ؛ ثم ندبه بعد ذلك ليكون خطيباً للمسجد الجامع[٢] . ولما وضع ابن الخطيب كتابه الإحاطة ، وترجم فيه من ترجم من أكابر معاصريه ، ظفر منه النباهى ، بأكرم النعوت والخلال ، إذ وصفه بأنه « قريع بيت مجادة وجلالة ، و بقية تعين وأصالة ، عف النشأة طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب ، ناظم ، ناثر ، نثره يشف على نظمه ، ذاكر للكثير . . بعيد

---

(١) أبو الحسن النباهى فى كتابه « تاريخ قضاة الأندلس المعروف بالمرقبة العليا » المنشور بالقاهرة بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال سنة ١٩٤٨ (ص ٢٠٢) .

(٢) أورد المقرى نص الظهيرين الصادرين بتعيين النباهى فى خطتى القضاء والخطابة (نفح الطيب ج ٣ ص ٧١ و ٧٤) ؛ وكذلك فى أزهار الرياض (ج ٢ ص ٥) .

المدى فى باب النزاهة ، ماضياً غير هيوب .. الخ »[(١)] . ثم دارت الأيام دورتها ، وازور نجم ابن الخطيب ، وتقلص نفوذه ؛ وعندئذ برز النباهى إلى جانب ابن زمرك ، فى طليعة خصوم ابن الخطيب ، والساعين إلى هدمه ونـكبته .

وتتخذ رسالة النباهى صورة رد ، على كتاب شديد أرسله اليه ابن الخطيب ، وقائمة اتهام معاً ؛ وفيها ينعى النباهى على ابن الخطيب ، انصرافه إلى الأغراض الدنيوية ، وشغفه بالاقتناء والبناء ؛ ثم ينعى عليه ما ورد فى كتبه التاريخية من سير الأحياء والأموات ، والطعن فى حقهم ، وهو مما يدخل فى باب « الغيبة المحرمة » ، ومخالفة ذلك للدين والعقل ؛ وأن ما تضمنته بعض مؤلفاته الأخرى ، من البدع والتلاعب بالشريعة ، يجعلها مستحقة للتخريق والتحريق ، وأنه أى النباهى قد نصحه وحذره من ذلك ، فلم ينتصح ، وآثر الاستماع لأقوال المجاملين والمداهنين .

وينكر النباهى على ابن الخطيب ، ما ينوه به فى كتابه ، من قيامه بصالح الأعمال؛ ويقول إن ذلك هو من قبيل المنِّ المذموم ، وأنه أى ابن الخطيب ، لم يشارك فى شىء « إلا بأغراض حاصلة فى يدكم ، ولأغراض دنيوية خاصة بكم » .

وأما اعتذار ابن الخطيب ، وتندمه على فراق الأندلس ، فيرى النباهى أنه تناقض ، وأن ما وقع من فراره ، إنما هو غدر بسلطانه ، وأن هذا الخروج من الأوطان ، لم تـكن تدعو إليه ضرورة غالبة ؛ ثم يقول : « وقد مددتم إلى التمتع بغيرها أعينكم ، ولو لم يكن بهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة ، إلا ما خُصت به من بركة الرِّباط ، ورحمة الجهاد ، لـكفاها فخراً ، على ما يجاورها من سائر البلاد » .

وينعى النباهى بعد ذلك على ابن الخطيب ، تدخله فى شئون القضاء ، أيام ولايته إياه ، ويعدد بعض ما ارتـكبه ابن الخطيب فى ذلك ، من مخالفات للشرع

---

(١) وردت هذه الترجمة فى مخطوطة الإحاطة بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ (القطعة الكبيرة) ص٣٠٢ وما بعدها . ونقلها المقرى فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٨٥ و ٣٨٦) .

والدين فيقول : « فكابدت أيام تلك الولاية النكدة من النكاية باستحقاركم للقضايا الشرعية ، وتهاونكم بالأمور الدينية ، ما يعظم الله به الأجر ، وذلك فى جملة مسائل ، منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة ، بعد تقضى موجباته ، على كره منكم ؛ ومنها مسألة ابن أبى العيش المثقف فى السجن على آرائه المضلة ، التى كان منها دخوله على زوجه أثر تطليقه إياها بالثلاث ، وزعمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره مشافهة بالاستمتاع بها ، فحملتم أحد ناسكم تناول إخراجه من الثقاف من غير مبالاة بأحد ؛ ومنها أن أحد الفتيان المتعلقين بكم ، توجهت عليه المطالبة بدم قتيل ، وسيق المدعى عليه للذبح بغير سكين ، فما وسعنى بمقتضى الدين إلا حبسه على ما أحكمته السنة ، فأنفتم لذلك وسجنتم الطالب ولى الدم ، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور ، إلى غير ذلك مما لا يسع الوقت شرحه ، ولا يجمل بى ولا بكم ذكره » .

وأما عن تهمة الإلحاد والطعن فى النبى ، وهى أخطر ما وجه إلى ابن الخطيب من التهم ، فيصوغها النباهى على النحو الآتى ، فى كلامه لابن الخطيب : « فإنى أخاف عليكم من الإفصاح بالطعن فى الشريعة ، ورمى علمائها بالمنقصة ، على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم[1] منكر علم الجزئيات ، القائل بعدم قدرة الرب جل اسمه ، على جميع الممكنات ؛ وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناس أعلام قلما تجوز عليهم المغالطات فتأسركم شهادة العدول ، التى لا مدفع لكم فيها ، وتقع الفضيحة ، والدين النصيحة . . . وكذلك أحذركم من الوقوع بما لا ينبغى فى الجناب الرفيع ، جناب سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة ، يكبر فى النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها ، وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت

(١) هو يحيى بن هذيل الفيلسوف الطبيب والعلامة الكبير ، وقد ذكرناه بين شيوخ ابن الخطيب فيما تقدم . توفى سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٣ م) ، وترجمه ابن الخيطب فى الإحاطة . ونقل المقرى ترجمته فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٢٥٨) .

من بغضكم و إيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل ، من وجه آخر عليكم ؛ ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص ظل السلطة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة امتعاضا لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم ، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدول، ما صدر عنكم، من العبث فى الإبشار والأموال، وهتك الأعراض، و إفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل ، والغدر فى غالب الأحوال ، للشريف والمشروف ، والخادم والمخدوم » .

ثم ينعى النباهى على ابن الخطيب تركه لسلطانه ، حين كان منفياً بالمغرب ، ثم تهافته عليه حين عاد إلى عرشه، وما كان منه من الضرب والتفريق بين رجال الدولة ، حتى خلا له الجو ، وتمكن الأمر والنهى ، ثم يقول : « فهمزتم ولمزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم ، ثم وريتم بتفقد ثغر الجزيرة الخضراء ، مكراً منكم ، فلما بلغتم أرض الجبل انحرفتم عن الجادّة ، وهربتم بأثقالكم ، الهروب الذى أنكره عليكم ، من بلغه حديثكم ، أو يبلغه إلى آخر الدهر، فى العُدوتين من مؤمن وكافر و بر فاجر »

ويختتم النباهى رسالته بالتنديد ببنى الخطيب ، ونشأتهم المتواضعة ، وحداثتهم فى المال والنعمة ، وما نالوه من ثراء مغتصب ، ليقول لابن الخطيب أنه لا حق له فى التفاخر ، وهذا أصله ، وأن الاعتداد بملاذ الدنيا، من ثراء وطعام ولباس ، إنما هو خسة وصغار ، وأن الأولى به أن يكون زاده التقوى للدار الباقية[1] .

وقد رأينا أن نلخص رسالة النباهى ، وأن نقتبس منها على النحو المتقدم ، إذ هى حسبما قدمنا وثيقة الاتهام التى اتخذت فيما بعد سنداً لإدانة ابن الخطيب ونكبته .

وتاريخ هذه الرسالة هو أواخر جمادى الأولى من عام ٧٧٣ هـ ، وقد تلقاها ابن الخطيب عقب وصوله إلى بلاط تلمسان بقليل ، وقد رد على سِباب أبى الحسن

---

(١) أورد المقرى رسالة القاضى أبى الحسن النباهى برمتها فى نفح الطيب ج٣ ص ٦٦ - ٧١. وكذا وردت فى كتاب أزهار الرياض ج ١ ص ٢١٢ - ٢٢٤ .

واتهاماته بما كتبه عنه فى ترجمته فى كتابه « الكتيبة الكامنة ، فى أدباء المائة الثامنة » وحمل عليه فيها بشدة ، ثم استأنف حملته عليه فى كتابه « أعمال الأعلام » الذى ألفه بالمغرب ، ونعته فيما كتب عنه بالجُعْسوس أى القزم الدّميم ، إذ كان أبو الحسن قصير القامة . ولما اشتد بينهما الجدل ، والتراشق بالسِّباب ، وضع ابن الخطيب رسالة خاصة فى هجاء أبى الحسن والحملة عليه ، أسماها « خلع الرسَن فى وصف القاضى أبى الحسن »[1] .

ومن الغريب المؤلم معاً أن ينحدر القاضى النباهى ، فى خصومة ابن الخطيب والحملة عليه ، إلى هـذا الحد المثير ، وهو الذى كان من قبل يرتفع فى تقديره إلى أسمى الحدود ، كما تدل على ذلك رسالة وجهها إليه أيام إقامته منفياً فى المغرب ، وهو بسلا ، وفيها ينعته « بالآية البالغة وقد طمست الأعلام ، والعزة الواضحة ، وقد تنكرت الأيام ، والبقية الصالحة ، وقد ذهب الكرام » . ثم يصفه بأنه بالنسبة إليه « هو الركن الذى ما زلت أميل على جوانبه ، ولا تزيد الأيام إلا بصيرة فى الإقرار بفضله ، والاعتداد به . » وذلك أن النباهى كان أيضاً قد فقد منصبه من جراء الحوادث التى أودت بسلطان ابن الخطيب ، وعبر البحر منفياً مثله ، وكان يعتمد على الوزير المنفى ، متى انقشعت المحنة ، فى الأخذ بيده و إعادته إلى سابق وظائفه[2] .

وعلى أى حال فقد مضى خصوم ابن الخطيب فى غرناطة فى سعيهم لإهلاكه ، ولم يقعدهم بعده عن الأندلس ؛ فبعد أن قُضى بإحراق كتبه فى ساحة غرناطة ، سجل القاضى أبو الحسن عليه تهمة الإلحاد والزندقة ، وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضى رسله بهذا الحكم إلى السلطان عبد العزيز ، يطالب تنفيذ حكم الشرع فى الوزير الملحد ، وهو الإعدام ، فأنف سلطان المغرب لهذا المسعى ، وعنف رسل

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٦٦ – ٧٥ ، وكذلك كتاب قضاة الأندلس السابق ذكره (المقدمة ص ط) والرسن معناه الحبل .

(٢) راجع هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٣ ص ٣٨٤ و ٣٨٥ .

الأندلس وقال لهم « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع ، وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه » وردهم خائبين ، وزاد فى إكرام ابن الخطيب ورعايته[١] .

ولما توفى السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٧٤ هـ (أواخر سنة ١٣٧٢ م) خلفه على العرش ولده الطفل السعيد ، وغادر بلاطُ المغرب تلمسان إلى فاس ، وسار ابن الخطيب صحبة الوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولة ، ونزل بفاس فى كنف الوزير ورعايته ، متمتعاً بما كان يتمتع به ، فى ظل السلطان الراحل ، من النفوذ وجزيل الصلات ، وطاب عيشه واقتنى الضياع والدور ، واستمر حيناً على مكانته فى الدولة . وحاول السلطان ابن الأحمر ، أن يحمل الوزير ابن غازى ، على تشريد ابن الخطيب ونفيه ، لما كان يعتقده من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربته ، فأبى ابن غازى . وساءت العلائق بين بلاط فاس و بلاط غرناطة بسرعة ، ودفع ابن الأحمر بعض الخوارج من بنى مرين إلى محاربة حكومة فاس ، وأمدهم بعونه ؛ وتمخضت حوادث المغرب عن انقلاب جديد ، ونادى الثوار بولاية الأمير احمد بن السلطان أبى سالم ، وحاول الوزير ابن غازى مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج مدينة فاس ، فأذعن الوزير وخلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش ، وذلك فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) .

وكان ابن الخطيب قد لجأ أثناء ذلك إلى البلد الجديد (ضاحية فاس) . وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الأحمر وزعماء الفتنة ، بشأن ابن الخطيب ومصيره . فلما وقع الانقلاب المنشود ، بادر السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود ، وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب ، جهداً فى تشديد النكير عليه ، وتدبير هلاكه . وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق ، لما أكده له خصومه ، من غدره

---

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٥ .

ودسائسه ؛ فبعث وزيره أبا عبد الله بن زَمرك تلميذ ابن الخطيب ، وخلفه فى الوزارة ، ليعمل على تحقيق هـذه الغاية ، ووجهت إلى ابن الخطيب التهم السابقة ، وهى التى وجهت اليه فى غرناطة ، وصاغها القاضى أبو الحسن فى قرار اتهامه ؛ ورأى السلطان أحمد أن يعقد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى ، واستُدعى ابن الخطيب إليه لمناقشته ، ومواجهته فى التهم المنسوبة إليه ، وأخصها تهمة الإلحاد والزندقة استناداً إلى ما ورد فى بعض كتاباته ، وعُزِّر ابن الخطيب وعذب أمام الملأ ، وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله .ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً فى سجنه (أواخر سنة ٧٧٦ هـ — ١٣٧٥ م) وأخذت جثته فى الغد ، وأضرمت فيها النار ، فاحترق شعره وبشرته ، ثم دفنت فى ضاحية فاس[١] . وكان قبره معروفاً حتى عصر المقرى ، فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) وقد زاره المقرى أثناء إقامته فى فاس[٢] .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ، ضحية الجهالة والتعصب ، والأحقاد السياسية الوضيعة . ويجمل ابن خلدون حوادث هذه المأساة فى قوله فى مقدمته يشير إلى صديقه ابن الخطيب بأنه هو « الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه »[٣] ويعلق عليها فى تاريخه بقوله : « وكان فى ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه السفاهة التى جاء بها سليمان ، واعتدوها من هناته ، وعظم النكير منها عليه ، وعلى قومه وأهل دولته » . ثم ينقل إلينا أبياتاً من الشعر نظمها ابن الخطيب فى سجنه ، وكان ينشدها متوقعاً مصيره المحزن :

بَعُدْنا وإن جاوَرَتْنا البُيُوت ... وجِئْنا بوعظٍ ونحن صُموت

وأنفاسُنا سَكَنَتْ دَفْعَةً ... كجَهْرِ الصلاةِ تلاهُ القُنُوت

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ و ٣٤٢ .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٨٥ .

(٣) المقدمة ص ٤٩٦ .

وكُنَّا عِظَامَاً فصرنا عِظـــاما وكُنَّا نَقُوت فها نحن قُوت
وكُنَّا شموسَ سمـــاءِ العُلا غَرَبْنَ فناحَتْ عليها البُيُوت
فكم خَذَلَتْ ذا الحسام الظُّبا وذو البخت كم جَدَّلَتْه البخوت
وكم سِيق للقبر فى خِرْقَةٍ فتى مُلِئت من كُساه التُّخوت
فقل لِلْعِدا ذهب ابنُ الخطيـــب وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمَنْ كان يَفْرحُ منكم له فقُلْ يفْرَحُ اليوم من لا يموت(١)

— ٤ —

كان ابن الخطيب حسبما قلنا فى بداية هذا البحث عبقرية متعددة النواحى .

والآن فلنحاول أن نعرض إلى نواحى هذه العبقرية بشىء من التفصيل . وأول ما يبدو لنا من هذه النواحى هو ابن الخطيب الكاتب والشاعر ، وهى صفة تغلب على سائر خصائصه الأخرى .

كان ابن الخطيب من أعظم كتاب عصره وشعرائه ، بل هو من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها على الإطلاق . وقد بلغ من النظم كما بلغ فى النثر ، مرتبة التفوق ، التى لا يدانيه فيها سوى القليل .

وأعظم ما يتميز به شعر ابن الخطيب ونثره ، هو وفرة التنوع والافتنان ، فى الموضوعات والمعانى . و يرجع ذلك إلى خِصب قريحته ، وسعة أفقه ، و إلى حياته المنوعة ، الفياضة بمختلف الأحداث والمحن .

وقد برّز ابن الخطيب بالأخص فى ضرب من النثر هو النثر الوزارى والسياسى . وقد ترك لنا فى هذا الميدان تراثاً ضخماً ، من المراسيم السلطانية ، التى صدرت أيام

(١) كتاب العبرج ٧ ص ٣٤٢ . وكذلك فى أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٣١) .

توليه الوزارة ، عن سلاطين غرناطة ، ومن الرسائل السياسية والدبلوماسية ، التى كان يكتبها عن لسان سلطانه ، إلى ملوك اسبانيا النصرانية ، أو سلاطين المغرب ، أو سلاطين مصر . وفيها يتحدث عن علائق المودة والتحالف ، أو يصف بعض الحوادث التاريخية ، أو يطلق صيحة الجهاد للدفاع عن الأندلس ، أو يلتمس لها الإنجاد والعون ، من ملوك العُدوة ، إلى غير ذلك من الشئون والحوادث ، التى ملأت حياته السياسية ، سواء فى الأندلس أو المغرب .

وانتهى إلينا من هذه الرسائل السلطانية والسياسية العدد الجم ، وجمع ابن الخطيب منها فى كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » طائفة كبيرة يتعلق بعضها بوصف الوقائع الحربية ، التى جرت حول جبل طارق والجزيرة الخضراء ، وغيرها من الحوادث المعاصرة ، ومنها رسائل عديدة وجهها ابن الخطيب الى ملوك المغرب ، عن حوادث الأندلس ، وغزوات سلطانها فى أرض النصارى . ونقل إلينا المقرى فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض عدداً كبيراً من المراسيم والرسائل السياسية التى كتبها ابن الخطيب فى مختلف المناسبات ، كما نقل إلينا الكاتب المصرى أبو العباس القلقشندى ، فى موسوعته « صبح الأعشى » بعض الرسائل التى وجهها سلاطين غرناطة إلى سلاطين مصر المعاصرين مدبجة بقلم ابن الخطيب .

وترك لنا ابن الخطيب عدداً كبيراً من الرسائل الأدبية ، ورسائل المودة والصداقة ، التى كان يتبادلها مع شيوخه وأقرانه ، وأكابر معاصريه ، وقد أورد لنا فى الإحاطة كثيراً منها ، ونقل إلينا ابن خلدون فى « التعريف » بعضها .

وتمتاز رسائل ابن الخطيب بالأسلوب الرصين المشرق ، واللفظ الجزل المختار ، وبالرغم من أن معظمها يجرى على قاعدة السجع ، فإنها على الأغلب خالية من روح التكلف ، الذى يجنى أحياناً على الأسلوب والمعنى . ولابن الخطيب براعة خاصة فى تخير الألفاظ ، وإبراز المعانى ، لا يجاريه فيها الكثيرون من أكابر الكتاب .

ولابن الخطيب مقدرة فائقة على تخير أساليب المدح والذم . ومديحه غالباً من النوع الرفيع الذى لا يشوبه التنزل الوضيع ، بل تطبعه دائماً نزعة من الاعتزاز والكرامة ، يبدو ذلك فى كثير من تراجم الإحاطة ، وفى كثير من رسائله السلطانية . ونستطيع أن نقدم لمديحه الأدبى مثلا بترجمة أستاذه وصديقه ابن صفوان فى « الإحاطة » وما كتبه عنه فى « الدرر الفاخرة » ، وهو الديوان الذى جمعه من شعره ؛ وما ورد فى ترجمته لابن خاتمة ، شاعر المريّة الكبير ؛ وأن نقدم مثلا لمديحه السياسى بما كتبه عن سلاطين غرناطة المعاصرين ، وما ورد فى ترجمة صديقه وزميله الوزير الكبير الحاجب رضوان النصرى . ففى هذه التراجم عبارات مختارة من أساليب المدح الرفيع الذى يفيض اعتزازاً وكرامة ، واتزاناً فى الوصف والتصوير .

وكما أن ابن الخطيب يبدى اعتزازه فى كثير من المواطن بمنزلته السياسية ، فهو كذلك يبالغ فى الاعتزاز بكرامته ومنزلته الأدبية ، ويذهب أحياناً فى ذلك إلى حدود العُجب والكبر . وهو لا يحجم عن أن يذكرنا أحياناً بأنه من أعظم شخصيات عصره فى دولة الأدب . وإليك ما يقوله مثلا فى ديباجة كتابه المسمى « السحر والشعر » :

« وبعد فإنه لما قيض الله منى للآداب مُحلِّى سماتها ، وناشر رممها بعد مماتها ، وصاقل صفحاتها ، وقد محا محاسنها الصدأ على بعد المدا ، وموضح طريقتها المثلى ، وقد أضحت طرائق قدداً ، والعاشى الى ضوء نارها لعلِّى أجد على النار هدى » .

وأما فى الذم فإن ابن الخطيب يلجأ أحياناً إلى الأساليب المضطرمة والعبارات القاذفة العنيفة ، ويطلق العنان لضغنه وحقده . ولنا فى ذلك أمثلة كثيرة فى الإحاطة، أبرزها ما كتبه (نقلا عن كتابه نفاضة الجراب) ، فى ترجمة السلطان محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرج بن نصر ، وهو السلطان المتوثب على أخيه السلطان الغنى بالله ، والذى انتزع منه الملك لفترة فقد فيها ابن الخطيب منصبه وثروته ،

ونفى مع سلطانه المخلوع إلى المغرب . فهو يقول لنا مثلا فى وصف السلطان المذكور ما يأتى :

« كان شيطاناً ذميم الخلق ، حرفوشاً على عرف المشارقة ، متراميًا للخسائس ، مألفاً للذعرة والأجلاف والسوار وأولى الريب ، خبيثاً ، كثير النكر ، منغمساً فى العهن ، كلفاً بالأحداث ، متقلباً عليهم فى الطرق ، خليع الرسن ، ساقط الحشمة ، كثير التبذل ، قواد عصبة كلاب . . . . الخ » .

وفى وصف وزيره : « استوز الوزير المشئوم ، ممدّه فى الغى ، الوغد ، الجهول ، المرتاش من السرقة ، الحقود على عباد الله لغير علة عن سوء العاقبة ، المخالف فى الأدب سنن الشريعة ، البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة ، دودة القز ، و بغل طاحونة الغدر ، محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح الفهرى ؛ فانطلقت يده على الإبشار ، ولسانه على الأعراض ، وعينه على النظر الشزر ، وصدره على التأوه والرين ، يلقى الرجل كأنه قاتل أبيه ، محدقاً إلى كميه ، يحترش بهما خبيئة ، أو يظن بهما رشوة .. الخ » .

ونستطيع أيضاً أن نمثل لأساليب ابن الخطيب فى الذم ، بما ورد فى رسالته المضطرمة التى يرد بهـا على خصمه القاضى أبى الحسن النباهى ، التى سبقت الإشارة إليها .

ومما يتميز به أسلوب ابن الخطيب بنوع خاص ، روحه النقدية العالية ، فهو يبدى فى تناول الشخصيات ، وفى وصفها وتحليلها ، مقدرة فائقة لايكاد يجاريه فيها أحد من كتاب التراجم المسلمين ، اللهم إلا شمس الدين السخاوى المصرى صاحب « الضوء اللامع ، فى أعيان القرن التاسع » فإنه قرينه ومنافسه الحق ، فى تلك الروح النقدية القوية . وابن الخطيب الى جانب ذلك غزير المادة فى التنويع والابتكار ، يبدى براعة مدهشة فى التنقل فى نواحى الوصف ، من الأخلاق الشخصية ، إلى المواهب الأدبية والفنية ، إلى الحوادث الجارية ، وهو فى ذلك كله فنان موهوب ،

يقدم إلينا تلك الجمهرة الكبيرة من العلماء والكتاب والشعراء، والوزراء، والأمراء الذين تضمهم «الإحاطة» فى صور متباينة ساحرة، تنم عن فائق مقدرته الأدبية والفنية.

وأما فى الشعر فإن ابن الخطيب يرتفع إلى أسمى المراتب، ويمتاز شعره بالتنوع الكثير. فقد نظم فى شئون السياسة، وفى المديح، والغزل، والزهد، والتصوف، والمدائح النبوية، وهو يبدى فى سائر قصائده براعة فى ابتكار المعانى، وفى صوغ الخيال، واختيار اللفظ المشرق.

وكان ابن الخطيب بالأخص، من أئمة الموشحات الأندلسية، ومن أشهر ما نظم منها موشحته الذائعة الصيت التى مطلعها:

جادَكَ الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى   يا زمان الوَصْل بالأنْدَلُس
لم يكن وصْلُك إلا حُلْماً   فى الكَرَى أوخُلسة المُخْتَلِس
إذ يقودُ الدَّهرُ أشتات المُنَى   ينقل الخَطْوَ على ما يَرْسُمُ
زُمَرًا بين فُرادى وثُنا   مثل ما يدعو الوفودَ الموسمُ
والحيَا قد جَلَّلَ الرَّوْضَ سَنا   فثُغُور الزّهْر منه تَبْسُم (١)

ولا محل لأن نورد هنا شيئاً من شعر ابن الخطيب أو نثره، فسوف يرد الكثير منها فى هذا الكتاب «الإحاطة». ومن جهة أخرى فقد أفرد المقرى فى كتابه «نفح الطيب» مجلدين كبيرين هما الثالث والرابع لابن الخطيب وأخباره وشعره ونثره، ونقل إلينا فيهما من مختلف كتبه ورسائله، فصولا وشذوراً لا تحصى، كما

---

(١) نقل إلينا المقرى هذه الموشحة بأكملها فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها. وكذلك أزهار الرياض ج ٢ ص ٢١٣، وأورد لنا المقرى فى كتابيه المذكورين طائفة كبيرة أخرى من موشحات ابن الخطيب.

نقل إلينا عشرات من قصائده ، وهذا عدا ما نقله من نثره ونظمه فى كتابه « أزهار الرياض »[١] .

ويصف لنا الأمير أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر معاصر ابن الخطيب ، خلاله ومواهبه ، فى كتابه « نثير فرائد الجمان فيمن يضمنى وإياهم الزمان » فى تلك العبارات الرنانة :

« هو شاعر الدنيا ، وعلم المفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه فى الكتب ، ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وسيف مقولة ليس بالكهام إذ هو الماضى ، وإلا فانظر كلام الكتّاب الأول من العصبة ، كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبة ، للبراعة باليراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حمدت بُكَرُهم وأصائلهم ، المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العُدْوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية » ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته فى الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويجمل[٢] .

ويصف ابن خلدون فى مقدمته ابن الخطيب بأنه « شاعر الأندلس والمغرب فى عصره » وأنه « كان فى اللسان ملكة لا تدرك »[٣] . ويقول فى وصف نثره وشعره ما يأتى : « وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه ، وبلغ فى الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » . ثم يقول عن رسائله السلطانية « وصدرت عنه غرائب من الترسل فى مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة » .

---

(١) يراجع الجزء الأول من أزهار الرياض من ص ١٨٦ إلى نهايته .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ١٩١ .

(٣) ابن خلدون فى كتاب العبر — المقدمة ص ٥٢٢ و ٤٩٦ .

ولم تمنع المحنة التى نزلت بابن الخطيب وتراثه ، من جراء تدبير خصومه ، من أن يعود إليه اعتباره وتقديره الحق ، بعد انقضاء عصر السلطان الغنى بالله الذى توفى فى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) . وفيما ورد فى نص صيغة الوقف التى كتبت على نسخة كتاب « الإحاطة » التى حُبست على المدرسة اليوسفية أو جامعة غرناطة ، بقلم قاضى الجماعة الرئيس أبى يحيى بن عاصم ، والتى تحمل تاريخ وقفها وهو سنة ٨٢٩ هـ . من وصف كتاب الإحاطة والتنويه بقيمته وأهميته ، ووصف مؤلفه ، والارتفاع بقدره وعبقريته ، ما يدل على أن ذكرى ابن الخطيب ، عادت بعد نصف قرن من مصرعه، تحتل مكانتها الحقة بين عظماء وطنه ، وعادت كتبه التى طوردت وأحرقت أيام الفتنة والتحامل ، تحتل مكانتها بين نفائس التراث الأندلسى (١) .

ويشترك النقد الغربى الحديث فى التنويه بمنزلة ابن الخطيب العلمية والأدبية . ويبدى المستشرقون الأسبان بالأخص إجلالهم لمواهبه وخلاله ، وإعجابهم بتفكيره وتراثه ، ويرون فيما خلفه من تاريخ غرناطة وجغرافيتها ، وأوصاف حياتها الاجتماعية ، أنفس ما انتهى إلينا فى ذلك من تراث الكتاب المسلمين .

قال المستشرق مورينو نييتو Moreno Nieto فى وصف ابن الخطيب وتراثه ما يأتى : « لا يوجد فى تاريخ غرناطة الأدبى ، ما يمكن أن يقارن بهذا الكاتب الخِصب ، فقد كانت معارفه موسوعة حقة ، وعبقريته تدعو إلى الإعجاب ، وكانت معارفه العلمية عظيمة . وقلما حظى أسلوب كاتب مثله ، بما حظى به أسلوبه من البلاغة والرشاقة حسبما يقول ابن خلدون ؛ وقد برع بالأخص فى علم السياسة وفى التاريخ ؛ وقد شهد حوادث سياسية لعب فيها دوراً كبيراً ، وكان مدى أعوام طويلة أميناً ومستشاراً لملك قابل خدماته بجحود مطبق .

---

(١) يراجع نص هذه الوقفية فى أزهار الرياض ج ١ ص ٥٦ – ٥٨ .

« و إن تاريخ غرناطة حتى عصره ، ليعرف بالأخص من مؤلفاته ، بطريقة أتم وأ كمل من أى عصر آخر ، من تاريخ الأندلس .

ويعتبر تاريخه للدولة النصرية ، وكتابه « الإحاطة » دائماً بين أعجب آثار الأدب الإسلامى .

ومنذ وفاة ابن الخطيب يخبو و ينهار صرح العلوم فى الأندلس »[(١)] .

ويصف العلامة المستشرق سيمونيت Simonet ابن الخطيب « بأمير الأدب الأندلسى الغرناطى »[(٢)] ويقول لنا إن شهرته وصلت إلى بلاط قشتالة ، و إنه يعرف فى تواريخها « بابن خطين » Benhatin ويوصف بأنه « عالم كبير ، وفيلسوف ، ومستشار لملك غرناطة » .

ثم يقول : « إن ابن الخطيب قد ترك لنا آثاراً كثيرة ، فى النثر والشعر ، والتاريخ والجغرافيا ، والرحلات ، والبلاغة والشريعة والعلوم ، والأخلاق ، والدين ، والنبات والطب ، والبيطرة ، والموسيقى ، والفن الحربى ، والسياسة ، وكلها غنيـة فى الابتكار والتعمق والرشاقة »[(٣)] .

وأما من ناحيـة التصنيف الأدبى ، فإن صفة المؤرخ هى الغالبة فى كتابات ابن الخطيب ، فقد وضع أهم كتبه فى التاريخ ، والتاريخ المعاصر بنوع خاص ؛ ومؤلفاته التاريخيـة من أقيم المراجع فى تاريخ الأندلس والمغرب فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . وكتاب « الإحاطة » وهو أضخم وأهم مؤلفاته ، هو معقد مجهوده التاريخى ؛ وقد كتب إلى جانبه عدة مؤلفات تاريخية أخرى هى :

---

(١) نقل إلينا هذه الفقرات المستشرق Pons Boigues فى معجمه Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Geografos Arabigos Espanoles (Madrid 1898) p. 347.

(٢) Pons Boigues; ibid; p. 347

(٣) F.J. Simonet: Descripcion del Reino de Granada sacada de los Autores Arabigos. (Granada 1872) p. VI.

«اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية» و «طُرفة العصر فى دولة بنى نصر» و«رقم الحلل فى نظم الدول» و «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام» و «الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة» و« نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب» . ونستطيع أيضاً أن نعتبر « ريحانة الكتاب » وهو من أهم مؤلفاته ، مؤلفاً تاريخياً ، لما يتضمنه من رسائل تاريخية ذات أهمية خاصة .

ومعظم هذه المؤلفات يتعلق بتاريخ العصر الذى عاش فيه ابن الخطيب ، وتاريخ الملوك ، وأكابر الوزراء والعلماء والكتاب والشعراء الذين عاصرهم ، أو يقتربون من العصر الذى عاش فيه ؛ وإن كان منها مثل الإحاطة ، ورقم الحلل ، وأعمال الأعلام، ما يضم شيئاً من تواريخ العصور السابقة .

وقد كان ابن الخطيب رجل سياسة من الطراز الأول ؛ وقد استطاع أن يوجه بعزمه وهمته سياسة الدولة النصرية أعواماً طويلة سواء إزاء دول اسبانيا النصرانية ، أو دول المغرب. وتبدو أصالته السياسية فى كثير من رسائله ونبوءاته ، ولعل أهم ما يؤثر عنه فى ذلك نظراته الصائبة إلى مصير الأندلس ؛ فقد كان هذا المؤرخ الثاقب الذهن الذى يقرأ حجب المستقبل من عبر الماضى ، والسياسى البعيد النظر ، يرى فى حوادث الأندلس ، شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب ، من نهاية محتومة لهذا الوطن ، الذى مزقته الأهواء وأضنته الفتن . وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، أن يبادروا إلى غوثه ونصرته ، وإلى الجهاد فى سبيل الدين والوطن ؛ وله فى ذلك رسائل عديدة مؤثرة يوجهها إلى قومه ، ويلفت نظرهم إلى الخطر الداهم ، الذى لا محيص من وقوعه ، إذا استمر تنابذهم وتواكلهم ؛ ومنها ما وجهه إلى ملوك العُدوة من بنى مرين ، يستنهض هممهم لنصرة الوطن الأندلسى وإنجاده ، قبل أن

يفوت الوقت ، وهى رسائل تمتاز بروعة أسلوبها[١] .

وأبلغ من ذلك كله فى الدلالة على شعور ابن الخطب بخطر الفناء الذى ينتظر الأندلس ، ما وجهه فى وصيته الى أولاده الثلاثة ، عبد الله ومحمد وعلى ، من النصح بعدم الإسراف فى اقتناء العقارات بالأندلس ، إذ يقول لهم : « ومن رُزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد ، الذى لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع فى العقار ، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه ، إن يتغلب العدو على بلده ، فى الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال أمام النوب الثقال . و إذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال فى الطلب أولى »[٢] .

ولابن الخطيب أيضاً فصول فى السياسة الملكية ، مما تضمنته رسالة « كتاب الوزارة ومقامة السياسة » يشرح فيها واجب السلطان ، وخلال الوزير الصالح ، وأحوال الجند ، وما يجب لهم من توفير الجراية ، وتعويدهم على حسن الانقياد ؛ والعمال ووجوب حسن اختيارهم بتوفر الكفاية والأمانة ؛ وفى السياسة المنزلية أو الخاصية من السهر على تربية الأولاد ، وأحوال الخدم ، ووجوب أخذهم بحسن الانقياد ؛ والحرم ، وكيف يعاملن . ويورد ابن الخطيب هذه الفصول فى صورة مقامه بطلُها الخليفة الرشيد ، وقد أرق ذات ليلة فأتى له الندماء بشيخ حكيم ، عابر سبيل ، فأخذ يتلو على الرشيد آراءه فى موضوعات السياسة الملكية والخاصية ؛ وقد كتب هذه الفصول بأسلوب مسجع ولكن جزل رصين[٣] .

---

(١) أورد المقرى فى أزهار الرياض ، وفى نفح الطيب كثيراً من هذه الرسائل . راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٦٤ وص ٦٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧١ .

(٢) أورد لنا المقرى نص هذه الوصية كاملا فى نفح الطيب ج ٤ ص ٨١٧ وما بعدها ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٣٢٠ وما بعدها .

(٣) تراجع هذه الفصول فى نفح الطيب ج ٤ ص ٥٥٨ — ٥٦٥ .

(٥)

ترك لنا ابن الخطيب ، تراثا حافلا منوعاً ، ما بين تاريخ ، وأدب ، وسياسة ، وطب، وشعر ونثر ؛ وبلغت مؤلفاته أكثر من خمسين مؤلفاً .

وقد انتهى الينا من هذا التراث أكثره ، وهو المجموعة التاريخية والأدبية التى هى فى الواقع، لبُّ ترات ابن الخطيب، والتى تلقى أعظم ضوء على تاريخ الأندلس والمغرب فى القرن الثامن الهجرى .

والظاهر أن مؤلفات ابن الخطيب ، التى لم تصل إلينا ، قد هلك معظمها فى محنة إحراق كتبه التى وقعت فى غرناطة فى سنة ٧٧٣ هـ ، وهى من كتب الطب والتصوف والموسيقى ، وأن معظم كتبه التى نجت من تلك المحنة ، قد وصلت إلينا عن طريق المغرب .

وقد ذكر لنا ابن الخطيب ثَبَت مؤلفاته ، خلال ترجمته لنفسه ، فى كتاب الإحاطة، (مخطوطة الإسكوريال الكبيرة ص ٤٣٣) . ولكن هذا الثبت لا يتضمن كل كتبه ، لأنه انتهى من كتابة « الإحاطة » فيما يبدو فى سنة ٧٧١ هـ ؛ ونقل المقرى إلينا هذا الثبت فى نفح الطيب وأزهار الرياض[١] .

و إليك بيان مؤلفات ابن الخطيب التى نعرفها ، وما انتهى إلينا منها :

١ — كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » كما هو اسمه فى مخطوطة دار الكتب ومخطوطة تونس ؛ أو الإحاطة بتاريخ غرناطة[٢] أو الإحاطة فى تاريخ غرناطة[٣] ، هو أشهر كتب ابن الخطيب . وتوجد منه قطع مخطوطة فى الإسكوريال ، والمكتبة

---

(١) فى نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٣ — ٦٥٥ ، وفى أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٦ .

(٣) أزهار الرياض ج ١ ص ٥٥ و ١٨٩ .

الوطنية وأكاديمية التاريخ بمدريد (مخطوطة تونس)، ودار الكتب المصرية ، والجامع الأزهر (رواق المغاربة) حسبما فصلنا فيما تقدم .

٢ — «التاج المُحَلَّى فى مساجلة القدح المعلى» . وفيه مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ انشائها على يد بنى نصر، وتراجم أعيانها فى القرن الثامن الهجرى ؛ ويوجد منه جزء بالمخطوط رقم ٥٥٤ بمكتبة الإسكوريال ، وهو «معيار الإختبار» من تأليف ابن الخطيب أيضاً ؛ ويشغل فى هذا المخطوط من لوحة ٧١ إلى نهايته في لوحة ١٢٣ . وقد نقل إلينا المقرى منه كثيراً من التراجم .

وأما « القدح المُعلى » الذى يقرن به ابن الخطيب ، عنوان كتابه ، فهو من تأليف ابن سعيد (أبى الحسن على بن موسى) المتوفى فى سنة ٦٦٦ هـ . أو ٦٧٣ هـ . وفقاً لابن الخطيب . وهو يضم تراجم الأدباء الأندلسيين فى القرن السابع الهجرى .

٣ — « الكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » أو « الكتيبة الكامنة فى أهل المائة الثامنة » . ويقول ابن الخطيب فى ديباجته : إنه جمع فيه « جملة وافرة ، وكتيبة ظافرة ، ممن لقيناه ببلدنا ، الذى طوينا جديد العمر فى ظله » . « ما بين من تلقينا إفادته ، وأكرمنا وفادته ، وبين من علمنا ، وخرجنا ، ووشحنا ودرجنا ، ومن اصطفيناه ، ورعيناه فضلا صنعناه » . وفيه يترجم ابن الخطيب لطائفة من الخطباء والشعراء ، والمقرئين والفقهاء والكتاب ، المعاصرين له . ويورد مختارات من شعرهم ، وأحياناً من نثرهم . وتوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة أكاديمية التاريخ تقع في ٨٦ لوحه كبيرة ، استنسخها العلامة المستشرق كوديرا عن نسخة مخطوطة بالجزائر كتبت فى سنة ٧٣٨هـ . ويدل هذا التاريخ ، على أن هذا الكتاب من أوائل مؤلفات ابن الخطيب ، وأنه وضعه فى شبابه ، ولمّا يتجاوز الخامسة والعشرين .

٤ — « ريحانة الكتاب ، ونُجعة المنتاب » . وفيه يفصل ابن الخطيب فى ديباجته محتوياته على النحو الآتى : « تمهيدات من أوائل المصنفات » . وفى هذا الباب يختار

ابن الخطيب نبذاً من كتبه ورسائله السابقة ، مثل « بستان الدول » ، « وتخليص الذهب »[١] ، « وجيش التوشيح » ، و « اللمحة البـدرية » ، و « رقم الحلل » و « السحر والشعر » ، و « التاج المحلى » ، و « الأكليل الزاهر » ، و « الإحاطة » ، « وكتاب الطب » ، و « روضة التعريف بالحب الشريف » و « استنزال اللطف الموجود فى أسرار الوجود » . ثم يضمنه بعد ذلك طائفة كبيرة من الرسائل السلطانية التى كتبها عن سلاطين غرناطة والمغرب فى أغراض الحرب والسياسة فى باب يسميه « جمهور أغراض السلطانيات » . ويلى ذلك طائفة أخرى من الرسائل التى خاطب بها أر باب المناصب . ثم يورد بعض رسائل « التعازى عن النائبات » وكتب « الرسائل والشفاعات » و « مخاطبة الرعايا والجهات » . وتليها رسائل فى « جمهور الإخوانيات » . ثم يتحدث بعد ذلك عن بعض رجالات عصره فى باب يسميه « بعض أوصاف الناس والأغراض والصلات » . ويختتمه بطائفة من « رسائل المودة ، والفكاهات والزواجر والعظات » . وتوجد من هـذا المؤلف الضخم نسخة كاملة فى مكتبة الإسكوريال (تحمل رقم ١٨٢٥) . وتقع فى مجلد كبير يتكون من ٢٨١ لوحة كبيرة . وقد كتبت فى شوال سنة ٨٨٠ هـ . وتوجد منه قطعة كبيرة فى مكتبة مدريد الوطنية تتكون من ٦٢ لوحة كبيرة وتحمل رقم (٥١٨٣) . كما توجد منه نسخة ناقصة أخرى بمكتبة الفاتيكان الرسولية بروما تقع فى ١٢٨ لوحة متوسطة وتحمل رقم (٢٥٢) Borg . وتوجد منه أخيرا نسخة ناقصة ثالثة فى مكتبة « أبسالا » بالسويد تتكون من ١٥٤ لوحة . وقد نشر بعض فصوله وترجمها إلى الإسبانية المستشرق جسبار ريمير و G. Remiro فى مجلة Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino (سنة ١٩١٢) .

---

(١) وقد ورد اسمه فى أزهار الرياض كاملا وهو : « تخليص الذهب فى اختيار عيون الكتب الأدبيات » (ج ١ ص ١٩٠) ولم نقف على أثر لهذا المؤلف . والظاهر أنه لم يصل إلينا .

٥ — « اللمحة البدرية في الدولة النصرية » . وهو مختصر لتاريخ بنى نصر ملوك غرناطة حتى سنة ٧٦٥ هـ ، موجود بالإسكوريال رقم (١٧٧١) . وطبع بالقاهرة سنة ١٩٤٧ .

وقد أشار ابن الخطيب فى كتاب « اللمحة البدرية » (ص ٢٧) إلى كتاب له عنوانه : « الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة » . ولم يرد ذكر لهذا المؤلف ضمن كتبه ، ولم يشر إليه أحد ممن عنوا بتعداد مؤلفاته . ويغلب على الظن أنه ملخص آخر لتاريخ غرناطة على نمط « اللمحة البدرية » . و « طرفة العصر » . وربما كان مشروعاً لكتاب بدىء بوضعه ولم يتم .

٦ — «رقم الحلل في نظم الدول » . وهو عبارة عن تاريخ شعرى للدول الإسلامية في المشرق والأندلس ، ويلى كل قصيدة شرحها . في مجلد متوسط موجود بالإسكوريال (رقم ١٧٧٦) ومكتبة مدريد الوطنية ، ودار الكتب المصرية . وطبع بتونس سنة ١٣١٦ هـ . وهو يسمى أحياناً «بالحلل المرقومة » كما هو الشأن في نسخة مدريد المخطوطة المنقولة عن نسخة الإسكوريال . وقد اختلط الأمر في ذلك على العلامة المستشرق زيبولد فظن أنهما كتابين مختلفين[١] والواقع أنهما اسمان لنفس المؤلف .

٧ — « نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب » . وفيه يصف ابن الخطيب بعض أحواله وأخباره ، أثناء مقامه منفياً بالمغرب ، في المدة الأولى ، ورحلته إلى سلا ، وإلى مدينة أغمات حيث زار قبر المعتمد بن عباد ؛ ثم يضمنه بعض الرسائل التى صدرت عنه يومئذ الى بعض سلاطين المغرب ، وبعض فصول في تاريخ الأندلس ؛ وهو مجلد متوسط يقع في ١٥٩ لوحة ، وموجود بالإسكوريال (رقم ١٧٥٥) .

٨ — « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » . وهو مجموعة رسائل موجهة من سلطان الأندلس أبى الحجاج يوسف ، إلى السلطان أبى عنان المَرينى ملك المغرب

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية — ترجمة ابن الخطيب .

يشرح فيها بعض حوادث الأندلس مدبجة بقلم ابن الخطيب ، و بعض رسائل أخرى من أبي عنان إلى سلطان غرناطة . وقد جمعها ابن الخطيب في هذا الكتاب أثناء إقامته بسلا . مجلد صغير فى ٥٠ لوحة ، وموجود بالإسكوريال (رقم ١٧١٢) .

٩ — « أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام » . وقد ألفه ابن الخطيب أثناء إقامته منفياً بالمغرب للمرة الثانية عقب وفاة السلطان عبد العزيز المرينى سنة (٧٧٤ هـ) ، وتنصيب الوزير أبى بكر بن غازى لولده السعيد الطفل ملكا ؛ فقد أثار خصوم ابن غازى حملة شديدة على تولية الطفل ، فألف ابن الخطيب كتابه هذا ليثبت فيه أن لهذا الحادث نظائر كثيرة في التاريخ الإسلامى ، وأنه تصرف سليم لا يخالف أحكام الدين فى شىء . فى جزءين يختص أولهما بتاريخ الشرق الإسلامى ، و يختص الثانى بتاريخ الأندلس ولا سيما أخبار ملوك الطوائف و بنى الأحمر وملوك النصارى ، وذلك على سبيل الاختصار . موجود منه نسخة في مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد منقولة عن نسخة بالجزائر ، وفي مستهلها أن هذا الكتاب هو آخر ما ألفه ابن الخطيب . ونشر منه الأستاذ ليفى بروفنسال فى سنة ١٩٣٤ القسم الخاص بأخبار الجزيرة الأندلسية فى مجلد كبير .

١٠ — « السحر والشعر » . هذا الكتاب ليس من قلم ابن الخطيب ، ولكنه من تصنيفه . وهو مجموعة شعرية اختارها ؛ ويحمل هذا العنوان على ورقة غلافه . وقد ذكر ابن الخطيب فى مقدمته ، أنه لمناسبة ترعرع ولده عبد الله ، قد اغتنم هذه الفرصة ، واختار له طائفة من القصائد تتعلق بالوصايا ، وقد اختارها من شعر المشارقة والمغاربة على السواء ؛ وممن اختار من شعرهم من المشارقة : ابن نباتة ، والصابى ، ومهيار ، وابن الرومى ، والشريف الرضى ، والبحترى ، وابن المعتز ، وعمارة اليمنى ؛ ومن المغاربة (أى الأندلسيين) : ابن اللبانة ، وابن عبدون ، وابن الجياب ، وابن صمادح ، وابن هذيل وغيرهم . ويورد ابن الخطيب قطعاً من شعره فى مواطن

كثيرة . وقد راعى فى قسمه الأول « نمط الشعر » . وفى قسمه الثانى « نمط السحر » . توجد منه نسختان بالإسكوريال ، الأولى كاملة ولكن دون عنوان وتحمل رقم ٤٥٦ وتقع فى ١٤٤ لوحة متوسطة . والثانية ناقصة وتحمل رقم ٤٥٥ (ديرنبور رقم ٢٩٩) . وتقع فى١٠١ لوحة متوسطة .

١١ — « معيار الاختبار فى ذكر المشاهد والديار » أو فى « ذكر المعاهد والآثار » . وهو وصف نثرى مسجع لمدن ومملكة غرناطة ووصف محاسنها وعيوبها ، كما يتضمن وصف بعض المدن المغربية ، وكذلك عدة تراجم أندلسية مسجعة ؛ وقد كتب فى « مجالس » على طريقة المحاورة . موجودة بالإسكوريال ضمن مجموعة تحتوى على رسائل أخرى حسبما يجىء (رقم ٥٥٤ الغزيرى) ، وقد ذكر فى نهاية المخطوط أنه كتب سنة ٨٧٣ هـ . ويتضمن المخطوط جزءاً من كتاب « التاج المحلى » حسبما تقدم . وقد نشر المستشرق الأسبانى سيمونيت القسم الأول من « معيار الاختبار » وهو المتعلق بغرناطة وترجمه إلى الأسبانية بعنوان : Descripción del Reino de Granada bajo la Dominación de las Nazaritas (Madrid 1861) « وصف مملكة غرناطة فى عهد بنى نصر » . ونشر باقيه المستشرق الألمانى ميللر متضمناً لوصف جبل الفتح ، ووصف سبتة ومراكش وأغمات فى مجموعة : Beitaäge zur Geschichte des Westlichen Araber. (Mùnchen 1866) (ص ٤٥ — ١٠٠) كما نشر الكتاب كله فى فاس سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧) .

١٢ — وهناك مؤلف تاريخى ينسب خطأ لابن الخطيب . وهو كتاب « الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية » وقد طبع فى تونس سنة ١٣٣٧ هـ منسوباً لابن الخطيب وصدرت ديباجته بالعبارة الآتية : « قال الشيخ الأديب البارع لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله » ، ولكن ينقض ذلك ويقضى بزيفه ما ورد فى ختام الكتاب عند ذكر ولاية السلطان أبى زيد عبد الرحمن المتوكل على الله إذ جاء فيه : « واستقر بحاضرة مراكش فى شهر المحرم من عام ستة وسبعين وسبعمائة . وهو إلى

هذا العهد الذى ألفت فيه هذا المجموع يوم الخميس الثانى عشر لربيع الأول من عام ثلاثة وثمانين وسبعمائة » (ص ١٣٦) . ونحن نعرف أن ابن الخطيب توفى فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ ، أى قبل هذا التاريخ بسبعة أعوام . وإذن فمن الواضح قطعاً أنه ليس مؤلف هذا الكتاب . ومؤلفه كاتب مجهول لم يكشف عن شخصه .

١٣ — « بستان الدول » . وهو كتاب فى السياسة ، والقضاء ، والحرب ، وأهل المهن والحرف ، وطوائف الشعب ، تخصص لكل منها فيه « شجرة » ؛ وهو كتاب لم يكمل ، ولم يصل إلينا . ويقول لنا ابن الخطيب فى الإحاطة » : إنه كتب منه ثلاثين سفراً ثم عاقته الحوادث عن إتمامه(١) .

١٤ — « طُرفة العصر ، فى تاريخ دولة بنى نصر » . هو مختصر آخر لتاريخ الدولة النصرية . ويعتقد العلامة ڤستنفلد خطأ أنه اسم آخر لكتاب « اللمحة البدرية » . ولكنا بمقارنة الفقرات التى يقتبسها ابن الخطيب فى الإحاطة من «طرفة العصر » و « اللمحة البدرية »، وكذلك بمراجعة كتاب اللمحة البدرية، حيث يقتبس ابن الخطيب من « طرفة العصر » انتهينا إلى أن الكتابين مختلفين .

١٥ — « مفاضلة أو مفاخرة بين مالقة وسلا » . رسالة مسجعة موجودة بالإسكوريال ضمن المخطوط (رقم ٥٥٤ الغزيرى) الذى يحتوى على رسالة معيار الاختبار كما تقدم، والمخطوط رقم (١٨٢٠ الغزيرى) . وقد نشرها المستشرق ميللر فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه : Beiträge (ص ١ — ١٣) .

١٦ — « خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف » . رسالة كتبها ابن الخطيب فى سنة ٧٤٨ هـ يصف فيها رحلة قام بها مع السلطان يوسف أبى الحجاج فى المحرم من هذا العام ، وزار فيها عدة من مدن الأندلس مثل بسطة ، ووادى آش، والحامة ، وقنالش ، وبُرشانة ، والمرية ، ومُرشانة ، ولورسانة ، وغيرها . وقد كتبت بأسلوب

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٣ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ١٩٠ .

مسجع جزل . موجودة بالإسكوريال ضمن المخطوط رقم ٤٧٠ (ديرنبور ص٢٩٩) (وتشغل فيه من لوحة ٥٠ حتى لوحة ٦٨) . وقد نشرها المستشرق ميللر فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه Beiträge (ص ١٤ — ٤١) .

١٧ — « رسالة فى السياسية » . ويقول لنا ابن الخطيب إنه أملاها فى ليـلة واحدة . وقد كتبت على نمط المقامات . وتليها الرسالة التى عنوانها : « كتاب الإشارة إلى أدب الوزارة فى السياسة » . وفيها يتناول صفات الوزير وواجباته ، وشروط اختياره . وقد وردت الرسالتان ضمن مجموعة الإسكوريال الخطية (رقم ٥٥٤ الغزيرى) التى سبقت الإشارة إليها ، ونقلها المقرى فى « نفح الطيب » كما تقدم .

١٨ — « الإكليل الزاهر ، فيمن فصل عند نظم التاج والجواهر » . يتناول فيه تراجم أعلام معاصريه ، وهو تكملة لكتابه « التاج المُحَلى » . وقد نقل إلينا المقرى منه كثيراً من التراجم والنبذ .

١٩ — «مُقنعة السائل عن المرض الهائل» . وهى رسالة كتبها ابن الخطيب عن الطاعون الجارف ، الذى دهم الأندلس وسائر العالم الإسلامى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) يصف فيها ظروف ظهوره ، وروعة انتشاره ، وأعراضه الأولى ، وسبل التحوط منه . ويورد دعاء للاستغاثة منه . موجودة ضمن مجموعة خطية بالإسكوريال فى عشر لوحات (الغزيرى رقم ١٧٨٥) . وقد نشرت هذه الرسالة مع ترجمتها الألمانية فى مجلة أكاديمية العلوم الباقارية Bayerische Academie der Wissenschaft. (سنة ١٨٦٣) .

٢٠ — « عمل من طب لمن حب » . وهو مؤلف طبى كبير يتناول فيه ابن الخطيب الأمراض المختلفة . ويذكر لنـــا أسباب كل مرض وأعراضه وعلاجه ، وتحوطاته ، ونظام الغذاء الذى يناسبه . ويتحدث فيه عن مختلف أعضاء الجسم وطرق العناية بها . ويذكر فى ديباجته بعد مديح طويل للسلطان أبى سالم المرينى ،

أنه لم يجد لخدمته أفضل من الطب « الذى تكون الوسيلة به أول ذريعة لحفظ صحته . وهذا الغرض هو ما هو أصل الدين والدنيا ، وحفظ للسجايا البرة ، والشيم العليا » . وقد كتب هذا الكتاب فى سنة ٧٦١ هـ . أثناء إقامته منفياً ببلاط السلطان المذكور. وتوجد منه نسخة فى مكتبة مدريد الوطنية فى ١٥١ لوحة كبيرة . وهو مخطوط حديث نوعاً .

٢١ — ولابن الخطيب عدة رسائل طبية وصحية أخرى نذكر منها : المسائل الطبية ؛ الرجز فى عمل الترياق ؛ اليوسفى فى الطب ؛ رسالة تكوين الجنين ؛ الوصول لحفظ الصحة فى الفصول[١] ؛ رجز الطب ؛ رجز الأغذية ؛ ثم البيطرة والبيزرة . وقد ذكرها لنا جميعاً فى كتاب « الإحاطة » ونقلها إلينا المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض .

٢٢ — وكتب ابن الخطيب فى التصوف قصيدته المسماة « روضة التعريف بالحب الشريف » ، ورسالته المسماة « استنزال اللطف الموجود فى سير الوجود » .

٢٣ — وكتب رسالة فى التوثيق عنوانها « مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة » . وهو يشير إليها في الإحاطة في ترجمة ابن القباب .

٢٤ — ووضع ابن الخطيب فى الفقه رجزاً فى أصول الفقه ، تولى شرحه بعد ذلك المؤرخ ابن خلدون ، ولم يصل إلينا الأصل ولا الشرح .

٢٥ — وجمع ابن الخطيب مجموعة من شعر أستاذه الوزير ابن الجياب . وجمع مجموعة أخرى أيام مقامه بمالقة في سنة ٧٤٤ هـ من شعر أستاذه وصديقه أبى جعفر بن صفوان ، أسماها « الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » وذلك حسبما يذكر فى ترجمته فى « الإحاطة » .

---

(١) ومنها نسخة خطية فى برلين .

٢٦ — وجمع ابن الخطيب مجموعة مختارة من موشحات أئمة التوشيح بالأندلس، مثل ابن بقى ، وابن اللبانة ، والأعمى التطيلى ، وعبادة القزاز ، وابن لبون ، وأبى بكر السرقسطى وغيرهم ، فى كتاب سماه « جيش التوشيح » . والظاهر أنه قام بتصنيفه أثناء مقامه بالمغرب برسم أمير أو سلطان حسبما يبدو ذلك من ديباجته القصيرة . وتوجد منه نسخة خطية بجامع الزيتونة بتونس ، تقع فى نحو ١٢٠ لوحة متوسطة .

٢٧ — وكتب ابن الخطيب ذيلا لكتاب « الصلة » لابن الزبير سماه « عائد الصلة » جمع فيه طائفة من تراجم الأعلام اللاحقين ، وهو يذكره فى « الإحاطة » فى ترجمة مؤلف « الصلة » ويذكر أنه افتتح الأسماء فيه باسم « ابن الزبير » . ويقتبس منه كثيراً .

٢٨ — واختار ابن الخطيب من شعره ، أو اختار له بعض تلاميذه « الديوان » أى ديوان شعره ، ولم يصل إلينا هذا الديوان . ولكن ذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون (رقم ٥٦٤٢) .

٢٩ — وألف ابن الخطيب رسالة فى الموسيقى لم تصل إلينا .

٣٠ — وكتب ابن الخطيب أخيراً أثناء مقامه منفيًّا بالمغرب ، رسالة فى الرد على خصمه القاضى النباهى أسماها « خلع الرسن فى أمر القاضى أبى الحسن » . وقد سبقت الإشارة إليها .

وقد وضع ابن الخطيب كثيراً من كتبه ورسائله التى ذكرناها بعد تأليفه كتاب الإحاطة ، ولذلك لم يذكرها ضمن مؤلفاته فى ترجمته لنفسه فى « الإحاطة » . ولم يصل إلينا من هذه الكتب والرسائل الأخيرة سوى القليل ، ومعظم ما وصل إلينا منها ، أورده المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض .

تلك هى مؤلفات ابن الخطيب ورسائله ، ما وصل إلينا منها وما لم يصل ، وقد بلغت أكثر من خمسين كتاباً ورسالة . وفي مجموعة مؤلفاته ورسائله التى وصلت إلينا ، والتى أتينا على ذكرها فيما تقدم ، وفي تنوعها بين التاريخ ، والأدب ، والسياسة ، والعلوم ، و بين الشعر والنثر ، وفي أساليبها البليغة العالية ، ما يدل على أهمية التراث الأدبى القيم ، الذى خلفه لنا ذلك المفكر والكاتب السياسى الأندلسى الكبير[١] .

(٦)

بقيت كلمة عن كتاب « الإحاطة » ذاته ، وعن موضوعه وتاريخ تأليفه .

إن عنوان كتاب « الإحاطة » وهو « الإحاطة فى أخبار غرناطة » يدل على موضوعه، فهو ليس تاريخاً لغرناطة بالمعنى المحدود ، ولكنه عبارة عن موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة الأندلسية التالدة من الأخبار والأوصاف والمعالم ؛ فهو يتناول وصفها ، وجغرافيتها ، وخططها ، ومواقعها ، وما يحيط بها من المروج والجبال . ثم يتناول تاريخها منذ نزول العرب الأوائل بها ، وتواريخ من كان بها من العلماء ، والكتاب ،والشعراء ، والأدباء ، والأمراء ، والمتغلبين ، منذ عصر الفتح حتى قيام الدولة النصرية ، ثم تاريخ الدولة النصرية ، وتاريخ سلاطينها ، منذ مؤسسها محمد ابن الأحمر حتى عصره .

---

(١) راجع فى ذكر مؤلفات ابن الخطيب والتعريف بها C. Brockelmann: Geschichte der Arabischen Literatur (1948) B. II. p. 339.

وفهرس الإسكوريال للغزيرى : Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis:

وفهرس الإسكوريال لديرنبور H. Direnbourg: Les Manuscrits Arabes de l'Escurial

F. Pons Boigues: Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y, و V. I & V. III. Geogrofos Arabigo-Espanoles (Madrid 1898) p. 334-347.

والمستشرق زيبولد : D.P. Gayangos: Mohamed an Dynasties, و Ency. de l'Islam; art. Ibnul Khat ibin Spain (Vol. I. p. 307).

وكذلك نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٣ — ٦٥٧ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ١٨٩ — ١٩٠

ويقسم ابن الخطيب كتابه حسبما يقول لنا فى خاتمة مقدمته إلى قسمين هما : « القسم الأول فى حلى المعاهد والأماكن ، والمنازل والمساكن » وهو يشتمل على الجزء الوصفى ، المتعلق بنشأة غرناطة وجغرافيتها ، وخططها ، وخواصها ، ومحاسنها ؛ وهو أصغر القسمين ، ويقع فى نحو أربعين صفحة فقط . وثانيهما هو « القسم الثانى فى حلى الزائر والقاطن ، والمتحرك والساكن » ، وهو عبارة عن هيكل الكتاب الرئيسى ، ويشمل سائر التراجم التى وردت فيه .

ويتناول ابن الخطيب تاريخ عصره ، وملوك عصره ، سواء فى الأندلس ، أو المغرب ، أو اسبانيا النصرانية ، بدقة وإفاضة ، ويصف ما وقع فيه من الأحداث السياسية والعسكرية ، وصف الخبير المطلع ، ورجل الدولة الواقف على دقائق الأمور ، والعوامل والأسباب .

ويورد لنا ابن الخطيب تراجم طائفة كبيرة من الأعلام والأكابر ، الذين عاشوا فى غرناطة أو نزلوا بها ، أو وفدوا عليها ، فى مختلف عصور الدولة الإسلامية ، ويفيض فى ذكر معاصريه من الملوك ، ثم ذكر أقرانه من الأكابر والوزراء ، مثل ابن الحكيم اللخمى ، والرئيس أبى الحسن بن الجياب ، ورضوان النصرى ، والوزير ابن زمرك ، وغيرهم . ويعنى عناية خاصة بترجمة أكابر العلماء ، والكتاب ، والشعراء ، من معاصريه ، سواء فى الأندلس أو المغرب ، ويورد لنا كثيراً من شعرهم ونثرهم .

وهو لا يلتزم فى كتابه الترتيب التاريخى ، للعصور والحوادث والأشخاص ، ولكنه يلتزم الترتيب الأبجدى ، لأصحاب التراجم . وهو يجمل طريقته فى تأليف « الإحاطة » فى مقدمته فى النبذة الآتية :

«والترتيب الذى انتهت إليه حيلتى ، وصرفت فى اختياره مخيلتى ، هو أنى ذكرت البلدة — حاطها الله — منبهاً منها على قديمها ، وطيب هوائها وأديمها ، وإشراق علاها ، ومحاسن حلاها ، ومن سكنها وتولاها ، وأحوال أناسها ، ومن دال بها من

ضروب القبائل ، وأجناسها ، وأعطيت صورتها ، وأزحت فى الفخر ضرورتها ، وذكرت الأسماء على الحروف المبوبة ، وفصلت أجناسهم بالتراجم المرتبة » .

وقد ذكر لنا ابن الخطيب مصادره فى سياق كتابه ، وفى مقدمتها تواريخ ابن القوطية و بنى الرازى وتاريخ ابن حيان «المقتبس فى رجال الأندلس» ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، والذخيرة لابن بسّام ، وتاريخ مالقة لابن عسكر ، وكتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشى ، وكتاب روض القرطاس لابن أبى زرع الفاسى . ورجع فيما يتعلق بتاريخ الدولة المرابطية، وسير أعيانها ، بالأخص إلى تاريخ ابن الصيرفى المسمى « بالأنوار الجلية فى تاريخ الدولة المرابطية » وهو يكثر الاقتباس منه. وأما فيما يتعلق بالتراجم ، فقد رجع ابن الخطيب إلى تاريخ أبى القاسم الغافقى المسمى « تاريخ علماء إلبيرة » ، وإلى تاريخ ابن مسعدة المسمى « تاريخ قومه » ، وإلى « القدح المعلى فى التاريخ المحلى » و « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » لأبى الحسن بن سعيد ، وإلى كتاب الحلة السيراء لابن الأبار، وكتاب الصلة لابن بشكوال، وصلة الصلة لأبى جعفر بن الزبير ، وكتاب التكملة لابن عبد الملك المراكشى(1) . ورجع فيما يتعلق بتراجم معاصريه وهم الكثرة الغالبة فى كتاب الإحاطة ، من أشياخ وتلاميذ وأقران وغيرهم ، إلى مادة غزيرة من الوثائق والمعلومات الخاصة ، من ذوى الشأن أنفسهم ، أو من أقربائهم ومعارفهم . ورجع فيما يتعلق بسلاطين الدولة النصرية ووزرائها وأكابر دولتها إلى الوثائق والمحفوظات السلطانية والديوانية . ولا بد أنه استخدم فى جمع هذه المعلومات وتنسيقها ، بعض الأقربين من معاونيه .

وينقل ابن الخطيب فى كتاب « الإحاطة » ، نبذاً كثيرة من كتبه السابقة التى ألفها قبل الإحاطة ، ومنها كتاب « عائد الصلة » الذى جعله ذيلا لصلة ابن الزبير ، وطرفة العصر فى دولة بنى نصر ، واللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، ونفاضة

---

(١) تناولنا التعريف بهؤلاء المؤرخين ومؤلفاتهم فى هوامش خاصة ، فى أماكن ذكرهم خلال سياق الكتاب .

الجراب ، والكتيبة الكامنة ، والتاج المحلى . وينقل ابن الخطيب فى بعض كتبه من البعض الآخر كثيراً من الشذور ، وهذه ظاهرة ملحوظة فى كثير من مؤلفاته .

وأما عن تاريخ تأليف كتاب الإحاطة ، فإنه يبدو أن ابن الخطيب ، قد بدأ فى كتابته أو جمع مواده ، قبل محنته الأولى ، أعنى قبل سنة ٧٦١ هـ ، وأنه استأنف الكتابة فيه ، عقب عوده من منفاه بالمغرب إلى غرناطة فى سنة ٧٦٣ هـ . وقد استمر ابن الخطيب فى وزارته الثانية ، متربعاً فى دست الحكم والرياسة ، زهاء عشرة أعوام ؛ وقد كانت هذه الفترة الطويلة التى هى من ألمع فترات حياته ، وأكثرها استقراراً ، وأوفرها نضجاً ، من أخصب فترات إنتاجه ، وفيها وضع كثيراً من كتبه ورسائله ، ودبج كثيراً من النظم والنثر ؛ وفيها استمر فى كتابة الإحاطة حسبما يبدو فى كثير من إشاراته ، وإليك بعض الإشارات التى تؤيد هذه الحقيقة :

قال ابن الخطيب فى خاتمة ترجمته لنفسه « والحال إلى هذا العهد وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة على ماذكرته »[١] .

ويحدثنا فى ترجمة ابن الحاج ، عن أسره ومحنته فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٨ هـ .[٢] ويقول لنا فى ترجمة ابن خاتمة الأنصارى شاعر المرية « وهو الآن بقيد الحياة ، وذلك ثانى عشر شعبان سنة سبعين وسبعمائة »[٣] .

ويسرد ابن الخطيب تاريخ الغزوات الأندلسية المعاصرة فى أراضى النصارى حتى سنة ٧٦٨ هـ ثم يقول لنا إن المسلمين استمروا فى غزواتهم حتى وصلوا إلى أحواز إشبيلية فى ربيع الأول سنة ٧٧١ هـ[٤] .

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤٢ .

(٢) الإحاطة فى نهاية ترجمة « ابن الحاج » .

(٣) الإحاطة فى نهاية ترجمة « ابن خاتمة » .

(٤) الإحاطة المطبوع ج ٢ ص ٥٨ .

وقد تولى تلميذ ابن الخطيب ، أبو عبد الله الشريشى ، مؤدب أولاد السلطان ، نسخ كتاب الإحاطة لأول مرة من مسودات استاذه ، وكان يثق به و يعتمد على معاونته ، فجاءت هذه النسخة الأولى من الإحاطة حسبما يحدثنا المقرى ، في ستة مجلدات[١] .

والظاهر أن ابن الخطيب لم يدون شيئاً فى الإحاطة بعد سنة ٧٧١ﻫ أو سنة ٧٧٢ﻫ على الأكثر ، لأنه اضطر بعد ذلك بأشهر قلائل فقط إلى مغادرة الأندلس ملتجأً إلى المغرب ، وذلك فى أوائل سنة ٧٧٣ ﻫ ، وقد شغل عندئذ فى المغرب بكتابة كتب جديدة ، تمليها ظروف نفيه ، مثل كتاب « أعمال الأعلام » الذى ألفه فى سنة ٧٧٤ — ٧٧٥ ﻫ ، كما شغل بالرد على خصومه ، أمثال القاضى أبى الحسن النباهى وغيره .

(٧)

هذا وقد انتهينا بالبحث والمقارنة إلى أن مخطوطة دار الكتب المصرية ، من الجزء الأول من الإحاطة ، ومخطوطة مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد الموجودة فى مجموعة العلامة جاينجوس ، وهى تحتوى على الأسفار السبعة الأولى ، من الإحاطة ، هما أقدم ما وصل إلينا من أجزاء الإحاطة الأولى ، و إلى أنهما فى الوقت نفسه من حيث الكتابة والنص ، أقيمها وأصحها .

ولذلك رأينا أن تكون هاتان المخطوطتان معاً ، عمدتنا فى تدوين هذا المجلد من « الإحاطة » ، وفى ضبطه وتحقيقه ، وذلك مع مقارنة نصيهما بنص نسخة كوديرا المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، والمنقولة عن نسخة جامع الزيتونة بتونس ؛ ومع الاستعانة فى هذا التحقيق بما نقل من « الإحاطة » من مختلف النصوص والتراجم فى كتابى « نفح الطيب » و« أزهار الرياض » وهما أوفر المصنفات اللاحقة اقتباساً من « الإحاطة » ، وفى غيرهما ؛ وكذلك بما نقل من هذه النصوص

---

(١) نفح الطيب ، ج ٤ ص ٧٥٧ .

فى مؤلفات ابن الخطيب الأخرى التى بين أيدينا سواء من المخطوط أو المنشور . وأخيراً بتتبع النبذ التى نقلها ابن الخطيب عن الكتاب المتقدمين فى مصادرها الأصلية ، مثل « الذخيرة » و« القلائد » و«المغرب » و« الحلة السيراء » و« البيان المغرب » وغيرها .

وقد عنينا عناية خاصة بتحقيق الأعلام التاريخية والجغرافية ، ولا سيما الإسبانية منها كما عنينا بالتعريف بها فى نبذ وهوامش عديدة .

وقد رأينا أن نستعين فى ضبط النص وجلاء المعنى بالشكل الجزئى ، وإن كنا لا نميل إلى اتباع هذه الطريقة . بيد أنها مما يرحب به فى بعض الأوساط .

كما رأينا أن نقف فى سياق هذا المجلد الأول من «الإحاطة » عند نهاية ترجمة محمد ابن محمد بن يوسف ثانى الملوك النصريين . ولم نشأ مجاراة مخطوط « كوديرا » (تونس) حيث يضم الجزء الأول منه نحو نصف الترجمة التالية . وهى ترجمة السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل . وهى ترجمة طويلة تشغل نحو خمسين صفحة . ولم نشأ أن نثبت جزءاً منها دون بقيتها .

وإنا لنرجو ، بعد هـذا الجهد الذى بذلناه فى إعداد هذا المجلد من « الإحاطة » والذى استغرق منا فترة طويلة من العمل المتواصل ، بالقاهرة ومدريد والإسكوريال ، أن نكون قد وفقنا إلى استجلاء نصه ، وإخراجه فى خير الصور الممكنة ، بعيداً ما أمكن عن شوائب الغموض والتحريف ، وأن نكون بذلك قد أدينا بعض الواجب فى سبيل التعاون فى ميدان البحوث الأندلسية .

القاهرة فى المحرم سنة ١٣٧٥
أغسطس سنة ١٩٥٥

محمد عبد الله عنان

رموز المخطوطات

رأينا أن نرمز فى سياق النص إلى المخطوطات المختلفة التى كانت عمدتنا فى تحقيق هذا المجلد من « الإحاطة » على النحو الآتى :

١ — مخطوط دار الكتب المصرية بحرف « ك » .

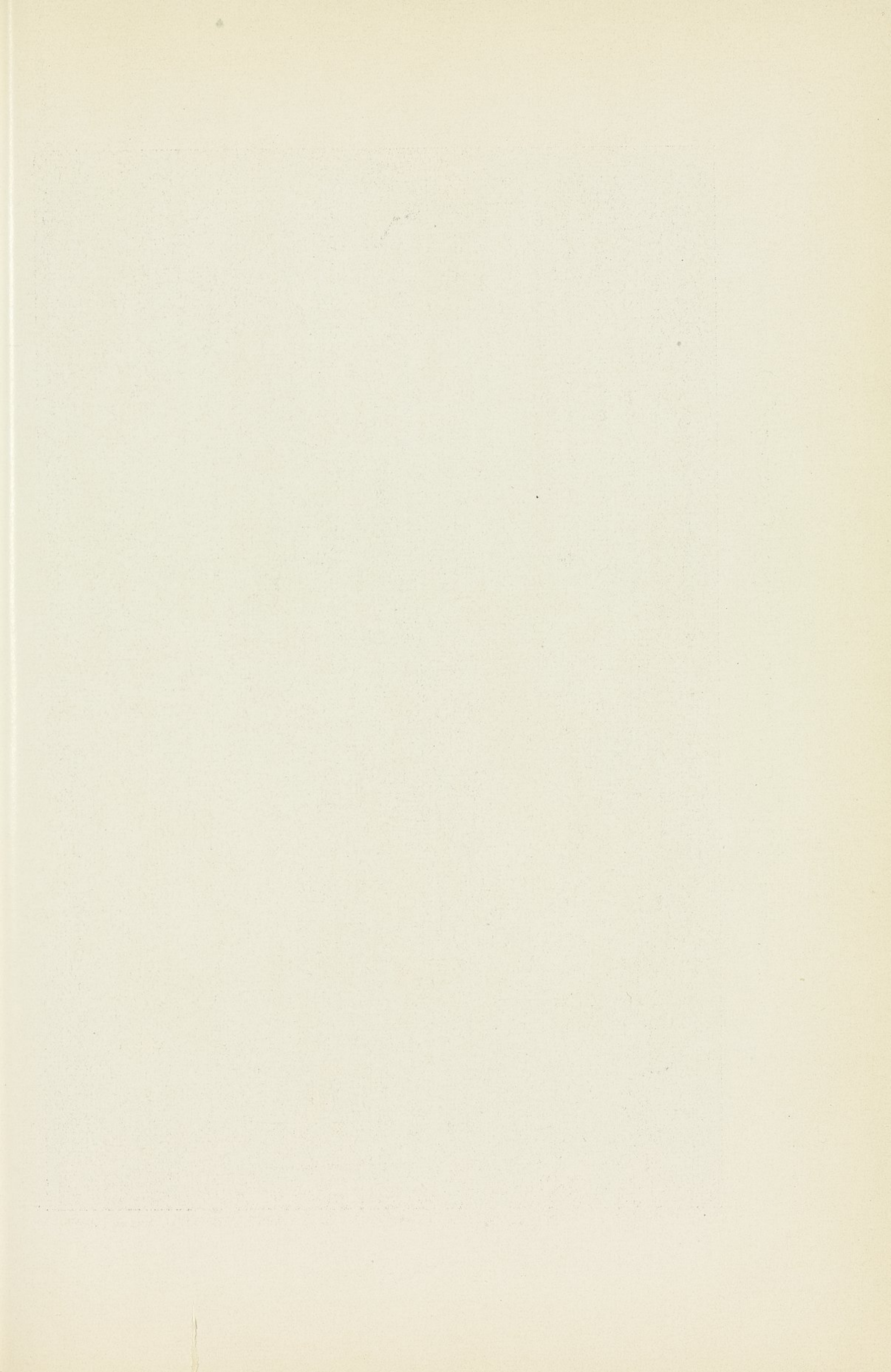
٢ — مخطوط أكاديمية التاريخ (جاينجوس) بحرف « ج » .

٣ — مخطوط كوديرا أو مخطوط تونس بحرف « ت » .

٤ — مخطوط رواق المغاربة بالجامع الأزهر وهو الذى رجعنا إليه فى بعض التراجم التى وردت به بحرفى « ر . م » .

٥ — كذلك سوف نرمز إلى مخطوطى دار الكتب وجاينجوس مجتمعين بكلمة : المخطوطين .

الصفحتان الأوليان من كتاب « الإحاطة » (مخطوط دار الكتب المصرية)



الصفحتان الأوليان من كتاب « الإحاطة » (مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد — مجموعة جاينجوس)



صفحتان من كتاب «الإحاطة» (مخطوط رواق المغاربة بالجامع الأزهر)



الإحاطة
في أخبار غرناطة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

[قال الشيخ الأديب البارع ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب السّلمانى][(1)] : أما بعد حمد الله الذى أحصى الخلايق عدداً ، وابتلاهم اليوم ليجزيَهم غداً ، وجعل جيادَهم تتسابق فى ميادين الآجال إلى مدًى ، وبايَن بينهم فى الصور والأخلاق ، والأعمال والأرزاق ، فلا يجدون بما قسمَ مَحيصاً ، ولا فيما حكم مُلْتَحداً[(2)] ؛ وسِعَهُم عِلمُهُ على تبايُن أفْراقِهم[(3)] ، وتكاثُفِ أعدادِهم ، والداً وولداً ، ونَسبًا وبَلَداً ، ووفاةً ومولداً . فمنهم النبيه والخامل ، والحالى والعاطل ، والعالم والجاهل ؛ ولا يَظْلِم ربُّكَ أحداً . وجعل لهم الأرض ذلولا يمشون فى مناكبها ، ويتخذون من جبالها بيوتًا ، ومن متاعها عُدَداً ؛ وخصّ بعض أقطارها بمزايا تدعو إلى الاغتباط والاعتمار[(4)] ، وتَحُثُّ على السكون والاستقرار ، متبوأً فسيحًا ، وهواء صحيحا ، وماء نَميراً ، وامتناعًا شهيراً ، ورزقًا رَغَداً . فسبحان من جعل التّفاضُل فى المساكن والساكن ، وعرّف العباد عوارف اللُّطف ، فى الظاهر والباطن ، ولم يترك شيئًا سدى .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى ملأ الكون نوراً وهدى ، وأوضح سبيل الحق ، وكانت طرائق قِدَداً[(5)] ، أعلى الأنام يدا ، وأشرف الخلق

---

(1) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى « ج » .

(2) ملتحداً ، أى ملجأ .

(3) جمع ، فرق ؛ أى على اختلاف طوائفهم .

(4) الاعتمار ، أى الزيادة ، ومنها العمرة أو الحج الأصغر .

(5) قدداً ، أعنى متعددة مختلفة .

ذاتا ، وأكرمهم مَحْتِدا ، الذى أنجز الله به من نصر [دينه][١] الحقَّ موعدا ، حتى بلغت دعوتهُ ما زُوى[٢] له من هذا المغرب الأقصى ، فرفعت بكل هَضْبة مَعْلمًا ، وبَنَت بكل هَضْبة مسجدا . والرِّضوانُ عن آله وأصحابه ، الذين كانوا لسماء سُنّته عُمُدا ، ليوث العِدا ، وغيوث النَّدَى ، ما أقلّ ساعدٌ يداً ، وعُمرُ بكر خالداً ، ومصباح بدا ، [فأرق سُهْدًا][٣] فإن الله عز وجهه ، جعل الكتاب لموارد العلم قَيْدًا ، وجوارح اليراع تثير فى السهول الرقاع صيدا ، ولولا ذلك لم يشعر آتٍ فى الخلق بذاهب ، ولا اتصل شاهدٌ بغائب ، فماتت الفضائل بموت أهلها ، وأفَلَت نجومُها عن أعْيُن مُجْتَليها ، فلم يُرْجع إلى خبر يُنقل ، ولا دليل يُعقل ، ولا سياسة تُكْتَسب ، ولا أصالة إليها يُنتَسب ، فهدى سبحانه وألْهم ، وعلّم الإنسان بالقلم [علم][٤] ما لم يكن يعلم ، حتى ألفينا المراسم قائدةً ، والمراشدَ هادية ، والأخبار منقولة ، والأسانيد موصولة ، والأصول محرَّرة ، والتواريخ مقرَّرَة ، والسير مذكورة ، والآثار مأثورة ، والفضائل من بعد أهلها باقيةً خالدةً ، والمآثرَ ناطقةً شاهدة ، كأن النهارَ القرطاسُ ، والليلَ المدادُ ، ينافسان الليل والنهار ، فى عالم الكون والفساد ، فمهما طويا شيئا ولِعا هُمَا بِنَشره ، أو دفنا ذكرا دعوا إلى نشره . فلو أنّ لسان الدهر نطق ، وتأمل لهذه المناقضة وتحقق ، لأتى بما شاء من عَتْبٍ ولوم ، وأنْشَرَه علمه ما به كل يوم .

ولما كان الفنّ التاريخى مأرب البشر ، ووسيلة إلى ضم النشر ، يعرفون به أنسابهم فى ذلك شرعًا وطبعًا ما فيه ، ويكتسبون به عقل[٥] التجربة فى حال السكون والرفيه ، ويستدلون ببعض ما يُبْدى به الدهر وما يخفيه ، ويُرى العاقل

---

(١) وردت فى « ك » ، وأغفلت فى « ج » .

(٢) زوى ، أى بعد ونحى .

(٣) وردت فى « ت » ، وأغفلت فى « ك » و « ج » .

(٤) وردت فى « ك » فقط .

(٥) هكذا وردت فى « ج » و« ت » ، وفى « ك » (حقل) .

من تصريف قدرة الله تعالى ما يشرح صدره بالإيمان ويَشْفيه ، ويمر على مصارع الجبابرة فيَحْسَبُه بذلك واعظًا ويكفيه ، وكتاب الله يتخلله من القصص ما يتمم هذا الشاهدَ لهذا الفن ويُوفيه . وقال الله تعالى : « وكلاًّ نَقصُّ عليك من أنباء الرُّسُل ما نُثبِّتُ به فُؤادكَ » . وقال عز من قائل : « نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ القَصَص بما أوحَيْنا إليك هذا القرآنَ ، وإنْ كنتَ من قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين » .

فوَضَح سبيلٌ مبينٌ . وظهر[١] أن القول[٢] بفضله يقتضيه عقل ودين ، وأن بعض المصنفين ، ممن ترك نومه لمن دونه ، وأَنْزَفَ ماء شبابه مودعًا إياه بَطْن كتابه ، يقصُدُه الناس ويَرِدُونه ، اختلفت فى مثل هذا الباب أغراضُهم . فمنهم من اعتنى بإثبات حوادث الزمان ، ومنهم من اعتنى برجاله بعد اختيار الأعيان ، عجزاً عن الإحاطة بهذا الشان ، عموماً فى أكثر الأقطار ، وخصوصاً فى بعض البُلْدان . فاستهدَف إلى التعميم فرسانُ الميدان ، وتوسعوا بحسب مادة الاطلاع وجهد الإمكان ؛ وجَنَح إلى التخصيص الأولويّةُ بحسب ما يخصه من المكان ، ويلزمه من حقوق السكان ، مغرماً برعاية عهود وطنه ، وحُسن العهد من الإيمان ، بادئاً بمن يعوله كما جاء فى الطرق الحسان . فتذكرتُ جملةً من موضوعات[٣] من أفرد لوطنه تاريخاً هَزَّ إليهـا — علم الله — وفاءٌ وكرمٌ ، ودار عليها ، بقول الله من رحمته الواسعة ، حرم ؛ كتاريخ مدينة بخارى لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الفخار . وتاريخ أصْبهَان لأبى نُعَيم أحمد بن عبد الله الحافظ صاحب الحلية . وتاريخ أصْبهَان أيضًا لأبى زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن قندة الحافظ . وتاريخ نَيْسابُور[٤] للحاكم أبى عبد الله بن اليسع ، وذيله لعبد الغافر بن إسماعيل . وتاريخ هَمَذَان لأبى

---

(١) هكذا فى « ت » . ووردت (يظهر) فى كل من « ج » و « ك » .

(٢) هذا ما أورده « ك » و « ت » ، وفى « ج » (الفصل) .

(٣) فى « ج » وفى « ك » (موضوعاته) .

(٤) نيسابور : مدينة قديمة من مدن خراسان تقع جنوب غربى طوس ، وكان لها أيام الدولة الإسلامية شأن عظيم ، وإليها ينتسب عدد كبير من العلماء .

شُجاع شَيْرَوَيه بن شهردار بن شيرويه محمد بن فناخُسرو الديلمى . وتاريخ طبقات أهل شيراز لأبى عبد الله محمد بن عبد العزيز بن القصار . وتاريخ هراة[١] أظنه لأبى عبد الله الحسن بن محمد الكتبى . وأخبار هراة أيضاً ومن نزلها من التابعين وغيرهم من المحدّثين لأبى إسحٰق أحمد بن ياسين الحداد . وتاريخ سَمَرْقَند لعبد الرحمن بن محمد الأرْدِسى[٢] . وتاريخ نَسَف[٣] لجعفر بن محمد المُعَبر المستعفرى . وتاريخ جُرْجان[٤] لأبى القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمى . وتاريخ الرَّقّة لابن على محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القُشَيرى وتاريخ بغداد[٥] للخطيب أبى بكر بن ثابت ، وذيله لأبى سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعانى . وأخبار بغداد لأحمد بن أبى طاهر . وتاريخ واسِط لأبى الحسين على بن الطيب الخلافى . وتاريخ من نزل حِمْص من الصحابة ومن دخلها ، ومن ارتحل عنها ، ومن أعْقَب ، ولم يُعقِب ، وحدّث ولم يحدّث ، لأبى القاسم عبد الصمد بن سعيد القاضى . وتاريخ دِمَشْق لأبى القاسم على بن الحسن بن عساكر[٦] . وتاريخ مكة للأزْرَقى . وتاريخ المدينة لابن النجّار . وتاريخ مصر لعبد الرحمن أحمد بن نواس . وتاريخ الإسكندرية

---

(١) هراة ، أو هرات مدينة قديمة تقع فى شمال غربى أفغانستان ، وإليها ينتسب « الهروى » الرحالة الشهير .

(٢) الأردسى ، نسبة إلى أردستان وهى مدينة فارسية تقع على مقربة من أصبهان ، وقد وردت الكلمة محرفة فى « ت » (الأندلسى) .

(٣) نسف من مدن التركستان ، وتقع جنوب شرقى بخارى فى طريق بلخ ، وقد رسمت محرفة فى « ت » (نشب) وفى « ج » (نسب) .

(٤) جرجان مدينة فارسية قديمة تقع على مقربة من الطرف الجنوبى الشرقى لبحر قزوين وإليها ينتسب عدد كبير من علماء الحديث واللغة .

(٥) « تاريخ بغداد » للحافظ أبى بكر بن أحمد بن على الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) ، وهو من أضخم التواريخ التى خصصت لمدينة عظيمة ، وقد نشر فى القاهرة سنة ١٩٣١ فى أربعة عشر مجلدا كبيرا .

(٦) «تاريخ مدينة دمشق» تأليف الحافظ أبى القاسم على بن محمد بن هبة الله المعروف بابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) وهو كتاريخ الخطيب البغدادى موسوعة كبرى فى تاريخ دمشق ومن حل بها من الأنبياء والخلفاء والولاة والعلماء والأدباء والشعراء وسائر الأكابر والأعيان على اختلاف طوائفهم . ومنه بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة غير كاملة فى سبعة وثلاثين مجلداً .

لوجيه الدين أبى المظفر منصور بن سليمان بن منصور بن سليم الشافعى. وتاريخ طبقات فقهاء تونس لأبى محمد عبد الله بن إبراهيم بن أبى العبّاس بن خلف التميمى . وعنوان الدِّراية فى ذكر من كان فى المِاية السابعة بِبِجاية، لأبى العباس بن الغبرينى [1] . وتاريخ تِلِمْسان لابن الأصفر . وتاريخها أيضاً لابن هَدِيّة . وتاريخ فاس لابن عبد الكريم . وتاريخها أيضاً لابن أبى زَرْع. وتاريخ فاس أيضاً للقونجى. وتاريخ سَبْتَة المسمى بالفنون السِّتَّة ، لأبى الفضل عِياض بن موسى بن عياض تركه فى مسودته . وتاريخ بَلَنْسية لابن علقمة . وتاريخ إلْبِيرة لأبى القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى الملاَّحى . وتاريخ شُقُورة لابن إدريس. وتاريخ مالَقَة لأبى عبد الله بن عسكر ، تركه غير متمم ، فتممه بعد وفاته ابن أخيه أبو بكر بن خميس . والإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالَقة ، لأبى العباس أَصْبَغ بن العباس . والاحتفال فى أعلام الرجال ، لأبى بكر الحسن بن محمد بن مُفَرّج القيسى . وتاريخ قُرْطُبة، منتخب كتاب الاحتفال . وتاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة بطُلَيْطُلة ، لأبى جعفر بن مظاهر . ومنتخبه لأبى القاسم بن بَشْكُوال . وتاريخ فقهاء قُرْطَبة ، لابن حَيّان . وتاريخ الجزيرة الخضرا لابن خَمِيس . وتاريخ قلعة يَحْصِب المسمى بالطالِع السَّعيد ، لأبى الحسن بن سعيد . وتاريخ بَقيرة ، لأبى عبد الله بن المؤذن . والدُّرَّة المكنونة فى أخبار أُشْبُونة ، لأبى بكر بن محمد بن إدريس الفرَابى العالوسى . ومِزية المَرِيَّة ، لأبى جعفر أحمد ابن خاتمة من أصحابنا . وتاريخ المرية وباجة ، لشيخنا نسيج وحده أبى البركات ابن الحاج ، متع الله بإفادته ، وهو فى مُبَيَّضته ، لم يرمها بعد [2] .

فداخلتنى عصبيّة لا تَقدَح فى دين ولا مَنْصِب ، وحِمَيّة لا يُذَمُّ فى مثلها مُتعصِّبٌ ، رغبةَ أَنْ يقع سؤالُهم وذكرُهم من فضل الله جناب مُخْصِب ، ورأيت أن هذه

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة : المعزرى . العقريرى . العفريرى .

(٢) رأينا فيما يتعلق بهذه التواريخ الأندلسية ، وهى التى اعتمد ابن الخطيب على كثير منها فى استقاء مادة « الإحاطة » ، أن نحيل فى التعريف بها و بمؤلفيها إلى الهوامش الخاصة بذلك خلال السياق.

الحضْرة[١] التى لا خفاء بما وفَّر الله ، من أسباب إيثارها ، وأراده من جلال مقدارها، جعلها ثغرَ الإسلام ، ومتبوَّأ العرب الأعلام ، قَبِيل رسوله ، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وما خَصَّها به من اعتدال الأقطار ، وجريان الأنهار ، وانفساح الاعتمار[٢] ، والتفاف الأشجار . نزلها العربُ الكرام عند دخولهم مختطين[٣] ومنقطعين ، وهبُّوا بدعوة فضلها مُهْطِعين[٤] ، فعمَّرُوا وأولَدوا ، وأثبتوا المفاخر وخَلّدوا ، إلى أن صارت دار مُلْك ، ولَبَّة[٥] سِلكٍ ؛ فنبُهَ المقدارُ وإن كان نبيهاً ، وازدادت الخِطّة ترفيعا ، وجلب إلى سوق الملأ بما نفق فيها ، فكم ضمت جدرانُها من رئيس يتّقِي الصباحُ هجومَه ، ويتخوّفُ الليلُ طروقَه ووجومَه ، ويفتقر الغيثُ لنوائله الممنوحةِ سجُومَه[٦] ، وعالم يبرز للفنون فيطيعه عاصيها ، ويدعو بالمُشكِلات فيأخذ بنواصيها ، وعالمٍ بالله قد وَسَم السجودُ جبينَه ، وأشعَثُ أغبَرُ لو أقسم على الله لأبَرّ يمينه ، وبليغ قد أذعنت لبراعة خطه وشيجةُ[٧] الخط ، يغوص على دُرَر البدايع ، فيلقيها من طِرْسه الراتع الشَّط ، لم يقم بحقها ممتعضٌ حق الامتعاض ، ولا فَرّق بين جواهرها وبين الأعراض . هذا وشُجُر الأقلام مُشْرَعة ، ومكان القول والحمد لله ذو سَعَة ، فهى الحُسْنى التى عدمت الذَّام ، وزينة الليالى والأيام ، والهوى إن قيل كلِفَت بمغانيها ، وقَصُرَت الأيام على معانيها . فعاشق الجمال عذره مقبول ، ولله در أبى[٨] حيث يقول :

ضروب الناس عُشّاقٌ ضُروباً فأعذَرهم أشفّهمُو حبيبا

---

(١) أعنى مدينة غرناطة . « والحضرة » . هى القاعدة والعاصمة .

(٢) يراد بها هنا العمران .

(٣) فى « ك » (محطين) . وفى « ج »(محتطين) . والتصويب أرجح .

(٤) مهطعين ، أعنى مسرعين ومقبلين .

(٥) اللبة هى ما توسط الصدر .

(٦) سجومه أى هطله .

(٧) هكذا وردت فى ج« » . وفى « ك » (وشحية) .

(٨) وردت فى « ك » وفى « ج » (ولله در أبى) . ولكن أثبت فى هامش « ك » كلمة « الطيب » لكى تقرأ « ولله در أبى الطيب » . ولكن البيت ليس من شعر المتنبى ، وإنما هو من شعر والد ابن الخطيب.

فلست ببدعٍ ممن فُتِن بحب وطن ، ولا بأول ما شاقَهُ منزلٌ فألق بالعطَن ، فحب الوطن معجون بطينة ساكنه ، وطرفه مُغرًى بإتمام محاسنه ، وقد نبّه على بن العباس[1] على السّبب ، وجاء فى التماس التّعليل بالعَجَب ، حيث يقول :

وحبَّبَ أوطانَ الرجال إليهم مآربُ قضّاها الشّباب هنالكا
إذا ذَكَروا أوطانهم ذَكّرتهم عهودُ الصبا فيها فحَنّوا لذلكا

ورميتُ فى هذا المعنى بسهم سديد ، وألمَحْتُ بغرض إن لم يَكُنْه فليس ببعيد :

أُحبك يا مَغْنَى الجلال بواجب وأقطعُ فى أوصافك الغُرِّ أوقات
تَقَسَّم منك التُّربَ قومى وجيرتى ففى الظَّهْرِ أحياءٌ وفى البَطْنِ أموات

وقد كان أبو القاسم الغافقى ، من أهل غَرْناطة ، قام من هذا الغرض بفرض ، وأتى من كله ببعض[2] . فلم يَشْفِ من غُلَّة ، ولا سدّ خَلّة ، ولا كثّر قِلّة ، فقمت بهذا الوظيف ، وانتدبت فيه للتأليف ، ورجوت على نزارة حظّ الصّحة ، وازدحام الشواغل المُلِحّة ، أن أضطّلع[3] من هذا القصد ، بالعبء الذى طالما طأطأت له الأكتاد ، وأقف منه الموقف الذى تهيَّبته الأبطال الأنجاد ، فاتخذت الليل جَمَلاً لهذه الطيّة[4] ، وانتضيتُ غاربَ العزْم ونِعْمَت المطيّة ، بحيث لا مُؤانس إلّا ذُبالٌ يكافح جيشَ الدُّجى ، ودفاترُ تَلْقَحُ الحِجا ، وخواطرُ تبتغى إلى سماء الإجادة معْرَجا ؛ وإذا صَحِب العملَ صدقُ النيّة ، أشرقَتْ من التّوفيق كلُّ ثَنِيّة ،

(١) هو على بن العباس بن جريج الشهير فى المشرق بابن الرومى .

(٢) يشير ابن الخطيب هنا إلى أبى القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى نسبة إلى الملاحة la Mala ، وهى قرية فى جنوب غربى غرناطة ما تزال قائمة حتى اليوم ، وهو مؤلف كتاب « تاريخ علماء البيرة » ، وهى عاصمة ولاية غرناطة القديمة .

(٣) وردت فى « ج » وفى « ك » (طلع) وفى ت (اطلع) ، وهو رسم محرف الكلمة (اضطلع) كما هو ظاهر من المعنى .

(٤) وردت فى المخطوطين : المطية .

وطَلَعَت من السَّداد كلُّ غُرَّة سنيّة ؛ وقد علم الله أني لم أعتمد منها دُنيا أستمنحها ، ولا نَسَمَةَ جاهٍ يُسْتَنشَق ريحُها ؛ و إنما هو صبح تبيّن ، وحقٌّ رأيته عليّ قد تعيّن ، بذلت فيه جَهْدى ، وأقطعتهُ جانب سُهْدى ، ليَنْظِم هذا البلد بمثله ، مما أثير كامِنُه ، وسُطِّرت محاسنُه ، وأنشر بعد الممات جانبه :

وما شر الثلاثة أمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تُصبحينا

فلم أدع واحدةً إلا استنجدتُها ، ولا حاشية إلا احتشدتُها ، ولا ضالة إلا نَشَدْتها ؛ والمجتهدُ فى هذا الغرض مقصِّر ، والمطيل مختصر ، إذ ما ذُكر لا نسبة بينه و بين ما أُغفل ، وما جُهل أكثر مما نُقل ، و بِحار المدارك مسجورة[١] ، وغايات الإحسان على الإنسان محجورة ؛ ومن أراد أن يوازن هذا الكتاب بغيره من الأوضاع فليتأمّل قصده ، و يثير كامنه ، و يبدى خبائنه[٢] ، تتضح له المكرُمة ، ولا تخفَى عليه النَّصَفة ، و يشاهد مجزى السيِّئة بالحسنة ، والإغْراب عن الوصمة والظِّنّة ، إذ الفاضلُ فى عالم الإنسان ، من عُددت سَقَطاته ، فما ظنّك بمفضوله . وللمعاصر مزيّةُ المباشرة ، ومزيد الخبرة ، وداعى التشفى والمقارضة ؛ وسع الجميعَ السَّترُ ، وشمِلهم البرُّ ، ونُشِرت جنائزُهم لسَقْى الرحمة ، ومثْنَى الشفاعة ، إلا ما[٣] شذّ من فاسق أباحَ الشرعُ حِماه ، أو غادرٍ وسمه الشؤم الذى جناه ، فتختل[٤] عرضُه عن تخليد مجد ، وتدوين فخر ، و إبقاء ذكرٍ ، لمن لم يهُمُّه قط تحقيقُ اسم أبيه ، ولم يعمل لما بعد يومه ، فكم خَلَفٍ مما ذكر فيه يجده بين يديه ، شفيعاً فى زلّة ، أو آخذاً بضَبْعٍ[٥] إلى رُتْبَة ، أو قائماً عند ضَيْم بحُجَّة ؛ أو عانسٍ يقوم لها مقام متاع ونِحْلَة ، أو غريبٍ يَحِلُّ بغير قُطْره ،

---

(١) أعنى مفعمة فياضة .

(٢) ومعناها « خفاياه » من خبن أى أخفى .

(٣) هكذا وردت فى « ج » و « ك » ، وهو استعمال يؤثره ابن الخطيب . فيضع « ما » مكان « من » .

(٤) وردت فى « ت » (فتتخلل) . وفى «ك» و« ج » (فتتخل) ؛ وما أوردنا أرجح بالنسبة للمعنى

(٥) وردت فى « ت » و « ج » (أو أخذ ببضع) . وفى «ك » (اخل فيضع) .

فيفيده نُحلة ، صاعد خدم قاعداً ونائماً . وقد رضينا بالسلامة عن الشكر ، والإصغاء عن المثوبة ؛ والنَّصفة عِوَض الحسْرة ، إذ الناس على حَسَب ما سُطِّر ورُسم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم .

والترتيب الذى انتهت إليه حيلتى، وصرفتُ فى اختياره مخيلتى ، هو أنى ذكرت البلدة[١] حاطها الله ، مُنَبِّهاً منها على قديمها، وطيب هوائها وأَدِيمها ، و إشراق عُلاها، ومحاسن حُلاها ، ومن سكَنها وتوَلّاها ، وأحوال أناسها ، ومن دال بها من ضُروب القبائل وأجناسها ، وأعطيت صورتها ، وأَزحْت فى الفَخْر ضرورتها ، وذكرت الأسماء على الحروف المبَوبة ، وفصلت أجناسهم بالتراجم المرتّبة ، فذكرت الملوك والأمراء ، ثم الأعيان والكبراء، ثم الفضلاء ، ثم القضاة ، ثم المقرئين والعلماء، ثم المحدّثين والفقهاء ، وسائر الطلبة النجباء ، ثم الكتّاب والشعراء ، ثم العمّال الأَثَراء ، ثم الزهّاد والصّلحاء ، والصوفيّة والفقراء ، ليكون الابتداء بالمُلْك ، والاختتامُ بالمِسْك ، وليُنْظَم الجميع انتظام السِّلْك ، وكلٌّ طبقة تنقسم إلى من سكن المدينة بحكم الأصالة والاستِقْرار ، أو طرأ عليها مما يجاورها من الأقطار ، أو خاض إليها وهو الغريب أثباج[٢] البحار ، أو ألمّ بها ولو ساعة من نهار ؛ فإن كَثُرَت الأسماء نوّعتُ وتوسعتُ ، و إن قلت اختصرتُ وجمعتُ . وآثرت ترتيب الحروف فى الأسماء ، ثم فى الأجداد والآباء ، لشرود الوَفَيات والمواليد ، التى رتبها الزمان عن الاستقصاء ؛ وذهبت إلى أن أذكر الرجل ونَسبَه ، وأَصالتَه وحَسَبه ، ومولده و بلده ، ومذهبه وأنحاله[٣] ؛ والفنّ الذى دعا إلى ذكره ، وحليته ومشيَخته ، إن كان ممن قيّد علماً أو كتَبَه ؛ ومآثره إن كان ممن وصل الفضل بسببه ؛ وشعره إن كان شاعراً ؛ وأدبه وتصانيفه ، إن كان ممن ألّف فى فن أو هَذّبه ، ومحنته إن

---

(١) أى غرناطة .

(٢) وردت فى « ك » و « ج » (اتباج) . وفى « ت » (أشباج). واثباج جمع ثبج ؛ وثبج البحر وسطه ومعظمه .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وقد رسمت محرفة فى « ك » (وانحى له) .

كان ممن بزّه[1] الدهر شيئاً أو سلبَه ؛ ثم وفاته ومُنقلبه ، إذ استرجع الله من منحه حياته ما وهبه .

وجعلت هذا الكتاب قسمين ، ومشتملاً على فَنَّين : القسم الأول ، « فى حُلى المعاهد والأماكن ، والمنازل والمساكن » . القسم الثانى ، « فى حُلى الزّائر والقاطن ، والمتحرك والسّاكن » .

(١) بزه أى سلبه .

القِسمُ الأوّل

فى حُلَى المَعاهد والأماكن
والمنازل والمساكن

فصـــــل

فى اسم هذه المدينة
ووضْعِها على إجْمالٍ واختصار

يُقال غَرْناطة ويقال إغْرَناطة[١]، وكلاهما أعجمى، وهى مدينة كُورَة إلْبيرة[٢]، فبينهما فرسخان[٣] وثلثا فرسخ. وإلبيرة من أعظم كُوَر الأنْدَلُس، ومتوسِّطة ما اشتمل عليـه الفتح من البلاد، وتسمى فى تاريخ الأمم السالفة من الرّوم، سَنَام الأندلس، وتُدعى فى القديم بقَسْطيليّة[٤]. وكان لها من الشُّهرة والعِمارة، ولأهلها من الثروة والعُدَّة، وبها من الفقهاء والعلماء، ما هو مشهور. قال أبو مروان

---

(١) اختلفت آراء الباحثين فى أصل هذه التسمية. فيرى البعض أن اسم غرناطة يرجع إلى عهد الرومان وأنه مشتق من الكلمة الرومانية (اللاتينية) Granata، ومعناها «الرمانة»، وأنها سميت كذلك لجمالها وكثرة حدائق الرمان التى كانت تحيط بها (العلامة زيبولد فى Ency. de L'Islam تحت كلمة Grenade). وهذا ما يقرره الجغرافيون العرب إذ يقولون إن معنى غرناطة «الرمانة» بلسان عجم الأندلس، سمى البلد بذلك لحسنه (راجع معجم ياقوت تحت كلمة غرناطة. طبع القاهرة ج ٦ ص ٢٨١). ويرى المستشرق الإسبانى سيمونيت فى ذلك رأياً آخر، إذ يقول إن المرجح أن الاسم يرجع إلى عهد القوط، وأنه مزيج من كلمة «ناطه»، وهو اسم قرية قديمة كانت تقع على مقربة من البيرة و «غار» وهو المقطع الذى أضافه إليها المسلمون فصارت غرناطة، أو سماها البربر كذلك عند نزولهم بها. وهو اسم لإحدى قبائلهم.

(راجع Simonet: Descripcion del Reino de Granada (Granada 1872). p. 40 &41.)

(٢) إلبيرة، وبالإسبانية Elvira هى مدينة رومانية قديمة. وكانت تسمى على عهد الرومان Illbaris. وكانت عاصمة الولاية التى تسمى بهذا الاسم. ولما فتح المسلمون الأندلس كانت إلبيرة مدينة كبيرة عامرة، وإلى جانبها محلة «غرناطة» الصغيرة. ثم تطور الزمن، وعفت إلبيرة وخربت. ونمت غرناطة، وأصبحت منذ القرن الخامس الهجرى قاعدة الولاية. ثم غدت عاصمة لمملكة غرناطة.

(٣) الفرسخ مسافة تقدر بثلاثة أميال. والميل عند البعض ثلاثة آلاف ذراع. وعند البعض الآخر أربعة آلاف.

(٤) هذا رأى ابن الخطيب. ولكن المستشرق سيمونيت يرى أن قسطيلية هذه، وأصلها اللاتينى Castellum كانت حصناً يقع على مقربة من إلبيرة. ومعناها القشتالى Castella.

(راجع Simonet, ibid. p.31).

ابن حيّان[١] : كان يجتمع بباب المسجد الجامع من إِلبيرة خمسون حَكَمَة[٢] كلها من فِضَّة لكثرة الأشراف بها . ويدل على ذلك آثارُها الخالدة ، وأعلامُها الماثلة ، كطَلَل مسجدها الجامع ، الذى تحامى استِطالة البِلَى ، كسِلت عن طَمْس معالمه أكُفُّ الرَّدى ، إلى بلوغ ما فُسح له من المدَى .

بناه الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، أمير المؤمنين الخليفة[٣] بقُرطُبة رحمه الله ، على تأسيس حَنَش بن عبد الله الصَّنعانى الشافعى رحمه الله ، وعلى محرابه لهذا الوقت : « بسم الله العظيم ، بُنيت لله ؛ أمر ببنائها الأميرُ محمد بن عبد الرحمن ، أكرمه الله ، رجاء ثوابه [العظيم][٤] ، وتوسيعاً لرعيته ؛ فتمَّ بعون الله على يدى عبد الله [بن عبد الله][٥] عامِله على كُورَة إلْبيرة فى ذى القعدة سنة خمسين ومائتين » .

ولم تزل الأيام تخيف ساكنها ، والعَفاء يَتبوَّأ مساكنها ، والفتن الإسلامية تَجُوس أماكنها ، حتى شَمَلها الخراب ، وتَقَسَّم قاطِنَها الاغْتِراب ، وكلُّ الذى فوق التُّراب تُراب . وانتقل أهلها مدة أيام الفتنة البَرْبَرِيّة[٦] سنة أربعمائة من الهجرة ،

---

(١) أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبى (٣٧٧ – ٤٦٩ هـ) من أعظم مؤرخى الأندلس . وقد اشتهر بنوع خاص بكتابه «المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس» وقد انتهت إلينا منه فقط بضع قطع مخطوطة نشرت احداها بعناية المستشرق الإسبانى انتونيا وهى تتعلق بحوادث عصر الفتنة الكبرى (٢٥٠ – ٣٠٠ هـ) وتوجد قطعة اخرى بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد تتعلق بحوادث سنى ٣٦٢–٣٦٥هـ . وعثر الأستاذ ليڤى بروفنسال بقطعة ثالثة تتعلق بسنى ١٨٠ – ٢٣٢ هـ . وله مؤلفات كثيرة أخرى لم تصل إلينا . ويمتاز ابن حيان بأسلوبه النقدى القوى ونظراته الصائبة .

(٢) هى قصبة توضع فى فم الدابة لتذليلها وكبح جماحها .

(٣) التعبير هنا عن أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (توفى سنة ٢٧٣ هـ) بأمير المؤمنين والخليفة هو خطأ أو تجاوز لأن الخلافة الأموية لم تقم بالأندلس إلا بعد ذلك بنحو ثلثى قرن فى عهد عبد الرحمن الناصر .

(٤) زائدة فى « ج » .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى « ك » . وساقط فى « ج » .

(٦) ثارت الحرب الأهلية بالأندلس عقب سقوط الدولة العامرية فى سنة ٣٩٩ هـ بين أمراء بنى أمية وظاهر البربر أحدهم وهو سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر . فزحفوا على الزهراء واقتحموها وخربوها ، ثم حاصروا قرطبة حتى سقطت فى أيديهم ، وارتكبوا فيها رائع السفك والإثم (سنة ٤٠٣ هـ) واستولى زعماؤهم على معظم قواعد الأندلس ومنها غرناطة . وقامت من ذلك الحين دول الطوائف .

فما بعدها ، ولجأوا إلى مدينة غرْناطة ، فصارت حاضرة الصُّقْع ، وأمَّ المِصر ، و بَيْضَة ذلك الحَق[١] ، لحصانة وضْعِها ، وطيب هوائها ، ودُرُور مائها ، ووُفور مَدَّتها ، فأَمِن فيها الخائف ، و نُظِم النَّشر ، ورسخت الأقدام ، وتأثَّل المِصرُ ، وهلمَّ جرًّا . فهى بالأندلس ، قُطْب بلاد الأندلس ، ودار المُلْك ، وقِرَى الإمارة ، أبقاها الله مُتَبوَّأ الكلمة إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومن عليها بقدرته .

من « كتاب إلبيرة »[٢] قال ، بعد ذكر إلبيرة ، وقد خلَفَها بعد ذلك كله مدينة غَرْناطة من أعظم مدنها وأقدمها ، عندما انقلبت العمارة إليها من إلبيرة ، ودارت أفلاكُ البلاد الأنْدلُسية ، فهى فى وقتنا هذا قاعدة الدُّنيا ، وقرارةُ العَلْيا ، وحاضرة السلطان ، وقُبَّة العدل والإحسان . لا يَعْدِلها فى داخلها ولا خارجها بلد من البُلْدان ، ولا يُضاهيها فى اتِّساع عمارتها ، وطيب قرارتها ، وطنٌ من الأوطان . ولا يأتى على حَصْر أوصاف جمالها ، وعَدِّ[٣] أصناف جلالها ، قلمُ البيان . أدام الله فيها العزَّ للمسلمين والإسلام ، وحَرَسها ومن اشتملت عليه من خلفائه ، وأنصار لوائه ، بعَيْنه التى لا تنام ، ورُكْنه الذى لا يُرام .

وهذه المدينة من مَعْمُور الإقليم الخامس ، يبتدئ من الشرق ، من بلاد يَأْجُوج ومأْجوج ، ثم يمرُّ على شمال خُراسان ، ويمرُّ على سواحل الشَّأم ، مما يلى الشمال ، ويمرُّ على بلاد الأَنْدَلُس ، قُرْطبة و إشبيلِيّة وما والاها ، إلى البحر المُحيط الغربى . وقال صاعدُ بن أحمد فى كتاب «الطَّبَقات»[٤] إنَّ مُعْظَم الأندلس فى الإقليم الخامس ،

---

(١) هكذا فى « ك » وفى « ج » ، الحو .

(٢) هو كتاب « تاريخ علماء إلبيرة » لأبى القاسم الملاحى الذى سبقت الإشارة إليه .

(٣) وردت فى المخطوطين (ك و ج) ، « عن » وهو تحريف . والمعنى يستقيم بالتصويب .

(٤) هو أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد القرطبى . ولد بالمرية سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ودرس على الفيلسوف ابن حزم ، وولى القضاء بطليطلة . وسما ذكره فى ظل دولة بنى ذى النون . وتوفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) . واشتهر بكتابه : « التعريف بطبقات الأمم » . وهو مختصر جغرافى ، ومنه نسخة خطية فى المتحف البريطانى (ترجمته فى الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣٥) .

وطائفةً منها فى الإقليم الرابع ، كمدينة إشبيلية ، ومالَقَة ، وغَرْناطة ، وألْمَرِيَّة ، ومُرْسِية[١] .

وذكر العلماء بِصِناعة الأحكام أنّ طالعها الذى اختُطّت به السَّرَطان[٢] ، ونحلوها[٣] ، لأجل ذلك ، مزايا ، وحظوظاً من السعادة ، اقتضاها تَسْيير أحكام القِرَانات الانتقالِيَّة على عهد تأليف هذا الوضع .

وطولها سبع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضُها سبع وثلاثون درجة وعشر دقائق . وهى مساويةٌ فى الطول بأمر يسير لقُرْطُبة ، ومَيُورْقَة ، وألْمَرِيَّة ؛ وتقرُب فى العَرْض من إشبيليّة ، وألْمَرِيَّة ، وشاطِبَة ، وطُرْطُوشة ، وسَرِدانية ، وأَنْطاكِيَّة ، والرّقَّة . كل ذلك بأقل من درجة . فهى شامِيَّةٌ فى أكثر أحوالها ، قريبة من الاعتدال ، و بينها و بين قرطبة ، أعادها الله تعالى ، تسعون ميلا[٤] . وهى منها بين شَرْق وقِبْلة . و بحر الشَّأم[٥] يحول[٦] و يحاجز بين الأندلس و بلاد العُدْوَة[٧] ، و بين غَرْب وقِبْلة على أربعة بُرُد[٨] . والجبال بين شرق وقبلة ، والبَراجِلات[٩] بين شرق وجَوْف ، والكَنْبانِية[١٠] بين غرب وقبلة ، و بين جوف وغرب ، فهى

---

(١) وردت فى المخطوطين : المرسية .

(٢) هكذا فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » : السطران .

(٣) وردت فى المخطوطين : ويحلوها . والتصويب من « ت» .

(٤) الميل عند العرب ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف ذراع . والمسافة بين غرناطة وقرطبة وفق التقدير الحديث نحو مائة وخمسون كيلومتراً .

(٥) بحر الشأم اعنى البحر الأبيض المتوسط .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة (ج وك و ت) : يحال وهو تحريف

(٧) أعنى عدوة المغرب ، أو ما وراء الضفة الأخرى من البحر المقابلة للأندلس .

(٨) جمع بريد وهو مقياس للمسافة الطويلة ويقدره العرب باثنى عشر ميلا .

(٩) البراجلات جمع برجيلة وهو تعبير جغرافى قديم يطلق على بعض المناطق الجبلية .

(١٠) رسمت هذه الكلمة فى « ت » (الكتباقية) وفى « ك » (الكنباققه ، وفى « ج » (الكنباقه) وهى كلها صور محرفة .وصوابه (الكنبانيه) وهى كلمة مشتقة من كلمة Campo القشتالية ، ومعناها هنا البسيط أو السهل من الأرض .

لمكان جوار السَّاحل ، ممَارَّةٌ بالبوَاكر السَّاحلية ، طيبة[١] البحار ، وركابٌ لجهاد البحر[٢] ، ولمكان استقبال الجبال ، المقصودة بالفواكه المتأخِّرة اللحاق ، مُعَلَّلَةٌ بالمُدَّخَرات ، استِدْبار الكَنْبانيَّة ، واضْطبار البَراجلات ؛ بحرٌ من بحور الحِنْطة ، ومعدنٌ للحبوب المُفَضَّلة ، ولمكان شُلَيْر ، جبل الثلج[٣] ، أحد مشاهير جبال الأرض ، الذى يَنزل به الثلج شتاءً وصيفاً ، وهو على قِبْلة منها على فرسخين ؛ ويَنْساب منه ستةٌ وثلاثون نهراً من فوهات الماء ، وتَنْبَجِس[٤] من سفوحه العيونُ ، صحَّ منها الهواء ، واضَّطردت فى أرجائها وساحاتها المياهُ ، وتعدَّدت الجَنَّاتُ بها والبساتينُ ، والتفّت الأدواحُ ، وشمَّر الرُوَّاد على منابت العُشْب فى مظَانِّ[٥] العَقار مُسْتودعات الأَدْوية والتِّرْياقيَّة . وبَرْدُها لذلك فى المُنْقَلَب[٦] الشتوى شديدٌ ، وتَجْمُدُ بسببه الأدهان والمائعات ، ويتراكم بساحاتها الثلج فى بعض السنين ؛ فجُسُوم أهلها لصِحّة الهواء صُلْبَةٌ ، وسِحانهم خَشِنة ، وهُضُومهم قويَّة ، ونفوسهم لمكان الحَر الغريزى جَرِيَّة[٧] .

وهى دارُ مَنَعَةٍ وكرسى مُلْك ، ومقامُ حَصانة . وكان ابن غانية[٨] يقول للمرابطين

---

(١) هكذا فى « ت » . وفى « ج » و « ك » ، طيه .

(٢) فى « ت » ، البحرية .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة « شير » وهو تحريف . و يطلق الجغرافيون الأندلسيون اسم « شلير » أو جبل الثلج على جبال سييرا نفادا الشهيرة التى تشرف على مدينة غرناطة بآكامها العالية من الجنوب الشرقى . وشلير محرفة عن اللاتينية Solarius أو Solarus ومعناه جبل الشمس . وذلك لأن الشمس تسلط أشعتها الساطعة على هذه الجبال فينعكس ضوءها على الثلوج الناصعة التى تغطيها . وسميت أيضاً بجبل الثلج ، وهو ترجمة عربية مطابقة لاسمها القشتالى Sierra Nevada أى الجبال الثلجية .

(٤) أى تتفتح وتسيل . وقد وردت محرفة فى المخطوطات الثلاث .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » مكان . والأول أرجح .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و « ت » المنقف .

(٧) أى جريئة .

(٨) هو أبو زكريا يحيى بن غانية كبير قواد المرابطين فى الأندلس حينما اضطرب سلطانهم فيها ، وخرج عليهم معظم الزعماء الأندلسيين فى نفس الوقت الذى عبر فيه خصومهم الموحدون البحر إلى الأندلس يريدون افتتاحها (سنة ٥٤٠ هـ) . وبذل ابن غانية جهداً فادحاً فى الدفاع عن سلطان المرابطين ، ولكن القواعد الأندلسية خرجت من قبضته تباعاً ، واضطر فى النهاية أن يمتنع بغرناطة التى طوقها الموحدون . وسقط ابن غانية قتيلا فى الموقعة التى تلت بين المرابطين والموحدين ودفن بغرناطة (سنة ٥٤٣ هـ) .

فى مُرِّ موته ، وقد عوّل عليها للامتساك بدعوتهم : الأندلُس دَرَقة ، وغرْناطة قَبْضَتُها ، فإذا جَشَّمتم يا معشر المرابطين القَبْضة لم تخرج الدرقة من أيديكم .

ومن أبدع ما قيل فى الاعتذار عن شِدَّة بَرْدها ، ما هو غريب فى معناه ، قول شيخنا القاضى أبى بكر بن شَبْرين رحمه الله(١) :

رعى الله من غرْناطة متبوأً ... يسُرُّ كئيباً(٢) أو يُجيرُ طريدا
تبرَّم منها صاحبى عندما رأى ... مَسارحَها بالبَرْد(٣) عُدْن جَلِيدا
هى الثَّغرُ صان الله من أهلَت به ... وما خيرُ ثغرٍ لا يكون بَرُودَا

وقال الرَّازى(٤) عند ذكر كُورَة إلبيرة : ويتصل بأحْواز قَبْرَة كورةُ إلبيرة ، وهى بين الشَّرق والقِبلة ، وأرضُها سَقى غزيرة الأنهار ، كثيرة الثِّمار ، ملتَفَّة الأشجار ، أكثرها أدواح الجَوْز ، ويحسُن فيهـا قصب السُّكر ؛ ولها معادنُ جوهرية من ذهب ، وفضة ، ورصاص ، وحديد . وكورة إلبيرة أشرف الكور ، نزلها جند دِمَشق . وقال : لها من المدن الشريفة مدينة قَسْطِلِيَّة ، وهى حاضرة إلبيرة ، وفَحْصُها لا يُشَبَّه بشيء من بقاع الأرض طِيباً ولا شَرَفاً إلّا بالغوطَة ، غوطة دِمَشق(٥) .

وقال بعض المؤرخين : ومن كَرَم أرضنا أنها لا تَعْدَم زريعةً بعد زريعةٍ ، ورعْياً بعد رعْى ، طُول العـام ؛ وفى عِمالتها المعادن الجوهرية من الذهب ، والفضة ، والرصاص ، والحديد ، والتوتية . وبناحية دَلَاية(٦) من عملها ، عود اليلَنْجوج ،

(١) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن شبرين من شيوخ ابن الخطيب . (٦٧٤ — ٧٤٧ هـ) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد فى الإحاطة .

(٢) وفى نص « حزيناً » (راجع رحلة ابن بطوطة — مصر — ج ٢ ص١٨٧) .

(٣) وفى نص « بالثلج » (راجع رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص١٨٧) .

(٤) هوأحمد بن محمد بن موسى الرازى من مؤرخى الأندلس . ولد سنة ٢٧٤ هـ . وتوفى سنة ٣٤٤ هـ ، (٩٥٥ م) ومن تصانيفه : « اخبار ملوك الأندلس » وكتاب «الاستيعاب فى أنساب أهل الأندلس » . وغيرها .

(٥) هى الوادى الخصيب الذى تقع فيه دمشق . قال ياقوت : « والغوطة كلها أشجار وأنهار متصلة . وهى بالإجماع أنزه بلاد الله وأحسنها منظراً » (معجم ياقوت ج ٦ ص ٣٠٤) .

(٦) دلاية هى الآن Dalias الحديثة . وهى بلدة صغيرة تقع غرب المرية فى جنوبى سفح جبال « غدر » Gador ، على مقربة من البحر الأبيض المتوسط .

لا يفوقه العود الهندى ذكاً وعطرَ رائحة . وقد سيق منه لُخَيْران[1] صاحب المَرية أصلٌ كان منْبتُه بين أحجار هناك . وبجبل شُلَيْر[2] منها سُنْبُل فائق الطِّيب ، وبه الجَنْطيانا ، يحمل منه إلى جميع الآفاق ، وهو عقيرٌ رفيع ، ومكانه من الأدوية التِرياقية مكانه[3] . وبه المَرْقَشِينَة على اختلافها ، واللاّزَوَرْدُ. وبفَحْصِها وما يتصل به القِرْمِزُ . وبها من العقار والأدوية النَّباتية والمَعْدنية[4] ما لا يحتمل ذكرُها الإيجاز . وكفى بالحرير الذى فَضَلت به فخراً وقِيمَةً ، وغَلَّة شريفة ، وفائدة عظيمة ، تمتارُه منها البلاد ، وتجلبه الرفاق ، وفضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقيـة . وفحصُها الأفْيَح[5] المُشَبَّه بالغُوطة الدمشقية حديثُ الرِّكاب ، وسمر الليـالى ، قد دَحاه الله فى بسيط سهل تخترقه المذانب ، وتتخلَّله الأنهار جداول ، وتتزاحم فيه القُرى والجَنَّات ، فى ذَرْع أربعين ميلاً أو نحوها ، تَنْبُو العين فيها عن وجهه ، ولا تتخطَّى المحاسن منها إلا مقدار رقعة الهضاب ، والجبال المُتَطامية منه بشكل ثُلثى دارةٍ ، قد عَرَت منه المدينة فيما يلى المركز لجهة القِبْلة ، مستندة إلى أطواد سامية ، وهِضاب عالية ، ومناظرَ مُشْرِفة : فهى قيدُ البصر ، ومنتهى الحُسْن . ومعنى الـكمال ، أضفَى الله عليها ، وعلى من بها من عباده المؤمنين جَنَاح سَتْره ، ودفع عنهم عدُوَّ الدِّين بقدرته .

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين (لخيزران) . وخيران العامرى هو أحد زعماء الدولة العامرية من الفتيان الصقالبة . نهض عقب سقوط بنى عامر ، وقيام الثورة الأموية فى جماعة من الفتيان العامريين وخصوم بنى أمية وزحف على مدينة المرية واستولى عليها (سنة ٤٠٣ هـ) . وحالف بنى حمود الأدارسة فى البداية ثم انقلب عليهم . ولبث يتقلب بين القوى المختلفة حتى توفى قتيلا فى موقعة نشبت بينه وبين البربر فى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) .

(٢) وردت فى «ج» : شنيل . وهو تحريف ظاهر ، إذ أن شنيل نهر لا جبل .

(٣) وردت بعد هذه الكلمة فى المخطوطين عبارة : (وقد خاطب فيها أبو جعفر المنصور) وهى عبارة مدخولة لامكان لها فى هذا الموطن ولهذا رأينا حذفها .

(٤) فى «ج» المغرانية .

(٥) الفحص أو فحص غرناطة هو مرجها الشهير La Vega de Granada ، وهو البسيط الأخضر الذى تشرف عليه غرناطة من الجنوب الشرقى . وقد كان أيام الدولة الإسلامية من أنضر وأبدع بقاع الأندلس الخضراء ، وكان بمزارعه اليانعة وحدائقه الغناء متنزه الناس المفضل ولا سيما فى ليالى الصيف . وكان مستقى لوحى الشعر والنثر . أما اليوم فقد زالت مغانيه القديمة وقلت خضرته وتخللته الرقاع الجرداء .

فصــــل

فى فتح هذه المدينة

ونزول العرب الشَّاميين من جُند دمشق بهـا
وما كانت عليه أحوالهم ، وما تعلَّق بذلك من تاريخ

قال المؤلف : اختلف المؤرخون فى فتحها . قال ابن القُوطِيَّة(١) : إن يُلْيَان الرُّومى(٢) الذى نَدَب العرب إلى غزو الأندلس طلباً لوَتْره من ملِكها لُذْرِيق(٣) بما هو معلوم، قال لطارق بن زِياد مُفتتِحها عند ما كسر جيش الرُّوم(٤) [على وادى لَكُّه : قد فَضَضتَ جيش القَوْم](٥) ودوَّخت حاميتهم ، وصيّرت الرعب فى قلوبهم ، فاصمد لبيضتهم ؛ وهؤلاء أدلاء من أصحابى ، ففرق جيوشك فى البُلدان بينهم ، واعْمَد أنت إلى طُلَيْطلة بمعظمهم،وأشْغِل القوم عن النظر فى أمرهم ، والاجتماع إلى ولىِّ رأيهم .

---

(١) ابن القوطية هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطية لانتمائه بطريق النسب إلى ساره القوطية ابنة وتيزا ملك القوط التى أسلمت عند الفتح وتزوجت من أحد أعيان المسلمين ، ولد بقرطبة وتوفى بها سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧م) وكتب تاريخه المسمى « تاريخ افتتاح الأندلس ». وقد نشر بعناية المستشرق الإسبانى ريبيرا مقروناً بترجمة إسبانية .

(٢) يليان الرومى هو الكونت يوليان الشهير فى سيرة فتح الأندلس . وكان وقت أن توغل المسلمون فى المغرب الأقصى وافتتحوا طنجة ، حاكماً لثغر سبتة المنيع . وكان يظاهر الحزب الذى يخاصم ردريك ملك القوط يحفزه إلى ذلك عامل الانتقام ، لأن ردريك حسبما تقول الرواية اغتصب ابنته التى كانت نزيلة بقصره . فلما اقترب العرب من سبتة اتصل بموسى بن نصير ودعاه إلى فتح الأندلس ، وقدم سفنه إلى العرب ليسهل لهم العبور اليها ، وعاونهم خلال الفتح بمختلف الوسائل .

(٣) لذريق أى ردريك آخر ملوك القوط .

(٤) الروم هنا يقصد بها القوط .

(٥) هذه العبارة ساقطة فى « ك » وواردة استدراكاً فى هامش « ج » .

قال : ففرَّق طارق جيوشه من إِسْتِجَّة ؛ فبعث مُغيثاً الرُّومى ، مولى الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى قُرْطبة ؛ و بعث جيشاً آخر إلى مالَقَة ؛ وأرسل جيشاً ثالثاً إلى غَرْناطة مدينة إِلْبيرة ؛ وسار هو فى معظم الناس [إلى كورة جَيَّان](١) يريد طليطلة . قال فمضى الجيش الذى وجَّه طارق إلى مالقة ففتحها ، ولجأ عُلوجها إلى جبال هناك ممتنعة . ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى إلبيرة ، فحاصروا مدينتها ، وفتحوها عَنْوة ؛ وألْفَوْا بها يهوداً ضموهم إلى قَصَبة(٢) غرناطة ؛ وصار لهم سُنَّة مُتَّبعة ، متى وجدوا بمدينة فتحوها يهوداً ، يَضمُّونهم إلى قَصَبتها ، و يجعلون معهم طائفةً من المسلمين يَسُدُّونها . ثم مضى الجيش إلى تُدْمير .

وكان دخول طارق بن زياد الأندلُس يوم الإثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنين وتسعين . وقيل فى شعبان . وقيل فى رمضان ، بموافقة(٣) شهر غُشْت من شهور العَجَمية .

وذكر معاوية بن هشام(٤) وغيره ، أن فتح ما ذكر تأخَّر إلى دخول موسى بن نصير فى سنة ثلاث وتسعين . فتوجه ابنه [عبد العزيز](٥) فى جيش إلى تُدْمير(٦) فافتتحها ، ومضى إلى إِلْبيرة فافتتحها ، ثم توجَّه إلى مالَقَة .

قال المؤلف رحمه الله : ولما استقرَّ مُلك الإسلام بجزيرة الأندلس ، ورمى إلى

---

(١) الزيادة ساقطة فى « ك » وواردة فى هامش « ج » .

(٢) القصبة أى القلعة وهو استعمال أندلسى ذائع .

(٣) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » ، موافق . وغشت أعنى أغسطس .

(٤) معاوية بن هشام بن محمد بن هشام ، هو أديب وكاتب قرطبى من سلالة بنى أمية ، عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وكتب كتاباً فى تاريخ الأندلس عنوانه « دولة بنى مروان بالأندلس » . ويكثر ابن حيان من الاقتباس منه .

(٥) وردت فى المخطوطين (ج و ك) : عبد الأعلى ، وهو خطأ اقتضى التصويب .

(٦) تدمير هى إحدى ولايات الأندلس الشرقية القديمة ، سميت باسم أميرها والمدافع عنها وقت الفتح تيودمير . ثم غدت بعد ذلك ولاية مرسية .

قصبتها الفتح ، واشرأبَّ فى عَرَصاتها الدِّين، ونزلت قرطبة وسواها العرب ، فتبوؤوا الأوطان ، وعمروا البلدان ، فالدَّاخلون على [يد][١] موسى بن نصير [يُسَمَّون بالبَلديِّين][١] ، والداخلون بعدهم [مع][١] بُلْج بن بِشْر القُشَيرى ، يُسمَّون بالشَّاميين ؛ وكان دخول بُلج بن بشر القُشيرى بالطَّالعة البُلْجيَّة سنة خمس وعشرين ومائة .

ولما دخل الشاميُّون مع أميرهم بُلج ، حسبما تقرر فى موضعه ، وهمأسود الشَّرى[٢] عزَّة وشهامة ، غُصَّ[٣] بهم السابقون إلى الأندلس ، وهم البَلديُّون ، وطالبوهم بالخروج عن بَلَدهم الذى فتحوه ، وزعموا أنه لا يحمِلُهم و إياهم ، واجتمعوا لغزوهم ، فكانت الحروب تدور بينهم ، إلى أن وصل الأندلس ، أبو الخَطَّار حُسام بن ضِرار الكلْبى ، عابراً إليها البحر من ساحل تونس ، وأظَلَّ على قُرْطُبة على حين غفلة ، وقد ستَر خبر نفسه ، والحرب بينهم ، فانقاد إليه الجميع بحكم عهد مُدينه[٤] حَنْظَلة بن صَفْوان والى إفريقية[٥] ، وقبض على وجوه الشاميِّين عازماً عليهم فى الانصراف حسبما هو مشهور ؛ ورأى تَفْريق القبائل فى كُوَر الأندلس ، ليكون أبْعَدَ للفتنة ، ففرَّقهم ، وأقْطَعهم ثُلث أموال أهل الذِّمّة ، الباقين من الرُّوم ، فخرج القبائل الشاميون عن قرطبة .

---

(١) ظاهر من سياق النص أن هناك كلمات ساقطة فى الأصل ، والمرجح أنها هى التى وضعناها بين الحاصرتين ، وبها يستقيم المعنى التاريخى .

(٢) « الشرى » ، جانب الفرات .

(٣) فى المخطوطين : غض .

(٤) فى المخطوطات الثلاثة : مدينة .

(٥) كانت الأندلس عقب الفتح تعتبر ولاية تابعة لافريقية من الناحية الإدارية. ووالى افريقية هو الذى يختار حاكمها، واستمر ذلك معظم عصر الولاة .

قال أبو مروان[١] : أشار على أبى الخطار ، أرْطَباس[٢] قُومِس الأندلس[٣] ، وزعيم عَجَم الذمة[٤] ، ومُستخرِجُ خراجهم[٥] لأمراء المسلمين — وكان هذا القُومِسُ شهير العلم والدَّهاء — لأول الأمر ، بتفريق القبائل الشاميين العَلَمين[٦] على البلد ، من دار الإمارة قرطبة ، إذ كانت لا تحمِلُهم ، وإنزالهم بالكُوَر ، على شَبه منازلهم التى كانت فى كُورَ شامِهم ، ففعل ذلك عن اختيار منهم ؛ فأنزَل جُند دِمَشق كُورَة إلْبيرة ، وجند الأُرْدن كورة جَيَّان ، وجند مصر كورة باجة[٧] ، وبعضهم بكورة تُدْمير : فهذه منازل العرب الشاميين ؛ وجعل لهم ثُلث[٨] أموال أهل الذِّمَّة من العجم طُعْمةً ؛ وبقى العرب والبَلَدِيُّون والبرابرة[٩] شركاؤهم ؛ وسكنوا واغْتَبَطوا وكَبُروا وتموَّلوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه فى الفتوح على عَنائهم ، لم يُعْرِض لهم فى شىء منها . فلما رأوا بُلداناً شَبَه بُلدانهم بالشأم ، نزَلوا وسكنوا واغتبطوا وكبُروا وتموَّلوا، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه

---

(١) هو ابن حيان مؤرخ الأندلس ، وقد سبقت الإشارة إليه .

(٢) أرطباس هو الأسقف أو باس أخو الملك وتيزا . وكان مثل الكونت يوليان قد تحالف مع العرب منذ الفتح هو وولدا أخيه، إيفا وسيزبوت اللذان تسميهما الرواية الإسلامية « المند » و « رملة » . وقد عينه العرب عقب الفتح حاكماً لطليطلة ورئيساً للنصارى الذين انضووا تحت لواء الفاتحين .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : « قوس الأندلس » . وهو تحريف ، والصواب « قومس » . والقومس هو الرسم العربى لكلمة Comes اللاتينية ، وهو الزعيم أو الرئيس . وقد أنشأ المسلمون منذ الفتح منصب « القومس » و « القوامس » وهم زعماء النصارى فى القواعد الأندلسية . ثم تطور المنصب حتى غدا منصباً دينياً يليه أسقف أو مطران للنصارى يرعى شئونهم الروحية .

(٤) عجم الذمة أو النصارى المعاهدون Los Mozarabes . وسنتحدث عنهم فيما بعد .

(٥) وردت فى « ج » و « ك » : مزاحهم . وفى « ت » : مزاجهم . وقد رجحنا التصويب .

(٦) هكذا فى المخطوطات الثلاث : والعلمين نسبة الى علم ، وهو مكان بالشام .

(٧) وردت فى المخطوطين : باجت .

(٨) وردت فى المخطوطين : « ثلثا » . والصواب : ثلث كما يتضح ذلك من سياق الكلام بعد

(٩) يريد البربر . وهو التعبير الصحيح .

موضعاً رضيًّا ، فإنه لم يَرْتحل عنه[١] ، وسكن به مع البَلَدِيِّين . فإذا كان العطاء أو حضر الغزو ولَحِق بجُنْده ، فهم الذين كانوا سُمّوا الشّادَّة حينئذ .

قال أحمد بن موسى[٢] : وكان الخليفة يعقد لِوَاءين ، لواء غازياً ، ولواء مقيماً ؛ وكان رِزْقُ الغازى بلوائه مائتى دينار . ويبقى المُقيمُ بلا رزق ثلاثةُ أشهر ؛ [ثم يدال بنظيره[٣] من أهله أو غيرهم][٤] . وكان الغُزاة من الشّاميين مثل إخوة المَعهُود له أو بنيه أو بنى عمه ، يُرزقون عند انقضاء غُزاته عشرة دنانير ؛ وكان يَعقد المعقودُ له ، مع القائد ؛ يَتكَشّفُ عمن غزا ، ويَسْتحقُّ العَطاء ، فيُعطى على قوله تَكرِمة له ؛ وكانت خِدمتهم فى العسكر ، واعتراضهم إليه ؛ ومن كان من الشّاميين غازياً من غير بيُوتات العَقْد ، ارتزَق خمسة دنانير عند انقضاء الغَزْو . ولم يكن يُعطى أحدٌ من البلَديين شيئاً غير المعقُود له ؛ وكان البلديُّون أيضاً يعقد لهم لواءان[٥] ، لواء غاز ، ولواء مُقيم ؛ وكان يرتزق الغازى مائة دينار وازنة ؛ وكان يُعقد لغيره إلى ستة أشهر ، ثم يُدال بنَظيره من غيرهم ؛ ولم يكن الدِّيوان والكَتبةُ إلا فى الشّاميين خاصَّة ؛ وكانوا أحراراً من العُشْر ، معدِّين للغزو ، ولا يلزمُهم إلا المقاطعة على أموال الرُّوم التى كانت بأيديهم ؛ وكان العرب من البلديين يؤدُّون العُشر ، مع سائر أهل البلد ، وكان أهلُ بيوتاتٍ منهم يَغزُون كما يغزو الشاميُّون ، بلا عطاء ، فيسير بهم إلى ما تقدَّم ذكره . وإنما كان يُكتَب أهلُ البلد فى الغزو ؛ وكان الخليفةُ يُخْرِج عسكرين ، إلى ناحيتين ، فيَستَتِرُ بهم ؛ وكانت طائفةٌ ثالثة يُسمَّون النُّظَراء من

---

(١) يوجد ثمة فى هذه الفقرة بعض تكرار . ولكن هناك اختلافاً فى المعنى . والنص وارد كما هو فى المخطوطات الثلاثة .

(٢) هو أحمد بن موسى العروى من مؤرخى الأندلس . ألف كتاباً عنوانه : « تاريخ الأندلس » ذكره حاجى خليفة فى « كشف الظنون » . ولكنه لم يصل إلينا . وتوفى سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) .

(٣) هكذا وردت فى « ك» . ووردت محرفة فى « ج » : يديل بنظره .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى « ت » .

(٥) فى « ج » و « ت » : لواءين .

الشاميين والبلَدِيين ، كانوا يَغْزُون كما يغزو أهل البلد من الفريقين . وقد بينا نبذة من أحوال هؤلاء العرب . والاستقصاءُ يُخْرِج كتابنا عن غرضه . والإحاطةُ لله سبحانه .

ذكر ما آل إليه حال [مَنْ][1] سَاكَن المسلمين بهذه الـكُورَة من النصارى المُعاهدين[2] على الإيجاز والاختصار

قال المؤلف : ولما استقرَّ بهذه الـكُورَة الـكريمة أهل الإسلام ، وأنزَل الأمير أبو الخطار قبائل العرب الشاميِّين بهذه الـكورة ، وأقطَعهم ثُلْث أموال المُعاهدين ،

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، ولكنها ضرورية لاستقامة المعنى .

(٢) النصارى المعاهدون ، أو المعاهدون ، أو المعاهدة ، أو المستعربون ، وبالإسبانية : Los Mozarabes ، هم النصارى الذين بقوا بعد فتح الأندلس فى المدن والبقاع المفتوحة تحت حكم الدولة الإسلامية . وكانوا يكونون أقليات كبيرة فى القواعد الرئيسية مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ، ويتمتعون فى ظل الحكومة الإسلامية باستقلال محلى ، ويطبقون شرائعهم القوطية القديمة ، ولهم قضاؤهم الخاص ، ولهم كنائسهم يزاولون فيها شعائرهم الدينية بكل حرية . وكانوا فوق ذلك يتمتعون فى بعض الأحيان بنفوذ قوى ، ويحتل كثير منهم مناصب هامة فى الحكومة والجيش . وقد أنشأت الحكومة الأندلسية اعترافاً منها بأهمية الأقليات النصرانية منصب « القومس » للنصارى ليكون مرجعهم الرئيسى فى شئونهم الروحية . وكان القومس من الشخصيات ذوات النفوذ ، وكان له فى معظم الأحيان مكانة خاصة لدى الأمير أو الخليفة إذ كان مستشاره فى كل ما يتعلق بشئون النصارى واحوالهم . ولما نمت هذه الأقليات النصرانية وازدهرت ، بدأت فى مناوأة الحكومة الإسلامية وتدبير الدسائس ضدها ، وكانت عضد الثورات المختلفة فى المدن والمقاطعات الثائرة ولا سيما طليطلة وما يجاورها من المدن القريبة من حدود النصارى . ومن الغريب أنهم مع بغضهم للإسلام والحكومة الإسلامية ، كانوا يأخذون بقسط وافر من التقاليد والعادات الإسلامية وكانوا يتكلمون العربية ويكتبونها ، ويستعملونها فى وثائقهم ومعاملاتهم ، وقد نبغ الكثير منهم فى النظم والنثر . وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ) (٨٢٢ – ٨٥٢ م) حاول النصارى المعاهدون أن يدبروا فتنة خطيرة لصدع الحكومة الإسلامية ، وعمد بعض القساوسة المتعصبين إلى سب الإسلام والنبى العربى جهراً فى شوارع قرطبة وأمام القضاة الذين يحاكمونهم ، ودفعوا إلى هذا التحدى بعض الفتيات النصرانيات المتعصبات . فقضى على عدد منهم بالإعدام . وازداد النصارى هياجاً وتحدياً ، وكادت تحدث فى قرطبة فتنة مدمرة لولا أن تذرعت الحكومة الإسلامية فى إخمادها بمنتهى الحزم والشدة .

ولبث النصارى المعاهدون على كر العصور شوكة فى جانب الحكومة الإسلامية يحاولون إحداث الشغب بكل الوسائل ، ويشجعون كل خلاف وثورة ، ويحالفون المملكة النصرانية الشمالية ، ويستعدونها على الأندلس باستمرار . ولهم فى الأندلس تاريخ طويل ليس هنا موضع استقصائه . ولكن جهودهم كانت على أى حال من أهم العوامل فى إضعاف الحكومة الإسلامية ، وفى تعضيد جهود اسبانيا النصرانية لاسترداد أراضيها المفتوحة

استمر سُكْناهم فى غِمار من الروم ، يعالجون فلاحة الأرض ، وعُمران القرى ، يرأسُهم أشياخ من أهل دِينهم ، أولو حُنْكة ودهاء ومُدَاراة ، ومعرفة بالجِباية اللازمة لرؤوسهم . وأحَدُهم (١) رجل يُعرف بابن القَلَّاس ، له شهرة وصيت ، وجاه عند الأمراء بها . وكانت لهم بخارج الحَضْرة ، على غَلْوَتين (٢) ، تجاه باب إلْبيرة (٣) ، فى اعتراض الطريق (٤) إلى قُولْجر (٥) ، كنيسة شهيرة ، اتخذها لهم أحدُ الزعماء من أهل دينهم ، استَرْكَبه بعضُ أمرائها فى جيش خَشِن من الروم ، فأصبحت فريدة فى العمارة والحِلْية ؛ أمر بهدمها الأمير يوسف بن تَاشُفِين (٦) ، لتأكُّد رغبة الفقهاء ،

من المسلمين . وهذا ما يعتبره المؤرخون الإسبان من وجهة نظرهم أعمال بطولة . ولهذا يخصص العلماء الإسبان لتاريخ « النصارى المعاهدين » مصنفات وبحوثاً كثيرة .

وقد وضع المستشرق الكبير سيمونيت Simonet فى تاريخ النصارى المعاهدين مؤلفاً ضخماً عنوانه : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) . ومن أحدث المؤلفات فى هذا الموضوع كتاب وضعه المستشرق Isidro de las Gagigas عنوانه : Los Mozarabes (Madrid 1947) .

(١) وردت فى « ج » ، وآخرهم .

(٢) الغلوة مقياس مسافة . وتقدر بثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة .

(٣) باب إلبيرة Puerta de Elvira هو من أبواب غرناطة القديمة ، وما يزال قائماً حتى اليوم بقوسه وجانبيه فى الميدان المسمى باسمه داخل مدينة غرناطة . وهو الباب الوحيد الذى بقى كاملا وسليما من أبواب سورها الخارجى . بيد أنه توجد من أبوابها الداخلية بضعة أبواب أخرى فى حى البيازين وفى مدينة الحمراء .

(٤) وردت بعد كلمة « الطريق » فى المخطوطين ثلاث كلمات محرفة هذا رسمها : (والعياء يقيق الماء) لا علاقة لها بالسياق ولا بالمعنى فآثرنا تركها .

(٥) هى اليوم بلدة Güejar Sierra الصغيرة الواقعة على قيد مسافة قليلة من شرقى غرناطة فى اتجاه باب إلبيرة .

(٦) يترجم ابن الخطيب فى نهاية « الإحاطة » ليوسف بن تاشفين اللمتونى زعيم المرابطين ومؤسس دولتهم بالمغرب والأندلس المتوفى سنة خمسمائة من الهجرة (١١٠٦ م) . ونكتفى بأن نشير هنا إلى أعظم أعمال حياته وهو عبوره إلى الأندلس نصرة لأمرائها ملوك الطوائف حينما اشتدت عليهم وطأة النصارى ، ولقاؤه مع جيوش الأندلس ، الجيوش النصرانية المتحدة فى سهول الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، وإحرازه عليهم نصره الباهر الذى أنقذت به الأندلس من الفناء ، والذى مد فى حياتها قروناً أخرى .

وتوجُّه فتواهم . قال ابن الصَّيْرَفى[١] : خرج أهل الحَضْرَة لهدمها يوم الأثنين عَقِب جمادى الآخِرة من عام اثنين وتسعين وأر بعمائة،فصُيِّرَت للوقت قاعاً ، وذَهَبْت كلُّ يد بما أخذت من أنقاضها وآلاتها . قلتُ ، ومكانُها اليوم مشهورٌ، وجِدَارُها ماثِلٌ ، يُنبىء عن إحكام وأصالة ، وعلى بعضها مقبرةٌ شهيرة لابن سَهْل بن مالك رحمه الله .

ولما تحرَّكَتْ لعدُو الله الطَّاغية ابن رُذْمير[٢] ريحُ الظُّهور ، على عهد الدولة المُرابِطيَّة ، قبل أن يَخضِد الله شوكته على إفراغه[٣] بما هو مشهور ، أمَلت المُعَاهِدَة[٤] من النصارى لهذه الكورة إدراكَ الثَّرَّة[٥] وأطْمَعَت [فى][٦] المملكة،

(١) هو أبو بكر الصيرفى من أكابر علماء غرناطة فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى . عمل كاتباً ووزيراً لأمير المرابطين محمد بن تاشفين الذى حكم الأندلس من سنة ٥٢٠ – ٥٣١ هـ . وألف كتاباً فى تاريخ الدولة المرابطية هو : « الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية » الذى يقتبس ابن الخطيب كثيراً منه .

(٢) وردت فى « ك » ، ابن أردمير . وفى « ج » ، ابن درمير . وكلاهما تحريف . وصوابه ابن رذمير ، وهو الاسم الذى تطلقه الرواية الإسلامية على الفونسو الأول ملك أراجون (١١٠٥ – ١١٣٤ م) . وقد كان ملكاً مقداماً . وهو الذى افتتح سرقسطة من يد المسلمين فى سنة ١١١٨ م ، وانتزع إلى جانبها باقى قواعد الثغر الأعلى . وفى سنة ١١٢٥ م (٥١٨ هـ) خرج بقواته استجابة لتحريض النصارى المعاهدين إلى الغزوة التى يصفها ابن الخطيب فيما يلى . وسار بجيشه صوب غرناطة عن طريق بلنسية ومرسية وبياسة ، والنصارى المعاهدون يهرعون إلى لوائه أثناء السير حتى بلغ جيشه زهاء خمسين ألفاً . ووقف على غرناطة قليلا ، ولكنه لم يفزمنها بطائل لأن المرابطين اتخذوا أهبتهم لرده . ثم سار جنوباً حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط . ثم عاد بقواته . وعرج أثناء العود على غرناطة مرة أخرى . وفى أثناء ذلك دب الخلل إلى قواته ، وأرهقتها مطاردة المسلمين ، فعاد إلى أراضيه وقد تضاءلت قواته وتمزق معظمها .

(٣) كانت مدينة إفراغه Fraga من معاقل الثغر الأعلى. فلما استولى ألفونسو الأول ملك أراجون على معظم قواعده سار إلى افتتاح إفراغه سنة ١١٣٤ م ، وضرب حولها الحصار . ولكن قدمت قوات المرابطين لإنجاد حاميتها . واشتبك المسلمون مع النصارى فى معركة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة، وفر الفونسو وتوفى بعد ذلك لأيام قلائل غماً وألماً .

(٤) المعاهدة هم النصارى المعاهدون الذين شرحنا أحوالهم فيما تقدم . وسموا كذلك بسبب المعاهدات التى ارتضى الفاتحون المسلمون عقدها معهم، وسمح لهم فيها بأن يحتفظوا بدينهم وشرائعهم نظير دفع الجزية المقررة .

(٥) فى « ج » الترة . والثرة : السعة والبسطة .

(٦) ناقصة فى المخطوطين ، ويقتضيها السياق .

فخاطبوا ابن رُذْمير من هذه الأقطار ، وتوالت عليه كتُبُهم وتواترت رسلهم مُلحَّة بالاستْدعاء مُطْمِعة فى دخول غرْناطة . فلما أبطأ عنهم ، وجهوا إليه زِماماً يشتمل على اثنى عشر ألفاً من أنْجاد مُقَاتليهم ، لم يعدُّوا فيها شيخاً ولا غرًّا ، وأخبروه أن من سَمَّوه ، ممن شَهِدت أعينهم لقرب مواضعهم ، و بالبُعْد من يخفى أمرُه ، و يَظهرُ عند ورود شَخْصه ، فاستأْثروا طَمَعه ، وابْتَعَثوا حَشَفَه ، واستَفَزُّوه بأوصاف غَرْناطة ، وما لها من الفضائل على سائر البلاد ، و بفَحْصها الأفيَح(١) ، وكثرة فوائدها من القمح ، والشَّعير ، والكتَّان ، وكثرة المرافق ، من الحرير والكُرُوم ، والزيتون ، وأنواع الفواكه ، وكثرة العيون والأنهار ، ومَنَعة قُبَّتها وانطباع رعِيَّتها ، وتأتى أهل حاضرتها ، وجمال إشْرافها و إطْلالِها ، وأنَّها المباركةُ التى يمتلك منها غيرها ، المسماةُ سَنَام [الأندلس عند](٢) الملوك فى تواريخها ، فرَمَوه حتى أصابوا غرْبه ، فانتَخَب وأحْشَد وتحرك أول شعبان من عام خمسة عشر وخمسمائة(٣) ، وقد أخْفَى مذهبه ، وكتم أرَبه ، فوافى بَلَنْسِية ، ثم إلى مُرْسية ، ثم إلى بِيرَة ، ثم اجتاز بالمَنْصُورة ثم انحدَر إلى بُرْشانة(٤) ، ثم تلوَّم إلى وادى ناحلة(٥) ، ثم تحرك إلى بَسْطَة(٦) ، ثم إلى وادى آش(٧) ، فنزل بالقرية المعروفة بالقَصْر(٨) ، وصافَحَ المدينة بالحرب ، ولم يَحْل بطائل ، فأقام عليها شهراً .

---

(١) هو مرج غرناطة الشهير La Vega الذى سبق التعريف به .

(٢) ما بين الخاصرتين ساقط فى « ج » .

(٣) فى هذا التاريخ شىء من التحريف . والحقيقة أن الفونسو الأرجونى بدأ زحفه على الأندلس فى سنة ١١٢٥ م الموافقة ٥١٨ هـ ووصل إلى جنوبى الأندلس سنة ٥٢٠ هـ .

(٤) بيرة والمنصورة وبرشانة هى ثلاثة بلاد صغيرة فى ولاية المرية الحديثة . تقع الأوليان منها شمال شرقى مدينة المرية وتقع الثالثة شمال المرية فى طريق وادى آش ، وتحمل على التوال الأسماء الحديثة الآتية : Vera, Cuevas de Almanzora, Purchena .

(٥) لم نعثر على مقابل حديث لهذا الاسم .

(٦) رسمت « بصطه » فى المخطوطين وصوابه بسطة وهى Baza الحديثة وتقع شمال شرقى غرناطة .

(٧) وادى آش هى Guadix الحديثة . وقد كانت من المدن الزاهرة بمملكة غرناطة الإسلامية ، وكانت أيام حرب غرناطة الأخيرة معقل مولاى الزغل محمد بن سعد ، وسقطت فى يد الإسبان قبل سقوط غرناطة بقليل فى سنة ١٤٩٠ م .

(٨) هى بلدة القصر Alcazar الحديثة وهى واقعة فى جنوب شرقى غرناطة .

قال صاحب كتاب « الأنوار الجَلِيَّة »(١) : فبدأ بَحْثُ المُعاهِدة بغرناطة فى استدعائه ، فافتضح تدبيرهم باجتلابه ، وهَمَّ أميرُها بتَثْقِيفِهِم(٢) ، فأعياهم ذلك ، وجعلوا يَتَسَلَّلون إلى مَحَلَّته على كل طريق ، وقد أحدقت جيوش المسلمين من أهل العُدْوة(٣) والأندلس بغرناطة ، حتى صارت كالدَّائرة(٤) ، وهى فى وسطها كالنُّقطة ، لمَّا أُنْذِروا بغرضه ؛ وتحرك من وادى آش فنزل بقريه دِجمة(٥) ؛ وصلَّى الناس بغرناطة صلاة الخوف ، يوم عيد النَّحْر من هذه السنة فى الأسلحة والأُبَّهة ؛ و بُعيد الظهر من غَدِه ، ظهرت أخْبِيةُ الرُّوم بالقَيْل(٦) شرق المدينة ، وتوالى الحرب على فرسخين منها ، وقد أجْلَى السَّواد ، وتزاحم الناس بالمدينة ، وتوالى الجَليد ، وأظَلَّت الأمطار . وأقام العدو بمحلَّته ، بضْع عشرة ليلة ، لم تَسْرح له سارحةٌ ، إلا أنّ المُعاهِدة تَجْلب له الأقوات ؛ ثم أقْلَع وقد ارتفع طَمَعُه عن المدينة ، لأربع بقين من ذى الحجة عام عشرين ، بعد أن تفرغ مُسْتَدعيه إليها ، وكبيرُه يُعرف بابن القَلّاس ، فاحتجوا بُبُطْئه(٧) وتلوُّمه حتى تلاحقت الجيوش ، وأنهم قد وقعوا مع المسلمين فى الهَلَكة . فرحل عن قرية مُرْسانة إلى بِيَش(٨) ، ومن الغد الى السكة(٩) من

---

(١) وردت فى المخطوطين: « الأنوار الجليلة » وهو تحريف . وصاحب الكتاب هو أبو بكر الصيرفى الذى سبق التعريف به .

(٢) أى باعتقالهم .

(٣) أعنى أهل المغرب .

(٤) هكذا فى « ك » وفى « ج » كالدارة .

(٥) هى بلدة Diezma الحديثة وهى تقع غربى وادى آش فى منتصف الطريق بينها و بين غرناطة .

(٦) هكذا فى « ت » . وفى « ج » و « ك » ، بالنيل . وهو تحريف ، والقيل منتصف النهار .

(٧) هكذا فى « ك » و « ج » . وفى « ت » ، فاحتجبوا ببطنة، وهو تحريف ظاهر .

(٨) مرسانة وبالإسبانية Maracena ، وبيش وبالإسبانية Beas ، قريتان من أحواز غرناطة تقع الأولى فى شمالها الشرق ، والثانية فى شمالها الغربى .

(٩) هكذا فى « ت » . وفى « ك » السمكة . وفى « ج » الحكة .

أحواز قلعة يَحْصُب[١] ، ثم اتصل إلى لِدُو بيانه[٢] ، ونكب إلى قَبرة واللسّانه[٣] ، والجيوش المُسْلمة فى أذياله . وأقام بقَبْرَة أياما ، ثم تحرك إلى بلاى[٤] والعساكر فى أذياله ، وشِيجَة[٥] فى فَحْصِ الرَّنيسُول[٦] ، مكافحةً فى أثنائها ، مناوشةً ، وظهوراً عليه .

ولما جَنَّ الليل ، أمر أميرهم برفع خبائه من وهْدَة كان فيها إلى نَجْدة ، فساءت الظنون ، واختلَّ الأمر ، ففرَّ الناس وأسلَمُوا[٧] ، وتَهَيَّب العدو المَحلَّة ، فلم يدخلها إلا بعد هَدَأَة[٨] من الليل واستولى عليها . وتحرك بعد الغد منها إلى جهة الساحلِ فشق العِمامة الآمنة من الإقليم والشَّارات[٩] . فيقول بعضُ شيوخ تلك

---

(١) قلعة يحصب أو قلعة يعقوب هى بلدة « القلعة الملكية » الحديثة Alcalá la Real ، وتقع شمال غربى غرناطة . وقد كانت قديماً منزل آل سعيد الأدباء والمؤرخين أصحاب كتاب « المغرب » . وخاتمهم أبو الحسن بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ هـ . وصاحب كتاب « القدح المعلى » و « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » .

(٢) هكذا رسم اسمها فى « ج » . وفى « ت » « الدوبيانية » . ولم نعثر على بلد بهذا الاسم فى هذه المنطقة .

(٣) قبره Cabra واللسانه Lucena من بلاد الحصون القديمة فى مملكة غرناطة الإسلامية ، وتقع كلتاهما شمال غربى غرناطة على مقربة من قلعة يحصب ، وقد لعبت قبره بالأخص فى حروب مملكة غرناطة الأخيرة أدوارا هامة .

(٤) بلاى ، كما رسمت فى المخطوطين ، وبللى كما رسمت فى « ت » Poley ، هو الاسم القديم لبلدة « أجيلار » Aguilar الحديثة . وموقعة بلاى شهيرة فى تاريخ الأندلس ، وهى الموقعة التى هزم فيها الأمير عبد الله صاحب الأندلس قوات الثائر ابن حفصون سنة ٢٨٧ هـ (٨٩١ م) .

(٥) وردت فى « ك » وسعمته . وفى « ج » وسحته . وفى « ت » وبسمحته . وكلها تحريف لاسم بلدة شيجه أو أشيجه ، وهى بلدة Espejo الحديثة ، القريبة من غرناطة .

(٦) فحص الرنيسول أو أرنسول ، موضع يقع جنوبى غرناطة . ويذكره ابن الأثير على أنه حصن لا فحص (ج ١٢ ص ٢٢٤) ويعرف حديثاً باسم Arinsol .

(٧) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : المسلمون . وهو تحريف ظاهر .

(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » مدة ، والمعنى متقارب .

(٩) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، البشارات . والشارات أو البشارات هى فيما يبدو الهضاب والمرتفعات . وربما كانت ترجمة لكلمة Sierras الإسبانية أى الجبال .

الجهة ، إنه اجتاز بوادى شُلوبانيَـة[١] المُطِلِّ الحافَّات ، المُتحصِّن[٢] المجاز ، وقال بلغته : أىُّ قَبْرٍ هذا لو ألفَيْنا من يَصُبُّ علينا التراب ؛ ثم عرَّج يَمنةً حتى انتهى إلى بَلِّش[٣] ، وأنشأ بها جفْناً[٤] صغيرا ، يصيد له حوتاً ، أكل منه كأنه نَذْرٌ كان عليه ، وفَّى به ، أو حديثٌ أراد أن يُخلَّد عنه . ثم عاد إلى غَرْناطة ، فاضطّرب بها محلته بقرية ذُكَر[٥] ، على ثلاثة فراسخ منها قِبْلة ، ثم انتقل بعد ذلك بيومين إلى قرية هَمْدان[٦] ، وبرز بالكتب جاعَرِسْطة[٧] من المدينة ، وكان بينه وبين عساكر المسلمين مُواقعة عظيمة ؛ ولأهل غرناطة بهذا الموضع حِدْثان ينظرونه من القضايا المستقبلة .

قال ابن الصَّيرفى : وقد ذُكر فى بعض كتب الجفر : « هذا الفحص ، بحرابٍ يجى[٨] عن يتامى وأيامى » وكان هذا اليوم مُعرَّضاً لذلك ، فوقى الله ؛ وانتقل بعد يومين إلى المَرْج[٩] ، مُضيَّقاً عليه والخيل بِجُرْحَيه[١٠] ، فنزل بعين أطسه ،

---

(١) وادى شلوبانيه أو شلوبينية ، هو البسيط الذى تقع فيه بلدة شلوبانية ، وهى من الثغور الصغيرة الواقعة جنوبى ولاية غرناطة على البحر الأبيض المتوسط . وهى تقع جنوبى غربى مدينة موتريل وشرقى المنكب . وتسمى اليوم بالإسبانية Salobrena ؛ وإليها ينتسب أبو على الشلوبينى إمام النحو بالأندلس المتوفى بإشبيلية سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) .

(٢) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : المتحصر . والأولى أرجح .

(٣) هى مدينة بلش مالقة Velez Malaga ، وهى تقع شرقى ثغر مالقة وعلى مقربة منها .

(٤) أى مركباً . وتستعمل هذه الكلمة بكثرة فى التواريخ الأندلسية للتعبير عن السفن وبخاصة السفن الحربية .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » « دلوا » . وربما كانت هذه قرية Dilar الحديثة الواقعة جنوب غرناطة .

(٦) قرية همدان هى بلدة Alhendin الحديثة ، وهى تقع على مسافة قريبة من جنوبى غرناطة .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وهى إما أن تكون « وجاء عرسطه » ، وإما أن يكون جاعرسطة الاسم الأول لأحد زعماء النصارى المعاهدين . وهو يتفق مع الإسبانية Inigo Arista

(٨) هكذا وردت هاتان الكلمتان فى « ت » . وفى « ج » ، بحرت سحى . ومكانها بياض فى « ك » .

(٩) وردت فى المخطوطات الثلاث : « الفرج » . وقد رجحنا « المرج » La Vega .

(١٠) هكذا فى « ج » . وفى « ت » ، تحرحه . و « ك » نحوجه وهو تحريف .

والجيوش مُحدقةٌ به ، وهو فى نهاية من كمال التَّعْبِية ، وأخْذِ الحذر، بحيث لا تُصابُ فيه فرصة ؛ ثم تحرك على البَراجِلات ، إلى اللقوق(١) ، إلى وادى آش ، وقد أصيب كثيرٌ من حاميته ؛ وطوى المراحل إلى الشرق ؛ فاجتاز إلى مُرْسية ، إلى جَوف شاطِبة ، والعساكر فى كل ذلك تطأ أذياله ، والتَّناوش يتَخَطَّرُ به(٢) ، والوباء يسرع إليه ، حتى لحق بلاده ، وهو ينظر إلى قفاه ، مُخْتَرِماً ، مَفْلُولاً من غير حرب ، يكاد الموت يستأصل مَحَلَّته وجُملته .

ولما بان للمسلمين من مكيدة جيرانهم المُعاهدين ، ما أجْلَتْ عنه هذه القضية ، أخذهم الإرْجاف ، ووغِرَت لهم الصُّدور . [ووُجِّه إلى مكانهم الحزمُ ، فاحتَسَب الإرجافُ ، ووغِرَت لهم الصدور](٣) ووجَّه القاضى أبو الوليد بن رُشد(٤) الأَجْر ، وتجشَّم المجاز ، ولحِق بالأمير [على بن](٥) يوسف بن تاشُفين بمرَّاكُش ، فبَيَّن له أمر الأندلس ، وما مُنيت(٦) به من مُعاهِدِها ، وما جَنَوه عليها ، من استدعاء الرُّوم ، وما فى ذلك من نَقْض العَهْد ، والخروج عن الذمّة ، وأفتى بتَغْريبهم ،

---

(١) لم نعثر على مواضع هذه الأماكن فى الخرائط الحديثة ولا على مقابلها الإسبانى والظاهر أنها دثرت .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » يتخطفه ، والمعنى واحد .

(٣) ما بين الحاصرتين زائد فقط فى « ج » . وفيه تكرار .

(٤) أبوالوليد بن رشد هذا هو جد الفيلسوف الشهير ابن رشد . والاسمان متشابهان ، وكلاهما يكنى أبا الوليد . وقد ولد الفيلسوف فى حياة جده المشار إليه سنة ٥٢٠ هـ ، أعنى فى نفس السنة التى وقعت فيها غزوة النصارى لمرج غرناطة ، وعبر فيه الجد إلى مراكش .

(٥) أضفنا هذه الزيادة لأنها لازمة لصحة الوقائع والسياق و بدونها نكون ازاء خطأ تاريخى واضح . لأن يوسف بن تاشفين توفى منذ سنة ٥٠٠ هـ ، وخلفه فى الحكم ولده على بن يوسف بن تاشفين الذى حكم من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٣٧ هـ ، وهو الذى أمر بتغريب النصارى المعاهدين بناء على فتوى ابن رشد المذكور ، وخلاصتها أن النصارى المعاهدين قد نقضوا العهود ، وأخلوا بها ، فسقطت عنهم الحماية الممنوحة لهم ، وحق عليهم العقاب (راجع الحلل الموشية ص ٧٠ و ٧١ . وتاريخ المرابطين والموحدين لاشباخ (الترجمة العربية) ج ١ ص ١٥٧ . وراجع أيضاً Simonet: Historia de los Mozarabes p. 790

(٦) وردت فى المخطوطين : بنيت . وبالتصويب يستقيم المعنى .

و إجلائهم عن أوطانهم ، وهو أخفُّ ما يُؤخذ به من عقابهم ؛ وأُخذ بقوله ، و نُفِّذ بذلك عهدُه ، وأُزْعِج[١] منهم إلى بَرِّ العُدْوة ، فى رمضان من العام المذكور ، عددٌ جمٌّ ، أنكرتهم الأهواء ، وأكلتهم الطرق ، وتفرَّقوا شَذَرَ مَذَر ، وأصاب كثير من الجلاء جُمَّتهم[٢] من اليهود ، وتقاعدت بها منهم طائفة ، هَبَّت لها بممالأة بعض الدول ريحٌ ، فأمروا وأكْثَروا إلى عام تسعة وخمسين وخمسمائة ، ووقعت فيهم وقيعةٌ احتَشَّتهم ، إلّا الإصابة[٣] لهذا العهد قليلة ، قديمةُ المَذَلَّة ، وحالفت الصَّغار[٤] ، جعل الله العاقبة لأوليائه .

---

(١) فى « ج » واعجز ، وهو تحريف ظاهر .

(٢) فى « ج » ، جهتهم .

(٣) أى أقلية محدودة .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » الصعار .

ذكر ما يُنسب إلى هذه الكُورَة من الأقاليم
التى نَزَلتها العرب بخارج غَرْناطة ، وما يتصل بها من العمالة

فصل
فيما اشتمل عليه خارجُ المدينة من القُرى والجَنَّات والجهات

قال المؤلف رحمه الله : ويَحِفُّ بسور[١] هذه المدينة المَعْصُومة بدفاع الله تعالى ، البساتينُ العريضة المُسْتَخْلَصَة ، والأدْواح المُلتَفَّة ، فيصير سورها من خَلْف ذلك كأنّه من دُون سِياج كثيفة ، تلوح نجوم الشُّرفات أثناء[٢] خضْرايه . ولذلك ما قلت فيه فى بعض الأغراض :

بلد يحفُّ به الرِّياضُ كأنّه وجْهٌ جميل والرِّياض عِذاره
وكأنَّما واديه مِعْصَمُ غادَةٍ ومن الجُسُورالمُحْكَماتِسِوارُه

فليس تَعْرى جَنباتُه من[٣] الكُرُوم والجَنَّات جهة ، إلا ما لا عِبْرة به مقدارُ غَلْوة ؛ أما ما حازه السِّفل من جَوْفيه[٤] ، فهى عظيمة الخطر ، متناهية القِيَم ، يضيق جَدُّه[٥] مَنْ عدا أهل المُلْك ، عن الوفاء بأثمانها ، منها ما يُغِلُّ فى السنة الواحدة نحو[٦]

---

(١) وردت فى المخطوطين : سور .
(٢) وردت فقط فى « ت » ، وأغفلت فى المخطوطين .
(٣) وردت كلمة « من » فى المخطوطين بعد « جنباته » ، ووردت قبلها كلمة عن فى « ج » و « ت » ، فلم نر محلا لإبقائها مع من لاختلاف المعنى .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » حومين .
(٥) هكذا فى « ك » و « ت » . وفى « ج » جوه .
(٦) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين « شكر » .

الألف من الذَّهب ، قد غُصَّت الدكاكين بالخُضَر الناعمة ، والفواكه الطيِّبة ، والثَّمر المدَّخرة ، يختصُّ منها بمُسْتَخلَص السلطان[١] ، المرورُ طَوْقاً على تَرَائب بلده ما يناهز مائة[٢] ؛ منها الجَنَّة[٣] المعروفة بفَدَّان المَيْسة ، والجنة المعروفة بفدان عِصام ، والجنة المعروفة بالمعروى[٤] ، والجنة المَنْسُوبة إلى قَدَّاح بن سُحْنون ، والجنة المنسوبة لابن المؤذِّن ، والجنة المنسوبة لابن كامل ، وجنة النَّخلة العليا ، وجنة النخلة السفلى ، وجنة ابن عُمْران ، والجنة التى إلى نافع ، والجُرْف الذى يُنسب إلى مُقْبل ، وجنة العَرْض ، [وجنة الحفرة][٥] ، وجنة الجُرْف ، ومَدْرَج نجد ، ومَدْرَج السَّبِيكة[٦] ، وجنة العَرِيف[٧] : كلها لا نظير لها فى الحسن والدَّمانة[٨] والربيع ، وطيب التربة ، وغرقد[٩] السُّقيا ، والتِفاف الأشجار ، واستجادة الأجناس ، إلى ما يجاورها و يتخلَّلها ، مما يختص بالأَحباس الموقَفَة ، والجنَّات المُتملَّكة ، وما يتصل بها بوادى سَنْجيل[١٠] ما يقيد[١١] الطَّرْف ، و يُعجز الوصف ، قد مَثَلَت منها على الأنهار المتدافعة العُباب ، المنارةُ والقِباب[١٢] ، واختَصَّت من أشجار العاريات

---

(١) مستخلص السلطان يراد به الأملاك السلطانية الخاصة التى يرجع ريعها إلى خزانته الخاصة.

(٢) وردت فى المخطوطين : (ما ينهر بنيه) ، وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٣) الجنة هنا بمعنى الحديقة أو البستان ، وهو اصطلاح ذائع فى اللغة الغرناطية .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ت » بالمغرموى . وفى « ج » بياض .

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط فى « ج » ووارد فى « ك » .

(٦) السبيكة هو الإسم الذى كان يطلق على البسيط الأخضر الشاسع الواقع جنوب شرقى الحمراء وقد شقت اليوم فيها الطرق الشاسعة المظللة بالأشجار الباسقة . ومنها الطريق المؤدى إلى باب الشريعة باب الحمراء الرئيسى .

(٧) جنة العريف كانت تقع فى شمال شرقى الحمراء فى أسفل الربوة التى يقوم عليها اليوم قصر جنة العريف (المسمى بالإسبانية Generalife)

(٨) هكذا وردت فى « ج » ، . وفى « ك » الدمامة وفى « ت » الدماثة .

(٩) الغرقد هو الشجر الضخم . والمقصود هنا وفرة المياه .

(١٠) وردت فى المخطوطين هكذا : « سحل » وهو تحريف . والمقصود هو « سنجيل » . وهو اسم آخر لنهر شنيل الذى تقع عليه غرناطة ، وسيجرى التعريف به .

(١١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » يعيد .

(١٢) أثبتنا « واوا » بين الكلمتين ليستقيم المعنى .

ذاتِ العصير الثانى بهذا الصقع(١)، ما قَصرت عنه الأقطار . وهـذا الوادى من محاسن هـذه الحَضْرة ، ماؤه رقراق من ذوب الثلج ، ومُجَاجة الجَليد(٢) ، وممرُّه على حصًى جوهرية ، بالنبات والظلال محفوفة ، يأتى من قِبْلة(٣) البلد إلى غرْبه ، فيمر بين القصور النَّجْدية ، ذوات المناصب الرفيعة ، والأعلام الماثلة .

ولأهل الحضرة بهذه الجنَّات كَلَفٌ ، ولذوى البطالة فوق نهره أريك من دَمَث الرمل ، وحِجال من مُلْتَفِّ الدَّوْح ، وكان بها سطرٌ من شجر الحُور ، تُنسب إلى مَامِل ، أحد خدام الدولة الباديسية(٤) ، أدركنا المكان ، يُعرف بها .

قال أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسّان :

أحِنُّ إلى غَرْناطة كلما هَفَت نسيمُ الصَّبا تهدى الجَوَى وتَشُوق
سقَى الله من غَرْناطة كل مَنْهَل بمَنْهـل سُحبٍ ماؤُهُنَّ هَرِيق
ديارٌ يدور(٥) الحسن بين خِيامها وأرضٌ لها قَلْبُ الشَّجِىّ مَشُوق
أغَرْناطةَ العليـا بالله خبِّرى أَلِلْهائم الباكى إليك طريق
وما شاقَنى إلا نضـارةُ منظر وبهجـةُ وادٍ لِلعُيون تَرُوق
تأمَّل إذا أَمَّلت حَوْز مُؤَمِّلٍ ومُدَّ مِن الحَمْرا عليك شَقِيق
وأعلامُ نجدٍ والسَّبِيكة قد علَت وللشَّفَقِ الأعلى تلوحُ بُروقُ

(١) وردت فى المخطوطين : « السقع » وهو تحريف أو رسم مغربى لكلمة « الصقع » .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » الجليل .

(٣) وردت فى « ج » كلمة « علام » زائدة بعد قبله ، وهى لا مكان لها هنا .

(٤) نسبة إلى باديس بن حبوس الصنهاجى الملقب بالمظفر . وقد حكم غرناطة وأحوازها عقب الفتنة البربرية من ٤٢٨ — ٤٦٧ هـ . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .

(٥) وردت فى المخطوطين : ديور .

وقد سلّ شَنيلُ(١) فِرِنْدًا مُهنّدا نُضى فوق دُرٍّ ذُرَّ فيـه عقيقُ
إذا نَمَّ منه طيبُ نَشْرٍ أراكه أراكَ فَتيت المِسْـك وهو فَتيق
ومهما بكى جَفْن الغمام تبسمت ثغورُ أقاحٍ للرّياض أنيق

ولقد وَلِعت الشعراء بوصف هـذا الوادى ، وتغالت الغالات فيه ، فى تفضيله على النيل بزيادة الشِّين ، وهو ألفٌ من العدد ، فـكأنه نيلٌ بألفِ ضِعْفٍ ، على عادة متناهى(٢) الخيال الشعرى ، فى مثل ذلك .

ولقد ألغَزْتُ فيه لشيخنا أبى الحسن بن الجيّاب(٣) ، رحمه الله ، وقد نظم فى المعنى المذكور ما عظم له استِطْرابُه وهو :

ما اسمٌ إذا زِدْتَه أَلْفًا من العَدَد أفادَ معنـاه لم ينْقُص ولم يَزِد
وإنما ائتلفا(٤) من بعد ما اختلفَا مَعْنى بِشِينٍ ومن نَزْرٍ ومن بَلَدٍ

ثم يتصل بالحُسن العادى البديع ، وهو على قسمين ، خَمْسٌ من مُحْكم الـكِدان [فى نهاية الإبْداع والإحكام يتَّصل به بناءٌ قديم مُحكم ، ويستَقْبل المَلْعَب](٥) ، العِيدِى ، ما بين ذُنابى(٦) الجسر إلى جِدار الرّابطة ، وملعب بديع الشكل ، عن

---

(١) شنيل ، وبالإسبانية Genil أو Xenil ، وهو النهر الذى تقع عليه غرناطة . ويسمى أيضاً عند الأندلسيين بنهر سنجيل ، مشتقاً من اسمه اللاتينى Singilis . وشنيل هو أحد فروع نهر الوادى الكبير . وقد كانت ضفافه أيام الدولة الإسلامية غاصة بالحدائق الغناء . ولكنه اليوم يغلب عليه الجفاف ، وقد عفت الخضرة عن شاطئيه . وقد رأيناه غير مرة ، وقد كاد قاعه يخلو من الماء .

(٢) وردت فى المخطوطين : « متنافى » . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٣) هو الرئيس ذو الوزارتين أبو الحسن على بن الجياب من أقطاب الشعر والكتابة (٦٧٣ – ٧٤٩ هـ) . وكان ابن الخطيب من تلامذته ومعاونيه فى ديوان الإنشاء . ويترجم له ابن الخطيب فيما بعد ويسميه «شيخنا و رئيسنا العلامة البليغ » . وقد نقل المقرى ترجمته من الإحاطة ، وأورد له كثيراً من النثر والنظم (نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٦ – ٢٤٥) .

(٤) وردت فى المخطوطين : « استلفى » ، والتصويب من « ت » .

(٥) ما بين الخاصرتين وارد فى « ت » فقط وساقط من المخطوطين .

(٦) وردت فى المخطوطين : دنابى . وأغفلت فى « ت » .

يمينه جناحٌ بديع ، عن ميدانه عَدَوات النهر ، وعن يساره الجَنَّات(١) ، ويُفْضى بعد انتهائه إلى الرَّابطة ، إلى باب القصر المنسُوب إلى السيّد(٢) ، وسيأتى ذكره ؛ ويرتفع من هذا النهر الزُّلال جداولُ ، تدور بها أعداد من الارْحِى(٣) لا نظير لها استعداداً وإفادة .

---

(١) يبدو من هذه الأوصاف المضطربة نوعاً أنه يقصد بالوصف البقعة الواقعة فى جنوب شنيل تجاه غرناطة والتى تسمى اليوم أرمليا Armilla (أرملة القديمة) ، والملعب القديم الذى كان بها . وهى ما تزال تحتفظ ببقية صغيرة من القصر المشار إليه فيما بعد .

(٢) قصر السيد هو أحد القصور الملكية التى بنيت خارج غرناطة أيام الموحدين . أنشأه « السيد » أبو إسحق بن يوسف سلطان الموحدين سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) . وفى أيام ملوك بنى نصر كان يستعمل قصراً للضيافة . وقد بقيت منه إلى اليوم بقية صغيرة تتكون من عقد مدخل ، وبهو صغير مربع ذى قبة عالية ، وقد نقشت على جوانبه أدعية مختلفة يتخللها شعار بنى نصر « ولا غالب إلا الله » . ويعرف اليوم بين الآثار الغرناطية باسم « قصر شنيل » Alcazar Genil وذلك لموقعه فى بقعة أرمليا الواقعة على ضفة نهر شنيل .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » الأراحة .

فصـــل

وتَرْكبُ ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث ، الكُرُوم البديعة ، طَوْقاً مرقوماً ، يتصل بما وراءها من الجبال ، فتعمُّ الرُّبى والوهاد ، وتشملُ الغورَ والنَّجْد ، إلا ما اختصَّ منها بالسَّهل الأفيح[١] ، متَّصلا بشَرْقى باب إلبيرة[٢] ، إلى الخَنْدق العميق ، وهو المُسمى « بالمشايخ » ، بسيط جليل ، وجَوٌّ عريض ، تعيي[٣] على العَدِّ أبراجه[٤] ؛ ومصانعه ، تلوحُ مبانيها ، ناجِمَةً بين الثِّمار والزيتون ، وسائر ذوات الفواكه من اللَّوز والإجاص والكمثرى ، مُحْدَقة[٥] من الكروم المُسِحّة ، والرياحين الملْتفة ، ببحور طامية ، تأتي البُقْعَةَ الماء ؛ ففيها كثير من البساتين والرياض ، والحصون[٦] ، والأملاكُ المتَّصلةِ السكنى ، على الفُصُول ؛ وإلى هذه الجهة يشيرُ الفقيهُ القاضى ، أبو القاسم بن أبي العافية ، رحمه الله ، فى قصيدة ، يجيب بها عروس الشعراء ، الأديب الرّحال أبا إسحاق السَّاحلى ، وكان ممن نِيطَتْ عليه بهذا العهد[٧] ، التَّمائم :

يا نازحاً لَعِب المَطِيُّ بكُورَةٍ لَعِبَ الرِّياح الهُوج بالأُمْلود
ورَمَت به للطِّية القُصْوى التى ما وِرْدُها لسواه بالمَوْرُودِ
هلاّ حَنَنْت إلى مَعاهدنا التى كُنْتَ الحُلِيَّ لنَحْرِها والجِيدِ

---

(١) وهو الفحص La Vega الذى سبق التعريف به .

(٢) باب البيره ما يزال باقياً حتى اليوم . وقد سبق التعريف به .

(٣) هكذا فى « ت » . ووردت محرفة فى المخطوطين (تغمى تعمى) .

(٤) وردت فى المخطوطين : أمراجه . والتصويب من « ت »

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : عرفت .

(٦) فى المخطوطات الثلاث : الرياضة والحصن وهو تحريف .

(٧) وردت فى المخطوطين : المعهد ، والعهد أرجح .

وَرياضُ أُنْسٍ بالمشايخ(١) طارَحَتْ   فيه الحَمائِمُ صَوْتَ سَجْعِ(٢) العُودِ
ومَبِيتُنا فيهـــا وصَفْوُ مُدَامِنا   صَفْوُ المَوَدّة لابْنَةِ العُنْقُودِ
والعيشُ أخضرُ والهوى يُدنى جَنًى   زَهَرات ثَغْرٍ أو ثِمارَ نُهُودِ
والقُضْبُ رافلةٌ يُعانق بعضُها   بعضاً إذا اعتنَقَت غُصُون قُدُودِ
لَهَفِى على ذاك الزمان وطِيبه(٣)   وعلى مُناه وعَيْشِه المَحْسُود
تلك الليـــالى لا ليالى بعدها   عُطِّلْن إلا من جَوًى وسُهُود
كانت قِصَارًا ثم طُلْن فها أنا   ناءٍ على المَقْصُور والمَمْدُودِ

وأما ما استند إلى الجبل ، فيتصل به البيازير فى سَفْح الجبل ، المتصل بالـكُدْيَة ابن سَعْد ، مُتّصلا بالـكُدية المُبْصِلة ، المنسوبة لعَيْن الدَّمع(٤) ، منعطفةً على عَيْن القِبْلة ، متصلةً بجبل الفَخَّار(٥) ، ناهِلَةً فى غَمْر المـاء المجلوب على ذلك السَّمْت ؛ أوضاعٌ بديعة ، و بساتينُ رائقة ، وجنّاتٌ لا نظير لها ، فى اعتدال الهواء ، وعذوبة الماء ، والإشْراف على الأرجاء ، ففيها القصور المحروســة ، والمنارة المَعمورة ، والدُّور العالية ، والمبانى القَصَبِيّة(٦) ، والرَّياحين النَّضيرة ، قد فَضَّ فيها أهل البطالة ، من

---

(١) هو الاسم الذى كان يطلق على السهل الأخضر المتصل بالفحص كما تقدم فى السياق .

(٢) وردت فى المخطوطين محرفة : (سجم . سبج) .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وهى ساقطة فى « ك » .

(٤) عين الدمع هى بقعة من ضواحى غرناطة ، كانت أيام المسلمين متنزها بديعاً ، إذ كانت تغص بالمروج والحدائق الغناء . ويبدو من وصف ابن الخطيب أنها كانت قريبة من سفح جبل الفخار . واستمرت هذه البقعة بعد سقوط غرناطة أيام الموريسكيين تحتفظ ببقية من سحرها القديم . وكانت عندئذ تسمى «عين الدمعة» ويشغل موقعها سطح تلال البيازين التى تطل على المرج. ويطلق عليها اليوم بالإسبانية Dinadamar, Aindamar . ومكانها القديم يقع اليوم فى دائرة لا كارتوخا La Cartuja . (راجع Simonet; Descripción; ibid p. 69) .

(٥) هو إحدى شعب جبال سييرانفادا المشرفة على غرناطة ويسمى اليوم Monte Alfacar

(٦) أعنى مثل القصبة وهى الحصن ، أو القصر فى لغة الخطط الأندلسية .

أولى الحَبْرة ، الأكياس ، وأرْخَصوا على النفقة عليها ، غالى النَّشَب[١] ، تتنازَع[٢] فى ذلك غيرُ[٣] الخادمين ، من خُدّام الدولة على مَرّ الأيام ، حتى أصبحت نادرة الأرض ، والمثل فى الحُسْن . ولهذه البقعة ذِكْرٌ يجرى فى المنظومات على ألسنة البُلَغاء من ساكنيها وزُوّارها ؛ فمن أحسن ما مرّ من ذلك قول شيخنا أبى البركات[٤] :

ألا قُل لعين الدمع يَهْمى بمقْلَتى　　لفُرْقة عين الدمع وقفاً على الدّم

وذكرتُه فى قصيدة فقلت :

يا عهد عين الدمع كم من لُؤلؤ　　للدمع جاد به عَساكَ تعُودُ
تَسْرى نواسِمُك اللِّدان بَلِيلَةً　　فيهزنى شوقٌ إليك شديدُ

وقلت من أبياب تُكتب فى قُبَّةٍ بقصرى الذى اخترعته بها :

إذا كان عينُ الدمع عيناً حقيقة　　فإنْسانُها ما نحن فيه ولا دعْ[٥]
فدام لخَيْل الأُنْس واللَّهو مَلْعَباً　　ولازال مَثْواه المنَعَّم مَرْتَعُ
تودُّ الثُريّا أن تكون له ثَرًى　　وتمدَحُه الشِّعْرى وتحْرُسُه المعُّ

وقال صاحبُنا الفقيه أبو القاسم بن قُرطبة من قصيدة :

أجل إنّ عين الدمع قيدُ النَّواظر　　فسَرِّحْ عيوناً فى اجتلاء النَّواظر
وعَرِّج على الأوْزان إن كُنْتَ ذا هــوًى　　فإن رُباه[٦] مَرْتَعٌ للجآذِر

---

(١) النشب أعنى المال والعقار .

(٢) فى المخطوطين : يتنازعوا .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، غين .

(٤) هو أبو البركات بن الحاج البلفيقى من شيوخ ابن الخطيب . وسوف يترجم له فيما بعد بإفاضة .

(٥) وفى نص « ولا دعوى » .

(٦) وردت فى « ج » رياه ، وفى « ك » . مرآة . والتصويب من « ت » .

وصافِح بها كَفَّ البَهار مُسَلِّمًا　　وقَبِّلْ عِذارَ الأُنسِ بين الأزاهِر
وخُذْها على تلك الأباطِح والرُّبي　　مُعتَّقَةً تَجلُو الصَّدا لِلْخواطر
مُدامَةُ حان أنْسأ الدهرُ عُمْرَها　　فلم تَخْشَ أحْداثَ الدُّهور الدّوائر
تُحدِّثُ عن كِسرى وساسان قَبْله　　وتُخْبِر عن كَرْم يُخَلَّدُ داثِرُ

وهى طويلة . وقال أيضاً من قصيدة طويلة :

وليلاً بعين الدمع وصْلًا قطعتهُ　　وأنْجُمُهُ بين النُّجُوم سعُود
ترى الحُسْنَ منشور اللواء بِسرِّه　　وظلُّ الأماني فى رُباه مَدِيد
فبِتنا وَمن رَوْض الخُدُود أزاهرٌ　　لدَينا ومن وَرْد الرِّياض خُدُود
وتُفَّاحُنا وسْطَ الرِّياض مُورَّدٌ　　ورُمَّانُنا وسْطَ الصُّدور نُهُود
وقد عرَفَت نَصّ الهوى وذميله　　تهايمُ من أكْبَادنا ونجودُ

وقال من قصيدة :

ومِلْ بنا نحو عين الدمع نشرَبُها　　حيث السُّرور بكاس الأُنْس يَسْقينى
حيثُ المنى وفنونُ اللّهو رائِعَةٌ　　والطَّيْرُ من طَرَبٍ فيها تُناجِينى
وجَدولُ الماء يحكى فى أجِنَّتهِ　　صَوَارِماً جُرِّدت فى يوم صِفِّين
وأعْيُنُ الزهر فى الأغصان جاحظَةٌ　　كأنها بِهوَى الغِزْلان تُغْرِينى

ومن ذلك :

سهرت بعين الدمع أرْعَى رُبُوعَه　　وحَسْبى من الأحْبَابِ رَعْىُ المنازل
يُنافِحُنى عرْفٌ إذا هَبّتْ الصَّبَا　　ويُقنِعُنى طَيْفُ الحبيب المُراسل

والأقاويل فى ذلك أكثرُ من أن يُحاط بها كثرة ؛ وما سوى هذه الجهة فغير لاحق بهذه الرُّتبة ، مما مُعوَّله[١] على مَحْض الفائدة [وصريح العائدة][٢]. وتذهب هذه الغُروس المغروسة قِبْلَةً ، ثم يفيض تيارها إلى غرب المدينة ، وقد تركت بها الجبال الشَّاهقة ، والسُّفوح العريضة ، والبطون الممتدة ، والأغوار الخائفة ، مكلَّلة بالأعناب ، غاصَّة بالأدواح ، متزاحمة بالبيوت والأبراج ، بلغ إلى هذا العهد عدَدُها فى ديوان الخِرْص[٣] ، إلى ما يناهز أربعة عشر ألفا ، نقَلْت ذلك من خَطِّ من يُشار إليه فى هذه الوظيفة ؛ وقاها الله مَضَرّة السنين ، ودفع عنها عُباب[٤] القوم الظّالمين ، وعُدْوان الكافرين .

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » معوضه . والأولى أصلح للسياق .

(٢) هذه العبارة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٣) كان ديوان الخرص فيما يبدو هو الديوان المختص بحصر الأملاك وغلاتها وتقرير الضرائب عليها .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » عياب .

فصـــل

ويحيط بما خَلْف السُّور من البناء[١] ، والجَنَّات ، فى سهل المدينة ، العَقار الثمين[٢] ، العظيم الفائدة ، المتعاقبة الغَلَّة ، الذى لا يعرف الجَمام ، ولا يفارق الزَّرع ، من الأرض البيضاء ، ينتهى ثمن المرْجع منها العَلِي ، إلى خمسة وعشرين ديناراً من الذهب العَيْن ، لهذا العهد فيه مُسْتَخْلَصُ السلطان[٣] ، ما يضيق عنه نِطاق القيمة ، ذَرْعاً وغِبْطة وانتظاماً ؛ يرجع إلى دور ناجمة[٤] ، و بُرُوج سامية ، و بَيَادِرَ فسيحة ، ومصابٍ للحمايم والدّواجن ماثلة ، منها فى طَوْق البلد ، و حِمَى سُورها ، جُمْلَة ؛ كالدّار المنسوبة إلى هُذَيل ، والدار المنسوبة إلى ابن مرضى ، والدار البيضاء[٥] ، والدار المنسوبة إلى السَّنِينات ، والدار المعروفة بِنَبْلة وَوَتَر ؛ و بالمَرْج ما يُساير جَرْية النَّهر كقرية وكر وبها حصن خريز،و بستان و بشر عُيون ، والدار المنسوبة إلى خَلَف ، وعَيْنُ الأبراج ، والحُشُّ[٦] المنسوب إلى الصِّحاب ؛ وقرية رُومَة وبها حصنٌ و بستان ، والدار المنسوبة إلى العَطِشى ، وبها حصن ، والدار المنسوبة لابن جُزى ، والحُشُّ المنسوب لأبى على ؛ وقرية ناحرة ، ومنها فضل بن مَسْلمة الحَسَنى، وبها حصن ، وحوله[٧] رَبَض ، فيه من الناس أُمَّة ، وقرية سِنْيانة وفيها حصن ؛ وقرية أشْكُر ؛ وقريتى يَشِر وواطْ ، وبهما حصنان ؛ وقرية واطْ عبد الملك بن حبيب . وفى هذه القرى الجُمَلُ الضخمة من الرجال ، والفُحول من الحيوان الحارث

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » المبنى .

(٢) فى « ك » و « ج » الثمن .

(٣) سبق التعريف به . انظر الحاشية فى ص ١٢٢ .

(٤) وردت فى المخطوطين : ناحمة .

(٥) الدار البيضاء مكانها اليوم فى غرناطة الحى المسمى Cuarto real de San Domingo

(٦) الحش بالفتح وبالضم معناه البستان . وجمعه حُشّان .

(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » . وحوطه .

لآثار الأرض ، وعلاج الفلاحة ؛ وفى كثير منها الأُرحى والمساجد[١] . وما سوى هذه من القرى ، المُستخلَصُ من فَضْلة الإقْطاع ، وقَصَرت به الشهرة عن هذا النَّمط ، فكثيرٌ .

ويتخلل هذا المتاع الغبيط[٢] الذى هو لُباب الفلاحة ، وغير هذه المَدَرة[٣] الطّيبة ، سائر القرى التى بأيدى الرعية ، مجاورة لهذه الحدود ، و بنات لهذه الأمهات. منها ما انبسط وتمدّد ، فاشترك فيه الألوف من الخَلْق ، وتعدّدت منه الأشكال ؛ ونحن نوقع الإسمَ منه على البُقْعة من غير ملاحظة للتَّعَدُّد . ومنها ما انفرد بمالكٍ واثنين فصاعداً ، وهو قليل ؛ وتَنيفُ أسماؤها على ثلاث مائة قرية ، ما عدا ما يجاور الحضرة من كثير من قرى الإقليم ، أو ما استضَافَتْهُ حدودُ الحصون المجاورة *

فمن ذلك حَوْز الساعدين[٤] ، وفيه القرى ؛ وحَوْز وَتَر[٥] ، ومنها إبراهيم بن

---

(١) وردت فى المخطوطين محرفة : (الأرجلى ، الأرحلى وللمساجد) .

(٢) الغبيط . أى الذى يغبط ويتمنى مثله .

(٣) المدر هو الطين وهو جمع مدرة ، والمدرة أيضاً بمعنى القرية .

* يورد ابن الخطيب فيما يلى أسماء نحو مائة وأربعين قرية ومحلة من قرى ولاية غرناطة القديمة . منها ما هو قريب من الحضرة أى غرناطة ، ومنها ما هو بعيد عنها أو واقع حولها . ولما كان كثير من هذه القرى والأماكن الأندلسية القديمة ما يزال قائماً حتى اليوم بعد أن استحالت إلى قرى اسبانية نصرانية ، واستحالت أسماؤها إلى أسماء أوربية ، ولما كان من المفيد لدراسة التاريخ الأندلسى والجغرافية لأندلسية أن نقف على الأسماء الإسبانية الحديثة لما بقى منها ، وأن نعرف فى نفس الوقت ما دثر منها ؛ لذلك رأيت أن أتولى مهمة التعريف بها وبأسمائها ، وأن أتقصى مواقعها على الخرائط الخاصة . وقد وفقت بعد جهد شاق إلى التعريف بكثير منها ، وتعيين مواطنها . وسنذكرها تباعاً فيما يلى كلا منها تحت رقمه وفق الترتيب الذى أوردها به ابن الخطيب ، مع ذكر مواقعها وأسمائها الإسبانية ؛ مع العلم بأن كثيراً منها قد دثر اليوم . وهذه تركناها دون ترقيم :

(٤) هو اليوم المكان المسمى El Zaidin وهو يقع فى جنوب غرناطة بجوار قرية Huetor المذكورة بعد .

(٥) هى القرية المسماة Huetor de le Vega وهى ضاحية فى جنوب شرقى غرناطة .

زيد المحاربى ؛ وقرية قُلْجار[١] ؛ وقرية ياجُر الشاميّين ، وقرية ياجُر البلَدِيين[٢] ؛ وقرية قَشْتالة[٣] ، ومنها قاسم بن إمام من أصحاب سُحْنُون ، ونزل بها جده عطيه بن خالد المحاربى ؛ وقرية أجِجَر[٤] ؛ وقرية أرْمِلة الكبرى ، وقرية أرْمِلة الصغرى[٥] ؛ وقرية رِقَاق وَهَمْدان[٦] ، منها الغريب بن يزيد الشمر جَدُّ بنى أضحى ؛ وقرية الغَيْضُون ؛ وقرية لسَّانة[٧] ؛ وحارة الجامع ؛ وحارة الفِراق ؛ وقرية غُرِلْيانة ؛ وحُشُّ البُكُر[٨] ؛ وغدير الصغرى ، وغدير الكبرى ، من إقليم البَلاط ، منها يُرْبوع بن عبد الجليل ، نزل بها جده يربوع بن عبد الملك بن حبيب ؛ وقرية قولر[٩] ؛ وقرية جُرِلْيانة[١٠] ؛ وقرية حارة عمروس[١١] ؛ وحُشُّ الطَّلَمَ[١١] ؛

---

(١) هى قرية Gojar الواقعة جنوب غرناطة فى الضفة الأخرى لنهر شنيل .

(٢) أحد الإسمين ينطبق اليوم على ضاحية Yajar الواقعة فى نهاية « الزاوية » La Zubia على مقربة من غرناطة .

(٣) هى قرية Castella القديمة وقد دثرت اليوم .

(٤) أحجر إذا كانت بالحاء فالمرجح أنها Hijar الحديثة وهى تطلق اليوم على قرية تقع بجوار قولر Cullar Vega الآتى ذكرها. وإذا كانت أججر أو أجيجر وهو ما نرجحه فإنها تكون Ugijar الحديثة وهى تقع جنوبى شرقى الولاية ، وجنوب وادى آش .

(٥) هاتان القريتان تجتمعان اليوم تحت اسم واحد هو Armilla (أرمليا) وهى ضاحية غرناطة على ضفة شنيل الجنوبية ، وبها بقية قصر السيد المشهور باسم قصر شنيل Alcazar Genil

(٦) رقاق وهمدان هما اليوم قرية Alhendin الواقعة جنوب شرقى أرمليا .

(٧) لسانة ربما كانت هى اللسانة المشهورة فى حروب غرناطة الأخيرة . وهى اليوم Lucena الحديثة وهى تقع فى نهاية الولاية شمال غربى لوشة .

(٨) حش البكر ربما كان موضعه اليوم القرية المسماة Bucor ، وهى شمال غربى غرناطة على مقربة من قربسانة الآتى ذكرها .

(٩) وقرية قولر هى اليوم Cullar Vega الواقعة فى جنوب غربى غرناطة .

(١٠) وجرليانة هى Churriana de la Vega الواقعة أيضاً فى جنوب غربى غرناطة وجنوب شرقى سانتافيه.

(١١) وحارة عمروس هى اليوم قرية Ambrox وهى تقع بجوار جرليانة .

(١٢) وحش الطلم مكانه اليوم قرية Macharatalan الواقعة فى مرج غرناطة على ضفة شنيل ، وتقابل حى Sagrario الحديث فى غرناطة .

وقرية المطار ؛ وقرية الصِّرمُورتَة(١) ؛ وقرية بِلسَانة(٢) ؛ وقرية الحِبْشَان ؛ وقرية الشُّوش(٣) ؛ وقرية عَرْتقة ؛ وقرية جيجانة(٤) ؛ وقرية السِّيجة ؛ وقَنب قَيْس(٥) ؛ وقرية برْذَنار(٦) ؛ وقرية دوير تارش ؛ وقرية آقلة(٧) ؛ وقرية أحجر(٨) ؛ وقربة تجَرْجُر(٩) ؛ وقرية والة ؛ وقرية أنْقر ؛ وقرية الغرُوم(١٠) ؛ وقرية دار وَهْدان ، وقرية بيرة(١١) ؛ وقرية القُصَيْبة ؛ وقرية أنطس ؛ وقرية فَنْتيلان(١٢) ؛ وقرية سنبودة ؛ وحُش زَنْجيل ؛ وقرية أشتر ؛ وقرية غسّان(١٣) ، منها مطر بن عيسى بن الليث ؛ وقرية شَوْذر(١٤) ؛ وقرية سُنتشر(١٥) ؛ وقرية ابن ناطح ؛

---

(١) قرية الصرمورته هى Sierra Murada وموقعها فى شمال غربى غرناطة .

(٢) قرية بلسانة (وقد رسمت بايسانه خطأ فى المخطوطين) هى Belicena الحديثة الواقعة غربى غرناطة بجوار سانتافيه .

(٣) وقرية الشوش هى اليوم على ما يرجح قرية El Jau الحديثة الواقعة فى المرج قرب سانتافيه .

(٤) وقرية جيجانة هى Chauchina الحديثة وهى تقع شمال غربى سانتا فيه .

(٥) وقنب قيس هى Cambea .

(٦) وقرية برذنار (وقد رسمت محرفة ، برذنام فى «ك») هى Beznar الحديثة وهى تقع جنوبى غرناطة على بعد نحو خمسين كيلومتراً منها .

(٧) وآقله هى Acula .

(٨) وأحجر هى فى اعتقاد البعض تحريف لكلمة «الحجر» وهى اليوم قرية Lachar الحديثة الواقعة بين تجرجر والعقوله .

(٩) وقرية تجرجر هى اليوم Tajarja ، وهى محلة صغيرة تقع فى غربى غرناطة فى منتصف الطريق بينها وبين لوشة .

(١٠) وقرية الغروم هى Agron الحديثة ، وهى تقع على نحو أربعين كيلومترا من جنوب غربى غرناطة على مقربة من الحامة .

(١١) وقرية بيرة هى Baira الحديثة .

(١٢) وقرنة فنتيلان هى إما Fontanar أو Fuentallana الحديثة .

(١٣) وغسان هى اليوم قرية Cacin الحديثة ، وهى تقع فى نهاية المرج فى سفح جبل الحامة .

(١٤) وشوذر هى Jodar الحديثة ، وتقع شمال غرناطة ، وهى الآن من أعمال ولاية جيان .

(١٥) وسنتشر ربما كانت بلدة Conchar الواقعة جنوب غرناطة .

وقرية الملاّحة[١]، ومنها محمد بن عبد الواحد الغافقي أبو القاسم الملاحي؛ وقرية القُمُور، منها أصْبُغ بن مُطرِّف؛ وقرية نفجر وغرنْطِلة[٢]؛ وقرية بِيرَة وبها مسجد قراءة ابن حبيب؛ وقرية قُولْجَر[٣]، منها سهلُ بن مالك؛ وقرية شور[٤]، منها محمد بن هانىء الأزدى الشاعر المُفلق، ومحمد بن سهل جَدُّ هذا البيت، بنى سهل بن مالك؛ وقرية بُلْيانة[٥]؛ وقرية برقلش[٦]؛ وقرية ضُوجر؛ وقرية البَلُّوط[٧]؛ وقرية أُنتِيانة[٨]؛ وقرية مُرْسانة[٩]؛ وقرية الدُّوَير؛ وقرية الشَّلان؛ وقرية طِغْنَر[١٠]، منها الطغنرى صاحب الفلاحة؛ وقرية حش الدجاج؛ وقرية حُش نوح؛ وقرية حُش خليفة؛ وحُش الكَوبانى[١١]؛ وحُش المعيشة؛ وحُش السلسلة؛ وقرية الطرْف[١٢]؛ وقرية إلْبيرة[٣]؛ وقرية الشَّكْرُوجة[١٤]، ومنها عيسى بن

---

(١) والملاحة هى قرية La Malà الحديثة. وهى واقعة جنوب غرناطة على مقربة من همدان Alhendin

(٢) وقرية نفجر وغرنطلة هى اليوم Naujar Grandilla وربما كانت هى غولجر الآتية الذكر

(٣) وقولجر هى قرية Gojar الواقعة جنوبى غرناطة على مقربة من ضاحية أرمليا.

(٤) وقرية شور وقد تكون أيضاً شون، هى اليوم بلدة Jun الواقعة شمال غرناطة ومن ضواحيها. ويسميها آسين بلاثيوس « جند ».

(٥) وبليانة هى اليوم كاسمها القديم Pulianas وتقع بجوار قرية شور على مقربة من غرناطة.

(٦) وبرقلش هى اليوم قرية Peligros الواقعة بجوار بليانة المتقدمة.

(٧) وقرية البلوط هى اليوم Albolote الواقعة قبالة بليانة وبرقلش، على مقربة من غرناطة.

(٨) وقرية انتيانة ربما كانت Fontanar الحديثة.

(٩) ومرسانة هى قرية Maracena الحديثة الواقعة شمال غربى غرناطة ومن ضواحيها.

(١٠) وقرية طغنر Tignar (وقد وردت محرفة فى المخطوطين، طعن) كان موقعها شمال غربى غرناطة على مقربة من البيرة؛ ولعلها دثرت إذ لم نجد موقعها بالخرائط.

(١١) فى الأسماء الثلاثة الأخيرة وردت كلمة « حبش » قبل كل منها فى المخطوطين. ولكننا نرجح أنها « حش » جرياً على ما تقدم.

(١٢) وقرية الطرف تحمل اليوم نفس اسمها القديم Atarfe وتقع على مقربة من مرسانة المتقدمة الذكر.

(١٣) وقرية البيرة هى اليوم بلدة Elvira وتقع على مقربة من الطرف، وهى مثلها من ضواحى غرناطة وهى غير البيرة القديمة.

(١٤) وقرية الشكروجة هى اليوم Asquerosa الحديثة.

محمد بن أبى زَمَنِين ؛ وعين الحُورَة ؛ وحُش البُومل ؛ وقرية بلومال[١] ؛ وقرية رقّ المَخيض ؛ وقرية الغَيْضُون الحُورَة ؛ وقرية اشقُطمر ؛ وقرية الدِّيمُوس الكبرى، وقرية الديموس الصغرى[٢] ؛ وقرية دار الغازى ؛ وقرية سُوَيْدة ؛ وحُش قَصِيرة ؛ وقرية الرُّكن ؛ وقرية الْفَنْت[٣] ، ومنها صَخْر بن أبان ؛ وقرية الكُدْية[٤] ؛ وقرية لاقِش[٥] ؛ وقرية قَرْبَسَانة[٦] وقرية بُرْسانة ابن ياط ؛ وقرية الوَلْجة ؛ وقرية ماس ؛ وحُش على ؛ وحُش بنى الرُّسيلية ؛ وحُش رقيب ؛ وحش البَلُّوطة ؛ وحش الرَّوَّاس ؛ وحُش مَرْزُوق ؛ وقرية قُبَالَة[٧] ؛ [وقرية نِبَالَة][٨] وقرية العَيْران ؛ و بُرْج هِلال[٩] ؛ وقرية قلتيش[١٠] ، وقرية القنار[١١] ؛ وقرية أرْبل ؛ وقرية بَرْبل ؛ وقرية قَرْباسه[١٢] ؛ وقرية أشكر قَلَنبِيرة[١٣] ؛ وقرية سَعْدى ؛

---

(١) وبلومال هى اليوم قرية El Palomar الواقعة جنوبى ولاية غرناطة بقرب مدينة Albonol قرب شاطىء البحر الأبيض المتوسط .

(٢) والديموس الكبرى والديموس الصغرى هما اليوم بلدة واحدة تحمل اسم Adamuz أو Adamucejo, وتقع على مقربة من غرناطة .

(٣) والفنت هى Daifontes الحديثة ، وهى تقع شمالى غرناطة على نحو عشرين كيلومتر منها .

(٤) وقرية الكدية هى Alcudia الواقعة جنوب شرقى وادى آش .

(٥) لاقش هى اليوم الحى الغرناطى المسمى La Cruz de Lagos وهو فى ضاحية غرناطة يبعد عنها نحو كيلومتر ونصف .

(٦) وقرية قربسانة (وقد وردت محرفة فى ج ، قرسانة) هى اليوم بلدة Caparacena الحديثة وتقع غربى غرناطة على فرع نهر شينل .

(٧) وقرية قبالة هى Cubillas الحديثة .

(٨) هذا الإسم وارد فى « ج » .

(٩) وبرج هلال هى اليوم قرية Purchil الواقعة غربى غرناطة على قيد نحو ثلاثة كيلومترات منها.

(١٠) وقرية قلتيش هى Cortés الحديثة . وتقع غربى مدينة وادى آش

(١١) وقرية القنار هى بلدة Canar الحديثة . وتقع شمال مدينة ارحبة بردنار

(١٢) وقرباسة ربما كانت هى قربسانة وردت مكررة وقد سبق ذكرها .

(١٣) وقرية اشكر – قلنبيرة هى بلدة Colomera الحديثة، وهى تقع فى شمال غرناطة على قيد نحو ثلاثين كيلو مترا منها ، وعلى مقربة من بلدة موكلين .

وقرية علقاجج(١) ؛ وقرية فَتَن(٢) ؛ وقرية مرنيط ؛ وقرية ددشطر ؛ وقرية شِتمانِس(٣) ؛ وقرية أرنالش(٤) ؛ وقرية وابشر(٥) ؛ وقرية قَقلُولِش(٦) ؛ وقرية النَّبيل(٧) ؛ وقرية الفخّار(٨) ؛ وقرية القصر(٩)،منها محمد بن أحمد بن مرعِيَاز الهلالى؛ وقرية بشر؛ وقرية بُنُوط(١٠) ؛ وقرية كورة ؛ وقريه لَصْ ؛ وقرية بِيَش(١١)؛ وقرية قَنْتر(١٢) ؛ وقرية دور ؛ وقرية قَلَنْقَر ؛ وقرية غُلْجَر(١٣) ، ومنها هشام بن عبد العظيم بن يزيد الخَوَلانى ؛ وقرية ذُرذَر(١٤) ؛ وقرية وجر ؛ وقرية قنالش؛(١٥)

---

(١) وقرية علقاجج هى فيما يرجح بلدة Calicasas الحديثة ، وتقع شمال غرناطة ، وشرق بلدة قربسانة .

(٢) وقرية فتن ربما كانت Fatinafar الحديثة .

(٣) وشتمانس هو تحريف لكلمة Sietemanos ومعناها الأيدى السبعة .

(٤) وارنالش هى Arnales الحديثة .

(٥) وابشر هى وفقا للسيمونيت Güejar الحديثة ، وهى واقعة فى شمال شرقى غرناطة فى المجموعة التى منها علقاجج Calicasas وبرقلش Peligros والفخار Alfacar . ويرى بلاثيوس أن Guejàr هى وجار

(٦) وققلولش هى بلدة Gogollos الحديثة، وهى تقع شمال غرناطة على مقربة من Calicasas .

(٧) وقرية النبيل هى بلدة Nivar الحديثة ، وهى تقع شمال غربى غرناطة بين ققلولش والفخار .

(٨) والفخار هى بلدة Alfacar الحديثة ، وهى تقع شمال شرقى غرناطة فى دائرة المجموعة السابقة وقد سميت بذلك لأنها تقع على سفح جبل الفخار .

(٩) وقرية القصر هى Alcazar ، وهى تقع بعيداً عن غرناطة فى الجنوب الشرقى على مقربة من أرجبة Orgiva .

(١٠) وقرية بنوط هى بلدة Pinos Puente أو Fent-Binox الحديثة ، وهى واقعة على مقربة من قربسانة والبلوط .

(١١) وقرية بيش هى التى تعرف اليوم باسم Beas ، وتقع فى شمال شرقى غرناطة على مقربة من مجموعة الفخار وبرقلش .

(١٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » قتن . ومقابلها الحديث Quentar .

(١٣) وغلجر هى فيما يرجح قاجر Cojar وهى حسبما تقدم من ضواحى غرناطة الجنوبية . وتقع على مقربة من ضاحية الزاوية La Zubia الآتية الذكر .

(١٤) وذرذر هى بلدة Dudar الحديثة وتقع شرقى غرناطة على مقربة من قنتر .

(١٥) وقرية قنالش هى بلدة Caniles الحديثة، وهى واقعة جنوبى مدينة بسطة وعلى مقربة منها .

وقرية إبتايلس ؛ وقرية سج ؛ وقرية منشتال[١] ؛ وقرية الوطا[٢] ؛ وقرية وانى ؛ وقرية قُريش ؛ وقرية الزّاوية[٣] .

وقد ذكرنا أن أكثر هذه القرى أمصار ، فيها ما يناهز خمسين خُطبة ، تنُصب فيها لله المنابر ، وتُرفع الأيادى ، وتتوجّه الوجوه .

وجملة المراجع العليّة[٤] المرتفعة فيها ، فى الأزمنة ، فى العام بتقريب ، ومعظمُها السُّقْيا الغبيط السَّمين ، العالى ، مايتا ألف ثنتان وستون ألفا ؛ وينضاف إلى ذلك مَراجع الأملاك السلطانية ، ومواضع أحباس المساجد ، وسُبُلُ الخير ، ما ينيف على

---

(١) منشتال هى اليوم قرية Monachil الحديثة ، وأصل الاسم مأخوذ من كلمة Monasterio الإسبانية ومعناها الدير . وهى من ضواحى غرناطة تقع فى جنوبها الشرقى على مقربة من بلدة الوطا Huetor .

(٢) قرية الوطا هى Huetor Vega وهى ضاحية غرناطة . وتقع فى جنوبها الشرقى فى شمال أرمليا ، وعلى مقربة منها .

(٣) والزاوية هى ضاحية غرناطة التى تعرف اليوم باسم La Zubia وهى واقعة بعد أرمليا وغلجر .

هذا وأما القرى التى لم نعثر على مواقعها وأسمائها الحديثة مما ذكره ابن الخطيب ، فقد دثر الكثير منها ولا ريب ، وغاضت أسماء البعض الآخر خلال الزمن ، واستحالت إلى أسماء اسبانية أضحى من العسير أن نردها إلى أصولها . كذلك لم نعثر على مواقع بعض الأماكن التى أوردنا مقابلها الأسبانى .

ومن جهة أخرى فإن ابن الخطيب لم يذكر كثيراً من قرى ولاية غرناطة المعروفة فى التواريخ الأندلسية ، والتى ما زالت قائمة حتى اليوم ، مثل بلدة الجابية الكبرى Gabia Grande والجابية الصغرى Gabia Chica ، والبذول Padul ، وموكلين Moclin ، وحصن البلوش Bellillos ، والبلاط Veleto ، وبلدة حصن اللوز الكبيرة Iznalloz ، وغيرها ، وكلها من أحواز غرناطة ولها جميعاً ذكرها فى الجغرافية الأندلسية .

وقد رجعنا فى هذا التحقيق إلى المراجع الآتية :

F.J. Simonet: Descripción del Reino de Granada, sacada de los Autores Arabigos. p. 10, 12, 90, 220, 276-281

M. Asin Palacios: Contribucion a la Toponomia arabe de España

وكذلك L. Seco de Lucena: Toponimos granadinos: (Al- Andalus; Vol XVII-2-1952)

ورجعنا فى تحديد المواقع إلى خريطة اسبانيا وضع J.P. (Gotha) ، وخرائط مصلحة المساحة الإسبانية ، وبلدية غرناطة ، وغيرها من الخرائط التفصيلية .

(٤) فى « ك » العملية . وفى « ج » العلمية .

ما ذكر ، فيكون الجميع باحتياط ، خمسمائة ألف وستون ألفا ؛ والمستفاد فيها من الطعام المختلف الحبوب للجانب السلطانى ، ثلاثمائة ألف قَدَح ويزيد ؛ و يشتمل سورُها وما وراءه من الأرْحاء الطَّاحنة بالماء على ما ينيف على مائة وثلاثين رَحَى ؛ ألحَفَها الله جَنَاح الأَمنة ، ولا قَطَع عنها مادّة الرحمة ، بفضله وكرمه .

فصـــل

وقد فرغنا من ذكر رسوم هذا القطر ومعاهده ، وفرغنا من تصويره وتشكيله ، وذكر قراه وجَنَّاته[١] ، وقصوره ومتنزهاته[٢] ، فنحن الآن نذكر بعضا من سِيَرَ أهله ، وأخلاقهم ، وغير ذلك من أحوالهم بإجمال واختصار ، فنقول :

أحوال هذا القطر فى الدِّين و إصْلاح العقائد[٣] ، أحوال سَنِيَّة[٤] ، والنِّحَلُ فيهم معروفة ، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أَنَس[٥] إمام دار الهجرة جارية ، وطاعتُهم للأمراء مُحْكَمَة ، وأخلاقُهم فى احتمال المعاوز[٦] الجِبَائيَّة جميلة ، وصورُهم حسنة ، وأنوفُهم معتدلة غير حادَّة ، وشعورُهم سودٌ مُرْسلة[٧] ، وقدودهم متوسطة معتدلة ، إلى القِصَر ، وألوانهم زُهْر مُشْربة بحُمْرة ، وألسنتُهم فصيحة عربية ، يتَخَلَّلُها غَرْبٌ[٨] كثير ، وتغْلِب عليهم الإمالة ؛ وأخلاقُهم أبيّة فى معانى المُنازعات ؛ وأنسابهم عربيَّة ؛ وفيهم من البَرْبَر والمُهاجِرَة كثير ؛ ولباسُهم الغالب على طُرُقاتهم الفاشى بينهم ، الملفُّ المَصْبُوغ شتاء ؛ وتتفاضل البَزُّ بتفاضل الجِدَة ، والمقدار ؛

---

(١) فى المخطوطين : واجناته .

(٢) فى المخطوطين : ومنزهاته .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، والصلاح العقايد، وهو تحريف .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، سنة . وهو تحريف .

(٥) ذاع مذهب الإمام مالك بالأندلس أيام معاصره الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وكان ذيوعه بالأخص على يد جماعة من فقهاء الأندلس رحلوا منذ أيام عبد الرحمن الداخل إلى المشرق ودرسوا على مالك بالمدينة . ثم عادوا إلى الأندلس فذاع مذهبه على يدهم . وكان هشام بن عبد الرحمن كثير الورع ، شديد الإجلال لمذهب مالك، فزاد ذلك فى ذيوعه . وكان أهل الأندلس قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعى إمام أهل الشام .

(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » المغاون .

(٧) هكذا فى « ج » . وفى « ك » مترسلة .

(٨) فى المخطوطين : عرب . وربما كانت غرب أو غريب .

والكتان والحريرُ ، والقطن ، والموعر ، والأَرْدِية الإفريقيَّة ، والمقاطع التونسية ، والمآزر المَشْفوعة صَيْفًا ؛ فتُبْصِرُهم فى المساجد ، أيّام الجُمَع ، كأنّهم الأزهار المُفتَّحة ، فى البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة(١) .

وأنسابُهم حسبما يظهر من الإشراعات(٢) ، والبَيْعات السلطانية والإجازات ، عربيةٌ ؛ يكثر فيها القُرَشى ، والفِهْرى ، والأَمَوى ، والأُمِّى ، والأَنْصارى ، والأَوْسى ، والخَزْرَجى ، والقَحْطانى ، والحِمْيَرى ، والمَخْزُومى ، والتَّنُوخى ، والغَسَّانى ، والأَزْدى ، والقَيْسى ، والمُغافِرى ، والكِنانى ، والتَّميمى ، والهُذَلى ، والبَكْرى ، والكِلابى ، والنِّمرى ، واليَعْمُرى ، والمازِنى ، والثَّقَفى ، والسَّلْمى ، والفزَارى(٣) ، والباهِلى ، والعَبْسى ، والعَنْسى ، والعُذْرى ، والحِجَجِى ، والضَبى ، والسَّكُونى ، والتِّيمى ، والعَبْشَمى ، والمُرِّى ، والعُقَيْلى ، والفَهْمِى ، والصَّرِيحى ، والجَزَلى ، والقُشَيْرى ، والكَلْبى ، والقُضاعى ، والأصبحى ، والمُرادى ، والرُّعَينى ، واليَحْصُبى ، والتُّجَيْبى ، والصِّدفى ، والحَضْرَمى ، والحِمِّى ، والجُذامى ، والسَّلُولى ، والحَكَمِى ، والهَمَذانى ، والمَذْحِجِى ، والخُشَنى ، والبَلَوى ، والجُهَنى ، والمَزْنى ، والطَّائى ، والغافِقى ، والأَسَدى ، والاشْجُعى ، والعامِلى ، والخَولانى ، والأَيادى ، واللَّيْثى ، والخَثْعَمِى ، والسَّكْسَكى ، والزُّبَيدى ، والتَغْلِبى ، والثَّعْلبى ، والكِلاعى ، والدَّوسى ، والحَوارِى ، والسَّلْمانى .

هذا ، ويرد كثير فى شهاداتهم ، ويقلُّ من ذلك السَّلْمانى نَسَبًا ، وكالدَّوْسى ، والحَوارى ، والزُبَيدى ؛ ويكثرُ فيهم ، كالأَنْصارى ، والحُمَيدى ، والجُذامى ، والقَيْسى ، والغَسَّانى ؛ وكفى بهذا شاهدا على الاصالة ، ودليلا على العُرُوبِيَّة .

---

(١) وردت « المعتز » فى المخطوطين .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة «الإسترعات» ، والمرجح أنها «الإشراعات» ، ومفردها إشراع ، أو الاشتراعات بمعنى مرسوم أو ظهير .

(٣) وردت فى المخطوطين : والفازرى ، وهو تحريف .

وجُنْدُهم صِنفان ، أندَلُسِي و بَرْبَرِى ؛ والأندلسى منها يقودُهم رئيسٌ من القَرابة أو حَصِىٌّ[١] من شيوخ الممالك . وزِيُّهم فى القديم شَبَه زِى أقتالهم[٢] ، وأضْدَادهم من جيرانهم الفِرَنج ، إسباغُ الدُّروع ، وتعليقُ التِّرْسَة ، وحفَا البِيضات ، واتخاذ عُراض الأَسنَّة ، و بشاعة[٣] قرابيس السروج ، واستركابُ حملة الرّايات[٤] خلفه ، كلٌّ منهم بصفةٍ تختصُّ بسلاحه ، وشهرةٍ يُعرف بها . ثم عدلوا الآن عن هذا الذى ذكرنا[٥] ، إلى الجَواشن المُخْتَصرة ، والبيضات المرهفات ،والسُّروج العربية[٦] ، والبِيَبِ اللمْطية ، والأُسُل العَطَفية[٧] .

والبَرْبَرى منه ، يرجع إلى قبائله المَرِيذِيَّة ، والزّنَاتِية ، والتَّجانية ، والمَغْرَاوية ، والعَجِيسية ؛ والعربُ المَغْرِبيةُ إلى أقطاب ورؤوس ، يرجع أمرهم إلى رئيس ، على رؤسائهم ، وقطب لعُرَفائهم ، من كبار القبائل المرِيذِيَّة ، يَمُتُّ إلى مَلِكِ المغرب بنَسَب .

والعمائم تقل فى زِى أهل هذه الحَضْرة ، إلا ما شذّ[٨] فى شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم ، والُجند العربى منهم . وسلاح جُمْهورهم العِصِىّ الطويلة ، المثناة بعِصِىّ صغارٍ ذوات عُرًى فى أوساطها ، تُدفع بالأنامل عند قَذْفها تسمى [« بالأمْداس » ؛ وقِسِىّ الإفرَنْجة يُحْملون على التَّدْريب بها على الأيام ؛ ومُنانهم[٩] متوسطة ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : حصيا فاقتضى التصويب ، والحصى الرجل الوافر العقل .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمقصود هنا ، الذين يقاتلونهم .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ، حملة الربات وهو تحريف ظاهر .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى « ك » .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة : والروج والعربية ، وهو تحريف ظاهر .

(٧) هكذا وردت فى « ك » وفى « ج » . و « ت » (اللطفية . اللطيفة) .

(٨) وردت فى المخطوطات الثلاثة : شاد وهو تحريف . و بالتصويب يستقيم المعنى .

(٩) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ومناسهم . والمنان جمع منة وهى القوة .

[وأعيادهم][١] حسنة ، مائلة إلى الاقتصاد ، والغِناء[٢] بمدينتهم فاشٍ ، حتى فى الدكاكين التى تجمع صنائعها ، كثيراً من الأحْداث ، كالخفّافين[٣] ومثلهم .

وقوتُهم الغالب ، البرُّ الطيِّب ، عامّة العام[٤] ، وربما اقتات فى فصل الشتاء الضَّعَفةُ والبوادى والفعَلة فى الفلاحة ، الذُّرةَ العربية ، مثل أصناف القطَانى الطيبة . وفواكههم اليابسة عامة العام ، متعددةٌ ؛ يدّخرون العِنَب سليما من الفساد ، إلى شَطْر العام ؛ إلى غير ذلك من التِّين ، والزّبيب ، والتفاح ، والرّمان ، والقَسْطل ، والبَلُّوط ، والجوْز ، واللَّوز ، إلى غير ذلك مما لا ينفَد ، ولا ينقطع إلا مدة ، فى[٥] الفصل الذى يُزهد فى استعماله .

وصَرْفُهم فِضَّة خالصةٌ ، وذهبٌ إبريزٌ طيِّب[٦] محفوظ ، ودِرْهَمٌ مُرَبَّع الشّكل ، ، من وزن[٧] المهدى القائم بدولة الموحدين[٨] ، فى الأوقية منه سبعون درهما ، يختلف الكَتْب فيه . فعلى عهدنا ، فى شِقٍّ ، « لا إلَه إلا الله ، محمد رسول الله » ؛ وفى شِق آخر ، « لا غالِبَ إلّا الله ، غَرْناطة » . ونصفه وهو القيراط ، فى شِق ، « الحمد لله رَبِّ العالمين » ؛ وفى شِق ، « وما النصر إلا من عند الله » . ونصفُه وهو الرُّبع ، فى شِق ، «هُدى الله هو الهُدى» ؛ وفى شق، «العاقبة للتقوى» .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى « ت » .

(٢) رسمت فى المخطوطات الثلاثة : والغنى .

(٣) جمع خفّاف . وهو الذى يصنع الخفاف جمع خف .

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة : العامة وهو تحريف .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة : إلا فى ، وإلا هنا زائدة ، وهو تكرار سهو .

(٦) هكذا وردت هذه الكلمات الثلاث فى « ج » . ووردت على النحو الآتى فى « ك » : وذهباً إبريزاً طيباً . وهو تحريف ظاهر .

(٧) وردت فى المخطوطين : لون . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٨) هو أبو عبد الله محمد بن تومرت الملقب بالمهدى مؤسس دولة الموحدين فى المغرب ، وهى التى غلبت فيما بعد على الأندلس ، وانتزعتها من أيدى المرابطين . وقد توفى المهدى سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٩ م) .

ودينارُهم فى الأوقية منه ، ستة دنانير وثلثا دينار ؛ وفى الدينار الواحد ثُمن أوقية وخُمس ثُمنِ أوقية . وفى شِق منه ، « قل اللّهم مالكُ المُلْك بيدك الخيْر » ، ويَسْتَدِيرُ به قوله تعالى، « إلهكم إلهٌ واحدٌ ، لا إلهَ إلا هو الرّحْمٰن الرّحيم » . وفى شِق ، « الأمير عبد الله يوسف ، بن أمير المسلمين أبى الحجّاج ، بن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن نصر ، أيّد الله أمْرَه » . ويَسْتَدِير به ، شعار هؤلاء الأمراء ، « لا غالب إلا الله » . ولتاريخ تمام هذا الكِتاب ، فى وجْهٍ ، « يا أيها الذين آمنوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطوا واتقُوا الله لَعَلّكم تُفْلِحُون » . ويَسْتَدِير به ، « لاغالب إلا الله » . وفى وجه ، « الأمير عبد الله الغَنِى بالله ، محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نَصْر ، أيّده الله وأعانه » . ويستدير برُبع ، « بمدينة غرْناطة حرَسها الله » .

وعادةُ أهل هذه المدينة ، الانتقال إلى حُلَل العَصِير أوان إدْراكه ، بما تشتمل عليه دورُهم ، والبروز إلى الفحوص[١] بأولادهم ، مُعَوّلين فى ذلك على شهامتهم[٢] وأسْلِحتهم ، وعلى كَثَبِ دورهم[٣] ، واتّصال أمْصَارهم بحُدود أرضه . وحُلِيُّهم فى القلائد ، والدّمالج ، والشُّنوف ، والخَلاخِل الذّهب الخالص ، إلى هذا العهد ، فى أولى الجِدَة ؛ واللجَيْنُ فى كثير من آلات الرّجلين ، فيمن عداهم ؛ والأحجارُ النفيسة من الياقوت ، والزّبَرْجَد ، ونفيس الجَوْهر ، كثير ممن ترتفع طبقاتهم المُسْتَنِدة إلى ظِلّ دولة ، أو أَصالةٍ معروفة مُوفَّرة .

وحريمُهم ، حريم جميل ، موصوف بالسحر[٤] ، وتنعُّم الُجسوم ، واسترسال الشُّعور ، ونَقاء الثُّغُور ، وطِيبِ النّشر[٥] ، وخِفّة الحركات ، ونُبل الكلام ،

---

(١) جمع فحص وهو المرج .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » سهامتهم ، فإن كانت تعنى السهام فهى صحيحة أيضاً .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » (على كثب على دورهم) وهو تحريف .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » بالحسن ، والمعنى واحد .

(٥) وردت فى « ج » : الشرا ، و « ك » النشرا . والنشر هو الريح الطيبة .

وحُسْن المحاورة(١) ، إلا أن الطُّول يَنْدُر فيهن(٢) . وقد بَلَغْن من التّفنُّن فى الزينة لهذا العهد،والمظاهرة بين المُصْبَغات ، والتَّنْفيس بالذَّهَبِيَّات والدِّيباجِيَّات ، والتَّماجُن فى أشكال الحُلِى ، إلى غاية نسأل الله أن يُغضَّ عنهن فيها ، عَين الدهر ، ويُكَفكف الخَطْب ، ولا يجعلها من قَبيل الابْتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بسَتره ، ولا يُسْلبهم خَفِىَّ لطْفه ، بعزَّته وقُدْرته .

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » المجاورة .

(٢) إن أوصاف ابن الخطيب لنساء مملكة غرناطة فى عِصره ، ما تزال حتى اليوم ماثلة فى نساء غرناطة الإسبانية النصرانية مثولا قوياً، يستلفت نظر كل من تجول فى ربوع المدينة الأندلسية التالدة .

فصـــل

فيمن تداول هذه المدينة

من لَدُن أصْبَحت دار إمارة باختصار واقْتِصار

قال المؤلف : أول من سكن هذه المدينة ، سُـكنى استبداد ، وصيَّرها دار مُلْـكه ومَقَرَّ أمره ، الحاجبُ ، المنصور أبو مُثنى زَاوِى بن زِيرى[١] بن مَناد[٢] ، لمّا تغلّب جيش البربر ، مع أميرهم سليمان بن الحـكم على قُرْطبة ، واستولى على كثير من كوَر الأنْدلُس ، عام ثلاثة وأربعمائة فما بعدها ، وظهر على طوائف الأندلس[٣] ، واشتهر أمره ، و بعُدصيته ؛ ثم اجتاز البحر إلى بلد قومه بإفريقية ، بعد أن مَلكَ غَرْناطة سبع سنين ؛ واستخْلَفَ ابن أخيه حَبُّوس بن ماكْسَنْ ، وكان حازماً داهية ، فتوسَّع النظر إلى أن مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة . ووَلِي بعده حفيده عبد الله ابن بُلُـكِّين[٤] بن بادِيس ، إلى أن خُلع عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ، وتصيَّر أمرُها إلى أبى يعقوب يوسف بن تاشفِين ملك لَمتُونة[٥] عند تَمَلُّـكه الأندلس ، ثم إلى ولده علىّ بن يوسف . وتنَوَّبَ إمارتها جملةٌ من أبناء الأمراء اللَّمتُونيين

---

(١) وردت فى المخطوطين : رمدى ؛ وهو تحريف ظاهر .

(٢) كانت غرناطة عقب ثورة البربر التى قامت على أثر انهيار الدولة العامرية والخلافة الأموية من نصيب البربر ؛ واستولى عليها زعيمهم زاوى بن زيرى الصنهاجى سنة ٤٠٣ هـ وحكمها حتى سنة ٤١٠ هـ (١٠١٢ — ١٠١٩ م) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد فى نهاية هذا المجلد .

(٣) طوائف الأندلس ، هم زعماء الطوائف الذين اقتسموا ولايات الأندلس وقواعدها عقب انهيار الخلافة وثورة البربر ، وأسسوا لأنفسهم فى ولايات الأندلس وقواعدها إمارات وممالك صغيرة . وعرف أولئك الزعماء بملوك الطوائف .

(٤) وردت فى المخطوطين : (ملقن) وهو تحريف بلقين أو بلكين . و بلكين أكثر شيوعاً .

(٥) سبقت الإشارة إلى يوسف بن تاشفين . انظر الحاشية فى ص١١٣ .

وقَرَابتهم ، كالأمير أبى الحسن على بن الحاجّ[١] وأخيه موسى ؛ والأمير أبى زكريا يحيى بن أبى بكر بن إبراهيم ؛ والأمير أبى الطّاهر تَمِيم ؛ والأمير أبى محمد بن مَزْدَلى ؛ والأمير أبى بكر بن أبى محمد ؛ وأبى طَلْحة الزُّبَير بن عُمر ؛ وعثمان بن بدر اللَّمْتُونى ؛ إلى أن انقرض أمرُهم عام أربعين وخمسمائة .

وتصيَّر الأمرُ بها للمُوَحِّدين[٢] ، وإلى ملكهم أبى محمد عبد المؤمن بن على[٣] ، فتناوبها جملةٌ من بنيه وقَرابته ، كالسّيد أبى عثمان بن الخليفة ؛ والسّيد أبى إسحاق ابن الخليفة ؛ والسّيد أبى إبراهيم بن الخليفة ؛ والسيد أبى محمد بن الخليفة ؛ والسيد أبى عبد الله ؛ إلى أن انْقَرَض منها أمر المُوَحِّدين .

وتَمَلَّكها المتوكِّل على الله ، أمير المؤمنين ، أبو عبد الله محمد يوسف بن هُودْ[٤]

---

(١) هكذا وردت فى « ك » ، وفى « ج » ، الحجاج . والأولى هى الصواب .

(٢) وردت فى « ج » ، للموحد . وفى « ك » ، الموحدون ، وحكمة التصويب واضحة .

(٣) هو خليفة المهدى محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، وثانى رؤسها ، وأعظم زعمائها . تولى الزعامة عقب وفاة المهدى ، وأتم افتتاح المغرب من يد المرابطين ، وقضى على دولتهم بافتتاح مراكش سنة ٥٤٣ هـ . وافتتح الأندلس من يد المرابطين وحلفائهم . ووطددولة الموحدين فى المغرب والأندلس . وكانت وفاته فى سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) .

(٤) يترجم ابن الخطيب فيما بعد فى الإحاطة للمتوكل ابن هود . ولا بأس من أن نقدم إيضاحاً موجزاً لما يجمله ابن الخطيب هنا من أمر هذا الانقلاب الحاسم فى مصاير الأندلس . وذلك أنه لما اشتدت وطأة الموحدين والنصارى على الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، ظهر المتوكل ابن هود هذا . وهو سليل بنى هودملوك سرقسطة السابقين أيام الطوائف ؛ ظهر فى أحواز مرسية سنة ٦٢٥ هـ ، ودعا إلى تحرير الأندلس من النصارى والموحدين معاً ، وقوى أمره تباعاً ، وانحازت إليه عدة من قواعد الأندلس الهامة مثل جيان وقرطبة وماردة وبطليوس . وفى سنة ٦٢٨ هـ استطاع أن ينتزع غرناطة من الموحدين . وفى تلك الآونة اشتدت وطأة النصارى على الأندلس ، وأخذت قواعدها تسقط فى أيديهم تباعاً . وبذل ابن هود جهده لمحاربتهم ولكنه لم يستطع وقف عدوانهم لتمزق الأندلس يومئذ . ثم توفى ابن هود قتيلا فى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) . وكان قد ظهر فى نفس الوقت محمد بن يوسف بن نصر (ابن الأحمر) فى جنوب الأندلس ، وبسط حكمه على كثير من أنحائها . ثم استولى على غرناطة عقب وفاة ابن هود ، وجعلها عاصمة إمارته وبذلك قامت مملكة غرناطة . ويخصه ابن الخطيب فيما بعد بترجمة وافية .

فى عام ستة وعشرين وستمائة ، ثم لم يَنْشَب (١) أن تملَّكها أمير المسلمين الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر الخَزْرجى ، جَدُّ هؤلاء الأمراء موالينا ، رحم الله من دَرَج منهم ، وأعان من خَلِفه ، إلى أن توفى عام أحدٍ وسبعين وستمائة . ثم ولِىَ الأمر بعده ولده وسَمِيُّه محمد بن محمد فقام بها أحمد قيام ، وتوفى عام إحدى وسبعمائة . ثم ولِىَ بعده سَمِيُّه محمد إلى أن خُلع يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة ، وتُوفى عام أحد عشر وسبعمائه فى ثالث شوّال منه . ثم ولِىَ بعده أخُوه نَصْرُ بن مولانا أمير المسلمين أبى عبد الله ، فأرتَبَ أمرُه وطلب المُلْكَ اللاّحقُ به (٢) مولانا أمير المسلمين أبو الوليد إسماعيل بن فرج ، فغَلَب على الإمارة ، ثانى عشر ذى القعدة من عام ثلاثة عشروسبعمائة ؛ وانتقل نصر إلى وادى آش مَخْلوعاً ، مُوادِعاً بها إلى أن مات عام [اثنين وعشرين] (٣) وسبعمائة. وتمادى مُلْكُ السلطان أمير المسلمين أبى الوليد إلى السادس والعشرين من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، ووَثَب عليه بعض قَرابته فقتله ، وعُوجل بالقَتْل مع مَنْ حضر منهم . وتولّى المُلْكَ بعده ولده محمد ، واستمرّ سلطانه إلى شهر ذى الحجة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، وقُتل بظاهر جبل الفَتْح (٤) . وولِى بعده أخوه مولانا السلطان أبو الحجاج لُبابُ هذا البيت ، وواسِطَة هذا العِقْد ، وطِرازُ هذه الحِلية ، ثم اغتاله (٥) مَمْرُور من أخابيث السُّوقة ، قيَّضَه الله إلى شهادته ، وجعله سبباً لسعادته ، فأكَبَّ عليه فى الرّكْعة الآخرة من ركعتى عِيد الفِطْر ، بين يدى المِحْراب ، خاشِعاً ، ضارعاً ، فى الحال الذى أقربُ ما يكون

---

(١) هكذا فى المخطوطين . ومعناها لم يلبث .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، إلى أن لحق به . وبالأولى يستقيم السياق .

(٣) وردت فى « ك » (عام . . . وسبعمائة) مع بياض فى مكان التاريخ . ووردت فى « ج » (عام اثنين وسبعمائة) ، فاقتضى تصحيح التاريخ كما هو بين الحاصرتين .

(٤) أى جبل طارق ، وسمى كذلك لأنه كان دائماً يتخذ قاعدة لعبور الجيوش الإسلامية الغازية إلى اسبانيا منذ طارق بن زياد .

(٥) قتل السلطان يوسف أبو الحجاج غيلة على النحو الذى يصفه ابن الخطيب فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ (أكتوبر سنة ١٣٥٤) م . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد بإفاضة .

العَبْدُ من رَبِّه ، وهو ساجدٌ ، وضربه بخنجر مُهيءٍ[1] للفَتْك به ، فى مثل ذلك الوقت ، كان ، زعموا ، يحاول شَحْذه منذ زمان ، ضَرْبَةً واحدةً ، على الجانب الأَيْسر من ظَهْره ، فى ناحية قَلْبِه ، فقَضى عليه ، و بُودِر به فقُتِل .

ووَلِى الأمر بعده محمد[2] ، ولدُه أ كبر بَنيه ، وأفضل ذو يه ، خَلْقاً وخُلُقاً ، وحياءً وجوداً ، ووقاراً وسلامة وخَيْريَّة ، ودافع دولته من لا يعبأ الله به[3] ؛ ثم تدارك الأمر سبحانه ، وقد أشْفَى ، ودافع وكفى ، بما يأتى فى محله إن شاء الله . وهو أمير المسلمين لهذا العهد ، متّع الله به ، وأدام مدَّته ، وكتب سعادته ، وأطلق بالخير يده ، وجعله بمراسِم الشريعة من العاملين ، ولسلطان يوم الدين من الخائفين ، المُراقِبين ، بفضله .

وقد أتينا بما أمكن من التعريف بأحوال هـذه الحَضْرة على اختصار . ويأتى فى أثناء التَّعْريف برجالها كثيرٌ من تفصيل ما أُجمِل ، وتَتْميم ما بَدَأَ ، و إيضاح ما خفِى ، بحول الله تعالى .

---

(١) وردت فى المخطوطين : مهيئاً ، وهو تحريف ظاهر .

(٢) هو السلطان محمد الغنى بالله . تولى الملك مرتين : الأولى بين سنتى (٧٥٥ – ٧٦٠ هـ) . والثانية بين سنتى (٧٦٣ – ٧٩٣ هـ) . وهو السلطان الذى قضى ابن الخطيب فى خدمته زها ستة عشر عاماً ، وشاطره المنفى بعد ولايته الأولى . ويخص ابن الخطيب حوادث عصر مليكه الغنى بالله ، وهو فى نفس الوقت العصر الذى بلغ فيه ابن الخطيب ذروة مجده السياسى والأدبى ، بفصول كثيرة فى « الإحاطة » ، وفى كتبه الأخرى .

(٣) يشير ابن الخطيب هنا إلى ثورة إسماعيل أخى السلطان محمد الغنى بالله عليه ، وانتزاعه الملك منه فى رمضان سنة ٧٦٠ هـ ، واستمراره فى العرش ثلاثة أعوام ، استطاع محمد بعدها أن يسترد ملكه ، وذلك فى أوائل سنة ٧٦٣ هـ .

القسم الثاني

فى حُلى الزّائر والقاطن
والمُتحرّك والسّاكن

أحمد بن خَلَف بن عبد الملك الغسّانى القُلَيْعى

من أهل غَرْناطة ، يُكْنى أبا جعفر ، من جِلّة أعيانها ، تُنسب إليه الساقية الكبرى المجاورة بطَوْق الحضرة إلى إلْبيرة ، وما والاها .

حاله

قال ابن الصَّيْرفى : كان الفقيه أبو جعفر القُلَيْعى ، من أهل غرناطة ، فريدَ عصره ، ومريع(١) دهره ، فى الخير والعلم والتِّلاوة ؛ وله حِزْبٌ من اللَّيل ، وكان سريعَ الدِّمعة(٢) ، كثير الرِّواية(٣) ؛ وهو المُشار إليه فى كل نازلة ، وله العَقْد والحلُّ والتقدُّم والسّابقة ، مع مُنَّة فى جلائل الأمور ، والنّهضة بالأعباء ، وسُمُوِّ الهمَّة .

«غريبةٌ فى شأنه» : قال ، كان باديس بن حَبُّوس [أمير بلده](٤) يتفرّس فيه أن مُلْك دولته ، ينقرض على يديه ، فكان ينْصِب(٥) لشأنه أكلُباً ، ويَتَملّط سيفه(٦) إلى قَتْله ، فحماه الله منه بالعِلم ، وغَلّ يده ، وأغْمد سيفه ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

مشيخته

روى عن أبى عمر(٧) بن القطّان ، وأبى عبد الله بن عتّاب ، وأبى زكريا القُلَيعى ، وأبى مروان بن سِرَاج ؛ وكان ثقةً صَدُوقاً ، أخذ عنه الناس .

---

(١) أعنى وافر الخصب والمرعى . وفى « ر . م » : قريع .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » الدمة .
(٣) وردت فى المخطوطين : الراية . وهو تحريف ظاهر .
(٤) هذه الزيادة واردة فى « ر . م » .
(٥) فى المخطوطين : نصب .
(٦) فى « ر . م » بسيفه .
(٧) هكذا فى « ر . م» . وفى المخطوطين : على ، والأولى أرجح .

محنته

ولما أجاز أمير لَمْتونة يوسُف بن تاشُفِين البحر [مُستدعى إلى نصر المسلمين](١) ، ثانى حركاته إلى الأندلس ، ونازل حصن أليط(٢) ، وسارع ملوك الطوائف إلى المَسِير في جُمْلته ، كان ممن وصل إليه الأمير أبو عبد الله بن بُلُـكِّين(٣) بن بادِيس صاحب غرناطة ، ووصل صحبتَه الوزيرُ أبو جعفر بن القُلَيعى ، لرغبته في الأجر مع شهرة مكانه ، وعلوِّ منْصِبه ، ولنهوض نظرائه(٤) ، من زعماء الأقطار ، إلى هذا الغرض ؛ وكان مَضرِبُ خيام القُلَيعى [قريباً من مَضْرب](٥) حَفيد باديس ؛ ولمنزلته عند الأمير يوسف بن تاشفين ، وله عليها الحفوف ، وله به استبدادٌ ، وانفرادٌ كثير ، وتردُّدٌ كثير(٦) ، حتى نَفى بذلك حفيد باديس ، وأنْهَم عَنيَه(٧) . قال المؤرخ ، وكيفما دارت الحال ، فلم يَخْل من نصحٍ لله ، ولأمير المسلمين .

قلت ؛ حفيد باديس كان أدْرَى بدائه ، قَصّر الله خُطانا من مدارك الشُّرور . فلما صدر(٨) حفيد باديس إلى غَرْناطة ، استحضره ونَجَهه ، وقام من مجلسه مُغْضباً ،

---

(١) هذه الزيادة واردة فى « ر . م » .

(٢) هذا الحصن يسمى بالإسبانية Alédo . وتسميه الرواية العربية بحصن لبيط أو ليط أو أليط كما يسميه ابن الخطيب . وقد كان من الحصون النصرانية المنيعة الواقعة بين لورقة ومرسية ، وقد حاصره المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين ومعه حلفاؤه الأندلسيون فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) . ولكن الفونسو السادس ملك قشتالة استطاع الدفاع عنه وإنقاذه . وتفيض الرواية الإسلامية فى تفاصيل هذه الموقعة (راجع روض القرطاس لابن أبى زرع ص ١٩٩ . والاستقصاء للسلاوى ج ٢ ص ١١٩ . وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣) .

(٣) رسمت فى المخطوطين ، بلقين . ورسمها بالكاف أكثر شيوعاً حسبما يتوضح بعد .

(٤) وردت فى المخطوطين : « قرابته » . والتصويب من « ر . م » .

(٥) ورد فى « ر . م » مكان هذه العبارة : « فى محلة » والمؤدى واحد .

(٦) هذه العبارة واردة فى المخطوطين ؛ وناقصة فى « ت » .

(٧) وردت فى المخطوطين ، غيبه . والتصويب من « ت » وهو أرجح بالنسبة للمعنى .

(٨) هكذا وردت فى المخطوطين وفى « ر . م » . وفى « ت » صار .

وتعلَّقت به الخَدَمة ، وحفَّت به الوَزَعة[١] والحاشية[٢] . وهمُّوا بضَرْبه ؛ إلا أن أمّ عبد الله تطارحت على ابنها فى استحيائه ، فأمر بتخليصه ، وسجنه في بعض بيوت القَصْر ؛ فأقْبَل فيه على العبادة والدعاء والتِّلاوة ؛ وكان جَهير الصوت ، حسن التلاوة ، فارتجَّ القصر ، وسَكَنت لاستماعه الأصـوات ، وهدأت له الحركات ، واقشعرَّت الُجلود . وخافت أم عبد الله على ولدها، عقاباً من الله بسببه ، فلاطفته حتى حلّ عِقاَله ، وأطْلَقه من سجنه . ولما تخلَّص أعدّها[٣] غنيمةً . وكان [جزْلًا ، قوىّ القلب][٤] ، شديد الَجزم[٥] ؛ فقال الصَّيْد بغُراب أ كْيس ؛ فاتخذ الليل جَمـلًا[٦] ؛ فطَلَع له الصباح بقلعة يَحْصُب[٧] ، وهى لنظر ابن عباد، وحث منها السَّير إلى قُرطبة ؛ فخاطب منها يوسف بن تاشُفين بملء فيه ، بما حرّكه وأطْمَعه ؛ فكان من حركته إلى الأندلس ، وخَلْع عبد الله بن بُلـكِّين من غرناطة ، واستيلائه عليها ، ما يَرد فى اسم عبد الله وفى اسم يوسف بن تاشفين إِن شاء الله . و بدا الحفيد بادِيس فى أمر أبى جعفر القُليعى ، ورأى أنه أضاع الحزم [في إطلاقه فبحث][٨] عنه من الغد[٩] ، وتقصَّت[١٠] عنه البلدة ، فلم يَقَع له على خَبَر ، إلى أن اتَّصل به خبرُ نجاته ، ولحاقه

---

(١) الوزعة هم قامعو الشر والبغى .

(٢) وردت فى « ك » الحارسية . وفى « ج » الحاسية . وفى « ت » الجلسة . والتصويب من « ر . م » .

(٣) هكذا فى المخطوطين ، وفى « ر . م » اعتدها .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . ولكنها وردت فى « ر . م » : « حولا قلبا » .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » ، الحزم ، والأولى أرجح .

(٦) هكذا فى المخطوطين . والمقصود أنه اتخذ الليل مركباً .

(٧) قلعة يحصب أو Alcalá la Real الحديثة ، وقد سبق التعريف بها . انظر الحاشية فى ص١١٧

(٨) ما بين الحاصرتين وارد فى « ر . م » ومكانه بياض فى « ك » . وفى « ج » (فى البحث) وما أورده « ر . م » أرجح بالنسبة للمعنى .

(٩) وردت فى المخطوطين : العدو . والمعنى يستقيم بالتصويب .

(١٠) فى المخطوطين : نقصت . وهو تحريف ظاهر .

بمأمنه . فرجع باللائمة على أُمِّه ، ولات حين مَنْدم . ولم يزل أبو جعفر مدّته في دول الملوك ، من لَمْتونة ، معروف الحقِّ ، بعيد الصِّيت والذِّكر ، صَدْرَ الحضْرة ، والمَخْصوص بعُلوِّ المرتبة إلى حين وفاته .

[أحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد الهمدانى اللخمى

من أهل غرناطة .

« حاله » : كان فقيهاً وزيراً جليلا حسيباً حافلا .

« وفاته » : توفى بإلبيرة قبل الثلاثين وأربعمائة .

ذكره أبو القاسم الغافقى فى تاريخه وابن اليسر فى مختصره وأثنى عليه][1]

أحمد بن محمد بن أَضْحى بن عبد اللطيف بن غريب بن يزيد ابن الشَّمِر بن عَبْدِ شَمس بن غريب الهَمْدانى الإلْبِيرى

من نزلاء قرية هَمدان[2]؛ ذكره ابن حَيَّان ، والغافِقى ، وابن مَسْعَدة ، وغيرهم ؛ فقال جميعُهم ، كان من أهل البلاغة ، والبيان ، والأدب ، والشعر البارع .

---

(١) وردت هذه الترجمة فى صلب « ر . م » (ص٢٦٩) قبل ترجمة ابن أضحى؛ ولم ترد فى المخطوطات الثلاثة فرأينا إثباتها فى مكانها .

(٢) هى بلدة Alhendin الحديثة وقد سبق التعريف بها . أنظر الحاشية فى ص ١١٨ .

مناقبه

قدم على الخليفة أبي مُطَرِّف عبد الرحمن[١] ، فقام خطيباً بين يديه ، فقال : الحمد لله المُحْتَجِب بنُور عَظَمته ، عن أبصار بَرِيَّته ، والدَّال بحدوث خَلْقه على أوَّليَّته ، والمنفرد بما أتْقَن من عجائب دهره ، ومِنَن صَمَدِيَّتِه ، وأشهد أن لا إلَه وحده ، لا شريك له ، إقراراً بِوَحْدَانيته[٢] ، وخضوعًا لعزِّه وعظمته . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، انتَخَبه من أطيب البُيوتات ، واصطفاه من أطيب البيوتات[٣] ، حتى قَبَضه الله إليه ، واختار له ما لديه . وقد قَبِل سَعْيه ، وأدّى أمانته ، فصلى الله عليه وسلم تسليما . ثم إن الله لما أن بعثه من أكرم خَلْقه ، وأكرمه برسالته ، وأنزل عليه مُحْكَم تَنْزيله ، واختار له من أصحابه وأشياعه خلقاً ، جعل منهم أئمة يَهْدُون بالحق ، وبه يَعْدلون ؛ فجعل الله الأمير ، أعزه الله ، وارث ما خلَّفوه من معاليهم ، وباني ما أسَّسوه من مشاهدهم ، حتى أمَّن المَناسِك[٤] ، وسكن الخائف ، رَحْمَةً من الله ، ألْبَسَه[٥] كَرَامتَها ، وطَوَّقه فضيلتَها ؛ والله يُؤْتي مُلْكَه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

الله أعطاك التى لا فَوْقها   وقد أراد المُلْحِدون عَوْقها
عَنْك ويأبَى الله إلَّا سَوْقها   إليك حتى قلَّدوك طَوْقَها

---

(١) هو الخليفة عبد الرحمن الناصر مؤسس الخلافة الأموية بالأندلس وقد حكم من سنة ٣٠٠ – ٣٥٠ هـ (٩١٢ – ٩٦١ م) .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، بربوبيته .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . ومكانها بياض فى « ك » .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، المسالك .

(٥) هذه الكلمة وردت فى « ج » وأغفلت فى « ك » .

ثم أردف قوله بهذه الأبيات :

أيا مَلِكاً تُرْمَى به قُضُبُ الهند[1] إذا لَمَعَتْ بين المَغافر والسُّرْد
ومَنْ بأسُه فى مَنْهَل الموت واردٌ إذا أنفسُ الأبطال كلَّت عن الوِرْد
ومن ألبس الله الخلافة نِعْمةً به فاقت النَّعْما وجلّت عن الحدِّ
فلو نُظمَتْ مَرْوانُ فى سِلْكِ فَخْرِها لأصْبَح من مَرْوان واسِطَةَ العِقْد
تَجَلَّى على الدُّنيا فأجْلَى ظَلامَها كما انجلَتْ الظَّلْماءُ عن قَمَر السَّعْد
إمامُ هُدًى أضحت به العُرْبُ غَضَّةً[2] مُلَبَّسَةً نورًا كوَاشِيَة البُرْد
كفانى لديه[3] أنْ جعلتُ وَسيلَتى[4] ذماماً شآمىَّ[5] الهوى خالص الورد
يؤكد ما يدلى به من مثابة خلوص أبيه عبد الفارس الجند
فتأمل رُواه والرِّماح شَواجرٌ وخَيْلٌ إلى خَيْلٍ بأبطالها تُرْدِى
رأى أسدًا وَرْدًا يَخِفُّ إلى الوغى ورَأَيْتُهُ أرْبَى على الأسد الورد
فأنْعِم عليه اليَوْم يا خَيْر مُنْعِمٍ بإظهار تَشْرِيفٍ وعَقْدِ يدٍ عِنْدى
ولا تُشْمِت الأعداءَ أن جِئْتُ قاصدًا إلى مَلِك الدُّنيا فأُحْرَمُ من قصدى
فعِنْدَ الإمامِ المرْتَضَى كلُّ نِعْمةٍ وشُكْرًا لما يُولِيه[6] من نَعْمةٍ عندى
فلا زال فى الدُّنيا سَعيدًا مُظَفّرًا وبُوِّئَ فى دارِ العُلَى جَنَّةَ الخُلْدِ

---

(١) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين : « أيا ملكاً تزهى به قلوب الهند » . وهو تحريف والتصويب من الحلة السيراء لابن الأبار (ص ١٢٠) .

(٢) هكذا فى المخطوطين وفى « الحلة السيراء » : (إمام هدى زيدت به الأرض بهجة) .

(٣) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى الحلة السيراء .

(٤) هكذا فى الحلة . وفى المخطوطين وسائلى .

(٥) واردة فى الحلة وساقطة فى المخطوطين .

(٦) وردت فى « ج » يلحيه ، وفى « ك » ، يليه .

وكان من بيت سماحة وفصاحة وخطابة ، فَعَلا[١] شرفه بهذه الخصال ؛ فسُجِّل له على أرحِيَةٍ ، وحِصْنٍ نبيل ببنى هُود وغير ذلك ، فانقلب مَرْعىً الوسائل ، ومَقْضِىَّ الرَّسائل .

[قال المؤلف أرى ابن فركون قبل الست عشرة الثلاثمائة][٢]

أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القُرشى

من أهل غَرْناطة . يُكْنى أبا جعفر ، و يُعْرف يابن فَرْكُون

أَوّلِيَّتُـــــه

وكفى بالنسب القرشى أوليَّة .

حـاله

من « عائد الصلة »[٣] : كان من صُدُور القضاة بهذا الصقع[٤] الأندَلُسى ، اضطِّلاعاً بالمسائل ، ومعرفة بالأحكام من مظَانِّها[٥] ، كثير المطالعة والدُّروب ، وحِىَّ[٦] الإجهاز في فصل القضايا ، نافذ المَقْطَع ، كثير الاجتهاد والنَّظر ، مشاركاً

---

(١) فى المخطوطين : فالى . وهو تحريف ظاهر .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى المخطوطات الثلاثة عقب هذه الترجمة . ووجود هذه العبارة فى هذا الموطن غير واضح ، ولا علاقة لها بما تقدم أو بما تأخر بعد ذلك من ترجمة ابن فركون التالية ، بيد أننا لم نر بأساً من إثباتها كما هى .

(٣) هو من مؤلفات ابن الخطيب . وقد تقدم التعريف به فى المقدمة .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » السقع .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة : مضانها .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ، وحير . ووحى معناها عجل مسرع

في فنون، من عربيَّة، وفِقْه، وقراءة، وفَرائض، طيِّب النَّغمة بالقرآن، حسن التِّلاوة، عظيم الوقار، بين طَبْعٍ ومَكْسُوب، فائق الأُبَّهة، مُزْريًا بمن دونه من الفقهاء، وعاقدى الشروط، مُسْقِطاً للكُنى والتَّجِلَّات، يعامل الكهول معاملة الأحْداث، ويتهاون بتعَامُلاتِ[1] ذلك، فيجعلها دُبُر أُذنيه[2]، ويَسْتَرْسِل فى إطلاق عِنان النَّادِرة الحارّة، فى مجالس حُكْمِه، فضلا عن غيرها؛ وجَدَ ذلك مَنْ يحمل عليها، سبَباً للغرض منه.

نباهتُــــه

ترَشَّح بذاته، وباهِرِ أدواته، إلى قضاء المدن النَّبيهة، والأقطار الشهيرة، كرُنْدَة، ومالَقَة، وغيرهما. ثم وُلِّى قضاء الجماعة[3]، فى ظلِّ جاهٍ، وضِمن حُرْمَةٍ.

«غَريبَةٌ فى أمره»: حدث أنه كان يقرأ فى شَبِيبته على الأستاذ الصالح أبى عبد الله بن مَسْتَقور[4]، بكَرْم له خارج الحَضْرة، على أميال منها، في فصل العصير. قال وجَّهَنى يوماً بغَلَّة من الرُّبِّ[5] لأبيعه بالبلد، فأصابنى مطرٌ شديد، وعُدْتُ إليه بحال سيِّئة، بعد ما قضيتُ له وطره؛ وكان له أخٌ أسنُّ منه، فعاتبه فى شأنى، وقال له: تأخُذُ صبِيًّا ضعيفاً يأتيك لفائدة يستفيدها، وتُعرِّضُه لمثل هذه المشقَّة، فى حقِّ مصلحتك، ليس هذا من شِيَمِ العُلَماء، ولا من شيم الصَّالحين. فقال له دَعْه، لا بد أن يكون قاضى الجماعة بغَرْناطة؛ فكان كذلك، وصدَقَت فراسته، رحمه الله تعالى.

---

(١) هكذا فى «ك». وفى «ج» بتعامات.

(٢) هكذا فى «ج». وفى «ك» أذنه.

(٣) قضاء الجماعة فى الخطط الأندلسية معناه رياسة القضاء العليا، أو منصب قاضى القضاة. ومركزه فى حضرة غرناطة.

(٤) وردت فى المخطوطين: «مسغور» وهو تحريف. والتصويب من كتاب «المرقبة العليا» (قضاة الأندلس) ص ١٣٩.

(٥) الرب هو بقايا الثمار بعد اعتصارها

مشيختـــه

قرأ بالقرية على الأستاذ أبى القاسم بن الأصفر ؛ و بغَرْناطة على العالم القاضى أبى الحسن محمد بن يحيى بن ربيع الأشْعَرى، وعلى الشيخ المُفْتى أبى بكر [محمد بن] [(١)] أبى إبراهيم بن مُفَرِّج الأوْسى بن الدبّاغ الإشبيلى ، وعلى الخطيب الزاهد أبى الحسن العدّال ، وعلى الأستاذ النَّحْوى أبى الحسن على بن محمد بن على بن يوسف بن الصَّايغ ، بالصّاد المهملة ، والغين المعجمة ، وعلى الأستاذ أبى الحسن الأُبَّدى [(٢)] ، وأبى عبد الله محمد بن إبراهيم الطَّائى ، عُرِف بابن مَسْتَقور .

ولما دالت الدولة ، كان له فى مُشَايعة مَخْلُوعِها أمور اقْتَضَتْها منه أريحيَّة [(٣)] وحسنُ وفاء ، أَوْجَبت عليه الخُمُول بعد استِقْرار دايلها ، السلطان أبى الوليد رحمه الله ؛ [وأصابته] [(٤)] أيام الهَيْج مِحَن ، ونُسِبت إليه نقائص ، زَوَّرَتْها حَسَدَتُه [(٥)] ، فصُرف عن القضاء ، و بقى مدَّة مَهْجُور الفِناء ، مُضَاع المكانِ ، عاطِلَ الدَّولة ، مُنْتَبَذاً فى مليك له ، خارج الحضرة ، يَنْحَنى على خُرْثىّ [(٦)] ساقط القيمة ، ودفاتر ساقطة الثمن ، يتعلَّل بعُلالتها ، و يُزْجى الوقت بيَسيرها .

حدَّثنى الوزير أبو بكر بن الحكيم [(٧)] ، قال زرتُه فى منزله بعد عَزْله [(٨)] ، ونِسْبة الأمور التى لا تليق بمثله ، فأنشدنى بما يُنبىء عن ضجره ، وضيق صدره :

---

(١) ما بين الحاصرتين زائد فى ك ، وساقط فى « ج » .

(٢) الأبدى بتشديد الباء وفتحها نسبة إلى مدينة أبدة . وهى مدينة أندلسية قديمة تقع شرقى قرطبة على مقربة من منابع نهر الوادى الكبير . وهى بالإسبانية Ubeda .

(٣) وردت فى « ج » ، رحبية . وفى « ك » رجبية . وهو تحريف . و بالتصويب يستقيم المعنى .

(٤) أصفنا هذه الكلمة من عندنا ليستقيم المعنى والسياق .

(٥) هكذا وردت فى « ك » ، وفى « ج » ، حسده .

(٦) أى : الشىء التافه الذى لا قيمة له .

(٧) وردت فى المخطوطين : الحكم . وهو تحريف .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : عزلته .

أنا عن الحُكْم تائِبْ وعن دعاويه هــاربْ
بعــد التَّفقُّه عُمْـرى ونَيْل أسْنَى المرَاتبْ
وبعـد ما كنْتُ أرْقى عـلى المنـابر خاطِبْ
أصْبَحْتُ أُرْمى بِعَارٍ لِلْحال غـيرِ مُناسب
أشكُو إلى الله أمْرى فهو المُثيبُ المُعاقبْ

وثَبَتٌ اسمه فى التاريخ المسمى « بالتاج »[١] من تأريخى بما نصه :

« شيخ الجماعة وقاضيها ، ومُنَفِّذ الأحكام ومُمضيها ، وشايمُ[٢] سيوفها الماضية ومُنْتَضيها ، رأس بفضيلة نفسه ، وأحيا دارِس رسْم القضاء بدَرْسِه ، وأوْدع فى أرض الاجتهاد، بَذْر السُّهاد ، فجَنى ثمرة غرْسه ؛ إلى وقار يَودُّ رَضْوى رجاحته[٣] ، وصَدْر تَحْسِد الأرضُ الغَبيطة ساحَتَه ، ونادِرة يَدْعُوها فلا تتوقَّف ، ويُلقى عصاها فتَتلقَّف ؛ ولم يَزَل يَطْمَحُ بأمانيه ، ويضطلع بما يُعانيه ، حتى رُفع إلى الرُّتبة العالية ، وحصَل على الحال الحالية ؛ وكان له فى الأدب مُشاركة ، وفى مربضة[٤] النظم حصَّة مباركة . انتهى إلىَّ قوله يهنئ السلطان أبا عبد الله بن عبد الله بن نصر، بالإبلال من مرض فى اقترانٍ بعيد وفتح ، وذلك :

شفاؤكَ للمُلْك اعتزازٌ وتأييدُ وبُرْؤكَ مولانا به عيدُنا عِيدُ
مَرِضْتَ فلم تأوِ النُّفوس لِرَاحَةٍ ولا كان للدُّنيا قرارٌ وتمْهِيدُ
[ولم تبصر عينى قود حولها][٥] ولازمها طول اعتِلالِكَ تَسْهيد

---

(١) هو كتاب «التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » . وقد سبق التعريف به فى المقدمة .
(٢) وشايم أى منتضى .
(٣) هكذا وردت فى « ج » وفى « ك » رجاجته .
(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، مريضة .
(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى « ج » . وفى « ك » (ولم تصبر عينى توالى مؤلما)

وشِعره مختلف عن نمط الإجادة التى تناسب محلَّه فى العلم ، وطبقته فى الإدراك فاختصرته .

مولده

عام تسعة وأربعين وستمائة .

« وفاته » : فى السادس عشر لذى القعدة عام تسعة وعشرين وسبعمائة . ذكرته فى كتاب « عائد الصِّلة » قاضياً ، وفى كتاب « التَّاج المُحَلى » قاضياً أديباً . وذكره أبو بكر بن الحكيم (١) فى كتاب « الفوائد المُسْتَغربَة ، والموارد المُسْتَعذَبة » من تأليفه .

أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيي بن عبد الرحمن ابن يوسف بن سعيد بن جُزَيّ الْكَلْبي

من أهل غرناطة ؛ ويعرف بابن جُزَىّ ؛ أوليَّته معروفة ، وأصالتُه شهيرة ؛ تُنظر فيما مر من ذلك [عند](٢) ذكر سلفه ، وفيما يأتى فى ذلك ، بحول الله وقوته .

حاله

من أهل الفضل والنَّزاهة ، والهمّة ، وحُسن السَّمة ، واستقامة الطَّريقة ؛ غَرَب فى الوقار ، ومال إلى الانْقِباض ، وترشّح إلى رُتب سلفه ؛ له مشاركةُ حسنة فى

---

(١) هومن شيوخ ابن الخطيب وهو ولد الوزير الشهير أبى عبد الله محمد بن الحكيم . ولد سنة ٦٦٥هـ وتوفى سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩ م) وتولى مثل أبيه الوزارة . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد بإفاضة فى المجلد الثانى من الإحاطة .

(٢) يظهر أنه قد سقطت هنا فى المخطوطين كلمة (عند) ، أو نحوها ليستقيم المعنى ، فأضفناها .

فنون ، من فِقْه ، وعَرَبِيَّة ، وأدب ، وحفظ ، وشعر ، تسمو[1] ببعضه الإجادة ، إلى غاية بعيدة .

مشيخته

قرأ على والده الخطيب أبي القاسم ، ولازمه ، واستظهره ببعض موضوعاته ، وتأدّب به ؛ وقرأ على بعض معاصرى أبيه ، وروى ؛ واستَجْلَب له أبوه كثيرًا من أهل صُقْعة وغيرهم .

نباهتـــــه

ثم أُرسِم فى الـكتابة السلطانية لأوّل دولة السابع من الملوك النَّصْريين ، مُنْفِق سوق الحِلْية من أبناء جنسه ، أبى الحَّجاج بن نصر ، فَورى زَنْدُه ، ودَرَّت أحلاب قريحته ، وصَدَر له فى مدائحه شعر كثير . ثم تصَّرف في الخُطَط الشَّرعية ، فوُلِّى القضاء ببُرْجَة[2] ، ثم بأَنْدَرَشْ[3] ، وهو الآن قاضى مدينة وادى آشْ ، مشكور السيرة ، معروف النَّزاهة ، أعانه [ذلك][4] وسوَّده ، وبلغ به رُتْبة سَلَفه . وجرى ذكره فى كتاب التَّاج بما نصه :

« فاضلٌ تحلَّى بالسكينة والوقار ، فَمدَّت إليه رقاب سَلَفه يد الافتقار ، ما شِئت

---

(١) وردت فى المخطوطين : (سما) ، وبهذا التصويب يستقيم المعنى .

(٢) برجة هى Berja الحديثة وهى من أعمال ولاية المرية، وتقع غربى ثغر المرية على مقربة من البحر الأبيض المتوسط .

(٣) وردت فى المخطوطين : « اندش » وهو تحريف . واندرش Andrax هى بلدة صغيرة من أعمال ولاية المرية أيضاً، تقع فى شمال بلدة برجة . وهى شهيرة فى تاريخ مملكة غرناطة إذ كانت مقر أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس بعد تسليم غرناطة . وبها أقام زهاء عامين حتى عبر البحر إلى المغرب فى أكتوبر سنة ١٤٩٣ م .

(٤) زيادة مرجحة لا يستقيم بغيرها السياق .

من هدوء وسكون ، وجُنوح إلى الخير ورُكون ؛ عُنى بالمحافظة على سِمَته من لدُن عَقْل ، ولزم خِدْمة العلم فما حاد ولا انتقل ، ووجد من أبيه رحمه الله مرْعىً خصيباً فابتقَل ؛ وعمل على شاكلة سلفه فى سلامة الجانب ، وفضل المذاهب ؛ وتحَلَّى بتلك المآثر وتوَشَّح ، وتأهَّل إلى الرُّتب فى سن الشَّبيبة وترَشَّح ؛ وله مع ذلك فى لُجَّة الفِقْه سبْحٌ ، وعلى بعض موضوعات أبيه شَرْحٌ ؛ وأدبه ساطع ، وكلامه حَسِن المقاطع . فمن ذلك ما كتب به إلَّى ، وقد خاطبت ما أمكن من نظمه :

فدَيْتُك يا سيِّـدى مِثْلما   فدَاكَ الزمانُ الذى زِنْته

وقوله فى المقطوعات من ذلك فى معنى التورية :

كم بُكائى لبُعدكم وأنينى   مَن ظَهيرى على الأسى مَن مُعينى
جَرَح الخدَّ دمعُ عينى ولـكن   عجبٌ أن يُجرح ابنُ مُعين

وقال فى الغِنى(١) :

أرى الناس يُولُون الغَنِىَّ(٢) كرامةً   وإن لم يكن أهلا لِرفعة مِقْدار
ويَلْوون عن وجه الفقير وجوههم   وإن كان أهلا أن يُلاقى بإكْبَار(٣)
بنو الدَّهر جاءتهم أحاديثُ جَمَّةٌ   فما صحَّحُوا إلا حديث ابن دينار(٤)

ومن بديع ما صدر عنه قولُه ينسج على مِنوال السقرسطينى فى قصيدته الشهيرة :

أقول لحَزْمى(٥) أو لصالح أعمالى   إلا عِمْ صباحاً أيها الطَّلَلُ البالى
أما واعِظى شَيْبٌ سما فوق لِمَّتى   سُموَّ حباب الماء حالا على حال

---

(١) فى المخطوطين : المعنى ، وهو تحريف حسبما يتضح بعد من نص الشعر .

(٢) وردت فى المخطوطين : الغبى . والتصويب من نفح الطيب وهو يتفق مع سياق البيت التالى .

(٣) فى المخطوطين : بآثار . والتصويب من نفح الطيب .

(٤) لم يرد هذا البيت فى المخطوطين . ونقلناه عن نفح الطيب .

(٥) هكذا فى المخطوطين ؛ وفى النفح وأزهار الرياض : لعزمى .

أنار به ليـــل الشَّباب كأنه مصابيحُ رُهبانٍ تَشبُّ لقُفَّال
نهانى عن غيٍّ وقال مُنبِّهًا أَلَسْتَ ترى السُّمّار والناس أحوالى
يقولون غيِّره لتنعمَ برهــةً يَعْمِنْ به(1) من كان في العصر الخالى
أغالطُ دهْرى وهو يعلم أننى كَبِرتُ وأن لا يُحْسِنُ اللَّهوَ أمثالى
ومُؤْنِسُ نارِ الشَّيبِ يَقْبحُ لَهْوُه بآنِسَةٍ كأنَّها خَطٌّ تِمْثال
أشَيْخًا وتأْتِى فِعلَ مَنْ كان عُمْرهُ ثَلاثون شهراً فى ثلاثة أحوال
وتُشْغِفُكَ الدُّنيا وما أَنْ شَغَفتها كما شَغَفَ المهنوءةَ الرجلُ الطَّالى
ألا أنَّها الدنيـا إذا ما اعتبرتَها ديار لسَلْمَى عافياتٌ بذى خال
فأين الذين استَأْثَرُوا قَبْلنا بها لناموا فما إن من حديث ولا صال
ذَهُلت بها غيًّا فكيف الخلاصُ من لَعُوبٍ تنسينى إذا قُمْتُ سِربالى
وقد عَلِمَتْ منى مواعيد تَوْبتى بأنَّ الفتى يهذى وليس بفعَّال
ومُذْ وثِقَتْ نَفْسى بحبِّ محمــد هَصَرْتُ بغُصْنٍ ذى شماريخَ ميّال
وأصبح شيطانُ الغواية خاسِئاً عليه قَتَامٌ(2) سيِّءُ الظن والبال
ألا ليْتَ شِعْرى هل تقول عزائمى لِخَيْلى كرِّى [كَرَّةً بعد](3) إجفال
فأَنْزِلَ داراً لِلَّنبى نَزِيلُهــــا قليلُ هُمُومٍ ما يَبيت بأَوْجَال
فَطُوبَى لنَفْسٍ جاوَرَتْ خيرَ مُرْسَلٍ بيَثْرِبَ أدْنَى دارَها نظرٌ عالى
ومِنْ ذِكْره عند القبول تَعَطَّرت صَباً وشَمْأَلٌ فى منازل قُفَّــال
جِوَارُ رسول الله مجدٌ مؤثَّلٌ وقد يُدرِكُ المَجْدَ المُؤَثَّلَ أمْثَالى
ومن ذا الذى يثنى عِنان السُّرى وقد كفانى ولم أطلب قليلٌ من المال

---

(١) عمن بالمكان أى أقام به .
(٢) وردت فى المخطوطين : القتام . والقتام هو الغبار الأسود .
(٣) وردت فى المخطوطين ، (كرا ذات) والتصويب من النفح والأزهار .

ألم تَرَ أنَّ الظَّبْيَة استَشْفَعَتْ به ... تَميل عليـــه هُونَةً غير مِجْفَال
وقال لها عُودِى فقالت له نعم ... ولو قطّعوا رأسى لدَيْك وأوْصالى
فعادَتْ إليـه والهَوَى قائلٌ لها ... وكان عِدَاء الوَحْشِ منى على بالى
رثى لبعيرٍ قال أزْمَعَ مالكى ... لَيَقْتُلَنى والمرء ليس بفعال(١)
وثورٍ ذبيح بالرسالة شاهــــد ... طويل القرا والرَّوْق اخْنَس ذيَّال
وحنَّ إليه الجِذْع حَنَّة عاطِشٍ ... لغَيْثٍ من الوَسْمِى رائدُه خالى
وأصلَيْن من نخلٍ قد التأما له ... فما احْتَبَسا من لِين مَسٍّ وتِسهال(٢)
وقَبْضَةِ تُرْبٍ منه ذَلَّت لها الصّبا(٣) ... ومسنونَةٍ زُرْقٍ كأنياب أغوال
وأضحى ابن جَحْشٍ بالعَسِيب مُقاتلاً ... ولَيْس بذى رُمْح ولَيْس بِنَبَّال
وحسبُك من سيف(٤) الطُّفَيل إضاءَةً ... كمِصْباح زَيْتٍ في قناديل ذُبّال
وبَذَّت به العَجْفَاءِ كلُّ مُطَهَّم ... له حَجَبات مُشْرفات عــلى الفال
ويا خَسْفَ أرضٍ تحت باغيه إذ علا ... على هَيْـكلٍ نهـد الجزارة جوّال
وقد أُخمِدَتْ نارٌ لفارسَ طالما ... أصابت غَضَى[جَزْلاً](٥) وكفّت بأجزال
أبان سبيل الرُّشْد إذ سُبُل الهُدَى(٦) ... يَقُلْن لأهل الحلم ضَلًّا بتِضْلال
لأحمدَ خــير العالمين انتقيْتُها ... ورُضْت فَذَلَّت صَعْبةً(٧) أىَّ إذلال
وإنَّ رَجائى أن أُلاقيه غَـدًا ... ولسْتُ بمَقْلِيّ الخِـلال ولا قالى

---

(١) لم يرد هذا البيت فى المخطوطين، ونقلناه عن نفح الطيب .
(٢) وردت فى المخطوطين : « وتسآل » والتصويب من النفح والأزهار
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح : أيضاً .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح سوط
(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . ونقلناها عن النفح والأزهار .
(٦) « إذ سبل الهدى » نقلناها عن النفح . ومكانها فى المخطوطين عبارة مضطربة : (إذ سبل به) .
(٧) وردت فى المخطوطين طبعه . والتصويب من النفح .

فأُدْرِكَ آمالى وما كلُّ آمـل يُدْرِكُ أطرافِ الخطوب ولا وَال

ولا خفاء ببراعة هذا النَّظم ، و إحكام هذا النَّسج ، وشدَّة هذه المعارضة . وله تقييدٌ فى الفِقه على كتاب والده ، المسمى بالقوانين الفقهية ، ورجزٌ فى الفرائض يتضمن العمل . و إحسانهُ كثير . وتقدَّم قاضياً بحَضْرة غرناطة ، وخطيباً بمسجد السلطان ، ثامن شوال من عام ستين وسبعمائة . ثم انصرف عنها ، وأُعيد إليهـا فى عام ثلاث وستين ، موصوفاً بالنزاهة والمَضاء .

« مولده » : فى الخامس عشر من جمادى(1) الأولى عام خمسة عشر وسبعمائة ، وهو الآن بقيد الحياة .

أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن على بن محمد بن سَعْده ابن سعيد بن مَسْعَدَة بن ربيعة بن صَخْر بن شراحيل(2) بن عامر ابن الفضل بن بكر(3) بن بَكَّار بن البدر بن سعيد بن عبد الله العامرى

يكنى أبا جعفر ؛ من أهل غرناطة .

أوَّليَّتُـــــه

عامر الذى ينتسبون إليه ، عامرُ بن صَعْصَعة بن هَوازِن بن منصور بن عَـكْرَمة ابن حَفْصة بن قَيْس بن عيلان بن مُضر بن نِزار بن مَعدّ بن عدنان .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، لجمادى .

(٢) فى « ك » سراخيل . وفى « ج » سراحيل .

(٣) وردت فى المخطوطين: بدال. وهو تحريف . ويؤيد هذا التصويب ما يرد بعد قليل فى السياق .

ومن مناقبهم ؛ مَيْمُونة أم المؤمنين ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعَمْرو بن عامر من أصحابه ، وعاصم بن عبد الله الجَعْلى ، ويزيد بن الحِمْير ، وغيرهم . مَنْزِل جدِّهم الداخل إلى الأندلس ، وهو بكرُ بن بَكَّار بن البَدْر بن سعيد بن عبد الله ، قرية طِغْنَرْ(١) ، من إقليم بَراجِله(٢) ابن خريز من إلبيرة .

قال ابن الصيرفى(٣) فى تاريخه الصغير : منزل بنى مَسْعَدة ، موضعُ كرم ومَحْمَدَة ، ينتسبون فى عامر ، وهم أعيان عِلْيَة ، فرسان أكابر ، وحُجَّاب وكُتَّاب ووزراء ، ولهم سابقات ومفاخر ، وأوائلُ وأواخرُ . ومنهم على القِدَم جليلٌ(٤) ونَبِيه ؛ ومنهم كان وضيعُ بن جَرَّاح الفقيه ؛ لم يُدخل أحد منهم فى الفتنة يداً ، ولا تأذى مُسْلماً ، ولا مُعاهداً(٥) ، على قُدْرتهم على ذلك ؛ وكفى به فخراً لا ينقطع أبداً . ودخل جدُّهم الأندلس بعقد بنى مروان له سنة أربع وتسعين من الهجرة ؛ ويأتى من ذِكر أعلامهم ما يدلُّ على شرف بيتهم ، وأصالتـــه ، وعُلوِّه وجلالته .

---

(١) ورد اسم هذه البلدة محرفاً فى المخطوطين : (طغنس) . والصواب هو « طغنر » Tignar التى منها الطغنرى صاحب كتاب الفلاحة . وموقعها على مقربة من غرناطة . وقد سبقت الإشارة إليها . راجع الحاشية فى ص ١٣٥ .

(٢) سبق أن أوضحنا المعنى الجغرافى لكلمة براجلة وبراجلات . وهى البقاع والسفوح الواقعة فى أسافل جبل الثلج Sierra Nevada وبراجلة ابن حريز أو خريز هو إحدى هاته البقاع المجاورة لبلدة إلبيرة .

(٣) وردت فى المخطوطين : السيرفى وهو تحريف .

(٤) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة (ولا) لتقرأ العبارة (جليل ولا نبيه) ، ووجودها على هذا النحو غامض مناقض للسياق فحذفناها وأبقينا الواو ليستقيم المعنى .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . و « ج » عاهد . وهو تحريف . والمعاهد هو النصرانى الذى كان يعيش فى ظل الحكومة الإسلامية Mozarabe . وقد سبق التعريف بأحوال المعاهدين . راجع الحاشية فى ص ١١٢ .

حـــاله

كان صَدْراً جليلا ، فقيهاً مضطَّلعاً[١] ، من أهل النَّظر السَّديد والبحث ، قائماً على المسائل ، مشاركا فى كثير من الفنون ، جَزْلا مهمًّا ، جاريًا على سُنَن سَلَفه ، ريّان من العربية . وخَتَم سِيبَوَيه تفقُّهاً ، وقرأ الفقه ، واستَظْهر كتاب التَّلقين ، ودرس الأحكام والحديث ، وعرضها فى مجلس واحد ، وقرأ أصول الفقه ، وشَرَح المُسْتَصْفى شرحاً حسناً ، وقرأ الإرشاد والهداية[٢] ؛ وكان صدراً فى الفرائض والحساب ، وألّف تاريخ قومه وقرابته .

ولايتـــه

وُلِّى القضاء بمواضع من الأندلس كثيرة[٣] من البِشارات[٤] ، أقام بها أعواماً خمسة ؛ ثم لَوْشة[٥] ، وأقام بها ثلاثة أعوام ؛ ثم بَسْطَة و بُرْشانة[٦] . ثم انتقل إلى مالَقَة ، وأقام بها أعواماً خمسة . نَبِهتُ على مقدار الإقامة لما في ضِمن طول سِنِى الوَلاية من استقامة أمر الوالى . وكان له من أمير المسلمين بالأندلس حُظوة لطيفة لم تكن لغيره ، استنزَلها بسحر التلطُّف ، وخَطَبها بلسان التَّملُّق حتى استحْكمت له أسبابُها .

---

(١) وردت فى المخطوطين : مصصعا . وهى كلمة لا معنى لها . وحكمة التصويب واضحة .

(٢) وردت فى المخطوطين : والنهاية .

(٣) وردت فى المخطوطين : كثير .

(٤) « البشارات » سبق التعريف بمعناها الجغرافى . وهى السفوح والسهول فى منطقة « سيارانفادا » الوسطى ومقابلها الإسبانى Alpujarras . راجع الحاشية فى ص ١١٧ .

(٥) لوشة هى بلد ابن الخطيب . وقد سبق التعريف بها فى المقدمة .

(٦) سبق التعريف بهما ، راجع الحاشيتين فى ص ١١٥

حدّثني بعض أشياخي ممن كان يباشر حال السلطان يومئذ ؛ قال : وجّه ابن مسعدة ابنه من مالقة ، بكتاب في بعض الأغراض الضرورية ، ثم رغب فيه أن يُنعم على ولده بالمُشافهة لإلقاء أمر ينوبُ عنه فيه ؛ فلما حضر ، تناول رِجْل السلطان فقبّلها ، وقال أمرني أبي أن أنوب في تَعفير الوجه ، في هذه الرِّجل الكريمة الجهادِيّة عنه خاصّة، لبُعْد عهده بها ، إلى أمثال هذا ، مما اقتضت الانتفاع بعاجلٍ من الدُّنيا زهيدٍ ، لا يدرى ما الله صانعُ فيه ؛ والإبقاء بما تجاوز الإفراط ، في تقدُّمه بما لَقَة ، بعدَه دارُ الأعلام ، وديوانُ العقد ، وهو حَدَثٌ خليٌّ من العِلْم ، قريبُ العهد بالبلوغ ، فكانت على أنها غاية الصُّدور مَلْعباً ، إلى أن ضرب الدهر ضرباته ، وانتقلت الحال .

مشيختُه

أولهم قاضي الجماعة ، أبو الحسن بن أبي عامر بن ربيع ؛ وثانيهم القاضي أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع ؛ وثالثهم أبو يحيى بن عبد المنعم الخَزْرجي ؛ ورابعهم العَدْل ، الرَّاوية ، أبو الوليد العطّار ؛ وخامسهم أبو إسحاق بن إبراهيم بن أحمد الخُشَني ؛ وسادسهم الأستاذ أبو الحسن الكِناني الإشْبيلي ؛ وسابعهم محمد بن إبراهيم ابن مُفرِّج الأوْسي الدبّاغ ؛ وثامنهم أبو جعفر أحمد بن على الرُّعَيني ؛ وتاسعهم أبو على بن أبي الأحْوص .

وصمته

فروى الناس أنه وُجد بخزانته بعد وفاته، زمامٌ ، يشتمل على مثالب أهل غَرْناطة، مما يحدثُ على الأيام في أفرادهم ، من فَلَتات يُجريها عدم الاتِّصاف بالعِصْمة . استقرَّ عند ولده الفضل ، زعموا ، ثم خَفِي أثرُه ، ستر الله عيو بنا برحمته .

وفاته

توفى بمالَقَة قُرب صلاة المغرب ، يوم الأحد الموفى عشرين لذى الحجة عام تسعة وتسعين وستمائة ، ودفن بخارج باب قُبالة فى مالقة المذكورة بمقربة من رابعة بنى عمّار ، و بالروضة المنسوبة لبنى يحيى ؛ نقلت من خط ولده الفضل .

أحمد بن محمد بن أحمد بن قُعْنب الأَزْدى

يكنى أبا جعفر ، و يعرف بابن قُعْنُب .

« أوّليّته » ؛ ذكر الأستاذ ابن الزُّبير فى « صِلَته »[1] وغيره ، أن قوماً بغرناطة يُعرفون بهذه المعرفة ، فإن كان منهم ، فله أوّليَّة لا بأس بها .

حـالُه

كان من شيوخ كُتاب الشُّروط معرفة بالمسائل ، واطلاعاً بالأحكام ، وانفرد بصحّة الوثيقة ؛ باقعةً[2] من بواقع زمانه ، وعيَّابة[3] فى مشايخ قطره ؛ يألَف النّادرة الحارّة فى ملاء من النّوْك والغَفْلة ، فلا يهتزُّ لموقع نادرة ، ولا يضحك عقب عَقْد صَرْعَة ؛ لقلقِه غير ما مرة ، غير مجلس من مجالس القضاء ، من بنى مسعود المُزْراةُ

---

(١) هو كتاب « صلة الصلة » لأبى جعفر أحمد بن الزبير . وقد ذيل به على كتاب « الصلة » لابن بشكوال. ونشرت منه الأقسام التى عثر عليها منه . ويقتبس ابن الخطيب كثيراً منه . ويترجم له فيما يلى .

(٢) الباقعة هو الذكى الداهية من الرجال .

(٣) أى يكثر العيب فى الناس .

أحكامُهم ، المرميّة بتهكمه وإزْرائه ، فتتمتّع (١) فى طريق حكمهم خُطاً منفسحة ، غير مكترث بهوانه ، ولا غاصٍّ بلسانه . وربما قال لبعض الوَزَعة (٢) من قادته بمجلسه ، وقد توقّفوا به فى بعض الطريق ، توقُّعاً لسُكون غضب قاضيهم ، إبعثوا بعضهم إلى هذا المَحْروم ، لنرى ما عزم عليه ، بكلام كثيرِ الفتُور والاستكانة ؛ له فى هذا الباب شهرة .

« ذكرُ بعض نزَعاته » ؛ حدّثنى ملازمُه ،وقفُه عليه ، أبو القاسم بن الشيخ الرئيس أبى الحسن بن الجيّاب ، وقد أعمل والده ، رحلةً إلى مالقة لزيارة شيخه الذى تلمّذ له ، وشُهر بالتشيُّع فيه ، أبى عبد الله السَّاحِلِى ، صاحب الأتباع والطريقة ، وكان مفرط الغُلوّ فيه ، واستصحب ولدَه الصغير ؛ فسأله عن سفر أبيه ، فقال نعم ، واحتمل أخى ، فقال أظنه منذ وُلد ، كان غير مغتطس ، فحمله الشيخ فغطّسه ؛ واستغرب كل من حضر ضحكاً ، فلم يبتسم هو كأنه لا شعور عنده ، بما ذهب إليه ، فكانت إحدى الطَّوام عند الشيخ .

وحدثنى ، قال : جاءت امرأة تخاصم عيَّاراً (٣) ، أوصلها من بعض المدن ، فى أمرٍ نشأ بينهما ، وبيده عَقْد ، فقال بعض جيرانه ، من نصه حاكياً ، « وأنه جا معها من موضع كذا إلى كذا » ولم يرسم المدّ على ألف جاء ؛ فقال الشيخ للمرأة ، أتعرفين أن هذا العيَّار جا معك فى الطريق أى فعل بك ، فقالت معاذ الله ، ونَفَرت من ذلك ؛ فقال كذا شهد عليك الفقيه ، وأشار إلى جاره . ومثل ذلك كثير . ولِّى القضاء بأماكن عديدة كلَوْشة ، وبَسْطة ، والمَسْند ، وبُرجه ، وأُرجبة (٤) ، وغير ذلك .

---

(١) أى خنع وذل .

(٢) هم الحراس والحجاب .

(٣) وردت فى المخطوطين ميارا . وهو تحريف . والعيار هو الرجل الكثير الذهاب فى الأرض أعنى الدليل . وبهذا التصويب يستقيم المعنى .

(٤) سبق التعريف ببسطة (الحاشية فى ص ١١٥) وبرجه (الحاشية فى ص ١٦٤) . وأرجبة وبالإسبانية Orgiva ، هى بلدة تقع جنوب شرقى غرناطة .

مشيخته

يحمل عن الأستاذ أبى جعفر بن الزبير ، والخطيب الصالح أبى عبد الله بن فضيلة ، وأبى محمد بن سِماك ، وأبى الحسن بن مَسْتَقور .

مولده

عام سبعين وستمائة . توفى قاضياً ببُرجة بعد علة سَدِكَتْ[1] به فى السادس عشر من شعبان من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ، وانتقل منها فى وعاء خشب . ودفن بمقبرة إلبيرة ، تجاوز الله عنه ورحمه .

[أحمد بن محمد بن سعيد بن زيد الغافقى

من أهل غرناطة ، وجِلّة بيوتها ، ويأتى من ذكر ذلك ما فيه كفاية .

حـــاله

هذا الرجل ممن صُرفت إلى الله رُجعاه ، وخَلَصت له معاملته ، وخَلَص إليه انقطاعه . نازع فى ذلك نَفْساً جامحة فى الحزم ، عريقة فى الغفلة، فكتب الله له النصر عليها دَفْعة ؛ فشمر وفوت الأصول للحضرة فى باب الصَّدَقة ، ونبذ الشواغل ، وحفظ كتاب الله على الكَبْرة ، واستقبل المحراب ، ملغياً سواه . درأ به ، فاتُّفق

---

(١) أى لازمت .

على فضله ، وغُبط فى حسن فيئته . وله ديوان نبيل ، يتضمن كثيراً من فقه النفس والبدن ، دل على نبله ؛ وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد . نفعه الله تعالى .

« مولده » ؛ بغرناطة عام تسعين وستمائة][1]

أحمد بن أبى سهل بن سعيد بن أبى سهل الْخَزْرجى

من أهل الحَمّة[2] ، يكنى أبا جعفر .

« حاله » ؛ من أهل الخير والعفاف والطهارة والانقباض ، والصحة والسَّلامة ، أصيلُ البيت ، معروف القدم ببلده ، حادٌّ[3] النادرة . قرأ باَلحضرة ، واجتهد ، وحصَّل ؛ ولازم الأستاذ أبا عبد الله الفَخَّار وغيره من أهل عصره . ووُلى القضاء ببلدة الحَمّة ، ثم بغربى مالقة . وهو الآن قاض بها ، مشكور السيرة .

أحمد بن عُمر بن يوسف بن إدريس بن عبد الله بن ورد التَّميمى

من أهل المِريّة[4] . يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن وَرْد .

---

(١) وردت هذه الترجمة فى « ر . م » ، فى هامش ص ٢٧٢ ؛ ولم ترد فى المخطوطات الثلاثة ، فرأينا إثباتها فى هذا المكان وفق ترتيبها الأبجدى .

(٢) الحمة أو الحامة Alhama ، تقع جنوب غربى غرناطة على قيد أربعين كيلومتراً منها . وقد كانت أيام مملكة غرناطة من أهم مدنها وأكثرها حصانة . وهى اليوم بلدة متوسطة .

(٣) فى المخطوطين : حر .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . ووردت (غرناطة) فى « ج » ، والأولى أرجح حسبما يستدل بعد من سياق الكلام .

حـــاله

قال الملاّحى : كان من جِلّة الفقهاء المُحدِّثين . قال ابن الزُّبير كذلك ، وزاد : موفور الحظّ من الأدب والنحو والتاريخ ، متقدّماً فى علم الأصول والتّفسير ، حافظاً متقناً ؛ ويقال إن عِلْم المالِكيَّة انتهت إليه الرياسة فيه ، وإلى القاضى أبى بكر بن العربى ، فى وقتهما ، لم يتقدَّمهما فى الأندلس أحد [بعد][1] وفاة أبى الوليد بن رشد . قال أخبرنى الثِّقة أبو عبد الله بن جَوْبر عن أبى عمر بن عات ؛ قال : حديث ابن العربى ، اجتمع بابن وَرْد ، وتبايتا ليلة ، وأخذا فى التَّناظُر والتذاكُر ، فكانا عجَباً . يتكلم أبو بكر فيظن السامع أنه ما ترك شيئاً إلا أتى به ؛ ثم يجيبه أبو القاسم بأبدع جواب يُنْسى السامعين ما سمعوا قبله . وكانا أُعجوبتى دهرهما . وكان له مجلسٌ يتكلم فيه على الصَّحيحيْن ، ويخصّ[2] الأخمسة بالتفسير .

« حلوله غَرْناطة »[3] ؛ قال المؤرخون وُلِّى قضاء غرناطة سنة عشرين ، فعدل وأحسن السِّيرة ، و به تفقه طلبتُها إذ ذاك .

مشيختُه

روى عن أبى على الغسّانى ؛ وأبى الحسن بن سراج ، وأكثر عنه ؛ وأبى بكر بن سابق الصقيلى ؛ وأبى محمد بن عبد الله بن فرج المعروف بالعسَّال الزاهد ، ولازمه ، وهو آخر من روى عنه . ورحل إلى سِجِلْماسة ، وناظر عبد الله بن العوّاد[4] .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وقد أضفناها ليستقيم المعنى والسياق .

(٢) وردت فى المخطوطين : ويحضر . وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى « ج » ، وفى « ك » (حلوله عن غزناطة) وعن هنا لا محل لها .

(٤) وردت فى المخطوطين (وناظر عند ابن العواد) .

وروى أيضاً عن أبى الحسن المبارك المعروف بالخشَّاب ، وكان الخشاب يحمل عن أبى بكر بن ثابت الخطيب وغيره .

« من روى عنه » ؛ وروى عنه جماعة كأبى جعفر بن الباذِش ، وأبى عبيد الله ، وابن رَفاعة ، وابن عبد الرحيم ، وابن حكيم وغيرهم . وآخر من روى عنه ، أبو القاسم ابن عُمران الخزرجى بفاس .

« وفاته » ؛ توفى بالمرِيَّة فى الثانى عشر لرمضان سنة أربعين وخمسمائة .

أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن على الأموى(١)

يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن بُرْطال(٢) ؛ أصله من قرية تعرف بجارة البحر من وادى طرُّش(٣) نصر حصن مُنْتِماس من شرقى مالقة ، من بيت خير وأصالة ؛ وانتقل سلفُه إلى مالَقَة ، فتوَشَّجت لهم بها عروق ، وصاهروا إلى بيوتات نبيهة .

حـــاله

كان من أهل الخير ، وكان على طريقة مُثْلى من الصَّمْت ، والسَّمْت ، والانقباض ، والذكاء ، والعدالة والتخصُّص ، محوَّلا فى الخير ، ظاهر المروءة ،

(١) وردت فى المخطوطين : الأمدى . والتصويب من كتاب « قضاة الأندلس » (ص ١٤٨)

(٢) وردت فى المخطوطين : ابن بطال ، وهو تحريف . وقد وردت بعد ذلك فى السياق « ابن برطال » وهو الصواب .

(٣) هو السهل الذى تقع فيه بلدة Torrox الحديثة أو طرش ، وذلك فى شرقى مالقة على مقربة من البحر الأبيض المتوسط .

معروف الأصالة ، خالص الطُّعمة ، كثير العفَّة ، مشهور الوقار والعفاف ، تحرّف بصناعة التوثيق على انقباض .

دخوله غرناطة

تقدم قاضياً بغرناطة ، بعد ولاية القضاء ببلده ، وانتقل إليها ، وقام بالرَّسم المضاف إلى ذلك ، وهو الإمامة بالمسجد الأعظم منها ، والخطابة بجامع قلعتها الحمراء ؛ واستقلَّ بذلك إلى تاسع جمادى الثانية من عام إحدى وأربعين وسبعمائة ، على قصور فى المعارف ، وضَعْف فى الأداة ، وكَلال في الجدِّ ؛ ولذلك يقول شيخنا أبو البركات ابن الحاج :

إن تقديمَ ابن بُرطال دعا   طالبَ العلم إلى ترك الطّلَب
حَسِبوا الأشياء عن أسبابها   فإذا الأشياء عن غير سبب

إلا إنه أعانه[١] الدربة، والحُنْكَة على تنفيذ الأحكام، فلم تُؤثرعنه فيها أُحدوثة، واستظهر بجزالة ، أمْضَت حُكمه ، وانقباضٍ عافاه عن الهوادة ، فرضيت سيرته ، واستقامت طريقته .

« مشيخته » ؛ لقى والده ، شيخ القضاة ، و بقيَّة المُحدِّثين ؛ وله الرواية العالية ، والدرجة الرفيعة ، حسبما يأتى فى اسمه ، ولم يؤخذ عنه شىء[٢] فيما أعلم .

شعرُه

أنشدنى الوزير ، أبو بكر بن ذى الوزارتين ، أبى عبد الله بن الحكيم[٣] ؛ قال

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » أعاده .
(٢) وردت فى المخطوطين : « شيئاً » وهو تحريف .
(٣) سبق التعريف الموجز به . انظر الحاشية فى ص ١٦٣

أنشدنى القاضى أبو جعفر بن بُرطال لنفسه ، مُودِّعاً فى بعض الأسفار :

أستودع الله [الأولى أودعتهم][1] قَلْبى ورُوحى إذ دَنى الوَداع
بانوا وطَرْفى والفؤاد ومِقْولى باكٍ ومسلوب العزاء وداع
فتولَّ يا مولاى حِفْظَهُم ولا تجعل تَفَرُّقَنا فِراق وَداع

وفاته

توفى رحمه الله ، وعفا عنه ، أيام الطاعون الغريب[2] بمالقة ، فى منتصف ليلة الجمعة خامس صفر عام خمسين وسبعمائة ، وخرجت جنازته فى اليوم التالى، ليلة وفاته ، فى رَكْبٍ من الأموات ، يناهز الألف ، و ينيف بمائتين ؛ واستمر ذلك مدة ؛ وكان مولده عام تسعة وثمانين وستمائة ، رحمه الله تعالى .

أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن ين عُمَيرة المَخْزُومى

بَلَنْسى ، شَقُورى[3] الأصل ، يكنى أبا مُطرِّف .

« أوَّليتُه » ؛ لم يكن من بيت[4] نباهة ؛ ووقع لابن عبد الملك فى ذلك نقلٌ ، كان حقه التجافى عنه ، لو وُفق .

---

(١) فى المخطوطين : من لوداعهم . « والتصويب من « ت » .

(٢) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة (القوا) وهى دخيلة هنا فأغفلناها . ويشير ابن الخطيب هنا إلى الوباء الهائل الذى اجتاح المشرق والمغرب سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩م)، وطاف بالأندلس وفتك بأهلها . وقدكتب عنه ابن الخطيب رسالته المسماة« مقنعة السائل عن المرض الهائل»التى ذكرناها فى المقدمة.

(٣) نسبة إلى شقورة . وهى بلدة تقع شمال شرقى مدينة أبده ، وشمال غربى جبال شقورة Sierra de Segura وكانت أيام الدولة الإسلامية من أعمال ولاية جيان . وتسمى اليوم بالإسبانية Segura de Sierra

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » أهل . والأولى أرجح ، وهى متفقة مع ما يرد بعد فى السياق .

حـــاله

قال ابن عبد الملك(١) : كان أوّل طلبه ، شديد العناية بشأن الرواية ، فاستكثر من سماع الحديث ، وأخذ عن مشايخ أهله ، وتفنّن فى العلوم ، ونظر فى العَقْليّات وأصول الفقه ، ومال إلى الأدب ، فبرع فيه براعة ، عُدَّ بها من كبار مُجيدى النّظم . وأما الـكتابة ، فهو عَـلَمُها المشهور ، وواحدها الذى عجزت عن ثانيه الدُّهور ، ولا سيما فى مخاطبة الإخوان ، هنالك استولى على أمد الإحسان(٢) ، وله المُطوّلات المُنْتَخَبة ، والقِصار المقتَضبة ؛ وكان يُعلِم كلامه نظماً ونثراً بالإشارة إلى التاريخ ، ويُودِعه إلماعات بالمسائل العِلمية ، مُنوّعة المقصد . قلت : وعلى الجملة ، فذاتُ أبى المطرِّف فيما ينزع إليه ، ليست من ذوات الأمثال ؛ فقد كان نسيج وحْدِه ، إدراكاً وتفنُّناً ، بصيرًا بالعلوم ، مُحدِّثاً ، مكثرًا ، راوية(٣) ثَبْتاً ، مُتبحِّرًا(٤) فى التاريخ والأخبار ، ريَّان ، مضطَّلعاً بالأصْلين ، قائماً على العربية واللغة ، كلامه كثير الحلاوة والطّلاوة ، جمّ العيون ، غزير المعانى والمحاسن ، وافد أرواح المعانى ، شفّاف اللفظ ، حرّ المعنى ، ثانى بديع الزمان ، فى شكوى الحِرفة ، وسوء الحظ ، ورونق الـكلام ، ولُطْف المأخذ ، وتبريز النثر على النظم ، والقصُور فى السُّلطانيات .

مشيخته

روى عن أبى الخطّاب بن واجب ، وأبى الربيع بن سالم ، وأبى عبد الله بن فرج ، وأبى على الشُّلُوبين ، وأبى عُمر بن عات ، وأبى محمد بن حَوْط الله ؛ لقيهم ، وقرأ

---

(١) هو ابن عبد الملك المراكشى المتوفى سنة ٦٦٩ هـ ، صاحب كتاب « التكملة » . ومنه قطعة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال .

(٢) وردت فى المخطوطين : الإنسان . والتصويب من « ت » .

(٣) وردت فى المخطوطين : رواية .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » شحرا .

عليهم ، وسمع منهم ، وأجازوا له ؛ وأجاز له من أهل المشرق أبو الفتوح نصر بن أبي الفَرَج وغيره .

« من روى عنه » ؛ روى عنه ابنه القاسم ، وأبو بكر بن خطّاب ، وأبو إسحاق البُلْقينى الحفيد ، والحسن طاهر بن على الشَّقُورى ، وأبو عبد الله البَرِّى . وحدّث عنه أبو جعفر بن الزُّبير ، وابن شَقيف ، وابن ربيع ، وغيرهم مما يطول ذكره .

نباهتُه

صحب أبا عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن خطّاب ، قبل تولية ما تولَّى من رياسة بلده ، وانتُفع به كثيراً ؛ وكتب عن الرئيس أبي جميل زيّان بن سعد[١] ، وغيره من أمراء شرق الأندلس . ثم انتقل إلى العُدْوة[٢] ، واستكتبه الرشيد[٣] أبو محمد عبد الواحد[٤] بمراكش ، مدة يسيرة ؛ ثم صرفه عن الكتابة وولاه قضاء مِلْيَانة من نظر مَرَّاكُش ، فتولّاه قليلا ، ثم نقله إلى أقصى رِباط الفتح . وتوفى الرشيد ، فأقره على ذلك الوالى بعده ، أبو الحسن المُعتضد أخوه ؛ ثم نقله إلى قضاء مِكْنَاسة الزَّيتون ؛ ثم لما قتل المعتضد لحق بسَبْتَه ، وجرى عليه بطريقها ما يذكر فى

---

(١) الرئيس أبو جميل زيان بن سعد ، كان أميراً لبلنسية واستمر على إمارتها حتى حاصرها النصارى سنة ٦٣٥ هـ . وقد أوفد عندئذ كاتبه الشهير أبا عبد الله بن الأبار القضاعى إلى صاحب تونس الأمير زكريا بن أبي حفص يستنجد به ويطلب عونه . وأنشد ابن الأبار لهذه المناسبة بين يدى أمير تونس قصيدته المشهورة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا　　إن السبيل إلى منجاتها درسا

ولكن تلك الاستغاثة لم تغن شيئاً . وسقطت بلنسية فى يد النصارى فى العام التالى أى فى سنة ٦٣٨ هـ (١٢٣٨ م) .

(٢) أى عدوة المغرب .

(٣) هو خليفة الموحدين ، وولد الخليفة العادل . حكم فى مراكش من سنة ٦٣٠ إلى سنة ٦٤٠ هـ .

(٤) وردت فى المخطوطين : عبد الوليد ، وهو تحريف .

مِحْنته . ثم رَكِب البحر منها متوجهاً إلى إفريقيَّة ، فقدم بجَاية على الأمير أبى زكريا يحيي بن الأمير أبى زكريا . ثم توجه إلى تونس فنجحت بها وسائله ، وولى قضاء مدينة الأرش[١] . ثم انتقل إلى قابِس ، وبها طالت مدة ولايته ؛ واستدعاه المُسْتنصر بالله[٢] محمد بن أبى زكريا ، ولطُف محلُّه منه ، حتى كان يحضر مجالس أُنْسِه ، وداخَلَه بما قَرَفتهُ الألْسُن بسببه حسبما يذكر فى وَصْمَته .

مناقِبُه

وهى الكتابة والشعر ؛ كان يَذكر أنه رأى فى منامه ، النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، فناوله أقلاماً ، فكان يُرْوى له أن تأويل تلك الرُّؤيا ، ما أدرك من التَّبريز فى الكتابة ، وشِياع الذكر ، والله أعلم .

ومن بديع ما صَدَر عنه ، فيما كتب فى غرض التَّورية ، قطعة من رسالة ، أجاب بها ، العبَّاس بن أمية ، وقد أعلمه باستيلاء الروم على بَلَنْسِية[٣] ، فقال :

« بالله أىَّ نحوٍ ننْحُو ، أو مَسْطورٍ نُثْبِت أو نَمْحُو ؛ وقد حُذف الأصْلُ والزَّائد ، وذَهَبت الصِّلةُ والعائد ؛ و باب التعجُّب طال ، وحالُ البَأْس لا تخْشى الانتقال ؛ وذهَبت علامةُ الرَّفْع ، وفقدت [نون] الجمع ؛ والمعْتَلُّ أعْدَى الصَّحيح ، والمُثَلّثُ أرْدَى الفَصيح ؛ وامتَنَعَت الجُمُوع من الصَّرف ، وأمِنَت زيادتُها من الحَذْف ؛ ومالت قواعدُ المِلَّة ، وصِرْنا جَمْع القِلَّة ؛ وظَهَرتْ علامةُ الخَفْض ، وجاء بدلُ الكلِّ من البعض » .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » ، وفى « ك » (الأوش) .

(٢) وردت فى المخطوطين : المنتصر بالله . والصواب ما أثبتناه .

(٣) سقطت بلنسية فى يد النصارى فى صفر ٦٣٦هـ . حسبما تقدم (سبتمبر ١٢٣٨م) . والروم هنا هم « الأرجنيون » ، وكان الذى استولى عليها هو خايم الأول ملك أراجون .

ومن شعره فى المقطوعات التى وَرَّى فيها بالعلوم قوله :

قد عَكَفْنا على الكتابة حيناً　　وجاءت خُطّة القضاء تليها
وبكلٍ لم يبق للجُهْد إلا　　منْزِلاً نابياً وعيشاً كريهاً
نِسْبَةٌ بُدِّلت ولم تتغيّر مثْـ　　ـلُ ما يزعُم المهندس فيها

وكقوله مما افتتح به رسالة :

يا غائباً سلبَتْنى الأُنْسَ غَيبتُه　　فكيف صبرى وقد كابدتُ بَيْنَهُما
دَعْواى أنّك فى قَلْبى فعارَضَها　　شوقى إليك فكيف الجمْعُ بَيْنَهُما

وفى مثل ذلك استفتاحُ رسالته أيضاً :

إنَّ الكِتاب أتى وساحةُ طِرْسه　　روحٌ مُوَشَّى (١) بالبديع مُرَتَّعُ (٢)
وله حقوقٌ ضاق وقتُ وجوبها　　ومِنَ الوُجُوب مُضَيَّقٌ وموسع

وفى مثل ذلك فى استفتاح رسالة أيضاً :

كبَّرْتُ بالبُشْرى أتت وسماعُها　　عِيدى الذى لشُهُودِه تكبيرى
وكذلك الأعياد سُنة يومها　　مختصَّة بزيادة التَّكبير

وفى أغراض أُخَر :

بايَعُونا موَدَّةً هى عندى　　كالمرآة (٣) بيعها بالخِدَاع
فسأقضى بِرَدِّها ثم أقضى　　بعدها من مدامعى (٤) ألف صاع

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » موشح .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » مرتبع .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و « ت » كالممرات كالممارات .

(٤) هكذا فى « ت » . وفى « ج » مدامتى . وفى « ك » قدامتى .

وله فى معنى آخر :

شَرطتُ عليهم عند تسليم مُهجتى وعند انعِقاد البَيع قُرباً يُواصلُ
فلما أردتُ الأخْذ بالشَّرط أعْرَضوا وقالوا يصحُّ البيع والشَّرطُ باطلُ

تَصانيفُـــــه

له تأليفٌ فى كائنة مَيُرْقة[(١)]، وتغلُّب الرُّوم عليها، نَحى فيه مَنحى العِماد الأصْفَهانى، فى الفَتح القُدْسى[(٢)]؛ وكتابُهُ فى تعقبه على فخر الدين بن الخطيب الرَّازى فى كتاب المعالم فى أصول الفقه منه؛ وردُّه على كمال الدين أبى محمد بن عبد الكريم السِّماكى فى كتابه المسمى بالتِّبْيان فى علم البيان؛ واقتضابُه النبيل[(٣)] فى ثورة المُريدين، إلى غير ذلك من التعاليق[(٤)] والمقالات. ودوّن الأستاذ أبو عبد الله ابن هانىء السَّبْتى كتابته وما يتخلّلُها من الشِّعر فى سِفْرين بديعين، أتقن ترتيبهما، وسمّى ذلك « بُغية المُستْطرِف، وغُنية المُتطرِّف »[(٥)] من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبى المطرِّف.

---

(١) هكذا وردت فى « ك ». وفى « ج » مريقة. وفى «ت» المرية وهو تحريف. وكائنة ميورقة يقصد بها هنا استيلاء النصارى على جزيرة ميورقة كبرى جزائر البليار أو الجزائر الشرقية، وذلك فى سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٨ م) على يد ملكهم خايم ملك أراجون الذى سبقت الإشارة إليه.

(٢) كتاب العماد الأصفهانى المشار إليه هنا هو « كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى » وهو من تأليف عماد الدين أبى عبد الله محمد بن هبة الله القرشى الأصفهانى المشهور بالعماد الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م). وفيه يصف الحوادث التى اقترنت بفتح بيت المقدس على يد الملك الناصر صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م)، وينحو فيه منحى السجع المرتب. وقد كان شاهداً لكثير من الحوادث التى يصفها.

(٣) وردت فى « ج » السميل، وفى « ك » النسيل. وهو فيما يبدو تحريف لما أثبتناه.

(٤) فى المخطوطين : العماليق. وهو تحريف ظاهر.

(٥) هكذا فى « ك ». وفى « ج » المطرف.

دخوله غرناطة

[قال][١] شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب ، عُمير أخبرُ بذلك مِنْ شيوخه — والرجل ممن يُركن إليه فى أخباره فيما أحقوّا[٢] على سبيل الرواية والإخْبار ، من شَرْق الأندلس ، إلى غَرْناطة ، إلى غَرْبها ، إلى غير ذلك ، عند رحلته ، وهو الأقْرب . وقال : قال المخبر ، عهدى به طويلا ، نحيف الجسم ، مُصْفَرًّا ، أقْنى الأنف ؛ أصيب بمالقة أحوج ما كان إليه ، وقد استقبل الـكَبْرَة[٣] ، وقارعه[٤] سوء الحظ . قال الشيخ أبو الحسن الرُّعَينى ، إنه كتب إليه يُعْلمهُ بهذه الحادثة عليه ، وأن المنْهُوب من ماله ، يَعْدل أربعة آلاف دينار عُشْرية ، وكان ورقاً وعيناً وحُلياً . وذلك أنه لما قُتل المعتضد ، اغتنم الفترة[٥] ، وفَصَل عن مِكْناسة ، قاصداً سَبْتة ، فلقى التى كان فيها جَمْعٌ من بنى مَرِين ، سلبوه كلَّ من كان معه .

مولده

بجزيرة شُقْـر[٦] ، وقيل ببَلَنْسِية فى رمضان اثنتين وثمانين وخمسمائة .

---

(١) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ، ويقتضيها السياق .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين مع تحريف بسيط . وفى ت « مما أخفوا » .

(٣) الكبرة هى كبر السن .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ت » و « ج » ، ونازعه ، والمعنى واحد .

(٥) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » ، الفطرة .

(٦) جزيرة شقر كانت تطلق أيام الدولة الإسلامية على الجزيرة الواقعة فى نهر شقر Jucar ، قبل مصبه فى البحر الأبيض المتوسط جنوبى بلنسية . وكانت من أجمل البقاع فى تلك المنطقة ، وكانت تسمى أحياناً بالجزيرة فقط . وهو الاسم الذى استعير فيما بعد لبلدة Alcira الإسبانية الواقعة على نهر شقر على مقربة من الجزيرة المذكورة . وقد كانت جزيرة شقر موطن كثير من العلماء والأدباء .

« وفاته » ؛ توفى بتونس ليلة الجمعة الموفية عشرين[1] ذى الحجة عام ستة وخمسين وستمائة . قال ابن عبد الملك ؛ وَوَهم ابن الزبير فى وفاته ، إذ جعلها فى حدود الخمسين وستمائة أو بعدها .

أحمد بن عبد الحق بن محمد بن يحيي بن عبد الحق الجَزَلى

من أهل مالَقَة ، يكنى أبا جعفر ، و يعرف بابن عبد الحق .

حـــاله

من صدور أهل العلم والتّفنُّن ، فى هذا الصُّقع[2] الأندلسى ، نسيجُ وحْدِه فى الوقار والحصافة ، والتزام مُثْلى الطريقة ، جمُّ التّحصيل ، سـديد النظر ، كثير التخصُّص ، محافظ على الرسم ، مقبوضُ العِنان فى التّطْفِيف فى إيجاب الحقوق لأهلها ، قريب من الإعتدال فى معامله أبناء جنسه ، مقتصد مع ثروته[3] ، مؤثر للترتيب[4] فى كافّة أمره ، متوقِّد الفكرة مع سكون ، لِيِّنُ العريكة مع مَضاء ؛ مجموع خِصال حميدة ممـا يفيد التخريج[5] والحُنْكة ؛ مضطلع بصناعة العربية ، حائز قصب السَّبق فيها ، عارف بالفروع والأحـكام ، مشارك فى فنون من أصول ،

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و « ت » عشر .

(٢) ترد دائماً فى « ك » السقع بالسين . وهو تحريف إملاء مستمر .

(٣) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » ثورته . وهو تحريف ظاهر .

(٤) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » للتقريب . والأولى أرجح .

(٥) وردت فى المخطوطين : « التحريج » ، والتخريج ، أنسب للمعنى .

وطِبٍّ ، وأدب ، قائم على القراءة ، إمام فى الوثيقة[١] ، حسنُ الْخَطّ ، مليح السِّمَة والشَّبيهة ، [٢] عَذْب الفُكاهة ، حسن العهد ، تام الرجُلية[٣] .

نباهته

تصدَّر للإقراء ببَلَدِه ، على وفور أهل العلم ، فكان سابق الحَلْبَة ، ومناخ الطِيَّة ، إمتاعاً ، وتفننًّا ، وحسن إلقاء[٤] . وتصرف فى القضاء ببَلِّش[٥] وغيرها من غَرْبى بلده ، فحسُنت سيرته ، واشتهرت طريقته ، وحُمِدَت نزاهته . ثم وُلِّى خُطَّة القضاء بمالَقَة ، والنظر فى الأحْباس[٦] بها ، على سبيل من الحظوة والنَّباهة ، مرجوعاً إليه فى كثير من مُهِمَّات بلده ، سائمةً وجوه السعادة ، ناطقةً ألسن الخاصة والعامة بفضله ، جمَّاعة نزاهته ، آوياً إلى فضل بيته . واتَّصلت ولايته إيَّاها إلى هذا العهد ، وهى أحد محامد[٧] الوالى ، طولُ مدة الولاية ، لا سيما القاضى ، مما يدُلُّ على الصبر ، وقلّة القَدْح ، وسدِّ أبواب التُّهم ، والله يُعينه ، ويمتع به بمَنِّه .

مشيختُه

قرأ على الأستاذ أبى عبد الله بن بكر ، وهو نجيب حَلْبته ، والسَّهْمُ المُصيب من كِنانته ، لازمه ، و به تفَقَّه وانتفع ؛ وتلا القرآن عليه ، وعلى محمد بن أيوب ، وعلى

---

(١) الوثيقة والتوثيق كتابة العقود .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، الشبيبة .

(٣) وردت فى المخطوطين : « الروجلية » . والمقصود الرجولة .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » اللقاء وهو تحريف .

(٥) هى بلدة بلش مالقة Velez-Malaga . وقد سبق التعريف بها . انظر الحاشية فى ص ١١٨

(٦) أى الأوقاف .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » المحامد .

أبي القاسم بن دَوْهم ، عَلَى وقتهما فى ذلك ، وعلى غيرهما ؛ وتعلَّم الوثيقة على العاقد القاضى أبى القاسم بن العريف . وروى عن الخطيبَيْن المحدِّثَين أبى عثمان بن عيسى وأبى عبد الله الطَّنجالى وغيرهما .

دخوله غرناطة

تردَّد إليها غير ما مرَّة ؛ منها فى أمور عرَضت فى شئونه الخاصَّة به ؛ ومنها مع الوفود الجِلَّة ، من أهل بلده ، تابعاً قبل الولاية ، متبوعاً بعدها . ومن شعره قوله فى جدول :

ومُقاربُ الشطَّين(١) أحكم صَقْله ... كالمَشْرَفى إذا اكتَسَى بفِرِنْده
فَحَمائلُ الدِّيباج منه خَمائلُ ... ومعانقٌ فيها البَهارَ بورْدِه
وقد اختفى طرفٌ له فى دَوْحَةٍ ... كالسَّيْف رُدَّ ذُبابه فى غِمْده

وقوله فى شجر نارِنج مزهر :

وثمار نارِنج نرى أزهارها ... مع ناتئ النَّارنج فى تَنْضِيد
فإذا نظَرْت إلى تألُّفِها أتت ... كَمباسِمٍ(٢) أوْمَت لِلَثْم خُدُود

وفاته

فى زوال يوم الجمعة السابع والعشرين لرجب عام خمسة وستين وسبعمائة .

« مولدُه » : ثامن شوال عام ثمانية وتسعين وستمائة .

---

(١) وردت فى المخطوطين : ومنهم الشيطان .

(٢) وردت فى المخطوطين : كملاسم .

أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن الصَّقر الأنصارى الخَزْرَجى

يُكْنى أبا العباس ، من أهل الثَّغْر الأَعْلى[١] .

أوّليتُـــــه

من سَرَقُسْطة ، حيث منازل الأنصار هنالك ؛ انتقل جدُّ أبيه عبد الرحمن بابنه الصغير منها لحدوث بعض الفتن بها إلى بَلَنْسِية ، فوُلد له ابنه عبد الرحمن أبو العباس هذا ؛ ثم انتقل أبوه إلى المرِيَّة ،[٢] ، فوُلد له أبو العباس بها ، ونقله أبوه إلى سَبْتة فأقام بها مدّة .

حـــاله

كان محدِّثاً مُكثراً ثقـةً ، ضابطاً ، مقرئاً ، مُجَوِّداً ، حافظاً للفقه ، ذاكراً للمسائل ، عارفاً بأصولها[٣] ، متقدِّماً فى عِلم الكلام ، عاقداً للشروط ، بصيراً بعِـلَلها ، حاذقاً بالأحكام ، كاتباً بليغاً ، شاعراً محسناً ، أتقنُ أهل عصرِه خَطًّا ، وأجلهم مَنْزِعاً ؛ ما اكتسب قَط شيئاً من متاع الدُّنيا ، ولا تلبَّس بها ؛ مُقتنعاً باليسير ، راضياً بالدُّون ، مع الهمَّة العليَّة ، والنفس الأبيَّة ؛ على هذا قطع عمره ؛ وكتب

---

(١) الثغر الأعلى فى الجغرافية الأندلسية هو ولاية الحدود الشمالية وهى ولاية سرقسطة ، وأعمالها تطيلة ووشقة ولاردة وطركونة وطرطوشة . وهو يقابل فى الجغرافية الحديثة ولاية أراجون .

(٢) وردت فى المخطوطين : « القرية » . وهو تحريف ، ولا بد أنها « المرية » كما يتضح من سياق الكلام فيما بعد .

(٣) وردت فى المخطوطين : بأصوله . والتصويب أرجح لأن الضمير هنا عائد إلى المسائل .

من دواوين العلم ودفاتره ، ما لا يحصى كثرة ، بجودة ، وضَبْط ، وحُسن خَطّ ؛ وعُنى به أبوه فى صغره ، فأسمعه كثيراً من الشروح ، وشاركه فى بعضهم . نفعه الله .

نباهتُـــــــه

استدعاه أبو عبد الله بن حسُّون ، قاضى مَرَّاكش ، إلى كتابته ، إلى أن صُرف ، واستقرَّ هو متولّى حُكمها وأحكامها ، والصلاة فى مسجدها ، ثم ترك الأحكام ، واستقرَّ فى الإمامة . ولما تصيَّر الأمرُ إلى المُوَحِّدين ، ألحقه عبد المؤمن[١] منهم بجملة طلبة العلم ، وتحفَّا به ، وقدّمه إلى الأحكام بحَضْرة مَرَّاكش ، فقام بها مدّة ؛ ثم ولّاه قضاء غَرناطة ، ثم نقله إلى إشبيلية قاضياً بها مع ولىّ عهده . ولما صار الأمر إلى أبى يعقوب[٢] ، ألزمه خدمة الخِزانة العلمية وكانت عندهم من الخُطط التى لا يُعَيَّنُ لها إلا كبار أهل العلم وعليّهم ؛ وكانت مواهبُ[٣] عبد المؤمن له جَزْلة ، وأعطياتُهم مُترافِهة كثيرة .

مشيختُه

قرأ القرآن على أبيه ، وأكثر عنه ، وأجاز له ؛ وعلى أبى الحسن التُطِيلى ،[٤] قال وهو أول من قرأت عليه .

---

(١) هو الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على . وقد سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص ١٤٧) .

(٢) أبو يعقوب يوسف هو ولد عبد المؤمن وخليفته . وقد حكم المغرب والأندلس من سنة ٥٥٨ – ٥٨٠ هـ (١١٦٢ – ١١٨٤ م) .

(٣) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » مذاهب . وهو تحريف .

(٤) التطيلى ، نسبة إلى تطيلة ، وهى مدينة من مدن الثغر الأعلى تقع شمال غربى سرقسطة على نهر ايبرو ، وبالإسبانية Tudela .

« من روى عنه » ؛ روى عنه أبو عبد الله ، وأبو خالد يزيد بن يزيد بن رفاعة ، وأبو محمد بن محمد بن على بن وهب القضاعى .

دخـــوله غرناطة

صُحْبة القاضى أبى القاسم بن حمزة ؛ ونوَّه به واسْتَخْلَفَه إذ وليها ، وقبض عليه بكلتى يديه ؛ ثم استُقضى بها أبو الفَضْل عِياض بن موسى ، فاستَمْسك به ، واشتمل عليه ، لصحبة كانت بينهما وقرابة ، إلى أن صُرف عنها أبو الفضل عِياض ، فانتقل إلى وادى آشْ ، فتولَّى أحكامها والصلاة بها ؛ ثم عاد إلى غرناطة سنة سِت وثلاثين ، إلى أن استُقضى بغرناطة فى دولة أبى محمد بن عبد المؤمن بن على ، فحُمدت سيرته ، وشُكر عدْله ، وظهرت نزاهته ، ودام بها حتى ظُن من أهلها .

شـــعره

وشعره فى طريقة الزهد [وهى][1] لا ينفُذُ فيها إلّا من قوِيت عارضَتُه ، وتوفّرت مادّته :

الٓهى لكَ المُلْك العظيمُ حقِيقةً ... وما لِلْورى مهما منعت نَقِـــير
تجافى بنُو الدنيا مكانى فَسَرَّنى ... وما قدرُ مخْلوق جَداه[2] حقير
وقالوا فقيرٌ وهم عندى جلالةٌ ... نعم صَدَقوا إنى إليك فقـــير

وشعره فى هـذا المعنى كثيرٌ ، وكله سَلِس المقادة ، دالاًّ على جَوْدة الطبع . ومن شعره قوله :

---

(١) هذه الكلمة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٢) فى المخطوطين : حداه .

إرْض العدُوَّ بظاهر مُتَصَنِّع إن كنت مضطرًّا إلى استرضائه
كم من فتىً أَلْقى بوجه باسمٍ وجوانحى تَتَّقد من بغضـــائه

تصانيفه

له تصانيفُ مفيدة ، تدل على إدراكه وإشرافه ، كشرحه الشِّهاب ، فإنه أبدع فيه؛ وكتابه « أنوار الأفكار فيمن دخل جَزيرة الأندلس من الزهَّاد والأبرار »، ابتدأ تأليفه ، وتوفى دون إتمام غرضه فيه ، فكمّله عبد الله ابنه .

محنتُـــه

كان ممن وقعت عليه المحنة العظمى بمرَّاكُش يوم دخول الموحِّدين إياها ، يوم السبت لإثنى عشر ليلة بقيت من شوال [عام][1] إحدى وأربعين وخمسمائة ، على الوجه المشهور فى استباحة دماء كل من اشتملت عليه من الذُّكور البالغين ، إلّا من تَسَتَّر بالاختفاء فى سِرْب [أو غرفة][2] أو مخبأ ؛ وتمادى القتل فيها ثلاثة أيام ، ثم نودى بالعفو عمن أشارته الفَتْـكة الـكبرى ، فظهر مِن جميع الخلق بها ، ما يناهز السبعين رجلا ، وبيعوا بيع أسارى المشركين ، هم وذراريهم ، وعُفى [عنهم][3] ، فكان أبو العباس ممَّن تخطَّته المنِيَّة ، واستَنْقَذَه من الرقِّ العفوُ ، وحسبك بها محنة ، نفعه الله ؛ وضاعت له فى ذلك وفى غيره ، كتب كثيرة بخطِّه وبغير خطه ، مما تجلّ عن القيمة .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، وإثباتها أصلح للسياق .
(٢) هذه الكلمة زائدة فى « ك » .
(٣) ناقصة فى المخطوطين . ويقتضى إثباتها السياق .

مولده

بالمريَّة فى أواخر شهر ربيع سنة اثنين وخمسمائة .

« وفاته » ؛ توفى بمرَّاكش بين صلاة الظهر والعصر ، فى يوم الأحد لثمان خلون من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة . ودفن يوم الاثنين بعد عقب[1] صلاة الظهر ، وصلى عليه القاضى أبو يوسف حجاج ؛ وكانت جنازته عظيمة المحفل ، كثيرة الجمع ، برز إليها الرجال والنساء ، ورفعوا نعشه على الأيدى . رحمه الله .

ومما رثاه به جارُه وصديقه أبو بكر بن الطفيل[2] ، وهو بإشْبِيلية ، بعث بها إلى ابنه مع كتاب فى غرض العزاء :

لأمرٍ ما تَغيَّرت الدُّهور وأظْلَمت الكواكبُ والبُدُور
وطال على العُيُون الليلُ حتى كأَنَّ النَّجم فيه لا يَغُور

أحمد بن أبى القاسم بن عبد الرحمن ، يعرف بابن القَبَّاب

من أهل فاس ، ويكنى أبا العباس

حاله

هذا الرجل ، صَدْرُ عدول[3] الحَضْرة الفاسِيَّة ، وناهضُ عُشِّهم ، طالب ،

---

(١) هكذا فى المخطوطين .

(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن طفيل (أو ابن الطفيل) القيسى الإشبيلى من أعظم فلاسفة الأندلس ورياضييها وأطبائها . ولد فى أوائل القرن السادس الهجرى بمدينة وادى آش . وتوفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧١م) . تولى منصب الوزارة ومنصب الطبيب الخاص للسلطان أبى يعقوب يوسف الموحدى . وكان صديقاً ومعاصراً لابن رشد . وهو صاحب رسالة «حى بن يقظان» الشهيرة .

(٣) جمع عدل . والعدل فى نظام الأندلس القضائى ، وهو الذى اشتقت أصوله بالمغرب فيما بعد ، هو موظف قضائى مهمته صياغة الوثائق التى يطلبها المتقاضون . ويقرر القاضى صحة نص الوثائق . ولا يباشر

فقيه ، نبيـه ، مُدْرِك ، جيد النظر ، سديد الفهم ؛ حضر الدرس بين يدى السلطان ، ووُلِّى القضاء بجبل الفتح[١] ، متَّصفاً فيه بجزالة وانتهاض . تعرفتُ به بمدينة فاس ، فأعجبتنى سيمتُه ؛ ووصل مدينة سَلا فى غرض اختبار واستطلاع الأحوال السلطانية ؛ واستدعيته ، فاعتذر ببعض ما يُقبل ، فخاطبته بقولى :

أبيتُم دَعْوتى إمّا لِشَأْوٍ ... وتأبَى لومه مُثْلى الطريقة
وغيرُ غريبةٍ أن رقّ حُرٌّ ... على من حالُه مِثْـلى رقيقة
وإمّا زاجرُ الوَرَع اقتضاها ... ويأبى ذاكَ دُكانُ الوثيقة
وغِشْيانُ المنـازل لاختبارٍ ... يُطالب بالجليلة والدّقيقـة
شكرتُ مَخيلة كانت مجازاً ... لكم وحَصَلت بعدُ على الحقيقة[٢]

وتفرّع الكلام على قولى : « ويأبى ذاكَ دكانُ الوثيقة » ، بما دعى إلى بيانه بتصنيفى[٣] فيه الكتاب المسمّى « بمُثلى الطريقة فى ذَمّ الوثيقة » .

دخوله غَرْناطة

فى عام اثنين وستين وسبعمائة ، مُوَجَّهاً من قِبَل سلطان المغرب أبى سالم بن أبى الحسن لمباشرة صَدقة عهد بها لبعض الرُّبُط[٤] ؛ وهو إلى الآن ، عَدْلٌ بمدينة فاس ،

العدل مهمته إلا بعد أن يقوم القاضى «بتعديله » أعنى بإثبات أنه عدل . وبذلك يصبح أهلا للتوثيق . (راجع الخشنى : قضاة قرطبة – طبعة القاهرة – ص ١٤١) .

(١) أى جبل طارق .

(٢) ورد بعض التحريف فى المخطوطين فى إيراد هذه الأبيات . وقد اعتمدنا فى تصويبها على نفح الطيب (ج ٤ ص ٤٧٣) .

(٣) وردت فى المخطوطين : بتعنيفى ، وهو تحريف ظاهر . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٤) الربط جمع رباط وهو فى الأصل المكان الذى يرابط فيه المجاهدون استعداداً لدفع العدو ، وكان ذلك فى الغالب على الحدود أو الثغور . ثم تطور إلى المعنى الدينى . والربط هنا فيما يبدو الزوايا التى ينتسب إليها جماعات من الصلحاء والزهاد .

بحال تَجِلَّة وشهرة ؛ ثم تعرّفتُ أنه نسك ورفض العَيْش [١] من الشهادة ككثير [٢] من الفضلاء .

أحمد بن إبراهيم بن الزُّبير بن محمد بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسين بن الزبير بن عاصم بن مُسْلم بن كَعْب الثَّقَفى

يكنى أبا جعفر .

أوَّليَّتُـه

كعْبٌ الذى ذكر ، هو كعب بن مالك بن عَلْقمَة بن حَيَّان [٣] بن مسلم بن عَدْى ابن مرة بن عُوف بن ثَقِيف ؛ أصله من مدينة جيّان [٤] ، منزل قِنِّسرين ، من العرب الداخلين إلى الأندلس ؛ ونسبهُ بها كبير ، وحَسَبه أصيل ، وثَرْوته [٥] معروفة . خرج به أبوه عند تغلُّب العدوّ عليها عام ثلاثة وأربعين وستمائة ، ولأبيه إذ ذاك إثراء [٦] وجِدَة أعانته على طلب العلم ، وإرفاد [٧] من أحْوجَته الأزمة فى

---

(١) وردت فى المخطوطين : المتمعش وهو تحريف ظاهر والتصويب من « ت » .

(٢) وردت « الكثير » فى « ك » و « ت » . وفى « ج » للكثير .

(٣) وردت فى المخطوطين : حباب . والتصويب من « الصلة » .

(٤) كانت مدينة جيان من القواعد الأندلسية الهامة أيام الدولة الإسلامية . وهى تقع شمالى غرناطة وشرقى قرطبة . وهى اليوم قاعدة الولاية الإسبانية المسماة باسمها Jaen

(٥) وردت فى المخطوطين : وثورته .

(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » أثر .

(٧) أرفاد من رفد وأرفد ؛ ومعناه العون والمساعدة .

ذلك الزمان من جالية العلماء عن قُرْطبة وإشبيلية كأبى الحسن الصَّائغ[١] وغيره ، فنصحوا له ، وحَطَبوا فى حَبْله .

حـــاله

كان خاتمة المحدِّثين ، وصدور العلماء والمُقرئين ، نسيج وحده ، فى حُسن التعليم ، والصبر على التَّسمع ، والملازمة للتدريس ، لم تَخْتل له ، مع تخطِّى الثمانين ، ولا لَحِقته سآمة ؛ كثير الخشوع والخِشية ، مُسترسل العَبْرة[٢] ، صليباً فى الحق ، شديداً على أهل البِدع ، ملازماً للسُّنَّة ، جَزْلا ، مُهيباً ، معظَّماً عند الخاصّة والعامّة ، عذب الفكاهة ، طيّب المجالسة ، حُلو النادرة ، يؤثر عنه فى ذلك حكايات، لا تُخلُّ بوقار ، ولا تخل بجلال مَنصِب .

« فنونه » ؛ إليه انتهت الرياسة بالأندلس فى صناعة العربية ، وتَجْويد القرآن ، ورواية الحديث ، إلى المُشاركة فى الفقه ، والقيام على التَّفسير ، والَخوض فى الأصلين .

« مشيخته » ؛ أخذ عن الجِلَّة المُقرئين ، كالمقرى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن مستقور[٣] الغَرْناطى الطَّائى .

« نباهته وخُطَطه » ؛ وُلِّى قضاء المناكح ، والُخطبة بالَحضْرة ، و بلغ من الشهرة والإشادة بذكره ، ما لم يَبْلغه سواه .

---

(١) هو أبو بكر محمد بن باجة التجيبى الأندلسى المشهور بابن الصائغ ، الفيلسوف الشاعر . كان من أعظم فلاسفة الأندلس ومفكريها . وهو فيما يبدو من أهل الثغر الأعلى . وقد نسب إليه الإلحاد والخروج على تعاليم الدين . وكانت وفاته مسموماً بفاس سنة٥٣٣ هـ (١١٣٨م) . ويعرف بالإفرنجية باسم Avenpace .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . ووردت فى « ج » ، الدمعة .

(٣) وردت فى المخطوطين : مشهور . والتصويب من كتاب « المرقبة العليا »

تصانيفه

من تأليفه كتاب « صِلة الصِّلة لابن بَشْكُوال » ، التى وصلتُها بعده ، وسمَّيتُ كتابى « بعائد الصلة »[١] ، وافتتحت أول الأسماء فيه باسمه ؛ وكتاب « ملاك التأويل ، فى المُتشابه اللَّفْظ فى التَّنْزيل » ، غريبٌ فى معناه ؛ [والبُرهان فى ترتيب سُوَر القرآن][٢] ؛ وشرح الإشارة لِلْباجى فى الأصُول ؛ وسبيلُ الرّشاد فى فضل الجهاد ؛ ورَدْع الجاهل عن اغتياب المجاهل ، فى الرد على الشّودية[٣] ، وهو كتاب جليل يُنْبى عن التفنن والاضطلاع ؛ وكتاب الزمان والمكان ، وهو وصْمَةٌ ، تجاوز الله عنه .

شعره

وشعره مختلف عن نمط الإجادة ، مما حقُّه أن يُثبت أو ثَبَت فى كتاب شيخنا أبى البركات المسمى « شعرُ مَنْ لا شِعر له » مما رواه ، ممن ليس الشعر له بضاعة ، من الأشياخ الذين عُدّ صدرٌ عنهم هو . فمن شعره :

مالى وللِتسئال لا أُمَّ لى[٤]   إن سألتُ من يَعزل أو من يَلى

حَسْبى ذنوبٌ أثقلت كاهلى   ما إن أرى إظلامها ينجـلى

يا ربِّ عَفْواً إنها جَمَّةٌ   إن لم يكن عَفْوُك لا أُمَّ لى

---

(١) سبق التعريف به فى المقدمة .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى « ك » . وساقط فى « ج » و « ت » .

(٣) الشودية ، فرقة من فرق الصوفية معروفة فى المغرب .

(٤) رسمت فى المخطوطات الثلاثة (لأملى) وهو تحريف .

محنته

نشأت بينه و بين المُتغلب بمالَقة من الرؤساء التُّجَيْبيين من بنى إشْقيلُولة[١]، وَحشَة أكّدتها سعاية بعض من استهواهم رجل مُمَخْرق من بنى الشّعوذة، ومُنْتحلى الكرامة، يمتطيها زعموا إلى النبوّة، يعرف بالفزارى، واسمه إبراهيم، غريب المنزَع، فذُّ المآخذ، أعجوبة من أعاجيب الفتن، يخبر بالقضايا المستقبلة، و يتَسوَّر سور حمى العادة فى التطور[٢] من التقشُّف والخِلابة، تبعه ثاغية وراغية، من العوام الصُّم البُكم، مستفزّين فيه حياته؛ و بعد زمن[٣] من مقتله، على يد[٤] الأستاذ بغرناطة، قرَعه بحقّه، و بادره بتعجيل نكيره، فاستغاث بمفتونه الرئيس، ظهير مُحاله فاستعصى[٥] له؛ و بلغ الأستاذ النياحة، ففرّ لوجهه[٦]، وكُبِس منزله لحينه، فاستولت الأيدى على ذخائر كتُبه، وفوائد تقْييده عن شيوخه، على ما طالت له الحسرة، وجلَّت فيه الرزيَّة[٧]. ولحق بغرناطة آوياً إلى كَنَف سلطانها الأمير أبى عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر؛ فأكرم مثواه، وعَرَف حقه، وانثال عليه الجمُّ الغفير لالتماس الأخذ عنه، إلى أن نالته لديه سعاية، بسبب جارٍ له، من صُلحاء القرابة النَّصرية، كان ينتابه لِنسْبة الخيرية، نُميت عنه فى باب تفضيله، واستهالت للأمر

---

(١) بنو إشقيلولة هم أسرة غرناطية قوية، ترجع فيما يبدو إلى أصل مغربى وكانوا أصهارا لملوك بنى نصر، وحكاماً الكثير من القواعد، وقد قاموا بعدة ثورات، واستقلوا خلال ذلك ببعض المدن والثغور.

(٢) وردت فى المخطوطين: الطور. والتصويب من «ت».

(٣) وردت هاتان الكلمتان فى المخطوطين: (ونفرن من). وفى «ت» (ونفذت). وهو تحريف والتصويب من الصلة.

(٤) هذه الكلمة واردة فقط فى «ك».

(٥) وردت فى «ج»، فاستعض؛ وفى «ك» فاستفض. والتصويب من «ت».

(٦) وردت فى المخطزطين: لوجه. والتصويب من «ت».

(٧) هكذا فى «ج»، وفى «ك» المردية.

كلمة ، أوجبت امتحانه ، وتخلَّلَ تلك الأُلْقِيَّة[١] من الشك ، ما قَصر المحنة على إخراجه من منزله ، المجاور لذلك المتهم به ، ومَنْعه من النظر ، والتزامه قَعْر منزل ، انتقل إليه بحال اعتزال من الناس ، محجوراً عليه مُداخلتهم ؛ فمكث على ذلك زماناً طويلا ، إلى أن سُرِّيت عنه النكبة ، وأقشعت المَوْجدة ، فتخلَّص من سوادها بدرُه ، وأُقِلَّ من شكاتها جاهُه ، وأحسنت أثرُها حاله ، وكثُر مُلْتمسه ، وعظمت فى العلم غاشيته ؛ فدوَّن واستمع ، وروى ودَرَّب ، وخَرَّج[٢] وأدَّب وعلَّم ، وحلق وجَهَر ؛ وكانت له الطّايلةُ على عدُوِّه ، والعاقبة للحسنى ، بعد التياث[٣] أمره ، والظَّفر بكثير من مُنْتهب كُتبه . وآلت الدولة للأمير أبى عبد الله بن نصر بمالقة ، فطالب الفزارىّ المذكور ، واستَظْهر بالشّهادات عليه ، و بالغ فى دحض دَعْوَته ، إلى أن قُتل على يده بغرناطة .

حدّثنا شيخنا أبو الحسن بن الجَيَّاب ؛ قال : لما أُمر بالتأهب للقتل وهو فى السجن الذى أخرج منه إلى مصرعه ، جَهَر بتلاوة « ياسين » ، فقال له أحد الذَّعرة ، ممن جمع السجن بينهم : « اقْرَأ قرآنك ؛ على أى شىء تتطَفل على قرآننا اليوم » أو ما هو فى معناه . فتركها مثلاً للوَذَعِيَّتِه .

مولده

بيلدة جيّان فى أواخر عام سبع وعشرين وستمائة .

وتوفى بغرَناطة فى الثامن لشهر ر بيع الأول عام ثمانية وسبعمائة . وكانت جنازته [جنازة][٤] بالغةً أقصى مبالغ الاحتفال[٥] ، نفَر لها الناس من كل أَوْب ، واحتمل

(١) ألقية والجمع الاقى ، أى مسائل والغاز .

(٢) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » واخرج . والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى « ك » وفى « ج » تبات .

(٤) هذه الكلمة زائدة فى « ك » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » ، وفى « ك » احتفال .

طلبةُ العِلْمِ نعشه على رؤوسهم، إلى جدَثه، وتبعه ثناء جميل، وجزع كبير، رحمه الله. ورثاه طائفة من طلبته؛ وممَّن أخذ عنه منهم، القاضي أبو جعفر بن أبى حبْل فى قصيدة أولها:

عزيزٌ على الإسلام والعلم ماجدٌ ... فكيف لعينى أن يُلمَّ بها الكرا
وما لمآقى لا تفيض شئونها ... نجيعاً[1] على قدر المصيبة أحمرا
فوالله ما تقضى المدامع بعض ما ... يَحقُّ ولو كانت سُيولا وأبْحُرا
حقيقٌ لَعمْرى أن تفيضَ نفوسُنا ... وفرضٌ على الأكباد أن تتفطّرا

أحمد بن عبد الوالى بن أحمد الرُّعَينى

يكنى أبا جعفر؛ ويعرف بالعوّاد، صنعةٌ لأبيه الكاتب الصالح.

حـــاله

هو من بيت تَصاوُن، وعفاف، ودين، والتزامِ السُّنة؛ كانوا فى غرناطة فى الأشعار، وتجويد القرآن، والامتياز بحمله، وعكوفهم عليه، نُظَراء بنى عُظَيمة بإشْبيليّة، وبنى الباذِش بغرناطة؛ وكان أبو جعفر هذا، المتَرجم له، ممن تُطوى عليه الخناصرُ، معرفةً بكتاب الله، وتحقيقاً لحقه، وإتقاناً لتجويده، ومثابرةً على تعليمه[2]، ونُصْحاً فى إفادته؛ على سُنن الصالحين، انقباضاً عن الناس، وإعراضاً عن ذوى الوجاهة، سَنِيًّا فى قوله وفعله، خاصيًّا فى جميع أحواله، مُخشَوْشِناً فى مَلْبسه، طويل الصَّمت إلا فى دَسْت تعليمه، مقتصراً فى مكسبه، مُتَفيًّا لدينه،

(١) وردت فى المخطوطين: نجيباً. وهو تحريف والتصويب مستقيم مع السياق.
(٢) هكذا فى «ك». وفى «ج» تجويده مرة أخرى.

محافظاً على أواده . سأل منه رجل يوماً كَتْب رقعة ، ففهم من أمره ، فقال يا هذا والله ما كَتَبَتْ قط يمينى إلا كتاب الله ، فأحبُّ أن ألقاه على سَجِيّتى بتوفيقِه إن شاء الله وتسديده .

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزُّبير ، والأستاذ أبى جعفر الحَربو بى الكفيف ، وأبى عبد الله بن رشيد[١] وغيرهم .

وفاته

توفى فى شهر ذى الحجة من عام خمسين وسبعمائة ، ودفن بجبَّانة باب الفَخّارين[٢] فى أسفل السفح تجاه القصور الحَكَمية ، وأتبعه الناس أحسن الثناء .

أحمد بن على بن أحمد بن خَلَف الأنصارى

من أهل غَرْناطة ؛ يكنى أبا جعفر ، و يعرف بابن الباذِش .

« أوَّلِيَّتُه » ؛ أصله من جيّان من بيت خَيْريّة ، وتَصَوُّن .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » رشد .

(٢) باب الفخارين أحد أبواب غرناطة الإسلامية .وقد كان موقعه تجاه التمرية المسماة بهذا الإسم وهى من أطراف غرناطةالشمالية. وتسمى اليوم Alfacar

حاله

قال القاضى أبو محمد بن عطية : إمامٌ فى المقرئين ، ومُقدَّم فى جهابذة الأستاذين ، راويةٌ(١) ، مُكثر ، متفنِّن فى علوم القراءة ، مُستَبْحِر ، عارف بالأدب والإعراب ، بصير بالأسانيد ، نقَّاد لها ، مُمَيِّزٌ لشاذِّها من معروفها . قال ابن الزُّبير : وما علمت فيما انتهى إليه نظرى وعِلمى ، أحسن انقياداً لطُرُق القراءة ، ولا أجلَّ اختياراً منه ، لا يكاد أحد من أهل زمانه ، ولا ممن أتى بعده أن يبلغ درجته فى ذلك .

مشيَخَتُه

تَفَقَّه بأبيه الإمام أبى الحسن ، وأكثر الرواية عنه ، واستَوْفى ما كان عنده ، وشاركه فى كثير من شيوخه . أخذ القِراءات عَرَضاً عن الإمام المُقرِئ أبى القاسم ابن خَلَف بن النحّاس ، رحل إلى قُرْطبة ولازمه ؛ وعلى المقرئ أبى جعفر هابيل بن محمد الحلاسى ، وأبى بكر بن عيَّاش بن خلف المقرئ ، وأبى الحسن بن زكريا ، وأبى الحسن شُرَيح بن محمد ، وأبى محمد عبد الله بن أحمد الهَمْدانى الجَيَّانى ؛ وتلا على جميع من ذكر ؛ وروى بالقراءة والسَّماع والإجازة على عالَمٍ كثير ، كأبى داود وأبى الحسن بن أخى الدش المُقْرِئين ، أجازا له ؛ وأبى على الغسَّانى فى الإمامة والإتقان ، وقد أسْمَع عليه ؛ وأبى القاسم خَلَف بن صواب المقرئ ، وأبى عامر محمد بن حبيب الجَيَّانى ، وأبى عبد الله محمد بن أحمد التُّجَيْبى الشهير ، وأبى محمد بن السيد ، وأبى الحسن بن الأخضر ، وأبى محمد عبد الله بن أبى جعفر الحافظ ، وعالَمٍ كثير غير هؤلاء يطول ذكرهم .

---

(١) وردت فى المخطوطين : رواية .

من رَوَى عنه

روى عنه أبو محمد عبد الله ، وأبو خالد بن رَفاعة ، وأبو على القَلْعى المعَدِّى ، وأبو جعفر بن حكم ، وأبو الحسن بن الضّحّاك ، وابنه أبو محمد عبد المنعم ، وهو آخر من حدَّث عنه .

تصانيفُه

ألّف كتاب « الإقناع » فى القِراءات ، لم يُؤَلّف فى بابه مثلُه ؛ وألّف كتاب « الطرق المتداولة » فى القِراءات ، وأتقنه كل الإتقان ، وحرَّر أسانيده وأتقنها ، وانتقى لها ، ولم يتّسع عُمْره لفَرْش حُروفهم وخلافهم من تلك الطرق . وألّف غير ما ذكر .

مولده

فى ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وأربعمائة .

« وفاته » ؛ توفى ثانى جمادى الآخرة سنة أربعين وخمسمائة ، وكان عمره تسعاً وأربعين سنة .

أحمد بن عبد النُّور بن أحمد بن راشد ، رحمه الله(١)

يكنى أبا جعفر ، من أهل مالَقة ، ويعرف بيته بها بنى راشد ؛ قال شيخنا . أبو البركات : نقلتُ اسم هذا من خطِّه ، ولا نعلم له نسباً إذ لم يكتبه ، وشُهر بابن عبد النُّور .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين .

حاله

كان قيِّماً على العربية إذ كانت جُلَّ بضاعته ؛ يشارك مع ذلك فى المنطق ، على رأى الأقدمين ، وعَرُوض الشعر ، وفُرُوض العبادات من الفقه ، وقَرْض الشعر ؛ وكان له اعتناء بفَكِّ المُعَمَّى ، والتَّنقير عن اللُّغُوز . وكان ذكىَّ الصوت عند قراءة القرآن ، خاشعاً به . رحل من بلده مالقة إلى سَبْتَة ، ثم انتقَل[1] إلى الأندلس ، وأقرأ بوادى آشْ مدة ؛ وتردّد بين المريّة وبُرْجَة ، يُقرئ بها القرآن ، وغير ذلك مما كان يشارك فيه . وناب عن بعض القضاة وقتاً ، ودخل غرناطة أثناء هذا السَّفر[2] .

مشيخته

قال : أخذ القرآن قراءةً على طريق أبي عَمرو الدَّانى[3] ، على الخطيب أبى الحسن الحجاج بن أبى رَيْحانة المَرْبلِّى[4] ، ولا يُعلم له فى بلده شيخ سواه ، إذ لم يكن له اعتناء بلقاء الشيوخ ، والحمل عنهم ؛ ومن عِلمى أنه لَقِى أبا الحسن بن الأخضر المُقْرى العَرُوضى بسَبْتَة ، وذاكره فى العَرُوض ، ولا أعلم هل أخذ عنه أم لا . ورأيت فى تقاييدى أن القاضى[5] أبا عبد الله بن بُرْطال حدَّثنى أن ابن النُّور قرأ

---

(١) وردت فى المخطوطين : نقل . وهو تحريف .

(٢) هكذا فى « ج » وفى « ك » السفرة .

(٣) وردت فى « ج » أبى عمر ، وهو تحريف . وأبو عمرو الدانى من أشهر علماء القراءات والتفسير فى الأندلس . وعاش فى دانية دهرا يلقن علمه ، ووضع كتاباً شهيراً فى « القراءات » اسمه « التيسير فى القراءات ، » (٣٧١ - ٤٤٤ هـ) .

(٤) نسبة إلى مربلة أو ماربلة . وهى بلد أندلسى صغير يقع على شاطىء البحر الأبيض المتوسط جنوب غربى مالقة. وبالإسبانية Marbella

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » الشيخ ، والأولى أصح لشهرة ابن برطال بهذه الصفة بين قضاة الأندلس .

معه الجزولية[١] على ابن مُفَرِّج المالَقى تفقهاً ، وقيد عليه تقييداً عرضه بعد ذلك ، على ابن مُفرج هذا ؛ وهو محمد بن يحيى بن على بن مُفرج المالقى . وروى عن أبى الحجّاج المتقدم الذكر تَيْسِير أبى عَمْرو الدّانى ، وجُمَل الزَّجّاجى ، وأشعار الستَّة ، وفصيح أحمد بن يحيى ثعلب ؛ وقفتُ فى ذلك على رِقٍّ أجاز فيه بعض الآخذين عنه ، ولم ينص فيه على كيفية أخذه لهذا الكتيب عن أبى الحجّاج . قال : ورأيت فى ذلك الرِقّ أوهاماً ، تدل على عدم شعوره بهذا الباب جملة ، وقبول التَّلْقين فيه ، فلا ينبغى أن يُرْكن إلى مثله فيه . ورأيت بخط بعض أصحابه ، أنه تفقه على أبي رَيْحانة ، ولعل ذلك فى صغره قبل أن يتحكَّم طلبُه و يتفنَّن ، إذ الفنون التى كان يأخذ منها لم يكن أبو رَيْحانة ، مليًّا بها ، ولا منسوباً إليها .

تصانيفه

منها كتاب « الحِلْية فى ذكر البسملة والتصلية » . وكتاب « رَصْف[٢] المبانى فى حروف المعانى » ، وهو أجَلُّ ما صنف ، ومما يدل على تقدُّمه فى العربية . وجزءٌ فى العَرُوض . وجزءٌ فى شواذِّه . وكتابٌ فى شرح الكَوَامل لأبى موسى الجُزُولى ، يكون نحو المُوَطّأ فى الجِرْم . وكتاب شرح مُغْرب أبى عبد الله بن هشام الفِهْرى المعروف بابن الشوّاش ، ولم يتم ، انتهى [فيه][٣] إلى همزة الوصل ، يكون نحو الإيضاح لأبى على . وله تقييدٌ على الجُمَل غيرُ تام .

شعره

قال : وشعره وسَطٌ ، بعيدٌ عن طرفى الغثّ ، والثمينُ أبعد ؛ وكان لا يتغنَّى فيه

(١) الجزولية هى الحواشى التى وضعها أبو موسى الجزولى النحوى المغربى المتوفى سنة ٦٠٧ هـ . على « جمل الزجاجى » . وتعرف أيضا « بالمقدمة » .

(٢) وردت فى « ج » رصفى . وفى « ك » وصفى ، وكلاهما تحريف .

(٣) وردت فى « ك » وأغفلت فى « ج » .

ولا يتكلّفه ، ولا يقصد قصده ؛ وإنّ ذلك لعذر فى عدم الإجادة . قال الشيخ ، ولدىّ جزءٌ منه(١) تصفّحته على أن أستجيد(٢) منه شيئاً أُثْبِته له فى هذا التّعريف، فرأيته بعضه أشبه ببعض من الغرابة ، فكتبت من ذلك ، لا مُؤْثراً له على سواه من شعره ، بل لمرجّح(٣) كَوْنه أوّل خاطر بالبال ، ومُتَلمّح خَطِّه بالبَصَر ، فمن ذلك قولُه من قصيدة ، ومن خطه نقلتُ :

محاسنُ من أهْوى يَضيق لها الشرحُ ... له الهمَّةُ العَلْيـاء والخُلقُ السَّمْحُ
له بهجـةٌ يَغْشَى البصائر نورُها ... وتَعْشَى(٤) بها الأبصار إن غَلَسَ الصُّبحُ
إذا ما رَنَى فاللَّحْظُ سَهْمٌ مُفوَّقٌ ... وفى كل عُضْو من إصابته جُرْحُ
إذا ما انثنى زهـواً وولّى تبَخْتُراً ... يَغَار لذاك القَدِّ من لينه الرُّمْح
فإن نَفَحَتْ أزهارُه عنـد روضةٍ ... فيُخْجِلُ ريّاً زَهْرِها ذلك النَّفْحُ
هو الزّمَنُ المأمولُ عنـد ابتهاجه ... فلِمّتُهُ ليـــلٌ ، وغُرّتُه صُبْحُ
لقـد خامَرت نفسى مُدامة حبـه ... فقلبى من سُكر المُدامة لا يَصْحُ
وقد هام قلبى فى هـواه فبَرّحت ... بأَسرارِه عـينٌ لمَدْمَعهـا سَبْحُ

غفلتُه ونُوكُه

كان هذا الرجل من البَلَه فى أسباب الدنيا ؛ له فى ذلك حكايات دائرة على ألسنة الثِقاة من المُلازمين له وغيرهم ، لولا تواتُرُها لم يُصدق أحد بها ، تُشبه ما يُحكى عن أبى على الشُلُوبين . منها أنه اشترى فَضْلة مِلَف(٥) ، فبلّها ، فانْتَقَصَت كما يجرى فى

(١) وردت فى المخطوطين : من .
(٢) وردت فى المخطوطين : تجيد . والتصويب من « ت » .
(٣) هكذا وردت فى « ك » ، وفى « ج » لمحج وهو تحريف .
(٤) وردت فى المخطوطين : وتغشى ، وبالتصويب يستقيم المعنى.
(٥) هكذا وردت فى « ك » ، وفى « ج » ملفا .

ذلك ، فذرعها بعد البَلِّ فوجدها انتقصت ، فطلب بذلك بائع المِلف ، فأخذ يُبين له سبب ذلك فلم يفهم . ومنها أنه سار إلى بعض بساتين المَرِيّة مع جماعة من الطلبة ، واستصحبوا أُرزاً ولَبَناً ، فطلبوا قِدْراً لطبخه ، فلم يجدوا ، فقال اطبخوا فى هذا القِدر، وأشار إلى قدر بها بقيّة زِفْت مما يُطلى به السّواقى[١] عندهم . فقالوا له : وكيف يسوغ الطبخ بها ، ولو طُبخ بها شيء مما تأكله البهائم لعافَتْه ، فكيف [الأرز باللبن][٢] ؛ فقال لهم اغسلوا معائدكم ، وحينئذ تدْخلون فيها الطعام ، فلم يَدْروا ممّا يَعْجَبون ، هل من طيب نفسه بأكله مما يطبخ فى تلك القِدر ، أم من قِياسه المَعِدة عليها . ومنها أنهم حاولوا طبخ لحمٍ مرّة أخرى فى بعض النُّزَه فذاق الطعام من المِلح بالمِغرفة ، فوجده محتاجاً للملح ، فجعل فيه مِلحاً وذاقه على الفَوْر ، قبل أن ينحلّ الملح ويسرى فى المَرَقة الأولى ، فزاد ملحاً إلى أن جعل فيه قَدْر ما[٣] يَرْجُح اللحم ، فلم يقدروا على أكله . ومنها أنه أدخل يده فى مِفْجَر صهريج ، فصادفت يدُه ضِفْدَعاً كبيراً ، فقال لأصحابه تعالَوْا،إن هنا حَجَراً رَطْباً . ومنها أنه استعار يوماً من القائد أبى الحسن ابن كُماشَة ، جواداً ملوكياً ، قِرْطاسى اللّوْن ، من مراكب الأمراء ؛ فقال وجِّه لى تلك الدابة ، فتخَيَّل أنه يريد الرُّكوب إلى بعض المواضع ، ثم تفَطّن لغَفْلته ، وقال : أى شيء تصنع به ، قال : أجعله يُسْنى شيئاً يسيراً فى السّانية[٤] ، فقال تُقضى الحاجة إن شاء الله بغيره ؛ ووجّه له حماراً بِرَسم السانية ، وهو لا يشعر بشيء من ذلك كله .

قلت ، وفى موجودات الله تعالى عِبَرٌ ، وأغربُها عالَمُ الإنسان ، لما جُبلوا عليه من الأهواء المختلفة ، والطباع المشتتة[٥] ، والقصور عن فهم أقرب الأشياء ، مع الإحاطة بالغوامض .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، السوانى . والسانية كالساقية آلة لحبس الماء ورى الأرض .

(٢) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (الرزبلبن) . وهو تحريف .

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى « ج » .

(٤) هى الساقية كما تقدم . وهى كلمة ذائعة فى أدب الأندلس .

(٥) وردت فى المخطوطين : المستتة .

حدثنا غيرُ واحد ، منهم عمّى أبو القاسم ، وابن الزُّبير ؛ إذناً فى الجُمْلة ، قالا : حدثنا أبو الحسن بن سِراج عن أبى القاسم بن بَشْكُوال ، أن الفقيه صاحب الوثائق أبا عمر بن الهندى ، خاصم يوماً عند صاحب الشُرطة والصلاة ، إبراهيم بن محمد ، فنَكَل وعجز عن حُجّته ؛ فقال له الشُّرَطى (١) : ما أعْجَب أمرك أبا عمر ، أنت ذَكِى لغيرك ، بَكىٌّ (٢) فى أمرك ؛ فقال أبو عمر : « كذلك يُبيِّنُ الله آياتِه للنّاس ». ثم أنشد متمثِّلاً (٣) :

صرت كأنّى ذُبالةٌ نُصِبت تُضىءُ للناس وهى تحترق

قال ، وحدّثنى الشيخ أبو العباس بن الكاتب بِبِجاية ، وهو آخرُ من كتَبْنا معه الحديث من أصحاب ابن العمّار ، قال : كنت آوياً إلى أبى الحسن حازم القرْطَجانى (٤) بتونس ؛ وكنت أُحسن الخياطة ، فقال لى : إن المُسْتنصر خَلَع علىّ جُبَّة جِرْبِيَّة من لباسه ، وتفصيلها ليس من تفصيل أثوابنا بشرق الأندلس ، وأريد أن تُحل أكمامها ، وتُصيّرها مثل ملابسنا . فقلت له : وكيف يكون العمل ، فقال : تُحل رأس الكُمِّ ، ويوضع الضيِّق بالأعلى ، والواسع بالطرف . فقلت : وبِمَ يُحير الأعلى ، فإنه إذا وُضع فى موضع واسع ، سَطَتْ علينا فُرَج (٥) ما عندنا ؛ ما يُصنع فيها إلا إن رقّعنا بغيرها ، فلم يفهم . فلما يئستُ منه تركته وانصرفت . فأين هذا الذهن الذى صنع المقْصُورَة وغيرها من عجائب كلامه .

مولده

فى رمضان من عام ثلاثين وستمائة .

---

(١) وردت فى المخطوطين : الشرفى ، وهو تحريف .

(٢) بكى أى عيى وعاجز .

(٣) وردت فى المخطوطين : مثلا .

(٤) نسبة إلى قرطاجنة .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » فوج .

وفاته

توفى بالمريّة يوم الثلاثاء السابع والعشرين لربيع الآخر من عام اثنين وسبعمائة، ودفن بخارج باب بِجاية بمقبرة من تُرْبة الشيخ الزاهد أبى العباس بن مَكْنُون .

أحمد بن محمد بن على بن محمد بن يحيى [بن محمد][1]
ابن مصادف بن عبد الله

يُكْنى أبا جعفر، و يعرف بابن مُصادف ؛ من أهل بَسْطَة ، واستَوْطن غرناطة، وقرأ وأقرأ بها .

حاله

من أهل الطلب والسّلاطة والاجتهاد ، وممن يقصُر مُحَصَّله عن مدى اجتهاده ، خَلوب[2] اللسان ، غريب الشّكل ، وحَشِيِّه ، شتيت الشّعر ، مُغفيه ، شديد الاقتحام والتَسَوُّر ، قادر على اللُّصُوق بالأشراف . رمى بنفسه على مشيخة الوقت ، يَطْرُقهم طروق الأمراض الوافدة ، حتى اسْتَوْعب الأخذ من أكثرهم ، يَفُكّ عن فايدته فَكّ المُتبرِّم[3] ، ويَنتزعها بواسطة الحَيَا[4] ، ويُسلِّط[5] على قَنْصها جوارح

---

(١) وردت هذه الزيادة فى « ك » فقط .

(٢) وردت فى المخطوطين : حلوب ، وهو تحريف . وخلوب بمعنى خلاب وجذاب .

(٣) هكذا وردت فى « ك » وفى « ج » ، التبرم .

(٤) وردت فى « ك » الجيا . وفى « ج » الجبا . وقد رجحنا التصويب لاستقامته مع السياق .

(٥) وردت فى المخطوطين: وسلط، بالماضى . والتصويب أرجح عطفاً على ما سبق فى المضارع .

التبذُّل والإطْراء ، إلى أن ارتَسم فى المُقْربين بغرناطة ، محمولاً[١] عليه بالنَّحْب والملق ، وسد الترتيب المدنى[٢] ؛ ولوثةُ تعتاده فى باب الرُّكوب والثِّقافة[٣] ، وهو لا يستطيع أن يستقر بين دفّتى السّرج ، ولا يُفرق بين مَبْسوط الكتف[٤] ؛ أخذ نفسه فى فنون ، من قرآن،وعربيَّة ، وتفسير ، وامتُحن مرات لجرى حركة القلقلة[٥] الذى لا يَمْلِك عِنانه ، ثم تخلّص من ذلك ، وهو على حاله إلى الآن .

مشيخته

قرأ على الخطيب ببَسْطة ، وأبى الإصْبع بن عامر ، والخطيبين بها أبى عبد الله وأبى إسحاق ابن عمه ، وأبى عبد الله بن جابر ، وعلى أبى عثمان بن ليُون بالمرِيّة ، والخطيب أبى عبد الله [بن العربى][٦] بحَمّة[٧] ، وتلا القرآن بقراءاته السبع على شيخنا أبى عبد الله بن الوالى العوّاد ؛ وروى عن شيخنا أبى الحسن بن الجيّاب ، وعلى الحاج أبى الحجاج الساحلى . وكتب الإقراء ، وأخذ الفقه عن الأستاذ أبى عبدالله البيّانى[٨] . وقرأ على قاضى الجماعة أبى القاسم البيّانى ، وقرأ على قاضى الجماعة أبى القاسم الحَسَنى ؛ ولازم أستاذ الجماعة أبا عبد الله الفخّار ، وقرأ عليه العربية ؛ وصاهره على بنته الأستاذُ المذكور،وانتفع به ، إلى أن ساء ما بينهما عند وفاة الشيخ،

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » محولا ، وفى « ت » فحولا .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ، المدينى

(٣) الثقافة بالكسر ، هى الضرب بالسيف .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، الكيف ، وفى « ت » الكف .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » القلقة .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » (من الغرب) .

(٧) الحمة أو الحامة ، هى بلدة تقع فى جنوب غربى غرناطة وقد سبق التعريف بها (ص ١٧٥) .

(٨) نسبة إلى بيانة ، وهى مدينة أندلسية قديمة تقع فى جنوب شرقى قرطبة على مقربة من قبره وهى Baena الحديثة .

فرماه بتَرْمية بيضاء تخلَّقها(١) ، مثيرة عَجَبٍ ، مُرَّة . وحاله متصلة على ذلك ، وقد ناهز الاكتهال .

أحمد بن حسن بن باصَة الأسْلمى
المُؤَقِّت بالمسجد الأعظم بغرناطة

أصله من شرق الأندلس ، وانتقل إليها والده ؛ يكنى أبا جعفر .

حاله

كان نسيج وحده ، وقريع دهره ، معرفة بالهيئة ، وإحكاماً للآلة الفَلَكية ، ينحتُ منها بيده ذخائر ، يقف عندها النظر والخبر(٢) ، جمال خَط ، واستواء صنعة ، وصحة وضع ؛ بلغ فى ذلك درجة عالية ، ونال غاية بعيدة ، حتى فَضَل بما ينسب إليه من ذلك كثيراً من الأعلام المتقدمين ، وأزرت آلاته(٣) بالحماريّات(٤) والصّفاريّات وغيرها من آلات المُحْكِمين، وتغالى الناس فى أثمانها ، أخذ ذلك عن والده شيخ الجماعة فى هذا الفن .

وفاته

فى عام تسع وسبعمائة .

---

(١) وردت فى « ج » تخلفها . وفى « ك » تخلفت . والتصويب من « ت » .

(٢) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » الحيرة ، والأولى أرجح .

(٣) وردت فى المخطوطين : (إلا أنه) والتصويب من « ت » .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » بالجمايريات .

أحمد بن محمد بن يُوسُف الأنصارى

من أهل غرناطة ؛ يكنى أبا جعفر ، و يُعرف بالحِبالى .

حـــاله

عكف صَدْراً من زمانه منتظماً فى العُدُول[١] ، آو ياً إلى تخصيص وسكون ودماثة ، وحسن معاملة ، له بصر بالمساحة والحساب ، وله بصر بصناعة التعديل وجداول الأبراج[٢] ، وتدَرَّب فى أحكام النجوم، متصودٌ فى العلاج بالرُّقا والعزايم، من أولى المسِّ[٣] والخَبال[٤] ، تعلق بسبب هذه المُنتَحلات بأذْيال الدول ، وانبَتَّ من شيمته الأولى ، فنال استعمالا فى الشهادات المَخْزنية ، وخبر منه أيام قُرْبه من مبادى الأمور والنَّواهى ، ومُداخلة السلطان ؛ صمتٌ ، وعقلٌ ، واقتصارٌ على معاناة ما امتُحن به ؛ وهو الآن بقيد الحياة .

مشيختُه

أخذ تلك الصناعة عن الشيخ أبى عبد الله الفخّار المعروف بأبى خُريسة[٥] ، أحد البواقع الموسومين بصحة الحـكم فيها ، وعلى أبى زيد بن مُثنى ؛ وقرأ الطب على شيخنا أبى زكريا بن هُذَيل رحمه الله ؛ ونُسب إليه عند الحادثة على الدولة وانتقالها

---

(١) جمع عدل، وهو الموثق . وقد سبق التعريف بنظام العدول (راجع الحاشية فى ص١٩٣).

(٢) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » الأرياح .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » اللمس .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و « ت » الخيال .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » خزيمة .

إلى يد المتغلّب، اختيارُ وقت الثورة، وضمان تمام الأمر، وشهد بذلك بخَطٍّ، وغيب من إيثارها. فلما عاد الأمر إلى السلطان المُزْعج بسببها إلى العُدْوة، أوقع به نكيراً كثيراً، وضرب به بالسياط التى لم يخلّصه منها إلا أجلُه، وأجلاه[1] إلى تونس فى جملة المُغَرَّبين فى أواخر عام ثلاثة وستين وسبعمائة.

وأخبرنى السلطان المذكور، أن المُتَرجم به كتب إليه بمدينة فاس، قبل شروعه فى الوُجْهة، يخبره بعودة الملك إليه وبإيقاعه المكروه الكبير به، بما شهد بمهارته فى الصنعة، إن صح ذلك كله من قوانينها، نسأل الله أن يُضْفى علينا لُبوس سَتْره، ويقينا شرَّ عثرات الألْسُن بمنّه.

أحمد بن محمد الكَرْنى[2]

من أهل غرناطة.

حاله

شيخ الأطباء بغرناطة على عهده، وطبيب الدار السلطانية؛ كان نسيج وحده، فى الوقار والنزاهة، وحسن السَّمْت، والتزام مُثْلى الطريقة، واعتزاز الصنعة؛ قائماً على صناعة الطبِّ، مُقرِئاً لها، ذاكراً لنصوصها، مُوَفّقاً فى العلاج، مقصوداً فيه، كثير الأمل والمثاب، مكبوح العِنان عما تثبت به أصول[3] صناعته من علم الطبيعة، سَنِيًّا، مقتصراً على المداواة؛ أخذ عن الأستاذ أبى عبد الله الرَّقُوطى، ونازعه بالباب

(١) وردت فى المخطوطين: وجلاه.

(٢) هكذا وردت فى «ك» وهو الرسم الصواب للإسم. ووردت فى «ج» الكزى.

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين: الطول، الصول. والتصويب من «ت».

السلطانى ، لما شدّ ، واحتِيج إلى ما لديه فى حكم[١] بعض الأموال المعروضة على الأطبّاء ، منازعةً أوجبت من شيخه يميناً أن [لا][٢] يحضُرَ معه بمكان ، فلم يجتمعا بباب السلطان بعد ، مع التمسُّك بما لديهما ؛ وأخذ عن ابن عَرُوس وغيره ، وأخذ عنه جملةٌ من شيوخنا كالطبيب أبى عبد الله بن سالم ، والطبيب أبى عبد الله بن سراج وغيرهما .

حدّثنى والدى بكثير من أخباره [فى][٣] الوقار وحسن الترتيب ؛ قال ، كنت آنس به ، ويُعجبنى استقصاؤه أقوال أهل هذا الفن ، من صنعته ، على مشهوره[٤] ، فلقد عُرِض عليه ، لعليل لنا ، بعضُ ما يخرج ، وفيه حية ، فقال على فتور ، وسكونة ، ووقار كثير : هذا العليلُ يتخلص ؛ فقد قال الرئيس ابن سينا فى أرجوزته :

إنْ خَرَجَ الخلْطُ مع الحيّات ... فى يوم بُحْران فَمَنْ حياة

وهذا اليوم من أيام البُحْرانيّة ، فكان كما قال .

وفاته

كان حياً سنة تسعين وستمائة

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، أحكام .

(٢) أغفلت هذه الكلمة فى المخطوطين ، وإثباتها لازم لاستقامة السياق .

(٣) ساقطة فى المخطوطين ، ويقتضى إثباتها السياق .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . ووردت محرفة فى « ج » ، مصوره .

أحمد بن محمد بن أبى الخليل مُفَرِّج الأموى

مولاهُم ؛ من أهل إشبيليّة ، يُكنى أبا العباس ، وكناه ابن فُرْتون(١) أبا جعفر، وتفرّد بذلك ؛ يعرف بالعشّاب ، وبابن الرُّوميّة ، وهى أشهرهما وألصقهما به .

أوليتُه

قال القاضى أبو عبد الله ، كان والد جدِّه أحد أطباء قُرْطبة ، وكان قد تبنّاه ، وعن مولاه أخذ علم النبات .

حاله

كان نسيج وحده ، وفريد دهره ، وغُرَّة جنسه ، إماماً فى الحديث ، حافظاً ، ناقداً ، ذاكراً تواريخ المُحدِّثين ، وأنسابهم ومواليدهم ووفاتهم ، وتَعْديلهم ، وتجريحهم؛ عجيبةُ نوع الإنسان فى عصره ، وما قَبْله ، وما بعده ، فى معرفة علم النبات ، وتمييز العُشْب ، وتَحْلِيتها ، وإثبات أعيانها ، على اختلاف أطوار منابتها ، بمشْرق أو مغرب ، حِسًّا ، ومشاهدةً ، وتحقيقاً ، لا مدافع له فى ذلك ، ولا منازع ؛ حجةُ لا تُرد ولا تُدفع ، إليه يُسلَّم فى ذلك ويُرجع . قام على الصَّنْعتين ، لوجود القَدْر المشترك بينهما ، وهما الحديث والنبات ، إذ موادهما الرِّحلَةُ(٢) والتَّقْييد ، وتصحيح الأصول ، وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الأديان والأبدان ، وغير ذلك . وكان زاهداً فى الدنيا ، مؤثراً بما فى يديه منها ، مُوَسّعاً عليه فى معيشته ، كثيرَ الكتُب ،

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، فرقون ، وهو تحريف . والصواب (فرتون) وهو اسم أندلسى ذائع محرف عن القشتالية Fortun ويكثر فى نسب الذين ينحدرون من أصول نصرانية .

(٢) وردت فى المخطوطين : الرجلة . وهو تحريف .

جمّاعاً لها ، فى كل فن من فنون العلم ، سَمْحًا لطلبة العلم ، ربما وهب منها لملتمسه[١] الأصل النفيس ، الذى يَعِزُّ وجوده ، احتساباً وإعانةً على التعليم ؛ له فى ذلك[٢] أخبار منبئة عن فضله ، وكرم صُنعه ؛ وكان كثير الشغف بالعلم ، والدؤوب[٣] على تقييده ، ومداومته سهر الليل من أجله ، مع استغراق أوقاته ، وحاجات الناس إليه ، إذ كان حسن العلاج فى طبّه المَوْرود ، الموضوع ، لثقته ودينه .

قال عبد الملك ؛ إمامُ المغرب قاطبةً فيما كان سبيلُه ؛ جال الأندلُس ، ومَغْرب العُدْوة ، ورحل إلى المشرق ، فاستوعب المشهور من إفريقيّة ، ومِصْرِه ، وشامِه ، وعِراقه ، وحِجازه ، وعاين الكثير ممّا ليس بالمغرب ؛ وعارض كثيراً فيه ، كلّ ما أمكنه ، بمن يشهد له بالفضل فى معرفته ؛ ولم يزل باحثاً على حقائقه ، كاشفاً عن غوامِضه ، حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره ، ممن تقدم فى المِلّة الإسلامية ، فصار واحد عصره فرداً ، لا يجاريه فيه أحد بإجماع من أهل ذلك الشأن .

مذاهبُه

كان سُنّيا ظاهِرِىّ المذهب[٤] ، مُنْحياً على أهل الرأى ، شديد التعصُّب لأبى محمد بن على ، أحمد بن سعيد بن حزم ، على دين متين ، وصلاح تام ، وورع شديد ؛ انتشرت عنه تصانيف أبى محمد بن حزم ، واستنسخها ، وأظهرها ، واعتنى بها ، وأنفق عليها أموالاً جمّة ، حتى استوعبها جُملة ، حتى لم يشُذ له منها إلا ما لا خطر ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : لمتلمسه . والتصويب أنسب للسياق .

(٢) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة (فى) مرة أخرى . وهو من باب السهو .

(٣) ورد فى المخطوطين : والدروب . والتصويب أنسب للسياق .

(٤) أعنى من أتباع الظاهرية الذين يقولون بتأويل ظاهر القرآن والحديث ، والذين كان الفيلسوف ابن حزم القرطبى من أقطاب مذهبهم بالأندلس .

مقتدراً[١] على ذلك بِجِدَتِه[٢] ويساره ، بعد أن تفقّه طويلاً على أبى الحسن محمد ابن أحمد بن زَرْقُون فى مذهب مالك .

مشيخته

البحرُ الذى لا نهاية له : روى بالأندلس عن أبى إسحاق الدِّمَشقى ، وأبى عبدالله اليابُرى ، وأبى البركات بن داود ، وأبى بكر بن طلْحة ، وأبى عبد الله بن الُحر ، وابن العربى ، وأبى على الحافظ ، وأبى زكريا بن مرزوق ، وابن يوسف ، وابن ميمون الشريشى ، وأبى الحسن بن زَرْقُون ، وأبى ذَرّ مُصْعب ، وأبى العباس بن سيِّد الناس ، وأبى القاسم البرّاق ، وابن جمهور ، وأبى محمد بن محمد بن الجنّان ، وعبد المنعم ابن فَرَس ، وأبى الوليد بن عُفير ؛ قرأ عليهم وسمع ؛ وكتب إليه مُجِيزاً[٣] من أهل الأندلس والمغرب ، أبو البقاء بن قديم ، وأبو جعفر حكم الجفّار ، وأبو الحسن الشَقُورى ، وأبو سليمان بن حَوط الله، وأبو زكريا الدمشقى، وأبو عبد الله الأنْدَرَشى ، وأبوالقاسم بن سمجون، وأبو محمد الحجرى ؛ ومن أهل المشرق جُملةٌ، منهم أبو عبدالله الَحمَدانى بن إسماعيل بن أبى صيف ، وأبو الحسن الُحوَيكر نزيل مكة ؛ وتأدّى إليه أذنُ طائفة من البَغْداديين والعراقيين له فى الرواية ، منهم ظَفَر بن محمد ، وعبد الرحمن بن المبارك ، وعلى بن محمد اليزيدى ، وفَنَاخُسرو فَيْروز بن سعد ، وابن سَنِيّة ، والمحمد بن نصر ، والصّيْدلانى ، وابن تِيميّة ، وابن عبد الرحمن الفارسى ، وابن الفضل المؤذّن ، وابن عمر بن الفَخّار ، ومسعود بن محمد بن حسان المنيغى ، ومنصور بن عبد المنعم الصاعدى ، وابن هَوَازِن القُشيْرى ، وأبو الحسن النّيسابُورى .

وحجّ سنة اثنى عشر وستمائة ، فأدّى الفريضة ثلاث عشر ، ولُقِّب بالمشرق

---

(١) وردت فى « ك » ، متقدرا . وفى « ج » متقدماً وهو تحريف .

(٢) وردت فى المخطوطين : بحدته .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » مخيرا . وهو أيضاً تحريف .

بحب الدِّين . وأقام فى رحلته نحو ثلاثة أعوام ، لقى فيها من الأعلام العلماء ، أكابر جُملة ؛ فمنهم بِبجاية أبو الحسن بن نصر ، وأبو محمد بن مكِّى ؛ و بتونس أبو محمد المُرْجانى؛و بالأسكندرية أبو الإصبع بن عبد العزيز ، وأبو الحسن بن جُبَير الأندلسى، وأبو الفضل بن جعفر بن أبى الحسن بن أبى البركات،وأبو محمد عبدالكريم الربعى (١) ، وأبو محمد العثماني أجاز له ولم يَلْقه ؛ و بمصر أبو محمد بن سُحْنون الغُمارى ولم يلقه ، وأبو الميمون بن هِبَة الله القرشى ؛ و بمكة أبو على الحسن بن محمد بن الحسين ، وأبو الفتوح نصر بن أبى الفرج المصرى ؛ و ببغداد أحمد بن أبى السعادات ، وأحمد ابن أبى بكر ، وابن أبى خَطْ طلحة ، وأبو نصر القرشى ، وإبراهيم بن أبى ياسر القطيعى، ورَسْلان المَسْدى ، والأسعد بن فقارقا (٢) ، و إسماعيل بن باركش الجوهرى ، و إسماعيل بن أبى البركات .

و بَرْنامج مَرْوِيَّاته وأشياخِه ، مشتملٌ على مئين عديدة ، مرتبة أسماؤهم على البلاد العراقية وغيرها؛ لو تتبعتها ، لاستَبْعدتُ الأوراق ، وخرجت عما قصدت .

قال القاضى أبو عبد الله المراكشى بعد الإتيــان على ذلك ؛ مُنْتَهى الثِقاة أبو العباس النباتى ، من التَّقْييد الذى قيّد ، وعلى ما ذكره فى فهارس له مُنوّعة ، بين بسط ، وتوسُّط ، واقتضاب؛ وقَفْت منها بخطِّه ، و بخط بعض أصحابه ، والآخذين عنه .

من أخذ عنه

حدث ببغداد (٣) ، برواية واسعة ، فأخذ عنه بها أبو عبد الله بن سعيد اللَوْشى ؛ و بمصر الحافظ أبو بكر بن مقط ؛ و بغيرها من البلاد أُمّة . وقَفَل برواية واسعة ، وجلب كتباً غريبة (٤) .

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الريعى .

(٢) هكذا وردت فى « ج » ، وفى « ك » نفافا .

(٣) وردت فى المخطوطين : حديث بغداد . وهو تحريف .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : عربية وهو تحريف ، لأن الكتب عربية بطبيعتها .

تصانيفُه

له فيما ينتحله من هذين الفَنَّين تصانيفُ مفيدة(١)،وتنبيهات نافعة ، واستدراكات نبيلة بديعة ؛ منها فى الحديث ، « رَحّالة المعَلِّم بزوائد البُخارى على مُسلم » ؛ واختصار غريب حديث مالك للدّارَقُطْنى؛ و «نَظْم الدّرارى فيما تفرد بهمُسلم عن البُخارى» ؛ و « توهين طرق حديث الأربعين »(٢) ؛ و « حُكم الدُّعاء فى إدبار الصّلوات » ؛ و « كيفية الأذان يوم الجمعة » ؛ واختصار الكامل فى الضُّعفا والمتكبّرين لأبى أحمد ابن على ؛ و « الحافل فى تذييل الكامل » ؛ و « أخبار محمد بن إسحاق » .

ومنها فى النبات ، « شرح حشائش دياسْقُورِيدوس وأدوية جالينوس »(٣) ؛ والتنبيه على أوهام ترجمتها ؛ والتنبيــه على أغلاط(٤) الغافقى ؛ والرِّحلة النّباتية [والمسْتَدْرَكه](٥) ، وهو الغريب الذى اختصَّ به ، إلا أنه عَدِم عَيْنَه بعده ، وكان معجزة فى فنِّه ؛ إلى غير ذلك من المُصَنَّفات الجامعــة ، والمقالات المفيدة المفردة ، والتعاليق المُنَوعة .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » مفيدات . والمعنى واحد .

(٢) ورد اسم هذا الكتاب فى « ك » هكذا : « توهين حديث طرق الأربعين » .

(٣) دياسقوريدوس ، أو دياسقوريدس Dioscorides ، طبيب وكيمائى يونانى عاش فى القرن الأول للميلاد واشتهر بكتابه عن « الأعشاب العلاجية » . وقد عرفه المسلمون منذ عصر مبكر ، وأهدى الإمبراطور قسطنطين السابع قيصر بيزنطية نسخةمنه إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وترجمت إلى العربية منذ أوائل القرن الرابع الهجرى . وعليها وضع ابن الرومية شرحه .وأما جالينوس Galen ،فهو من أطباء اليونان القديمة ، عاش فى القرن الثانى للميلاد ، واشتهر ببراعته فى الطب وتركيب الأدوية ،وعرف العرب كتبه الطبية وعربوها .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » اختلاط . والأولى أرجح .

(٥) مكان هذه الكلمة بياض فى المخطوطين .

مناقبُه

قال ابن عبد الملك وابن الزُّبير ، وغيرهما ؛ عُنى تلميذه ، الآخذ به ، النـاقد ، المحدِّث ، أبو محمد بن الجزيرى[1] ، واهتم بجمع أخباره ، ونَشْر مآثره ، وضَمَّن ذلك مجموعاً حفيلاً نبيلاً .

شعره

ذكره أبو الحسن بن سعيد فى « القِدْح المعلَّى » ، وقال : جوَّالٌ بالبلاد المشرقية والمغربية ، جالسْتُهُ بإِشبيليّة بعد عودته من رحلته ، فرأيته متعلِّقاً بالأدب ، مرتاحاً إليه ارتياح البُحْترى لحلَبْ ؛ وكان غير متظاهر بقول الشِّعر ، إلا أن أصحابه يسمعون منه ، ويروون عنـه ، وحملتُ عليه فى بعض الأوقات ، فقيَّدت عنه هذه الأبيات :

خيمٌ تَخَلَّق بين الـكأس والوَتَر ... فى جنَّة هى ملءُ السمع والبصر
ومتِّع الطّرْف فى مَرْآى محاسنها ... برَوْض فـكرك بين الروض والزّهر
وانظر إلى ذَهَبيّات الأصيل بها ... واسْمع إلى نَغمات الطَّير فى السَّحَر
وقل لِمَن لامَ فى لذّاته بَشَرًا ... دَعْنى فإِنّك عندى من سِوَى البَشَر

قال ، وكثيراً ما يُطنب على دمشق ، ويصف محاسنها ، فما انفصل عنى إلا وقد امتلأ خاطرى من شكلها[2] ؛ فأتمـنَّى أن أحُلَّ مواطنها ، إلى أن أبلُغ الأمل قبل المَنُون .

ولو أنى نظرتُ بألفِ عَيْنٍ ... لما اسْتَوْفَتْ محاسـنها العُيون

---

(١) وردت فى « ج » الحرار . وفى « ك » الحوار ، وكلاهما تحريف حسبما يتبين من السياق بعد عند ذكر تلاميذه .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ثكلها وهو تحريف ظاهر .

دخوله غَرْناطة

دخلها غيرَ ما مرّة لسماع الحديث ، وتحقيق النبات ؛ ونَقَر عن عيون النبات بجبالها ، أحد خزاين الأدوية ، ومظان[١] الفوايد الغريبة ، يجرى ذلك فى تواليفه بما لا يفتقر إلى شاهد .

مولده

فى محرم سنة إحدى وستين وخمسمائة .

وفاته

توفى بإشْبيلية عند مغيب الشفق من ليلة الاثنين مستهل ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وستمائة . وكان مما رُثى ؛ قال ابن الزُبير ، ورثاه جماعة من تلامذته كأبى محمد الجزيرى ، وأبى أمية اسماعيل بن عُفير ، وأبى الأصبغ عبد العزيز الكَبْتُورى[٢] وأبى بكر محمد بن محمد بن جابر السقطى ، وأبى العباس بن سليمان ؛ ذكر جميعهم الجزيرى المذكور فى كتاب ألّفه فى فضايل الشيخ أبى العباس ، رحمه الله .

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين مضان . مصان .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين . والكبتورى نسبة إلى كبتور أو قبتور ، من قرى مدينة إشبيلية.

أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خَلَف بن سعيد بن خلف ابن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان ابن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمّار بن ياسِر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

أوَّليته

بيتُ بنى سعيد العَنْسى ، بيتٌ مشهور فى الأندلس بقلعة يَحْصِب[١] ، نزلها[٢] جدهم الأعلى[٣] ، عبد الله بن سعيد بن عمّار بن ياسِر ؛ وكان له حُظْوة لمكانه من اليمانيّة بقرطبة ؛ وداره بقرب قنطرتها ، كانت معروفة ؛ وهو بيت القيادة والوزارة ، والقضاء ، والكتابة ، والعمل . وفيما يأتى ، وما مرّ كفاية من التنبيه عليه .

حاله

قال الملّاحى[٤] ، كان من جِلّة الطلبة ، ونبهائهم ؛ وله حظ[٥] بارع من الأدب ، وكتابة مفيدة ، وشعرُه مُدوّن . قال أبو الحسن بن سعيد فى كتابه المسمى « بالطالع »[٦] نشأ محبًّا فى الأدب ، حافظاً للشعر ، وذاكراً لنظْم الشريف

---

(١) قلعة يحصب أو قلعة بنى يحصب أو قلعة يعقوب أو قلعة بنى سعيد هى اليوم بلدة Alcalà la Real الإسبانية . وقد سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١٧) .

(٢) وردت فى المخطوطين : نزلهم .

(٣) وردت فى « ك » . وأغفلت فى « ج » .؟

(٤) سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص ٩٣) .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » خط . وهو تحريف .

(٦) هو كتاب « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » .

الرّضى، ومِهْيار ، وابن خفاجة ، وابن الدقّاق[(١)] ، فرَقّت طباعه ، وكثُر اختراعه وإبداعه ؛ ونشأت معه حَفْصة بنت الحاج الرّكونى[(٢)] ، أديبة زمانها ، وشاعرة أوانها ، فاشتدّ بها غرامه ، وطال حبُّه وهيامه ؛ وكانت بينهما منادمات ومغازلات أرْبَت على ما كان بين عَلْوَة وأبى عُبادة ؛ يمر من ذلك إلمام فى شعر حَفْصة إن شاء الله .

نباهتُه وحُظوتُه

ولما وفدت[(٣)] الأندلس ، على صاحب أمر المُوحِّدين فى ذلك الأوان ، وهو مُحْتَلٌّ بجبل الفتح[(٤)] ، واحتفل شعراؤها فى القصائد ، وخطباؤها فى الخُطَب بين يديه[(٥)] ، كان فى وفدِ غَرناطة ، أبو جعفر هذا المترجم به ، وهو حَدَثُ السن فى جُمْلة أبيه وإخوته وقومه ، فدخل معهم على الخليفة ، وأنشده قصيدة ؛ قال أبو الحسن بن سعيد ، كتبت منها من خط والده قوله :

تكلّم فقد أصْغَى إلى قولك الدهرُ ... وما لسواك اليوم نَهْىٌ ولا أمْرُ
ورُمْ كلّ ما قد شِئْتَه فهو كائنٌ ... وحاوِلْ فلا بَرٌّ يفُوت ولا بَحْرُ
وحَسْبُك هذا البحْرُ فألاً فإنه ... يُقبّلُ تُرْباً داسه جيشُك الغَمْرُ
وما صوتُه إلّا سلامٌ مُردَّدٌ ... عليك وعن بِشْرٍ بقُرْبك يَفْتَرُّ

(١) رسمت فى « ج » ابن الزقاق .

(٢) ورد اسمها محرفة فى المخطوطين : حفصة بنت الحجاج . وسوف يترجم لها ابن الخطيب فيما بعد .

(٣) وردت فى المخطوطين : وفد ، والتصويب يقتضيه السياق .

(٤) الحادث الذى تشير إليه هذه العبارة هو قدوم وفود الأندلس على خليفة الموحدين عبد المؤمن ابن على وهو مقيم بجبل طارق وذلك فى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) . وقد ألقى بين يديه الشعراء والخطباء بهذه المناسبة قصائدهم وخطبهم مرحبين منوهين بعظمة عهده (راجع الحلل الموشية ص ١١٧ ، والاستقصاء للسلاوى ج ١ ص ١٦٣ ، وتاريخ المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان ج ٢ ص ٦٠) .

(٥) وردت فى المخطوطين : يده .

بجيش لكى يَلْقى أمامك مَنْ غدا　　يُعـانِد أمراً لا يقُوم له أَمْرُ
أطَلَّ على أرض الجَزِيرة سَعْدُها　　وجدَّد فيها ذلك الخَبَر الخُبْرُ
فمـا طارقٌ إلا لذلك مُطرِقٌ　　ولابن نُصَيْر لم يكنْ ذلك النّصْرُ
هما مَهّداها كى تحُـلّ بأرضها　　كما حَلّ عند التمِّ بالهـالة البَدْرُ

قال : فلما أتمّها أثنى عليه الخليفة كل مُيَسَّر ، وقال لعبد الملك أبيه : أيهما خيرٌ عندك فى ابنيك ؛ فقال يا سيّدنا : محمدٌ دخل إليكم مع أبطال الأندلس وقوادها ، وهذا مع الشِعر ، فانظروا ما يجب أن يكون مُيَسّراً[١] عندى ؛ فقال الخليفة : كلٌّ مُيَسِّرٌ لما خُلق ، و إذا كان الإنسان متقدّماً فى صناعة فلا يُؤْسف عليه ، إنما يُؤْسف على متأخِّر القَدْر ، محروم الحظ . ثم أنشد فحول الشعراء والأكابر ابنَ أبى مروان . ثم لما ولِى غَرناطة ولدُه السيد أبو سعيد ، استوْزَر أبا جعفر المذكور ، واتصلت حظوته[٢] إلى أن كان ما يذكر من نكبته .

محنته

قال قريبُه وغيره : فَسَد ما بينه و بين السيد أبى سعيد لأجل حَفْصة الشاعرة ، إذ كانت محلّ هواه[٣] ، ثم اتصلت بالسيِّد ، وكان له بها [كَلَف][٤] ، فكان كل منهما على مثل الرَّضْف للآخر[٥] ؛ ووجد حُسّاده السبيل ، إلى إغراء السيد به ، فكان مما نُمى به عنه ، أن قال لحفصة يوماً : وما هذا الغرام الشديد به ، يعنى السيد ،

---

(١) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » خيراً .
(٢) وردت فى المخطوطين : حضرته . والتصويب أرجح وأصلح للسياق .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » هداه . والأولى أرجح .
(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، ويقتضى إثباتها السياق .
(٥) الرضف هو الحجارة المحماة ، ومعناه أن كلا منهما كان شديد الحقد على الآخر .

وكان شديد الأُدْمة[١] ، وأنا أقدر أن أشترى لك من الغرض أسْوداً خيراً منه بعشرين ديناراً ؛ فجعل السيد يتوسّد له المهالك ، وأبو جعفر يتحفّظ كل التحفظ . وفى حالته تلك يقول :

مَنْ يشترى منى الحياة وطيبها ووَزارتى وتأدُّبى وتهـذُّبى
بمَحلٍّ راعٍ فى ذُرًى مَـلْمُومة زُوِيت عن الدنيا بأقصى مَرْتَب
لا حُكْمَ يأخذُه بها إلا لِمَن يعْفُو ويرؤُف دائماً بالمُذْنب
فلقد سَئِمْتُ من الحياة مع امرئ مُتغَضِّب[٢] متغلِّبٍ مترتِّبِ
الموتُ يلحظُنى إذا لاحظْتُه ويقُوم فى فكرى أوان تَجَنُّبى
لا أهتدى مع طول ما حاولته لرضاه فى الدنيا ولا لِلْمَهْرَب

وأخذ فى أمره مع أبيه وأخوته ، وفتنة ابن مَرْدِنيش[٣] مضطّربة ؛ فقال له أخوه محمد وأبوه ، إن حرّكْنا حركة كُنا سبباً لهلاك هذا البيت ، ما بقيت دولة هؤلاء القوم ، والصبر عاقبته حميدة ، وقد كنا نهاك عن المُماوَجَة[٤] ، فلم ترْكب إلا هواك ؛ وأخذ مع أخيه عبد الرحمن ، واتفقا على أن يثورا فى القلعة باسم ابن مَرْدِنيش ، وساعدهما قريبهما على ذلك حاتم بن حاتم بن سعيد ، وخاطبوا ابن مردنيش ، وصدر لهم جوابه بالمبادرة ، ووصلت منه خيلٌ ضاربةٌ ، وتهيأ لدخول القلعة ؛ وتهيأ الحصول فى القلعة ، وخافوا من ظهور الأمر ؛ فبادر حاتم وعبد الرحمن إلى القلعة ، وتم لهما المراد ؛ وأخّر

---

(١) أى شديد السمرة . والأدم هو الجلد المدبوغ .

(٢) وردت فى المخطوطين : مغضب . وبالتصويب يستقيم الوزن والسياق .

(٣) يشير ابن الخطيب هنا إلى قيام ابن مردنيش ، وهو محمد بن سعد من زعماء شرقى الأندلس ، فى أواسط القرن السادس الهجرى ، وتملكه بلنسية ومرسية وثورته على الموحدين ، ومحاربته إياهم . وقد توفى ابن مردنيش سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) . ويترجم له ابن الخطيب فى الإحاطة فيما بعد (راجع فى ذلك الحلة السيراء ص ٢٢٠ و ٢٣٠ . والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠ . وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ و ٢٤٠) .

(٤) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » : المعارجة .

الجبنُ أبا جعفر ففاتاه ، وتوقّع الطلب فى الطريق إلى القلعة ، فصار مُتخفِّيا إلى مالقَة ، ليركب منها البحر إلى جهة ابن مردنيش ؛ ووضع السيِّد عليه العيون فى كل جهة ؛ فقُبض عليه بمالقة ، وطولع بأمره فأمر بقتله صبراً ، رحمه الله .

جزالتُه وصبره

قال أبو الحسن بن سعيد ؛ حدثنى الحسين بن دُوَيرة ، قال: كنت بمالقة لما قبض على أبى جعفر ، وتوصّلت إلى الاجتماع به ، ريثما استُؤذن السيد فى أمره حين حُبس ، فدَمَعَت عينى لما رأيته مَكْبولا ؛ قال : أعلىّ تبكى بعد ما بلغتُ من الدنيا أطايب لذاتها ، فأكلتُ صدور الدجاج ، وشربت فى الزُجاج ، وركبت كل هِمْلاج[1] ، ونمت في الديباج ، وتمتّعت بالسّرارى والأزواج ، واستعملت من الشمع ، السِّراج الوهّاج ؛ وهأنا في يد الحجّاج ، منتظراً محنة الحلّاج[2] ؛ قادمٌ على غافرٍ ، لا يُحْوج إلى اعتذار ولا احتجاج . فقلت : ألا أبكى على من ينطق بمثل هذا ؛ ثم تُفُقِّد ، فقمت عنه ، فما رأيته إلا مصلوباً ، رحمه الله .

شعره

أتانى كتابٌ منك يحسده الدهر[3] ... أمّا حِبْرُه ليل ، أما طِرْسُه فَجْرُ

به جمع الله الأمانىّ لناظرى ... وسَمْعى وفِكرى فهو سِحْرٌ ولا سِحْرُ

---

(١) الهملاج هو الدابة الأصيلة الحسنة السير .

(٢) هو أبو مغيث الحسين بن منصور المعروف بالحلاج ، وهو فارسى من أصل مجوسى ، اشتغل بعلوم الدين ، واشتهر بالتنسك والزهد .وكانت له آراء فى الدين عدها فقهاء عصره مروقاً وإلحاداً ، وقبض عليه بأمر الخليفة المقتدر ، ثم ضرب ألف سوط ، وأعدم بطريقة بشعة إذ قطعت أطرافه ، ثم قطع رأسه ، وأحرقت جثته أمام جمهور كبير من أهل بغداد ،وذلك فى ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ (٩٢٢ م) (ترجمته فى ابن خلكان ج ١ ص ١٨٣) .

(٣) هذا فى « ك » ، وفى « ج » الزهر .

ولا غَرْوَ إن أبدى العجايب ربُّه   وفي ثوبه بِرٌّ ، وفى كفِّه بَحْرُ
ولا عجبَ إن أينَع الزهرُ طيّـه   فما زال صوبُ القَطْرِ يبدو به الزَهْرُ

ومن شعره ما يَجْرى مَجْرى المُرْقص ، وقد حضر مع الرُّصافي والكُنْتَدى [ومعهم مغن برُوطَة][1] .

لله يومُ مَسَرَّةٍ   أضْوَى وأقْصرُ من ذُبَاله
لمـا نَصَبْنا للمُـنى   فيه من أوْتارٍ حِباله
ظل النهار بها كمُرْ   تاعٍ ، وأجْفَلَتْ الغزاله

وشعره مُدوّن كما قلنا ، وهذا القدر عنوانٌ على نُبْله .

غريبةٌ فى أمره مع حفصة

قال حاتم بن سعيد ؛ وكان قد أجرى الله على لسانه ، إذا حرّكت الكأس بها غرامه ، أن يقول ، والله لا يقْتُلنى أحدٌ سواك ؛ وكان يعنى بالحُب ، والقدَرُ مُوكل بالمَنْطق ، قد فرغ من قتله بغيره من أجلها . قال ؛ ولما بلغ حفصة قتلهُ ، لبِست الحِداد ، وجهرت بالحزن ، فتوُعِّدت بالقتل ، فقالت فى ذلك :

هدَّدونى من أجل لِبْس الحِداد   لحبيبٍ أرْدُوه لى بالحِداد .
رحم الله من يجـودُ بدمعٍ   أو يَنُوح على قتيلِ الأعاد
وسقتْه بمثـل جُود يديه   حيث أضْحَى من البلاد الغَواد

ولم يُنتفع بعدُ بها ثم لحِقت به بعد قليل .

وفاته

توفى على حسب ما ذُ كر ، فى جمادى الأولى من سنة تسعة وخمسين وخمسمائة .

---

[1] ما بين الحاصرتين وارد فى « ج » ، وساقط فى « ك » . وروطة من قرى غرناطة .

أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد بن أحمد القرشى
المعروف بابن فَرْكون

يكنى أبا جعفر .

أوَّليتُــــه

قد مرّ ذلك فى اسم جَدِّه قاضى الجماعة(١) ، وسيأتى فى اسم والده .

حــــاله

شعلة من شعل الذّكاء والإدراك ، ومجموع خلال حميدة ، على الحداثة ، طالب نبيل ، مدرك ، نجيب ، بَذّ أقرانه كفاية ، وسما إلى المراتب ، فقرأ ، وأَعْرب ، وتمر(٢) ، وتدرّب ، واستجاز له والدُه شيوخ بلده ، فمن دونهم ، ونظم الشعر ، وقيّد كثيراً ، وسبق أهل زمانه فى حسن الخط ، سبقا أفرده بالغاية القصوى ؛ فيراعه اليوم ، المشار إليه ، باللُطْف(٣) والإتقان ، والحوَا ، والإسراح ؛ اقتضى ذلك كله ارتقاؤه إلى الكتابة السلطانية ، ومزية الشفوف بها ، بالخلع والاستعمال ؛ واختصّ بى ، وتأدّب بما انفرد به من أشياخ تواليفى ، فآثرتُه بفوائد جمّة ، و بَطَن(٤) حوضه من تحَلُّبِه ، وترشّح إلى الاستيلاء على الغاية .

---

(١) وردت ترجمة أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشى فى ص ١٥٩

(٢) هكذا فى المخطوطين . والمقصود بها أثمر .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : فى « ج » بالطرف ، وفى « ك » بالطنف .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ونطق .

شعره

أُنشد له بين يدى السلطان فى الميلاد[١] الكريم :

حىِّ المعاهد بالكَثيب وجادَها غيثٌ يروى حيَّها وجمادها

مولده

فى ربيع الآخر من عام سبع وأربعين وسبعمائة .

أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صَفْوان

من أهل مالَقَة ؛ يُكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن صفوان .

حاله

بقيَّة الأعلامِ ، أديب[٢] هذا القطر ، وصدرٌ من صدور كتّابه ، ومشيخة طلبته ، ناظمٌ ، ناثر ، عارف ، ثاقب الذهن ، قوىّ الإدراك ، أصيل النظر ، إمام الفرايض والحساب والأدب والتّوْثيق ، ذاكرٌ للتاريخ واللغة ، مشارك فى الفلسفة والتصوُّف ، كلِفٌ بالعلوم[٣] الإلَهية ، آية الله فى فكِّ المعمَّى ، لا يجاريه فى ذلك أحد ممن تقدّمه ، شأنه عجبٌ ، يفُكُّ من المُعمّيات[٤] والمُسْتَنْبَطات ، مفصولاً وغير مفصول ؛ شديد التعصُّب لذى وُدِّه ، وبالعكس ، تام الرُّجولة ، قليل التهيب ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : البلاد ، وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » أدب .

(٣) وردت فى المخطوطين : بالعموم ، وهو تحريف ظاهر .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : المعايات .

مُقتحم حِمَى أهلِ الجاه والحمد والمضايقة ، إذا دعاه لذلك داع ، حَبْل[1] نقده على غاربه ، راضٍ بالخُمول ، مُتبلِّغٌ بما تيسّر ، كثير الدروب والنظر ، والتقييد والتصنيف ، على كلال الجوارح ، وعائق الـكَـبْرة[2] ، متقارب بمَضَى الشعر والـكتابة ، مجيد فيهما ، ولنظمه شُفوف على نثره .

مشيخته

قرأ على الأستاذ [أبى محمد][3] الباهِلى ، أستاذ الجُمْلة من أهل بلده ، ومولى النعمة عليهم ، لازمه وانتفع به ؛ ورحل إلى العُدْوة ، فلقى جُمْلة ، كالقاضى المؤرخ أبى عبد الله بن عبد الملك ، والأستاذ التعالمى أبى العباس بن البنّا ، وقرأ عليهم بمرّاكُش .

نباهتـــــه

استدعاه السلطان ، ثانى الملوك من بنى نصر[4] إلى الـكتابة عنه ، مع الجِلّة[5] ، ببابه ، وقد نما عُشُّه ، وعلا كعبه ، واشتهر ذكاؤه وإدراكه . ثم جَنَح إلى العودة[6] لبلده . ولما ولى المُلْك ، السلطان أبو اليد ، ودعاه إلى نفسه ، ببلده مالَقَة ، استَـكْتبه رئيساً مستحقاً ، إذ لم يكن ببلده . فأقام به ، واقتصر على كَتْب الشروط ، معروف

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين : حل .

(٢) الكبرة أى تقدم السن .

(٣) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٤) هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر الملقب بالفقيه . حكم من سنة ٦٧١ هـ - ٧٠١ هـ (١٢٧٢ - ١٣٠٢ م) .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » الجملة .

(٦) وردت فى المخطوطين : العدوة ، وهى هنا تحريف .

القدر ، بمكان من القضاة ورعيهم ، صدراً فى مجالس الشورى ؛ و إلى الآن يجعل إلى زيارة غرناطة ، حظاً من فصول بعض السنين ، فيَنْصِب[١] بها العدالة ، ثم يعود إلى بلده فى الفصل الذى لا يصلح لذلك . وهو الآن بقيد الحياة ، قد علَقته أشراك[٢] الهَرَم ، وفيه بعدُ مُستمتعٌ ، بديع ، كبير .

تصانيفه

من تواليفه ، « مطلع الأنوار الإلـهية » ؛ « و بُغْية المستفيد » ؛ وشرح كتاب القُرشى فى الفرايض ، لا نظير له . وأما تقاييده على أقوال يعترضها ، وموضوعات ينتقدها ، فكثيرة .

شعـره

قال فى غرَض[٣] التَّصَوُّف ، و بلغنى أنه نظمها بإشارة من الخطيب ، ولى الله ، أبى عبد الله الطّنْجالى ، كَلِفَ بها القوّالون ، والمسمِّعون بين يديه :

بان الحميمُ فما الحِمَى والبانُ ... بشفاء مَنْ عنه الأحِبّة بانُوا
لم ينقُضُوا عهداً ببينهم ولا ... أنساهم ميثاقَك الحِدْثانُ
لكن جَنَحتَ لغيرهم فأزالهم ... عن أُنْسِهم بك مُوحِشٌ غَيْران
لو صحّ حُبُّك ما فقدْتَهم ولا ... سارَتْ بهم عن حُبِّك الأظعان
تشتاقُهم ، وحَشاك هالة بَدْرهم ... والسِرُّ منك لِخلِّهم ميدان
ما هكذا أحوالُ أرباب الهوى ... نَسَخ الغرامَ بِقلبك السِلْوانُ

---

(١) وردت فى المخطوطين : فتنصب . والتصويب أصلح للسياق .

(٢) فى المخطوطين : اشتراك وهو تحريف .

(٣) وردت فى المخطوطين : عرض .

لا يشتكى ألم البُعاد مُتيَّمٌ ... أحبابه فى قَلْبه(١) سُكّان
ما عندهم إلا الكمال وإنما ... غَطّى على مِرآتك النُّقْصان
شَغَلَتْك بالأغيار عنهم مُقلةٌ ... إنْسانُها عن لَمْحِهم وسْنان
غَمِّضْ جُفُونَك عن سواهم مُعْرِضاً ... إنّ الصوارم حَجْبُها الأَجْفان
واصرِفْ إليهم لحظَ فِكْرِك شاخِصاً ... تَرَهُم بقلبك حيث كنت وكانوا
ما بانَ عن مَغناك من ألطافه ... يَهمى عليها سحابُك الهَتّان
وجياد أنْعُمِه ببابك ترتمى ... تَسْرِى إليك بِرَكْبِها الأكوان
جعلوا دليلاً فيك مِنْك عليهم ... فبدا على تَقْصِيرك البُرْهان
يا لامحاً سِرَّ الوُجود بعَيْنِه ... السِّرُّ فيك بأَسْرِه والشّانُ
ارجِع لذاتِك إن أرَدْت تنزُّهاً ... فيها لعَيْنَى ذى الحجا بُستانُ
هى رَوْضَةٌ مطْلُولةٌ بل جَنَّةٌ ... فيها المُنَى والرّوحُ والرَّيحانُ
كم حِكْمَة صارت تلُوح لناظرٍ ... حارَتْ لباهر صُنْعها الأذهانُ
حُجِبتْ بشمسك(٢) عن عيانك شَمْسُها ... شمسٌ محاسنُ ذِكرها التِّبيان
لولاك ما خَفِيَت عليك إياتُها(٣) ... والجوُّ من أنوارها مَلْآن
أنت الحِجابُ لما تُؤَمِّل منهم ... فَفَناؤك الأقْصى لهُم وُجدان
فاخرُج إليهم عنك مُفْتَقِراً لهم ... إن المُلُوك بالافتِقَار تُدان
واخضع لِعِزِّهم ولِذُلِّهم يَلُح ... منهم عليك تَعطُّفٌ وحَنان
هُمْ رشَّحوك إلى الوصول إليهم ... وهُمُ على طَلَبِ الوِصال عوان

(١) وردت فى المخطوطين : بقلبه . وبالتصويب يستقيم الوزن .

(٢) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » : بشخصك .

(٣) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » أيتها .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ل » . لذبهم وهو تحريف .

عَطَفُوا جمَالَهم على أجْمَالهم ... فحُلَى المشوقِ الُحسْن والإحسان
يا مُلبسين عَبيدَهم[(١)] حُلَلَ الضّنا ... جسمى بمـا تكسُونه يَزْدان
لا سُخْط[(٢)] عندى للذى تَرضونه ... قلبى بذلك فارح[(٣)] جذلان
فبِقُربكم عينُ الغِنا وببعدكم ... محضُ الفنا ومحبُّكم ولْهان
إنى كتَمْتُ عن الأنام هواكم ... حتى دُهيتُ وخاننى الكتمان
وَوَشَتْ بحالى [عند ذاك][(٤)] مدامعٌ ... أدنى مواقع قَطْرِها طوفانُ
وبَدَتْ علىّ شمايلٌ عُذْرِيّةٌ ... تَقْضى بأنى فِيكمُ هَيمانُ
فإذا نَطَقْتُ فذكرُكُم لِيَ منطقٌ ... ما عن سواكُمْ لِلّسان بيانُ
وإذا صَمَتُّ فأنتمُ سِرِّى الذى ... بَيْنَ الجوَانِح فى الفُؤاد يُصانُ
فبِباطِنى وبظاهرى لكُمُ هَوًى ... من جُنْده الإسْرَارُ والإعْلانُ
وجَوَانحى وجميع أنفاسى وما ... أحْوى عَلىَّ لُحبِّكُم أعوان
وإليكمُ منى المفرُّ فقَصْدُكُم ... حَرَمٌ به للخـائفين أَمَان

وقال يذُمُّ الدنيا ويمدح[(٥)] عُقْبى من يُقلل منها :

حديث الأمانى[(٦)] فى الحياة شجون ... إن ارضاكَ شأنٌ أحْفَظَتْكَ شئُون
يميلُ إليهـا جاهلٌ بغرُورها ... فمِنْه اشتياقٌ نحوها وأنينُ
وذو الحزْم يَنبو عن حِجاه محالها ... يقيه إذا شَكٌّ عَراه يَقِينُ
إليك صريعَ الأمْن سَنْحة ناصح ... على نُصْحِه سيما الشَّفيق[(٧)] تَبِينُ

---

(١) وردت فى المخطوطين : عميدهم .
(٢) وردت فى المخطوطين : سخطى .
(٣) فى المخطوطين : فرح .
(٤) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى « ت » .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ويحمد .
(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، الجمان .
(٧) هكذا وردت فى « ك » . ووردت محرفة فى « ح » : السفين .

تجافَ عن الدُّنيا ودِنْ باطِّراحها   فمَرْكبُها بالمُطْمعين(١) حَرُون
وترفيعُها خَفْضٌ وتَنْعِيمها أذًى   ومَنْهَلُها للواردين أُجُون
إذا عاهَدَتْ خانت و إن هي أقْسمت   فلا ترْجُ برًّا باليَمِين يَمِينُ
يروقُك منها مَطمَعٌ من وفائها   وسَرعان ما إثْرَ الوفاء تَخُون
وتَمْنَحُك الإقْبال كفَّة حابلٍ   ومِنْ مَكْرِها فى طَيٍّ ذاك كَمِينُ
سقاهُ لعَمْر الله إمحاضَك الهوى   لمَن أنْتَ بالبَغْضاء فيه قَمِينُ
ومن تَصْطَفيه وهو يُقْطِعُك القِلاَ   وتُهدى له الإعْزازَ وهو يُهينُ
ألا إنّها الدنيا فلا تَغْتَرِر(٢) بها   ولُودُ الدَّواهى بالخداع تَدين
يَعُمُّ رَدَاها الغِرَّ والِخبّ ذا الدّها   ويُلْحَقُ فيها بالكِناسِ عَرِينُ
وتَشْمَلُ بَلْواها نبيلًا وخاملًا   ويَلْقَى مُذَلٌّ(٣) غدرَها ومَصُونُ
أبِنْها لحاها الله كم فِتْنَةٍ لها   تُعلِّمُ صُمَّ الصَّخر كيف يَلينُ
فلا مَلِكٌ سَامٍ(٤) أقالت عِثاره   ولو أنه لِلْفَرقَدَين خَدِين
[ولا معهد إلَّا وقد نَبهَت به   بُعيدَ الكرى للثَّاكلات جُفُون
أبيتُ لنفسى أن يُدَنِّسها الكَرَى   سكونٌ إليها مو بقٌ ورُكُون](٥)
فليس قَرِير العَيْنِ فيها سوى امرئٍ   قَلَاه لها رأى يراه ودِينُ
أبيتَ طَلَاقَ الحِرْص فالزُّهد دائبًا   خليلٌ له مُسْتَصْحَبٌ وقرينُ
إذا أقبلَتْ لم يُولِها بشرَ شيِّقٍ   ولا خَفّ لِلإقبال منه رَزِينُ

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » بالممطعين .
(٢) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » تفتر .
(٣) فى المخطوطين : مذال .
(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » سمى .
(٥) هذان البيتان أدمجا فى « ك » فى بيت واحد نصه :

ولا معهد إلا . . .   سكون إليها موبق . . .

وإن أدْبَرَتْ لم يلتفت نحوها بها — وادٍ على ما لم توات حزين
خفيفُ المَطا من حَمْل أثقال هَمِّها — إذا ما شَكَتْ ثِقَل الهُمُوم مُتُون
على حفظه للفَقْر أبْهَى مَلاءةٍ — سَنى حَلْيها وسْطَ الدرارى يرين
برُحْبٍ بحال الخائفين منازلٌ — لهنّ مكانٌ حيث حَلّ مَكِينُ
منازلُ نَجْدٍ عندها وتِهامَةٌ — سوًى واستوى هندٌ لديه وَصِين(١)
يرُودُ رياضاً أين سار وورْدُه — زُلالٌ اعتاض الورودَ مَعِينُ
فهذا أثيلُ(٢) المُلْك لا مُلْكُ ثائرٍ — لأعدائه حربٌ عليه زَبُونُ
وهذا عريضُ العزِّ لا عزّ مُترفٍ — له من مَشِيداتِ القُصُور سُجُون
حوَتْ شَخْصه أوْصافها فكأنّه — وإن لم يَمُتْ فوق التُّراب دَفِينُ
فيا خابطاً عَشْواء والصُّبْح قد بدا — [إلام تُغَطّى](٣) ناظرَيك دُجُون
أفِقْ من كرَى هذا التّعامى ولا تُضع — بجهلك علق(٤) العمْر فهو ثمِين
إذا كان عُقْبى ذى جِدّة إلى بِلًى — وقُصارى ذِى الحياة مَنُون
ففيمَ التفانى والتنافُس ضِلّةً — وفيم التّلاحى والخِصامُ يَكون
إلى الله أشكوها نفُوساً عَمِيّةً — عن الرُّشْد والحقّ اليقين تَبِينُ(٥)
وأسألُه الرُّجعى(٦) إلى أمرِه الذى — بتوفيقه حَبْلُ الرّجاء متينُ
فلا خيْرَ إلا من لَدُنه وجُودُه — لتَيْسِير أسباب النّجاة ضَمِينُ

وجمعتُ ديوان شِعره أيّام مقامى بمالقة عند توجُّهى صُحبة الركبان السلطانى إلى

(١) هكذا فى «ج». وفى «ك» ومين.
(٢) وردت فى «ج»، وأغفلت فى «ك».
(٣) ما بين الحاصرتين ورد محرفاً فى المخطوطين: إلى تعنى. ثعنى.
(٤) هكذا وردت فى «ج»، وفى «ك» علو.
(٥) فى المخطوطين: يكون.
(٦) هكذا فى «ج». وفى «ك»، الرجا.

إصراخ الخَضْراء عام أربعة وأربعين وسبعمائة ؛ وقدّمت صدْرَه خطبة ، وسمّيت الجزء « بالدُّرَر[١] الفاخرة ، واللُّجَج الزاخرة » ، وطلبتُ منه أن يُجيزنى ، وولدى عبد الله ، روايةَ ذلك عنه [فكتب][٢] بخطّه الرائق بظهر المجموع ما نصه :

« الحمد لله مستحقّ الحمد ؛ أجبْتُ سؤال الفقيه ، الأجَلّ ، الأفضل ، السّرِى ، الماجد ، الأوْحَد ، الأحْفل ، [الأديب][٣] البارع؛ الطّالع فى أفقُ المعرفة والنّباهة، والرفعة المَكينة والوجاهة ، بأبْهى المَطالع ؛ المُصنِّف ، الحافظ ، العلّامَة ، الحائز فى فَنّى النظم والنثر ، وأسلوبى المكاتبة[٤] والشِّعر ، رُتْبة الرياسة ؛ الحامل لراية التقدُّم والإمامة ؛ مُحلِّى جيد[٥] العصر بتواليفه الباهرة الرواء[٦] ؛ ومُجْلى محاسن بنيه[٧] ، الرائقة على منصَّة الإشْهاد والإنْباء ؛ أبى عبد الله بن الخطيب ، وصَل الله سعادته ومَجادته ؛ وسَنَى من الخير الأوْفر ، والصُّنع الجميـــل الابْهر ، مَقْصِده وإِرادته ؛ و بلّغه فى نجله الأسْعد ، و إبنه الراقى[٨] بمحتده الفاضل ، ومنْشَئِه الأطْهر ، مَحلَّ الفرْقد ، أفضل ما يُؤمِّل ِنحْلَتَه إياه فى المَكرُمات و إفادته ؛ وأَجزْتُ له ، ولابنه عبد الله المذكور ، أبقاهما الله تعالى ، فى عزّةٍ سَنّيةِ الخلال[٩] ؛ وعافية ممتدة الأَفْياء ، وارِفَة الظّلال ؛ روايةَ جميعِ ما تقيّد فى الأوراق ، المُكْتَتَبِ على ظهر أوّل ورقة منها ، من نَظْمى و نَثْرى ؛ وما توليتُ إنشاءَه[١٠] ، واعتمدتُ بالارتحال

---

(١) وردت فى المخطوطين : الدار ، وهو تحريف .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٣) وردت فقط فى « ك » وأغفلت فى « ج » .

(٤) هكذا فى المخطوطين ، وأوردها نفح الطيب (الكتابة) .

(٥) وردت فى المخطوطين : جيل .

(٦) فى المخطوطين : الرواية ؛ والتصويب من نفح الطيب .

(٧) وردت فى المخطوطين : ومحل بنيه ، مع إغفال « محاسن » . والتصويب فى نفح الطيب .

(٨) وردت محرفة فى المخطوطين : (إلى اقر) .

(٩) هكذا فى « ج » . وفى النفح ، وفى « ك » ، الجلال .

(١٠) هكذا فى « ج » وفى النفح ، وفى « ك » أنشاده .

والرواية ، اختياره وانتقاءه، أيام عُمْرى ؛ وجميع ما لىَ من تصْنيف وتَمْهيد ، ومقطوعةٍ وقصيدةٍ ؛ وجميع ما أَحْمِله عن أشياخى رضى الله عنهم ، من العلوم ، وفُنون المنثور والمنظوم ؛ بأى وجه تأَتَّى ذلك ، وصحَّ حَمْلى له ، وثَبَتَ إسنادُه لى ؛ إجازةً تامّة ، فى ذلك كله عامّة ، على سُنَن الإجازات الشّرعية ، وشرطها المأثور عند أهل الحديث المَرْعى ؛ والله ينفعُنى وإيّاهما بالعلم وحَمْله ، ويَنْظِمُنا جميعاً فى سِلْك حِزْبه المُفْلحين وأهله ، ويُفيض علينا من أنوار بركته وفضله . قال ذلك وكَتَبه بخط يده الفانية ، العبدُ الفقير إلى الغنى به ، أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان ، ختم الله له بخير ؛ حامداً لله تعالى ، ومصلياً ومُسلماً على محمد نبيه المصطفى الكريم ، وعلى آله الطاهرين ذوى المَنْصِب العظيم ، وصحبه البررة ، أولى المنصب والأثَرة والتقديم ؛ فى سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين[1] وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

واشتمل هذا الجزء الذى أَذِن بتحمُّله عنه من شعره على جملة من المُطَوَّلات ، منها قصيدة يعارض بها الرئيس أبا علىّ بن سينا فى قصيدته الشهيرة فى النّفْس التى مطلعها : « هَبَطَت إليك من المحلّ الأَرْفع » ، أولها : « أهلا بمسراك المحب[2] الموضع » . وأول قصيدة :

لِمَعْناك فى الأَفْهام سِرٌّ مُكتَّمٌ　　　عليه نفوسُ العارفِين تَحُوم

وأول أخرى :

أَزْهَى حجابَك رؤيةُ الأَغْيار　　　فامحُ الدُّجَى بأشعَّة الأَنْوار

وأول أخرى :

ثناءُ وجودى فى هواكم هو الخُلْد　　　ومحْوُ رُسُومى حُسن ذاتى به يَبْدو

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى النفح وفى « ج » : أربعة وسبعين ، وهو تحريف واضح يناقض ما ذكره ابن الخطيب فى البداية ويناقض أحداث التاريخ .

(٢) وردت فى المخطوطين : المخب .

ومطلع أخرى :

أَلا فى الهوى بالذُّلِّ تُرعى الوسائلُ ... ودَمْعى أن أنادى مجيبٌ وسائلُ

ومطلع أخرى :

هُمُ القصدُ جادُو بالرِّضى أو تمَنَّعوا(١) ... صِلُوا اللوم فيما أوْدَعوا القَلْبَ أودَعُوا

ومن أخرى :

سَقَى زمن الرِّضا هامٍ من السُّحُب ... ولله العَوْدُ مِن أثوابه القُشُبِ

ومن أخرى :

يا فوزَ نَفْسى فى هواك هواؤها ... رقَّت معانيها وراق مناؤها

ومن أخرى :

أمّا الغـرامُ فبالفُؤاد غَرِيمُ ... هيهات مِنِّى ما العَذُول يَرُوم

ومن شعره فى المقطوعات قوله :

رَشَق العِـذارُ لُجَينَه بِنِباله ... فغدا يَدُور على المُحبِّ الوالِهِ

خَطَّ العِـذارُ بصفحَتَيْه لامَه ... خَطًّا توَعَّده بمحْو جماله

فحسِبْتُ أن جماله شمسُ الضحى ... حُسْنًا وذاك الخَطُّ خطُّ زَواله

فدَنا إلىّ تَعَجُّبًا وأجابنى ... والرّوْعُ يبدُو من خِلال مَقاله

إن الجمال آخرُه اللّامُ فَعُجْ ... عن رَسْمه واندِبْ على أطْلاله

ومن أبياته فى التَّوْرِية بالفُنُون قوله :

كففْتُ عن الوصال طويلَ شَوْقى ... إليك وأنت للرُّوح الخَليل

وكفُّك للطويل فَدَتْكَ نَفْسى ... قبيحٌ ليس يرضاه الخَليل

---

(١) وردت فى المخطوطين : (وتمنعوا) . والتصويب لازم للوزن والمعنى .

وقال فى التَّوْرية بالعَرُوض :

يا كاملًا شَوْقى إليه وافِرُ وبسيط خدِّى فى هواه عزيزُ
عاملتَ أسْبابى لديك بِقَطْعها والقَطْعُ فى الأسباب ليس يَجُوز

وقال فى التَّوْرية بالعربية :

أيا قمراً مَطالعُه جنانى وغُرَّته تُوَارى عن عيَان
أأصْرفُ فى هواكَ عن اقتراحى وسُهْدى وانتِحابى عِلَّتان

وقال أيضاً :

لا تَصْحَبَن [ياصاحبى][1] غيرَ الوَفِى كلُّ امرئٍ عُنوانه من يَصْطَفى
كم من خليلٍ بِشْرُهُ زهرُ الرُّبَى وطىُّ ذاك البِشْر حدُّ المُرْهِف
ظاهرُه يريك سَرَّ من رأى وأنت من إعراضِه فى أسَفِ

ووقعت بينه و بين قاضى بَلَده أبى عمرو بن المَنْظُور مقاطعةٌ انبرى بها إلى مطالبته بما دعاه إلى التحوُّل مضطرًا إلى غَرْناطة ، وأُخذ بكَظَمه[2] ، وطَوّقه الموت فى أثناء القطيعة ، فقال فى ذلك مُتَشَفّياً ، وهو من نَبيه كلامه ، وكلُّه نَبيه :

تَرَدّى ابنُ منظورٍ وحُمَّ حِماهُ وأسْلَمَهُ حامٌ له ونصيرُ
تبرَّأ منه أولياءُ غُرُوره ولم يَقِهِ بَأْسَ[3] المَنُون ظَهيرُ
وأودِعَ بعد الأُنْسِ مُوحِشَ بَلْقعٍ فحيَّاه فيه مُنكرٌ ونَكيرُ
ولا رِشْوَةٌ يُدلى القبولُ رشادَها فيُنْسَخَ[4] بالسّير المُريح عسيرُ
ولا شاهدٌ تُقضى له عن شهادةٍ تَخَلَّلَها إفْكٌ يُصاغُ وزُورُ

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من « ت » .

(٢) وردت فى المخطوطين : بكنفه . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى «ك». وفى « ج » (ولم يفقه بأن). والأولى أرجح للوزن والمعنى .

(٤) وردت فى المخطوطين : (فينسج) . والتصويب أرجح .

ولا خِدْعَةٌ تُجدى ولا مكرٌ نافعٌ ... ولا غِشٌّ مَطْوِىٌّ عليه ضميرُ
ولـكنه حقٌّ يَصول و باطلٌ ... يَحُولُ ومَثْوَى جَنَّةٍ وسَعِيرُ
وقالوا قَضاء الموت حَتْمٌ على الورى ... يُدِيرُ صغيرٌ كأسَه وكبيرُ
فلا تَنْتَسِم ريحَ ارتياحٍ لفَقْده ... فإنّك عن قصد السَّبيل تَحُور
فقلت بَلَى حُـكْمُ المَنِـيّة شامِلٌ ... وكلٌّ إلى ربِّ العِباد يَصِيرُ
ولـكنّ تقْديم(1) الأعادى إلى الرّدى ... نشاطٌ يعودُ القلبَ منه سرُورُ
وأمنٌ ينام المرء فى بُرْدِ ظِلّه ... ولا حَيَّةٌ للحِقْد ثَمّ تَثُور
وحَسْبِىَ بيتٌ قاله شاعِرٌ مضى ... غدا مثلاً فى العالَمين يَسِير
وإنَّ بقـاء المرء بَعْد عدُوِّه ... ولَوْ ساعةً من عُمْره لَكَثِيرُ

مـــولده

قال بعض شيوخنا ، سألتُه عن مولده فقال لى فى آخر خمسة وتسعين وستمائة ، أظن فى ذى قعدة منه الشك .

« وفاته » : بمالَقَة فى آخر جمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة .

أحمد بن أيوب اللَّمـاى(2)

من أهل مالقة ، يُـكنى أبا جعفر .

---

(١) مكانها بياض فى « ك » ، وكلمة غير واضحة فى « ج » . ورسمها قريب من التصويب

(٢) رسمت فى الذخيرة لابن بسام : « اللهائى » (الذخيرة : القسم الأول من المجلد الثانى ص ١٣٢)

حــــاله

قال صاحب الذّيْل(١) ، كان أديباً ماهراً ، وشاعراً جليلا ، وكاتباً نبيلا . كتب عن أوّل الخلفاء الهاشميين بالأندلس ، على بن حَمُّود ، ثم عن غيره من أهل بيته ؛ وتولّى تدبير أمرهم ، فحاز لذلك صيتاً شهيراً ، وجلالة عظيمة . وذكره ابن بسّام فى كتاب « الذّخيرة » ، فقال : كان أبو جَعْفر هذا فى وقته أحدَ أئِمّة الـكتّاب ، وشُهُب الأدب ، مِمّن سُـخرت له فنون البيان ، تسخير الجنّ لسليمان ، وتصرّف فى محاسن الـكلام ، تصرّف الرياح بالغمام ، طلع من ثناياه ، واقْتَعَد مَطاياه ؛ وله إنشاءات(٢) سَرِيّة ، فى الدولة الحمُّودية(٣) ، إذ كان عَلَمَ أدبائها ، والمضطّلع بأعبائها(٤) ، إلّا أنى لم أجد عند تحريرى هذه النُّسخة ، من كلامه ، إلا بعض فصول من منثور ، وهى ثِمادٌ من بُحور .

« فصل » : من رِقْعة خاطب بها أبا جعفر بن العباس . « غُصْنُ ذِكْرِك عندى ناضِرٌ ، وروضُ شُـكرك لدىّ عاطِرٌ ، وريح(٥) إخلاصى لك صَباً ، وزمان آمالى فيك صِباً ، فأنا شاربٌ ماء إخائك ، متفيِّئٌ ظِلّ(٦) وفائك ؛ جانٍ منك ثمرة فرعٍ طابَ أُكُلُه ، وأجنانى البِرَّ قديماً(٧) أصلُه ، وسقانى إكراماً بَرْقُهُ ، وروانى أفضالا وَدْقُه ؛ وأنت الطّالع فى فِجاجه ، السّالك لِمنْهاجه ، سهمٌ فى كِنانَة الفَضْل

(١) هو كتاب « الذيل والتكملة ، لكتابى الموصول والصلة » لابن عبد الملك المراكشى . وقد سبق التعريف به (راجع الحاشية فى ص ١٨٠)

(٢) هكذا وردت فى « ك » والذخيرة . ووردت محرفة فى « ج » ، (انشات) .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : فى « ج » المحمدية . وفى « ك » المحمودية .

(٤) وردت فى « ك » ، بأعيانها . وفى « ج » بأذيالها . والتصويب من الذخيرة .

(٥) وردت فى المخطوطين : وروح . والتصويب من الذخيرة .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى الذخيرة : ظل .

(٧) فى المخطوطين : قديم وهو تحريف .

صائبٌ ، وكوكبٌ فى سماء المجد ثاقبٌ ؛ إن أتبَعْتَ الأعداءَ نورَه أحرق ، وإن رميْتَهم به أصاب الحدَق ؛ وعلى الحقيقة فلسانى يقصُر عن جميل أنشرُه(١) ، ووصف وُدٍّ أضمِرُه » .

شـــعره

قال ، ومما وجد بخطه لنفسه :

طلعت طلائعُ للربيع فأطْلَعَت فى الرَّوْض ورداً قَبْل(٢) حِين أوانه
حيَّا أمير المسلمين(٣) مُبشِّراً ومؤمِّلًا للنَّيْـل من إحْسانه
ضَنَّتْ سَحائبُه عليه بمائها(٤) فأتاه يَسْتَسقيه ماء بَنـانِه
دامَتْ لنـا أيّامُه موصُولةً بالعزِّ والتّمـكين فى سُلْطانه

قال : وأنشدنى الأديب أبو بكر بن مَعْن ، قال أنشدنى أبو الربيع بن العَريف [لجَدِّه](٥) الكاتب أبى جعفر اللماى ، وامتُحن بداء النَّسْمة من أمراض الصّدر ، وأزْمَن به ، نفعه الله ، وأعياه علاجُه ، بعد أن لم يدَع فيه غاية ، وفى ذلك يقول :

لم يَبْق من شىء أعالجُها به(٦) طَمعُ الحياةِ وأين مَنْ لا يَطْمَعُ
« وإذا المنِيَّةُ أنشَبَتْ أظفارها ألفيْتَ كلَّ تَميمةٍ لا تَنْفَع »

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى الذخيرة : أسره .

(٢) وردت فى « ج » ، وأغفلت فى « ك » .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الذخيرة : أمير المؤمنين .

(٤) فى المخطوطين : بمائه . والتصويب من الذخيرة .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطين : الحرة . والتصويب من الذخيره .

(٦) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين . ولكنها وردت فى الذخيرة كما يلى : « لم يبق شىء لم أعالجها به » .

ودخل عليه بعض أصحابه فيها ، وجعل يُرَوِّح عليه فقال له بديهة :

روّحَني عائِدى فقلت له لا تزِدنى على الذى أجِد

أما ترى النار وهى خامدةٌ عنـد هُبوب الرياح تتَّقد

ودخل غَرْناطة غير ما مرة عنها ، متردِّداً بين أملاكه ، و بين من بها من ملوك صِنْهاجة ؛ قالوا ولم تفارقه تلك الشِّكاية حتى كانت سبب وفاته .

وفاته

بمالَقَة عام خمس وستين وأر بعمائة . ونقل منها إلى حصن الوَرْد ، وهو عند حصن مُنْتِ مَيُور[1] إذ كان قد حصَّنه ، واتخذه لنفسه ملجأً عند شدَّته ، فدُفن به ، بعَهْدٍ منه بذلك ، وأمر أن يُكتب على قبره بهذه الأبيات :

بَنَيْتُ ولم أسْكُن وحصَّنت جاهداً فلما أتى المَقْدور صيّره قَبْرى

ولم يكن حظِّى غير ما أنْتَ مُبْصِرٌ بعَيْنك ما بين الذِّراع إلى الشِّبر

فيازائراً قَبْرى أوصِيك جاهـداً عليك بتَقْوى الله فى السِّر والجهْر

فلا تُحسِنَنْ بالدَّهْرِ ظناً فإنما من الحزْم ألّا يُستنام إلى الدهر

أحمد بن محمد بن طَلْحة

من أهل جَزيرة شُقْر[2] ، يكنى أبا جعفر ، و يُعرف بابن جده طلحة .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (منت ميون) . وهو تحريف . وما أثبته « ج » وهو مونت ميور أرجح — . وهو مطابق للإسم الإسبانى المقابل وهو Monte Mayor أى الجبل الكبير .

(٢) سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص١٨٥) .

حــاله

قال صاحبُ « القِدْح المُعَلّى »، من بيت مشهور بجزيرة شُقْر من عمل بلَنْسِية . كتب عن ولاة الأمر من بنى عبد المؤمن ، ثم استكْتَبه ابنُ هود(١) ، حين تغلّب على الأندلس ، وربما استوْزَره ، وهو ممن كان والدى يُكثر مُجالسته ، وبينهما مُزاورةٌ ، ولم أستفِد منه إلا ما كنتُ أحفظُه من مجالسته .

شـــعره

قال ، سمعتهُ يوماً يقول ، تقيمون القيامة بحبيب ، والبُحترى ، والمُتنبى ، وفى عصركم من يهتدى إلى ما لم يهتد إليه المتقدّمون ولا المتأخرون [فانبَرى إليه شخص له همّة وإقدام ، فقال يا أبا جعفر : أين بُرهان ذلك ، فما أظنك تعنى إلا نَفْسك ، فقال ما أعنى إلا نفسى ، ولمَ لا ، وأنا الذى أقول](٢) :

يا هل ترى الظَّرْفُ من يومنا　　قلّد جيدَ الافق طَوْقَ العَقيق
وأنْطَق الوُرْق بِعيدَانِهـا　　مُطْرِبَةً كلَّ قضيبٍ وَريق
والشمسُ لا تَشْربُ خمر الندى　　فى الرّوْضِ إلا بكأس الشَّقِيق

فلم يُنصفوه فى الاستحسان ، وردُّوه فى الغَيْظ(٣) كما كان ، فقلت له : يا سيدى هـذا والله السِّحر الحلال ، وما سمعت من شعراء عصرِنا مثله ، فبالله ألا ما لازمْتَنى وزِدْتَنى من هـذا النمط ، فقال لى لله دَرُّك ، ودَرُّ أبيك من مُنصف ابن مُنْصف . إسمع ، وافتح أُذُنيك . ثم أنشد :

---

(١) هو أبوعبد الله محمد بن يوسف بن هود، المتوكل على الله، سليل بنى هود أمراء سرقسطة . وقد سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص١٤٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . ووارد فقط فى « ت » .

(٣) وردت فى المخطوطين : الغيض . والتصويب من « ت » .

أدِرْها فالسماء بَدَتْ عَرُوساً مُضَمّخة الملابس بالغَوَالِ
وخدُّ الأرض خَفَّرهُ أصيلٌ وجَفْنُ النَّهرِ(١) كُحِّل بالظِّلال
وجيدُ الغُصْن يُشْرِق فى لآلٍ تُضِىء بهن أَكْنافُ الليال

فقلت بالله أعدْ وزِدْ(٢) ، فأعاد والارتياح قد ملأ عِطفْه ، والتيهُ قد رفع أنْفَه ، ثم قال :

لله نهرٌ عنـــد ما زُرته عاين طَرْفى منه سحراً حلالْ
إذ أصبح الطّل به لَيْلة وخال(٣) فيه الغُصن مثلَ الخيال

فقلت ما على هذا مزيدٌ فى الاستحسان ، فعسى أن يكون المزيد فى الإنشاد ، فزاد ارتياحه وأنشد :

ولمـــا ماج(٤) بحرُ الليل بينى و بينـكم وقد جدَّدتُ ذِكرا
أراد لِقاكُمُ إنسانُ عَيْنى فمدَّ له المنـام عليه جِسرا

فقلت إيه زادك الله إحْساناً ، فزاد :

ولما أنْ رأى إنسانُ عَيْنى بصَحْنِ الخدِّ منه غريقَ ماء
أقام له العِذار عليه جِسْراً كما مُدَّ الظلامُ(٥) على الضياء

فقلت فما تـكرَّرَ و يَطُول ، فإنه مَملول ، إلّا ما أوْرَدْتَه آنفا ، فإنه كنسيم الحيـاة ، وما أن يُمل ، فبالله ألا ما زِدتنى ، وتفضّلت علىّ بالإعادة ، فأعاد وأنشد :

---

(١) هكذا وردت فى « ك » ، و « ت » . وفى « ج » النهار .

(٢) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : وأزد .

(٣) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » وجال .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » فاح . والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » صح .

هات المُدام إذا رأيت شبيهها في الأُفْق يا فَرْداً بغير شَبيه
فالصُّبح قد ذبح الظلام بِنَصْله فَغَدَتْ حمائِمُه تُخاصم فيه

دخولُه غَرْناطة

دخلها مع مخدومه المُتوكل على الله ابن هود وفى جُملته ، إذ كان يصحبُه فى حركاته ، ويباشر معه الحرب ، وجَرَت عليه الهزائم ، وله فى ذلك كله شعر .

محنتُه

قالوا لم يقنع بما أجرى عليه أبو العباس السَّبْتى[١] من الإحسان ، فكان يُوغِر صدره من الكلام فيه ، فذكروا أن السَّبْتى قال يوماً فى مجلسه : رميتُ يوماً بسَهْمٍ من كذا ، فبلغ إلى كذا ؛ فقال أبو طَلْحة لشخص كان إلى جانبه : والله لو كان قَوْس قُزَح ؛ فشَعَر أبو العباس إلى قوله ما يُشبه ذلك ، واستَدْعى الشخص ، وعزم عليه ، فأخبره بقوله ، فأسَرّها فى نفسه ، إلى أن قوّى الحقد عليه ، ما بلغه عنه من قوله يهجوه :

سمعنا بالمُوَفِّق فارتَحَلْنا وشافِعُنا له حَسَبٌ وعِلم
ورُمْتُ يداً أُقبِّلُها وأُخرى أعيشُ بفضلها أبداً وأسْمو
فأنشدَنا لسانُ الحال عنه يَدٌ شَلَّا وأمرٌ لا يَتِم

فزادت مَوْجِدتُه[٢] عليه ، وراعى أمره إلى أن بَلغَته أبياتٌ قالها فى شهر رمضان ، وهو على حال الاستهتار[٣] :

---

(١) هكذا وردت فى « ت » . ووردت محرفة فى المخطوطين : البنشتى .

(٢) وردت فى المخطوطين : موجوه . وهو تحريف ظاهر .

(٣) وردت فى المخطوطين : الإسهاد . والمرجح أنه الاستهتار حسبما يدل على ذلك معنى الشعر .

يقول أخو الفضول وقد رآنا ... على الإيمان بلّغنا الحجون
أتشكو شهر الصوم هلاّ ... حماه منكم عقلٌ ودين
فقلتُ اصحبْ سوانا فنحن قوم ... زنادقة مذاهبنا فنون
ندينُ بكل دين غير دين الـ ... ـرعاع فما به أبداً ندينُ
فنحن على صُفوح[1] الدهر ندعو ... وإبليسٌ يقول لنا أمين
أيا شهرَ الصيام إليك عنّا ... ففيك أكفرُ ما نكون

قال ، فأرسل إليه من هجم عليه ، وهو على[2] هذا الحال ، وأظهر إرضاء العامّة بقتْله ، وذلك فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة[3] . ولا خفاء أنه من صُدور الأندلس، وأشدهم عثوراً على المعانى الغريبة المخترعة ، رحمه الله .

أحمد بن على بن محمد بن على بن محمد بن خاتِمة الأنْصارى

من أهل ألمَرِيّة[4] ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن خاتمة .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » الصفوح بالتعريف وهو لا يستقيم مع وزن الشعر .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » فى .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثه : (وسبعمائة) وهو سهو تاريخى لان المتوكل بن هود الذى التحق بخدمته الشاعر المترجم له توفى قتيلا سنة ٦٣٥ هـ ، وذلك بعد مقتل الشاعر. ولهذا اقتضى التصويب .

(٤) سبق ذكر ألمرية فى السياق غير مرة. وقد رأينا أن نعرف بها هنا لمناسبة ترجمة شاعرها الكبير ابن خاتمة . وألمرية Almeria ، ثغر من ثغور الأندلس الشهيرة يقع فى جنوب اسبانيا على البحر الأبيض المتوسط شرقى مالقه . وهى مدينة مشرقة جميلة الموقع والتخطيط . وكانت أيام الدولة الإسلامية من أعظم ثغورها الجنوبية ، وكان سكانها يومئذ يزيدون على مائة وخمسين ألفا ، وهم اليوم لا يعدون ستين ألفاً. وقد سقطت ألمرية فى يد النصارى سنة ١٤٨٩م. وما تزال تقوم بها حتى اليوم أطلال القصبة الأندلسية القديمة، وبها عدة أبراج منيعة تشرف عليها من عل . ولألمرية ميناء جميل يرسو به كثير من السفن .

حـــاله

هذا الرجل صدرٌ يُشار إليه ، طالبٌ مُتفنِّنٌ ، مشاركٌ ، قويُّ الإدراك ، سديد النَّظر ، قوى الذهن ، موفور الأدوات ، كثير الاجتهاد ، معين الطبع ، جيِّد القريحة ، بارع الخط ، مُمْتع المجالسة ، حسن الخُلق ، جميل العشرة ، حَسَنَةٌ من حسنات الأندلس ، وطَبَقَةٌ فى النظم والنثر ، بعيد المَرْقى فى درجة الاجتهاد ، وأخذه بطرق الإحسان ؛ عقد الشروط ، وكتب عن الوُلاة ببَلَدِه ، وقعد لِلاقراء ببلده ، مشكور السيرة ، حميد الطريقة ، فى ذلك كله .

وجَرَى ذِكره فى كتاب « التَّاج » بما نصه : « ناظِمُ دُرَرِ الألفاظ ، ومُقَلِّد جواهر الكلام ، نُحُور[1] الرُواة ، ولَبَّات[2] الحُفَّاظ والآداب ، التى أصبحت شوارِدُها ، حلمَ النائم ، وسَمَرَ الأيقاظ ؛ وكم فى بياض طِرْسِها ، وسواد مَقْسِها سحرُ الألْحاظ[3] ؛ رفع فى قطره راية هذا الشأن على وفور حَلْبَته ، وقرع فنَّه البيان على سُمُو هَضْبته ، وفَوَّق سَهْمه إلى بحر الإحسان ، فأثْبَته فى لَبَّته ؛ فإن أطال[4] شأنُ الأبطال ، وكاثر المُنسجم الهطَّال ؛ وإن أوْجَز ، فضح وأعْجَز ؛ فمن نَسيبٍ تَهيجُ به الأشواق ، وتَضيق عن زفراتها الأطْواق ؛ ودُعابةٍ تُقَلِّص ذيل الوقار ، وتزْرى بأكواس العقار ؛ إلى انتماء للمعارف ، وجنوح إلى ظلها[5] الوارف ؛ ولم تزل معارفهُ يَنْفَسح آمادُها ، وتحوز خُصَلَ السباق جيادُها . »

---

(١) وردت فى المخطوطين : بحور ، وهو تحريف . وحكمة التصويب واضحة .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » لباب . والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » اللحاظ .

(٤) وردت فى المخطوطين : طال . وهو تحريف .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ظل .

مشيخـــته

حسبما نَقَل بخطه فى ثَبَتٍ استدعاه منه من أخذ عنه ؛ الشيخ الخطيب ، الأستاذ مولى النعمة ، على أهل طَبقَتــه بالمَرِيَّة ، أبو الحسن على بن محمد بن أبى العَيْش المرِّى ؛ قرأ عليه ولازمه ، وبه جلَّ انتفاعه ؛ والشيخ الخطيب الأستاذ الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن أبى العاص التَنُوخى . وروى عن الراوية المُحَدِّث المكثر الرحَّال ، محمد بن جابر بن محمد بن حسّان الوادى آشِى ؛ وعن شيخنا أبى البركات ابن الحاجّ ، سمع عليه الكثير ، وأجازه [إجازة][1] عامة ؛ والشيخ الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن شُعيب القَيْسى من أهل بلده ؛ والقاضى أبو جعفر القُرشى بن فَرْكون . وأخذ عن الوزير الحاجّ الزاهد ، أبى القاسم محمد بن محمد بن سهل بن مالك . وقرأ على المُقْرى أبى جعفر الأغر[2] ، وغيرهم .

كتابتُه

مما خاطبنى به بعد إلمام الرَّكب[3] السلطانى ببلده ، وأنا صحبته ، ولقائه إيّاى ، بما يلقى به مثلهُ من تأنيس ، وبرّ ، وتودُّد ، وتردُّد :

يا مَن حَصَلت على الكمال بما رأت عيناى[4] منه من الجمال الرائع
مَرْأًى يروقُ وفى عِطافَىْ بُرْدِه ما شئت من كرمٍ ومجدٍ بارع
أشكو إليك من الزمان تحَامُلاً فى فَضِّ شملٍ لى بقربك جامع

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وإضافتها لازمة لاستقامة السياق .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، الأغن .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، الركاب .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » عينان .

هجم البُعاد علينا ضَنًّا باللِّقا حتى تَقَلَّص مثل برقٍ لامع

فلو انـنى ذو مذهب لشفاعة ناديتُه يا مالِـكى كُن شافعى

شكواى إلى سيدى ومُعظّمى ، أقرّ الله تعالى بسنائه أعيُن المجد ، وأدرّ بثنائه ألسُنَ الحمد ، شكوى الظمآن صُدّ عن القَراح العذب[١] لأول وروده ، والهيمان رُدّ عن استرواح القُرب لمُعضِل صدوده ، من زمانٍ هجم علىّ بُعاده ، على حين النفادة[٢] ، ودَهَمنى بفراقه غَبّ إنارة أفُقى به وإشراقه ؛ ثم لم يَكفِه ما اجْترم فى ترويع خياله الزاهر[٣] ، حتى حرم عن تشييع كماله الباهر ، فقطع عن توْفية حقِّه ، ومنع من تأدية مُسْتَحقِّه ، لا جرَم أنه أنِف لشارع ذكائه من هذه المطالع النافية [عن شريف الإنارة ، وبَخِـل بالإمتاع بذكائه عن هذه المسامع النائية][٤] عن لطيف العبارة ؛ فراجع أنظاره ، واسترْجع مُعارَه[٥] ؛ وإلا فعهدى بغروب الشمس إلى طُلوع ، وأنّ البدْر ينصرف بين الاستقامة والرُجوع . فما بالُ هذا النيِّر الأسعد ، غَرُب ثم لم يطلع من الغد ، ما ذاك إلا لِعَدْوى[٦] الأيام وعُدْوانها ، وشأنها فى تغطية إساءتها وجه إحسانها ، وكما قيل عادت[٧] هيفٌ إلى[٨] أديانها ؛ أستغفر الله أن لا يُعد ذلك من المُغْتَفر فى جانب ما أوليت من الأثر ، التى أزْرى العيان فيها بالأثر ، وأربى الخبرُ على الخبرِ ؛ فقد سُرَّت مُتشوِّفات الخواطر ، وأقرَّت متشَرِّفاتُ النواظر[٩] ، بما جَلَتْ من ذلـكمُ الـكمال الباهر ، والجمال الناضر ؛

---

(١) وردت فى المخطوطين : الضر . والتصويب من نفح الطيب .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » النعاق . وفى النفخ : أسعاده .

(٣) وردت فى المخطوطين الزاير . والتصويب من النفح .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . وأضفناه عن النفح .

(٥) وردت فى المخطوطين : عماره . والتصويب من النفح .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين .

(٧) فى المخطوطين : عاد .

(٨) هذه كلمة ساقطة فى المخطوطين .

(٩) هكذا فى « ج » . وفى « ك » القراطر . وهو تحريف .

الذى قيّد خُطى الأبصار ، عن التشوُّف والاستبصار ؛ وأخذ بأزِمّة القلوب، عن سبيل كل مأمول ومرغوب ؛ وأنّى للعين بالتحوُّل عن كمال الزّيْن ، أو للطّرْف[1] ، بالتحول عن خِلال الظّرْفِ ؛ أو للسَّمع [من][2] مُراد ، بعد ذلك الإصرار والإيراد ، أو للقلب من مُراد ، غير تلـكمُ الشيم الرافلة من ملابس الـكرم فى حُلل وأبراد ؛ وهل هو إلا الُحسْن ُجمع فى نظام ، والبـدْرُ طالَع التّمام ، وأنوار الفضائل ضمَّها جنسُ اتفاقٍ والتآم ؛ فما تَرعى العين منه فى غير مرعًى خصيب ، ولا تستهدفُ الأذهان[3] لغير سهمٍ فى حَدَق البلاغة مُصيب ؛ ولا تطلعُ النفسُ سوى مطلعٍ له فى الحسن والإحسان أوفرُ نصيب . لقد أزرى بناظم حُلاه فيما تعاطاه التقصير ، وانفسح من أعلاه بكل باعٍ [قَصِير ، وسَفُه حلمُ القائل : إنّ الإنسان عالَمٌ صغير . شكراً للدهر على يد أسداها بقرب مزاره ، وتُحْفة][4] ثناءٍ أهداها بمَطْلع أنواره على تَغاليه فى ادّخار نفائسه ، وبُخْـله بنفائس[5] ادّخاره ؛ ولا غَرْو أن يضيق عنا نِطاق الذِكر ، ولما يتّسعُ لنا سِوار الشكر ؛ فقد عُمّت هذه الأقطار بما شاءت من تحْفٍ ، بين تُحفٍ وكرامة ، واجتَنَتْ أهلُها ثمرة الرحْلة[6] فى ظِلّ الإقامة ، [وجرى الأمرُ فى ذلك مَجْرى الـكرامة][7] ؛ ألا و إن مُفاتحتى لسيدى ومُعظَّمى ، حرس الله تعالى مَجْدَه ، وضاعف سَعْدَه ؛ مُفاتحة من ظَفِر من الدهر بمطلوبه ، وجرى له القَدَرُ على وفق مَرْغوبه ؛ فشرع له إلى أمله باباً ، ورفع له من خجله جِلْباباً ؛ فهو يَـكْلَفُ بالاقتحام ، و يأنَفُ من الإحجام ؛ غير أنّ الحصْر

---

(١) وردت فى المخطوطين لطرفه . والتصويب من النفح .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من النفح .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » الأذان .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين : وقد أثبتناه عن النفح .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » بنعايم . والأولى أرجح .

(٦) هكذا وردت فى ج وفى النفح . وفى « ك » الوحدة .

(٧) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين . ونقلناها عن النفح .

عن دَرَج قَصْده يقيِّده ، فهو يُقْدِم والبصَرُ يُبهرج [١] نقده فيُقعده ؛ فهو يُقدِّم رجْلاً ويؤخِّر أخرى ، ويجدِّد عَزْماً [٢] ثم لا يتحرَّى ؛ فإن أبطأ خِطابى فلَوَاضحُ [٣] الاعتذار ، ومثلُكم لا يقبل حياة الأعذار ؛ والله عزّ وجلّ يَصل إليكم عوايد الإسعاد والإسعاف ، ويحفظ لكم ما للمَجْد من جوانبٍ وأكناف ، إن شاء الله تعالى ؛ كُتب فى العاشر من ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعمائة .

دخولُه غَرْناطة

دخل غرناطة غير ما مرَّة ، منها فى استدعاء شمال الخواصّ من أهل الأقطار الأندلسية ، عند إعذار الأمراء فى الدولة اليُوسُفيّة [٤] ، فى شهر شعبان من عام إحدى وخمسين وسبعمائة .

شعره

كان مَجْليًّا [٥] . وأنشد فى حَلْبَة الشعراء قصيدةً أولها :

أجِنانُ خُلدٍ زُخرِفَتْ أم مَصْنَعُ والعيدُ عاوَدَ أم صَنيعٌ يُصْنَع

ومن شعره :

من لم يُشاهد مَوْقِفاً لفِراق لم يدْرِ كيف تولُّه العُشّاق

(١) وردت فى المخطوطين : يهرح . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » جزماً .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : لوضح . فلو صح .

(٤) الدولة اليوسفية أعنى دولة السلطان يوسف أبى الحجاج ملك غرناطة الذى حكم من سنة ٧٣٣ إلى ٧٥٥ هـ (١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) .

(٥) كلمة (كان) ساقطة فى « ك » . ووردت العبارة فى « ج » هكذا : مجليا كان .

إن كنت لم تَرَه فسائل من رأى ... يُخْبِرْكَ عن وَلَهى وعن أشواقى(١)
من حَرِّ أنفاسٍ وخَفق جَوانح ... وصُدوع أكبادٍ وفيضِ مآق
دُهى الفؤاد فلا لسانٌ ناطقٌ ... عند الوداع ولايحٌ(٢) مُترَاق
ولقد أشيرُ لمنْ تكلَّف رِحْلةً ... أن عُجْ علىّ ولو بقَدْر فَواق
عَلِّى أراجعُ من دِماى حَشاشَهً ... أشكو بها بعض الذى أنا لاق
فَمضَى ولم تَعطِفه نحوى ذِمَّةٌ ... هيهات لا بُقْيا على مُشْتاق
يا صاحبىَّ وقد مضى حُكْم النّوَى ... رُوحا علىّ بشيمة(٣) العُشّاق
واستَقْبِلا بى نَسْمَةً عن أرضكم(٤) ... فلَعلَّ نَفْحتها(٥) تحل وثاق
إنى ليَشْفينى النَّسيم إذا سَرى ... مُتَضَوِّعاً من تلكُمُ الآفاق
مَنْ مُبلغ(٦) بالجزع أهل مودَّتى ... أنى على حُكْم الصَّبابة باق
ولئن تحوَّل عهدُ قُرْبهم نوًى ... ما حُلْت عن عَهْدى ولا ميثاق
أنِفَتْ خلايقى الكرام لخُلَّتى ... نَسَباً إلى الأخلاق والأخراق
قسماً به ما استغرقَتنى فكرةٌ ... إلْا وفِكرَى فيه واستِغْراق
لى آهةُ عند العَشِىِّ لعلّه ... يُصْغى لها وكذا مع الإشْراق
أبكى إذا هبَّ النسيمُ فإن تَجِد ... بَللاً به فَبِدمْعِىَ المُهْرَاق
أو ما كتبت إليه معْ ريح الصّبا(٧) ... فالذكر كُتْبى والرفاقُ رفاق

---

(١) وردت فى المخطوطين : وهو سياق . والتصويب من « ت » .
(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » طايع .
(٣) وردت فى المخطوطين : بمشيمة .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » أرضهم .
(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ك » نفحاتها .
(٦) فى المخطوطين : بلغ .
(٧) وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة : « أوما تكتب إليه مع الصبا » .

مَنْ لى وقد شحط المزار بنازح[١] … أدنى لقلبى من جوَى أشواق
إن غاب عن عَيْنى فَمَثْواه الحَشا … مَسْراه بين القَلْب والأحداق
جارت علىَّ يد النَّوى بفراقه … آهاً لما جَنَتْ النَّوى بفراق
أحباب قلبى هل لماضِى عَيْشِنا … ردٌّ فيُنْسخ بُعدكم بتلاق
أم هل لأثواب التجَلُّد راقعٌ … إذ ليس من داء المحبَّة راقِ
ماغاب كوكب حُسْنِكم عن ناظرى … إلا وأمْطَرت الدِما آماق
إيهٍ أُخىَّ أدِرْ علىَّ حديثهم … كأساً ذَكَتْ عَرْفاً وطيبَ مذاق
وإذا جنحت لماءٍ أو طربٍ فمن … دَمْعى الهموع وقلبىَ الخفَّاق
ذكراهُ راحِى والصَّبابةُ خضرتى … والدمعُ ساقِينى وأنت الساقِ
فَلْيَلْهُ عنّى من لحانى إننى … راض بما لاقيتُه وأُلاقِ

وقال :

وقفت والرَّكْبُ[٢] قدزُمت ركائبه … وللنفوس مع الأيام تَقْطيع
وقد تمايل نحوى للوداع وهل … للرَّاحلِ القلبِ صَدْر الرَّكْب توديع
أضُمُّ منه كما أهْدَى لغير نوى … ريحانةً فى شَذاها الطيبُ مجموعُ
يهفو فأذعُر خوفاً من تقلُّصها[٣] … إن الشفيق بسوء الظن مَوْلوع
هل عند من قد دَعَى بالبَيْن مُقْلَتَه … إنَّ الرَّدى منه مرئىٌّ ومسموع
أشيّعُ القلب عن رَغْمٍ علىَّ وما … بقاء جسم له لِلْقلب تَشْيِيع
أرى وُشاتى أنى لست مُفْتَقِراً[٤] … لما جرى وصميم القلب مصروع

---

(١) وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة : « من لى شحط المزار بنازح أنى » .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، والبين .
(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ت » و « ج » نقضها .
(٤) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : مفترقاً .

الوجد طبعٌ وسِلواني مُصانعةٌ … هيهات يَشْكُل مصنُوع ومَطْبوع
إن الجديد إذا ما زِيد في خَلَقٍ … تَبَيَّن النَّاسُ أن الثوب مَرْقُوع

وقال أيضاً :

لولا حيائي من عيون[1] النرجس … لَلَثَمْتُ خدّ الورد بين السُّندُسِ
ورَشَفْتُ من ثَغْر الأقاحة ريقها … وضَمَمْتُ أعطاف الغُصون المُيَّس
وهتكتُ أستار الوقار ولم أُبَل … للباقلاء تلحظ بطرفٍ أشوس
ما لي وصهباء الدِنان مُطارِحاً … سَجْعَ القِيان مُكاشِفاً وجه المُسِ
شتّان بين مُظاهرٍ ومُخايلٍ … ثوب[2] الحِجا ومُطهِّر ومُدنِّس
ومُجمجمٍ بالعذل باكرني به … والطير أفصحُ مسعدٍ بتأنُّس
نزَّهتُ سمعي عن سفاهة نُطْقه … وأعرتُه صوتاً رخيم[3] الملمس
سُفِّهتُ في العشّاق يوماً إن أكن … ذاك الذي يُدع[4] الفصيحَ الأخرس
أعذولَ وَجْدي ليس غُشَّك فادرجي … ونصيحَ رُشْدي بان نُصْحك فاجلسِ
هل تبصُر الأشجار والأطيار والأزه … ار [تلك][5] الخافضاتِ الأرؤُسِ
تالله وهو [أليَّتي وكفى به][6] … قسماً يُفدَّى برُّه بالأنفُس
ما ذاك من شكوٍ ولا لخَلالةٍ[7] … لكن سجود مُسبِّحٍ ومُقدِّس
شكراً لمن بَرَأ الوجود بجُوده … فثَنَى إليه الكلُّ وجه المُغلِس

(١) وردت في المخطوطين : العيون . والتصويب من « ت » .

(٢) في « ج » بثوب . وفي « ك » مثوب . و « ت » تثوب .

(٣) في المخطوطين ، رحيما . وفي « ت » وخيم .

(٤) هكذا وردت في المخطوطين . ووردت في « ت » : يدعى .

(٥) ساقطة في المخطوطات الثلاثة .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة في المخطوطين . ووردت في « ت » (الذي كفى به) .

(٧) هكذا في المخطوطين . ووردت في ت : (ولا نجادة) .

[وسما بِساط الأرض فمدّه][1] ودحا بسيط[2] الأرض أوثرمجلس
ووشَى بأنواع المَحاسن هـذه وأنار هذِى بالجوارِ[3] الكُنّس
وأدرّ أخـلاف العطاء تطوُّلا وأنال فَضْلاًمَنْ يُطِيعُ ومَنْ يُسِى
حتى إذا انتظم الوجودُ بِنِسْبَةٍ وكساه ثَوْبَى نُورهِ والحِنْدِسِ
واستكْمَلَتْ كلُّ النفُوس كمالها شَفَعَ العطايا بالعطاء الأنفَس
بأجلِّ هادٍ للخـلائق مُرْشدٍ وأتمِّ نورٍ للخـلائق مُقْبِس
بالمصطفى المُهْدَى إلينـا رحْمَةً [مَرْمى الرَّجاومِسْكَة[4] المُتيئِّسِ][5]
نِعمٌ يَضيق[6] الوصفُ عن إحصائها ظلَّ الخطيبُ بها لسانَ الأوْجس
إيهٍ فَحَدِّثْنى حديثَ هَوَاهُم ما أبْعد السُّلوان عن قَلْب الأسِى
إن كنتُ قد أحسنْتُ نعتَ جمالهم [فلقد سها عنى العذُول بهم وسِى][7]
ما إن دَعَوك ببُلبُـلٍ إلا لِما قد هِجْتَ من بَلْبال هَذِى الأنفُس
سبحان من صَدَع الجميعُ بحَمْده وبشُـكره من ناطق أو أخرس
وامتدَّت الأطلالُ ساجدةً له بجبالهـا من قائمٍ أو أقعَسِ
فإذا تراجعت الطيور وزايلت أغصانها[8] بان المطيعُ من المُسِى

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة . والظاهر ان بها نقصاً أو تحريفاً لم يتضح.
(٢) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » ببسيط .
(٣) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : بجوار .
(٤) وردت فى المخطوطين : مكسة . والتصويب من ت » .
(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة مع اختلاف يسير.
(٦) وردت فى المخطوطين : (نعما ضاق) . والتصويب من «ت» .
(٧) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين هكذا : (فلقد سما عندى العذول بهم وسى) .
(٨) هكذا فى «ت» . وفى « ج » اغضها ، وفى « ك » أغظها وهو تحريف .

فيقولُ ذا سَكِرتْ لنغمة مُنْشد ويقولُ ذا سَجَدتْ لذِكر مُقَدَّس
كل يفوه بذَوْقهِ (١) والحقُّ لا يخْفَى على نظر اللّبيب الأكْيَس

وقال :

زارت على حَذَرٍ من الرُّقباء والليلُ ملتحفٌ بفضل رداء
تصلُ الدُّجا بسواد فرعٍ فاحمٍ لتزيد(٢) ظَلماءً إلى ظلْماء
فوَشَى بها من وجهها وحُلِيِّها بدرُ الدُّجا وكواكبُ الجوْزاء
أهلًا بزائرةٍ على خَطَرِ السُّرَى ما كنتُ أرجُوها ليوم لِقاء
أقسمتُ لولا عفَّةٌ عُذْرِيَّةٌ [وتلقَّى له على رقيبٍ راءٍ](٣)
لنقعْتُ غُلَّةَ لَوْعَتى برُضابها ونَضَحْتُ وَرْدَ خدُودِها ببكائى

ومن ذلك ما قاله أيضاً :

أرسلَتْ لَيْل شَعْرِها من عَقْص عن محيًّا رمى البُدور بِنَقْص
فأرَتْنا الصباح فى جُنْحِ لَيْلٍ يَتَهادى ما بين غُصْنٍ ودِعْص
وتصَدَّت براِمحات نُهُودٍ أُشْرِعت للأنام من تحت قُمْص
فتولَّت جيوشُ صبرى انهزاما وبوُدِّى ذاك اللقاء وحِرْص
ليس كلُّ الذى يَفِرُّ بناجٍ رُبَّ ظَعْنٍ(٤) فيه حياةٌ لشَخْص
كيف لى بالسُّلو عنها وقلبى قد هوى حلمه(٥) بهوًى لخَوْص(٦)

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» ، بدونه . وفى «ت» بقوله .
(٢) وردت فى المخطوطين : لتدبير وهو تحريف . والتصويب من «ت» .
(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة . وفى نص آخر (وتخوفى وشى الرقيب الراء) .
(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» وطغى . وفى «ت» طعْن .
(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» حمله .
(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» بمعول لخوص . وفى «ت» بملعكى الحرص .

ما تعاطيت [ظاهِر الصّبْر][١] إلّا ردّنى جيـدُها بأوْضَح نَصِّ

ومن ذلك قوله أيضاً :

أنا بَيْن الحياة والموت وقفٌ نَفَسٌ خافتٌ ودمعٌ ووكْفُ
حلّ بى من هواكَ ما ليس يُنْبى[٢] عنه نَعْتٌ ولا يُعبّرُ وصْفُ
عجباً لانعطاف صدْغَيْك والمِعْـطَفُ والجيدُ ثم ما مِنك عَطْفُ
ضاق صدرى بضيق حِجْلك واسـتوقف طَرْفى حَيران[٣] ذلك الوَقْفُ
كيف يُرجى فِكاكُ قلبٍ مُعنّى فى غرام قَيّداه قِرْطٌ وشَنْفُ[٤]

ومن ذلك قوله أيضاً :

رقّ السّنا ذهباً فى اللّازَوَرْدىّ فالأُفُق ما بين مَرْقوم ومَوْشِىّ
كأنما الشُّهب والإصباح ينهبُها لآلئ سـقطت من كف زنجىّ

ومن شعره فى الحِكَم قوله :

هو الدهرُ لا يُبقى على عائذٍ به فمن شاء عيشاً يَصْطَبِر لنوائبه
فَمَنْ لم يُصَب فى نَفْسه فَمُصابُه لفَوْتِ أمانيـه وفَقْدِ حبائبه

ومن ذلك قوله :

ملاكُ الأمر تَقْوى الله فاجعل تُقـاه عُـدَّةً لصَـلاح أمْرِك
وبادِر نحو طاعتـه بعزمٍ فما تَدْرى متى يمضى بعُمْرِك[٥]

---

(١) وردت فى المخطوطين : طاهر البصير ، وهو تحريف ظاهر . والتصويب من « ت » .
(٢) وردت فى المخطوطين : ينسى . وفى « ت » محرفة ، يبنى .
(٣) وردت فى المخطوطين : جيران .
(٤) الشنف معناه القرط أيضاً .
(٥) فى المخطوطين : لعمرك . والتصويب من « ت » .

ومن ذلك أيضاً :

دماءٌ فوق خـدِّك أم خُلُوق | وريقٌ ما بثَغْرك أم رَحيقُ
وما ابتَسَمْتَ ثَنـايا أم أقاحٌ | ويكنِفُها شِفاه أم شـقيقُ
وتلك سِناة قومٍ ما تعاطَتْ | جُفُونك أم هى الخَمْرُ العتيقُ
لقد أعدَّت معاطِفُك انثناءً | وقلبى سَكْرَةٌ ما إن يَفيقُ
جمالُك حَضْرتى وهواكَ راحى | وكَأْسُك مُقْلتى فمتى أفيقُ

ومن شعره فى الأوصاف :

أرْسَل الجوُّ ماء وَرْدٍ رذاذاَ | وسَمَّع الحزْن والدّمايث رَشـا
فانثنى حَوْل أسْوَقِ الدّوْح حَجْلاَ | وجرى فوقَ بُرْدة الرّوْضِ رَقْشا
وسما فى الغُصُون حُلًى بنـانٍ | أصْبَحَت من سُلافة الطّل رَعْشا
فترى الزّهر تَرقُم الأرض رَقْماَ | وترى الريح تَنْقُشُ الماء نَقْشا
فكأنَّ الميـاه سَيفٌ صُقَيْلٌ | وكأنّ البِطاح غُمْدٌ مُوَشَّى

وكتب عقِب انصرافه من غَرْناطة فى بعض قَدْماته عليها ما نصُّه : « مما قلته بديهةً عند الإشراف على جنابكم السعيد ، وقدومى مع النّفر الذين أتحفَتْهم [السيادة][1] سيادتُكم بالإشراف عليه ، والدخول إليه ، وتَنْعيم الأبصار فى المحاسن المجموعة لديه ، وإن كان يوماً قد غابت شمسه ، ولم يتّفق أن كمل[2] أُنْسُه ؛ وأنشده حينئذ بعض من حضر ، ولعله لم يَبْلُغكم ، وإن كان قد بلغكم ، ففضلُكُم يحمِلُنى إعادة الحديث :

---

(١) هذه الكلمة واردة فى « ج » وساقطة فى « ك » .

(٢) وردت فى المخطوطين : نكمل . والتصويب من نفح الطيب .

أقول وعينُ الدّمع [(١)] نَصْبَ [(٢)] عيوننا ... ولاح لبُستان الوَزارة جانب
أهذى سماءٌ أم بناءٌ سما به ... كواكبُ غضت عن سَناها الكواكب
تناظَرَتْ الأشكالُ منه تقابُلا ... على السّعد وُسْطى عِقدِه والجنائب [(٣)]
وقد جرَت الأفواهُ فيه مُجرَّةً ... مَذانبها شُهُبٌ لَهُنَّ ذوائب
وأشْرَف من [عَلْياء بَهْوٍ] [(٤)] تحفُّه ... شَماسىٌّ زُجاجٍ وشْيُها مُتناسِب
يُطِلُّ على ماءٍ به الآسُ دائرٌ ... كما افترَّ ثغرٌ أو كما اخضرّ شارب
هنالك ما شاء العُلى من جلالةٍ ... بها يَزْدَهى بُستانُها والمراتب

ولما أُحضر [(٥)] الطعام هنالك ، دُعى شيخنا القاضى أبو البركات ، إلى الأكل فاعتذر بأنه صائم ، قد بيَّته من الليل ، فحضرنى أن قلت :

دَعَوْنا الخطيبَ أبا البركا ... ت لأكل طعام الوزير الأجَلّ
وقد ضَمَّنا فى نداه جِنانٌ ... به احتفل الحُسْنُ حتى كَمَل
فأعْرَض عنّا لعُذر الصيام ... وما كلُّ عُذرٍ له مُسْتَقَل [(٦)]
فإن الجنان محلُّ الجَزاء ... وليس الجنانُ محلَّ العمل

وعند ما فرغنا [من الطعام] [(٧)] أنشدتُ الأبيات شيخَنا أبا البركات ، فقال : « لو أنْشَدتَنيها ، وأنتم بعد لم تَفرغوا منه لأكَلْتُ معكم برًّا بهذه الأبيات ، والحوالة فى ذلك على الله تعالى » .

---

(١) عين الدمع مكان اشتهر أيام غرناطة الإسلامية بجمال خضرته ومتنزهاته . وسبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص ١٢٧) .
(٢) فى المخطوطين تنصب . والتصويب من النفح .
(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » الجانب .
(٤) وردتا محرفتين فى « ج » (علياه بهو) وفى « ك » (علياه فهو) .
(٥) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » حضر .
(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » مستقبل .
(٧) الزيادة من نفح الطيب .

ولمـا قضى الله عزّ وجلّ ، بالإدالة ، ورجَعْنا إلى أوطاننا من العُدْوة ، واشتهر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخِدْمة ، والتِّيه على السلطان والدولة ، والتكَبُّر [على أعْلى رُتَب الخِدمة][1] ، وتطارحتُ على السلطان فى استنجاز وعد الرحلة ، ورغبت فى تفويت[2] الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالجملة ، خاطبنى بعد صَدر يَبلغ من حُسن الإشارة ، و براعة الإستهلال الغاية ، بقوله[3] :

« و إلى هذا يا سيدى ، ومحلَّ تعظيمى و إجلالى ، أمْتَع الله تعالى الوجود بطول بقائكم ، وضاعف فى العزِّ درجات ارتقائكم ؛ فإنّهُ من الأمر الذى لم يَغِب عن رأى المَقُول[4] ، ولا اختلف فيه أرْبابُ المَحْسوسِ والمعقول ؛ أنّكم بهذه الجَزِيرة شمسُ أفُقِها ، وتاج مَفْرِقها ، وواسطة سِلكها ، وطِراز مُلكها ، وقِلادة نَحْرِها ، وفريدة دهرها[5] ، [وعِقد جِيدها المَنْصُوص ، وكمال زينتها على المعلوم والمخصوص ؛ ثم أنتم مدارُ أفلاكها][6] ، وسرُّ سياسة أملاكها ، وتُرْجمان بيانها ، ولسانُ إحسانها ، وطبيب[7] مارَسْتانها ، والذى عليه عَقْد إدارتها ، وبه قِوام إمارتها ؛ فلَدَيه يُحل المشكل ، وإليه يُلجأ فى الأمر المُعضل ؛ فلا غَرْو أن تتقيَّد بكم الأسماع والأبصار ، وتُحدّق نحوكم الأذهان والأفكار ؛ و يُزْجَر عنكم السانح والبارح ، ويُسْتَنْبأ ما تَطْرِفُ عنه العين وتَخْتَلج الجوارح ، استقراءً لمرامكم ، واستطلاعاً لطالع اعتزامكم ، واستكشافاً لمرامى سهامكم ؛ لاسيما مع إقامتكم على جَناح خُفوق ،

---

(١) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (على أعلى المراتب) . وما أثبتناه عن نفح الطيب وأزهار الرياض ، وهو أرجح .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح : تبرئة .

(٣) وردت مكانها فى المخطوطين : وهو . والتصويب من النفح وأزهار الرياض .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح وأزهار الرياض : المعقول . والأولى أرجح حسبما يتضح من السياق .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح وأزهار الرياض (درها) . والأولى أرجح .

(٦) ما بين الخاصرتين وارد فى « ك » ، وساقط فى « ج » .

(٧) هكذا فى النفح . وفى المخطوطين : طب .

وظهوركم فى مُلْتَمَع بُروق ، واضطراب[١] الظُنون فيكم مع الغروب والشروق ؛ حتى تستقرَّ بكم الدّار[٢] ، و يلقى عصاهُ التّسْيار ؛ وله العُذر فى ذلك إذ صَدْعُها بفراقكم لم يَنْدمل ، وسرورها بلقائكم لم يكْتمل ؛ فلم يَبْرَ بعد جناحُها المَهيض ، ولا جَمَّ ماؤها المَغيض ، ولا تميَّزت من داجيها لياليها البيض ؛ ولا استوى نهارُها ، ولا تألّقت أنوارُها ، ولا اشتملت نعماؤها ، ولا نُسيت غماؤها ؛ بل هى كالنّاقه ، والحديث العَهْد بالمكاره ، تَسْتشعر نَفَس العافية ، وتتمسّح منكم باليد الشافية ؛ فبحياتكم عليها ، وعظيم مُرْضاتكم[٣] على من لديها ، لا تَشُوبوا لهاعذب المُجاج بالأُجاج ، و تُقْنِطوها[٤] مما عُودت من طيب المزاج ، فما لدائها[٥] ، وحياة قُربكم غير طبِّكم من علاج ؛ و إنى ليَخطر بخاطرى محبةً فيكم ، وعنايةً بما يَعنيكم ، ما نال جانبكم صانه الله [بهذا الوطن][٦] من الجفاء ، ثم أذكر [ما نالكم من حسن العَهْد وكرم الوفاء ، وأنّ الوطن إحدى المواطن الأظآر التى][٧] يحق لهنّ جميل الاحتفاء ، وما يتعلق بكم من حُرمة أولياء القرابة [وأولى][٨] الصّفاء ؛ فيغلب على ظنى ، أنكم لحسن العهد أجْنَح ، و بحق نفسكم [على أوليائكم][٩] أسْمح ، والتى هى أعظم قيمةً فى فضائلكم أوهَبَ وأمْنَح ؛ وهَبْ أن الدُّرَّ لا يحتاج فى الإثبات إلى شهادة النُحور[١٠] واللبَّات ؛

---

(١) وردت فى المخطوطين : واطراب . هو تحريف .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح وأزهار الرياض : الديار .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح : حرمتكم .

(٤) وردت فى « ك » وتقمطوها ، وفى « ج » وتقطوها . وفى النفح والأزهار : وتفطموها . ولكنى اعتقد صحة التصويب .

(٥) وردت فى « ج » لديها . وفى « ك » لبدنها .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . وقد أكملناه عن النفح والأزهار .

(٧) ما بين الحاصرتين ساقط أيضاً فى المخطوطين ، وهو سقط سهو كما يبدو . وقد أثبتناه عن النفح والأزهار .

(٨) وردت فى « ج » ، وأغفلت فى « ك » .

(٩) هكذا وردت فى المخطوطين . و وردت فى النفح والأزهار : (عن حق أوليائكم)

(١٠) وردت فى المخطوطين : شهود ، وهو تحريف . والتصويب من النفح والأزهار .

والياقوت غنى المكان،عن مظاهرة القلائد والتيجان ؛ أليس أنه أعلى للعِيان ، وأبعدُ عن مكابرة البرهان ، تألَّقها(١) فى تاج الملك أنوشِروان ؛ والشمس وإن كانت أمُّ الأنوار وجلاء الأبصار ، مهما أغمى مكانها من الأفق ، قيل ، الليلُ هو أم نهار ؛ وكما فى علمكم ما فارق ذو الأحلام ، وأولو الأرحام ، مواطن استقرارهم ، وأماكن قرارهم ، إلا برَغْمهم واضطرارهم ، واستبدال دارٍ هى(٢) خير من دارهم ؛ ومتى تَوازن الأندلس بالمغرب ، أو يُعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؛ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعُباد، وما فوقه مرابط(٣) جهاد ، ومعاقد ألْوِية فى سبيل الله، ومَضاربُ أوْتاد ؛ ثم يُبوِّئ ولدَه مُبوَّأ أجداده ، ويجمع له بين طرافه(٤) وتلاده ؛ أعيذ أنظاركم المُسَدّدة من رأى فائل ، ومعنى طويل لم يَحُل منه بطائل [فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعَوْد الحميد] »(٥) . وهى طويلة .

فأجبته عنها بقولى :

لُمْ فى الهوى العُذْرى أولا تَلُم ... فالعَذْلُ لا يَدخل أسماعى
شأنُك تَعْنيفى وشأنى الهوى ... كلٌّ امرئٍ فى شأنه ساعى

« أهلا بتُحْفة القادم ، ورَيْحانة المُنادم، وذكرالهوى المُتقادم؛ لا يُصفر الله مَسْراك ، فما أسراك ؛ لقد جَلَبت(٦) إلى من همومى ليلا ، وجُبْتَ(٧) خَيْلا ورَجْلا ، ووفّيت من صاع الوَفا كَيْلا ، وظننتَ بى الأسف على ما فات، فاعملت الالتفات ، لكيلا؛

(١) وردت فى المخطوطين : (ما يعها) . والتصويب من النفح والأزهار .

(٢) فى المخطوطين : هو . وهو تحريف .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، رباط .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : طارفه .

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . وأثبتناه عن النفح والأزهار .

(٦) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » حلبت . وفى النفح والأزهار : جبت . والأولى أرجح .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : جست .

فأُقسم لو أن الأمر اليوم بيدى ، أو كانت اللِّمة السوداء من عُدَدى(١) ما أفلَتّ أشراكى المنصوبة لأمثالك حَوْل المياه وبين المسالك ، [ولا علمت ما هنالك](٢) ، لـكنك طَرَقْتَ حِمًى كسَحَتْه(٣) الغارة الشّعواء ، وغيرت [رَبْعه](٤) الأنواء ؛ فخمد بعد ارتجاجه ، وسَكَتَ أُذين دَجاجه ، وتلاعَبت الرياح والهوج فوق فِجاجه ؛ وطال عهدُه بالزّمان الأول ، وهل عند رسْمٍ دارس من مُعوّل ؛ وحيَّا الله نَدْباً إلى زيارتى نَدَبك ، و بآدابه الحكيمة أدّبك :

فكان وقد أفاد بك الأمانى كمن أهْدَى الشِّفاء إلى العليل(٥)

وهى شيمةٌ بوركت من شيمة ، وهبةُ الله قبله من لَدُن المَشيمة ؛ ومن مثله فى صِلة رَعْى ، وفضل سعى ، وقولٍ وَوَعْى :

قسماً بالـكواكب الزُّهر والزُّهر عاتمـــة

إنما الفضـــل مِلةٌ خُتمت بابن خاتمة

كسانى حُلة وصفه(٦) ، وقد ذهب زمان التجمُّل ، وحمّلنى ناهض شكره ، و كَتَدى واهٍ عن التحمُّـل ، ونظرنى بالعين الـكليلة عن العيوب(٧) فهلا أجاد التأمُّل ؛ واستطلع طلع نَثِّى ،(٨) ووالى فى مركب(٩) المعجْزَة حثِّى ، و إنما أشكو بثِّى :

« ولو ترك القَطا ليلا لناما »

---

(١) فى المخطوطين : عدتى . والتصويب من النفح والأزهار .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . وأثبتناه عن النفح والأزهار .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : كسعته .

(٤) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٥) ورد هذا البيت فى المخطوطين مرسلا فى سياق الكلام .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : فضله . والأولى أرجح .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : العيب .

(٨) فى المخطوطين : بثى .

(٩) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ركب .

وما حالُ شمل وتِدُه مفروق ، وقاعدته فروق ، وصُواعُ بنى أبيه مسروق ؛ وقلبُ قرْحه من عضَّة الدهر دامٍ ، وجَمْرَةُ حسرته ذات احتدام ؛ هذا وقد صارت الصُّغرى ، التى كانت الكبرى ، لمشيبٍ لم يَرُعْ أن هجم ، لمّا نجَم ، ثم تهلّلَ عارضُه وانسجم :

لا تَجْمَعى هجراً علىّ وغُربَةً فالهجرُ فى تَلَف الغريب سريع

نظرتُ فإذا [الجنب ناب](١) ، والنفْس فريسة ظُفُر وناب ، والمال أكيلةُ انتهاب ، [والعُمْر رهن ذهاب](٢) ، واليد صِفْرٌ من كل اكتساب ، وسوق المَعاد مترامية ، والله سريع الحساب .

ولو نُعطى الخَيار لما افْتَرَقنا ولكن لا خَيار مع الزمان

وهَبْ أن العمر جديدٌ ، وظِلُّ الأمن مديدٌ ، ورأى الاغتباط [بالوطن](٣) سديدٌ ؛ فما الحجةُ لنفسى إذا مرّت بمطارح جَفوْتها ، وملاعب هَفْوتها ، ومناقب(٤) قناتها(٥) ، ومظاهر عُزَّاتها ومُناتها ؛ والزمان وَلود ، وزِنادُ الكون غير صَلُود(٦)

وإذا امرؤ لدغته أفعى مرة تركته حين يُجرُّ حبْل يَفرْق

ثم ان المُرغِّب قد ذهب ، والدهر قد استرجع ما وَهَب ، والعارضُ قد اشتَهب ؛ وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضةٌ ، وأسماؤه على الجوار مخفوضةٌ ، والنّية مع الله على الزُّهد فيما بأيدى الناس معقودةٌ ، والتوبة بفضل الله عزّ وجلّ شروطها غير مُعارضة

---

(١) مكان هذه العبارة فى المخطوطين : (الحسنات) . وهى ساقطة فى النفح . وقد أثبتناها عن الأزهار .

(٢) هذه العبارة ساقطة فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » : (والعمر رد عن ذهاب) .

(٣) ساقطة فى المخطوطين ، وأثبتناها عن النفح والأزهار .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : « مثاقف » .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » قناعتها .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » صلاد .

ولا منَقودة ؛ والمعاملة سامِرية ، ودروع الصبر سابرية[١] ؛ والاقتصاد قد قرّت العين بصحبته ، والله قد عوّض[٢] حب الدنيا بمحبته ؛ فإذا راجعها[٣] مثلى من بعد الفراق ، وقد رَقى لَدْغتها ألف راق ؛ وجمعتنى بها الحُجرة ، ما الذى تكون الأجرة ، جلّ شانى ، وقد رضى الوامق وسَخِط الشانى ؛ إنى إلى الله [تعالى][٤] مُهاجر[٥] ، وللغرض الأدنى هاجر ، ولأَظْعان السُّرى زاجر ، لأُحُد[٦] إن شاءالله وحاجر ؛ ولكن دعانى إلى الهوى ، لهذا المولى المُنعم هوى ، خلعتُ نَعْلَى الوجود وما خلعته ، وشوق أمرَنى فأطعتُه ، وغالبٌ والله صبرى فما استطعتُه ؛ والحال والله أغلب ، وعسى أن لا يخيبَ المَطْلب ؛ فإن يسره رضاه فأمل[٧] كمَل ، وراحل احتمل ، وحادٍ أشْجَى النّاقة والجَمَل ؛ و إن كان خلاف ذلك ، فالزمان جمٌّ العوائق ، والتسليم بمقامى لائق .

ما بين غَمْضَة عيْن وانتباهتها ... يُصرّف الأمرُ من حال إلى حال

وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ، ليُمْن طَيْره ، وعموم خَيْره ، و بركة جهادِه ، وعُمْران رُباه ووهادِه ، بأشْلاء عُبّاده وزهّاده ، حتى لا يفضُله إلا أحدُ الحرمين ، فحقٌّ برئٌ من المَيْن ؛ لكنّى للحرمين جَنحْتُ ، وفى جو الشوق اليهما سَرَحتُ ،[٨] فقد أفضَت الى طريق قصدى محجّتُه ، ونصرتنى والمِنّة[٩] لله حجته ؛ وقَصْدُ

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، سافرية .

(٢) هكذا ا فى « ج » . وفى « ك » ، عرض ، وهو تحريف .

(٣) فى « ك » ، راجها .

(٤) ساقطة فى المخطوطين .

(٥) هكذا فى النفح والأزهار . وفى المخطوطين : هاجر .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : لنجد .

(٧) هكذا فى المخطوطين والأزهار . وفى النفخ : أمر .

(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : سنحت .

(٩) وردت فى « ج » والسمة . وفى « ك » والسمت . والتصويب من النفح والأزهار .

سيدى أسْنى قصد ، توخَّاه الشكر والحمد، ومعروفٌ عُرف به النُّكر، وأملٌ انتحاه الفكرُ ؛ والآمال [والحمد لله] (١) بعد تُمتار ، والله يخلق ما يشاء ويختار ، ودعاؤه بظهر الغيب مَدَد ، وعُدَّة وعَدَد ، و بِرُّه حالَيْ الظَّعن والإقامة مُعْتَملٌ مُعْتَمَد ، ومجال المعرفة بفضله ، لا يَحْصُره أحد ، والسلام »(٢) .

وهو الآن بقيد الحياة ، وذلك ثانى عشر شعبان عام سبعين وسبعمائة .

أحمد بن عباس بن أبى زكريا

و يقال ابن زكريا . ثَبَت بخط ابن النَّباتى ؛ أنصاريٌّ النسب ، يكنى أبا جعفر .

حـــاله

كان كاتباً حسن الكتابة ، بارع الخطِّ ، فصيحاً، غزير الأدب، قوى المعرفة، شارعاً فى الفقه، مشاركا فى العلوم ، حاضر الجواب، ذكىَّ الخاطر ، جامعاً للأدوات السلطانية، جميل الوجه ، حسن الخِلْقة ، كلِفا بالأدب ، مُؤثرا له على سائر لذَّاته، جامعا للدواوين العلمية، مُقتنياً [للجيّد منها] ، (٣) مغالياً فيها ، نفَّاعا من خصّه بها ، لا يستخرج منها شيئاً ، لفَرْط بُخْله بها ، إلا لسبيلها ، حتى لقد أثرى كثيرٌ من الورَّاقين والتجَّار معه فيها ، وجمع منها ما لم يكن عند مَلِك .

« يساره »؛ يقال إنه لم يجتمع عند أحد من نُظَرائه ما اجتمع عنده من عَيْن وورق ودفاتر وخِرَق ، وآنية ، ومتاع وأثاث وكُراع .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : (من فضل الله) .

(٢) وردت رسالة ابن خاتمة ورد ابن الخطيب عليها ، فى نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣٦ – ٣٣٨ ؛ وفى أزهار الرياض (القاهرة) ج ١ ص ٢٦٥ – ٢٧٠ .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : (لحمدها – بحمدها) . والتصويب من الذخيرة .

« مشيخته » ؛ روى عن أبى تمام غالب البيّانى، وأبى عبد الله بن صاحب الأحباس.

« نباهتُه وحُظْوته » ؛ وزَرَ لزُهير العامرى[١] الآتى ذكره، وارثاً الوزارة عن أبيه، وهى ما هى فى قطر [مُتَحَرٍّ بينابيع السَّخيلة ، وثَرٍّ بهذه الأَمَنة][٢] مستنداً الى قَعْساء العزة، فتبنَّك[٣] نعيما كثيراً ، تجاوز الله عنه.

« دخوله غرناطة » ؛ الذى اتصل علمى أنه دخل غرناطة منكوباً حسبما يتقرر.

نكبته

زعموا أنه كان أقوى الأسباب فيما وقع بين أميره زُهير، و بين بادِيس[٤] . أمير غَرْناطة، من المفاسدة، وفَصْل صَحْبه إلى وَقَم باديس وقَبيله، وحطِّه فى حيِّز هواه وطاعته، وكان ما شاء الله من استيلاء باديس على جُمْلتهم، ووَضْع سيوف قومه فيهم، وقَتْل زُهير، واستئصال محلَّته؛ وقبض يومئذ على أحمد بن عباس، وجِىء به إلى باديس، وصدرُه يغلى حقداً عليه، فأمر بحبسه، وشفاؤه الولوغُ فى دمه، وعجل عليه بعد دون أصحابه من حَمَلة[٥] الأقلام[٦]. قال ابن حيّان، حديث ابن عباس أنه[٧] ، كان قد وَلَع ببيت[٨] شعر صيره هَجْواه أوقات لعبه بالشطرنج، أو مَعْنًى يسنحُ له مستطيلاً بجَدِّه[٩] :

---

(١) هو أحد زعماء الطوائف من الفتيان العامريين عقب الفتنة البربرية . استولى على المرية وحكمها عقب وفاة زميله خيران العامرى (٤١٨ - ٤٢٨ هـ) .

(٢) وردت هذه الكلمات محرفة فى المخطوطين : (ببحر فينابيع السنجاية وثير بهذا الأمنة) . والتصويب من « ت » .

(٣) أى استقر فى نعماء .

(٤) ترد هنا فى المخطوطات الثلاثة : (بادس) . والصحيح المشهور هو (باديس) .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة : جملة .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » الأقدام ، وهو تحريف .

(٧) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٨) وردت هاتان الكلمتان ، فى المخطوطين هكذا : ولغ بيت ، وهو تحريف ظاهر .

(٩) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و « ت » ، بعده .

عيونُ الحوادث عنى نِيـامٌ   وهَضْمى على الدهر شىء حَرام

وشاع بيتهُ هذا عند الناس ، وغاظهم ، حتى قَلَب له مصراعه بعضُ الشعراء فقال :

« سيُوقِظُها قَدَرٌ لا ينام »

فما كان إلا كلا ولا حتى [١] تنبّهت الحوادثُ لهَضْمه ، انتباهةً [٢] انتزعت منه نَخوته وعزَّته ، وغادرته أسيراً ذليلا يَرْسُف فى وزن أربعين رطلا من قَيْده ، منزعجاً من عَضِّه لساقه البَضَّة [٣] ، التى تألمت من ضغطة جوْرَبه ، يوم أصبح فيه أميراً مطاعاً أعْتَى [٤] الخلقِ على بابه ، وآمَنهم بمكره ، فأخذه أخْذَ مليكٍ مقتدر ، والله غالبٌ على أمره .

وفاتُه

قال أبو مروان : كان باديس قد أرجأ قتْله مع جماعة من الأسرى ، وبَذَل فى فداء نفسه ثلاثين ألف دينار من الذَّهب العَيْن ، مالت إليها نفسُ باديس ، إلا أنه عَرَض ذلك على أخيه بُلـكِّين [٥] ، فأنِف منه ، وأشار عليه بقتله ، لتوقعه [٦] إثارة فتنة أخرى على يديه ، تَأْكُل من ماله أضْعاف فِديته . قال فانصرف يوماً

---

(١) وردت هنا فى « ت » هذه العبارة : (تيقظت إليه ونبهت) وهى ساقطة فى المخطوطين . وفى الذخيرة الذى نقل نص ابن حيان الأصلى . ولذلك أسقطناها .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » انباهة .

(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى « ت » (من غصه لسانه العضه)

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » وردت محرفة : على .

(٥) جرى الناسخ فى المخطوطات الثلاثة على كتابة اسم « بلقين » بالقاف . ولكننا فضلنا كتابتها حيثما وردت «بالكاف » أى «بلكين» . وهو الرسم الذى يورده ابن خلدون أوثق حجة فى الأعلام البربرية ، وكذلك السلاوى فى « الاستقصاء » ، وابن خلكان فى « وفيات الأعيان » .

(٦) وردت فى المخطوطين محرفة (لتفرقعه – لتفرنعه) .

من بعض رَكَباته مع أخيه ، فلما توسط الدار التى فيها أحمد بقَصَبة غَرْناطة ، لصق القصر ، وقف هو وأخوه بلكِّين ، وحاجبُه على بن القَرَوى ، وأمر بإخراج أحمد إليه ، فأقبل يَرْسُف فى قيده حتى وقف بين يديه ، فأقبل على سبِّه وتبكيته بذنوبه ، وأحمدُ يتلطف إليه ، ويسأله إراحَتَه مما هو فيه ، فقال له : « اليوم تستريح من هذا الألم ، وتنتقل إلى ما هو أشد » ؛ وجعل يُرَاطن أخاه بالبربرية[١] ، فبان لأحمد وجه الموت ، فجعل يكثرُ الضَّراعة ، ويضاعفُ عدد المال ، فأثار غضبه ، وهز مِزْراقه ، وأخرجه من صدره ؛ فاستغاث [الله][٢] ، زعموا ، عند ذلك ، وذكر أولاده وحرمه ؛ لِلْحين أمر باديس بحزِّ رأسه ، ورُمى[٣] خارج القصر .

حدَّث خادم باديس ، قال : رأيت جسد ابن عباس ثانى يوم قتله ، ثم قال لى باديس ، خُذْ رأسه وواره مع جسده ؛ قال : فنبشتُ قبره ، وأضفتهُ إلى جسده ، بجَنْب أبى الفتوح قتيل باديس أيضاً . وقال لى باديس : ضع عدُوًّا إلى جَنْب عدُو ، إلى يوم القِصاص ؛ فكان قتلُ أبى جعفر عشيَّة الحادى والعشرين من ذى حجة سنة سبع وعشرين وأربعمائة، بعد اثنين وخمسين يوماً من أسره . وكان يوم مات ابن ثلاثين سنة . [نفعه الله ورحمه][٤] .

---

(١) وردت فى « ك » بالبربارية . وفى « ج » بالبرية .

(٢) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٣) وردت فى « ك » ورومى . وفى « ج » وورى ، وهو تحريف حسبما يتضح بعد من السياق .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . ووردت فى « ك » (رحمه الله ونفعه) .

أحمد بن أبى جعفر بن محمد بن عِطِيّة القُضاعى

من أهل مَرّاكُش ، وأصله القديم من طُرْطُوشَة[١] ، ثم بعد ، من دَانِية[٢] ، يُكنى أبا جعفر .

« حالُه » : كان كاتباً بليغاً ، سهل المأخذ ، مُنقاد القريحة ، سيّال الطبع[٣] ، رائق الخط .

« مشيختُه » : أخذ عن أبيه ، وعن طائفة كبيرة من أهل مراكش .

نباهتــــه

كتب عن [على][٤] بن يوسف بن تاشُفين ، وعن ابنه[٥] تاشفين ، وعن أبى إسحاق[٦] . وكان أحظَى كُتّابهم . ثم لما انقطعت دولة لَمْتُونة، دخل فى لَفيف الناس ، وأخفى نفسه . ولما أثار الماسى[٧] الهداية بالسّوس ، ورمى المُوَحِّـدين

---

(١) طرطوشة وبالإسبانية Tortosa من مدن الأندلس القديمة ومن قواعد الثغر الأعلى ، وتقع على مصب نهر إيبرو جنوب غربى برشلونة .

(٢) ودانية من ثغور الأندلس القديمة . تقع جنوبى بلنسية على لسان بارز فى البحر . وقد كانت أيام الطوائف قاعدة لمملكة مجاهد العامرى أمير دانية والجزائر الشرقية (البليار) . وبالإسبانية Denia

(٣) هكذا وردت فى « ك » . ولكنها وردت فى « ج » (القريحة) للمرة الثانية ، وهو سهو .

(٤) هذا الإسم ساقط فى المخطوطين ، وإثباته ضرورى للسياق .

(٥) وردت فى المخطوطين : أبيه . وهو تحريف . لأن تاشفين هو ابن على بن يوسف .

(٦) فى إيراد هذه العبارة التاريخية بعض الغموض والخلط . فإن الذى كتب عن على بن يوسف ثم عن ولده تاشفين ، هو أبو جعفر بن محمد بن عطية والد صاحب الترجمة (انظر ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٢. والاستقصاء للسلاوى ج ١ ص ١٥٢) . أما صاحب الترجمة أحمد بن أبى جعفر فقد خدم أبا إسحق (وليس إسحاق كما ورد فى المخطوطين) ابراهيم بن على بن يوسف . وهو الذى انقرضت على يده دولة المرابطين فى المغرب سنة ٥٤١ هـ . (١١٤٦م.) .

(٧) هو محمد بن هود الماسى، أصله من أهل سلا . وقد خرج بالسوس داعياً ضد الموحدين ، وجمع لمحاربتهم جيشاً كبيراً ، وهزمهم فى البداية، ولكنه هزم فى النهاية وقتل، وذلك فى أواخر سنة ٥٤١ هـ (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢) .

بحَجَرهم الذى رموا به البلاد ، وأعيا أمرُه ، وهَزَم جيوشهم التى جهزوها إليـه ، وانتُدب منهم إلى ملاقاته أبو حفص عمر بن يحيى الهِنْتاتى ، فى جيش خَشِن من فرسان ورَجَّالة ، كان أبو جعفر بن عطية ، من الرَّجالة ، مُرْتَسما بالرماية ، والتقى الجمْعان ، فهُزم جيش الماسى ، وظهر عليه الموحدون(١) ، وقُتل الدَّعِى المذكور ؛ وعظُم موقعُ الفتح عند الأمير الغالب يومئذ أبى حفص عمر ، فأراد إعلام الخليفة عبد المؤمن ، بما سَناه الله ، فلم يَلْق فى جميع من استصحبه من يُجلى عنه ، ويُوفى ما أراده ، فذُكر له أنّ فتًى من الرماة يُخاطر بشىء من الأدب والأشعار والرَّسايل فاستحضره ، وعرض عليه غرضه ، فتجاهل وظاهر بالعجز ، فلم يَقْبل عذره ، واشتدَّ عليه ، فـكتب رسالة فائقة مشهورة . فلما فرغ منها وقرأها عليه ، اشتدَّ إعجابُه بها ، وأحسن إليه ، واعتنى به ، واعتقد أنه ذُخْرٌ يُتحف به عبد المؤمن ؛ وأنفذ الرسالة ، فلما قُرئت بمَحْضَر أكابر الدولة ، عظُم مقدارُها ، ونَبِه فضل منشيها ؛ وصدر الجواب ، ومن فصوله الاعتناء بكاتبها(٢) ، والإحسانُ إليـه ، واستصحابُه مكرَّماً . ولما أُدخل على عبد المؤمن ، سأله عن نفسه ، وأحْظاه لديه ، وقلَّده خُطَّة الـكتابة ، وأسند إليه وَزارته ، وفوَّض إليه النظر فى أموره كلها ؛ فنَهَض بأعباء ما فُوِّض إليه ، وظهر فيه استقلالُه ، وغِناؤه ، واشتهر بأجْمَلِ السَّعى للناس ، واستمالتهم(٣) بالإحسان ، وعمَّت صنايعُه ، وفشا معروفُه ، فـكان محمود السيرة ، مُنْحَبَّ المحاولات ، ناجح المساعى ، سـعيد المآخذ ، مُيسَّر المآرب ؛ وكانت وزارته زَيْناً للوقت ، كمالا للدولة .

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الموحدين . وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . ووردت محرفة فى « ج » بكتابتها .

(٣) هكذا فى « ن » ، وفى « ج » ، واستمالاتهم .

محنتــــه

قالوا : واستمرت حالته إلى أن بلغ الخليفة عبد المؤمن أن النصارى غزوا[١] قَصَبة أَلمرِيّة ، وتحصّنوا بها ، واقترن بذلك تقديمُ ابنه يعقوب على إشْبيلِيَّة ، فأصحبه أبا جعفر بن عطية ، وأمره أن يتوجه بعد استقرار ولده بها ، إلى ألمرية ؛ وقد تقدم إليها السَّيد أبو سعيد بن عبد المؤمن ، وحَصَر من بها من النصارى ، وضيَّق عليهم ليحاول أمر إنزالهم ، ثم يعود إلى إشبيلية ، ويتوجه منها مع واليها[٢] ، إلى مُنازلة الثائر بها على الوهيبى ، فعمل على ما حاوله من ذلك ، واستَنْزَل النصارى من المريّة على العهد ، بحسن محاولته[٣] ؛ ورجع السيد أبو سعيد إلى غرناطة ، مُزْعَجَين إليها ، حتى يسبقا جيش الطَّاغية ؛ ثم انصرف إلى إشبيليّة ليقضى الغَرَض من أمر الوُهَيبى . فعند ما خلا منه الجوُّ ، ومن الخليفة مكانه ، وجَدَت حُسَّاده ، السبيل إلى التَّدبير عليه ، والسعى به ، حتى أوغَروا[٤] صَدْر الخليفة ؛ فاستَوْزر عبد المؤمن ، ابن عبد السلام بن محمد الكومى ، وانبرى لمطالبة[٥] ابن عطية ، وجدَّ فى التماس عَوَراته ، وتشنيع سَقَطاته ، وأغْرَى به صنايعه ، وشَحَن عليه حاشيته ، فبرُّوا وراشوا وانقلبوا ؛ وكان مما نقم على أبى جعفر ، نِكاة القَرْح بالقَرْح ، فى كونه لم يقف فى اصطناع العَدَد الكثير من اللَّمتونيين ، وانتياشِهم من خُمُولهم ؛ حتى تزوج بنت يحيى الحمار من أمرائهم ؛ وكانت أمُّها زينب بنت على بن يوسف ، فوجدوا[٦]

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » عدوا .

(٢) وردت فى المخطوطين : وليها . وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ولايته . والأولى أصلح للسياق .

(٤) فى المخطوطين : وأغروا .

(٥) وردت فى المخطوطين : لمطالبته . والتصويب أرجح .

(٦) وردت فى المخطوطين : فوجد بالمفرد . والسياق يقتضى صيغة الجمع .

السَّبيل بذلك إلى استِئْصال شأْفته ، [والحكام] (١) ، حتى نظم منهم مروان بن عبد العزيز ، طليقه ومُسْتَرقُّ اصطناعه ، أبياتاً طُرحت بمجلس عبد المؤمن :

قُلْ للإمام(٢) أطال الله مدَّته ... قولًا تبين لذى لبٍّ حقائقه
إن الزراجين(٣) قوم قد وَتَرْتَهم ... وطالبُ الثأرِ لم تُؤْمَن(٤) بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميلٌ ... لذاك ما كثُرَت فيهم علائقُه
فبادِرْ الحزْم فى إطْفاء نارهم ... فربما عاق عن أمر عوائقُه
هم العدُوُّ ومن والاهم كهُمُ ... فاحذر عدوَّك واحذر مَن يُصادقُه
الله يعلم أنى ناصحٌ لكمُ ... والحقُّ أبْلَجُ لا تَخْفَى طرايقه

قالوا ، ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة فى معناها ، وَغِر صدره على وزيره الفاضل أبى جعفر ، وأسرَّ له فى نفسه تغيُّراً ، فكان ذلك من أسباب نكبته . وقيل أفضى إليه بسر فأفشاه(٥) . وانتهى ذلك كله إلى أبى جعفر وهو بالأندلس ، فقَلِق وعجّل الانصراف إلى مَرَّاكُش ، فحُجب عند قدومه ، ثم قِيد إلى المسجد فى اليوم الثانى بعده ، حاسِرَ العمامة ، واستُحْضر الناس على طبقاتهم ، وقرروا ما يعلمون من أمره(٦) ، وما صار إليهم منه ، فأجاب كلٌّ بما اقتضاه هواه ، فأمر بسجنه ، ولفَّ معه أخوه أبو عقيل عطية ؛ وتوجَّه عبد المؤمن فى إثْرِ ذلك ، زايراً إلى تُرْبة المهدى ، فاستصحبهما منكو بين بحال ثِقافٍ ؛ وصدرت عن أبى جعفر ، فى هذه الحركة ، من لطايف الأدب ، نظماً ونثراً فى سبيل التوسُّل بتُربة

---

(١) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين . ولم نستبن صلتها بالسياق .

(٢) هكذا وردت فى « ك » وفى « ح » . الأمير ، والأولى أرجح .

(٣) فى المخطوطين : الزراحين ، والتصويب من الاستقصاء .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » توقد .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » فافشى .

(٦) فى المخطوطين : أمرهم . والتصويب من الاستقصاء .

إمامهم ، عجائب لم تُجْدِ[١] ، مع نفوذ قَدَر الله فيه ؛ ولما انصرف من وُجهته أعادهما معه ، قافِلًا إلى مراكش ؛ فلما حاذى[٢] تاقمْرْت[٣] ، أنفَذ الأمر بقتلهما ، بالشَّعْراء المتَّصلة بالحصن على مقربة من الملَّاحة هنالك ، فمضيا لسبيلهما ، رحمهما الله .

شعره وكتابته

كان مما خاطب به الخليفة عبد المؤمن مُسْتَعطفاً كما قلناه من رسالة :

« تالله لو أحاطت بى خطيئةٌ ، ولم تَنْفَك نفسى عن الخيرات بطيئةً ، حتى سَخِرتُ بمن فى الوجود ، وأنِفْتُ لآدم من السجود ، وقلتُ إن الله لم يُوحِ إلى الفُلك إلى نوح ، وبَرَيْتُ لقرار ثمُود نِبلاً ، وأبرَمْتُ لحطَب نار الخليل حَبْلا ، وحطَطْتُ[٤] عن يونس شجرة اليَقْطين ، وأوقدتُ مع هامان على الطين ، وقبضتُ قبضةً [من الطَّير][٥] من أثر الرسول فنبذتُها ، وافتريْتُ على العَذْراء البتُول فقذفتُها ، وكتبتُ صحيفة القَطيعة بدار النَّدْوة ، وظاهرتُ الأحزاب بالقُصْوى من العَدْوة ، وذَمَمْتُ كل قُرشى ، [وأكرمتُ لأجل وحشى كل حبشى][٦] ، وقلت إن بيعة السَّقيفة[٧] لا توجب لإمام[٨] خليفة ، وشحذتُ

---

(١) فى المخطوطين : توجد ، وهو تحريف ظاهر .

(٢) وردت فى « ج » ، حاذت . وفى « ك » ، حاد .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، قمرت . وينطق اسم هذه البلدة أحياناً : تاكمرت ، وتغمرت .

(٤) وردت فى المخطوطين : انحططت ، والتصويب يقتضيه السياق .

(٥) وردت هاتان الكلمتان فى « ك » وأغفلتا فى « ج » .

(٦) وردت هذه العبارة فى المخطوطين هكذا . (وأكرمت لأجل كل وحشى) . والزيادة والتصويب من الاستقصاء .

(٧) وردت فى « ك » ، وأغفلت فى « ج » .

(٨) هكذا وردت فى « ج » وفى « ك » إمام . والأولى أصوب .

شفرة غلام المغيرة [بن شعبة][١] ، واعتَلَقْتُ من حصار الدار وقتل أشْمُطها[٢] بشُعبة ، وغادرت الوجه من الهامة خضيباً ، وناولت من قرْع سن الخمسين قضيباً ، ثم أتيت حَضْرة المعْصوم لائذاً ، و بقبر الإمام المهدىِّ عائذاً[٣] ، لقد آن لمقالتى أن تُسْمع ، وأن تُغفر لى هذه الخطيئاتُ أجْمع :

فعفواً أمير المؤمنين فَمَنْ لَنـــا ... بحَمْل قلوبٍ هدّها الخفقانُ
عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البَثِّ والحزَن
قد أغرَقتنا ذنوبٌ كلها لُجَجٌ ... وعطفةٌ منكمُ أنْجى من السُّفُن
وصادفَتْنا سهامٌ كلها غَرَضٌ ... لها ورحمتُكمْ أوْقى من الجُنَنِ
هيهات للخَطْب أن تسطو حوادثه ... بمن أجارَتْهُ رحماكم من المِحَن
من جاء عندكم يَسْعى على ثقة ... بنَصره لم يَخفْ بطشاً من الزمن
فالثوب يَطْهُر بعد الغسل من دَرَن ... والطَّرف ينهض بعد الرَّكض من وَسَن
أنتم بَذَلتُم حياة الخلْق كلهم ... من دون منٍّ عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحيَتْ مكارمُكم ... تلك الحياتَيْن من نَفْسٍ ومن بَدَن
وصِبْيَة كفراخ الورق من صِغَر ... لم يألفوا النَّوْح فى فرع ولا فَنَن
قد أوْجَدَتْهم[٤] أيادٍ منك سابقة ... والكلُّ لولاك لم يُوجد ولم يَكُن

ومن فصول رسالته التى كتب بها عن أبى حفص ، وهى [التى][٥] أورثته الكتابة العليّة والوزارة كما تقدم قوله :

---

(١) هاتان الكلمتان ساقطتان فى « ج » .

(٢) وردت فى المخطوطين : شمطها .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » لائذا .

(٤) وردت فى المخطوطين : أوجبتهم . والتصويب من الاستقصاء .

(٥) ساقطة فى المخطوطين .

« كتبنا هذا من وادى ماسَة بعد ما تزحزح من أمر الله الكريم ، ونصر الله المعلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فتح بمسرى الأنوار إشراقاً ، وأحْدَق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبّه للأمانى النائمة جفوناً وأحْداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق الألسن كُنْهَ(١) وَصْفه إدراكا ولا لحاقاً ؛ جمع أشْتات الطبِّ والأدب ، وتقلّب فى النعم أكرمَ مُنْقلب ، وملأ دِلاء الأمل إلى عقد الكَرَب .

فتحٌ تُفَتَّح أبوابُ السماء له وتبرزُ الأرض فى أثوابها القُشُب

وتقدّمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مُهْلة . كان أولئك الضالّون المرتدون قد بطِروا عدواناً وظلماً ، واقتطعوا الكُفْر معْـنًى و إسماً ، وأملى لهم الله ليزدادوا إثماً(٢) ؛ وكان مقدِّمُهم الشّقى قد استمال النفوس بخُزَعْبِلاته ، واستهوى القلوب بمُهَولاته ، ونصب [له](٣) الشيطان من حِبالاته ، فأتَتْهُ المخاطبة من بُعْد وكَثَب ، ونَسَلت إليه الرسل(٤) من كل حزب ، واعتقدته الخواطر أعْجبَ عجَب ؛ وكان الذى قادهم لذلك ، وأوْرَدَهُم تلك المهالك ، وصولُ مَنْ بتلك السواحل ، ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس ، فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على رَغْمه بالصيام والقيام ، آناء الليل والأيام ، لبسوا الناموس أثواباً ، وتدرّعوا الرياء جِلباباً ، فلم يفتح الله لهم إلى التوفيق باباً » .

ومنها فى ذكر صاحبهم :

« فصُرع والحمد لله لحينه ، و بادرت إليه بوادر مَنُونه ، وأتَتْه وافدات الخطيئات عن يساره ويمينه ، وكان يدّعى أن المنِيَّة فى هـذه الأعوام لا تصيبه ، ويزعم أنه

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الا لكنه ، وهو تحريف .

(٢) واردة فى « ج » ، وساقطة فى « ك » .

(٣) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٤) هكذا فى « ج » . ووردت فى « ك » الرمل .

يُبشِّر بذلك والنوائب لا تنوبه؛ ويقول فى سواه قولاً كثيراً، ويختَلق[١] على الله إفْكاً وزوراً؛ فلما عاينوا هيئة اضطجاعه، ورأوا ما خَطَّته[٢] الأسِنَّة فى أعضائه[٣]، ونفذ فيه من أمر الله مالم يقدروا على استرجاعه؛ هزُم لهم من كان لهم من الأحزاب، وتساقطوا على وجوههم كتَسَاقُط الذّباب، وأعطوا عن بَكْرة[٤] أبيهم صَفْحَة الرقاب، ولم تقْطِر كلومُهم إلا على الأعقاب؛ فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم، وأذِنَت[٥] الآجال بانقراض آمالهم، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم؛ فلم يُعايَن منهم إلا من خرَّ صريعاً[٦] وسقى الأرض نجيعاً، ولقى من وقع الهِنْديّات أمراً فظيعاً؛ ودعت الضرورة باقيهم إلى التّرامى فى الوادى، فمن كان يؤمل الفرار منهم ويَرْتَجيه، ويَسْبَحُ طامعاً فى الخروج إلى ما يُنجيه، اختطفته الأسنَّة اختطافاً، وأذاقته موتاً ذُعافاً؛ ومن لجَّ فى الترامى على لجُجَه، ورام البقاء فى ثَجِّه، قضى عليه شرقُه، وألوى فَرَقته غُرقه[٧]. ودخل الموحِّدون إلى الباقية الكائنة فيه، يتناولون قتالهم طعناً وحرباً[٨]، ويلقونهم بأمر الله هَوْناً عظيماً وكَرْباً، حتى سَطَت[٩] مراقات الدماء على صفحات الماء، وحكت حُمرتها على زُرُقه، حمرة الشّفق على زُرُق السماء؛ وظهرت العِبرة للمُعْتبر، فى جرى الدماء جَرْىَ[١٠] الأبْحُر.»

---

(١) فى المخطوطين: ويخلق. والسياق يقتضى التصويب.

(٢) هكذا فى «ج». وفى «ك» خطبته.

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين: فى «ج» أعطايه. وفى «ك» اغطا به.

(٤) هكذا فى «ك». وفى «ج»، الكرة.

(٥) فى المخطوطين: وادنت. وهو تحريف.

(٦) وردت فى المخطوطين: سريعاً. والتصويب أنسب.

(٧) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج»، عرقه.

(٨) هكذا فى «ج». وفى «ك»، وضربا.

(٩) وردت محرفة فى المخطوطين: اسطت فى «ج». وا سطت فى «ك».

(١٠) وردت فى المخطوطين: تجرى. والتصويب يقتضيه السياق.

دخوله غرناطة

احتلّ بغرناطة عام إحدى وخمسين وخمسمائة ، لما استدْعي أهل جهات ألمريّة ، السيّد [أبا سعيد] [١] إلى مُنازلة من بها من النصارى ؛ وحشد ، ونزل عليها ، ونصب المجانيق على قَصَبتها ، واستَصْرخ من بها الطاغية [٢] ، فأقبل إلى نصرهم ؛ واستمد السيد أبو سعيد الخليفة ، فوجَّه إليه الكبير أبا جعفر بن عطيه صُحبة السيد أبي يعقوب إبنه ، فلحق به ، واتَّصل الحصار شهوراً سبعة ، وبُذل الأمنُ لمن كان بها ، وعادت إلى مَمْلَكَة الإسلام ، وانصرف الوزير أبو جعفر صُحبة السيد أبي يعقوب إلى إشبيليّة ، وجرت أثناء هذه أمور يطول شرحها ؛ ففى أثناء هذه الحركة دخل أبو جعفر غرناطة ، وعُدَّ فيمن ورد عليها .

مولده

بمرّاكُش عام سبع وعشرين وخمسمائة .

وفاته

على حسب ما تقدم ذكره لليلة ، بقيت من صفر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة .

---

(١) وردت هذه الكلمة فى « ك » وأغفلت فى « ج » .

(٢) يقصد بالطاغية هنا ألفونسو ريموندس ملك قشتالة الذى حكم من سنة ١١٢٦ – ١١٥٧ م . وفى عصره استطاعت الأساطيل والجيوش النصرانية المتحدة أن تنتزع ألمرية من يد المرابطين (٥٤٢ هـ – ١١٤٧ م) . واستمرت ألمرية فى يد النصارى زهاء عشرة أعوام حتى حاصرها الموحدون بشدة وفق ما هو مسطور . وحاول النصارى وحليفهم ابن مردنيش أمير بلنسية وخصم الموحدين ، انقاذها من السقوط . ولكن ذهبت جهودهم سدى وسقطت ألمرية فى يد الموحدين ، وعادت إلى قبضة الإسلام فى سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) وأفرج عن حاميتها النصرانية بالأمان .

أحمد بن محمد بن شعيب الكِرْيانى

من أهل فاس ؛ يكنى أبا العباس ، و يعرف بابن شُعيب من كِريانة ، قبيلة من قبائل الرِّيف العربى .

حاله

من « عائد الصلة » : من أهل المعرفة بصناعة الطب ، وتدقيق النظر فيها ، مشاركاً فى الفنون ، وخصوصاً فى علم الأدب ، حافظاً للشعر ؛ ذُكر أنه حفظ منه عشرين ألف بيت للمُحْدثين ، والغالب عليه العلوم الفلسفية ؛ وقد مُقت لذلك ، وتهتّك في علم الكمياء ، وخلع فيه العِذار ، فلم يحُل بطائل ، إلا أنه كان تفوّه[(١)] بالوصول ، شَنْشَنة المَفْتونين بها على مدى الدهر . وله شعر رائق ، وكتابة حسنة ، وخط ظريف . كتب فى ديوان سلطان المغرب مُرئسا، وتسرّى جارية روميّة اسمها صُبْح ، من أجمل الجوارى حُسْناً ، فأدّبها حتى لُقنت حظًّا من العربية ، ونظمت الشعر ، وكان شديد الغرام بها ، فهلكت أشدّ ما كان حبًّا لها ، وامتداد أمل فيها ؛ فكان بعد وفاتها لا يُرى إلا فى تأوّه دائم ، وأسف مُتمادٍ ، وله فيها أشعار بديعة فى غرض[(٢)] الرِّثاء .

مشيخته

قرأ فى بَلَده فاس على كثير من شيوخها ، كالأستاذ أبى عبد الله بن أجْروم نزيل فاس ، والأستاذ أبى عبد الله بن رشيد[(٣)] ؛ وصل إلى تونس ، فأخذ منها

---

(١) هكذا فى المخطوطين بصيغة الماضى .

(٢) وردت فى المخطوطين : عرض .

(٣) هكذا ورد اسمه فى « ج » . وفى « ك » رشد .

الطّبّ والهيئة على الشيخ رُحْلَة[١] وقته فى تلك الفنون ، يعقوب بن الدرّاس .

وكان مما خاطب به الشيخ أبا جعفر بن صَفْوان ، وقد نشأت بينهما صداقة أوجبها القدر المشترك من الولوع بالصّنعة المَرْموزة ، يتشوّق إلى جهة كانوا [يَخْلون بها][٢] للشيخ فيها ضَيْعة بخارج مالَقَة كَلأها الله :

رعى الله وادىَ شِنْيانَة ... وتلك الغَدَايا[٣] وتلك اللَّيال
ومَسْرحنا بين خُضر الغصون ... وَوَدْق الميـاه وسِحْر الظِّلال
ومَرْتَعُنـــا تحت أدْوَاحه ... ومكْرَعُنا فى النَّمير[٤] الزلال
نُشاهد منها كَعَرْض الحُسام ... إذا ما انتَشَت فوقه كالعَوال
ولله من دُرِّ حَصْبائه ... لآلٍ وأحْسِن بها من لآل
وليلٍ به فى سُتُور[٥] الغُصون ... كخودٍ ترنَّم فوق الحِجال
وأسحارُه كيف راقَتْ وصـــحّ النسيمُ بها فى اعتــدال
ولله منك أبا جعفر ... عميدَ[٦] الحلال حميدَ الخِلال
تُطارِحُنى برُموز الكنو ... ز وتُسفر لى عن معانى المعال
وتُبْدلنى فى شجون الحديث ... ويا طِيبَه كلَّ سِحْرٍ حَلالٍ
فأَلْقطُ من فيك سِحْرَ البيان ... مجيباً به عن عريض النَّوال
أفدتُ الذى دونها معشرٌ ... كثير المقال قليـــل النَّوال
فأصبحتُ لا أبْتغى بعدها ... ســواك وبعدَ كُما لا أُبال

---

(١) أى رحالة .

(٢) هذه العبارة وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك »

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : العذايا .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » النهر .

(٥) وردت فى المخطوطين : الستور .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » عيد .

وخاطب الفقيه العالم أبا جعفر بن صفوان يسأله [عن][1] شيء من علم الصناعة بما نصه :

دارُ الهوى نجدٌ وساكِنُها أقصى أمانى النفس من نَجْدِ

ومما صدَّر به رسالة :

أيُجمَع هـذا الشَّمل بعد شَتاته ويُوصل هذا الحَبْلُ بعد انبْتاته
أما لِلبِـلى آية عيسَوِيّةٌ فيَنشُر ميِّتَ الأُنْس بعد ممـاته
ويُورِدُ عَيْنى بعد مِلْح مدامعى برؤيته فى عَذْبِه وفُرَاته

وأنشد له صاحبنا الفقيه الجليل صاحب العلامة[2] بالمغرب ، أبو القاسم بن صفوان قوله :

يا رُبَّ ظَبْى شـعاره نُسْك ألحاظُه فى الورى لها فَتك
يَتْرُك من هامَ به مُكتئباً لا تعجبوا أن قومه التَّرك
أشكو له ما لقيتُ من حُرق فَثَنا[3] لاهيـاً إذا أشـكو
صَبَرْتُ حتى أطلَّ عارضُه فكان صبرى ختامُه مِسْك

ومن المعاتبة والفكاهة قوله :

وبائعٌ للكتب يبتـاعها بأرخص السَّوم وأَغْـلاه
فى نِصْف الاستذكار أعطيتُه ومَحَّض العين وأرضـاه

وله أيضاً :

يا من توعَّدنى بحـادث هَجْره إن السُّلوّ لَدُون ما يتوعَّد

---

(١) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٢) صاحب العلامة أو كاتب العلامة ، هو الذى يتولى التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية ، وكانت هذه الوظيفة من أهم الوظائف الإدارية فى القصور المغربية .

(٣) وردت فى المخطوطين محرفة : (فشى : فشا) .

هذا عِذارك وهو موضع سَلْوَتى — فأكفِفْ فقد سبق الوعيدَ المَوْعِدُ
وأظن سَلْوَتَنا غداً أو بعده — فبذاك خبَّرنا الغرابُ الأسود

وله أيضاً :

قال العذول تنقُّصاً لجماله — هذا حبيبُك قد أطلَّ عِذاره
لا بل بدا فصلُ الربيع بِخَدِّه — فلذا تساوى ليله ونهاره

وله يرثى :

يا قبرَ صُبْح حلَّ فيك بهجتى أسْنَى الأمانى(١)
وغدوتَ بعد عيانها(٢) أشهى البقاع إلى العيان
أخشى المَنية إنها [تُقْصى](٣) مكانك عن مكان
كم بين مَقْبور بفـ ـاس وقابر بالقَيْرُوان

وله أيضاً يرثيها :

يا صاحبَ القبر الذى أعلامُه — وثابتَ حبِّه لم يُدْرس
ما اليأسُ منك على التصبُّر حاملى — أيأسْتَنى فكأننى لم أيأس
لما ذهبْتَ بكل حُسْنٍ أصبحت — نفسى تُعانى شَجْو كلِّ الأنفس
أصْباحُ أيَّامى ليالٍ كلُّها(٤) — لا تَنْجلى عن صُبْحِك المُتَنَفِّس

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » الأمان .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » بقاعها .

(٣) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين بالرسم الآتى (تصصى). ووردت فى « ت » تنفى. واعتقد أن هذا التصويب فى محله .

(٤) وردت هذه الشطرة محرفة فى المخطوطين : (صبح أيامى ليل كلها) . وفى « ت » (صبح أيامى كلها ليل) . والوزن لا يستقيم بهذه النصوص .

وقال فى ذلك :

أعلمتَ ما صنع الفراق[١] غداة جَدَّ به الرِّفاق[٢]

ووقفتَ منهم حيث للنَّـ ـظرات والدمع استباق

سَبَقَتْ مطاياهم فما أبْطَى[٣] بنفسك فى السباق

أأطَقْتَ حمل صدودهم لِلْبَيْن خَطْبٌ لا يُطاق

عن ذات عرق أصْعَدُوا أتقول دارُهم[٤] العراق

نزلوا [ببرقة ثَمْهَدٍ][٥] فلذاك ما شئت البراق[٦]

وتيامَنُوا عَسْفَانَ أن يقفوا بمُجْتَمع الرِّفاق

ما ضرّهم وهم المُنى لو وافقوا بعض الوفاق

قالوا تفرُّقنا غداً فشُغِلت عن وعد التَّلاق

عمداً[٧] رأوا قَتْل العميـ ـد فكان عيْشُك فى اتِّفاق

أوْلى لجسمك أن يَرِقّ[٨] ودمعُ عيْنِك أن يُراق

أمّا الفؤاد فعندهم دَعْه ودَعْوى الاشتِياق

أعتاد حجب[٩] محلهم فمحلُّ صدرك عنه ضاق

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » الفريق، وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين : « الفراق » مرة أخرى . والتصويب من « ت » .

(٣) فى المخطوطين : انبطى . والتصويب من « ت » .

(٤) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : وراهم . وهو تحريف .

(٥) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطات الثلاثة .

(٦) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين . وفى « ت » : (فلذاك مشتت البراق) .

(٧) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : عدا .

(٨) وزدت فى المخطوطين : يرنى .

(٩) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : حب .

واها لسالفة الشـــبا ب مضَتْ بأيامى الرقاق
أبقَت حـــرارةَ لوْعةٍ بين الترايب والتّراق
لا تَنْطـــفى وَوُرودُها من أدمعى كأسٌ دِهاق

وقال أيضاً :

يا موحِشى والبعدُ دون لِقائه أدعوكَ عن شَحَطٍ وإن لم تَسْمع
يُدْنيك منى الشوق حتى إننى لأراكَ رَأْى العين لولا أدمعى
وأحنُّ شوقا للنّسيم إذا سَرَى لحديثكم وأصيحُ كالمُسْتطلع
كان اللِّقا فـكان حظِّىَ ناظرى وسْطَ الفراق فصار حظِّى مَسمع
فابْعَثْ خيالك تَهْدِه نار الحَشَى إن كان يجهلُ من مقامى مَوْضِع
واصحبْه من نومى بتُحفَةِ قادمٍ فصَدَى قَليل رِكابكم لم تُجْمع(١)

دخوله غرناطة

دخل غَرْناطة على عهد السابع من ملوكها الأمير محمد لقربٍ من ولايته فى بعض شئونه؛ وحقق(٢) بها تغيير أمر الأدوية(٣) المنفردة التى يتشوف الطيب إليها والشحرور، وهي بقرية شون(٤) من خارجها .

« وفاته » رحمه الله؛ توفى بتونس فى يوم عيد الأضحى من سنة تسع وأربعين وسبعماية .

---

(١) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين : (فصدا سفل ركابكم لم صبع) .

(٢) فى المخطوطين : وخفق .

(٣) فى المخطوطين : الدولة . وهى كلمة لا محل لها هنا .

(٤) قرية شون من ضواحى مدينة غرناطة وهى Jun الحديثة ، وتقع فى شمالها الشرق .

أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن حسين بن على بن سليمان بن عرفه[١] اللخمى

الفقيه ، الرئيس ، المتفنِّن ، حامل راية مذهب[٢] الشعر فى وقته ، المشار إليه بالبنان[٣] فى ذلك ببلده ، يكنى أبا العباس .

حـــاله

كان فذًّا فى الأدب ، طِرْفاً فى الإدراك ، مهذب الشمايل ، ذَلِق اللسان ، ممتِع المجالسة والمحاضرة ، حُلو الفكاهة ، يرمي فى كل غرضٍ بسهم ، إلى شرف النشأة[٤] وعزِّ المرتبة ، وكرم المَحْتِد، وأصالة الرياسة .

حدثنى الشيخ أبو زكريا بن هُذَيل ، قال : حضرت بمجلس ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم ، وأبو العباس بدْرُ هالتِه ، وقُطْبُ جلالته ، فلم يُجر بشيء[٥] إلا ركض فيه، وتكلم بملء فيه . ثم قمنا إلى زبّارين[٦] يصلحون شجرة عنب،فقال لعريفهم حقُّ هذا أن يقْصُر ، ويُطال هذا ، ويُعمل كذا . فقال الوزير، يا أبا العباس ما تركت لهؤلاء أيضاً ، حظًّا من صناعتهم ، يستحقون به الأجرة ؛ فعجبنا من استحضاره[٧] ، ووساعة[٨] ذرْعه ، وامتداد حظ كفايته .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (ابن أبى عرفه) .

(٢) هكذا وردت فى « ج » وفى « ك » . (مهذب) .

(٣) وردت فى المخطوطين: بالبيان، وهو تحريف ظاهر .

(٤) وردت فى المخطوطين محرفة : (الشاة) .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » شىء

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، ربارين .

(٧) وردت فى المخطوطين : استحماره .

(٨) أى سعة . وقد وردت (ساعة) فى المخطوطين . (واساعة) فى « ت » .

قدومه على غرناطة

قدم عليها مع الجُملة من قومه عند تغلب الدولة النصرية على بلدهم ، ونزول البلاء والغلاء والمحنة بهم ، والجلاء بهم فى آخر عام خمسة وسبعمائة، و يأتى [التعريف بهم][1] بعد إن شاء الله ؛ وكان أوفر الدواعى فى الاستعطاف لهم بما تقدم بين يدى أدعيائهم[2] ، ودخولهم على السلطان ، [أن][3] الذى تنخل[4] بمثله السَّخائم ،وتذهب الإحَن[5] ؛ وخطب لنفسه ، فاستمرت حاله ، لطيف المَنْزِلة ، معروف المكانة ، ملازماً مجلس مُدبرِّ الدولة ، مرسوماً بصداقته[6] مشتملاً عليه ببرِّه ، إلى أن كان من تقلُّب الحال ، و إدالة الدولة ، ما كان .

شــــعره

وشعره نمطٌ عال ، ومحل البراعة حال ، لطيف الهبوب ، غزير المائية[7] ، أنيق الديباجة ، جمٌّ المحاسن ؛ فمنه فى مذهب المدح ، يخاطب ذا الوزارتين أبا عبد الله ابن الحكيم :

تملَّكتَ رقِيِّ بالجمال فأجمل وحكَمْتَ قلبى بجَوْرك[8] فاعدل
أنت الأمير على الملاح ومن يَجُرْ فى حكمه إلا جفونك يُعزل

---

(١) هذه الإضافة ساقطة فى المخطوطات الثلاثة . وإضافتها لازمة للسياق .

(٢) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : إذعامهم ، وهو تحريف

(٣) واردة فى « ت » . وساقطة فى المخطوطين .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » تنحل .

(٥) وردت فى « ج » الأحر . وفى « ك » الأجر . وفى « ت » الأخر .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » صدقاته .

(٧) فى المخطوطات الثلاثة : ألمافية .

(٨) وردت فى المخطوطين ، يجود . وفى « ت » ، فجود. والتصويب من أزهار الرياض .

إن قيل أنت البدْرُ فالفضل الذى ... لك بالكمال ونقصه لم يُجهل
لولا الحظوظ[١] لكُنْتَ أنت مكانه ... ولكان دونك فى الحضيض الأسفل
عيناك نازلتا القلوب فكلُّها ... إما جريحٌ أو مُصاب المَقْتل
هزّت ظُباها بعد كسر جفونها ... فأصيب قلبى فى الرَّعيل الأول
ما زلتُ أُعذل فى هواك ولم [يزل][٢] ... سمعى عن العُذّال فيك بمعزل
أصبحْتُ فى شغل بحبك شاغلٍ ... عن أن أصيخ إلى كلام العُذَّل
لم أهمل الكتمان لكن أدمعى ... هَمَلَت ولو لم تعصنى لم تهمل
جَمَع الصحيحين الوفاء مع الهوى ... قلبى وأملى الدمع كَشْفَ المشكل
ما فى الجنوب ولا الشمال جواب ما ... أهدى إليك مع الصَّبا والشَّمأل
خَلَسًا له من طيب عَرْفك نفحة ... تجىء بها[٣] دماء عليلها المُتعلل
إن كنت بعدى حُلْتَ عما لم أحُل ... عنه وأهملتَ الذى لم أُهمل
أو حالت الأحوال فاستبدلتَ بى ... فأنا[٤] بحبِّىَ لم أستَبْدل
لاقيتُ بعدك ما لو انّ أقلَّه ... لاقى الثرى لأذاب[٥] صُمَّ الجنْدل
وحملت فى حُبِّيك ما لو حُمِّلت ... شمُّ الجبال أخَفَّه لم تَحْمل
من حَيْف دهرٍ بالحوادث مُقدمٍ ... حتى على حَبْس الهِزَبْر المُشْبل[٦]
قد كنت منه قبل كرِّ صروفه[٧] ... فوق السَّنام فصرت تحت الكلكل

---

(١) هكذا فى «ت». وفى المخطوطين: الخصوص
(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين. وفى «ت»، أضح. والإضافة عن أزهار الرياض.
(٣) هكذا فى المخطوطين. وفى «ت» ضحابها.
(٤) هكذا فى «ك». وفى «ج» فانى.
(٥) فى المخطوطين: لذاب.
(٦) هكذا فى «ك». وفى «ج» المسبل.
(٧) فى المخطوطين: صروفها.

ونُصُول شَيْبٍ قد ألمَّ بلِمَّتى وخِضاب أبى شيبة لم تَنصِل
ينوى الإقامة ما بقيت وأقسَمَت لا تنزلُ اللذات ما لم يَرحل
ومسير ظَعْنٍ ودان حميمُه لاقى الحِمام وإنَّه لم يفعل
يطوى على جسدى(١) الضلوع فقلبه بأُواره يغلى كغَلْى المرجل
فى صدره ماليس فى صدرى له من مِثله مثقالُ حَبَّة خَرْدل
أعرضتُ عنه ولو أشَفَّ لذمه شعرى(٢) لجرّعه نقيع الحنظل
جُلِّيت فى حَلْبات سَبْق لم يكن فيها بمرتاح ولا بمؤمِّل(٣)
ما ضرَّه سبقيه فى زمن مضى أنَّ المُجَلَّى فيه دون الفُسْكُل
ساءته منِّى عَجْرَفيَّةُ قُلَّبٍ باقٍ على مر الحوادث حُوَّل
متحرِّق(٤) فى البذل مدَّة سيره متجلِّد فى عُسْره مُتَجمِّل
حتى يثوبَ له الغِنَى من ماجدٍ بقضاء حاجات الكرام مُوَكَّل
مثلُ الوزير ابن الحكيم وماله مثلٌ يقوم مقامه مُتَمثِّل
ساد الورى بحديثه وقديمه فى الحال والماضى وفى المستقبل
من بيت مجد قد [سمت بقبابه](٥) أقيال لَخْمٍ فى الزمان الأوّل
سامى الدعائم طال(٦) بيت وزارة ومجاشع وأبى الفوارس نهشل
يَلْقَى الوفود ببَسْط وجهٍ مُشرق تجلو طلاقتُه هُموم المُجْتَلى
فلآمِلى جَدْواه حَوْل فنائه لَقْط القطا الأسراب حول المَنْهل

---

(١) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » : قلبى .
(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، شجرى .
(٣) فى المخطوطين : بمتؤمل .
(٤) وردت فى « ك » متخرق . وفى « ج » مخترق .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : اسست بقبابه .
(٦) فى المخطوطين : طالت .

وإذا نحى بالعدل[١] فصل قضية لم تخطُ فَصْلاً من إطالة مُفْصل
يقضى على سخَب الخصوم وشَغْبهم ويقيم مُغريهم مقام المؤمل
ويلقِّن الحجج العَييَّ تحرُّجاً من رامحٍ عند اللَّجاج وأعزل
فإذا قضى صور المُحِقِّ بحقِّه عنه وحاق[٢] عقابُه بالمُبْطل
عَجِلٌ على من يستحقُّ مثوبةً فإذا استحقَّ عقوبة لم يَعْجَل
يا كافىَ الإسلام كلَّ عظيمة ومعيدَه غضًّا كأن لم يَذْبُل

وقال أيضاً يمدحه بقصيدة من مطولاته ؛ وإنما اجتلبتُ من مدحه للوزير ابن الحكيم لكونه يمدح أديباً ناقداً ، وبليغاً بالكلام بصيراً ، والإجادة تلزم فيه منظومه ، إذ لا يوسع القريحة فيه عُذْراً ، ولا يُقبل من [الطِّمع قَدْراً][٣] ، وهى :

أما الرُسوم فلم تَرِقّ لما بى واستَعْجَمَت عن أن تردَّ جوابى
واستبدلت بوحوشها من أنـ سٍ بيضِ الوجوه كواعب أتراب
ولقد وقفت بها أُرَقْرِق عَبْرَةً حتى اشتكى طول الوقوف صحابى
يبكى لطول بكاى فى عَرَصاتها صحبى ورجَّعَت الحنينَ ركاب

ومن شعره فى المقطوعات غير المطولات :

لم يبق ذو عين لم يُشْبِه وجهُك من زَيْن بلا مَيْن
فلاح بينهمـــا طالعاً كأنه القمر بلامَيْن

ومن ذلك قوله :

[كأنما الخال مصباحٌ بوَجْنته هَبَّت عواصف أنفاسى فعطَف

---

(١) وردت فى المخطوطين : بالعد . وهو تحريف .
(٢) فى المخطوطين : وعاق .
(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الطبع قدراً .

أو نقطةٌ قطرت فى الخد إذ رسَمت   خطَّ الجمال بخطِّ اللَّام والألِف](١)

ومن ذلك قوله :

وعدتنى أن تَزُور يا أملى   فلم أزل للطريق مُرْتقِبا
حتى إذا الشمس للغروب دَنَت   وصيرَّت من لُجَينها ذَهَبا
أنْسَنى البدرُ منك حين بدا   لأنَّه لو ظَهرْتَ لاحْتَجَبا

ومن ذلك قوله :

هجرُكم مالى عليه جَلَد   فأعيدوا إلىَّ الرضى أو فعدُّوا
ما قسى قلبى من هِجرانكم   ولقد طال عليه الأمد

ومن ذلك قوله :

أبْدَى عِذارُكَ عُذْرى فى الغرام به   وزادنى شغفاً فيه إلى شَغَف
كأنّه ظن أنى قد نسيت له   عَهْداً فعرَّض باللام والألف

ومما هو أطول من المزدوجات قوله :

ويوم كساه الدُّجى(٢) دَكْنَ(٣) ثيابه   وهبَّت نسيم الروض وهو عليــل
ولاحت بأفلاك الأفق(٤) كواكبٌ   لها فى البدور الطَّالعات أفُول
وجالت جياد الرَّاح بالرَّاح جولةً   فلم تحُل إلا والوقار قتيــل

ومن ذلك :

عَذَلونى فيمن أحب وقالوا   دَبَّ نملُ العِذار فى وجنتيه

---

(١) هذان البيتان قد أثبتهما « ج » ، وأغفلهما « ك » .
(٢) وردت فى المخطوطين : الدجن .
(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : ذكر .
(٤) وردت فى المخطوطين محرفة : الإفك .

وكذا النَّمل كلما حلَّ شيئاً   منع النفس أن تميل إليه
قلت قَبْل العِذار أُعذر فيه   ثم من بعده أُلام عليه
إنما دبَّ نحو [شَهْدِ فيه][١]   فلذاك انتهى إلى شَفَتيه

وإحسانه كثير ، ومثله لا يُقنع منه بيسير .

وفاته

قال فى « عائد الصلة » : « ولما كان من تغلُّب الحال ، وإدالة الدولة ، وخلع الأمير ، وقتل وزيره ، يوم عيد الفطر من سنة سبع وسبعمائة ، وانتُهبت دار الوزير ، ونالت الأيدى يومئذ ، مَن شَمَله دهليز بابه ، من أعيان الطبقات ، وأولى الخُطط والرُّتب ، ومنهم أبو العباس هذا رحمه الله ؛ فأفلت تحت سلاحٍ مشهُورٍ ، وحيِّز مَرْقوف ، وثوب مَسْلوف[٢] ؛ فأصابته بسبب ذلك علَّة أياماً ، إلى أن أودت به ، فقضت عليه بغرناطة ، فى الثامن والعشرين لذى حجة من سنة سبع وسبعمائة ؛ ودفن بمقبرة الغرباء من الرُبَيط عَبْر الوادى تجاه قصور[٣] نجد ، رحمة الله عليه » .

أحمد بن على المِلْيانى[٤]

من أهل مرّاكُش ، يكنى [أبا عبد الله][٥] وأبا العباس .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » شهديه : وهو تحريف .

(٢) مرقوف أى مرتعد مرتجف ، ومسلوف اعنى رقيق .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : قطور .

(٤) نسبة إلى مليانة . وهى مدينة قديمة من مدن تونس .

(٥) وردت فقط فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

صاحب العلامة[1] بالمغرب ، الكاتب الشهير ، البعيد الشأن فى اقتضاء الثِّرَّة ، المثل المضروب [في][2] العفة ، وقوة الصَّريمة ، ونفاذ العزيمة .

« حاله » ؛ كان نبيه البيت ، شهير الأصالة ، رفيع المكانة ، على [سجية][3] غريبة كانت فيه ، من الوقار ، والانقباض ، والصَّمت . أخذ بحظ من الطِّب ، حسن الخط ، مليح الكتابة ، قارضاً للشعر ، يُذهب نفسه فيه كل مذهب .

وصمتـــــه

فتك فَتْكة شنيعة أساءت الظَّن بحمَلة الأقلام على مرِّ الدهر ؛ وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة ، وجرى ذكره فى كتاب « الإكليل » بما نصه :

« الصَّارم ، الفاتك ، والكاتب الباتك ، أبيٌّ اضطرابٍ فى وقار ، وتجهُّمٍ تحته أنس عقار ؛ اتخذه صاحب المغرب ، صاحب علامته[4] ، وتوّجه تاج كرامته ؛ وكان يطالب جملة [من][5] أشياخ مراكش بثأرعمّه ، ويطوقهم دمه بزعمه ، ويُقصر على الاستبصار منهم بنات همِّه ، إذ سعوا فيه حتى اعتُقل ، ثم جدُّوا فى أمره حتى قُتل ؛ فترصَّد كتاباً إلى مراكش يتضمن أمراً جَزْماً ، ويشلُّ من أمور الملك عزماً ، جعل الأمر فيه بضرب رقابهم ، وسَبى أسبابهم ؛ ولما أكّد على حامله فى العجَل ، وضايقه فى تقدير الأجل ، تأنَّى حتى علم أنه قد وصل ، وأن غرضه قد حصل . فرَّ إلى تِلِمْسان ، وهى بحال حصارها ، فاتصل بأنصارها[6] ، حالاًّ بين أنوفها وأبصارها ؛

---

(١) سبق أن أوضحنا اختصاص هذا المنصب (انظر الحاشية فى ص٢٨٢) .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٣) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٤) وردت فى المخطوطين : علامة .

(٥) ساقطة فى المخطوطين : وواردة فى « ت » .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » بأقطارها .

وتعجب من فراره ، وسوء اغتراره ، ورجَحت الظنون فى آثاره . ثم اتَّصلت الأخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على أعلام تلك القَبيلة ، وتَرْكها شَنْعةً على الأيام ، وعاراً فى الأقاليم على حَمَلة الأقلام ؛ وأقام بتِلمِسان إلى أن حُل مُخنَّقُ حصرها ، وأزيل اللَّقيان[١] الضيقة عن خصرها ؛ فلحق بالأندلس، فلم يَعْدم برًّا ورعْياً مستمراً، حتى أتاه حِمامه ، وانصرمت أيامه » .

شـــعره

من الذى يدل على بره[٢] ، وانفساح خطاه فى النَّفاسة ، و بعد شأوه ، قوله :

العزُّ ماضَربَت عليه قبابى ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابى
والزَّهرُ ما أهداه غصن[٣] براعتى ... والمِسْك ما أبداه نقش كتابى
والمجدُ يمنع أن يزاحم مَوْرِدى ... والعزم يأبى أن يُسام جَنابى
فإذا بلوتُ صنيعةً جازيتُها ... بجميل شكرى أو جزيل ثوابى
و إذا عقدتُ مودَّة أجرَيْتُها ... مجرى طعامى من دَمِى وشرابى
و إذا طلبتُ من الفراقد والسُّهى ... ثأراً[٤] فأوشِك أن أنال طِلابى

وفاته

توفى رحمه الله يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة ، ودفن بجبَّانة باب إلبيرة ، تجاوز الله عنه .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، العبان .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، أفوه .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : غضر .

(٤) وردت فى المخطوطين : آثاراً . وهو تحريف .

أحمد بن محمد بن عيسى الأَموى

يكنى أبا جعفر ، ويعرف بالزيَّات

حاله

من أهل الخير والصلاح والأتباع ، مفتوح عليه فى طريق الله ، نيِّر الباطن والظاهر ، مطَّرح التصنُّع ، مُسْتَدل ، مجانب للدنيا وأهلها ، صادق الخواطر ، مُرسَل اللسان بذكر الله ، مبذول النصيحة ، مثابر على اتِّباع السُّنة ، عارف بطريق الصوفيَّة، ثبْتُ القدم عند زلَّاتها (١) ، ناطق بالحكمة على الأمية ، جميل اللقاء ، متوغل فى الكَلَف بالجهاد ، مرتبط للخيل ، مبادر للهَيْعة ، حريص على الشهادة ، بركةٌ من بركات الله فى الأندلس ، يعز وجود مثله .

وفاته

توفى رحمه الله ببلده غرناطة ، يوم الخميس الثانى والعشرين لجمادى الثانية من عام خمسة وستين وسبعمائة ؛ وشارف الإكْتِهال .

أحمد بن الحسن بن على بن الزيات الكِلاعى

من أهل بَلِّش مالقة(٢) ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بالزيّات ، الخطيب ، المتصوِّف الشهير .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، قولاتها .

(٢) بلش مالقة Velez Malaga ، سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص١١٨)

حاله

من « عائد الصلة » : كان جليل القدر ، كثير العبادة، عظيم الوقار ، حسن الخُلُق ، مخفوض الجناح[١] ، متألق[٢] البِشْر ، مبذول المؤانسة ، يُذَكِّر بالسَّلف الصالح ، فى حُسْن شيمته ، وإعراب لفظه ، مزدحم المَجْلس ، كثير الإفادة ، صبوراً على الغاشية ، واضح البيان ، فارس المنابر غير مُدافع ، مستحق التصدُّر فى ذلك ، بشروط قلما كَمَلَت عند غيره ؛ منها حسن الصورة ، وكمال الأبّهة ، وجَهْوَرِيَّة الصوت ، وطيب النَّغمة ، وعدم التَّهيُّب ، [والقدرة على الإنشاء][٣] ، وغَلَبة الخشوع ؛ إلى التفنُّن فى كثير من المآخذ العلمية ، والرياسة فى تجويد القرآن، والمشاركة فى العربية ، والفقه ، واللغة ، والأدب ، والعروض ، والمحاسَّة[٤] فى الأصلين ، والحفظ للتَّفسير .

قال لى شيخنا أبو البركات بن الحاجّ ، وقد جرى ذكر الخطابة : ما رأيت فى استيفائها مثله . كان يفتتح مجالس تدريسه أكثر الأحيان ، بخُطَب غريبة ، يطبِّق بها مفاصل الأغراض ، التى يشرع فى التكلم فيها ، وينظم الشعر دائماً فى مراجعاته ومخاطباته ، وإجازاته ، من غير تأنّ ولا رويَّة ، حتى اعتاده مَلَكةً بطبعه ؛ واستُعمل فى السِّفارة بين الملوك ، لدحْضِ السّخائم ، وإصلاح الأمور ، فكانوا يوجبون حقَّه ، ويلتمسون بركته ، ويلتمسون دعاءه .

مشيختـــه

تحمَّل العلم عن جملة ؛ منهم خاله الفقيه الحكيم أبو جعفر أحمد بن على المَذْحِجى

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » محفوظ الجناد .

(٢) وردت كلمة (كثير) فى المخطوطين قبل هذه الكلمة . ولا موضع لها هنا إلا أن كانت كلمة (متألق) تقرأ (تألق) . وفى ذلك تجاوز .

(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : (والقدر على الإمشاء) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . من محس ، والمقصود بها هنا الإتقان والبراعة .

من أهل الحمّة[١] ، من ذوى المعرفة بالقرآن والفرائض ؛ ومنهم القاضى أبو على الحسن بن أبى الأحوص الغمرى ، أخذ عنه قراءةً و إجازة ؛ ومنهم العارف الرّبانى ، أبو الحسن فضل بن فضيلة ، أخذ [عنه][٢] طريقة الصوفية وعليه سَلك ، و به تأدّب ، و بينهما فى ذلك مخاطبات ؛ ومنهم أبو الزهر ربيع بن محمد بن ربيع الأشعرى ، وأبو عبد الله محمد بن يحيى أخوه ؛ ومنهم [أبو الفضل][٣] عِياض بن محمد بن عياض ابن موسى ، قرأ عليه ببَلّش وأجاز له ؛ ومنهم الأستاذ أبو جعفر بن الزبير ، والأستاذ أبو الحسن السفّاح العَبْدرى ؛ والعدلُ أبو الحسن التِّجلى ، وأبو محمد بن سماك ؛ وأبو جعفر بن الطَّباع ؛ وأبو جعفر بن يوسف الهاشمى الطَّنْجَلى[٤] ؛ والأستاذ النحوى أبو الحسن بن الصَّائغ ؛ والكاتب الأديب أبو على بن زهيق التِّغْلِبى ؛ والرّاوية أبو الحسن بن مَسْتَقور[٥] الطائى ؛ والإمام أبو الحسن[٦] بن أبى الربيع ؛ والأستاذ أبو إسحاق الغافقى الميربى ؛ والإمام العارف أبو محمد عبد العظيم بن الشيخ البَلَوى ، بما كان من إجازته العامة لكل من أدرك عام أحد وأربعين وستمائة ؛ وغير هؤلاء ممن يشُقّ إحصاؤهم .

تصانيفُـــه

كثيرة ، منها المسماة « بالمقام المَخزُون فى الكلام المَوْزون » ؛ والعقيدة[٧] المسماة « بالمشرف[٨] الأصْفى فى المأرب الأوْفى » وكلاهما ينيف على الألف بيت ؛ و « نظم

---

(١) الحمة أو الحامة سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص١٧٥) .

(٢) ساقطة فى المخطوطين ؛ وإضافتها يقتضيه السياق .

(٣) وردت هذه الزيادة فى « ج » وأغفلها « ك » .

(٤) الطنجلى نسبة إلى طنجة . وترسم أحياناً الطنجالى . والطنجى .

(٥) وردت فى المخطوطين : ابن مسغور .

(٦) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » أبو الحسين .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وربما كانت « القصيدة » .

(٨) هكذا رسمت فى « ك » . وفى « ج » ، الشرف .

السُّلوك فى [شيم الملوك] »[١] ؛ و « المُجْتنى النَّضير والمُقْتنى[٢] الخطير » ؛ و « العبارة الوجيزة عن الإشارة » ؛ و « اللطائف الرُّوحانية والعوارف الربَّانية » .

ومن تواليفه : « أسُّ مبنى العلم ، وأس معنى الحلم » فى مقدمة علم الكلام ؛ و « لذَّات السمع من القراآت السَّبْع » نظماً ؛ و « رصفُ نفائس اللآلى ، ووصفُ عرائس المعالى » فى النحو ؛ و « قاعدة البيان وضابطة اللسان » ، فى العربية ؛ و « لهجة اللَّافظ وبهجة الحافظ » ؛ والأرجوزة المسماة « بقُرَّة عَيْن السائل وبُغية نفس الآمل » فى اختصار السيرة النبوية ؛ « والوصايا النظامية فى القوافى الثلاثية » ؛ وكتاب « عُدَّة الداعى وعُمْدة الواعى » ؛ وكتاب « عوارف الكرم ، وصلات الإحسان ، فيما حواه العين من لطائف الحِكَم وخلق الإنسان » ؛ وكتاب « جوامع الأشراف والعنايات ، فى الصَّوادع والآيات » ؛ و « السَّفْحة الوسيمة والمِنْحة الجسمية » ، تشتمل على أربع قواعد اعتقاديَّة وأصوليَّة وفروعيَّة وتحقيقيَّة ؛ وكتاب « شُروب المَفَارق فى اختصار كتاب المشارق » ؛ و « تلخيص الدَّلالة فى تخليص الرسالة » ؛ و « شُذور الذَّهب فى صروم الخطب » ؛ و « فائدة المُلْتقط وعائدة المُغْتبط » ؛ وكتاب « عُدَّة المُحِق وتُحفة المُسْتحق » .

نثره

من ذلك خُطْبة ألغيت الألف من حروفها ، على كثرة ترددها فى الكلام وتصرفها ، وهى :

« حمدتُ ربى جلَّ من كريم محمود ، وشكرتُه عزَّ من عظيم موجود ، ونزَّهته عن جهل كل مُلْحد كفور ، وقدّسته عن قول كل مُفسد غَرور ، كبير لو تقوم ،

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » (نظم السلوك) مرة أخرى . وهو سهو ظاهر .

(٢) هكذا فى « ك » . وفي « ج » المنتقى ، والأولى أرجح .

فى فهم لحد ؛ قدير لو تصور فى رسم لحد ، لو عدَته فكرةُ التصورُ [١] لتَصَوَّر ، ولو حَدَتْه [٢] فكرة لتعذَّر ؛ ولو فُهمت له كيفية لبَطُل قِدَمُه ، ولو عُلمت له كيفية لحصل عدمُه ، ولو حَصَره [٣] طَرْفٌ لقُطع بتَجَسُّمه ، ولو قهره وصْفٌ لصدع بتَقَسُّمه ؛ ولو فُرض له شَبَحٌ [٤] لرهقه [٥] كيف ؛ ولو عرض له ، للحق عجلٌ ورَيْث ؛ عظيم من غير تركُّب قُطْر ، عليمٌ من غير ترتُّب فكر ؛ موجود من غير شىء يُمْسكه ، معبود من غير وهم يُدْركه ؛ كريمٌ من غير عِوَضٍ يُلْحِقُه ، حكيم من غير عَرَضٍ يَلْحَقُه ؛ قوى من غير سَبَبٍ يجمَعُه ، علىٌّ من غير سبب يرفعه ؛ لو وجد له جنس لعُورِض فى قَيُّومِيَّته [٦] ، ولو ثبت له حِسٌّ لنُوزِع فى دَيْمومِيَّته » .

ومنها : « تقدَّس عن لمِّ فِعله ، وتنزه عن سَمِّ فضله ، وجلَّ عن ثَمَّ قدرته ، وعزَّ عن عَمَّ عزَّته ، وعظمت عن مَن صفته ، وكثرت عنْ كَمْ مِنَّته ؛ فَتَق ورتق ، صوَّر وخلق ، وقطع ووصل ، نصر وخذل ؛ حَمَدْته حَمْدَ من عَرَف ربه ، ورهب ذَنْبه ، وصَفَتْ حقيقةُ يقينه قلبَه ، وذكت بصيرةُ دينه لبَّه ؛ فنهض لوَعْىٍ بشروط نفضته وحَدّ ، وربط سِلْك سلوكه وشيَّد ، وهدم صرح عتُوّة وهَدّ ، وحرس مَعْقِل عقله وحد ، وطرد غرور غُرَّته ورذله ؛ علم [علم] [٧] تحقيق فنحا نحوه ، وتفرَّد له عز وجل بثبوت ربوبيَّته وقِدَمه ، ونعتقد [٨] صدور كلَّ

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » تصور .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » حدثه . والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » حصر .

(٤) وردت فى المخطوطين : شح ، وهو تحريف .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » لهرقه .

(٦) وردت فى المخطوطين : قيمومية .

(٧) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٨) فى المخطوطين : وتعتقد . والسياق يستلزم التصويب .

جوهر وعَرَض ، عن جوده وكرمه ؛ ونشهد بتبليغ محمد صلى ربه عليه وسلم ، رسوله وخير خَلْقِه ، ونُعلن بنهوضه فى تَبْيين فرضه ، وتبليغ شرعه ؛ ضرب قبَّة شَرْعه ، فنسخت كلَّ شَرْع ، وجدَّد عزيمته فقمع عدوَّه خير قَمْع ؛ قوَّم كل مُقَوَّم بقويم سِمَته ، وكريم هَدْيه ، وبيَّن لقومه كيف يركنون فَوْره بقصده ، وسديد سعيه ؛ بشَّر مطيعه ، فَظَفِر برحمته ، وحذَّر عاصيه فشَقِى بنقمته .

« وبعد فقد نُصحتم لو كنتم تعقلون ، وهُديتم لو كنتم تعلمون ، وبُصِّرتم لو كنتم تبصرون ، وذكِّرتم لو كنتم تَذْكرون ؛ وظَهَرتْ لكم حقيقةُ نَشْركم ، وبرزت لكم خبيئةُ حشركم ، فلم تركضون فى طَلْق غفلتكم ، وتَغْفَلون[1] عن يوم بَعْثكم ؛ وللموت عليكم سيفٌ مسلول ، وحكم عَزْم غير مَغْلول ؛ فكيف بكم يوم يُؤخذ كل بذنبه ، ويُخبر بجميع كسبه ، ويُفرَّق بينه وبين صحبه ، ويَعْدَم نصرة حزبه ، ويُشغل بقوله وكَرْبه ، عن صديقه وتِربه ، وتُنشر له رقعته وتُعين له بقعته ؛ فربح عبدٌ نظر وهو فى مَهَل لنفسه ، وتَرَسَّل[2] فى رضى عمله جنَّةً لحلول رَمْسه ، وكسر صنم شهوته ليقرَّ فى بحبوحة قُدْسه[3] ، وحَصَر[4] بنظر يُنزله سَرِيرَ سروره بين عقله وحسِّه » .

ومنها : « فتنبه ويحُك من سِنَتك ونومك ، وتفكر فيمن هلك من صُحْبتك وقومك ؛ هتف بهم من تَعْلَم ، وشبَّ عليهم منه حَرَق مظلم ، فخُرِّبت بصيحته ربوعهم ، وتَفَرَّقت لهوله جموعهم ، وذُلَّ عزيزُهم ، وخُسِئ رفيعُهم ، وصُمَّ سميعُهم ؛ فخرج كل منهم عن قَصْره ، ورُمى غير مُوَسَّد فى قبره ؛ فهم بين سعيدٍ فى روضته مُقَرَّب ، وبين شقى فى حُفْرَته مُعذَّب ؛ فنَسْتَوهب منه عز وجل عصمته

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، وغافلون . وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين : وترسيل .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، قدمه .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، وحصن .

من كل خطيئة ، وخصوصيَّةً تقى من كل نفس جريئة » .

كتب إلى شيخنا الوزير ، ابن ذى الوزارتين ، ابن الحكيم ، جواباً عن مخاطبة كتبها إليه يلتمس منه وصايته ونُصْحَه هذا الشعر :

جلَّ اسم مولانا اللَّطيف الخبير ... وعزّ فى سلطانه عن نَظِير
هو الذى أوجد ما فوقها ... وتحتها وهو العليم الخبير
ثم صلاة الله تَتْرى على ... ياقوتة الكون البشير النذير
وصحبه الأولى نالوا مرأى ... يرجع عنه الطَّرْف وهو الحسير
وبعد فأنفسهم جوهر ... للأرواح منه ما للأثير
فإنك استدعيت من ناصرٍ ... نُصْحاً طويلا وهو منه قصير
ولستُ أهلا أن أرى ناصحاً ... لقلَّة الصدق وخُبث الضمير
وإنما يحسنُ نصح الورى ... من ليس للشَّرْع عليه نكير
ومستحيلٌ أن يقود امرأً ... يدُ امرئٍ واهى المبانى ضرير
واعجبا يُلتمس الخير من ... مُعْتَقل العقل مهيضٍ كسير
لكن إذا لم يكن بُدٌّ فعَن ... [جهد أوفِّيك بتبر](١) يسير
فألقِنه إن كنت به قانعاً ... درًّا نظيما يزْدَرى بالنثير
لازم أبا بكر على مَنْهج ... ذاك تَفُزْ منه بخير كثير
واقنع بما يكفى ودع غيره ... فإنما الدنيا هباءٌ نَثِير
بُنىّ لايخدعنك(٢) هذى الدُّنا ... فإنها والله شىء حقير
أين المشِيدات أما زُلزلت ... أين أخو الإيوان أين السَّدير(٣)

---

(١) وردت فى المخطوطين : (جهرا وفيك تبر ز — تبر ر) .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » يحدعك .

(٣) وردت فى المخطوطين : العدير .

أين أنو شِروان أضْحَى كأن ... لم يَكُ أين المُعتدى أزْدَشير
هذا مقالٌ من وعاه اهتدى ... وحِيط من كل مَخُوف مُبير
وصَّى[1] أبو بكر به أحمدا ... وأحمدُ فى الوقت شيخ كبير
إنقرضت[2] أيامـه وانتهى ... وَهْناً ومن قبلُ أتاه النَّذير
وهـا هو اليوم على عُـدَّة ... مُبْرِمة للشَّر وما من عَذِير

ومن شعره فى طريقه الذى كان ينتحله :

شهود ذاتِك [شىء عنك][3] محجوب ... لو كنت تُدْركه لم يبق مطلوب
علوٌّ وسُفْل ومن هذا وذاك معا ... دَوْر على نقطة[4] الإشراق منصوب
ومَنْزِل النفس منه ميمٌ مذكرة[5] ... إن صح للغرض الظنىِّ مرغوب
وإن تنـاءت مساويهـا فمنزلهـا ... أوجُ الـكمال وتحت الروح تَقْليب
والرُّوح إن لم تَخُنه النَّفْس قام له ... فى حضرة المُلْك تخصيصٌ وتقريب

ومن شعره :

دَعْنى على حُكم الهوى أتضرَّع ... فعسى يلين لنـا الحبيب ويَخْشع
إنى وجـدت أخا التضرِّع فايزًا ... بمراده ومن الدُّعا ما يُسمع
أهلا وما شىء بأنْفَع للفتى ... من أن يَذِلَّ عسى التذلُّل ينفع
وامْحُ اسم نفسك طالباً إثباته ... واقنع بتفريقٍ لعلك تجمـع
واخضع فمن دأب المحب خضوعُه ... ولربمـا نال المُنى من يَخْضع

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » اضحى .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » انقضت .
(٣) وردت هاتان الكلمتان فى المخطوطين هكذا : (شرعية) . والتصويب من « ت » .
(٤) فى « ج » نطقه . وفى « ك » نطيقه .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » مركزة .

ومن شعره :

مالى بباب غير[١] بابك موقف ... كلا[٢] ولا لى عن فنائك مَصْرف

هذا مقامى ما حَيِيتُ فإن أمُت ... فالذل مأوًى للضراعة مَألف

غرضى وأنت به عليم لمحةٌ ... تذر الشَّتيت الشَّمل وهو مؤلّف

وعليك ليس على سواك مُعوَّلى ... جاروا علىّ لأجل [ذا أو أنصفوا][٣]

ومن المقطوعات فى التجنيس :

يقال خِصال أهل العلم ألفٌ ... ومن جَمَع الخصال الألْف سادا

ويجمعها الصَّلاح فمن تَعدّى ... مذاهبَه فقد جمع الفسادا

ومنه فى المعنى :

إن شئت فوزاً بمطلوب الكرام غداً ... فاسْلُك من العمل المرضىّ مِنْهاجا

واغلب هوى النفس لاتغرُرْك خادعة ... فكل شىء يحطّ القدر مِنْهاجا

دخوله غرناطة

دخل غرناطة مراراً عدة تشذُّ عن الحصر ، أوجبتها الدَّواعى بطول عمره ، من طلب العلم وروايته ، وحاجة عامة ، واستدعاء سلطان ، وقدوم من سفارة[٤]. كان الناس يَنْثالون عليه ، ويغشون منزله ، فيما أدركت ، كلما تبوّأ ضيافة السلطان ، تبرُّكا به ، وأخذاً عنه .

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » غيرك . وهو تحريف .

(٢) وردت فى المخطوطين : لا لا .

(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : ذاك وأنصف .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، سفاره .

مولده

ولد ببَلِّش بلده فى حدود تسع وأربعين وستمائة .

وفاته

توفى ببلش سَحَر(١) يوم الأربعاء السابع عشر من شوال عام ثمانية وعشرين وسبعمائة . وممن رثاه شيخنا ، نسيج وحده ، العالم الصالح الفاضل ، أبو الحسن بن الجيَّاب بقصيدة أولها :

على مثله خصا به الدهر فاجع ... تفيض نفوسٌ لا تفيض المدامع

ورثاة شيخنا القاضى أبو بكر بن شَبْرين رحمه الله ، بقصيدة أولها :

أيساعد رائده الأمل ... أم يُسمع سائله الطلل
يا صاح فَديتُك ما فَعَلتِ ... ومن الأحباب وما فعلوا(٢)
فأجاب الدمعُ مناديَه ... أمَّا الأحباب فقد رحلوا(٢)

ورثاه من هذه البلدة طائفة ، منهم الشيخ الأديب أبو محمد بن المرابع الآتى اسمه فى العيادة له ، بحول الله ، بقصيدة أولها :

أدعوك ذا جزع لو انَّك سامع ... ماذا أقول ودمع عينى هامع

وأنشد خامس يوم دفنه قصيدة أولها :

عَبْرة تفيض حزناً وثُكْلا ... وشجونٌ تعم بعضاً وكُلَّا
ليس إلا صَبابة أضرمتها ... حسرةٌ تبعث الأسى ليس إلَّا

وهى حسنة طويلة .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » منحر .

(٢) فى المخطوطين : فعل . رحل .

إبراهيم بن محمد بن مُفرِّج بن هَمُشك

المتأمِّر ، رومى[١] الأصل .

أوّليته

مُفَرج أو هَمُشك[٢] ، من أجداده ، نصرانى أسلم على يدى أحد ملوك بنى هود بسَرَقُسْطة ؛ نزح إليهم ، وكان مقطوع إحدى الأذنين ، فكان النصارى إذا رأوه فى القتال عرفوه ، وقالوا هامُشك ، معناه ترى المقطوع الأذن ، إذ « ها » عندهم قريب مما هى فى اللغة العربية ، و « المُشك » المقطوع الأذنين فى لغتهم[٣] .

نباهتُه وظهوره

ولما خرج بنو هود عن سرقسطة ، نشأ تحت خمول ، إلا أنه شهم متحرك ، خدم بعض الموحِّدين فى الصَّيد ، وتوسل بدلالة الأرض ؛ ثم نزع إلى ملك قَشْتالة واستقر مع النصارى ؛ ثم انصرف إلى بقيّة اللَّمْتونيين[٤] بالأندلس بعد شفاعة وإظهار توبة . ولما ولى يحيى بن غانِيَة قرطبة ، إرْتَسم لديه برسمه . ثم كانت الفتنة عام تسعة وثلاثين

---

(١) يقصد برومى الأصل هنا ، قشتالى أو إسبانى .

(٢) ترسم بالإسبانية Hamusco ومن ثم كان ضبطها على هذا النحو .

(٣) لم نجد فى معاجم اللغة القشتالية ما يؤيد هذا التفسير الذى يورده ابن الخطيب . وقد عثرنا فقط على كلمة Musco الإسبانية ، ومعناها الشديد السمرة .

(٤) أى المرابطين ، وهم كما رأينا ينتسبون إلى قبيلة لمتونة .

[وثار][1] ابن حَمدِين[2] بقرطبة ، وتسمى بأمير المؤمنين ، فبعثه رسولا ثقة بكفايته ودربته وعُجْمة لسانه ، لمحاولة الصلح بينه و بين ابن حَمدِين ، فأغنى ونَبُه قدرُه ؛ ثم غلى مِرجل الفتنة وكثر الثوار بالأندلس ، فاتصل بالأمير ابن عِياض بالشرق وغيره ، إلى أن تمكن له الإمتزاز[3] بحصن شَقُوبش ، ثم تغلب على مدينه شَقُورة[4] وتملكها وهى ما هى من النِّعمة ، فغلُظ أمره ، وساوى محمد بن مَرْدنيش[5] أمير الشرق وداخله ، حتى عقد معه صِهْراً على ابنته ، فاتصلت له الرياسة والإمارة . وكان يُعد سيفاً لصهره المذكور ، مُسَلَّطاً على من عصاه، فقاد الجيوش، وافتتح البلاد إلى أن فَسَد ما بينهما ، فتفاتنا وتقاطعا، وانحاز بما لديه من البلاد والمعاقِل،وعُدَّ من ثوار الأندلس أولى الشوكة الحادَّة ، والبأس الشديد ، والشَّبا المرهوب . وآثاره بعد انقِباض دولته تشهد بما تأثَّل من مُلْك وسَلَف من الدولة ؛ والدَّار الآخرة خير لمن اتّقى . قال ابن صفوان :

وديار شكوى الزمان فَتَشْكُ[6] حدَّثتنا عن عزَّة ابن هَمُشك

حــــاله

قال محمد بن أيوب بن غالب ، المدعو بابن حمامة : أبو إسحاق الرئيس ، شجاع

---

(١) هذه الكلمة واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٢) ورد اسمه فى« ج » (ابن أحمدين) . وفى « ك » (ابن أحمد) وكلاهما تحريف . وصوابه (ابن حمدين) . وابن حمدين هذا هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين . ثار بقرطبة فى رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، واستبد بحكمها ، وتلقب باسم المنصور بالله ، ولكن حكمه لم يطل أكثر من أسبوعين حيث قصد المستعين بن هود قرطبة ، واستولى عليها بمعاونة أهلها . وفر ابن حمدين ناجياً بنفسه . (راجع الحلة السيراء لابن الأبار ص ٢٢٥ و ٢٢٨ . وتاريخ المرابطين والموحدين (الترجمة) لمحمد عبد الله عنان ج ١ ص ٢١٨)

(٣) الامتزاز أى الامتناع .

(٤) سبق التعريف بمدينة شقورة Segura de Sierra (انظر الحاشية فى ص ١٧٩) .

(٥) سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص ٢٢٥)

(٦) وردت فى المخطوطين : فتشبك .

بهْمَةَ من البُهَم[١] . كان رئيساً ، جريئاً شجاعاً مِقداماً شديد الحزم ، سديد الرأى ، عارفاً بتدبير الحرب ، حمىَّ الأنف ، عظِيم السَّطوة ، مشهور الإقدام [مُرتكباً للعظيمة][٢] . قال بعض من عرَّف به من المؤرخين : وهو و إن كان قائد فرسان ، هو حليفُ فتنة وعُدْوان ، ولم يصحب قط متشرِّعاً ، ولا نشأ فى أصحابه من كان متورِّعاً ، سلَّطه الله على الخلق ، وأمْلى له فأضر بمن جاوره من أهل البلاد ، وحُبب إليه العيث فى العباد .

ســـــيرته

كان جباراً قاسياً ، فظًّا غليظاً ، شديد النَّـكال ، عظِيم الجرأة والعبث بالخلق ؛ بلغ من عيثه[٣] فيهم ، إحراقُهم بالنّار ، وقذفهُم من الشَّواهق والأبراج ، و إخراج الأعصاب والرِّباطات عن ظهورهم ، عن أوتار القِسِىّ بزعمه ، وضمِّ أغصان الشجر العادى بعضها إلى بعض ، وربط الإنسان بينها[٤] ، ثم تسريحِها ، حتى يذهب كل غصن بحظِّه من الأعضاء ؛ ورآه بعض الصالحين فى النوم بعد موته ، وسأله ما فعل الله بك فأنشده :

من سرّه العيثُ فى الدنيا بخِلقةَ من ... يصور الخَلق فى الأرحام كيف يشا
فليَصْبِرِ اليوم صبرى تحت بَطْشَته ... مغلَّلا[٥] يمتطى جَمْرَ الغضا فَرْشا

شجاعته

زعموا أنه خرج من المواضع التى كانت لنصره مُتصَيِّداً ، وفى صحبته محاولو الهوى

---

(١) تطلق على الشجاع الذى يستبهم على أقرانه مأتاه . والبهمة هى الصخرة الصامتة .

(٢) وردت فى « ك » ، مرتكب العظمة . ولكنها وردت محرفة فى « ج » (مرتبكاً للطيمة) .

(٣) وردت فى « ج » ، عبثه . وفى « ك » غشه .

(٤) فى « ج » بينهما .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » مغلا .

وقارعو أوتار الغِناء[١] ، فى مائة من الفرسان ، ونقاوة أصحابه ؛ فما راعهم إلا خيل العدو هاجمة على غِرَّة ، فى مائتى[٢] فارس ضِعْف عددهم ؛ فقالوا العدو فى مائتى فارس ، فقال و إذا كنتم[٣] أنتم لمائة ، وأنا لمائة ، فنحن قدرهم ؛ فعدّ نفسه بمائة . ثم استدعى قَدَحاً من شرابه ، وصرف وجهه إلى المُغَنِّى ، وقال أعد[٤] لى تلك الأبيات ، كان يغنيه بها فتعجبه :

يتلقى النَّدا بوجـهٍ حَيِىّ   وصـدورَ القَنا بوجه وَقاح

هكذا هكذا تكون المعالى   طرُق الجَدِّ غيرُ طرق المزاح

فغَنَّاه بها ، واستقبل العدوَّ ، وحمل عليه بنفسه و بأصحابه ، حملة رجل واحـد ، فاستولت على العدو الهزيمة ، وأتى على معظمهم القتل ، ورجع غانماً إلى بلده . ثم ضربت الأيام ، وعاود التصيُّد فى موضعه ذلك ، وأطلق بازَه على حَجَلة ، فأخذها ، وذهب ليذ كيها ، فلم يحضره خنجرُ ذلك الغرض فى الوقت ، فبينما هو يلتمِسُه ، إذ رأى نصلاً من نِصال المُعْتَرَك من بقايا يوم الهزيمة ، فأخذه من التراب ، وذبح به الطائر ، ونزل واستدعى الشراب ؛ وأمر المغنى فغنَّاه بيت أبى الطيب :

تذكرت ما بين العُذَيْبِ و بارقٍ   مجرَّ عَوالينا فى مجرى السـوابق

وصحبةَ قوم يذبحون قنيصهم   بفَضْلَةِ ما قد كسروا فى المَفارق

وقد رأيت من يروى هذه الحكاية عن أحد أمراء بنى مَرْدِنيش ، وعلى كل حال فهى [من][٥] مُسْتَظرف الأخبار .

---

(١) وردت فى المخطوطين : (أوتار غنى) .

(٢) وردت فى المخطوطين : مائتين . وهو تحريف .

(٣) وردت فى المخطوطين : كان . والتصويب لازم للسياق .

(٤) وردت فى المخطوطين : عد .

(٥) زيادة يقتضيها السياق . وهى ساقطة فى المخطوطين .

دخوله غرناطة

قالوا ، وفى سنة ست وخمسين وخمسمائة ، فى جمادى الأولى منها ؛ قصد إبراهيم ابن هَمُشك بجمعه مدينة غَرْناطة ، وداخل طائفة من ناسها ، وقد تشاغل الموحِّدون بما دهمهم من اختلاف الكلمة عليهم بالمغرب ، وتوجُّه الوالى بغرناطة السيد [أبى](١) سعيد إلى العُدْوة ، فاقتحمها ليلاً واعتصم الموحدون بقَصَبَتها ؛ فأجاز بهم(٢) بأنواع الحرب، ونصب عليهم المجانيق ، ورمى فيها من ظَفِر به منهم وقتلهم بأنواع من القتل. وعند ما اتصل الخبر بالسيد أبى سعيد ، بادر إليها فأجاز البحر ، والتف(٣) به السيد أبو محمد [بن](٤) أبى حفص بجميع جيوش الموحدين والأندلس ؛ ووصل الجميع إلى ظاهر غرناطة ، وأصحر إليهم ابن هَمُشك ، و برز منها ، فالتقى الفريقان « بمرج الرّقاد »(٥) من خارجها ، ودارت بينهم الحرب ، فانهزم جيش الموحدين ، واعترضت الفلّ تخومُ الفدادين(٦) وجداول المياه التى تتخلل المَرْج(٧) ، فاستولى عليهم القتل ، وقتل فى الوقيعة السيد أبو محمد ؛ ولحق السيد أبو سعيد بمالقة ؛ وعاد ابن هَمُشك إلى غرناطة فدخلها بجُملةٍ من أسرى القوم ، أفحش فيهم المُثْلة ، بمرأى من إخوانهم المَحْصورين ؛ واتصل الخبر بالخليفة بمراكش ، وهو بمَقْرَبةِ(٨) سَلا ، قد فرغ من

---

(١) وردت فى المخطوطين : أبو . وهو تحريف يقتضى التصويب .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » لهم .

(٣) وردت هذه الكلمة فى « ج » . ومكانها بياض فى « ك » .

(٤) وردت فى « ك » . وأغفلت فى « ج » .

(٥) كان هذا الاسم يطلق على موضع بظاهر غرناطة على بعد بضعة كيلومترات من قرية الطرف Atarfe فى سفح جبل البيرة Sierra de Elvira على مقربة من نهر شنيل . ومقابلها الحديث هو Majorrocal أو Merrojal: (S. de Lucena: Al-Andalus: 1944, p. 505)

(٦) أى الحدائق والبقاع .

(٧) هو مرج غرناطة الشهير La Vega . وقد سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص ١٠٥) .

(٨) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » بقربة .

أمر عدوه[١] ، فجهز جيشاً حسناً ، أصحبه السيد أبا يعقوب ولده ، والشيخ أبا يوسف ابن سليمان زعيم وقته ، وداهية زمانه ؛ فأجازوا البحر ، والتقوا[٢] بالسيد أبى سعيد بمالَقَة ، وتتابع الجَمْع ، والتفَّ بهم من أهل[٣] الجهاد من المتطوعة ، واتصل منهم السير إلى قرية دِلَر[٤] من قرى غرناطة ؛ وكان من استمرار الهزيمة على ابن هَمُشك الذى أمرُه لنفسه[٥] وجيشه ، من نصارى وغيرهم ، ما يأتى ذكره عند اسم ابن مَرْدِنيش فى الموحدين ، فى حرف الميم بحول الله تعالى .

انخلاعُه للموحِّدين عما بيده
وجوازهُ للعُدْوة ، ووفاته بها

قالوا ؛ ولما فسَد ما بينه و بين ابن مردنيش بسبب بنته التى كانت تحت الأمير أبى محمـد بن سعد بن مردنيش إلى أن طلَّقها ، وانصرفت إلى أبيها ، وأسْلَمَت إليه ابنها منه ، مختارة كنفَ أبيها إبراهيم ، نازعةً فى انصرامه إلى عروقها ؛ فلقد حكى أنها سئلت عن ولدها ، و إمكان صَبْرها عنه ، فقالت : جَرْوُ كلبٍ ، جرو سوءٍ ، من كلب سوءٍ ، لا حاجة لى به ؛ فأُرسلت كلمتها فى نساء الأندلس مثلًا ؛ فاشتدت بينهما الوَحشة والفتنه ، وعظُمت المحنة ، وهلك بينهما من الرعايا المَمْرورين ، المضطَّرين ، بقنّينة[٦] الثوار ممّن شاء الله بهلاكه ، إلى أن كان أقوى الأسباب فى تدمير[٧] ملكه .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، عوده .

(٢) وردت فى المخطوطين : وتلقوا . وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٣) أثبتها « ك » ، وأغفلها « ج » .

(٤) هكذا ورد اسمها صحيحاً فى « ج » . وفى « ك » دلن ، وهو تحريف . وقرية دلر ما تزال تقوم حتى اليوم . وتقع فى جنوبى غرناطة على مقربة من قرية « البذول » . وهى بالإسبانية Dilar

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، بنفسه .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين . وقنينة اعنى حظيرة .

(٧) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : تدبير . وواضح أنه تحريف لكلمة تدمير ، وهو ما يؤيده سياق الكلام .

ولما صرف ابن سعد عزمه إلى بلاده ، وتغلب على كثير منها ، خدم ابن هَمُشك الموحِّدين [ولاذ بهم][١] واستجارهم ؛ فأجاز البحر ، فقَدِم على الخليفة عام خمسة وستين وخمسمائة،فأكرم قدومه ، وأقرَّه بمواضعه ؛ إلى أوائل عام أحد وسبعين، فطولب بالانصراف إلى العُدْوة بأهله وولده ، وأُسكن مِكْناسَة ، وأُقطع بها سآما[٢] لها خطر ، واتَّصلت تحت عنايته إلى أن هلك .

وفاته

قالوا ، واستمر[٣] مُقام ابن همشك بمكناسة غير كبير ، وابتلاه الله بفالج غريب الأَعْراض ، شديد سوء المزاج ، إلى أن هلك ؛ فكان يدخل الحمَّام الحار ، فيشكو حرّه بأعلى صراخه ، فيخرج ، فيشكو البرد كذلك ، إلى أن مضى سبيله .

إبراهيم بن أمير المسلمين أبى الحسن بن أمير المسلمين أبى سعد عثمان بن أمير المسلمين[٤] أبى يوسف يعقوب بن عبد الحقّ

يكنى أبا سالم .

أوليته

الشمس تخبر[٥] عن حُلًى ، وعن حُلَل . فهو البيت الشهير ، والجلال الخطير، والمُلْك

---

(١) وردت هذه العبارة فى « ج » ، وأغفلها « ك » .
(٢) هكذا فى المخطوطين ، والسوام والسائمة أى الإبل الراعية .
(٣) وردت فى المخطوطين : واستمرت . وهو تحريف .
(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، أمير المؤمنين . وهو سهو .
(٥) فى المخطوطين : تنكر ، والتصويب من « ت » .

الكبير، والفَلَكَ الأثير، ملاكُ المسلمين، وحُماة الدين، وأمراء المغرب الأقصى من بنى مَرين[١]؛ غيوثُ المواهب، وليوثُ العرين[٢]، ومعتَمد الصَّريخ، وسهام الكافرين. أبوه السلطان أبو الحسن، الملك الكبير، البعيد[٣] شأو الصِّيت والهمة والعزيمة، والتحلِّى بحُلَى السُّنة، والإقامة لرسوم المُلْك، والاضطلاع بالهمَّة، والصبر عند الشدة. وأخوه أمير المسلمين، فذلكةُ الحَسَب، ونير النَّصَبة، وبَدْرَة المعدن، وبيت القصيد، أبو عِنان، فارس؛ الملِكُ الكبير، العالم المُتَحَبِّر، العامل، النظّار، الجواد، الشجاع، القَسُور، الفصيح، مدد السعادة، الذى خرق الله [به][٤] سياج العادة؛ فما عسى أن يطلُبَ اللسان، وأين تقع العبارة، وماذا يحضُرُ الوصف، عينُ هذا المجد فوّارة، وحَسْبُ هذا الحَسَب اشتهاره، قولا بالحق، وبعداً عن الإطراء، ونشراً للواء النَّصَفة، حفظ الله [على][٥] الإسلام ظلَّهم، وزيَّن ببدور الدين والدنيا هالتهم، وأبقى الكلمة فيمن اختاره منهم.

حـــاله

كان شاباًّ[٦] كما تَطلّع وَجهُه، حسن الهيئة، ظاهر الحياء والوقار، قليل الكلام،

---

(١) بنو مرين هم بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية الشهيرة، وكانوا فى بداية أمرهم من القبائل البدوية المتنقلة. وفى أوائل القرن السابع الهجرى ساروا نحو المغرب الأقصى، ونفذوا الى أراضى الموحدين. وكانت دولة الموحدين تجوز دور انحلالها. وبدأت المعارك بينهم وبين الموحدين فظهروا عليهم تباعاً واستولوا على فاس سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م). ثم استولوا على مراكش سنة ٦٦٩ هـ (١٢٦٩ م) وانتهت بذلك دولة الموحدين. وقامت مكانهم دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى من ذلك الحين. واشتد بأسها وسطع نجمها، وظهر فيها ملوك عظام مثل أبى يوسف يعقوب منشىء دولتهم، وأبى الحسن على بن عثمان، وولده أبى عنان فارس، ثم ولده أبى سالم إبراهيم، (وهو المترجم هنا). وقد لبثت دولة بنى مرين دهراً عضداً لمملكة غرناطة بالأندلس. وقد عبروا البحر مراراً وتكراراً لغوثها وإنجادها.

(٢) هكذا وردت فى « ج ». وفى « ك »: الغر. والأولى أرجح وأصلح للسياق.

(٣) هكذا فى « ج ». وفى « ك » المعتد.

(٤) زيادة يستلزمها السياق.

(٥) أثبتها « ك ». وأغفلها « ج ».

(٦) فى المخطوطين: شبا.

صليفه عن اللفظ ، آدَمَ اللون[١] ، ظاهر السكون والخَيْرِيّة والحشمة ، فاضلاً ، متخلقاً ؛ قدّمه أبوه ، أمير الرتبة ، موُفَّى الألقاب ، بوطن سِجِلْماسَة ، وهى عمالة مُلْكٍ[٢] ، فاستحق الرتبة فى هذا الباب بمزيد هــذه الرتبة المشترط لأول تأليفه . ولما قبضه الله إليه ، واختار له ما عنده ، أحوج ما كانت الحال إلى من ينظم الشّت ، ويجمع الــكلمة ، و يصون الدِّما سبحانه[٣] أحوج ما كانت الدنيا إليه ، وصير أمره [إلى وارثه طواعية][٤] وقسراً ، ومستحقّاً وغِلاباً ، وسَلْماً ، وذاتاً وكَسْباً ، السلطان أخيه ، تحصل هو [وأخ له][٥] اسمه محمــد ، وكنيته أبو الفضل ، يأتى التعريف بحاله فى مكانه إنشاء الله ؛ فأبقى[٦] ، وأغضى ، واجتنب الهوى ، وأجاب داعى البر والشفقة والتقوى ، فصرفهما إلى الأندلس ؛ باشرتُ إركابهما البحر بمدينة سَلَا ثانى اليوم الذى انصرف من بابه ؛ وصَدرتُ عن بحر جوده ، وأفَضْتُ بإمامة عنايته ، مُصْحباً بما يُخرس[٧] لسان الثناء من صنوف كرامته ، فى غرض السِّفارة عن السلطان بالأندلس ، تغمده الله برحمته ؛ ونزل مَرْبَلّة[٨] من بلاد الأندلس المصروفة إلى نظره ، واصلاً السير إلى غرناطة .

---

(١) أعنى أسمر اللون .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » ملكهم .

(٣) وردت فقط فى « ج » . ومكانها بياض فى « ك » .

(٤) وردت هذه العبارة محرفة فى« ج » (إلى وازنه طوعية) . ومكانها بياض فى« ك » . والتصويب من « ت » .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » اخوه .

(٦) وردت فى المخطوطين : فانقى . والتصويب من « ت »

(٧) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » و « ت » . يعرض .

(٨) ورد اسم هذا المكان محرفاً فى المخطوطات الثلاثة : فى« ك » جربله . و« ج » جذيلة . و« ت » جرية . والمرجح المقصود ، هو مربلة ، وهى من ثغور الأندلس الجنوبية . وتقع إلى جنوب غربى مالقة وكانت وقتئذ من الثغور الأندلسية التى بيد بنى مرين . وبالإسبانية Marbella

دخوله غرناطة

قَدِم هو وأخوه عليها ، يوم عشرين من جمادى الأولى ، من عام اثنين وخمسين وسبعمائة . وبرز السلطان إلى لقائهما ، إبلاغاً فى التَّجلة ، وانحطاطاً فى دَست[(١)] التَّخَلق ؛ فسعيا إليه مُرْتَجلين ، وفاوضهما[(٢)] ، حتى قُضيت الحقوق ، واستَفْرَجت[(٣)] تفقُّدَه وجرايَتَه ، وحلّا بأحظى الأمكنة ، واحْتَفَيا[(٤)] فى سرير مجلسه ، مقسوماً بينهما الحظ ، من هشَّتِه ولَحْظَته ؛ فأما محمد فسوّلت له نفسه الأطماع ، واستفزَّته الأهواء ، أمراً كان قاطع أجله ؛ وسَعْد أخيه اختاره الله من دونه . وأما إبراهيم المترجم به ، فجَنَح إلى أهل[(٥)] العافية ، بعد أن ناله اعتقال ، بسبب إرضاء أخيه أمير المسلمين فارس ، فى الأخريات لشهر ذى حجة من عام تسعة وخمسين وسبعمائة ، وتقديم ولده الصبىّ ، المُكْنى بأبى بكر ، المسمّى بسعيد ، لنظر وزيره فى الحزم والكفاية ، حرَّكه الاستدعاء ، وأقْلَقَته[(٦)] الأطماع ، وهبَّ به السائل[(٧)] . وعَرَض بغرضه إلى صاحب [الأمر][(٨)] بالأندلس ، ورفق عن صُبوحه ، فشكا إلى غير مُصْمت ، فخرج من الحضرة ليلا من بعض مجارى المياه ، راكباً للخطر ، فى أخريات جمادى الأولى من العام بالحضرة المكتنبة الجوار ، من ثغور العدو ، ولَحِق بملك قشتالة ، وهو يومئذ بإشْبيليّة ، قد شرع

---

(١) هكذا وردت فى « ك » ، وفى « ج » ضعة ، وفى « ت » نعة . والأولى أرجح

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، قارضهما .

(٣) فى « ج » واستقرجت . وفى « ك » استقرج . والتصويب من « ت » .

(٤) فى « ت » ، واختفيا . وفى المخطوطين : اختفى .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة . (أصل) وقد رجحنا هذا التصويب لأنه أنسب للسياق .

(٦) وردت محرفة فى المخطوطين : قلقه . وفى « ت » ، وقلعت .

(٧) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » الرسائل . والأولى أرجح .

(٨) هذه الكلمة واردة فى « ج » و « ت » ، وساقطة فى « ك » .

فى تَجْرِيةٍ إلى عدوّه من بَرْجِلونه[١] ، فطرح عليه نفسه ، وعرض عليه مخاطبات استدعائه ودسّ له المطامع المرتبطة بحصول غايته ، فقبل سعايته ، وجهز له جَفْناً من أساطيله ، أُركب فيه ، فى طائفة تَحْريكه ، وطَعَن بحر المغرب إلى ساحل أزمور[٢] ، وأقام به منتظراً إلى إنجاز المواعد ، ممن بمرّاكش ، فألفى [الناس][٣] قد حَطَبوا فى حَبْل منصور بن سليمان ، وبايعوه بجملتهم ، فأخفق مسعاه ، وأخلف ظنه ، وقد أخذ منصور بمُخَنَّق البلد الجديد ، دار مُلْك فارس[٤] ، واستوثق له الأمر ، فانصرف الجَفْنُ أدراجه . ولما حاذى لبلاد غُمارة من أحواز أَصِيلَا[٥] ، تنادوا به[٦] قومٌ منهم ، وانحدروا إليه ، ووعدوه الوفاء له ، فنزل إليهم ، واحتملوه فوق أكْتادهم ، وأحدقوا[٧] به فى سفح[٨] جبلهم ، وتنافسوا فى الذّب عنه ، ثم كبَسُوا[٩] أَصِيلَا فملكوها [وضُيِّق بطنجة][١٠] ، فدخلت فى أمره ، واقتدت بها سَبْتة ، وجبل الفتح ؛ واتصل به بعض الخاصة ، وخاطبه الوزير المحصور ، وتخاذَل أشياع منصور ، فخذلوه[١١] ، وفروا عنه جهاراً ، بغير علّة ، وانصرفت الوجوه إلى السلطان أبى سالم ، فأخذ بيعاتهم عَفْواً[١٢] ، ودخل البلد المحصور ،

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة : فى « ج وك » ، رحلونه . وفى « ت » رجوله . والصواب (برجلونه) أو برشلونة وهى يومئذ عاصمة مملكة أراجون .

(٢) أزمور أو أزموره من ثغور المغرب الأقصى وتقع شمال أصيلا .

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٤) دار ملك فارس ، أى السلطان فارس أبو عنان .

(٥) هى من ثغور المغرب الغربية . وتقع على المحيط جنوبى طنجة .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » تنادر . والأصوب أن يكون الفعل بالمفرد . ولكنه يرد قبل الفاعل بالجمع فى أحيان كثيرة . وهذه خاصة فى بعض الأساليب الأندلسية المتأخرة .

(٧) وردت فى المخطوطين : واحزنوا . والتصويب من « ت » .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » سطح .

(٩) وردت فى المخطوطات الثلاثة : كسبوا . وهو تحريف ظاهر .

(١٠) وردت فى المخطوطين : (وصينونا لطنجة) وهو تحريف . والتصويب من « ت » .

(١١) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » (فغدروه) والمعنى واحد .

(١٢) هكذا وردت فى « ج » و « ت » . وفى « ك » ، عنوا .

وقد ترددت بينه و بين الوزير المحصور ، مخاطبات فى رد الدعوة إليه ؛ فدخل البلد يوم الخميس خامس عشرة شعبان من عام التاريخ ؛ واستقر(١) وجدّد الله عليه أمره ، وأعاد ملكه ، وصرف عليه حقّه ، و بلى(٢) هذا الأمير من سير الناس إلى تجديد عهد أبيه ، وطاعتهم إلى أمره ، وجنوحهم إلى طاعته ، وتمنّى مدته ؛ حال(٣) غريبة ، صارت عن كَثَبٍ إلى أضدادها ، فصرف ولده إلى اجتثاث شجرة أبيه ، فالتقط من الصِّبية بين مُراهق ومُحتلم ومُسْتجمع ، طائفة تناهز العشرين ؛ غلماناً رَدَنَة ، قُتلوا إغراقاً من غير شُفْعة(٤) توجب إباحة قطرة من دمائهم ، ورأى أن قد [خلا له الجو](٥) ، فتوا كل ، وآثر الحجْبَة ، وأشرك الأيدى فى مُلْكه ، فاستبيحت أموال الرعايا ، وضاقت(٦) الجبايات ، [وكثرت الظلامات](٧) ، وأخذ الناس حرمانُ العطاء ، وانفتحت أبواب الإرجاف ، وحُدت [أبواب](٨) القواطع ، إلى أن كان من أمره ما هو معروف .

وفى أول شهر رجب عام واحد وستين وسبعمائة ، تحرّك الحركة العظمى إلى تِلِمْسان . وقد استدعى الجهات ، و بعض البلاد ، ونَهَد فى جيوش تجرُّ الشّوك والحَجَر ، ففر سلطانها أمام عزمه(٩) ، وطار الذُّعر بين يدى الضّلالة ، وكنا قد استغثنا القرار فى إيالته(١٠) ، وانتهى بنا الإزعاج إلى ساحل سَلَا من ساحل مملكته ؛

---

(١) هكذا فى المخطوطين : وفى « ت » واستنقذ

(٢) هكذا فى المخطوطين وفى « ت » ، وأخذ .

(٣) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » حالا .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » و « ت » شفقة .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطين هكذا : (حلا له الحق) .

(٦) هكذا فى « ت » . وفى « ج » ، وضويقت . وفى « ك » وصر بقت .

(٧) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : (وكثر الظلمات) .

(٨) هذه الكلمة ساقطة فى « ك » . وواردة فى الآخرين .

(٩) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ، العزم .

(١٠) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » أظلته . والمعنى واحد .

فخاطَبْتُه وأنا يومئذٍ مقيم بتُربة أبيه ، مُتذمِّمٌ بها ، فى سبيل استخلاص أملاكى بالأندلس ، فى غرض التهنئة والتوسُّل :

« مولاى ، فتَّاحُ الأقطار والأمْصار ، فائدة الزمان والأعْصار ، أثيرُ هِبات الله الآمنة من الاعْتِصار ، قدوةُ أولى الأيْدى والأبصار . »

وفاته

وفى ليلة العشرين من شهر ذى قعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة ، ثار عليه بدار المُلْك ، وبلد الإمارة المعروف [بالبلد الجديد][1] ، من مدينة فاس ، الغادِرُ[2] مُخْلِفُهُ عليها عمر بن عبد الله بن على ، نَسَمَةُ السوء ، وجُمْـلة الشؤم ، المثل البعيد فى الجرأة على قَدَر ، اهتبل[3] غرة انتقاله ، إلى القصر السلطانى ، بالبلد القديم ، مُحْتولا إليه ، حَذِراً من قاطع فلكىّ [الجدِّ رُقْيَة][4] ، استعجله ضعفُ نفسه ، وأعانه على فرض صحته به ، وسدَّ الباب فى وجهه ، ودعا الناس إلى بيعة أخيه المعتوه ؛ وأصبح حائراً بنفسه ، يروم استرجاع أمر ذهب من يده ، ويطوف بالبلد ، يلتمس وجهاً إلى نجاح حيلته[5] ، فأعياه ذلك ، ورَشَقت مَنْ معه السهام ، وفرّت عنه الأجناد والوجوه ، وأسْـلمه الدهر ، وتبرأ منه الجدُّ ؛ وعندما جنَّ عليه الليل ، فرّ على وجهه ، وقد التفت عليه الوزراء ، وقد سُفِّهت أحلامهم ، وفالت آراءهم ؛ ولو قصدوا به بعض الجبال المنيعة ، لولّوا وجوههم شطر مظَنَّة الخلاص ،

---

(١) وردت هكذا فى « ت » ، وفى المخطوطين : (البلد القديم الجديد) وعلى كلمة القديم علامة تدل على الشك . والصواب ما أثبتناه .

(٢) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : العاد . وفى « ت » : المعادى .

(٣) أى احتال واغتنم .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى « ت » . وفى المخطوطين : (الجد رمنه) وهو تحريف . ولعل المقصود هو حذره من نبوءة تقضى على حظه .

(٥) هكذا فى « ت » : وفى المخطوطين : حيله .

واتصفوا بعذر[١] الإبلاغ ؛ لكنهم نكلوا عنه ، ورجعوا أدراجهم ، وتسللوا راجعين من غادرِ[٢] الجُمْلة ، وقد سلبهم الله لباس الحياء والرُّجلة[٣] ، وتأذَّن الله لهم بسوء العاقبة ؛ وقصد بعضَ بيوت البادية ، وقد فضحه نهار الغداة[٤] ، واقتفى البعث[٥] أثره ، حتى وقعوا عليه ، وسِيق إلى مصرعه ، وقُتل بظاهر البلد ، ثانى اليوم الذى كان غدر فيه ، جعلها الله له شهادة [ونفعه بها][٦] ، فلقد كان بقيَّة البيت ، وآخر القوم ، دماثة وحياء ، وبُعْداً عن الشر ، ورُكوناً للعافية .

وأنشدتُ على قبره الذى ووريت به جثَّته بالقلعة من ظاهر المدينة ، قصيدة أدّيت فيها بعض حقه .

بنى الدنيا بنى لَمْع السَّراب لُدُّوا للموت وابْنوا للخراب

إبراهيم بن يحيي بن عبد الواحد بن أبى حفص
عمر بن يحيي الهِنْتاتى ، أبو إسحاق

أمير المؤمنين بتونس ، و بلاد إفريقية ، بن الأمير أبى زكريا ، أمير إفريقية ، وأصل الملوك المُتأثِّلين العزّ بها ، والفرع الذى دَوَّح بها ، من فروع الموحِّدين بالمغرب ؛ واستِجلابُه بها أبا محمد عبد المؤمن بن على ، أبا الملوك من قومه ، وتغلبُ ذريته على

---

(١) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : بعدار .

(٢) هكذا وردت فى « ت » . وفى « ج » ، (برعادر) . وفى « ك » (من عادى) . وهو تحريف .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (الرحلة) . والرجلة أى الرجولة .

(٤) هكذا وردت فى « ت » . وو ردت محرفة فى المخطوطين : (العدو) .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » (اتبعت) . وساقطة فى « ت » .

(٦) وردت فى المخطوطين . وأغفلت فى « ت » .

المغرب و إفريقية والأندلس معروف كله ، يفتقر بسطه[١] إلى إطالة كثيرة ، تخرج عن الغرض .

وكان جدُّ هؤلاء الملوك من أصحاب المهدى ، فى العشرة الذين [هبُّوا لبيعته][٢] وصَحِبوه فى غُرْبته ، أبو حفص ، عمر بن يحيى ، ولم يزل هو وولده[٣] من بعده ، مرفوع القَدْر ، معروف الحق .

ولما صار الأمر للناصر أبى عبد الله بن المنصور ، أبى يوسف بن يعقوب بن عبد المؤمن بن على ، صرف وجهه إلى إفريقية ، ونزل بالمَهْديّة ، وتلوّك[٤] إليه ابن غانية[٥] فيمن لفَّه من العرب والأوباش ، فى جيش يسوق الشجر والمَدَر ، فجهز إلى لقائه عسكراً لنظر الشيخ أبى محمد بن عبد الواحد[٦] بن أبى حفص ، جدهم الأقرب ، فخرج من ظاهر المهدية فى أُهْبة ضخمة ، وتَعْبِية[٧] مُحكمة ، والتقى الجمعان فكانت على ابن غانية ، الدايرة ، ونُصر الشيخ محمد نصراً لا كفاء له ، وفى ذلك يقول أحمد بن خالد من شِعْرٍ عندهم :

فتوحٌ بها شُدَّت عرى الملك والدين تراقب مَنًّا منكم غير مَمْنون

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين : سبطه .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى « ك » . وفى « ج » (هبوا لليعته) . وفى ت (هيوه البيعة) .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : ووالده . وهو تحريف ظاهر .

(٤) وردت فى المخطوطين : (وقلول) . وهو تحريف . وفى « ت » ، واتى . وهى فى حيز هذا المعنى .

(٥) هو محمد بن إسحاق المسوفى المعروف بابن غانية من أسرة بنى غانية وهم أسرة من القواد المرابطين اشتهرت بالمغرب والأندلس . وكان ابن غانية المذكور حينما انهارت دولة المرابطين – قد استولى على المهدية وتونس سنة ٥٩٩ هـ . وفرض عليها حكم إرهاب . وبعث الموحدون لقتاله أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص فاستطاع التغلب عليه وهزمه فى سنة ٦٠٢ هـ . ثم هزمه ثانية فى سنة ٦٠٦ هـ ، ووضع بذلك حداً لمغامرات ابن غانية فى تونس . ويلاحظ أن ابن غانية هذا هو غير سميه الذى سبقت ترجمته (فى الحاشية فى ص ١٠٣) . (راجع الاستقصاء للسلاوى ج ١ ص ١٨٩) .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » ، عبد المؤمن . وهو تحريف ظاهر .

(٧) وردت فى المخطوطين : وتبعية .

وفُتحت المهدية على هيئة ذلك الفتح ، وانصرف الناصر إلى تونس ، ثم تفقّد البلاد ، وأحكم ثقافها[1] ، وشرع فى الإياب إلى المغرب ، وترجّج عنده تقديم أبى محمد ابن أبى حفص المصنُوع له بإفريقية ، على مُلْكها ، مستظهراً منه بمضاء وسابقة وحزم ، بسط يده فى الأموال ، وجعل إليه النظر فى جميع الأمور ، سنة ثلاث وستمائة . ثم كان اللقاء بينه و بين ابن غانية فى سنة ست بعدها ؛ فهزم ابن غانية ، واستولى على محلته ؛ فاتصل سعده ، وتوالى ظُهره ، إلى أن هلك مشايعاً لقومه من بنى عبد المؤمن ، مظاهراً بدعوتهم ، عام تسعة وعشرين وستمائة .

وولى أمره بعده ، كبيرُ ولده ، عبد الله ، على عهد المستنصر بالله بن الناصر من ملوكهم ؛ وقد كان الشيخ أبو محمد زُوحم ، عند اختلال الدولة ، بالسيد أبى العلاء الكبير ، عم أبى المستنصر ، على أن يكون له اسم الإمارة بقَصَبة تونس ، والشيخ أبو محمد على ما لسائر نظره ؛ فبقى ولده عبد الله على ذلك بعد ، إلى أن كان ما هو أيضاً معروف من تصيُّر الأمر إلى المأمون أبى العلاء إدريس ، ووَقْعِهِ السيْف فى وجوه الدولة بمراكش ، وأخذه بثَرّة[2] أخيه وعمه منهم . وثار أهل الأندلس على السيد أبى الربيع بعده بإشبيلية وجَعْجَعوا[3] بهم ، واخذوا فى التشريد بهم ، وتبديد دعوتهم ؛ واضطربت الأمور ، وكثُر الخلاف ؛ ولحق الأمير أبو زكريا بأخيه بإفريقية ، وعرض عليه الاستبداد ، فأنِفَ من ذلك ، وأنكره عليه إنكاراً شديداً ، خاف منه على نفسه ؛ فلحق بقابِس فارًّا ، واستجمع بها مع شيخها مَكِّى ، وسلف شيوخها اليوم من بنى مكى ؛ فمهّد له ، وتلقاه بالرحب ، وخاطب له الموحدين سرًّا ، فوعدوه بذلك ، عند خروج عبد الله من تونس إلى الحركة ، من جهة القَيْرُوان . فلما

---

(١) ثقافها أى تحصينها . وقد وردت محرفة فى « ت » ، ثقاتها .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (بترة) . والثرة الطفة الكثيرة الدم . والمقصود هنا الأخذ بالثأر .

(٣) هكذا وردت فى « ك » ؛ وفى « ج » ، وجمعوا .

تحرك [نحوا عليه](١) ، وطلبوا منه المال ، وتلكأ ، فاستدعوا أخاه الأمير أبا زكريا ، فلم يَرُعه وهو قاعد فى خبائه ، آمِنٌ فى سربه ، إلا ثورة الجند به ، والقبض عليه ، ثم طردوه إلى مراكش ؛ وقعد أخوه الأمير أبو زكريا مقعده ، وأخذ بيعة الجند والخاصّة لنفسه ، مستبدًّا بأمره ، ورحَل إلى تونس ، فأخذ بيعة العامة ، وقتل السّيد الذى كان بقصَبَتها ؛ وقبض أهل بجاية حين بلغهم الخبر ، على واليها السّيد أبى عمْران ، فقتلوه تَغريقاً ؛ وانتظمت الدولة (٢) ، وتأثّل الأمر ؛ وكان حازماً داهية مشاركا فى الطّلب ، أديباً راجح العقل ، أصيل الرأى ، حسن السياسة ، مَصْنوعاً له ، مُوفَّقاً فى تدبيره ؛ جبى(٣) الأموال ، واقتنى العُدَد ، واصطنع الرجال ، واستكثر من الجيش ، وهزم العرب ، وافتتح البلاد ؛ وعظُمت الامْنة بينه و بين الخليفة بمراكش الملقب بالسَّعيد ، وعزم كل منهما على ملاقاة صاحبه ، فأبى القَدَر ذلك ؛ فكان من مهلك السعيد بظاهر تِلِمْسان ، ما هو معروف ؛ واتصل بأبى زكريا هَلَكُ ولده ولى العهد أبى يحيى ببِجاية ، فعظُم عليه حزنه ، وأفْرَط جزعُه ؛ واشتهر من رثائه فيه قوله :

ألا جازِعٌ يبكى لفَقْد حبيبه   فإنى لَعَمْرى قد أضرَّ بى الثُّكْلُ
لقد كان لى مالٌ وأهل فقدتُّهُم   فهأنا لا مالٌ لدَىّ ولا أهل
سأبكى وأرثى حسْرَةً لفراقهم   بكاءَ قريحٍ لا يَمَلُّ ولا يَسْلُ
فلَهْجى ليوم فرَّق الدهر بيننا   ألا فَرَجٌ يُرجى فينتظم الشَّمل
وإنى لأرضى بالقضاء وحكمه   وأعلم ربى أنه حاكم(٤) عَدْل

نسبه(٥) ابنُ عَذارى المراكشى فى البيان المُغْرب . واعتلّ بطريقه فمات ببلد

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، نحوا عنه . والأولى أنسب للسياق .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » الدعوة . والأولى أنسب للسياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : (مجبى) . والمعنى يستقيم بالتصويب .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، حكم . وبالأولى يستقيم الوزن .

(٥) وردت فى المخطوطين : نسب . وربما سقطت بعدها كلمة « له » . وبالتصويب يستقيم الكلام نوعاً .

العُنَّاب لانقضاء أربعة من مهلك السعيد؛ وكان موت السعيد، يوم الثلاثاء، مُنْسَلخ صفر سنة ست وأربعين وستمائة. وبويع ولده الأمير أبو عبد الله بتونس وسنه إحدى وعشرين سنة، فوجد مُلكاً مُؤسساً، وجُنْداً مجنَّداً، وسلطاناً قاهراً، ومالاً[١] وافراً؛ فبلغ الغاية فى الجبَروت والتِّيه والنَّخوة والصَّلف، وتسمى بأمير المؤمنين، وتلقَّب[٢] بالمستنصر بالله؛ ونَقِم[٣] عليه أرباب دولته أموراً، أوْجَبت مداخلة عمه أبى عبد الله ابن عبد الواحد المعروف باللِّحيانى، ومبايعته سرًّا بداره؛ وانتهى الخبر للمستنصر، فعاجل الأمر قبل انتشاره برأى الحَزَمة من خاصَّته، كابن أبى الحسين، وأبى جميل ابن أبى الحَمَلات بن مَرْدِنيش، وظافر الكبير، وقصدوا دار عمه فكبسوها[٤]، فقتلوا من كان بها، وعُدَّتهم تناهز خمسين، منهم عمه؛ فسكن الإرجاف، وسَلِم المنازع، وألقَتْ عصاها، وأعطت مقادها[٥]، واستمرت أيّامه. وأخباره فى الجود والجُرْأة، والانهماك، والتَّعاظم على ملوك زمانه، مشهورة. وكانت وفاته سنة أربع وسبعين وستمائة. [وولى أمره][٦] بعده ابنه الملقب بالواثق بالله، وكان مَضْعوفاً[٧]، ولم تطل مدته

عاد الحديث؛ وكان عمه المُترَجم، لما اتصل به مهلك أخيه المستنصر، قد أجاز البحر من الأندلس، ولحق بِتِلِمْسَان، وداخل كثيراً[٨] من الموحِّدين بها، كأبى هلال؛ فهيّأ له أبو هلال تَمَلُّك بِجايَة؛ ثم تحرك إلى تونس، فتغلب عليها، فقتل الواثق،

---

(١) وردت فى المخطوطين : وآمالا .

(٢) هكذا وردت فى ك . وفى « ج » تقلب .

(٣) وردت فى المخطوطين : ونظم . والتصويب من « ت » .

(٤) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : (فجا مكسبوها) وهو تحريف ظاهر .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » مقالدها . والمعنى واحد .

(٦) هكذا وردت فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » (ووامره) .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وهى كلمة يكثر المؤلف من استعمالها .

(٨) فى المخطوطين : كثير .

وطائفةً من إخوته و بنيه ، منهم صبيٌّ يسمى الفضل ؛ وكان أنهضَهم [١] ، واستبدّ بالأمر ، وتمّت بيعته بإفريقية ، وكان من الأمر ما يذكر.

حـاله

كان أيدا [٢] ، جميلا وسيما ، رَبْعَة بادنا ، آدَمَ اللون ، شجاعاً بُهمَةً عَجِلاً غير مُرَاحٍ [٣] ولاحازم ، منحطًّا فى هوى نفسه ، مُنْقاداً للَّذتة ، بريئاً من التشمُّت فى جميع أمره. وولى الخلافة فى [كل] [٤] حال ِكبَره ، ووخطه الشَّيبُ ، وآثر اللهو، حتى زعموا أنه فُقِد [فوُجِد] [٥] فى مزرعة باقلاً مزهرةٍ أُلفى فيها بعد جهد ، نائماً بينها نشوان يتناثر [٦] عليه سقطُها ، واحتجب عن مباشرة سلطانه؛ فزعموا أن خالصته [٧] [أبا الحسن بن سهيل الناس، داخل ولده أبا فارس] [٨] فى خلعه، والقيام مكانه، و بلغه ذلك ، فاستعدّ وتأهّب ، واستركب الجند ، ودعا ولده ، فأحضره ينتظر الموت من يمينه وشماله، وأمر للحين فَقُتل وطرح بأزقة المدينة ، وعجّل بإزعاج ولده إلى بِجاية ، وعاد إلى حاله .

دخوله غرناطة

قالوا ، ولما أوقع الأمير المستنصر بعمِّه أبى عبد الله ، كان أخوه أبو إسحاق ، ممن

---

(١) هكذا فى « ج » . ومكانها بياض فى « ك »

(٢) أيداً ، أعنى قوياً .

(٣) وردت فى « ج » مراحا ، وفى « ك » مرحا . وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وهى هنا حشو .

(٥) ساقطة فى المخطوطين . والإضافة ، من « ت » .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة : يناثر . وهو تحريف .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » ، خاصة . والمقصود هنا ، صفيه وموضع ثقته .

(٨) هكذا ورد ما بين الحاصرتين فى المخطوطين . ولكنه ورد بصورة أخرى فى ت : (أبا الحسن ابن سهل ،فداخل الناس بولده أبي فارس) . وقد رجحنا نحن نص المخطوطين لما تدل عليه عبارة «والقيام مكانه » من ترجيحه .

فرّ بنفسه إلى الأندلس، ولجأ إلى أميرها أبى عبد الله بن الغالب بالله أبى عبد الله [بن][١] نصر، ثانى ملوكهم[٢] فنوّه به، وأكرم نزْله، وبوّأه بحال عنايته، وجعل دار ضيافته لأول نزوله القصر المنسوب إلى السَّيد[٣] خارج حضرته، وهو آثرُ قصوره لديه؛ وحضر غزوات أغزاها ببلاد الروم، فظهر منه فى نكاية العدو وصدامه [سهولة وغناء][٤].

ولما اتصل به موت أخيه تعجَّل الانصراف، ولحق بتلمسان، وداخل منها كبيراً من الموحدين، يعرف بأبى هلال ببجاية كما تقدم، فملّكه أبو هلال منها ببجاية، ثم صعد[٥] تونس فملكها، فاستولى على مُلك ابن أخيه [وما ثَمَّ من دمه][٦]، وارتكب الوزْر[٧] الأعظم فيمن قُتل معه؛ وكان من أمره ما يأتى ذكره إن شاء الله.

إدْبارُ أمره بهلاكه على يد الدعِىِّ الذى قيَّضه الله [لهلاك حينه][٨]

قالوا، واتَّهم بعد استيلائه على الأمر فتًى من أخِصَّاء[٩] فتيان المستنصر، اسمه نُصير، بمالٍ وذخيرة، وتوجه إليه طلبُه، ونال منه. وانتهز الفتى فرصةً لحق فيها بالمغرب واستقر [بحِلال المراعة][١٠] من عرب دَبّاب، وشارع الفساد عليه، بجملة

---

(١) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ويقتضيها السياق.

(٢) هذا السلطان هو أبوعبد الله محمد بن محمد بن الأحمر. حكم مملكة غرناطة بعد وفاة أبيه مؤسس المملكة فى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) حتى سنة ٧٠١، (١٣٠٢ م). وكان يلقب بالفقيه لعلمه وتقواه.

(٣) هو القصر الذى ما تزال بقية منه تقوم حتى اليوم خارج غرناطة. ويعرف عند الإسبان بقصر شنيل Alcazar Genil. وقد سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص١٢٥).

(٤) وردت فى الثلاثة: (وسهولة عنا). وهو تحريف.

(٥) هكذا فى «ت». وفى المخطوطين: صمد، وهو تحريف.

(٦) هكذا فى «ك» وفى «ت». و «ج» (وما تم من دمه).

(٧) وردت فى الثلاثة: الوزير، وهو تحريف ظاهر.

(٨) هكذا وردت فى المخطوطين. وفى «ت» (بهلاك حينه).

(٩) هكذا وردت فى المخطوطين. وفى «ت» خصيات.

(١٠) هكذا وردت فى «ت». وفى المخطوطين: (بخلال المراعمة).

جهده ، حريصاً على إفساد أمره ، وعثَرَ لقضاء الله وقدره بدَعِيٍّ[١] من أهل بجاية يعرف بابن أبي عمارة .

حدثني الشيخ المسِن الحاج أبو عثمان اللَّواتي من عدول المياسين[٢] ، متأخر الحياة إلى هذا العهد ؛ قال خُضْتُ[٣] مع ابن أبي عمارة ببعض الدكاكين بتونس ، وهو يتكهَّن لنفسه ما آل إليه أمره ، ويعد بعض ما جرى به القدر ؛ وكان أشبه الخلق بأحد الصبية الذين ماتوا[٤] ذبحاً ، بالأمير أبي إسحاق ، وهو الفضل ، فلاحت لنُصيرَ وجهُ حُلْمه[٥] ، فبكى حين رآه ، وأخبره بشَبَهِه بمولاه ، ووعده الخلافة ؛ فحرك نَفْساً مُهيأة[٦] في عالم الغيب المحجوب إلى ما أبرزته المقادر[٧] ، فوجده منقاداً لهواه ، فأخذ في تلقينه ألْقاب المُلْك ، وأسماء رجاله ، وعوايده ، وصفة قصوره ؛ وأطلعه على إماراتٍ جرت من المستنصر لأمراء العرب ، سرًّا كان يعالجها نُصير ، وعرَضَه على العرب ، بعد أن أظهر العويل ، ولبس الحداد ، وأركبه ، وسار بين يديه حافياً ، حُزْناً لما ألفاه عليه من المَضْيعة ، وأسفاً لما جرى عليه ، فبايعته العرب النَّافرة ، وأشادوا بذكره ، وتقوُّوا بما قرره من إمارته ؛ فعظُم أمره ، واتَّصل بأبي إسحاق نبأه ، فبرز إليه ، بعد استدعاء ولده من بِجاية ؛ فالتقى الفريقان ، وتمت على الأمير أبي إسحاق الهزيمة ، واستَلْحم الكثير ممن كان معه ، وهلك ولده ، ولجأ أخوه الأمير أبو حفص لقلعة سِنان ، وفرَّ هو لوجهه ، حتى لحق ببجاية ؛ وعاجله

---

(١) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : (يعمى) . وفى « ت » « بد » . وهو تحريف ، والصواب ما أثبتناه وهو اللقب الذى عرف به ابن أبى عماره .

(٢) إما أن تكون هذه الكلمة اسم موضع ، أو تكون تحريفاً لكلمة « « مياسير » . والأولى أرجح .

(٣) وردت فى المخطوطين : (حطت) . وفى « ت » (خطت) . والتصويب أرجح .

(٤) وردت فى المخطوطين : (توا) فقط . وهو سهو ظاهر .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (حيلة) . وفى « ت » (حليته) .

(٦) وردت فى المخطوطين : (ميهات) وهو تحريف .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » المقابر . وهو تحريف .

ابن أبى عمارة ، فبعث جريدة من الجند[١] لنظر أشياخ من الموحِّدين ، أغرت[٢] إليهم الإيقاع ، فوصَلَتْ[٣] إلى بجاية ؛ فظن من رآه من الفُلّ المنهزم فلم يعترضه مُعترض عن القصَبة . وقُبض على الأمير أبى إسحاق ، فطوّقه الحِمام ، واحتُزَّ رأسه ، و بُعث إلى ابن أبى عمارة به ؛ وقد دخل تونس ، واستولى على مُلْكها ، وأقام سنين ثلاثة ، أو نحوها [فى][٤] نعماء لا كفاء له ، واضطَّلع بالأمر ، وعاث فى بيوت أمواله ، وأجْرَى العظائم على نسائه ورجاله ، إلى أن فشا أمره ، واستقال[٥] الوطن من تمرُّته[٦] فيه ، وراجع[٧] أرباب الدولة بصايرهم فى شأنه ، ونَهَد[٨] إليه الأمير أبو حفص طالباً بثأر أخيه ، فاستولى ، ودحض عاره ، واستأصل شأفته ، ومثَّل به ؛ والمُلْك لله ، الذى لا تَزِن الدنيا جَناح بعوضة عنده .

وفى هذا قلت عند ذكر أبى حفص فى الرجز المسمى [بنظم][٩] الملوك ، المشتمل على دول الإسلام أجمع ، على اختلافها إلى عهدنا ، فمنه فى ذكر بنى حفص :

أوّلُهم يحيى بن عبد الواحد | وفضلُهم ليس له من جاحد
وهو الذى استبدَّ بالأمور | وحازها ببَيْعة الجُمهور
وعظُمت فى صُقعه آثارُه | ونال مُلْكاً عالياً مقدارُه

---

(١) وردت فى « ت » الخبر . وهو تحريف لا موضع له .

(٢) فى المخطوطين : أوغرت . والتصويب من « ت » .

(٣) فى المخطوطين : فوصل . والتصويب من « ت » .

(٤) وردت هذه الكلمة فى « ت » . ومكانها فى المخطوطين ، (سك) وهما حرفان لم نهتد إلى حكمة وجودهما هنا .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » ، استقل .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (ثمرته) . والتصويب أنسب للسياق .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » وراجعت .

(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : نهض ، والمؤدى واحد .

(٩) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : بقطع . والمقصود هنا كتاب ابن الخطيب المسمى (رقم الحلل فى نظم الدول) . وقد سبقت الإشارة إلى غير مرة .

ثم تولى ابنه المستنصر   وهو الذى عَلْياه لا تَنْحصر
أصاب ملكا رئيسا(١) أوطانه   وافق عزًّا ساميًا سُلطانه
ودولةً أموالها مجموعة   وطاعةً أقوالها مسموعة
فلم تَخَفْ من عقدها انتكاثا   وعاث فى أموالها عِيَاثا
هبّت بنصر عزِّه الرياح   وسقيت بسعده الرِّماح
حتى إذا أدركه شَرَكُ الرَّدى   وانتحب النَّادى عليه والنَّدا
قام ابنه الواثق بالتَّدبير   ثم مضى فى زمن يسير
سطا عليه العمُّ إبراهيم   والمُلْك فى أربابه عقيم
وعن قريبٍ سلب الإمارة   عنه الدعىّ(٢) ابن أبى عمارة
عَجِيبةٌ من لَعِب الليالى   ما خَطَرت(٣) لعاقل ببال
واخْتَرَمَ السيف أبا إسحاقا   أبا هلال لَقِىَ المَحَاقا
واضطربت على الدَّعى الأحوا   ل والحق لا يغلبه المِحال
ثم أبو حفص سما عن قرب   وصيَّر الدَّعى رهين(٤) التُّرب
ورجع الحق إلى أهليه   وبعده محمد يليه

وهذه الأمور تستدعى الإطالة ، مخلةٌ بالغرض ، ومَقْصِدى أن أستوفى ما أمكن من التواريخ التى لم يتضمنها ديوان ، وأختصر ما ليس بقريب(٥) ، والله ولى الإعانة [بمنه](٦) .

---

(١) هكذا فى « ت » ، و « ج » . وفى « ك » : رايسا .

(٢) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : الداعى .

(٣) وردت فى المخطوطين : خاطرت .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وهق ، وهو تحريف .

(٥) وردت فى المخطوطين : بغريب . والتصويب أنسب للسياق .

(٦) وردت فقط فى « ج » .

إبراهيم بن محمد بن أبى القاسم بن أحمد بن محمد ابن سَهْل بن مالك بن أحمد بن إبراهيم بن مالك الأَزْدى

يُكنى أبا إسحاق .

أوَّلِيَّتُه

منزلُ جَدِّهم الداخل إلى الأندلس ، قرية « شون »[١] من عمل ، أو قيل من إقليم إلبيرة . قال [ابن البستى][٢] : بيتهم فى الأَزْد ، ومجدهم ما مثله مجد ، حازوا الكمال[٣] ، وانفردوا بالأصالة والجلال ، مع عفّة وصيانة ووقار ، وصلاح وديانة ؛ نشأ على ذلك سلفُهم ، وتبعهم الآن خلفُهم . وذكرهم مُطرِّف بن عيسى فى تاريخه[٤] ، فى رجال الأندلس ؛ وقال ابن مَسْعدة[٥] ، وقفت على عَقْد قديم لسلفى ، فيه ذُكر محمد بن إبراهيم بن مالك الأَزْدى ، وقد حُلِّى فيه بالوزير الفقيه أبى أحمد بن الوزير الفقيه أبى عمرو إبراهيم . وتاريخ العقد سنة ثلاث وأربعمائة ، فناهيك من رجال تَحَلَّوا[٦] بالجلالة والطهارة منذ أزيد من أربعمائة سنة ، ويُوصفون

---

(١) سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص٢٨٥) .

(٢) وردت فى المخطوطين : ابن البسر . والمرجح انه ابن البستى ، وهو من أدباء الأندلس فى القرن الثالث الهجرى .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الكلام .

(٤) مطرف بن عيسى الغسانى من أدباء غرناطة فى القرن الرابع الهجرى . وقد صنف كتاباً عن « فقهاء إلبيرة » . وآخر عن شعرائها .

(٥) سبق أن وردت ترجمة ابن مسعدة (ص١٦٨ – ١٧٢) وأورد ابن الخطيب ثبت مؤلفاته (ص ١٧٠) .

(٦) وردت فى المخطوطين : تجلوا . والتصويب أرجح .

فى عقودهم بالفقه والوزارة منذ ثلاثمائة [سنة][١] فى وقت كان فيه هذا المنْصِب فى تَحْلية الناس ، ووصفهم ، فى نهاية من الضَّبط والحِرْز[٢] ، بحيث لا يُتهم فيه بالتَّجاوُز لأحد ، لا سيما فى العقود ، فكانوا لا يصفون فيه الشخص إلا بما هو [الحقُّ فيه][٣] والصدق ؛ وما كان قصدى فى هذا إلا أن شَرَفَهم غير واقف عليه ، أو مستندٌ فى الظهور إليه ؛ بل ذكرهم على قديم الزمان شهير ، وقَدْرهم خطير .

قلت ، ولما عُقد لولدى عبد الله ، أسْعَده الله ، على بنت الوزير أبى الحسن بن الوزير أبى الحسن القاسم[٤] [بن][٥] الوزير أبى عبد الله بن الفقيه العالم الوزير[٦] ، حَرْمِ فخارهم ، ومُجدِّدِ آثارهم ، أبى الحسن سهل بن مالك ، خاطبتُ شيخنا أبا البركات بن الحاجّ ، أعرض ذلك عليه ؛ فكان من نص مراجعته[٧] ، فسبحان الذى أرشدك لبيت السَّتر والعافية والأصالة ، وسحوب[٨] الأبرار ، قاتلك الله ما أجلَّ اختيارك . [وخَلَفُ][٩] هذا البيت الآن على سُنَن سلفهم من التحَلِّى بالوَزارة ، والاقتياد من العظمة الزاكية ، والاستناد القديم الكريم ، واغتنام العمر بالنُّسك ؛ عناية من الله اطَّرد[١٠] لهم قانونها ، واتصلت عادتها ، والله ذو الفضل العظيم .

---

(١) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الحوز .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين ، وفى « ت » : حق به . والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٤) وردت بعدها كلمة (الوزير) أكثر من مرة . والظاهر أنها وردت سهواً إذ لا محل لها هنا وورودها قبل الاسم ولهذا أغفلناها .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى « ت » . ووردت فى « ج » ، إبى . وفى « ك » بن أبى . وهو اضطراب فى النسخ لا يعتد به .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى « ت » .

(٧) وردت فى المخطوطين : فراجعته . والتصويب من « ت » .

(٨) هكذا وردت فى « ت » . وفى « ك » : شحوب .

(٩) وردت فى المخطوطين : وخف . وفى « ت » وحق . وهو تحريف وحكمة التصويب واضحة .

(١٠) هكذا رسمت فى المخطوطين . والمقصود اضطرد .

حـاله

كان من أهل السرِّ والخصوصيّة ، والصّمت والوقار ، ذا حظ وافر من المعرفة بلسان العرب ، ذكيّ الذهن متوقد الخاطر ، مليح النادرة ، شَنْشَنَته معروفة فيهم . سار بسيرة أبيه ، وأهل بيته ، فى الطهارة والعدالة ، والعفاف والنزاهة .

« وفاته »[(١)] : . . . .

إبراهيم بن فَرَج بن عبد البرّ الخولانى

من أهل قرطبة ، يُكنى أبا إسحاق ، ويعرف بابن حُرَّة[(٢)] .

« أوّليتُه » : من أهل البيوتات بالحضْرة ، ولى أبوه القَهْرَمة[(٣)] لثانى الملوك من بنى نصر ، فتأثّل مالاً ونباهةً .

حـاله

هذا الرجل من أعْيان القطر ، ووزراء الصُّقع[(٤)] ، وشيوخ الحضْرة ، أغنى هذه المَدَرة يدا ، وأشغلهم بالعرض[(٥)] الأدنى نفساً ، تحرّف بالتَّجر المربوب فى حجر

---

(١) ورد بعدها فى المخطوطات الثلاثة بياض . ولم نهتد إلى تاريخ الوفاة المنشود .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : ابن جره .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : قهرمة . والمقصود بها هنا إحدى وظائف القصر السلطانى الخاصة .

(٤) وردت فى « ك » كالعادة : السقع .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : بالفرض . و « ت » : بالحضرة . والأولى أصلح للسياق .

الجاه ، ونما ماله ، تحاط به الجِدات ، وتنمو الأموال ، ففار تنُّورها ، وفَهَق حوضها ، كثير الخوض فى التصاريف الوقتية ، والأدات الزمانية ، وأثمان السلع ، وعوارض الأسعار ، متبجح[١] بما ظهرت به يده من عِلْق مَضَنَّة[٢] هُرَى المدينة ، الذى يُنفق على أسواقها ، عند ارتفاع القيم ، وتَمْييز الأسعار ، و بلوغها الحد الذى يراه كُفؤ حبَّته ، ومنتهى ثمن غلَّته ؛ غَرِق الفكر ، يخاطبُ الحيطان والشّجر والأساطين ، محاسباً إياها على معاملات وأغراض فنيَّة ، يُرى من التلبُّس شيئاً من المعارف والآداب والصنائع ، وحجة من الحجج [فى][٣] الرِّزق ؛ تَغْلب عليه السّذاجة والصحة ، دَمِثٌ ، متخلِّق ، متنزِّل ، مُختصر الملبس والمطعم ، كثير التبدُّل ، يعظُم الانتفاع به فى باب التوسعة ، بالتسلُّف[٤] والمداينة ، حسن الُخلُق[٥] ، كثير التجمُّل [مُبْتلى بالمُوقِبِ والطَّانز][٦] : يسمع ذى القحة ، ويُصِمُّ على ذوى المسألة[٧] .

ظهوره وحُظْوته

لبس الُحظْوة شملة ، لم يفارق طوقُها رقبته ، إذ كان صِهراً للمتغلب على الدولة أبى عبد الله بن المحروق[٨] ، صار بسهم فى جذور خُطته ، وألقى فى مَرَقة حُظْوته ،

---

(١) هكذا فى المخطوطن . وفى « ت » : فنجح . والأولى أرجح .

(٢) وردت فى « ج » : مطنة . وفى « ك » ؛ مظنة .

(٣) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى .

(٤) هكذا رسمت فى « ج » . وفى « ك » و « ت » : بالسلف .

(٥) وردت فى المخطوطين : الحق . والتصويب من « ت » .

(٦) هذه العبارة واردة فى المخطوطين . وساقطة فى « ت » . والموقب والطانز أى القادح والساخر .

(٧) هكذا وردت فى « ك » ، و « ت » . وفى « ج » المتبلة وهو تحريف .

(٨) وردت فى « ت » محرفة : ابن محروق . وصحته ابن المحروق . وهو وزير محمد بن الأحمر الثالث . وقد توفى قتيلا فى سنة ٧٢٨ هـ .

مشتملا على حاله ، بعباة[١] جاهه ؛ ثم صاهر المصيرَ الأمر إليه بعده القائد الحاجب أبا النعيم رضوان ، مولى الدولة النصرية ، وهلم جرا ، بعد أن استُعمل فى السِّفارة إلى العُدْوة وقَشْتالة ، فى أغراض تليق بمبعثه ، مما يوجب فيه المياسير والوجوه ، مُشَرَّفين مُعَزَّزين بمن يقوم بوظيفة المخاطبة والجواب ، والرد والقبول ؛ ووُلِّى وزارة السلطان ، لأول مُلكه فى طريق من ظاهر جبل الفتح إلى حضرته ، وأياماً يسيرة من أيام اختلاله ، [إلى][٢] أن رغب الخاصَّة من الأندلسيين فى إزالته ، وصُرف الأمر إلى الحاجب المذكور ، الذى تسقَّط مع رياسته المنافسة ، وترضّى به الجمله .

محنتـــــه

وامتُحن هو وأخوه ، بالتَّغْريب إلى تونس ، عن وطنهما ، على عهد السلطان الثالث من بنى نصر . ثم آب عن عهد غير بعيد ، ثم أسِن واسْتَسَرَّ أديمُه ، وضَجِر عن الركوب إلى فلاحته التى هى قُرة عينه ، وحظُّ سعادته ، يتطارح[٣] فى سكَّة المترددين[٤] بإزاء بابه ، مباشرُ الثَّرى بثوبه ، قد سَدِكت[٥] به شكايةٌ شائنة ، قلما يَفلِت منها الشيوخ ، ولا من شَرَكها ، فهى تزفه[٦] بولاء ، بحال تقتحمها العين شَعَثاً[٧] ، و بُعْدًا عن النظر ، فلم يُطْلِق[٨] الله يده من جِدَته على يده ، فليس فى سبيل دواء ولا غذاء إلى أن هلك .

---

(١) هكذا ورت فى المخطوطين . وفى « ت » : بعبادة . والأولى أرجح . وهى (العباءة) .

(٢) إضافة لا بد منها لاستقامة السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : يتطاح : وهو تحريف .

(٤) وردت فى المخطوطين : المرتدين . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٥) أى علقت به ولزمته .

(٦) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » تنزفه .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » شعة .

(٨) كذا فى « ك » . وفى « ج » : يطل .

« وفاته » ؛ فى وسط شوال عام سبعة وخمسين وسبعمائة .

« مولده » ؛ فى سنة خمس وسبعين [وستمائه][١] .

إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهَّاق الأَوْسى

يكنى أبا إسحاق ، و يعرف بابن المرأة .

حـــاله

سكن ما لقَه دهراً طويلا ؛ ثم انتقل إلى مُرْسِية ، باستدعاء المُحدِّث أبى الفضل المُرْسى والقاضى أبى بكر بن مُحْرز ، وكان متقدماً فى علم الكلام ، حافظا ذا كراً للحديث والتفسير ، والفقه والتاريخ ، وغير ذلك . وكان الكلام أغْلَبَ عليه ، فصيح اللسان والقلم ، ذا كراً لكلام أهل التصوّف ، يطرِّزُ مجالسه بأخبارهم . وكان بحراً[٢] للجمهور بمالقة ومرسية ، بارعاً فى ذلك متفنناً له ، متقدماً فيه ، حسن الفهم لما يلقيه ، له وثوب على التمثيل والتَّشْبيه ، فيما يُقرِّب للفهم ، مؤثراً للخُمول ، قريباً من كل أحد ، حسن العشرة ، مؤثراً بما لديه . وكان بمالقة يتَّجر بسوق الغزل . قال الأستاذ أبو جعفر وقد وصمه ، وكان صاحب حيل [ونوادر][٣] مستظرفة ، يُلهى بها أصحابه ، و يؤنسهم ؛ ومتطلعاً على أشياء غريبة من الخواص وغيرها ، فتن بها بعض الحلْبة ، واطَّلع كثير ممن شاهده على بعض ذلك ، وشاهد منه بعضهم ما يمنعه الشرع من المُرْتكَبات الشّنيعة ، فنافره وباعده بعد الاختلاف إليه ، منهم شيخنا القاضى العَدْل

(١) وردت فى المخطوطين : (وسبعمائة) وهو تحريف ظاهر .

(٢) وردت فى « ج » : بحر . وفى « ك » ، لحق . والأولى مع التصويب متفقة مع السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين . ونوارج . والتصويب من « ت » .

المسمَّى الفاضل أبو بكر[١] بن المُرابط رحمه الله ؛ أخبرنى من ذلك بماشاهد[٢] مما يقبُح ذكره ، وتَبرّأ منه من كان سعى فى انتقاله إلى مرسية ، والله أعلم بغيبه وضميره .

تواليفـــــه[٣]

منها شرحُه كتاب الإرشاد لأبى المعالى ، وكان يعلقه من حفظه من غير زيادة وامتداد . وشرح الأسماء الحسنى ، وألف جزءا فى إجماع الفقهاء ، وشرح محاسن المجالس لأبى العباس بن العريف . وألّف غير ذلك . وتواليفه[٣] نافعة فى أبوابها ، حسنة الرصف والمبانى .

« من روى عنه » : أبو عبد الله بن أحلى ، وأبو محمد عبد الرحمن بن وصلة .

« وفاته » : توفى بمرسية سنة أحد عشر [وسبعمائة][٤] .

ابراهيم بن أبى بكر بن عبد الله بن موسى الأنصارى

تِلمِسانى وقرشى الأصل ، نزل بسَبْتَة ، يكنى أبا إسحاق ، و يعرف بالتلِمْسانى .

حـــاله

كان فقيهاً عارفاً بعَقْد الشروط ، مبرّزاً فى العدد[٥] والفرائض ، أديباً ، شاعراً ،

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » أبو البركات . وهو تحريف .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : باشهاده .
(٣) كذا فى « ج » . وفى « ك » : تآليفه .
(٤) وردت فى المخطوطين : (وستمائة) ، وهو سهو بلا ريب . ذلك أن المترجم له (ابن دهاق) درس كما هو مذكور فى ترجمته على القاضى أبى بكر بن محرز بمرسيه. وقد ذكر فى الترجمة التالية ، وهى ترجمة التلمسانى ، أنه هو أيضاً قد درس على القاضى المذكور . وقد توفى التلمسانى كما هو مذكور فى آخر ترجمته فى سنة ٦٩٠ هـ .
(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » القدر .

محسناً ، ماهراً فى كل مايحاول . نظم فى الفرايض ، وهو ابن ثمانية وعشرين سنة ، أُرجوزة محكمة بعلمها ، ضابطة ، عجيبة الوضع . قال ابن عبد الملك ، وخبرت منه فى تكرارى عليه ، تيقُّظا وحضور ذهن ، وتواضعاً ، وحسن إقبال و برّ ، وجميل لقاء ومعاشرة ، وتوسطاً صالحاً فيما يناظر[١] فيه من التواليف ، واشتغالاً بما يعنيه من أمر معاشه ، وتخامُلا[٢] فى هيئته ولباسه ، يكاد ينحطُّ عن الإقتصاد ، حسب المألوف والمعروف بسَبْته . قال ابن الزبير ، كان أديباً لغويا ، فاضلا ، إماماً فى الفرائض .

مشيختـــــه

تلا بمالقة على أبى بكر بن دَسْمان ، وأبى صالح محمد بن محمد الزّاهد ، وأبى عبد الله بن حفيد ؛ وروى بها عن أبى الحسن سهل بن مالك ، ولقى أبا بكر بن مُحرز ، وأجاز له ؛ وكتب إليه مُجيزاً ، أبو الحسن بن طاهر الرباج ، وأبو على الشلوبين ؛ ولقى بسبتة الحسن أبا العباس بن على بن عصفور الهوارى ، وأبا المُطَرّف أحمد بن عبد الله بن عُفيرة[٣] ، فأجازوا له ؛ وسمع على أبى يعقوب يوسف بن موسى الحسّانى الغُمارى .

« من روى عنه » ؛ روى عنه الكثير ممن عاصره ، كأبى عبد الله بن عبد الملك وغيره .

تواليفـــــه

من ذلك الأرجوزة الشهيرة فى الفرائض ، لم يُصنّف فى فنها أحسن منها . ومنظوماته فى السِّير ، وأمداح النبى ، صلى الله عليه وسلم ، من ذلك المُعَشّرات على أوزان العرب ، وقصيدة فى المولد الكريم ؛ وله مقالة[٤] فى علْم العروض الدُّوبَيْتى .

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : يناط فيه .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : وتتحاملا . والتصويب يقتضيه السياق .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : عبيده .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : مقام .

شعره

وشعره كثير، مبرِّز[١] الطبّقة بين العالى والوَسَط، مُنْحازاً أكثره إلى الإجادة جمّة؛ وتقع له الأمور العجيبة فيه كقوله:

الغَدرُ فى الناس شيمةٌ سَلَفت　　قد طال بين الوَرَى تصرُّفها
ما كلُّ مَنْ سَرَت له نِعمٌ　　منك يرى قَدْرها ويعرِفُها
بل ربما أعْقَب الجزاءَ بها　　مضرةٌ عنك عزَّ مَصْرِفُها
أما ترى الشمس تَعْطف بالنُّـ　　ـور على البَدْر وهو يَكْسِفُها

دخوله غرناطة

أخبر عن نفسه أن أباه انتقل به إلى الأندلس، وهو ابن تسعة أعوام؛ فاستوطن به غرناطة ثلاثة أعوام، ثم رحل إلى مالقة، فسكن بها مدّة، وبها قرأ معظم قراءته. ثم انتقل إلى سَبْتة، وتزوج بها أخت الشيخ أبى الحكم مالك بن المُرَحِّل. وهذا الشيخ جد صاحبنا وشيخنا أبى الحسين التلِمْسانى لأبيه، وهو ممن يُطرَّز به التأليف، ويُشار[٢] إليه فى فنون لشهرته.

ومن شعره، وهو صاحب مطوّلات مجيدة، وأمادح مُبدية فى الإحسان مُعيدة[٣]، فمن قوله يمدح الفقيه أبا القاسم العَزَفى أمير سبتة:

أرأيت من رَحَلوا وزمُّوا العَيْسا　　ألّا يزول على الطلول حسيسا
أحَسِبْتَ سوف يعود نَسْف تُرابها　　بما يَشْفى لديك نسيسا
هل من مُؤْنِسٍ نارا بجانب طورها　　لأنِيسها أم هل تحس حسيسا

---

(١) وردت فى المخطوطين: مبرد.
(٢) وردت فى المخطوطين: ويشر.
(٣) وردت فى المخطوطين: بعيدة. والتصويب أرجح.

« مولده » : قال عبد الملك ، أخبرنى أن مولده بتلمسان سنة تسع وستمائة .

« وفاته » : فى عام تسعين وستمائة بسبتة ، على سن عالية ، فَسَحَت مدى الانتفاع به .

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصارى السّاحلى

المشهور بالطُوَيْجِن ، من غرناطة .

حـاله

من كتاب « عائد الصلة » : كان رحمه الله ، نسيجَ وحده فى الأدب ، نظماً ونثراً ، لا يُشَق فيهما غُبارُه ، كلام[1] صافى الأديم ، [غزير المائية][2] ، أنيق الدّيباجة ، موفور المادة ، كثير الحلاوة ، جامعٌ بين الجزالة والرِّقة ؛ إلى خط بديع ، ومشاركة فى فنون ، وكرَم نفس ، واقتدار على كل محاولة . رحل بعد أن أشهر فضله ، وذاع أوَجه ، فشرَّق ، وجال فى البلاد . ثم دخل إلى بلد السُّودان ، فاتصل بملكها ، واستوطنها زماناً طويلا ، بالغاً فيها أقصى مبالغ المكِنَة ، والحُظْوة ، والشُّهرة ، والجلالة ، واقتنى مالا دَثْراً[3] ؛ ثم آب إلى المغرب ، وحوَّم على وطنه ، فصرفه القدر إلى مُسْتَقره من بلاد السودان ، مُستزيداً من المال . وأهدى إلى ملك المغرب [هديَّة][4] تشتمل على طُرَف ، فأثابه عليهـا مالا خطيراً ؛ ومدحه بشعر بديع كتبناه عنه . وجرى ذكره فى كتاب « التاج » بما نصه :

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الكلام .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : عزيز المانعة .

(٣) وردت فى المخطوطين : دبرا ، وهو تحريف .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . ويقتضى إثباتها السياق .

« جوّاب الآفاق ، ومحالف الإباق ، ومُنفق سَعْد الشِّعر كل الإنفاق ؛ رفع ببلده للأدب رايةً لا تحجم ، وأصبح فيها يسوِّى ويُلْجِم ؛ فإن نَسَب ، جرى ونَظَم نَظْمَ الُجمان المحامد ؛ وإن ابَنَّ ورَثى ، غبَّر فى وجوه السوابق وحَثا ؛ ولما اتَّفق كسادُ سوقه ، وضِياق حقوقه ، أخذ باَلحزْم ، وأدخل على حروف علايه عوامل الجزم ؛ يسقُط على الدول سقوط الغيْث ، ويحِلُّ كِناس الظِّبا وغاب اللَّيث ؛ شيَّع العجائب ، وركَّض النَّجائب ، فاستضاف بِصْرام ، وشاهد [البرابى] [١] والأهرام ؛ ورمى بعزْمَته الشأم ؛ فاحتلَّ ثغوره المَحُوطة ، ودخل دِمَشق ، وتوجَّه الغُوطَة ، ثم عاجلها بالعراق ، فحيا بالسَّلام مدينة السَّلام ؛ وأوْرَدَ [بالرَّافدين] [٢] رَوَاحِله ، ورأى اليمَنَ وسواحله ؛ ثم عدَل إلى الحقيقة عن المجاز ، وتوجه إلى شأنه الحجاز ، فاستلم الرُّكن والحجر ، وزار القبر الكريم لمّا صدَر ؛ وتعرَّف بمجتمع الوفود بملك [٣] السُّود ، فغمره بإرفاده ، وصحِبَه إلى بلاده ؛ فاستقرَّ بأوَّل أقاليم العرْض ، وأقصى ما يَعْمُر من الأرض ، فحلَّ بها محل [الُحمْر فى الغار ،] [٤] والنور فى سواد الأبصار ؛ وتقيَّد بالإحسان ، وإن كان غريب الوجه واليد واللسان ؛ وصدرت عنه رسائلُ أثناء إغرابه ، تشهد بجلالة آدابه ، وتعلُّق الإحسان بأهدابه » [٥] .

نثره

فمن ذلك ما خاطب به أهل غَرْناطة بلده ، وقد وصل إلى مَرَّاكُش :

---

(١) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين هكذا : الفرابى . وظاهر من ورودها إلى جانب « الأهرام » أن المقصود هو البرابى ، وهى اللفظة التى تطلق فى التواريخ الإسلامية على المعابد الفرعونية .

(٢) وردت هذه الكلمة هكذا فى المخطوطين : بالرفدس . وقد رجحنا أنها تحريف لكلمة (الرافدين) وهما الدجلة والفرات ، وهى هنا متسقة مع المعنى .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » بلد . وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » : وفى « ك » و « ت » (الخمر فى القار) . والأولى أرجح

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : (ناهوايه) وهو تحريف ظاهر .

« سلام ليس دارين شعاره ، وحلق الروض والنضير به صداره ، وأنسى نجداً شمه[١] الزكى وعراره[٢] ؛ جرَّ ذيله على الشجر فتعطّر ، وناجى غصن البان فاهتزّ لحديثه وتأطّر ؛ وارتشف الندى من ثغور الشّقائق ، وحيّا خدود الورد تحت أردية الحدائق ؛ طَرِبت له النَّجدية المُسْتهامة ، فهجرت صباها ببطن تِهامة ، وحَنّ ابن دهمان لصباه ، وسلا به التَّميمى عن ريّاه[٣] ، وأنسى النُّميرى ما تضوَّع بزينب من بطن نعمايه ؛ واستَشْرف السَّمر والبان ، وتخلق بخلوقة الآس والظّيانّ[٤] ؛ حتى إذا راقت أنفاس تحياته ورقّت ، وملكت نفائس النفوس واستَشْرقت ؛ ولبست دارين فى ملائها ، ونظمت الجوزاء فى عِقد ثنائها ، واشتغل بها الأعشى عن روضه ولَهَى ، وشهد ابن بُرْد شهادة[٥] أطراف المساويك لها ؛ خيمَّت فى رَبْع الجود بغَرْناطة ورقت ، وملأت دَلْوها إلى عقد رَكْبه[٦] ، وأقبلت[٧] منابتُ شرقها عن غربه ، لا عن عَرْفه ؛ هناك تترى لها صدور المجالس تحمل صدوراً ، وترايبُ المعالى تحلِّى عقوداً نفيسة وجذوراً[٨] ؛ ومحاسن الشرف تحاسن البروج فى زهرها ، والأفنية فى إيوانها ، والأندية فى شِعَب بَوّانها[٩] ؛ لو رآها النُّعمان لهجر سَديره ، أو كِسرى لنبذ إيوانه وسريره ، أو سيف لقصَر عن غُمدانه ، أو حسّان لترك جِلّق لغسّانه[١٠] .

---

(١) وردت فى المخطوطين : شجه .

(٢) وردت فى المخطوطين : وعزاره . والتصويب متفق مع السياق .

(٣) هكذا فى « ت » . وفى « ك » زيادته . وفى « ج » ديانه .

(٤) وردت فى « ج » و « ت » ، والضيان . وفى « ت » والعنان وهو تحريف . والظيان هو نبات برى من نوع النباتات الزاحفة الملتفة .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و « ت » ركبت .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ، وانبات .

(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ، وجدورا .

(٩) « شعب بوان » هو اسم يطلق على أرض بفارس على مقربة من أرجان ، كانت فى القديم من متنزهات الدنيا (راجع معجم ياقوت – مصر – ج ٤ ص ٢٩٧) .

(١٠) والجلق اسم يطلق على دمشق أو غوطة دمشق .

بلاد بها نيطت عليّ تمـــائمي وأول أرض مسّ جلدي ترابها

فإذا قضيتُ من فَرْض السلام خَتْماً ، وقضَت من فاره الثناء حَتْماً ؛ ونفضَت طيب عرارها[١] على تلك الأنداء ، واقتطفت أزاهرَ محـامدها أهلُ الود القديم والإخاء ، وعمّت من هنالك من الفضلاء ؛ وتلَتْ سُوَرَ[٢] آلائها على مِنبر ثنائها ، وقصّت وعَطَفت على من تحمل من الطلبة بشارتهم ، وصدرت[٣] عن إشارتهم ، وأنارت[٤] نجماً حول هالتهم المنيرة ودارَتِهم ؛ فهناك تقصُّ أحاديث وجْدى على تلك المناهج ، لا إلى صلة عالج ؛ وشوقى إلى تلك العَلْيا ، لا إلى عبلة ، والحذا[٥] إلى ذلك الشريف الجليل ؛ فسقى الله تلك المعاهد غَيْداقاً[٦] يهمى دعاؤها[٧] ، ويغرق رَوْضها إغراقاً[٨] ؛ حتى تتكلل منه نحور زَنْدها دُرًّا ، وترنو عيون أطراف نرجسها إلى أهلها سَرَراً[٩] ؛ وتتعانق قدود أغصانها طرباً ، وتعطف خصور مذانبها على أطراف كُثْبانها لَعِبا ، وتضحك ثغور أقاحها عند رقص أدواحها عُجْباً ؛ وتحمرُّ خدود وردها حياءً ، وتشرق حدائق وردها سناءً ، وتهدى إلى ألسنة صباها [خبرًا طاب عَرفه][١٠] و إنباء ؛ حتى تشتغل المطريّة عن روضتها المردودة ، والمُتَكَلِّىء[١١] عن مشاويه المجودة ؛ والبكرى عن شقائق رياض روضته

---

(١) وردت فى « ج » غرايرها . و « ك » عرايرها . و « ت » « غابرها » . وهو كله تحريف .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و « ت » سر .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : صدر . والتصويب يقتضيه السياق .

(٤) فى المخطوطات الثلاثة : وأنار . والتصويب يقتضيه السياق .

(٥) وردت فى المخطوطين : والجزا . وفى « ت » وانجر . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٦) وردت فى المخطوطين : غيدانا . وفى « ت » ، غيوثاً .

(٧) هكذا وردت فى « ت » . وفى « ج » دعاوا . وفى « ك » دعافا .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » . اغترقا .

(٩) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ت » : شزرا . وفى « ج » برزا .

(١٠) وردت هذه العبارة فى المخطوطات الثلاثة : (خبر طيبة) . وبذلك أدمجت الكلمتان الأخيرتان فى كلمة واحدة .

(١١) فى المخطوطين : والمكلى . والتصويب من « ت » .

الندية ، والأخطل عن خلع [بيعته الموشِيَّة][١] . فما الخُوَرنق وسُراد ، والرُّصافة وبغداد ، وما لفّ النِّيل فى مَلأته كرماً إلى أفدين سقايته ، وحارته غمدان عن محراب ، وقصروا بدرة[٢] البلقاء عن غوطة ونهر ، بأحسن من تلك المشاهد التى تساوى فى حسنها الغائب والشاهد ؛ وما لمصر تفخر[٣] بنيلها ، والألفُ[٤] منها فى شَنِيلها[٥] ، و إنما زيدت الشين هنالك [ليعد بذلك][٦] :

ويا لِله من شوق حَثيث ومن وَجْدٍ تنَشَّط[٧] بالصميم
إذا ما هاجه وجدٌ حديث صَبا منهـــا إلى عهدٍ قديم

أجنَح إنسانى[٨] فى كل جانحة ، وأنطق لسانى من كل جارحة ؛ وأهيم وقلبى رهين الأنين ، وصريع البَيْن ؛ تهْفَق به الرياح البليلة إذا ثارت ، وتطير به أجنحة البروق الخافقة أينما طارت ؛ وقد كنت أستنزل قُرْبهم براحة الأجل ، وأقول عسى وطن يدنيهم[٩] ولعل ؛ وما أقْدَر الله أن يُدنى على الشَّحَط ، ويُبرى[١٠] جراح البَيْن بعد اليأس والقَنَط . هذا شوقى يستعيرُه البُركان لناره ، ووَجْدى لا يجرى قَيس فى مضماره ؛ فما ظنُّك وقد حمت حول المورد الخَصِر ، ونسمت ريح المنْبِت الخَضِر ؛ ونظرت إلى تلك المعاهد من أمم ، وهممت باهتصار ثمار ذلك

---

(١) وردت فى « ج » . و « ك » : (بيعة الموشية) . وفى « ت » : (بيعة المرسية) .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، برريه . وفى « ت » برأيه .

(٣) وردت فى « ج » ، تفحر . وفى « ك » ، تهجر ، وهو تحريف .

(٤) وردت فى المخطوطين : واللف ، وهو تحريف .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطين : شيلها ؛ شلها .

(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ت » ، (ليعن بذلك) . وفى « ج » (ليعن ذلك) . والأولى أصوب وأصلح للسياق .

(٧) وردت فى المخطوطين : تشبط . وفى « ت » نشيط .

(٨) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : أساى .

(٩) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ، يدنو بهم .

(١٠) وردت فى « ت » ، ويبرا . وفى المخطوطين : ويأمر وهو تحريف .

المجد اليانع والكرم ؛ وإن المحبَّ مع القُرب لأعظم همّا ، وأشدُّ فى مقاساة الغرام غمّا :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دَنَتْ الدّيار من الديار

وقَرُبت مسافة الدُّوّار ؛ لكن الدهر ذو غِيَر[١] ، ومن ذا[٢] يحكم على القَدَر ؛ وما ضرَّه لو غفل قليلا ، وشفى بلقاء الأحبّة غليلا ؛ وسمح لنا بساعة اتفاق، ووَصَل ذلك الأمل القصير بباع ، وروى مسافة أيام ، كما[٣] طوى مراحل أعوام .

[لك إبليس][٤] أفلا أشفقت من عذابى ، وسَمَحْت ولو بسلام أحبابى :

أسلَمْتَنى إلى ذَرْع البيد ، ومحالفة [الذميل والوخيد][٥] ، والتنقُّل فى المشارق والمغارب ، والتمطِّى فى الصّهوات والغوارب ؛ يا سابق البين دع مَحْمَله ، وما بقى فى الجسم ما يَحْمِله ؛ ويا بنات جديل ، ما لكن وللذميل[٦] ؛ ليت سَقْمى عقيم فلم يلد ذات البين ، المُشَتِّتَة ما بين المحبين ؛ ثم ما للزّاجر الكاذب ، وللغُراب النّاعب ، تجعله نذير[٧] الجلا ، ورايد الخلا ؛ ما أبعد من زاجر ، عن رأى الزّاجر ، إنما فعل ما ترى ، ذات الغارب والقِرى ، المحتالةُ فى الأزمّة والبرى ، المترددة بين التّأويب والسُّرى ؛ طالما با كَرَت النّوى ، وصَدَعت صَدْع الثوى[٨] ، وتركت الهايم بين رَبْعٍ مَحيل ، ورسم مستحيل ؛ يقفو[٩] الأثرُ نحوه ، ويُسئل الطَّلل

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » أغير . وفى « ت » غيار .

(٢) وردت فى المخطوطين : وماذا . وهو تحريف .

(٣) وردت فى المخطوطين : كيما . والتصويب من « ت » .

(٤) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : (لذا يليس) .

(٥) وردت هذه العبارة فى « ت » و « ج » : (الدميل والوحيد) . وفى «ك» : (الوصيل والوحيد) . وهو تحريف . والذميل هو السير المتوسط . والوخيد هو السير الواسع الخطى .

(٦) هكذا وردت فى « ج » و « ت » . وفى « ك » وللمدميل .

(٧) وردت فى المخطوطين : قدير . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٨) وردت فى المخطوطين : النوى . والتصويب من « ت » .

(٩) هكذا وردت فى « ج » و « ت » . وفى « ك » ينبو . والأولى أصلح للسياق .

عن عهده ؛ وإن أنصَفَت فما لعين معقودة[١] ، وإبل مطرودة ، مالت عن الحوض والشّوط ، وأسلمت إلى الحَبْل[٢] والعصا والسّوط ؛ ولو خُير الباز لأقام ، ولو تُرك القَطا ليلا لنام ؛ لكن الدهر أبو براقش ، وسهمٌ بينه وبين بنيه غيرُ طائش ؛ فهو الذى شتَّت الشمل وصَدَعه ، وما رُفع سيفٌ بعماده إلا[٣] وضعه ، ولا بلّ غليلا أحْرَقه بنار وجده ولا نفعه . فأُقسم ما ذاتُ[٤] خِضاب وطَوْق ، شاكيةُ غرام وشوق ؛ برزت[٥] فى مِنصَّتها ، وترجمت عن قضيّتها ، أو غرُبت عن بيتها ، ونَفَضَتْ شرارة زفرتها عن عينها ؛ مَيْلا حكت المَيْلا والغريض ، وعَجْماء ساجلت بسَجْعها القريض ، وكصَّت الفود فكأنما نقرت العود ، وردَّدت العويل ، كأنما سمعت النَّقيل ؛ نبَّهت الواله فثاب ، وناحت بأشواقها فأجاب . حتى إذا افترَّ بريقُها[٦] ، استراب فى أنَّتها ، فنادى يا حصيبَة السَّاق ، مالَكِ والأشواق ، أباكِيَةٌ ودموعك[٧] راقيةٌ ، ومحررة وأعطافك حالية ؛ عُطِّلت الخوافى ، وحُلِّيت القوادم ، وخُضِّبت الأرجل ، وحضرت[٨] المأتم[٩] . أما أنتِ فنزيعة خِمار ، وحليفة أنوار وأشجار ، تَتردَّدين بين مِنبر وسرير ، وتتهادين بين روْضة وغَدير ؛ أسرفتِ فى الغِناء ، وإنما حكيتِ خرير الماء ، وولعتِ بتكرير الرَّاء ؛ فقالت أعد نظر البقير[١٠] ، ولأمر ما جدَع أنفَه قَصِير ؛ أنا التى أعرقتُ فى الرُّزء ،

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، مصفوه .

(٢) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » الجبل .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : من . والتصويب يقتضيه المعنى والسياق .

(٤) وردت فى الثلاثة : ماذا ، وهو تحريف .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و « ت » بررت .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » بربتها . وفى « ت » بريتها .

(٧) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » : دموع .

(٨) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : حصرت .

(٩) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، المأثم .

(١٠) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : البهير ، والأول أرجح .

فكنيت[١] عن الكل بالجزء ؛ كنت أربع بالفيافى ما ألافى ، وآنسُ مع مقيلى ، بُكْرته وأصيلى ؛ تحتال من غديرٍ إلى شَرْج[٢] ، وتنتقل من سرير إلى سَرْج ؛ آوُنة تلتقط الحبّ ، وحيناً تتعاطى الُحبّ ؛ وطورا تتراكض الفنَن ، وتارة تتجاذب الشَّجن[٣] ؛ حتى رماه الدهر بالشَّتات ، وطَرَقه بالآفات ؛ فهأنا بعده داميةُ العين ، دائمة الأين ، أتعلل بالأثر بعد العَيْن ؛ فإن صعدت نارى[٤] ، ألهبت منقارى ؛ أو نكأت أحشائى ، خُضِّبت رجلى بدمائى ؛ فأقسم لا خلعت طَوْق عهده ، حتى أردى[٥] من بعده ؛ بل ذات خَفْض وتَرَف ، وجمال باهر وشَرَف ؛ بسط الدهر يدها ، وقبض ولدها ؛ فهى إذا عقدت التَّمايم على تريب ، أو لفّت[٦] العمائم على نجيب ، حثت المفؤود[٧] ، وأدارت عين الحسود ؛ حتى إذا أينعت فَسالها ، وقضى حَمْلها وفِصالها ، عَمرَ لحدُها بوحيد كان عندها وسطى ، وفريد أضحى فى نحر[٨] عشيرتها سِمْطا ؛ استحثَّت له مَهَبَّات النسيم الطَّارق ، وخافت عليه من خَطَرات اللَّحظ الرّاشق ؛ فحين هشَّ للجياد ، ووهب التمائم للنِّجاد ونادى الصريم ، يا الآل والحريم ؛ فشد الأناة ، واعتقل القناة ، وبرز يختال فى عيون لامه ، ويتعرَّف منه رمحه بألِفِه ولامه ؛ فعارضه شَثْن[٩] الكفين ، عارى الشعر والمَنْكِبين ، فأسلمه لحَتْفه ، وترك حاشية ردائه على عِطْفه ؛ فحين انْبهم لشاكِلَته ما جرَى [برزت لترى][١٠] :

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » وتكشف . وفى « ت » . ونسكت .
(٢) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : سرج .
(٣) فى « ت » السجن . وفى المخطوطين : الشجر .
(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » منارى .
(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة : اردموه .
(٦) فى المخطوطين : ليف . وفى « ت » ، أقف .
(٧) هكذا فى « ج » و« ك » . وفى « ت » المقتودة .
(٨) وردت فى المخطوطات الثلاثة : نحره .
(٩) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » شنن . وشثن اى خشن
(١٠) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » و « ت » . وفى « ك » : (ابرزت الثرى)

فلم تلْقَ منه غيرَ خمس قوايم ... وأشلاء لحم تحت ليْثٍ مخاتل[١]

يحطُّ على أعطافه وترايبــه ... بكفٍّ حديدِ النَّاب صُلْبِ المفاصل

أعظم من وجد إلى تلك الآفاق ، التى أطْلَعت وجوه الحسن والإحسان ، وسَفَرت عن كمال الشرف ، وشرف الكمال عن كل وجه[٢] حُسَّان ؛ وأبرزت من ذوى الهمم المُنيفة ، والسِّير الشريفة ، ما أقرَّ عين العَلْياء ، وحلَّى جيد الزمان ؛ فتقوا[٣] للْعِـلم أزهاراً أربَتْ على الروض المَجود ، وأداروا للأدب هالَةً استدارَتْ حولها بُدُور السُّعود ؛ نظم الدهر محاسنهم حُلِيًّا فى جيده ونحره ، [واستعار لهم][٤] الأفق ضياء شمسه و بَدْره ، وأعرب بهم الفخر عن صميمه ، وفسح لهم المجد عن مصدره ؛ فهم إنسانُ عَيْن الزمان ، وملتقى طريقى[٥] الحسن والإحسان ؛ نظمت الجوزاء مفاخرهم ، ونَثَرت النَّثَرة مآثرهم ، واجتلبت الشِّعرى[٦] من أشعارهم ، وطلع النور من أزرارهم[٧] ، واجتمعت الثُّريّا لمعاطاة أخبارهم ، وود الدّلو لو كرع فى حوضهم ، والأسدُ لو ربض حول ربَضِهم ، والنعايم[٨] لو غُذِّيت بنعيمهم ، والمجرّة لو استمدت من فيض كرمهم ؛ عَشِق[٩] المسك محاسنهم فرقّ ، وطَرِب الصبح لأخبارهم فخَرَقَ جبينه وشَقَّ ، وحام النِّسر حول حِمامهم وحلّق ، وقدَّ

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، مخايل .

(٢) وردت بعد هذه الكلمة فى « ت » كلمة : الوجوه . وهى كلمة لا موضع لها هنا ، والغالب أن ورودها فى « ت » من باب السهو .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و« ت » ، فتقوى .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » و« ت » . ولكنها وردت فى « ك » : واستعلاهم .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » طريق . والأولى أنسب للسياق

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة : الشعر . والتصويب يقتضيه السياق .

(٧) هكذا فى « ك » و « ت » . وفى « ج » أزنارهم .

(٨) وردت فى « ت » : والنعيم مفردة . والجمع أنسب للسياق . وفى المخطوطين : (والتعليم) وهو تحريف .

(٩) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : عبق ، والأولى أرجح .

الفخر جدار[1] محامدهم وخلَّق ؛ إلى بلاغة أخرَست لسان لَبيد ، وتركت عبد الحميد غيرَ حميد ؛ أهلَّ ابن هلال لمحاسنهم وكبَر ، وأعطى القارى[2] ما زجر به قلمه وسطَّر ، وأيس إياس من لِحاقهم[3] فأقصَر لما قصَّر .

ومنها : فما لِلْوَشْى تألَّق ناصعُه ، وتأنق يانعُه[4] ، بأحسن مما وشَّتْه أنفاسُهم ، ورسمته أطراسُهم ؛ فكم لهم من خَرِيدة غذَّاها العلم ببره[5] ، وفريدة حلَّاها البيان بدُرِّه ؛ واستضاءت المعارف بأنوارهم ، وباهَت الفضايل بسَناء منارهم ، وجُليت المشكلات بأنوار عقولهم وأفكارهم ؛ جَلُّوا عروس المجد وحَلُّوا ، وحَلّوا[6] فى ميدان السيادة ونشأوا ؛ وزاحموا السُّهى[7] بالمناكب ، واختطوا التُّرْب فوق الكواكب ؛ لزم محلَّهم التَّكبير ، كما لزمت الياءَ التَّصغير ، وتقدموا فى رُتبة الأفهام ، كما تقدَّمت همزة الاستفهام ؛ ونزلوا من مراتب العَلْياء ، مَنْزِلة حروف الاسْتِعلاء ؛ وما عسى أن أقول ودون النهاية مدًى نازح ، وما أغْـنَى الشمس عن مَدْح المادح ؛ وحَسْبى أن أصف ما أعانيه من الشوق ، وما أجدُه من التَّوق ؛ وأعلِّلُ نفسى بلقائهم ، وأتعلَّلُ بالنسيم الوارد من تِلْقائهم ، وإن جلانى الدهر عن ورود حوضهم ، وأقعَدنى الزمان عن اجتِناء رَوْضهم ؛ فما ذهب وِدادى ، ولا تغيَّر اعتقادى ، ولا جفَّت أقلامى عن مِدادهم ولا مدادى ؛ وأنا ابن جَلا فى وجْدِهم ، وطلَّاع الثَّنايا إلى كرَم عهدهم ؛ إن دعوا إلى وُدٍّ صميم وجدونى ، أضع[8] العمامة عن

(١) هكذا فى « ج ». وفى « ك » مدار ، وهو تحريف .

(٢) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : الغارى .

(٣) هكذا فى « ت » ؛ وفى المخطوطين : وحاقهم .

(٤) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : أنعه . وهو تحريف .

(٥) هكذا فى « ت » ؛ وفى المخطوطين : بر ره .

(٦) هكذا فى « ت » و « ج » . وفى « ك » وحذوا .

(٧) وردت فى المخطوطات الثلاثة : السهر . وقد رجحنا التصويب ، إذ هو أكثر اتساقا مع المعنى والسياق .

(٨) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : أوضع .

ذوى[١] عهد قديم عرفونى[٢] ؛ ولو شرعوا نحوى قلم مُكاتبتهم[٣] ، وأسَحُّوا[٤] بالعلِق الثَّمين من مخاطبتهم ، لكفوا من قلبي العانى قَيْدَ[٥] إساره ، وبَلَوا صدى وَجْدى المُتحَرق بنـاره ؛ ففى الكتاب بُلْغة الوطر ، وقد يُغنى عن العين الأثر ؛ والسلام الأثير الكريم الطيب الرّيا[٦] ، الجميـل المحيَّا ، يحضُر محلَّهم الأثير ، وكبيرهم إذ ليس فيهم صغير ؛ و يعودُ على من هناك من ذوى الوُدِّ الصميم ، والعهد القديم ، من أخٍ بَرٍّ وصاحبٍ حميم ؛ ورحمة الله و بركاته » .

ولا خفاء ببراعة هذه الرسالة[٧] على طولها ، وكثرة أصولها وفصولها ، وما اشتملت عليه من وصف وعارضة ، و إشارة و إحالة ، وحلاوة وجزالة .

شعره

ثبت لدىّ من متأخر شعره قوله من قصيدة ، يمدح بها ملك المغرب ، أمير المسلمين ، عند دنوّ ركابه من ظاهر تِلمْسان ببابه أولها :

خَطَرت كميّاس[٨] القنا المُتأطِّر[٩] وَرَنت بألحـاظ الغزال الأعفر

ومن شعره فى النسيب :

زارت وفى كل لحظ [طَرْفُ][١٠] محترس وحول كل كِناس كفٌّ مفترس

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، ذى .

(٢) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين . وساقطة فى « ت » .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » ، كتابتهم . والأولى أنسب للسياق .

(٤) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : أوسحوا . وهو تحريف .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » قد .

(٦) هكذا فى « ت » . وفى « ك » التريا . وفى « ج » الريياى .

(٧) هكذا فى « ت » . ووردت محرفة فى المخطوطين : الرياسة .

(٨) هكذا وردت فى « ت » : وفى المخطوطين : كمياد .

(٩) وردت فى « ت » : المتناظر . وفى المخطوطين : الناظر . وهو تحريف .

(١٠) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين .

يشكو لها الجيدُ ما بالحَلْى من هدر — ويشتكى الزَّند ما بالقلب من خرَس
متى(١) تلا خدَّها الزَّاهى الضَّحى نَطَقت — سيوفُ ألحاظها من آية الحرس
فى لحظها سحرُ فِرْعون ورقتها(٢) — آيات(٣) موسى وقلبى موضِع القَبَس
تُخفى النَّمومَيْن من حَلْى ومُبْتَسم — تحت الكَتُومين من شَعْرٍ ومن غَلَس
وتُرسل اللَّحظ نحوى ثم تهزأ بى — تقول بعد نُفُوذ(٤) الرَّمْية احترِس
أشكو إليها فؤاداً واجلا(٥) أبداً — فى النَّازعات وما تنفك من عَبَس
يا شُقَّة النَّفْس إن النَّفْس قد تَلِفت — إلا بقيَّة رجْعِ الصَّوت والنَّفَس
هذا فؤادى وجَفْنى فيك قد جمعا — ضدَّين فاعتبرِى إن شئتِ واقتَبِسى
ويا لطارقِ(٦) نومٍ منكِ أرَّقنى — ليلا ونبَّهنى للوجد ثم نَسِى
ما زال يشرب من ماء القُلوب فلِمْ — أبصرتُه ذابلاً يشكو من اليَبَس
ملأتِ طَرْفى عن وردٍ تفتح فى — رياض خَدّيك صلا(٧) غير مُفْتَرس
وقلت للَّحظ والصُّدغ احرُسا فهما — ما بين مُصْمٍ وفتَّاك(٨) ومُنْتَكس
وليلة جئتها سَحَراً(٩) أجوس بها — شَبَا العوالى وخيسَ الأخْنَف الشَّرس
أستفهم اللَّيل عن أمثال أنجُمه — وأسأل العِيس(١٠) عن سِرب المها الأُنُس

---

(١) وردت فى المخطوطين محرفة : فى « ك » معنى . وفى « ج » معى .

(٢) وردت فى المخطوطين : ورمتها .

(٣) فى المخطوطين آية . والتصويب من « ت » .

(٤) واردة فى « ج » و « ت » . وساقطة فى « ك » .

(٥) وردت فى المخطوطين : ووجه . والتصويب من « ت » .

(٦) وردت فى « ج » و « ت » ، ويالطرف . وفى « ك » وبالطرف .

(٧) وردت فى المخطوطين : ضلا . وفى « ت » : بالأصيل .

(٨) فى المخطوطين : وماياه .

(٩) فى المخطوطات الثلاثة : ليلا وهو تحريف .

(١٠) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : العبس .

وأهتكُ السِّـــتر لا أخشى بوادرَه ما بين مُنتهزٍ طوراً ومُنْتَهس
بتنا نُعاطى بها ممزوجةً مزَجَت حُلوْ[١] الفكاهة بين اللِّين والشَّرس
أنـكحتها من أبيها وهى آيِسةٌ فثار أبنـــاؤها فى ساعة العُرس
نورٌ ونارٌ أضاءا فى زُجاجتها فذاك خدُّك يا ليلى وذا نَفَس
حتى إذا آب نور[٢] الفجر فى وضح[٣] معركٌ جال بين الفجر والغَلَس
وهيمنَت بالضنا تحت الصـــباح صبا قد أنذرتْها ببرْدِ القلب واللَّعْس
قامت تجر فضول الريط آنسة[٤] كريمة الذيل لم تجنَح إلى دَنَس
تَلوثُ فوق كثيب الرمل مِطْرَفَها وتمسَحُ النّوم عن أجفانها النُّعُس
فظـــل قلبىَ يقفوها بملْتَهبٍ طوراً ودمعى يتلوها بمنْبَجِس
دهر يُلوِّن لوْنَيه كعادته فالصبحُ فى مأتمٍ والليل فى عُرس

وإحسانه كثير ، ومقداره كبير . ثم آبَ إلى بلاد السودان ، وجَرت عليه فى طريقه محنة ، ممن يعترض الرفاق ويُفسد السبيل . واستقرَّ بها على حاله من الجاه والشهرة ، وقد اتخذ[٥] أماءً للتسرِّى من الزِّنجيّات [ورزق][٦] من الجوالك أولاداً كالخنافِسة . ثم لم يلبث أن اتصلت الأخبار بوفاته بتُنْبُكتو[٧] ، وكان حيّاً فى أوائل تسعة وثلاثين وسبعمائة .

---

(١) فى المخطوطات الثلاثة : حال .

(٢) فى المخطوطات الثلاثة : ليل .

(٣) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة .

(٤) ساقطة فى المخطوطين .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » أخذ .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، ولكن السياق يقتضيها بداهة .

(٧) هى بلدة من أعمال السودان الغربى (الفرنسى) وتقع على مقربة من منحنى نهر النيجر . وقد كانت هذه المنطقة معروفة للرحل المسلمين منذ عصور قبل ذلك . ولكن يوجد قول فى الجغرافية الحديثة بأن الذى اكتشفها هم الرحل الأوربيون فى القرن الثامن عشر . وهو زعم باطل .

إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم ابن عبد العزيز بن إسحاق بن أسد بن قاسم النُّميرى

من أهل غَرْناطة ، يكنى أبا إسحاق و يعرف بابن الحاجّ .

أوّليّتُـــــه

بيت نبيهٌ ، يزعم من يُعنى بالأخبار ، أن جدَّهم الداخل إلى الأندلس تَوابة ابن حمزة النُّميرى ، و يشركهُم (١) فيه بنو أرقم الوادى شيون (٢) . وكان سكناه بجهة وادى آش ، ولقومه اختصاصٌ ، وانتقال ببعض جهاتها ، وهى شَوْظر ، والمنظر ، وقرسيس ، وقطرش (٣) ؛ تغلب العدو عليها على عهد عبد العزيز ، وآوى جميعهم إلى كَنَف الدولة النصرية ، فانخرطوا فى سِلك الخدمة ، وتمحَّض خلفُهم بالعمل . وكان جده الأقرب إبراهيم ، رجلا خيراً [من أهل الدين] (٤) والفضل والطهارة والذكاء ؛ كتب للرؤساء من بنى إشْقَيْلُولة ، عند انفرادهم بوادى آش ، واختصَّ بهم ، وحصـل منهم على صِهْر بأم ولدٍ بعضهم ، وضبط المهمَّ من أعمالهم . ثم رابته منهم سجايا ، أوجَبَت انصرافه عنهم ، وجنوحه (٥) إلى خالهم

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ويشكرهم .

(٢) الوادى شيون ، أو الوادى آشيون . نسبة إلى مدينة وادى آش .

(٣) شوظر أو شوذر . وهى الآن Jodar الحديثة ، بلدة من أعمال ولاية جيان تقع جنوبى مدينة أبدة بقليل . ولم نوفق إلى تحقيق مواقع الثلاثة الأخرى أو أسمائها الإسبانية . ولكن يبدو من أقوال ابن الخطيب أنها كانت تقع جميعاً فى هذه المنطقة الواقعة شرقى جيان وشمال وادى آش .

(٤) الكلمة الأولى من هذه العبارة واردة فى « ك » وساقطة فى « ج » . والكلمة الثانية واردة فى « ج » وساقطة فى « ك » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : وجنوحهم . وهو تحريف .

السلطان الذى كاشفوه بالثورة ، فعرف حقَّه ، وأكرم وفادته ، وقبل بيانه ؛ فقلده ديوان جنده ، واستمرت أيام عُمره تحت رَعْيه ، وكَنَف عنايته . وكان ولده عبد الله أبو صاحبنا المترجم به ، صَدْراً من صدور المستخدمين فى كبار الأعمال ، على سُنن[١] رؤسائهم ، مِكْساباً مِتْلافاً[٢] ، سرى النفس ، [غاض الحواز][٣] . ولى الأشغال بغرناطة وسَبْتة ، عند تصيُّرها إلى إيالة بنى نصر ، وجرى طلاقه هذا ، فى صلِّ دنيا عريضة ، تغلَّبت عليه بآخرة ، ومضى لسبيله ، مصدوقاً بالكفاية ، وبراعة الخط ، وطيب النفس ، وحسن المعاملة .

حاله

هذا الرجل نشأ على عفاف وطهارة ، امتهك صُبابة ترف من بقايا عافية ، أعانته على الاستظهار ببزَّة ، وصانته من التحرُّف بمهنة . ثم شدّ وبهُرت خصاله ، فبَطح بالشِّعر ، وبلغ الغاية فى إجادة الخط ، وحاضر بالأبيات ، وأُرسم فى كتابة الإنشاء ، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، مُستحقاً حسن سِمَة ، وبراعة خط ، وجودة أدب ، وإطلاق يد ، وظهور كفاية ؛ وفى أثناء هذا الحال ، يُقيد ولا يفتر ، ويروى الحديث ، ويعلق[٤] الأناشيد ، ولا يغبُّ النظم والنثر ، ولا يُعفى القريحة ، مُعَمًّى ، مخولا فى العناية ، مشتملا على الطهارة ، بعيداً فى زمان الشَّبيبة عن الرِّيبة ، نزيهاً على الوسامة عن الصَّبوة[٥] والرُّقية ؛ أعانه على ذلك ، نخوة فى طبعه ، وشفوفُ وهمَّة[٦] . كان مليح الدُّعابة ، طيِّب الفكاهة ؛

(١) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » ، سر .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . ووردت فى « ج » متلافافا .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفى « ت » : (غاض للحوار) .

(٤) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : ويغلق .

(٥) هكذا وردت فى « ت » . وفى « ج » الكبوة . و « ك » الطبوة .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و « ت » : ووهمه .

[آثر المشرق][١] ، فانصرف إلى الأندلس فى محرم عام سبعة وثلاثين وسبعمائة ، وألم بالدول ، محركاً إياها بشعره ، هازًّا أعطافها بأمداحه ؛ فعُرف قدرُه ، وأعين على طِيَّته ؛ فحجَّ وتطوَّف ، وقيَّد ، واستكثر ، ودوّن فى رحلة سفره ؛ وناهيك بها طُرفة ؛ وقفل إلى إفريقية ، وكان عَلِق بخدمة بعض ملوكها ، فاستقرَّ ببِجايه لديه ، مضطَّلعاً بالكتابة والإنشاء . ثم انتقل إلى خدمة سلطان المغرب ، أمير المسلمين أبى الحسن ؛ ولم ينْشَب أن عاد إلى البلاد المشرقية ، فحج ، وفَصل إلى إفريقية ، وقد دالت الدولة بها بالسلطان[٢] المذكور ، فتقاعد عن الخدمة ، وآثر الانقِباض ؛ ثم ضرب الدهر ضرباته ، وآل حال السلطان إلى ما هو معروف ، وثابت للموحِّدين برملة بجاية بارقة لم [تكد تتقد][٣] حتى خَبَت ، فعاد إلى ديوانه من الكتابة عن صاحب بجاية . [ثم][٤] أبى مؤثراً للدَّعة فى كَنَف الدولة الفارسية[٥] ، ونَفَض عن الخدمة يده ، لا أُحقِّق مضطَّراً أم اختياراً ، وحجة كليهما قائمة لديه ، وانقطع إلى تربة الشيخ أبى مَدْين بعباد تِلِمْسان ، مؤثراً للخُمول ، عزيزاً به ، ذاهباً مذهب التَّجِلَّة من التجريد والعكوف بباب الله ، مفْخَراً لأهل نِحلته[٦] ، وحجة على أهل الحرص والتهافت ، من ذوى طبقته ، راجع الله بنا إليه بفضله . ثم جبرته الدولة الفارسية على الخدمة ، وأبْرَته بِزَّة النُّسك ، فعاد إلى ديدنه من الكتابة ، رئيساً ومرؤوساً . ثم أفلت نفيه موت السلطان أبى عنان ، فلحق بالأندلس ، وتُلقى ببِرٍّ وجراية ، وتنويه وعناية ،

---

(١) وردت هذه العبارة فى المخطوطات الثلاثة : (إلى أثر المشرق) وهو ما لا يدل على معنى معين . ونعتقد أن التصويب على هذا النحو يحقق المعنى المقصود .

(٢) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : السلطان .

(٣) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (تكن تقد) . وحكمة التصويب ظاهرة .

(٤) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق والمعنى .

(٥) نسبة إلى السلطان فارس أبى عنان .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، نخلته .

واستعمل فى السفارة إلى الملوك ؛ ووُلِّى القضاء فى الأحكام الشرعية بالقليم بقرب الحَضْرة ؛ وهو الآن بحاله الموصوفة ، صَدْراً من صدور القطر وأعيانه ، يحضر[١] مجلس السلطان ، ويُعدُّ من نبهاء من يُنتاب بابه ، وقد توسط من الاكتهال ، مقيماً لرسم الكتابة والطرف مع الترخيص للباس الحرير ، والخضاب بالسواد ، ومصاحبة الأبَّهة ، والحرص على التّجلة .

وجرى ذكره فى « التاج المُحلى » بما نصه : « طَلَع شهاباً ثاقباً ، وأصبح بشِعره للشِّعرى مُصاقباً ، فنَجَم وبرع ، وتمَّم المعانى واخترع ؛ إلى خط يستوقف الأبصار رايقهُ ، وتقيِّدُ الأحْداق حدايقهُ ، وتفتن الألباب فنونه البديعة وطرايقه ؛ من بليغ يطارد[٢] أسراب المعانى البعيدة فيقتنصها ، ويغوص على الدُّرر الفريدة فيخرجها ، ويستخلصها بطبع مذاهبه دافقة ، وتأييد رايته خافقة ؛ نَبُه فى عصره شرف البيان من بعد الكرى ، وانتُدب بالنشاط إلى تجديد ذلك البِساط وانبرى ، فدارت الكأس[٣] ، وتضوَّع الورد والآس ، وطاب الصَّبوح ، وتبدل الروح المَروح ؛ ولم تزل نفحاته تتأرَّج ، وعقائلُ بناته تتبرَّج ، حتى دُعى إلى الكتابة ، وخطب إلى تلك المثوبة ، فطرَّز المفارق برقوم أقلامه ، وشنَّف المسامع بدُرِّ كلامه ؛ ثم أجاب داعى نفسه التى ضاق عنها جُثمانه ، لا بل زمانه ، وعظُم لها فكره وغمُّه ، وتعب [فى][٤] مداراتها ؛ وكما قال أبو الطيب المتنبى : « وأتعَبُ خلق الله من راد محمدُه » ؛ فارتحل لطيَّته ، واقتعد غارب[٥] مطيَّته ، فحجَّ وزار ، وشد للطِّواف الإزار . ثم هبا إلى المغرب وحوَّم ، وقفل قفول النسيم عن الروض

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » بحضرة .

(٢) فى المخطوطين : يطارب ، والتصويب يقتضيه السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : الكباس .

(٤) إضافة يقتضيها السياق .

(٥) وردت فى المخطوطين : غاب . وهو تحريف .

بعد ما تلوَّم ، وحطَّ بإفريقية على نار القِرى ، وحمد[١] بها صباح السُّرى ، ولم يلبث أن تنقل ، ووحِر الحميمُ سِفافه وتنقل ؛ ثم بدا له أخرى فشرَّق ، وكان عزمُه أن يجتمع فتفرَّق » .

مشيختُه

روى عن مشيخة بلده وأشجر ، وقيَّد واستكثر ، وأخذ فى رحلته عن أناس شتَّى يشق إحصارهم[٢] .

تآليفه

منها كتاب « المُساهلة والمسامحة ، فى تبيين طرق المداعبة والممازحة » و « إيقاظ[٣] الكرام ، بأخبار المنام » و « تنعيم الأشباح بمحادثة[٤] الأرواح » ، وكتاب « الوسائل ونزهة المناظر والخمائل » و « الزَّهرات و إجالة النَّظرات » ؛ وكتاب فى « التَّوْرية » على حروف المعجم ، أكثره مروى بالأسانيد عن خلق كثير ، والله تعالى يَخُره ؛ وجزء فى تبيين المشكلات الحديثة الواصلة من زُبيد اليمن[٥] إلى مكَّة ؛ وجزء فى بيان اسم الله الأعظم ، وهو كبير الفائدة ؛ و « نزهة الحدَق فى ذكر الفِرَق » ؛ وكتاب الأربعين حديثاً البُلدانية ، والمُستدرك عليها من البلاد التى دخَلْتُها ، ورويت فيها ، زيادة على الأربعين ؛ و « روضة العباد المستخرجة من الإرشاد » ، وهو من تأليف شيخنا القطب أبى محمد الشافعى ؛

(١) فى « ج » : وحم . وفى « ك » وحمل . والتصويب يقتضيه السياق .

(٢) احصارهم هنا اعنى حصرهم .

(٣) وردت فى المخطوطين : ايقاض .

(٤) وردت فى المخطوطين : محادثة .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطين : (زبيد المن) .

والأربعون حديثاً التى رويتها عن الأمراء والشيوخ ، الذين [رَوُوا][1] عن الملوك والأمراء ؛ والشيوخ الذين رَوُوا عن الملوك والخلفاء القريب عهدهم ؛ ووصلتُ بها خاتمةً ذكرتُ فيها فوائد مما رويته عن الملوك والأمراء ، وعن الشيوخ الذين روُوا عن الملوك والأمراء ؛ وكتاب « اللِّباس والصُّحبة » وهو الذى جُمعت فيه طرق المتصوِّفة ، المدَّعى أنه لم يجمع مثله ؛ وكتاب فيه شَطْر الحماسة لحبيب ، وهو غير مُكْمَل ؛ ورجز فى الفرائض على الطريقة البديعة التى ظهرت ببلاد الشرق ؛ ورجز صغير فى الحِجْب والسِّلاح ؛ ورجز فى الجدَل ؛ ورجز فى الأحكام الشرعية سمّاه[2] ، « بالفصول المُقْتضَبة فى الأحكام المُنْتَخبة » ؛ وكتاب سمَّاه « بمثاليث القوانين ، فى التَّوْرية والاستخدام والتَّضْمين » ، وهو كله من نظمه ؛ وله تأليف سماه « بفَيْض العُباب ، وإجالة قِداح الآداب ، فى الحركة إلى قُسَنْطينة والزَّاب »[3] .

شعرُه

ومن شعره فى المقطوعات :

طاب العُذيب بماء ذِكركِ وانثنى   فكأنّما ماء العذيب سلافُه
واهتزَّ من طربٍ للقياكِ الحِمى   فكأنَّما بأناتِه أعطافُه

ومن ذلك :

لىَ المدحُ يروى منذ كنت كأنما   تصورت مدحاً للورَى وثناء
ومالى هجاء فاعجبنّ لشاعر   وكاتبِ سرٍّ لا يُقيم هِجاء

(١) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٢) وردت فى المخطوطين : سميته . والتصويب يقتضيه السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : الذباب . وهو تحريف . والزاب من أقاليم المغرب الأوسط . وقسنطينة مدينة بالجزائر على مقربة من بجايه .

ومن ذلك :

ولى فرسٌ من عِلْية الشُّهب سابق   أصرِّفُه يوم الوغى كيف أطلب
غدوتُ له فى حَلْبة القوم مالكا   [يتابعُنى](١) ما شئتُ ... أشهبُ

وقال ، وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء « فيض الثغور » وشرب منها :

تعجبتُ من ثَغْر هذى البلاد   وها أنت من عَيْنه شـاربُ
فلله ثغرٌ أرى شـار باً   وعينٌ بدا فوقهـا حاجبُ

ومن ذلك :

وحمراء فى الـكأس مشمولة   تحث على العَوْد(٢) فى كل بيت
فلا غَرْو أن جاءنى سابقا   إلى الأُنْس خلٌ(٣) يحثُّ الكميت

وقال مُضمِّنا ، وقد تذكر حمراء غرناطة ، وبابها الأحْفل المعروف « بباب الفرَج »(٤) :

أقول وحمراء غرناطة تَشُوق النفوس وتَسْبى المُهَج
ألا ليت شعرى بطول السُّرى   أرتنا الوجى واشتكت(٥) العرج
ومالىَ فى عرجٍ رغبةٌ   ولـكن لأقْرَع باب الفرَج

وقال مُلْغزا فى قلم وهو ظريف :

أُحاجيك ما واشٍ يُراد حديثه   ويهوى الغريب النازح الدّار إفصاحه

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . وفى « ك » : فتى يعنى .

(٢) أغفلت فى المخطوطين : والإضافة من نفح الطيب .

(٣) وردت فى المخطوطين : حل . والتصويب من النفح .

(٤) كان باب الفرج هو باب قصر الحمراء الرئيسى الذى يلى « باب » الشريعة . وهو باب مدخلها الحالى . وقد اختفى اليوم « باب الفرج » .

(٥) وردت فى « ك » . استكتب . وفى « ج » واستكتبه .

تراهُ مع الأحيان أصْفَر ناحلا كمِثْل مريض وهو قد لازم الرّاحه

وقال :

وقالوا رمى فى الكأس وَرْداً فهل ترَى لذلك وجْهاً قلت أحْسِن به قَصْدا
ألم تجد اللذّات فى الكأس حَلْبة فلا تُنكروا فيها الكُميت ولا الوَرْدا

وقال :

[كُماة تلاقت تحت نقع سيوفهم وللهام رَقْصٌ كلما طُلب الثّار
فلا غَرْو أن غنّتْ وتلك رواقِصٌ ...فيهمُ فى مارِدِ الحرب أوتار][1]

وقال :

وعارضٌ فى خدِّه نباتهُ بحُسْنه بين الورى يَسْحرنا
أجْرَى دموعى إذ جرت شوقاً له فقلتُ هذا عارضٌ مُمْطرنا

وقال وقد توفى السلطان أبو يحيى أبو بكر صاحب تونس ، وولى ابنه أبو حفص[2] بعد قتله لإخوته :

وقالوا أبو حفص حوَى المُلْك غاصباً وإخوته أولى وقد جاء بالنُّكر
فقلت لهم كُفُّوا فما رضى الوَرَى سوى عُمَر من بعد موت أبى بكر

وقال مضمِّنا ، وقد حضر الفتى الكبير عَنْبر قتالا ، وكان فارساً مذكوراً عند بنى مَرِين :

ولقد أقول وعنبرٌ ذاك الفتى يَلْقى الفوارس فى العَجاج الأكْور
يا عاثرين لدى الجِلاد لعاً فقد بسَقَت[3] لكم ريح الجِلاد بعنبر

---

(١) ورد هذان البيتان بنصهما فى « ك » ، وأغفلا فى « ج » .
(٢) هكذا وردت فى « ك » . ووردت فى « ج » أبو جعفر . والأولى متفقة مع سياق الشعر .
(٣) هكذا وردت فى « ك ». وفى « ج » تبعت .

وقال وقد اشتاق إلى السَّبِيكة[١] خارج حمراء غرناطة :

وإن إفْراط بُكائى لم يَرُعْ منى عريكة
قد أذاب العين لما زاد شوقى للسَّبيكة[٢]

* * *

لما نزلتُ من السَّبِيكة صادنى ظبىٌ وددت لديه أن لم أنْزِل
فاعجب لظَبْىٍ صاد لَيْثاً لم يكن من قبلها مُتخبِّطاً[٣] فى أحْبُل

وقال وهو ظريف :

قد قارب العشرين ظبىٌ لم يكن ليَرَى الوَرَى عن حبه سُلْوانا
وبدا الربيع بخدِّه فكأنما وافى الربيعُ ينادم النُّعمانا

وقال :

أتَونى فعابوا من أحبُّ جماله وذاك على سَمْع المُحب خفيف
فما فيه عيبٌ غير أنَّ جفونه مِراضٌ وأنَّ الخصر منه ضَعيف

وقال :

أيا عجباً كيف تهوى الملوكُ محلِّى وموطن أهلى وناسى
وتحسِدُنى وهى مخدومةٌ وما أنا إلا خديمٌ بِفاس

نثره

ونثرهُ تِلوَ نظمه فى الإجادة ؛ وقد تضمَّن الكتاب المسمى «بنُفاضة الجراب»[٤]

---

(١) كان اسم «السبيكة» يطلق على الساحة الكبيرة اليانعة الواقعة جنوب شرقى الحمراء . (انظر لزيادة التعريف الحاشية فى ص١٢٢) .

(٢) ادمج هذان البيتان فى المخطوطين فى بيت واحد .

(٣) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» : متحصنا .

(٤) «نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب» هو أحد كتب ابن الخطيب التى وضعها قبل «الإحاطة» . وقد ذكرناه فى المقدمة عند الكلام على مؤلفات ابن الخطيب .

منه ذكر كل بديع ؛ فمما ثبت فيـه ، مما خاطبته به ، وقد ولّى خُطّة القضاء بالإقليم ، أداعبه ، وأثير ما تستحويه عجائبه :

أيا قاضى العدل(١) الذى لم تزل   تمتارُ شهب الفضل من شمسك
قعدتَ للإنصاف(٢) بين الوَرَى   فاطلب لنا الإنصاف من نفسك

« ما للقاضى ، أبقاه الله ، ضاق ذَرْعُ عدله الرَّحيب ، عن العجيب ؛ وهمَّ عن العَتْب ، وضَنَّ(٣) على صديقه حتى بالـكَتْب ؛ أمِن المُدوَّنة الـكبرى ركب هذا التحريج ، أم من المَبْسوطة ذهب إلى هذا الأمر المريج ؛ أم من الواضحة امتنع عن الإمام ببديع الوفاء والتعريج ؛ من أمثالهم إرضَ من أخيك بعُشْر وُدِّه إذا وُلّى ، وقد قَنِعنا والحمد لله بحبَّة من مُدّه ، وإشارة من دَرْجه ، وبُرَّة وصاعةٍ(٤) معتدلة من زمان بلوغ أشُدِّه ؛ فما باله يمطُل مع الغِنى ، ويحُوج إلى العَنا ، مع قرْب الجَنَى ؛ المحلة حُلة ضالع ، ومطمعٍ وطامع ، ومُراءٍ(٥) وراء ، ومستمع وسامع ، والـكَنَفُ واسع ، والمكان لا ناءٍ ولا شاسع ؛ والضَّرع حافل ، والزّرع كافٍ كافل ؛ والقريحةُ وارية الزَّند ، والإمامة خافقة البَنْد ؛ وهب أن البُخْل يقع بها فى الخوان على الإخوان ، فما باله يسمح بالبيان ، وليس الخبر كالعِيان ؛ ويتعدى حظَّ الجِنان ، لا خَطَّ البنان ؛ أعيذ سيدى من ارتكاب رأيٍ ذميم ، ينقل إلى نميرها بيتُ تَميم ، ويقصدُ معناه بتَميم ، وهلا تلا حَم ؛ وعهدى بالسـياسة القاضَوية(٦) ، وقد نامت [فى مهاد أهل الظرف](٧) ، نوم أهل الـكهف ، ولم

---

(١) وردت فى المخطوطين : اعدل .

(٢) وردت فى المخطوطين : للانصراف . وحكمة التصويب ظاهرة .

(٣) وردت فى المخطوطين : وطر . وهو تحريف .

(٤) هكذا فى « ج » وفى « ك » : واسعة . والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : ومرأى .

(٦) فى « ك » ، العاطوية . وفى « ج » ، الفاطوية .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى « ك » . وفى « ج » (فى مهاد الترف) .

تُبال بمردِّد الويل واللَّهف ، أو شَرْبةٍ لحفظ الصِّحة مختَجا ، ودقّت لإعادة الشَّبيبة عفْصًا وَردٍ سَختَجا ؛ وغطّت الصبح بالليـل إذا سجا ، ومدَّت⁽¹⁾ على ضاحى البياض صِلاّ⁽²⁾ سَجْسجا ؛ وردَّت سَوْسن العارض بَنفسِجا⁽³⁾ ، ولَبِس بحرها الزّاخر من طُحلب البحر مُنتَسجا ؛ وأحكامُ العامة ، ومزين⁽⁴⁾ المرأة بنصح ويُرشد ، ويطوى المحاسن وينشُد ، حتى حسُنت الدّارة ، وصحّت الاستِدارة ، وأعجبه الوجهُ الجميل ، والقدُّ الذى يميد فى دَكّة الدّار ويميل ، وأغرى بالسواك السميم والتكميل ، ووَلج بين شُفرتى سيد الميل ، وقيل لو صاح اليمين خاب فيك التّأميل ؛ وامتدَّ جناح برنس السَّرِق ، واحتفل⁽⁵⁾ الغصن الرَّطيب فى الورق ، ورشَّ الوَرْد بمائه عند رَشْح العرق ، وتهيأ لمنطَلَق ، فقرأت عليه نساء أعوانه ، وكتبة ديوانه ، سورة الفَلَق ؛ من بعد ما وَقَف الإمليق⁽⁶⁾ حُجَّابه على إقدامهم ، وسحبهم جلاوزتُه من أقوامهم ؛ فمثلوا واصطفُّوا وتألّفوا والتفوا ، وداروا وحفُّوا ، وما تسللوا ولا خفوا⁽⁷⁾ ؛ كأنما أسمعتهم صيحة النَّشر ، وأُخرجوا لأول الحشْر ، فعُيونهم بملتقى المِصْراع معقودة ، وأذهانُهم لمكان الهيبة مفقودة ، وحِبالتهم قبل الطلب بها منقودة ؛ فبعد ما فَرَش الوِساد ، وارتفع بالنِّفاق الكساد ، وذارع⁽⁸⁾ البكا وتأرج الُحسَّاد ، واستقام الكون وارتفع الفساد ، وراجعت أرواحَها الأجسادُ ؛ جاءت السَّادة القاضوية فجلست ، وتنعَّمت الأحداقُ بالنظر فيها واختَلست ،

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، ومرت .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، هلا .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » سفسجا .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » . ومدين .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » واحتمل .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، الأملين .

(٧) وردت فى المخطوطين : وحفوا .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : وارع .

وسجَّت الأ كُفُّ حتى أفلَست ؛ وزانت شمسُها ذلك الفَلَك ، وجَلَت[١] الأنوار ذلك الحلَك ، وفُتحت الأبواب وقالت هَيْت لك ؛ ووقفت الأعوانُ سِماطَين ، ومَثلوا خَطَّين ، وتشكَّلوا مجرَّة تنتهى منك إلى البطين ، يُعلنون بالهديَّة ويجهرون ، [ولا][٢] يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ؛ من كل شهاب ثاقب ، وطائفٍ غاسِق واقِب ، وملاحظ مُراقب ؛ كَميشُ الإزار ، بعيد المزار ، حامل للأوبار[٣] ، خصيم[٤] مبين ، وارثُ سوفسطائيا[٥] عن رثين ، مضطَّلع بفقه البين[٦] وحريمها ، فضلاً عن تلقين الخصوم [وتعليمها][٧] ؛ يرأسهم العريف المقرَّب ، والمقدِّم المُدرَّب ، والمُشافه المُباشر ، والنَّابح الشاكر ، والنَّهج العاشر ؛ الذى يقتضى خلاص العَقْد ، ويقطع الكالى والنَّقد ؛ ويُزكِّى ويجرِّح ، ويُمسك ويسرِّح ويطرِّح ، ويحمل من شاء أو يشرِّح ؛ والمُسيطر الذى بيده ميزان الرِّزق[٨] ، وجميع أجزاء المُفْتَرَق ، وكفة[٩] قابلة ، وحم الدَّواة الفاغرة ، ورشا بلالة الصُّدور الواغِرة ؛ فإذا وقف الخصمان بأقصى مطَّرح الشُّعاع ، أيَّان[١٠] يجتمع الرعاع ، وأعلنا النِّدا ، وطلب الأعداء ، وصاحا جعل الله أنفسنا لك الفِدا ؛ ورُفع الأمر إلى مُقطِع الحق ، والأولى بالمثوبة الأحق ، أخذتْهُما الأيدى دفعاً فى القُفِيِّ ، ورفعا السِّتر اللَّطيف الخفِىّ ، وأمسكا[١١] بالحِجْر والأكمام ، ومَنعا المباشرة

---

(١) فى المخطوطين : وجلب . وهو تحريف .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٣) وردت فى المخطوطين : للأوربار .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، خيم .

(٥) وردت فى المخطوطين : سوفطائياً .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » البيق .

(٧) واردة فى « ت » . وساقطة فى المخطوطين .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » الورق .

(٩) هكذا فى « ك » وفى « ج » كافة .

(١٠) وردت فى « ج » أمان . وفى « ك » وأماى . ونعتقد ان التصويب أنسب للمعنى ،

(١١) وردت فى « ح » : وإمساكاً . وفى « ك » وإمسا ، وهو تحريف .

والإلمام ؛ فإذا أدلى بحجته مَنْ أدلى ، وسمعها دينه عدلا ، وحقَّ القول ، واستقرَّ[١] الهوْل ، ووَجَبت اليمين ، أو الأداء الذى يفوت له الذخر[٢] الثمين ، أو الرهن أو الضَّمين ، أو الاعتقال الذى هو على أحدهما كالأمين ؛ نَهَش الصِّل ، الذى سليمه لأهل ، ولَسَبَت[٣] العقارب ، التى لا يُفلتها الهارب ، ولا تَخْفى منها المشارب ؛ وكم تحت ظلام الليل من غِرارة يحملها غِر ، وصدَّه ريح فيها صِرّ ؛ ويهدى ارتقاب قُلَّة شَهْد ، وكبش يجُرُّ بروقيه ، ويُدفع بعد رفع ساقيه ؛ ومِعْزى وجَدْى وقلائد ، [وسرب][٤] دجاج ، ذوات بجاج ، يفْضَحن[٥] الطَّارق ، ويشعثن[٦] المَفارق ؛ فمتى يستفيقُ سيدى مع هذا اللَّغط العائد بالصِّلة ، واللهو المتَّصلة ، وتَفرغ يده البيضا لأعمال ارْتياض ، وخطِّ سوادٍ فى بياض ، أو حَنين لدَوْحٍ أو رياض ؛ أو إمتاع طَرْف ، باكتشاف حَرْف ، أو إعمال عدل الرسول فى صَرْف ، أو حَشْو طَرْف ، بتُحفة ظَرف ؛ شأنُه أشدُّ استغراقاً ، ومثواهُ أكثر طِراقا ، من ذكرى حبيبٍ ومنزل ، وأمِّ مُعدَّل ؛ وكيف يستخدمُ القلم الذى يصرف ماء الحبر[٧] ، بذَوْب التِّبر ، فى تُرُّهاتٍ عَدِم جَناها ، وأَقْطَع جانب الخيبة لفظها ومعناها ؛ اللَّهم إلا أن تحصل النفس على كفاية تُحتم لها الصَّدر ، ويُشام من خلالها اللُّجين [الرفيع][٨] القدر ، أو يحيي للفكاهة والأُنس ، أو يُنفق لديها ذمامٌ على الجِنس ؛ فربما تقعُ المخاطبة المبرورة ، وتبيحُ هذا المُرْتَكَب الصعب الضرورة ؛

---

(١) فى المخطوطين : استنفر .

(٢) فى المخطوطين : الزخر .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : البست فى « ك » . والبيت فى « ج » .

(٤) وردت مكانها فى المخطوطين : وهو درب .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، بمحصر . والأولى أنسب للمعنى .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » يشتعن .

(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » البحر .

(٨) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

والمرغوبُ من سيّدنا القاضى أن يَذْكُرَنا(١) يوماً بالإغفال فى نعيمه ، ولا يخيِّبَ آمالنا المتعلِّقة بأذيال زعيمه ، ويُسْهِمَنا حظاً من فرائد خطِّه ، لا من فوايد خُطَّته ، ويجعلَ لنا كِفْلا من فضل بُرَّته وحِنْطَته(٢) ، لا من فضل هِرَّته وقُطَّته(٣) ؛ فقد غَنينا عن الحلاوات بحلاوات لفظه ، وعن الطرَف المجموعة ، بفنون حِفْظه ؛ وعن قَصَب السُّكر ، بقصب أقلامه ؛ وعن جنى الرَّوْم برَوامه ؛ وبهَدْيه ، عن جَدْيه ؛ وبمجاجَته ، عن دجاجته ؛ وبدَلَجه عن أُتْرُجه ؛ وعن البُر ببِرّه ، وعن الحبِّ بحُبِّه ؛ ولا نأمُل إلا طلوع بطاقته ، وقد رضينا بوُسْع طاقته ؛ وإلا فلا بدّ أن يجيش جيش الكلام إلى عَتْبه ، ونُوالى عليه ضرايب الكتايب ، حتى يتّقى بضريبة كَتْبه . والسلام(٤) » .

فراجعنى بما نصه :

فنيت عن الإنصاف منِّى لأننى كما قُلتُ لكن من فراقكم قاضِ
فمن سمعنا أو من بعينك إننى(٥) بكلِّ الذى تَرْضاه يا سيدى راضِ

« عَمرَكَ الله أيها الإمام الفذُّ ، ومن بمَدْحه تطرَبُ الأسماع وتَلَذُّ ، أوحدُ الدنيا ، وحائزُ الرُّتبة العليا ؛ ولولا أنك فوق ما يقال ، والزَّلة إن لم تُظهر العجز عن وصْفك لا تقال ، لأطلتُ فى القول ، وهَدَرْتُ هدير(٦) قَرْع الشَّول ؛ لكن تحصيل الحاصل مُحال ، ولكل فى تهيُّب كمالك مقال ، ومقامٌ وحال ؛ ولولا أنَّ الدعاء مأمول ، وهو بظهر الغيْب مَقْبول ، والزيادة من فضل الله لا تنتهى ، والنِّعم قد توُافيك

(١) وردت فى المخطوطين : يذكر . والتصويب يقتضيه السياق .
(٢) وردت فى المخطوطين : ومظنه .
(٣) فى المخطوطين : وقطعته . والتصويب يقتضيه السياق .
(٤) وردت هذه الكلمة فى « ك » ، وأغفلت فى « ج » .
(٥) وردت هنا الشطرة فى المخطوطين هكذا : (فمن سمعنا أو بعتك إنى) .
(٦) فى المخطوطين : هديع . والتصويب يقتضيه السياق .

فوق ما تشتهى ، لرأيت[١] أن ذلك [أمرٌ][٢] كفى ، وأمرٌ ظهر [فيه ما خَفى][٣] .

[إن قلتُ لا زلتَ مرفوعاً فأنت كذا   أو قلتُ زانك ربِّى فهو قد فَعلا][٤]

إيهٍ يا سيدى ما هذه الكلمات السِّحرية ، والأنفاس النَّفيسة الشَّجرية ، والألفاظ التى أنالت المرغوب ، وخالطت بشاشتُها القلوب ؛ والنَّزَعات الرّائقة ، والأساليب الفائقة ، والفصاحة التى سلبت العقول ، والبلاغة التى أوجَبَت الذُّهول ؛ والبيان الذى لا يطيق حصيفه[٥] ، ولا يبلغ أحد مدَّه ونَصيفه ؛ يميناً بما احتوى من المحاسن ، واللَّطائف التى لم يكن ماؤها بالآسن ، وقسماً ببراعتك التى هى الواسى المُطاع ، وطِرْسِك الذى أبهجت به الأبصار والأسماع ؛ لقد عاد لى بكتابتك عيدُ الشّوق ، وجاد لى بخطابك جدُّ التَّوق ؛ ولَعَهدى بنفسى رَهْن أشجانى[٦] ، غيرَ مَحْلولة عُقدة [لسانى][٧] ، أشدَّ من الصخرة جَلدًا ، وأغلظَ من الإبل كبدا ؛ حتى إذا بَدَت حريقة[٨] القلب وهبَّ نسيمه الرَّطْب ، وأفْيَح موردُه العَذْب ، وأضاء بنوره الشَّرق والغرب ، ولم يبق لى بثٌّ ولا شَجَن ، ولا شاقنى أهل ولا وطن ؛ ومضى سيف اللسان بعد النُّبوّ ، ونَهَض طَرْف الفكر بعد البُكر ، وهزَّنى الطّرب المثير[٩] للأفراح ، ومشى الجَذَل[١٠] فى أطرافى وأعطافى مشْى الرَّاح ؛ بيد أنى خَجِلت ولا خَجْلة ربّة الخِدْر[١١] ،

---

(١) وردت فى « ج » لا ريت . وفى « ك » لرأيتك .

(٢) وردت فقط فى « ك » .

(٣) وردت هذه العبارة فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٤) هذا البيت وارد فى « ج » . وساقط فى « ك » .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » صحيفه .

(٦) وردت فى المخطوطين : الشحانى . وهو تحريف ظاهر .

(٧) وردت فى « ك » . وأغفلت فى « ج » .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » حتميرة .

(٩) هكذا فى « ك » . وفى « ج » المتين .

(١٠) وردت فى المخطوطين : الجزل .

(١١) وردت فى المخطوطين : الحذر .

وتضاءلت نفسى لجلالة ذلك القَدْر؛ وقلت مالى بشرْبةٍ من كأس بيانه، وقَطْرة من بُحور إحسانه؛ حتى أُؤدِّى، ولو بعض حقِّك، وأكتب عَقْد مِلْك رِقِّى لرقِّك، إننى على ما وليتُ من الصَّدقة والصَّداقة و بعد طلاقك؛ لكنى أقوم فى حقِّك مُسْتَغْفِراً، ولا أرضى أن أكون لذِمَّة المخدوم عفَرًا؛ على أننى أقول، قد كتبتُ فلم يُردَّ جوابى، وجَرَمْتُ فهاج الجوى بى؛ ولعَمْرى قد لزمت فيه خِطَّة الأدب، ولم أر التَّثقيل على المولى الرَّفيع الرُّتب؛ فأما وقد نَفِقَت عندك بضاعتى المُزْجاة، وشَمَلنى من لدُنْك الحلم والأناة، وشرَّفتنى بالخطاب الكريم، والرسالة التى عرفتُ فى وجهها نُضرة[(١)] النعيم؛ فما أبغِى إلا إيرادها[(٢)] عليك وكلها خراج، ولِبُرْدها فى الإجادة إنْهاج؛ ولعلك ترضى التَّخْريج من مُدوَّنة الأخبار، والمَبْسُوطة والواضحة، لكن من الأعذار. وأمّا الولاية التى يقْنع بسببها من الوُد بالعُشْر، أو بحبَّة من المُدّ إلى يوم النَّشر، فلا بد أن يكون القانع محتاجاً للوالى، ومُفْتَقراً إلى التفقُّد[(٣)] المتوالى؛ وأما إذا كان القانع هو الذى وُلّى الخُطّة، وأُكْسِبَ الهرَّ[(٤)] الذى أشار إليه والقطَّة، فهو قياسُ عكسه كان أقْيَس، بل تعليمٌ لمن وجد فى نفسه خيفةً وأوجس؛ وهأنا قد فهمْتُ وعلمت، من حسن تأديبك ما علمتُ، وعلى ما فرَّطت فى جَنْبك نَدِمت، وإلى المعذرة[(٥)] والحمد لله أُلهِمت؛ ومع ذلك أعيدُ حديث الشيخ [القاضى][(٦)]، وذكر عهدك به فى الزمان الماضى؛ فلقد أجاد، فى الخِضاب[(٧)] بالسَّواد، واعتمد على قول المالكى الذى هَدَى [إلى الرَّشاد][(٨)]، وأوجبه بعضهم فى بلاد الجهاد؛

---

(١) هذه الكلمة ثابتة فى «ك». وساقطة فى «ج».

(٢) وردت فى المخطوطين: أيراها.

(٣) وردت فى المخطوطين: تفقد.

(٤) وردت فى المخطوطين: الهند.

(٥) وردت فى المخطوطين: العذرة.

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى «ت».

(٧) وردت فى المخطوطين: بالخطاب. والتصويب يقتضيه السياق.

(٨) هكذا وردت فى «ج». وفى «ك»: للرشاد.

وبيَّن عمرُ منافع الخضاب[١] الصادقة الإشهاد ، وخضَب بالسَّواد جماعة من الصَّحابة الأمجاد ؛ وكان ذلك ترخيصاً لم يُعد شرْعاً ، لكنه دفع شرًّا وجلب نَفْعاً ؛ لا كأخيه الذى أبكى عين الحميم ، وأنشد قول الرّضىِّ يوم السقيم ، وفجع قلوب أترابه ، ولم يأت بيت النّصْف من بابه ؛ و إلا فقد علم أن فى الخير مشروع ، وتعجُّل الشىء قبل أوانه ممنوع ، وستَغبِط أخاك ولو بعد حين ، وما كل صاحب يحمد[٢] فى إيضاح وتبيين ؛ و إنى لأرجو أن تتزوَّجها بكْراً ، تلاعِبُها وتلاعِبُك ، أو ثَيِّباً تَقْصُر عن حبها مآربك ؛ فلا جَرَم ترجع إلى الخضاب ، وحينئذ تُمتَّع بشَفِّ الرُّضاب ؛ و إلا قالت سيدى ، لا تعظم المُنى ، ولا تجعل القطْر قبل أن يموت[٣] عمر ؛ لعَمْرُ الله إن هذا الموقف صَعْب ، قد ملأ الروح منه رَوْعٌ ورُعْب ؛ و إن أضاف إلى ذلك غَلَبة الأوهام ، وظن الشيخوخة الصادرة عن نيل المرام ، سكن المُتحرك المطلوب ، وتنغَّص عند ذلك المحبوب ؛ والله يُعينك أيها المولى ، و يواليك من بَسْطه أضعاف ما ولّى . وأما الأوصاف التى حَسَبْتَها[٤] أوصافى ، وأوْجَبْتَ حُكْمها بالقياس على خلافى[٥] ، فهى لعَمْرى أوصاف لا تُراد ، ومراعٍ لا شك أنها تُراد ؛ غير أنى بعيد العَهْد بهذه البلاد ، [لا أمت لها][٦] إلا بالانتساب والميلاد ، لا كالقضاة الذين ذكرتَ[٧] لهم عهداً ، ونظَمْت حُلاهم[٨] فى جيد الدهر عِقْدا ؛ ولو أنك بَصَّرتنى بشروط القضاء ، وسجايا أهل الصَّرامة والمضاء ، لحققت المَناط ، وأظهرتُ الزُّهد

---

(١) وردت فى المخطوطين هنا أيضاً : الخطاب .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، يحمل .

(٣) وردت فى المخطوطين : أموت ، وهو تحريف .

(٤) وردت فى المخطوطين : حبستها .

(٥) وردت فى المخطوطين : خلاف .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . وفى « ك » : لا أمتثلها .

(٧) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : تذكر .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : حالهم .

والاغتباط ؛ لكنى جهلتُ و إلى الآن أمهَلْتُ ؛ وما علِّم الإنسان إلا ليَعْلم ، والله يهدينا إلى الذى يكون أحسنُ وأقوم ؛ و إنى لأُعْلِم سيدى بخبرى[١] ، وأطلع جلاله على عُجْرى و بُجرى ؛ ولكنى رحَلتُ عن تلك الحَضْرة ، وعَدِمت النَّظرة فى تلك النَّظْرة ؛ لبستُ الإهمال ، واطّلعت فى السفر والاعتمال ، فأقيم بادى الـكآبة ، مُهتاج الصَّبابة ؛ قد فارقتُ السكن ، وخلفت الدار مثيرةَ الشّجن :

وكانت جَنَّتى فخرجتُ منها　　　كآدم حين أخرجَه الضِّرار

حتى إذا حططْتُ رَحْلى بالقرى ، وقَنِعت بالزّاد الذى كفى معياراً والقِرى ؛ أُدْخلت إلى دار ضيقة المسالك ، شديدة[٢] الظُّلمة كالليل الحالك ، تذَكِّرنى القبرَ وأهواله [وتُنْسينى الذى أهواه][٣] ، بل تزيد على القبر برَفَلٍ[٤] لا يُتخلص ، و براغيث كزريعة الكتّان حين تُمحَّص ؛ و بعوضٍ يُطيل اللَّهز[٥] ، ولا تُغَنِّى حتى تشرب ، و بوق يسقطُ سقوط النَّدى ، ويَزْحف إلى فراشى زَحْف العدا ؛ وأراقم خارجة من الكُوَى[٦] ، وحيَّات بلدْغها نزّاعة للشَّوى ؛ وجنون يُسمع عزيفها[٧] ، وسُرّاق لا يعدم تخويفها ؛ هذا ولا فراش[٨] لمن بالقهرحُبس ، إلا حصيرٌ قد اسودَّ من طول ما لُبس ؛ لا يُجتزى[٩] فى طهارته بالنَّضح ، ولا يُحشد من جلس عليه إلا بالجُرح ؛ حتى إذا سجا الليل ، وامتدَّ منه على الآفاق الذيل ، فارقنى

---

(١) وردت فى المخطوطين : بخبر .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : الشديدة .

(٣) وردت هذه العبارة فى « ج » ، وأغفلت فى « ك » .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : بزيل .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : المنى . والأولى أصوب .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الكرى .

(٧) وردت فى المخطوطين : عزيعها .

(٨) وردت فى المخطوطين : فرق . والتصويب يقتضيه السياق والمعنى .

(٩) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : يجن .

العونُ فراق الكرى ، ورأيت الدمع لما جَرَى قد جَرَى ؛ فأتوسَّدُ والله ذراعى ، ولأحمد والله اضطِّجاعى ؛ فكِلاَ لَيْلَيَّ محمومين ، والوجع والسَّهر مَحْمولان على الرأس والعين ؛ حتى إذا طلع الصبح ، وآن لبالى وعيونِ الخصوم الفَتْحُ ، أتانى عونٌ قد انحنى ظهره ، ونيف عن المائة عمرُه ، لا يشعر بالجون الصَّيِّب ، ولا تُسمعه كلمات أبى الطيِّب ؛ بَرْبَرى الأصل ، غير عارف بالفَصْل ؛ حتى إذا أذِنْتُ للخصوم ، وأدرتُ إحياء الرسوم ، دخل على غولان غافلان(١) ، وأثقل كَتِفِى منهما مايلان ، قد أكلا الثّوم النِّيْءَ والبصل ، وعَرَقا فى الزَّنانير عرقاً اتّصل ؛ يُهديان إلىّ تلك الروائح ، و يُظهران لى المخازى والفضائح ؛ فإذا حَكَمْتُ لأحدهما على خصمه ، وأردت الفصل الذى لا مطمع فى فَصْمه ؛ هرب العونُ هر با ، وقضى من النجاة بنفسه أر با ؛ واجتمع إلى النُّصحاء ، وجاء المرضى والأصِّحاء ، كل يقول أتريد تعجيل المنايا ، و إثْكال الولايا ، و إتعاب صديقك السَّيد العِماد ، بمَرْتبَةٍ كما فعل مع القاضى الحدَّاد ؛ فأقول هذا جهاد ، وما لى فى الحياة مُراد ، فأرْتكبُ الخطر ، وأقضى فى الحكم الوَطَر ، والله يسلِّم ، ويُكْمِلُ اللُّطف و يتمِّم . وأما إذا جاء أحدكم لكَتْب عقد ، وطمعتُ فى نسيئةٍ أو نقد ، قطعتُ يومى فى تفهُّم مقصده ، مستعيذاً بالله من غضبه وحَرَده ؛ حتى إذا ما تخلَّصتُ منه ، وملأت السِّجلّ بما أثبتُه عنه ، كشف عن أنياب عُضل ، وعبس عبوس المحب لانقطاع وَصْل ؛ وقال لقد(٢) أخطأتَ فيما كتبتَ ، ورسمتَ ما أردت وأحببتَ ؛ فأكْتُبُ عقداً ثانياً وثالثاً ، وأرتقبُ مع كل كلام حادثٍ حادثاً ؛ فإذا رضى ، فأسأله كيف ، وسِنِ السَّالى(٣) الذى أظهره ، أو اسمه(٤) أو السيفَ ، أخرج من فمه دِرْهماً نَتِناً ، قد لزم ضِرساً عَفِناً ؛ فأُعاجله فى البخُور ، وأحكُّه فى

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » عاقلان .

(٢) وردت فى المخطوطين : لو .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : البسالى .

(٤) وردت فى المخطوطين : اسم . وبهذا التعديل يستقيم المعنى نوعا .

الصُّخور ، حتى إذا حُمل لمن يبيع خبز الذرة مُنتناً ، ويرى أنه قد فَضَل بذلك أُنساً وحُسْناً ، وجده ناقصاً زايفاً ، فيرجع حامله وَجِلا خايفاً ؛ ويبقى القاضى فقيدَ الهجُوع ، يشُدُّ الحجرعلى بطنه من الجوع ؛ على أننى أحمَدُ خلاء البَطْن ، وما بجسمى لا يُحكى من الوَهَن ؛ لتعذر(١) المرحاض ، وبُعد ماء الحياض ، وكُمُون السِّباع فى الغياض ، وتعلُّق الأفاعى بالرِّداء الفِضْفاض ؛ ونجاسة الحجارة ، وكثرة تردُّدِ السَّيارة ، والانكشاف للريح العقيم ، والمطر المُنْصَبِّ إلى الموضع الذميم . هذه الحال ، وعلى شرحها مجال(٢) ، وقد صَدقتُك سُنن فكرى ، وأعلمتُك بذات صَدْرى ؛ فتَجَلِّى الغرارة غُرور ، وشهود الشَّهد زور ، والطَّمع فى الصُّرة إصرار ، ودون التَّبر يعلم الله تَيَّار . وأما الكَبْشُ فحظِّى منه غُبارُه إذا خطر ، والثَّور بقَرنه إذا العيد حَضَر ؛ كما أن حظِّى من الجَدْى التأذِّى بمسلكه ، وإنَّ جَدْى السماء لأقربُ لى من تملكه ؛ وأنا من الحلاوة سالِمُ ابنُ حَلاوة ، ولا أعهد من طَرْف الطرف الدَّماوة ؛ ودون الدَّجاج كل مُدَجَّج ، وعِوَض الأُترج رجَّة بكل مَعرج ؛ ولو عرفتُ أنك تقبل على علَّاتها الهدايا ، وتُوجبُ المزيد لأصحابك المزايا(٣) ، لبعثتُ بالقُماش ، وأنفذْتُ الرياش ، وأظهرتُ الغِنى ؛ والوقوف بمبنى المُنى ؛ وأوردتُها عليك من غير هَلَع ، مطَّلعة فى الجَوْف بعد بَلْع ، من كل ساحليَّة تُقرِّب إلى البحر ، وعُدْوية لا تُعد ، وصدر مجلس الصَّدر ؛ حتى أجمعَ بين [الفاكهة](٤) والفُكاهة ، ويبدو لى بعد الشقف وجوه الوجاهة ؛ وأتبرأ من الصَّدِّ المذموم ، ولا أكون أهدأ من القطا لطرق(٥) اللَّوم ، لأنك زَهِدْتَ فى الدنيا زُهد ابن أدهم ، وألهمَك الله من ذلك أكرَم ما ألهم ؛ فيَدُك [من](٦) أموال الناس مقبوضة ، وأحاديث اللُّها الفاتحة لِلها مرفوضة ؛

---

(١) وردت فى المخطوطين : لتعد . والتصويب يقتضيه السياق

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : محال

(٣) وردت فى المخطوطين : المرايا . وهو تحريف .

(٤) هذه الكلمة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » . لطوق . والأولى أنسب للسياق .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى « ك » .

وإذا كان المرء على دين خليله ، ومن شأنه سلوك نَهْجه وسبيله ، فالأليقُ أن أزهد في الصَّفراء والبَيْضاء ، وأقابل زُخْرُف الدنيا بالبغضاء ؛ وأحقق وأرجو على يدك حسن التخلِّي ، والاطلاع على أسرار التَّجلّي ؛ حتى أسعد بك في آخرتي ودنياى ، وأجد بركة خاطرك في مماتي ومَحياى ؛ أبقاك الله بقاء يُسر ، وأمْتَع بمناقبك التي يحسِدُها الياقوت والدُّر ؛ ولا زلتَ في سيادة تروق نَعْتاً ، وسعادةٍ لا ترى فيها عِوَجا ولا أمتاً ؛ وأقرأ عليك سلاماً عاطر العَرف ، كريم التأكيد والعَطْف [مارثي لحالي راث ، وذكرت أدّاية حلف حراث][1] ، ورحمة الله وبركاته . وكتبه أخوك ومَمْلوكك ، وشيعةُ مَجْدك ، في الرابع والعشرين من جمادى الأولى عام أربعة وستين وسبعمائة » .

مولده

بغرناطة عام ثلاثة عشر وسبعمائة .

محنتـــــه

توجَّه رسولا عن السلطان إلى صاحب تِلمْسان السلطان أحمد بن موسى بن يوسُف بن عبد الرحمن بن يحيى بن [يَغمُرا سِن بن زَيّان] :[2] وظفر بالجَفْن الذى رَكبه العدو ، بأحْواز جزيرة حبيبة[3] ، من جهة وَهْران ، فأُسر[3] هو ومن بأسطول

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد في المخطوطين مع اختلاف يسير . وساقط في « ت » .

(٢) ورد هذان الإسمان محرفين في المخطوطين هكذا : (عمراسان بن زياد) . والتصويب من « اللمحة البدرية » .

(٣) هكذا في المخطوطين . وفي « ت » : حبيه . وهو تحريف . وجزيرة حبيبة تقع غربي مدينة وهران على مقربة الشاطىء .

(٣) م وردت محرفة في المخطوطين : فاتسر .

سفره من المسلمين ؛ و بلغ الخبر[١] فعظم الفجع ؛ و بين نحن نَرومِ سفر أسطول يأخذ الثار ، و يستقرى[٢] الآثار ، فيقيل العثار ، إذ اتَّصل الخبر بمهادنة[٣] السلطان المذكور ، ففَدى[٤] من أُسر بذلك المال الذى يَنيف على سبعة آلاف من العَيْنِ فى ذلك ؛ فتخلَّص من المحنة لأيام قلائل ، وعاد ؛ فتولى السلطان إرضاءه عمّا فقد ، وضاعف له الاستغناء وجَدَّد ؛ وكان حديثه من أحاديث الفَرَج بعد الشدة محسوباً ، و إلى سعادة السلطان منسوباً . وأنشدته [شعراً فى مصابه ، بعدها][٥] ، وقد قضيت له من بِرِّ السلطان على عادتى ، ما جَبَرَ[٦] الـكَسْر ، وخَفَض الأمر :

خَلُصْتَ كما خَلَص الزَّبْرُقان   وقد مَحق النُّور عنه السِّرار

وفى السَّبِق والرَّارِ   فى هذا سرٌّ وفى ذا أسرار

وكان تاريخ هـذه المحنة المُرْدَفة المِنحة[٧] ، حسبما نقلته من خطه ؛ قال ، « اعلموا يا سيدى أبقاكم الله تعالى ، أن سفرنا من ألمرِيَّة ، كان فى يوم الخميس السادس لشهر ربيع الآخر من عام ثمانية وستين وسبعمائة ؛ وتغلّب علينا العـدو فى عَشيَّة يوم الجمعة الثانى منه ، بعد قتال شديد ؛ وكان خروجُنا من الأسر فى يوم السبت الثانى والعشرين لربيع الثانى المذكور ، وكان وصولى إلى الأندلس فى أسطول مولانا نصره الله ، فى جمادى الآخرة من العام المذكور ، بعد أن وصلوا قَرْطاجَنَّة وأخذوا أجفاناً ثلاثة من أجفان العدوِّ ، وعمل المسلمون[٨] الأعمال الـكريمة » .

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة : البحر . وحكمة التصويب واضحة .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : ويستغرق .

(٣) وردت فى المخطوطين : بمهادة . وفى « ت » بمهادات . وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » : وفك .

(٥) وردت هذه العبارة فى المخطوطات الثلاثة على النحو الآتى : (سعة أصابه بعدها) . وهو تحريف لا معنى له . وقد حاولنا بما أثبتناه أن نقرب المعنى المقصود .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة : يجبر . وصيغة الماضى هنا لازمة لاستقامة السياق .

(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : (المحنة) مرة أخرى وهو تحريف .

(٨) وردت فى المخطوطين : المسلمين . وهو خطأ اقتضى التصويب .

إبراهيم بن خلف بن محمد بن الحبيب بن عبد الله ابن عمر بن فرْقَد القُرشى العامرى

قال ابن عبد الملك : كذا وقفتُ على نَسَبه بخطه فى غـير ما موضع من أهل مُورَة[1] ؛ وسكن إشبِيليَّة .

حـــاله

كان مُتفننًا فى معارفه ، محدِّثاً ، راوية[2] ، عَدْلا ، فقيهاً ، حافظاً ، شاعراً ، كاتباً ، بارعاً ، حسن الأخلاق ، وطِئ الأكناف ، جميل المُشاركة لأخوانه وأصحابه ؛ كتب بخطه الكثير من كبار الدواوين وصغارها ، وكان من أصحِّ الناس كَتْباً ، وأتقنهم ضَبْطاً وتقييداً ، لا تكاد تلقى فيما تولى تصحيحه خللا ؛ وكان رؤوفاً شديد الحنان على الضعفاء والمساكين واليتامى ، صَليباً فى ذات الله تعالى ، يعقِد الشروط مُحْتَسِباً ، لا يقبل ثواباً عليها إلا من الله تعالى .

مشيخته

تلا بالسَّبع على أبى عمران موسى بن حبيب ، وحدَّث عن أبى الحسن بن سليمان ابن عبد الرحمن المُقْرى ، وعبد الرحمن بن بَقِىّ ، وأبى عمرو ميمون بن ياسين ، وأبى محمد بن عتَّاب ؛ وتفقه بأبوى[3] عبد الله بن أحمد بن الحاجّ ، وابن حميد ،

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » (مرده) وهو تحريف . وموره ، وبالإسبانية Mora هى بلدة من أعمال طليطلة وتقع فى جنوبها الشرقى على مقربة منها .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » راوياً .

(٣) هكذا فى المخطوطات الثلاثة .

وأبى الوليد بن رشد ؛ وأجاز له أبو الأصْبَغ بن مناصف ، وأبو بكر بن قُزمان ، وأبو الوليد بن طريف .

« من روى عنه » ؛ روى عنه أبو جعفر ، وأبو اسحاق بن على المَزْدالى ، وأبو أمية اسماعيل بن سعد السعود بن عُفير ، وأبو بكر بن حكم الشَّرمسى ، وابن خير ، وابن تِسع ، وابن عبد العزيز الصدفى ، وأبو الحجاج إبراهيم بن يعقوب ، وأبو على ابن وزير ، وأبو الحسن بن أحمد بن خالص ، وأبو زيد محمد الأنصارى ، وأبو عبد الله ابن عبد العزيز الذَّهبى ، وأبو العباس بن سَلْمة ، وأبو القاسم بن محمد بن إبراهيم المُراعى ، وأبو محمد بن أحمد بن جُمْهور ، وعبد الله بن أحمد الأطْلس .

تواليفـــــــه(١)

دوّن بَرنامَجاً مُمْتعاً ذكر فيه شيوخه ، وكيفية أخذه عنهم ؛ وله رجزٌ في الفرائض مشهور ، ومنظومٌ كثير ، وترسُّل مُنوع ، وخُطَب مختلفة المقاصـــــد ، ومجموعٌ فى العَرُوض .

دخوله غرناطة

قال المؤرخ : وفى عام أربعة وخمسين وخمسمائة ، عند تغيب الخليفة بالمَهْدِيَّة ، استدعى السيد أبو سعيد الوالى بغرناطة ، عنـد استقراره بها ، الحافظ أبا بكر بن الجِد والحافظ أبا بكر بن جَيْش ، والكاتب أبا القاسم(٢) بن المُراعى ، والكاتب أبا إسحاق بن فرْقد ، وهو هذا المُترَجم به ، فأقاموا معه مدّة تقرب من عامين اثنين بها .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وترد أحياناً : تآليفه .

(٢) وردت فى المخطوطين : ابن القاسم . والتصويب من « ت » .

شعره

مما ينقل عنه قصيدة شهيرة فى رثاء الأندلس :

ألا مُسْعِدٌ مُنجزٌ ذو فِطَن يبكى بدمعٍ مَعِين هَتِن
جزيرةَ أندلسٍ حسرةً[1] لا غالب[2] من حقود الزّمن
ويَنْدُب أطلالها آسِفًا ويَرْثى من الشِّعر ما قد وَهَن
ويَبكى الأيامى ويبكى اليتامى ويَحكى الحَمام ذوات الشَّجَن
ويشكو إلى الله شكوى شجٍ[3] ويدعوه فى السِّر ثم العلن
وكانت رِباطاً لأهل التُّقى فعادت مناطاً لأهل الوَثَن
وكانت معاذاً لأهل التُّقى فصارت ملاذا لِمَنْ لم يَدِن
وكانت شَجىً فى حُلوق العِدا فأضحى لهم مالُها مُحْتَجَن

وهى طويلة ؛ ولدىّ خلاف فيمن أفْرَط فى استحسانها . وشعره عندى وسَط .

ومن شعره وهو حجةّ فى عُمْره عند الخلاف فى ميلاده ووفاته . قال :

ثمانون عاماً مع سِتٍّ عَمَّرت وليتنى أرَقْتُ دموعى بالبكاء على ذَنْب
فلا الدّمع فى محو الخطيئة غُنْيَةٌ إذا هاج من قلبٍ مُنيب إلى الرَّب
فيا سامعَ الأصوات رحماكَ أرْتجى فهَبْ لى انسِكاب الدمع من رِقَّة القلب
وزَكِّ الذى تَدْريه من شيمةٍ[4] تعلَّق بى المَظْلُوم من شدَّة الكَرْب

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » و « ت » حسرت .

(٢) وردت فى المخطوطين : عالياً . والتصويب من « ت » .

(٣) وردت فى المخطوطين : (شجم) . والتصويب من « ت » .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » شيمى .

وزكِّ مقامى[1] فى العقود وكَتْبِها لوجهك لم أقْبَل ثواباً على كَتْبِ
ولا تَحْرِمنى أجْرَ ما كنتُ فاعلاً فحقُّ اليتامى عندى من لِذِى صَعْب
ولا تُخْزِنى يوم الحساب وهوله إذا جئتُ مذعوراً من الهَوْل والرُّعب

مولده

حسبما نُقل من خط ابنه أبى جعفر ؛ ولد ، يعنى أباه سنة أربع وثمانين وأربعمائة .

« وفاته » ؛ بعد صلاة المغرب من ليلة الثلاثاء [الثامن عشر][2] من محرم عام اثنين وسبعين وخمسمائة . ونُقل غير ذلك .

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عُبَيْدِس بن محمود النَّفَزِى

أُبَّدِى[3] الأصل ، غَرناطى الإستقرار ، ويكنى أبا إسحاق .

حـاله

خاتمة الرُّحَّال[4] بالأندلس ، وشيخ المجاهدات وأرباب المعاملات ، صادق الأحوال ، شريف المقامات ، مأثور الإخلاص مشهور الكرامات ؛ أصْبَرُ الناس على مجاهداته ، وأدومهم على عملٍ وذكرٍ وصلاة وصوم ، لا يفْتُرُ عن ذلك ولا ينام ، آية الله فى الإيثار ، لا يدَّخر شيئاً لغد ، ولا يتحرَّف بشىء ؛ وكان فقيهاً حافظاً ،

---

(١) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : منابى .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (الثامن والعشرين عشر) . وهو خلط لا معنى له .

(٣) نسبة إلى مدينة أبدة Ubeda . وقد سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١٦١) .

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة : الرجال . وهو تحريف ظاهر .

ذاكراً للغة[١] والأدب ، نحوياً ماهراً ، درس ذلك كلّه أول امره ؛ كريم الأخلاق ؛ غلب عليه التصوُّف فشُهر به ، وبمعرفة طريقه الذى نَدّ[٢] فيها أهل زمانه ، وصنَّف فيها التصانيف المفيدة .

ترتيب زمانه

كان يجلس إثْر صلاة الصبح لمن يقصده من الصَّالحين ، فيتكلم لهم بما يَجريه الله على لسانه ، ويُيَسِّره من تفسير ، وحديث ، وعظة إلى طلوع الشمس ؛ فيتنفَّل صلاة الضُّحى ، وينفصل إلى منزله ، ويأخذ فى أوراده ، [من قراءة][٣] القرآن والذِّكر والصلاة إلى صلاة الظهر ، فيُبكِّر فى رواحه ، ويُوالى التنقُّل إلى إقامة الصلاة ؛ ثم كذلك فى كل صلاة ، ويصل ما بين العِشاءين بالتنفل ؛ هذا دأْبُه أبدا .

وكان أمره فى التوكُّل عجباً ، لا يَلْوى على سبب ، وكانت تُجْبى إليه ثمرات كلِّ شىء ، فيدفع ذلك بجملته ؛ وربما كان الطعام بين يديه ، وهو محتاجٌ ، فيعرض من يسأله ، فيدفعه جُمْلة ، ويبقى طاوياً ؛ فكان الضعفاء والمساكين له لياذاً يَنْسِلون من كل حَدَب ، فلا يردُّ أحداً منهم خائبا ؛ ونفع الله بخدمته وصحبته ، واستخرج بين يديه عالماً كثيراً .

مشيختُـه

أخذ القراءة عن أبى عبد الله الحَضْرمى ، وأبى الكرم جُودى بن عبد الرحمن ؛ والحديث عن أبى الحسن بن عمر الوادى آشى ، [وأبى محمد سليمان][٤] بن حَوطِ الله ؛

(١) وردت فى المخطوطين : للغات . وهو تحريف . ولا نظن أن المقصود بها غير العربية .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : ندب .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : وقراءة .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » (وأبى سليمان محمد) والأولى أرجح .

والنحو واللغة عن ابن يُربوع وغيره . ورَحَل وحجّ ، وجاور وتكرَّر ؛ ولَقِي هناك غير واحد من صدور العلماء ، وأكابر الصوفية ؛ فأخذ صحيح البخارى سماعا منه سنة خمس وستمائة عن الشَّريف أبى محمد يونس ، وأبى الحسن على بن عبد الله بن المغربانى ، ونصر بن أبى الفرج الحضرمى ؛ وسُنَن أبى داود وجامع التِّرمِذِى على أبى الحسن بن أبى المكارم نصر بن أبى المكارم البغدادى ، أحد السامعين على أبى الفتح الكروخى ، وأبى عبد الله المحمد بن مسترى الحمة[١] ، وأبى المعالى[٢] بن وَهَب بن البنا ؛ و ببجايه عن أبى الحسن على بن عمر بن عطيَّة .

« من روى عنه » ؛ روى عنه خلق لايحصون كثرة[٣] ، منهم أحمد بن عبد المجيد بن هُذيل الغسَّانى ، وأبو جعفر بن الزُّبير ، وغيره .

تواليفه

صنَّف فى طريقة التصوُّف وغيرها ، تصانيف مفيدة ؛ منها « مواهب العقول[٤] وحقائق المَعْقُول » ، و « المُغيرة المذْهلة ، عن الحيْرة والتَّفرقة والجمْع » ؛ و « الرحلة العنوية » ؛ ومنها « الرسائل فى الفقه والمسائل » ، وغير ذلك .

شعره

له أشعار فى التصوف بارعة ؛ فمن ذلك ما نقلته من خط الكاتب[٥] أبى إسحاق

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وربما أغفلت كلمة (ابن) قبلها . وربما كانت اسم البلد المعروف بالأندلس (الحمة أو الحامة) .

(٢) وردت فى المخطوطين : ابن المعالى . وهو تحريف .

(٣) وردت فى المخطوطين : كثير .

(٤) هكذا ورد العنوان فى « ك » . وفى « ج » : مواهب القلوب . والأولى أرجح لاتفاقها فى السجع مع الشطر الآخر من العنوان .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الكتاب ، وهو تحريف .

ابن زكريا فى مجموع جمع فيه الكثير من القول :

يضيق علىّ من وَجْدى الفضاء ... ويُسْليني من الناس العَناء
وأرضُ الله واسعة ولكن ... أبَتْ نفسى تحيطُ بها السماء
رأينا العرش والكرسِىَّ أعلا ... فوالَيْناهما حَرَم الوَلاء
فأين الأينُ منا أو زمانٌ ... بحيث لنا على الْكلِّ اسْتِواء
شَهِدْنا للإلآه بكل حُكم ... فغاب القلبُ وانكشف الغطاء
ويَدْعونى الإلآه إليه حقًّا ... فيُؤْنِسُنى من الخوف الرَّجاء
ويُقبضُنى ويُبْسِطُنى ويَقضى ... بتَفْريقى وجمعى ما يشاء
ويَعِى فى وجود الخَلْق نَحْواً ... يُنْعَت[1] من تولّاه الفَناء
فكم أُخفى وجودى وقت فَقْدى ... كأن الفَقْد والإحْيا[2] سواء
فسُكْرٌ ثم صَحْوٌ ثم سكر ... كذاك الدهر ليس له انقِضاء
فوصفى حالٌ[3] من وصفى ولكن ... ظهورُ الحقِّ ليس له خَفاء
إذا شمسُ النهار بَدَتْ تولّت ... نجومُ الليل ليس لها انجلاء

و[من][4] شعره :

كم عارف سَرَحَت فى العلم همّتُه ... فعقْلُه لحجاب العقل هَتّاك
كساه نور الهدى بُرْداً وقلّده ... درًّا ففى قلبه لِلْعِلم أسلاك
كسب ابن آدم فى التحقيق كِسْوته ... إن القلوبَ لَأَنْوار وأحْلاك
كَلِّفْ فؤادك ما يبدى عجائبه ... إن ابن آدم للأسْرار دَرّاك

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : نيعت .
(٢) وردت فى المخطوطين : (أو حياً) .
(٣) وردت فى المخطوطين : حلى .
(٤) ساقطة فى المخطوطين .

كَيْف وكَمْ ومتى والأيْن مُنْسَلِب ... عن وَصْف باريها والجهل تبّاك
كبِّر وقدِّس [ونزِّه](١) ما أطقْتَ فلم ... يَصل إلى مَلِك الأملاك أملاك
كرسيه ذَلّ والعرش [استكان](٢) له ... ونزه الله أملاك وأفـلاك
كل يقر بأن العجز قيَّـده ... والعجز [عن دَرْك](٣) الإدراك دراك

وقال ، وهو ما اشتُهر عنه ، وأنشدها بعض المشارقة فى رحلته فى غرض اقتضى ذلك ، يقتضى ذكره طولا :

يا من أنامله كالمُزْن هاميةٌ ... وجُودُ كفَّيه أجْرى من يجاريها
بحقِّ من خلق الإنسان من عَلَقٍ ... أنظر إلى رِقْعَتى وافهم معانيها
أنى فقيرٌ ومسكين بلا سبب ... سوى حروف من القرآن أتلوها
سفينةُ الفقر فى بحر الرَّجا(٤) غرقت ... فامنُن عليها بريحٍ منك يُجْريها
لا يعرفُ الشوقَ إلا من يكابدُه ... ولا الصَّـبابة إلا من يعانيها

وقال القاضى أبو عبد الله بن عبد الملك ، وقد ذكره : على الُجملة فبه خُتم جِلَّة أهل هذا الشأن بصُقع الأندلس ، نفعه الله ونفع به .

مولده

ولد بجيّان سنة ثنتين وستين وخمسمائة أو ثلاث وستين .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٢) ناقصة فى المخطوطين ، وواردة فى « ت » .

(٣) هكذا وردت فى « ت » . وفى « ك » : دون . وفى « ج » : در . وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : الدجا . والأولى أرجح بالنسبة للمعنى المقصود .

إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى بكر التسولى

من أهل تازى[١] ؛ يكنى أبا سالم ، ويعرف بابن أبى يحيى .

حـــالُه

من أهل[٢] الكتاب المؤتمن ؛ كان هذا الرجل قيِّماً على التَّهذيب ، ورسالة ابن أبى زيد ، حسن الإقراء لهما ؛ وله عليهما تقييدان نبيلان ، قيَّدهما أيام قراءته إياهما على أبى الحسن الصغير ؛ حضرت مجالسَه بمدرسة عُدْوة الأندلس من فاس ، ولم أر فى مُصدَّرى بلده أحسن تدريباً منه . كان فصيح اللسان ، سهل الألفاظ ، موفياً حقوقها ، وذلك لمشاركته الحضَر فيما فى أيديهم من الأدوات ؛ وكان مجلسه وقْفاً على « التهذيب » و « الرسالة » ؛ وكان مع ذلك شيخاً فاضلاً ، حسن اللقاء ، على خلق بائنة من أخلاق أهل مِصره[٣] . امتُحن بصحبة السلطان ، فصار يستعمله[٤] فى الرسايل ، فمر فى ذلك حظٌّ كبير من عُمره ضايعاً ، لا فى راحة دنيا ، ولا فى نصيب آخرة ؛ ثم قال هـــذه سنّة الله فيمن خدم الملوك ، ملتفتاً إلى ما يُعطونه ، لا إلى ما يأخذون من عُمره[٥] وراحته؛ أن يبوؤا[٦] بالصفقة الخاسرة ، لَطَف الله بمن ابتُلى بذلك ، وخلَّصنا خلاصاً جميلاً .

ومن كتاب « عائد الصــلة » : الشيخ ، الحافظُ ، الفقيه ، القاضى ، من

---

(١) وردت فى المخطوطين : تيزى . وهو تحريف لاسم المدينة المغربية القديمة .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٣) هكذا فى « ك » و « ت » . وفى « ج » : عصره .

(٤) وردت فى المخطوطين : يتعلمه . وهو تحريف .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، : غيره .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : تبوأ .

صدور المَغْرب ، مُشاركاً فى العلم ، متبحراً فى الفقه ؛ كان وجيهاً عند الملوك ، صَحِبهم ، وحضر مجالسهم ، واستُعمل فى السفارة ، فلقيناه بغرناطة ، وأخذنا بها عنه ؛ تام السَّراوة[١] ، حسن العهد ، مليح المجالس ، أنيق المحاضرة ، كريم الطبع ، صحيح المذهب .

تصانيفه

قيد على « المُدوَّنة » ، بمجلس شيخه القاضى أبى الحسن ، كتاباً مفيداً ؛ وضم أجوبته على المسائل فى سفر ؛ وشرح كتاب « الرسالة » شرحاً عظيم الفائدة .

مشيخته

لازم أبا الحسن الصغير ، وهو كان قارئ كُتُب الفقه عليه ، وجل انتفاعه فى التفقه به ؛ وروى عن أبى زكريا بن أبى ياسين ، قرأ عليه كتاب « المُوطَّأ » ، إلّا كتاب المكاتب ؛ وكتاب « المدبّر »[٢] ، فإنه سمعه بقراءة الغير ؛ وعن أبى عبد الله بن رشد ، قرأ عليه «المُوطأ» ، « وشفاء » عياض ؛ وعن أبى الحسن بن عبد الجليل السِّدارى ، قرأ عليه « الأحكام الصغرى » لعبد الحق ؛ وأبى الحسن بن سليمان ، قرأ عليه « رسالة » ابن أبى زيد[٣] ، وعن غيرهم .

وفاته

فُلِج بآخره ، فالتزم منزله بفاس ، يزوره السلطان فَمَن دونه ؛ وتُوفى بعد عام ثمانية وأربعين وسبعمائة .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : السرارة . والسراوة هى الرياسة .

(٢) هكذا رسمت فى « ج » . وفى « ك » : المدر . وربما كان كتاب « المدارك » لعياض .

(٣) إن الكتب التى ورد ذكرها فى هذه الترجمة كلها من كتب الحديث والفقه . وقد رأينا أن نثبتها بعناوينها ومؤلفيها كاملة فى الملحق الخاص بذلك .

إبراهيم بن محمد بن على بن محمد بن أبى العاصى التَّنوخى

أصله من جزيرة طريف[١]، ونشأ بغرناطة واشتهر .

حـــاله

من « عائد الصلة » : كان نسيج وحده حياءً ، وصَدَقة ، وتخلُّقاً ، ومشاركة ، وإيثاراً . رَحَل عند استيلاء العدو على جزيرة طريف ، عام أحد وسبعين وستمائة ، مُتحولاً إلى مدينة سَبْتة ، فقرأ بها واستفاد . وورد الأندلس [فاستوطن][٢] مدينة غرناطة ، وكتب فى الُجمْلة عن سلطانها ، وترقى مَعارج الرتب ، حالاًّ مُحالا ، من غير اختلاف على فضله ، ولا نزاع فى استحقاقه ؛ وأقرأ فنوناً من العلم ، بعد مهلك أستاذ الجماعة ، أبى جعفر بن الزبير[٣]، بإشارة منه به ؛ وُلّى الخطابة والإمامة بجامعها منتصف صفر عام ستة عشر وسبعمائة ، وجمع بين القراءة والتدريس ، فكان مُقرئاً للقرآن ، مبرِّزاً فى تجويده ، مدرساً للعربية والفقه ؛ آخذاً فى الأدب ، متكلماً فى التفسير ، ظريف الخط ، ثَبتاً محققاً لما ينقله ؛ وألقى الله عليه من المحبة والقبول ، وتعظيم الخلق له ، ما لا عَهْد بمثله لأحد ؛ بلغ من ذلك مبلغاً عظيماً ، حتى كان أحبَّ إلى الجمهور من أوصل أهلهم وآبائهم ، يتزاحمون عليه فى طريقه ، ويتمسَّحون به ، ويسعون بين يديه ، ومن خلفه ؛ ويتزاحم مساكينُهم على بابه ، قد عوّدهم طَلاقة وجهه ، ومواساته لهم بقُوتِه ، يفرّقه عليهم متى وجدوه ، وربما أعجلوه قبل استواء خُبزه ، فيفرّقه[٤] عليهم عجيناً . له فى ذلك أخبار غريبة .

---

(١) هى مدينة طريف التى سميت باسم طريف بن مالك أول من عبر البحر إلى إسبانيا من قواد المسلمين . وهى تقع على نتوء فى جنوبى غربى المثلث الإسبانى مقابل الجزيرة الخضراء واسمها بالإسبانية Tarifa

(٢) وردت هذه الكلمة فى « ك » وأغفلت فى « ج » .

(٣) سبقت ترجمته فى هذا المجلد من الإحاطة (ص ١٩٥ – ٢٠٠) .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، ففرقه .

وكان صادعاً بالحق ، غيوراً على الدين ، مخالفاً لأهل البِدَع ، ملازماً للسنة ، كثير الخشوع والتخلُّق على علوّ الهمة ، مَبْذول المشاركة للناس والجِدِّ فى حاجاتهم ، مُبتلى بوسواس فى وضوئه ، يتحمل الناس من أجله مَضَضاً فى تأخير الصلوات ومضايقة أوقاتها .

مشيخته

قرأ ببلده على الخطيب القاضى المُقرى أبى الحسن عُبيد الله بن عبد العزيز القرشى المعروف بابن القارئ ، من أهل إشبِيلِيَّة ؛ وقرأ بسَبْتة على الأستاذ إمام المقرئين لكتاب الله ، أبى القاسم محمد بن عبد الرحمن بن الطيِّب بن زَرْقون القَيْسى الضرير ، نزيل سبتة ، والأستاذ أبى إسحاق الغافقى المريونى ؛ وقرأ على الشيخ الوزير أبى الحكَم بن منظور القيسى الإشبيلى ، وعلى الشيخ الراوية ، الحاج أبى عبد الله محمد بن الكتامى التِلِمسانى بن الخَضَّار ؛ وقرأ بغرناطة على الأستاذ أبى جعفر بن الزبير ، وأخذ عن أبى الحسن بن مستقور [1] .

شعره

كان يَقرِض شعراً وسطاً ، قريباً من الإنحطاط . قال شيخنا أبو بكر بن الحكيم [2] فى كتابه المسمى « بالفوائد المُنتخبة ، والموارد المُستعذبة » ؛ كتب إليه شيخنا وبركتُنا أبو جعفر بن الزيات فى شأن شخص من أهل البيت النبوى بما نصه :

---

(١) وردت فى المخطوطين : مسمفور . وهو تحريف يرد دائماً فى المخطوطين بالنسبة لهذا الإسم .

(٢) سبقت الإشارة إليه (انظر الحاشية فى ص ١٦٣) . وقد ترجم له ابن الخطيب فيما بعد فى المجلد الثانى من الإحاطة .

رجـل يدّعى القرابة للبيـت وإن الثريا[1] منه بمعزل
سأل منى خطابكم وهو هذا ولكم فى القلوب أرفع مَنْزل
فهبوه دعاءكم وامنحونى منه حظًّا يُنْمى الثواب ويَجزِل
وعليكم تحيـة الله ما دا م أمير الهدى يوُلِى ويَعزل

فأجابه :

يا إمامى ومَنْ به قطركم ذا ك وحادى البلاد أطْيب منزل
لم أضَعْ ما نظمتم من يدى حتى أُنيـل الشَّريف تحفة منزل
وحبـاه بكل مَنْح جزيل مَنْ غداً يمنحُ الثَّواب ويُجزل
دمتم تنشرون عِلْماً ثوابُ الله فيـه لكم أعزُّ وأجْزل
[تذكرون الله ذكراً كثيراً][2] وعليـكم سـكينةُ الله تَنزل
وطلبتُم منى الدُّعاء وإنى عند نفسى من الشروط بمَعْزِل
لكن ادعو ولتَدْعُ لى برضا الله وأبدى فهم ذكر قد اُنزل
وحديث الرسول صلى عليه كل وقت رب لنا الغيثُ ينزل
وعليكم تحيّتى كل حين ما اطمأنَّت بمكة أمُّ معزل

قال ، ومما أنشدنى من نظمه أيضاً فى مَعْرض الوصيَّة للطلبة :

إعمَل بعلمك تُوْت علماً إنما عدوى علوم المرء منح[3] الأقوم
وإذا الفتى قد نال علماً ثم لم يُعَـلِّم به فكأنما لم يَعْلم

---

(١) وردت فى المخطوطين : الثرى . والتصويب من « ت » .
(٢) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين محرفة : (ولذكر الله كثيراً) .
(٣) وردت فى المخطوطين : تمنح .

وقال موطئاً على البيت الأخير :

أمولاى أنت الغفورُ الكريم   لبــذول النَّوال والمَعْذِرة
علىَّ ذنوبٌ وتصحيفها   ومن عندك الجودُ والمغفرة

إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد ابن خميس بن نصر [بن][1] قيس الأنصارى الخَزْرجى

أمير المؤمنين[2] بالأندلس رحمه الله .

أوَّليَّتُـه

تُقرَّر عند ذكر الملوك من قومه فى اسم صِنْو جدّه ، أمير المسلمين أبى عبد الله الغالب بالله .

حـــاله

من كتاب « طُرفة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر »[3] من تصنيفنا : « كان رحمه الله ، حسن الخُلُق ، جميل الرواء ، رجل جـد ، سليم الصدر ، كثير الحياء ، صحيح العقل ، ثَبْتاً فى المواقف ، عفيف الإزار ، ناشئاً فى حِجر الطهارة ، بعيداً عن الصَّبوة ، بريًّا من المعاقرة[4] ؛ نشأ مشتغلاً بشأنه مُتَبَنِّكاً نعمة أبيه ،

---

(١) هذه الكلمة ناقصة فى المخطوطين .

(٢) هذا اللقب تجاوز من ابن الخطيب . وقد كان لقب « أمير المسلمين » هو اللقب الصحيح لملوك بنى نصر .

(٣) سبق التعريف بهذا الكتاب فى المقدمة .

(٤) وردت فى المخطوطين : المعاقده . والتصويب من اللمحة البدرية .

مختصًّا بإيثار السلطان جَدِّه أبى أمه ، وابن عم والده ، منقطعاً إلى الصَّيد ، معروف اللَّذة إلى استجادة سلاحه ، وانتقاء مراكبه ، واسْتِفراه[(١)] جَوارحه ، إلى أن أفْضَى إليه الأمر ، وساعدته الأيام . وخدمه الجدُّ ، وتنقَّل إلى بيته المُلْك به ، وثَوى فى عِقبه الذّكْر ، فبذل العدل فى رعيته ، واقتصد فى جبايته ، واجتهد فى مدافعة عدو الله ، وسدّ[(٢)] ثَلْم ثغوره ، فكان غرَّة فى قومه ، ودُرَّة فى بيته ، وحسَنَةً من حسنات دهره . وسيرد نبذٌ من أحواله ، مما يدل على فضل جلاله » .

صفتـــــه

كان معتدل القدِّ ، وسيم الصورة ، عَبْل اليدين ، أبيض اللون ، كثير اللحية ، بين السواد والصهوبة[(٣)] ، أنْجَلَ أعْيَنَ أفْوهَ مليح العين ، أقنى الأنف ، جَهير الصوت ؛ أمه الحُرَّة الجليلة ، العريقة فى الملوك ، فاطمة بنت أمير المؤمنين ، أبى عبد الله نُخْبة المُلك ، وواسطة العِقْد ، وفخر الحَرَم ، البعيدة الشَّأو فى العز والحُرْمَة ، وصِلة الرَّعى ، وذكر التراث[(٤)] . واتصلت حياتها ، ملتَمَسة الرأى ، برنامجاً للفوائد ، تاريخاً للأنساب ، إلى أن توفيت فى عهد حفيدها السلطان أبى الحجّاج ، رحمها[(٥)] الله ، وقد أنفَت على تسعين من السنين ، فكان الحفل فى جنازتها ، مُوازياً لمنصبها ، ومتروكها ، المفضى إليه خطيرُه ؛ وقلت فى رثائها :

نَبيتُ على علم بغائلة الدهر ونعلم أن الخلق فى قَبْضة الدهر
ونركن للدنيا [اغتراراً بفكرها][(٦)] وحَسْبُك من يرجو الوفاء من الغَدْر

---

(١) هكذا وردت فى « ك » وفى « ج » : واستفراء . وهو تحريف .
(٢) فى المخطوطين : وتسد .
(٣) الصهوبة هى احمرار الشعر .
(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : الثمرات . والأولى أرجح .
(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : رحمه . والأولى أرجح هنا . والمقصود بها السلطانة لا السلطان .
(٦) وردت هذه العبارة فى « ك » : اغتراراً بفقرها . وفى « ج » : إغراراً بفكرها .

ونُمْطِل بالعزم الزَّمان سفـاهةً فيومٌ إلى يوم ، وشهرٌ إلى شهر
وتُغْرى بها نفسى المطامع والهوى ونرفض ما يَبْقى فيا ضَيْعةَ العُمْر
هو الدهر لا يبقى على حَدَثانه جديدٌ[1] ولاينفكُّ من حادث نُكْر
و بين الخطوب الطَّارقات تَفَاضُل كفضل من اغْتالَتْهُ فى رِفْعة القَدْر
ألم تر أن المجد أقوت ربوعُه وصَّوح من أدْواحه كل مُخْضَر
ولاحَتْ على وجه العلاء كآبة فقطّب من بعد الطلاقة والبِشر

وثبتٌ اسمها فى الوَفَيات من الكتاب المذكور بما نصه :

« السلطانةُ الحرة ، الصالحة ، الطاهرة ، فاطمة بنت أمير المسلمين ، أبى عبد الله ابن أمير المسلمين الغالب بالله ، بقيّة نساء الملوك ، الحافظة لنظام الإمارة ، رعيا للمتات[2] ، وصلةً للحُرْمة ، وإسداءً للمعروف ، وسَتْرًا للبيوتات[3] ، واقتداء بسلفها [الصالح][4] ، فى نزاهة النفس ، وعُلُوِّ الهمة ، ومتانة الدين ، وكشف الحجاب ، ونفاذ العزم ، واستِشعار الصبر ؛ تُوفيت فى كفالة حفيدها ، أمير المسلمين أبى الحجاج ، مواصلا برّها ، ملتمساً دعاءها ، مستفيداً تجربتها وتاريخها ، مباشراً مُواراتها بمقبرة الجنان ، داخل الحمراء ، سَحَر يوم الأحد السابع لذى حجة ، من عام تسعة وأربعين وسبعمائة » .

أولاده

تخلَّف[5] من الولد أربعة ، أكبرهم محمد ، ولى الأمر من بعده ؛ وفرَج شقيقه

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : حديث . والمؤدى واحد .
(٢) من مت متا . أى وصل . والمقصود : رعياً للصلات .
(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » للبيوت . والأولى أنسب للمعنى المقصود .
(٤) هذه الكلمة واردة فى « ج » وساقطة فى « ك » .
(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة البدرية .

التَّالى له بالسن ، المنصرف عن الأندلس بعد مَهْلك أخيه المذكور ، المتغلب فى الإيالات ، الهالك أخيراً فى سجن قصبة[١] ألمرِيّة عام أحد وخمسين وسبعمائة ، مظنوناً به الاغتيال ؛ ثم أخوه [أمير المسلمين][٢] أبو الحجاج ، تغمده الله برحمته ، أقْعَدُ القوم فى المُلْك[٣] ، وأبعدُهم أمَدًا فى السعادة ؛ [ثم][٤] اسماعيل أصغرهم سناً ، المُبْتَلى فى زمان الشبيبة فى الثِّقاف[٥] المخيف مدة أخيه ، المستقر الآن مُوادعاً مَرْفودا ، بقصر المُسْتَخلص[٦] من ظاهر شالُوبانية[٧] ؛ وبنتين ثنتين من حَظِيَّته عَلْوة ، عقد عليهما أخوهما أبو الحجاج ، لرجلين من قرابته .

وزراؤه

وزر له أول أمره القائد البُهْمة ، أبو عبد الله محمد بن أبى الفتح الفهرى ؛ وبيت هؤلاء القواد شهير ، ومكانتهم من الملوك النصريين مَكينة ؛ أشرك معه فى الوزارة الفقيه الوزير أبا الحسن على بن مسعود بن على بن مسعود المحاربى ، من أعيان الحَضْرة ، وذوى النباهة ؛ فجاذب[٨] رفيقه حَبْل الخطَّة ، ونازعه لباس الحُظوة ، حتى ذهب باسمها ومسمَّاها ؛ وهلك القائد أبو عبد الله بن أبى الفتح ، فخَلَص له شِربها ؛ وسيأتى التعريف بكل على انفراد .

---

(١) وردت فى المخطوطين : قصبات . والمفرد هنا أرجح . ولا محل للجمع . وقد قد كانت قصبة المرية من أعظم وأمنع قصبات الأندلس . وما تزال تقوم بها إلى اليوم بقية كبيرة من الأسوار والأبراج تدلى بما كانت عليه من المناعة والفخامة معاً .

(٢) هذه العبارة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٣) وردت فى المخطوطين : الملوك . والتصويب من اللمحة .

(٤) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٥) الثقاف أى الاعتقال .

(٦) المستخلص أعنى أملاك السلطان . وقد سبقت الإشارة إليها .

(٧) شالوبانية أو شلوبانية وبالإسبانية Salobrena . سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١٨)

(٨) وردت فى المخطوطين : فجاذف . والتصويب يقتضيه السياق .

كُتَّـــابه

كتب عنه لأول أمره بمالقة ، ثم بطريقه إلى غرناطة ، وأياماً يسيرة بها ، الفقيه الكاتب أبو جعفر بن صَفْوان المتقدم ذكره ، [ثم ألقى المقادة][1] إلى كاتب الدولة قبل ، شيخنا أبى الحسن بن الجيَّاب ، فاضل الخطَّة ، و بارى القوس[2] ، واقتصر عليه إلى آخر أيامه .

قضـــاته

استَقْضى أخا وزيره ، الشيخ الفقيه أبا بكر بن يحيى بن مسعود بن على ، رجل الجزالة ، وفَيْصل[3] الحُكْم ، فاشتد فى إقامة الحق[4] ، وغَلُظ بالشرع ، واستعان بالجاه ، فخيف سطوته ، واستمر قاضياً إلى آخر أيامه .

رئيس جنده الغربى

الشيخ البُهْمة ، لُباب قومه ، وكبير بيته ، أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء إدريس ابن عبد الله بن عبد الحق ، مشاركا له فى النِّعمة ، ضاربا بسهم فى المنحة ، كثير التجنِّى[5] والدّالة ، إلى أن هلك المخلوع ، وخلا الجو ، فكان منه بعض الإقصار .

---

(١) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين ، وبدونها يختل السياق . وقد أضفناها من اللمحة .

(٢) وردت فى المخطوطين : القدس . وهو تحريف ظاهر .

(٣) وردت فى المخطوطين : وفصل . والتصويب من اللمحة .

(٤) وردت فى المخطوطين : الحكم . مرة أخرى . ونظن أنه سهو . والتصويب من اللمحة .

(٥) وردت فى المخطوطين : التحنى .

الملوك على عهده

وأولا بعُدوة المغرب ؛ كان على عهده من ملوك المغرب السلطان الشهير ، جوادُ الملوك ، الرَّحْب الجناب[١] ، الكثير الأمل ، خِدن العافية ، ومحالف الترفيَة ، مُفحم النَّعيم ، السعيد على [خاصته وعامته][٢] ، أبو سعيد عثمان بن السلطان الكبير ، المجاهد ، المرُابط ، أبي يوسف بن عبد الحق . وجرت بينه و بينه المراسلات ، واتصلت أيامه بالمغرب بعد مهلكه ، وصدراً من أيام ولده أبي عبد الله حسبما مر عند ذكره .

و بمدينة تِلِمْسان ، وطن القِبْلة ، الأمير أبو حمّو موسى بن عثمان بن يَغْمُراسِن بن زيّان ؛ ثم توفى قتيلا على عهده بأمر ولده المذكور ، واستغرقت أيام ولده المذكور الوالى بعده ، إلى أن هلك فى صدر أيام أبي الحجاج ؛ وجرت بينه و بين الأمير مراسلات وهدايات .

و بمدينة تونس ، الشيخ المُتَلَقِّب[٣] بأمير المؤمنين أبو يحيى ، زكريا بن أبي حَفْص المدعو باللِّحيانى ، المتوثب[٤] بها على الأمير أبي البقاء خالد بن أبى حفص ؛ وهو كبير ، إلا أن أبا حفص أكبر سناً وقدراً ؛ وقد تملك تونس تاسع جمادى الآخرة من عام ظهر له [اضطراب مَنْ بها][٥] ، أحد عشر وسبعمائة ؛ وتم له الأمر ، واعتَقَل أبا البقاء بعد خَلْعه ، ثم اغتاله فى شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ؛ ثم رَحَل عن تونس لما ظهر له من اضطراب أمره بها ، وتوجّه إلى طرابلس فى وسط عام خمسة عشر ، واسْتَناب صِهره الشيخ أبا عبد الله بن أبي عمر ، ولم يعد بعد إليها . ثم اضطرب أمر إفريقية ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : الجنان .

(٢) وردت فى المخطوطين : (خاصة وعامة) . والتصويب من اللمحة .

(٣) وردت فى المخطوطين : المتقلب . وهو تحريف .

(٤) وردت فى « ج » : الموثب . وفى « ك » المثوب .

(٥) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (من اضطراب بها) . ونعتقد أن التصويب أرجح للسياق .

وتنوّبه عدة من الملوك الحَفْصيين ، منهم الأمير أبو عبد الله بن أبى عمر المذكور ، وأبو عبد الله بن اللِّحيانى ، والسلطان أبو بكر بن الأمير أبى زكريا بن الأمير أبى إسحاق ، لَبنة تمامهم ، وآخر رجالهم ؛ واستمرت أيامه إلى أيام ولده الأمير بالأندلس ومعظم أيام ولديه ، رحم الله الجميع .

ومن ملوك الروم بقَشْتاله ؛ كان على عهده مقروناً بالعهد القريب من ولايته ، الطاغية هراندة بن شانْجة بن الهنشة بن هراندة (١) المجتمعُ له مُلْك قشتالة وليون ، وهو المتغلب على إشبِيليه ، وقُرطبة ، ومُرسية ، وجيّان ؛ ابن الهنشة الذى جرت له وعليه هزيمة الأراك والعِقاب (٢) ؛ ابن شانْجة (٣) بن الهنشة المسمى انبرذور (٤) ، وهو الذى أفرد صهره وزوج بنته بملك برتقال (٥) ؛ إلى أجداد ، يخرجنا تقصى ذكرهم عن الغرض .

ومن ملوك رَغُون (٦) بشرق الأندلس ، الطّاغية جايمش بن بَطْرة بن جايمش (٧)

---

(١) هو فرناندو الثالث بن الفونسو التاسع ملك ليون . ولى الملك سنة ١٢١٤ م . وكان من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية . وهو الذى استولى على قواعد الأندلس الكبرى : قرطبة و إشبيلية وجيان وغيرها . وقد سلكه الإسبان فى ثبت القديسين . وأسبغوا عليه لقب القديس فرناندو San Fernando . وحكم حتى وفاته فى سنة ١٢٥٢ م . وقد أورد ابن الخطيب نسبته محرفة .

(٢) الهنشة أى ألفونسو . وهو الفونسو الثانى ملك قشتالة . وهو الذى هزم فى معركة « الأراك » Alarcos سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥م) أمام جيوش الموحدين بقيادة الخليفة الموحدى يعقوب المنصور . أما معركة العقاب ، فقد وهم ابن الخطيب بإيرادها على هذا النحو . والحقيقة أنها هى المعركة التى هزم فيها الموحدون بزعامة خليفتهم محمد الناصر ، أمام الجيوش النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو الثانى ، وذلك فى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وتعرف بالإسبانية بموقعة Las Navas de Tolosa

(٣) شانجة بالإسبانية Sancho

(٤) وردت فى المخطوطين : (اشردون) وهو تحريف لكلمة (انبر ذور) ومعناها الإمبراطور .

(٥) وردت فى المخطوطين محرفة : (برطال) .

(٦) رغون أعنى مملكة أراجون .

(٧) جايمش (وقد رسمت فى المخطوطين جامس) هو بالإسبانية Jaime (خايمى) أى يعقوب . و بطره هو بيدرو Pedro أو بطرس . وقد حكم خايمى ملك أراجون من سنة ١٢٢٧ م إلى سنة ١٢٧٤ م . وهو المستولى على بلنسية وشاطبة وجزائر البليار (الجزائر الشرقية) .

الذى تغلب على بَلَنْسِية ، ابن بَطْرة بن الهَنْشة ، إلى أجداد عدة كذلك . ثم هلك فى أخريات أيامه ، فولى مُـلْك أرغون بعده الهنشة بن جامس إلى أخريات أيامه . و ببُرتُقال الهنشة[١] بن يومس بن الهنشة بن شانجة بن الهنشة بن شانجة بن الهونشة، ويسمى أولا دُوقاً .

ذكر تصيُّر الأمر إليه

لما وَلى الأمر بالأندلس ، حرسها الله ، السلطان أبو الجيوش نصر بن السلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان الغالب بالله أبى عبد الله بن نصر، يوم عيد الفطر من عام [ثمانية][٢] وسبعمائة ، بالهجوم على أخيه أبى عبد الله الزَّمِن المُقْعد ، الآمن فى ركن بيته ، واغتيال ابن الحكيم وزيره ببابه ، والإشادة بخلعه حسبما يأتى فى موضعه ، استقرَّ الأمر على ضعف أخيـه ، وسارع دِخْلته ، فساءت السيرة لمنافسة الخاصة ؛ وكان الرئيس الكبير عميدُ القرابة ، وعَلَم الدولة أبو سعيد فرج ، ابن عم السلطان المخلوع ، وأخيه الوالى بعده ، راسخاً قدمه وعُرْفه ، بمثوبة الوارث ؛ ولنظره عن أبيه المُسوَّغ عن جده مالَقَة وما إليها ، ولنظره مدينة سَبْتة ، المُضافة إلى إيالة المخلوع عن عهد قريب ، قد أفرد بها ولده المترجم به ، وجميعهم تحت طاعته ، وفى زمان انقياد بيوع مَدِيد[٣] الدولة ، بل مد سَرْوِها[٤] لِمـا شاء عز وجل من احتوائهم فى حبل هذا الدايل ، يتعقبون على الرئيس الكبير أموراً تَتِرُّ حَمِيَّة[٥] الصدور ، وتستدعى رفض الطاعة ، وتحتوى على مظنات مُخلة[٦] ؛ واحترسوا

---

(١) هو الفونسو الثالث الذى حكم البرتغال من ١٢٤٨ — ١٢٧٨ م .

(٢) مكان هذه الكلمة بياض فى المخطوطين .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : مدين .

(٤) وردت فى المخطوطين : سر ورها . والتصويب أنسب السياق .

(٥) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين هكذا : (مخيمه) ونعتقد أنه تحريف لما أثبتناه .

(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » جملة .

صافيات منافعه ، وأوعزوا[١] إلى ولاة الأعمال بالتضييق على رجاله ، وصرفوا سُننه عن نظره . ولما بادر إلى الحضرة لإعطاء صفقة البَيْعة وتهنئة السلطان نصر ، [عن روحه][٢] وابن عمه ، على عادته ، داخله بعض أرباب الأمر ، مُحذراً ، ومُشيراً بالامتناع ببلده ، والدُّعاء لنفسه ، ووعده بما فى وسعه . فاستعجل الإنصراف إلى بلده ، ولم تمر إلا برهة ، واشتعلت[٣] نار الفتنة ، وهاجت مراجل الحفيظة ، فتلاحق به ولدُه ، وأظهر الانفراد والاستعداد فى سابع عشر رمضان من هـذا العام . وأقام بولده إسماعيل ، برسم الملك والسلطان ، ورتَّب له ألقاب الملك ، ودوَّن ديوان الملك لحينه[٤] ، ونازل حَضْرَةَ[٥] أنتقيرة[٦] ، وناصبها القتال ، فتملّـكها ؛ ودخلت مَرْبلَّة[٧] فى طاعته ؛ وتحرّك إلى بَلِّش[٨] فنازلها ، ونصب عليها المجانيق فدانت ؛ فضخُمت[٩] الدعوة ، ومكنت الجباية ، والتفَّ إليه من مساعير الحروب ومن أجاب . وتحرك إلى غرناطة فى أول شهر محرم عام ، اثنى عشر وسبعمائة ، ونزل بقرية العَطْشا من مرجها[١٠] . وبرز السلطان نصر فى جيش خشن ، مُستجاد[١١] العدة ، وافر الرّجْل ، فكان اللقاء ثالث عشر الشهر ؛ فأظهر [الله][١٢] أقلَّ الفئتين ، وانجرّت على الجيش

---

(١) فى المخطوطين : وإغروا .

(٢) هكذا فى المخطوطين . ومعناها ، عن نفسه .

(٣) وردت فى المخطوطين محرفة : واستعملت .

(٤) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : بجبسه وهو تحريف لا معنى له . ونعتقد أن التصويب محقق للغرض .

(٥) وردت فى « ك » : حضر . وفى « ج » صر . والمرجح ما أثبتناه .

(٦) انتقيرة وبالإسبانية Antaquera مدينة أندلسية حصينة تقع شمال غربى مالقة .

(٧) مربلة وبالإسبانية Marbella من ثغور الأندلس الجنوبية . وقد سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ٢٠٤) .

(٨) سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص١١٨) .

(٩) هكذا فى « ج » . وفى « ك » وردت محرفة : فطمخت .

(١٠) وردت فى المخطوطين : جها . وهو تحريف . والتصويب من اللمحة البدرية .

(١١) وردت فى « ج » : مستجد . وفى « ك » مستنجد . والتصويب من اللمحة .

(١٢) أضفنا هذه الكلمة من اللمحة . وهى ساقطة فى المخطوطين .

الغرناطى الهزيمة ؛ وكبا بالسلطان نصر فرسه فى مجرى سقى بعد الفدن ، فنجا بعد لَأْى ودخل البلد مغلولا ؛ وانصرف الجيش المالقى ظاهراً إلى بلده ؛ وطال بالرئيس وولده الأمر وضرَّستهما الفتنة ، وعظم احتياجه إلى المال ، وكادت تفضحه المُطاولة ؛ وزاحمه الملك بمكْلَف ضخم ، فاقتضى ذلك إذعانه إلى الصلح ، وإصغاره المهادنة ، على سبيله من المقام ببلده ، مُسلِّماً للسلطان فى جبايته ، جاريةً وطايفةً فى رياسته ، وأرزاق جنده ؛ فتم ذلك فى ربيع الأول من العام المذكور . ثم لَقِحت فتنة فى العام بعده ، فعادت جَذِعة ، وكانت ثورة الأشْياخ فى غرناطة فى رمضان من العام المذكور هاتفين بخُلْعان السلطان ، وطاعة مخلوعهم ، وطالبين منه إسلام وزيره خِدْن[1] الروم المتهم[2] على الإسلام أبى عبد الله بن الحاجّ . ثم لحق زعماؤهم بمالقة عند اختلال ما أبرموه ، فكانت الحركة الثانية لغرناطة بعد أمور اختصرتها ، من استبداد [السلطان أبى الوليد][3] بأمره ، والانحطاط فى القبض على أبيه ، إلى هوى جنده ، والتصميم فى طلب حقه ؛ فاتصل سيرُه ، واحتلَّ بلَوْشة سِرَار شوال فتملّكها[4] ، ورحل قافلا إلى وطنه ، طريد كلب الشتاء ، وافر الخزانة ، واقتضى الرأى الفائل ممن له النظر الجاش من زعيم شيوخ جندها ، اتهاماً له بالطاغية[5] ، فسجنه . ثم بدا له فى أمره ، ثم سرَّحه بعد استدعاء يمينه ، فوغُرت صدور حاشيته ، وتبعهم من كان على مثل رأيهم ، وهو شوكة حادة ، فصرفوا الوجوه إلى السلطان المقبل الحظ ، المحبوب إليه هوى الملك ، بما راعه ؛ ثانياً من عِنانه بأحواز أرجدونة[6] ، إلَّا تثويب داعيهم ، فكرَّ إلى المدينة وبرز إليه

---

(١) فى المخطوطين : جذل . والتصويب من اللمحة البدرية .

(٢) فى المخطوطين : المبهم . والتصويب من اللمحة .

(٣) هذه الإضافة من اللمحة البدرية . وهى ساقطة فى المخطوطين .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : فشملها . والتصويب من اللمحة .

(٥) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : (بالصفاغية) . والمرجح صواب ما أثبتناه .

(٦) هى فيما يرجح مدنية أرشدونة Archedona وهى تقع شمالى مالقة على مقربة من أنتقيرة .

جيشها ، ملتفا على عبد الحق بن عثمان ، فأبلى ، وصدَق الحملة ، فكادت تكون الدائرة ؛ فلولا ثبوت السلطان لما استقبلت بأسفلهم الحملة ، فولوا منهزمين ، وتبعهم إلى سور المدينة ، وقدخَفَتَ اللَّفيف والغوغاء النَّاعقون باُلخلعان،الشَّرِهون إلى تبديل الدَّعوات ، وإلى تسنم المآذن والمنارات والرُّبا ؛ وبرز أهل رَبَض البيّازين[١] ، الهافُّون إلى مثل هذه البوارق ، إلى شُرف رَبْوتهم ، كل يشير مستدعياً ، إعلاناً بسوء الجوار ، وملل الإيالات ، والانحطاط ، وبعد التلون والتقلب ، وسآمة العافية ؛ شَنْشَنة معروفة ، وخليقة فى الخُلْق مألوفة . وبودر غلق باب إلبيرة ، ففُض قفله ، ودُخلت المدينة ، وجاء السلطان إلى معقل الحمراء بأهله وذخيرته وخاصته ؛ وبرز السلطان أبو الوليد بالقصبة القُدْمى تجاهها ، بالدارالكبرى المنسوبة لابن المَوْل، يُنفذ الصكوك ، ويذيع[٢] العفو ، ويؤلف الشَّارد ؛ وضعُفت بصاير المحصورين ، وفَشِلوا على وجود الطُّعمة ، ووفور المال ، وتمكُّن المَنَعة ؛ فالتمسوا لهم ولسلطانهم عهداً نزلوا به ، مُنتقلين إلى مدينة وادى آشْ ، فى سبيل العِوَض بمال معروف ، وذخيرة موصوفة ؛ وتم ذلك ، وخرج السلطان رحمه الله مخلوعاً ، ساء به القرار ، جانياً على ملكه الأخابيث[٣] الأغوار ، ليلة الثامن والعشرين من شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ؛ واستقرَّ بها ، موادعاً مرة ، ومحارباً أخرى ، إلى أن هلك حسبما يأتى ذكره . وخلا للسلطان الجو ، وصُرفت إليه المقادة ، وأطاعه القاصى والدَّانى ، ولم يختلف عليه اثنان ؛ والبقاء اُلخلْص لله وحده .

مناقبُه

اشتد رحمه الله على أهل البِدَع ، وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملة ؛ ولقد

---

(١) كان ربض البيازين أهم أحياء غرناطة الإسلامية . وما زال يقوم بها إلى اليوم وهو يقع فى شمالها الشرقى مواجها لهضبة الحمراء . وبالإسبانية Albaicin.

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ويدفع .

(٣) وردت فى المخطوطين محرفة : الاجانيث .

تُذوكر بين يديه [أهل][١] البيت ، فبذل فى فِدْية بعضهم ما يعزُّ بذله ، ونقل منهم بعضاً من [حِرَف خبيثة][٢] ، فزعموا أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فشكر له ذلك . واشتدّ فى إقامة الحدود ، وإراقة المسكرات ، وحظر[٣] تجلِّى القينات للرجال فى الولائم ، وقَصَر طربهن على أجناسهن من الناس ؛ وأخذ يهود[٤] الذمة بالتزام سِمةٍ تُشهرُهم ، وشارة[٥] تميزهم ، وليوفّى حقهم من المعاملة التى أمر بها الشارع فى الخطاب والطُّرق ، وهى شواشى صُفْر .

ولقد حدَّث من يخفُّ حديثه ، من الشيوخ أولى المجانة والدُّعابة ، قال : كنا عاكفين على راح[٦] ، وبرأسى شاشيّة ملف حمراء ، فحاول أصحابى إنامتى ، حتى أمكن ذلك ، وبادروا إلى رقاع من ثوب أصفر ، فصنعوا منها شاشية ، ووضعوها فى رأسى ، مكان شاشيتى ، وأيقظونى ، فقمت لشأنى ، وقد هيئوا ثمناً لشراء بَقْل وفاكهة ، وجهزونى لشرائه ، فخرجت حتى أتيت دكان السوق ، فساومته ، فلما نظر إلىّ قال لصاحبه : جزى الله هذا السلطان خيراً ، والله لقد كنت أبادر هذا اللَّعين بالسلام عند لقائه أظنه مُسْلماً ، وبصق علىّ ؛ فهَمَمْت أن أوقع به ، ثم فَطِنتُ للحِلية ، فانتزعتُها ، وبادرت فأوسعتُهم ذمًّا ، وعظُم خجلى ، وسبقنى إليهم عينٌ لهم علىّ ، فكان الضحك يُهلكهم عند دخولى . ومناقبه كثيرة .

جهاده وبعض الأحداث فى مدته

والتَأثث[٧] الأمور ، ولش لأول مدته ، فجرَت على جيشه بمظاهرة المخلوع لجيش

---

(١) أغفلت فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٢) وردت فى المخطوطين : (من صروف جيشته) . والتصويب من اللمحة .

(٣) هكذا فى « ك » . ووردت فى « ج » حضر .

(٤) وردت فى « ك » : اليهود . وأغفلت فى « ج » .

(٥) وردت فى المخطوطين : وإشارة . والتصويب من اللمحة .

(٦) وردت فى المخطوطين : راحة .

(٧) أى ساءت وتحرجت .

الرُّوم ، الهزيمة الشنيعة ، بوادى فرُتونه ؛ أوقع بهم الطاغية بَطْرة(١) ، كافل ملك الروم ، المُمَلَّك صغيراً على عهد أبيه ، وعمه الذَّاب عنه ، ففشا فى الأعلام القتل ، وذلك فى صفر من عام ستة عشر وسبعمائة ؛ وظهر العدو بعدها فغلب(٢) على حصن شتمانس(٣) وحصن بجيج ، وحصن طشكُر ، وثغر رُوط . ثم صرفت(٤) المطامع عزمه إلى الحضْرة ، فقصد مَرْجها(٥) ، وكف الله عاديته ، وقمَعَه ، ونصر الإسلام عليه ، ودالت للدين عليه الهزيمة العظمى بالمرج من ظاهر غرناطة على بريد منها ؛ واستولى على محلَّتة النهب ، وعلى فرسانه ورجاله القتل ، وعظُم الفتح ، وبَهَر الصنع ، وطار الذكر ، وثاب السَّعد . وكانت الوقيعة سادس جمادى الأولى من عام تسعة عشر وسبعمائة(٦) ؛ وفى ذلك يقول كاتبه شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب :

الحمد حقُّ الحمد للرحمن ... كافى العدو وناصر الإيمان
ومُكيِّف الصُّنع الكريم ودافعُ الـ ... ـخَطْب العظيم وواهب الإحسان
فى كل أمر للمُهَيْمِن حكمة ... أعْيَت على الأفكار والأذهان

واستقر مَلِكهم القتيل بأيدى المسلمين بعد فرارهم ، فجُعل فى تابوت خشب ، [ونُصب](٧) بالسور المُنازل من الحمراء يسار الداخل بباب يعقوب من أبوابها إذاعةً للشهرة ، وتثبتاً لتخليد الفخر .

---

(١) هو دون بيدرو Don Pedro . وكان وصياً على الملك الصبى الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة
(٢) أثبتها « ك » . وأغفلها « ج » .
(٣) وردت فى المخطوطين : متمابس . وهو تحريف لاسم (شتمانس) وقد كان أحد الحصون القريبة من غرناطة . وبالإسبانية Siete Manos أعنى الأيدى السبعة .
(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : صفرت .
(٥) مرج غرناطة الشهير La Vega
(٦) فى هذا التاريخ الذى يورده ابن الخطيب للموقعة بعض التحريف . ويضع ابن خلدون تاريخ الموقعة فى سنة ٧١٨ هـ (ج ٤ ص ١٧٣ و ج ٧ ص ٢٥٠) . وهو يوافق تاريخها الميلادى الواقع فى مايو سنة ١٣١٨ م . وراجع كتابى « نهاية الأندلس » (ص ٩١) .
(٧) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، ويقتضيها السياق .

ومن الغريب أننى فى هذه الأيام بعد خمسين سنة تماماً[١] ، تفقدت ذلك المكان فى بعض ما أباشره ، أيام نِيابتى عن السلطان بدار مُلْكه على عادتى ، فألفيتُه قد علا عليه كوم من الحجارة ، رجم الصبيان إياه ؛ فظهر لى تجديد الإشادة به ، والاستفتاح بوقوع مثله . ولما كشُف عن الرِّمة لتُنقل إلى وعاء ثان ، أُلفى بعَظْم[٢] القَطَن[٣] العريض منها ، سنانٌ مُرهب ثبت فى العظم ، انتُزع منه ، وقد غالبتنى الرِّقة والإجهاش ، وقلت اللهم ادَّخر رضوانك لمن أودع[٤] فى هذه الرّمة الطاغية ، سنان جهادك إلى اليوم ، وأثِبْه وارفع درجته ، إنك أهل لذلك .

« رجعٌ » ؛ واستقامت الأيام ، وهلك المخلوع ، فصفا الجو ، واتحدت الـكلمة ، وأمكن الجهاد . فتحرك فى شهر رجب من عام أربعة وعشرين وسبعمائة ، وأعمل القصد إلى بلاد العدو، ونازل حصن إشْكَر[٥] ، الشَّجَى المعترض فى حلق بَسْطة ، فأخذ بمُخَنَّقه ، ونشر الحرب عليه ، ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة حديدٍ محماة طاق البرج المنيع من معقله ، فاندفعت يتطاير شررها، واستقرت بين محصوريه[٦] فعاثت عِياث الصواعق السماوية ، فألقى الله الرعب فى قلوبهم ، وأتوا بأيديهم ، ونزلوا قسراً على حكمه فى الرابع والعشرين من الشهر ؛ وأقام بظاهره ، فصيره دار جهاد ، وعمل فى خندقه بيده ، وانصرف ؛ فكانت غُزاة جمّة البركة عظُمت بها على الشرق الجَدْوى ، وأنشد الشعراء فى هـذه الوجهة قصائد أشادت بفضلها ، وشهرت من ذكرها ، فمن ذلك عن كاتب سره[٧] قوله :

---

(١) يوافق ذلك سنة ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) .

(٢) وردت فى المخطوطين : بعظن .

(٣) القطن هو ما انحدر من الظهر واستوى .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : وضع .

(٥) إشكر وبالإسبانية Huescar هى بلدة حصينة تقع شمال شرقى مدينة بسطة .

(٦) وردت فى المخطوطين : محصويه .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » (كتاب بيره) وهو تحريف .

أما مَداكَ فغـاية لم تُلْحق أعْيَت على غرِّ الجياد السُبَّق

ورفع إليه شيخنا الحكيم أبو زكريا بن هُذيل ، قصيدة أولها :

بحيث القبابُ الحُمْرُ والأُسْدُ الوَرْدُ كتائبُ سكان السماء لها جند

أنشدنى منها فى وصف النفط قوله :

وظنوا بأن الصَّعق والرَّعد فى السما فحاقَ بهم من دونها الصَّعق والرَّعدُ

غرائب أشكالٍ سما هُرْمُسٌ بها مهنَّدةٌ تأتى الجبـال فتنهدُّ

ألا إنها الدنيـا تريك عجائباً وما فى القوى منها فلا بدّ أن يبدو

وفى العاشر لشهر رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، تحرّك للغزو بعد أخذ الأهبة والاستكثار والاجتهاد للمطوعة، وقصد مدينة مَرْتُش[١] العظيمة السَّاحة، الطيبة البقعة، فأضْرَب[٢] بها المحلّات[٣] [وكان][٤] القصد إجمام الناس ؛ فصوَّب الحشود ووجَّهها إلى ما بها[٥] من بَحْر الكروم الملتفَّات ، وأدواح الأشجار ، فأمعنوا فى إفسادها ، وبرز حاميتها [فناشبت الناس][٦] القتال ، فحَمِيت النفوس ، وأريد منع الناس ، فأعيا أمرهم وسال[٧] منهم البحر ، فتعلقوا بالأسوار ؛ وقيل للسلطان بادر بالركوب ، فقد دُخل الرَّبض ، فركب ووقف بإزائها ، فدخل البلد عَنْوة ، واعتصم أهله بالقَصَبَة ، فدُخلت أيضاً القصبة عنوة ، وانطلقت أيدى الغوغاء على من بها من

---

(١) مرتش ، وبالإسبانية Martos هى بلدة أندلسية حصينة تقع جنوب غربى مدينة جيان ، وشمال شرقى مدينة بيانه .

(٢) وردت فى المخطوطين : فاضطرب . والتصويب من اللمحة .

(٣) وردت فى المخطوطين : المحالات . والتصويب من اللمحة .

(٤) الزيادة من اللمحة وهى ساقطة فى المخطوطين .

(٥) وردت فى المخطوطين محرفة : بابها .

(٦) وردت محرفة فى المخطوطين : (فناشب للناس) . والتصويب من اللمحة .

(٧) فى المخطوطين : وهال .

ذكر وأنثى كبيراً أو صغيراً ، فساءت القَتْلة ، وقبُحت الأُحدوثه . ورُفعت من الغد آكام من الجثث ، صعدت ذُراها المؤذِّنون ؛ وقفَل إلى غرناطة ينصر لا كِفاً له ، فكان دخوله من هذه الغُزاة فى الرابع والعشرين لرجب المذكور .

وفـــاته

ولما فصل من مَرْتُش نقم على أحد الرؤساء من قرابته ، وهو ابن عمه محمد ابن إسماعيل المعروف بصاحب الجزيرة ، أمراً تقرَّعه عليه ، و بالغ فى الإهمال له ، وتوعَّده بما أثار حفيظته ، فأقدم عليه بالفَتْكة الشَّنعاء التى ارتكبها منه بباب قصره ، بين عبيده وأرباب دولته ، آمنَ ما كان سرباً ، وأعزَّ سلطاناً وجُنداً ؛ وذلك يوم الاثنين ثالث يوم من دخوله من مرتُش ، بعد أن عاهد فى الأمر جُمْلة من القرابة والُخدَّام ؛ فوثب به ، وهو مجتاز بين السِّماطين من ناسه إلى مجلس كان يجلس فيه للناس ؛ فاعتنقه وانتضى خنجراً كان ملصقاً فى ذراعه ، فأصابه بجراحات ثلاث ، إحداهن فى عنقه ، بأعلى تَرْقُوته ، فخرَّ صريعاً . وصاح بكرٌ وزيره ، فعمَّته سيوف الحاضرين من أصحاب الفاتك ، ووقعت الرَّجة ، وسُلت السيوف ، وتشاغل كل بمن بليه ، واستُخلص السلطان من يديه ، وحيل بينه و بينه ؛ وحين[1] تشاغل القوم بالوزير ، رُفع السلطان وظن أنه قد أفلت جريحاً ، فوقع البُهْت ، و بادروا الفرار ، فسُدت المذاهب ، فقُتلوا حيث وجدوا ، وأخذت الظنة قوماً من أبريائهم ، فامتُحنوا ، ونهب الغوغاء دورهم ، وعَلِقت بالجدرات أشلاؤهم ؛ وكان يوماً عصيباً ، وموقفاً صعباً ، واحتُمل السلطان إلى بعض دور قصره ، و به صُبابة روح ، أشبه شىء بالعدم ، للزُوق العمامة بفوهة[2] شُرْيانه المبتور ، ففاض لحينه بنفس زوال العمامة ، رحمه الله .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وعند .

(٢) وردت فى « ج » : بغهو . وفى « ك » يعهو . والتصويب من اللمحة .

وكان من أَخْذ البيعة لولده الأمير أبى عبد الله من بعده ، ما هو معروف فى موضعه . ودفن غَلَس ليلة الثلاثاء ، ثانى يوم وفاته ، بروضة الجنة من قصره ، إلى جانب جده ؛ وتنوهى الاحتفال بقبره نقشاً ، وتخريماً[١] ، و إحكاماً ، وحَلْياً ، وتمويهاً ، يشق على الوصف ؛ وكُتب بإزاء رأسه فى لوح الرخام ما نصه ، من كلام شيخنا ، بعد سطر الافتتاح :

« هذا قبر السلطان الشهيد[٢] ، فتّاح الأمصار ، وناصر ملّة المصطفى المختار ، ومحيي سبيل آبائه الأنصار ، الإمام العادل، الهمام الباسل، صاحب الحرب والمحراب ، الطاهر الأنساب والأثواب ، أسعد الملوك دولة ، وأمضاهم فى ذات الله صَوْلة ، سيف الجهاد ، ونور البلاد ، ذى الحسام المسلولة فى نُصرة الإيمان ، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن ، المجاهد فى سبيل الله ، المنصور بفضل الله ، أمير المسلمين أبى الوليد ، ابن الهمام الأعلى ، الطاهر الذات والفخار ، الكريم المآثر والآثار ، كبير الإمامة النصرية ، وعماد الدولة الغالبية ، المقدس ، المرحوم ، أبى سعيد فرج ، ابن علم الأعلام ، وحامى حمى الإسلام ، صِنْو الإمام الغالب ، وظهيره [المقدس][٣] العلى المراتب ، المقدس ، المرحوم أبى الوليد إسماعيل بن نصر ، قدّس الله روحه الطيب ، وأفاض عليها [غيث][٤] رحمته الصيِّب ، ونفعه بالجهاد والشهادة ، وحيّاه بالحسنى والزيادة ؛ جاهد فى سبيل الله حقّ الجهاد ، وصنع الله له فى فتح البلاد ، وقتل كبار الأعاد ، ما يجده مذخوراً يوم التّناد ؛ إلى أن قضى الله بحضور أجله ، فختم عمره بخير عمله ، وقَبَضه إلى ما أعدّ له من كرامته وثوابه ، وغُبار الجهاد طىّ أثوابه ، فاستشهد رحمه الله شهادةً أثبتت له فى الشُّهداء من الملوك قدَماً ، ورفعت له فى أعلام السعادة عَلَماً .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » تحميراً . وفى اللمحة : « تنجيداً » .

(٢) هكذا وردت فى اللمحة . وفى المخطوطين : الشهير .

(٣) وردت فقط فى « ج » .

(٤) واردة فى اللمحة . وساقطة فى المخطوطين .

« ولد رضى الله عنه فى الساعة المباركة بين يَدى الصبح من يوم الجمعة سابع عشر شوال عام سبعة وسبعين وستمائة ؛ و بويع يوم الخميس السابع والعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ؛ واستشهد فى يوم الاثنين السادس والعشرين لشهر رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة . فسبحان الملك الحق ، الباقى بعد فناء الخلق » .

و بعده من جهة اللوح الأخير :

تخصُّ قبرَكَ يا خيرَ السلاطين ... تحيةٌ كالصَّبا مرت بدارين
قبر به من بنى نصر [إمام هدى](١) ... عالى المراتبِ فى الدنيا وفى الدين
أبو الوليد وما أدراك من ملكٍ ... مستنصرٍ واثقٍ بالله مأمون
سلطان عدلٍ و بأسٍ غالبٍ وندًى ... وفضل تقوى وأخلاقٍ ميامين
لله ما قد طواه الموتُ من شرف ... وسرِّ مجدٍ بهذا اللحد مدفونُ
ومن لسانٍ بذكر الله مُنطلقٍ ... ومن فؤادٍ بحبِّ الله مَسْكون
أما الجهادُ فقد أحيا معالمَه ... وقام منه بمَفروض ومَسْنون
فكم فتوحٍ له تَزْهو المنابرُ من ... عُجبٍ بهن وأوراقُ الدواوين
مجاهدٌ نال من فضل الشهادة ما ... يجرى عليه بأجرٍ غير ممنون
قضى كعثمان فى الشهر الحرام ضُحًى ... وفاة مستشهد(٢) فى الدار مطعون
فى عارضيه غُبار الغزو تمسحه ... فى جنة الخلْد أيدى حورِها العِين
يُسْقى بها عين تسنيم وقاتلُه ... مردّد بين زقُّوم وغسلين
تبكى البلادُ عليه والعبادُ معاً ... فالخلق ما بين أحزان أفانين
لكنه حكم ربٍّ لا مردّ له ... [فأمره](٣) الجزم بين الكاف والنون
ورحمة الله ربِّ العالمين على ... سلطان عدلٍ بهذا القبر مدفون

(١) وردتا فى « ج » . وأغفلتا فى « ك » .

(٢) وردت فى المخطوطين : مشتهر . والتصويب من اللمحة .

(٣) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى اللمحة .

بعض ما رُثى به

[وعظُمت فيه] (١) فجيعةُ المسلمين لما ثَكلوا من جهاده وعزمه ، و بلوه من سعده وعزِّ نصره ، فكثرت (٢) فيه المراثى ، وتراهنت فى شَجْوِه القرائح ، و بكاه الغادى والرائح . فمن المراثى التى أُنشدت على قبره ، قول كاتبه [شيخنا] (٣) أبى الحسن ابن الجيَّاب :

أيا عَبرة العين امزجى الدمع بالدَّم ... ويازفرة الحزن احكمى وتحكَّمى
و يا قلب ذُب وَجْدًا وغمًّا ولَوْعَةً ... فإنّ الأسى فرضٌ على كل مُسْلم
و يا سلوةَ الأيَّام لا كنتِ فابعدى ... إلى [حيث ألقت] (٤) رحلها أم قشعم
وصِيح بأناة الصبر سُحقاً تأخرى ... وقل لشكاة الحزن أهلا تَقَدَّمى
ولِمْ لا وشمسُ الملك والمجد والهُدى ... وفَتَّاح أبواب النَّدى والتكرُّم
ثوَى (٥) بين أطباق الثرى رهن غُربة ... وحيداً وأصْمَته الليالى بأسهم
على مَلِك الإسلام فاسْمَح بزَفْرَةٍ ... تُساقط درًّا بين فَذٍّ وتَوْأم
على عَلَمِ الأعلام والقمر الذى ... تجلّى بوجه العصر غُرَّة أدهم
على أوْحَدِ الأملاك غير منازع ... أصالة أعراق وفضل تقدُّمِ
ومَنْ مثل إسماعيل نورٌ لمُهتَدٍ ... و بُشْرى لمكروبٍ وعفوٌ لمُجْرِم
وما مثلُ إسماعيل للبأس والندى ... لِأصْرَاخ مذعور و إغْناء مُعدم
وما مثلُ إسماعيل للحرب يُجْتَنى ... به الفتحُ من غَرس القنَا المُتَحطِّم

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . ووارد فى اللمحة .

(٢) فى المخطوطين : فكثر .

(٣) وردت فى اللمحه . وأغفلت فى المخطوطين .

(٤) هذه العبارة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٥) وردت فى المخطوطين : ترى .

وما مثل إسماعيل سَهْمُ سعـادةٍ ... أصاب به الإسلام شاكلة الدم
شهيدٌ سعيدٌ صبّحته شهادة ... تبوأ منهـا فى الخلود التنعم
أتت وغبـار الغَزْو طىّ ثيابه ... ظهيرُ أمانٍ من دخان جَهَنَّم
فتبًّا لدارٍ لا يدوم نعيمُهـا ... فما عِرْسهـا إلا طليعـةَ مأْتَم
ولا أنْسُها إلا رهينٌ بوَحْشَةٍ ... ولا شَهْدُها إلا مشُوبٌ بعلقم
فيا من يرى الدنيـا مُجاجة نَحْلة ... ألا فاعتبرهـا فهى نَبْتة أرْقَم
فمن شام منها اليوم برق تبسُّم ... ففى الغد تلقاه بوجه جهنّم
فضاحكُها باكٍ وجَذْلانُها شجٍ ... وطالعُها[1] هادٍ ومُبْصرها عَمِ
وسرّاؤها تَفْنى[2] وضرّاؤها معاً ... فكلتاهما طيفُ الخيـال المُسَلَّمَ
سَطَتْ بملوك الأرض من بعد آدم ... تُبَدِّد منهم كلَّ شَمْـلٍ مُنظم
فكم من قصير قصَّرت شأو عُمْره ... فخرّ صريعاً لليَدَيْن وللفم
وكم كسرت كِسرى وفضّت جيوشه ... فلم تُحمِه منها كتائبُ رسْتُم
ولو أنهـا ترعى إمام هـدايةٍ ... لأعفت علياً[3] من حُسام ابن مُلْجَم[4]
وما قَتَلَتْ عثمان فى جَوْف داره ... فقـدس من مُستَسْلِم ومُسلّم
وما أمكَنَتْ فيروز[5] من عُمر الرِّضى ... فَهدَّت من الإسلام أرفع مَعْلم

إلى آخرها . وتضمن إجمالَ ما ذكر من ذلك ، التاريخُ المُسمى « بقطع السلوك »[6] المنظوم رجَزًا من تأليفى بما نصه :

---

(١) هكذا فى « ك » . فى « ج » . وطالقها .

(٢) فى المخطوطين : تنى .

(٣) وردت فى المخطوطين : علينا . وهو تحريف ظاهر .

(٤) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على بن الخطاب .

(٥) هو أبو لؤلؤة فيروز قاتل عمر بن الخطاب .

(٦) هذا هو اسم آخر يورده ابن الخطيب لكتابه المسمى : « رقم الحلل فى نظم الدول » .

وعند ما خيف انتثار السِّلك ووزر الرُّوم وزير الملك
تدارك الأمر الإمام الطّاهر فعالج الدار طبيبُ ماهر
وهو أبو الوليد إسماعيل والشمس لا يفقدهـا دليل
ابن الرئيس الماجـد الهمام فرْدُ العلا وعـلم الأعلام
وجده صِنو الإمام الغالب مناقبُ كالشُّهب الثواقب
فقاد من مالقة الجنودا ونشر الأعلام والبُنودا
وعاد نصر بمدى حمرائه أتى وأمر الله من ورائه
فخلع الأمر وألقى باليد من بعد عهد موثّق مؤكّد
وسار[1] فى الليل إلى وادى الأشى والملك لله يعز من يَشَا
ولم يزل فيها إلى أن ماتا وطلَّق الدنيا بها بتاتا
واتّسق الأمر وقرّ الملك وربما جر الحياة[2] الهلك

ومن الرجز المذكور فى وصف جهاده ومقتله :

وكان يوم المرج فى دولته ففرق الأعداء من صولته
وفتح المعـــاقل المنيعة وابتهجت[3] بعدله الشريعة
وانتبه الدهر له من نومه على يدى طائفة من قومه
بَكى عليه الحرب والمحراب وندبته الضُمَّر العُرَّاب

---

(١) وردت فى المخطوطين : وصار .

(٢) هكذا فى اللمحة . وفى المخطوطين : المهلك .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » وانبهجت .

إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر

السلطان الذى احتال[١] على أخيه المتوثب على ملكه ، يكنى أبا الوليد .

حاله

كان صبياً كما اجتمع وجهه ، بادناً ، دمِثَ الخلق ، ليِّن الجانب ، شديد البياض كثيف الحاشية ، متصلاً بالجفوة ، لطول الحجْبة ، و بُعد التمرن والُحنْكة ، غُرًّا ، فاقداً لحسن الأدب ، عريقةً ألفاظه فى العُجمة . تصيَّر الأمر إلى أخيه السلطان خيرتهم ، ولُباب بيتهم ، يوم قتل أبوهما ، وله مزية السن والرَّجاحة[٢] ، والسكنى بمحل وفاة الأب ؛ فأبقى عليه ، وأسكنه بعض القصور لِصقه[٣] ، ولم يضايق أُمَّه فيما استأثرت به من بيت المال ، إذ كان إقليدُه فى يدها ، و بيضاؤه وصفراؤه[٤] فى حكمها ، ورفَّه مُتَبوَّأه ، واستدعى له ولأخيه المعلم الذى كان السبب فى إفاتة إرماقهما، و إعدام حياتهما ، الشيخ السِّفْلة[٥] محمد البطروجى البائِس ، [قِرد ذلك السِّرب][٦] فاستمرت أيام احتجابه وانتظاره على قصره ، إلى رمضان من عام ستين وسبعمائة . وحرك سماسرة[٧] الفتنة له ولأمه جواز الطمع فى المُلْك، ودندنوا لها حتى رقَصَت على إيقاعهم، وخفت إلى مواعدهم، وشمروا إلى خلاص الأمر ؛ وأحام الوثبة صِهرُه الرئيس

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » اختتال .

(٢) وردت فى « ل » : الرحاجة . وفى « ح » الزجاجة .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : لصقعه .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : وصفرائوها .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : السلفه .

(٦) وردت محرفة فى المخطوطين : (حدد ذلك السر) .

(٧) وردت فى المخطوطين : سمسارة .

[أبو عبد الله][1] ، حِلف الشؤم زوج أخته ، محمد بن إسماعيل ، الشهير الـكائنة ، المذكور فى موضعه من حرف الميم . فسيّرت إليـه أمه المال ، فبثه فى الدّعرة والشرار ، حتى تم غرضه ، واقتحم القلعة من بعض أسوارها عند البالية ، وقد هُدم منها شىء فى سبيل إصلاحه ، ليـلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من عام ستين وسبعمائة ؛ والسلطان ليلتئذ غير حالٍّ بها ، فملؤها لَجباً ولغطاً[2] وصراخاً وهَوْلا وتنْويراً ، فى جُملة تناهز المائة ؛ وانضاف إليهم إخوانُ رأيهم من حُرّاسها وسكانها ؛ فألبس الناس، وسُقِط فى أيديهم . وأهدى الليل فتكته[3] هائلة ، وأدّاها شنيعةً ، فاقتصر كل على النظر لنفسه ، وانقسموا فرقتين ، قصدت إحداهما دار كبيرِ الدولة ، وقَيُّوم التّفويض ، وشيخ رجال المُلْك، رِضوان المستبدّ بإحالة كورتها ، الشيخ الذّهول ، معزوز القدر [ورائب النّكيثة][4] ، ومُعود الإقالة، وجرّار رَسَن[5] الأطواد ، وطول الإملا ، الماشى على خدّ الدنيا ، المغضوض البصر عن النّظر ، المستهين بكل سُبة[6] وحيّة تسعى ، المعوّل على نظره ، وقوة سَعْده[7] وإجابة دعوته ، مع كونه نسيج وحده فى عفافه وديانته ، ورضى الناس به ، وسقوط منافستهم من أجله ، ومُأويهم على مَوِّل لفظه ، وبِساط معاملته ، وصحة عقده . فعالجوا بابه طويلًا وتولّجوا داره ، وقتلوه بين أهله وولده .

وقصدت الأخرى دار الأمير المترجم به ومعها صهره ، فأخرجوه[8] ، وأركبوه على فرس ، راعِـد الفرائص . منتقع اللون ، مختلط القول ، تحف به داياته بين

---

(١) فى المخطوطين : أباهو .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : وغلطا .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : فتكة .

(٤) وردت فى المخطوطين : (وريب النكثة — النكنه) . والمرجح أنه تحريف ما أثبتنا .

(٥) الرسن هو الحبل .

(٦) وردت فى المخطوطين : سبتا .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » سعادته .

(٨) وردت فى المخطوطين : فأرجوه .

مُوَلْوِلةٍ (١)، وتافِلة، ومعوِّذة؛ قد جعلوا به سيفاً مُصْلتاً على سبيل اللَّواعب بالنُّصول والرَّواقص، فى مدارج اللهو؛ واستُخرجت طبول الملك فقُرعت، وقِيدت الخيل من مرابطها فرُكبت، وقصَرت الخزائن عن الأسلحة ففرقت، ؛ وتم الأمر، وحل من الريب على دار الإمارة القصد، وخرجت الكتب إلى البلاد والقواعد، فالتقت باليد أمهاتها لقطع من بها من أُولى الأمانة، بتمام الأمر، وهلاك السلطان؛ فتم له الأمر، وبادر أخوه السلطان لحينه (٢) لظهر سابقٍ كان مرتبطاً عند مَجرٍّ (٣) له من الجنة لِصق القلعة، فاستأجر الليل، ووافق الحزم، فاستقر بوادى آش. وكان أمْلكَ بها، ونازلته المحلات، وأخذ بمخنَّقه الحصص، واستُنصر لمنازلته الناس، وأُعملت الحيل؛ وتأذَّن الله بثبوت قدمه، وانتقاله إلى مَلِك المغرب صبح عيد النَّحر من العام المذكور؛ إلى أن أعاد الله إليه أمره وردَّ عليه حقه، وتولى بعد اليأس جبْره، حسبما يذكر فى موضعه إن شاء الله.

وخلا الجو لهذا الأمير المضعوف، واستولى على أريكة المُلك الأغمارُ وأُولو البطالة، وأولياء (٤) صهره الرئيس، خاطِبها له ابتداءً ثم ناقلها (٥) إلى نفسه انتهاءً، وحاملها إلى غايته دَرَجاً، وإلى إعاقته سُلَّماً؛ وهو ما هو من غش الحبيب، وسوء العقد، ودَخَل السريرة، واستيطان المكروه، فأغرى منه بالعهد نفساً مطاوعةً للشهوة، متبرِّمة بالامتحان والخَلْوة، بريَّة [من] (٦) نور العلم وتهذيب الحكمة،

---

(١) هكذا فى « ج ». وفى « ك »: ملولة.

(٢) رسمت فى « ج » هكذا: لحر. ومكانها بياض فى « ك ». وقد رجحنا التصويب لاتساقه مع المعنى.

(٣) وردت فى المخطوطين: بمتجرا. ونعتقد أن التصويب يتفق مع السياق.

(٤) رسمت فى المخطوطين ناقصة: ولا.

(٥) وردت فى المخطوطين: نقلها. وبالتصويب يستقيم السياق.

(٦) ساقطة فى المخطوطين.

ناشئة بين أخابيث القسوة ، جانيةً أمانى الشهوة والمخالفة ، مضادَّة للفلاح[١] ، حايدة عن سبيل النجاة ، بمحل اغتراب عن النُّصحاء ، وانتباذ عن مقاعد الأحرار ؛ فجرى طَلْق الجموح فى التخلف ، حتى كبا لِفيه و يديه ، وأعان نسمَة السوء الرئيس على نفسه ؛ وقد كان اصطنع الرجال ، واستركب أُولى البسالة ، وأسالف الدعرة ، واختص فى سبيل خدمته والذب عنه ، بالبؤساء والمساعير ، يُشركهم فى الأكلة. و يصافيهم النعمة . وأظلم ما بينهما ، فحذِرَ كل جانب أخيه ، إلا أن المهين كان استأثر بخطة المعالجة واهتدى[٢] إلى سبيل الحزم . وفى عشىّ يوم الأربعاء [السابع والعشرين][٣] من شهر شعبان شارفه من مَكْمن[٤] غدره الرَّحب بجوار قصره ، وارتبط به الخيل واستكثر من الحاشية ، وأخفى المساعير ، وداخل المَوْرورى[٥] المشئوم على الدولة ، فبادر رجاله سدَّ الأبواب ، وانخرط فى جملة أو باشه من باب السلطان ، من الرَّجْل لنظر مماثله فى العنا ، وعونه على الهول المورورى ، فأحاط به ، وقد بادر الاعتصام بالمصنع ثانى الصرح المنسوب إلى هامان سموًّا ونفالاً فى السُّكاك[٦] وسعة ذرع . و بعد ما رقى وصرخ بالناس ، يناشدهم الذِّمام ، فخف إليه منهم الكثير ، وترا كموا بالطريق تحته ، وتولى استنزاله عن سِويّه مملوك أبيــه ، العِلج المخذول عبَّاد ، وقد تحصَّل فى قبضته الغادر ، ففَتَل له فى الغارب والذِّروة ، ووعده الحياة ، فنزل عن أمان فُسحة الغَدْر الصَّراح ، والوفاء المُسْتباح . ولحين استهاله ، أمر نقله[٧] إلى المُطْبَق ، فقِيد مُختبلاً كثير الضراعة ، إلى الأرِىّ[٨] لِصق قصره ، وتعاوَرَتْه

(١) وردت فى « ك » . وأغفلت فى « ج » .

(٢) وردت فى المخطوطين : ويهتدى . والتصويب متفق مع السياق .

(٣) تاريخ اليوم ساقط فى المخطوطات الثلاثة . وقد اكملناه من اللمحة البدرية .

(٤) وردت فى المخطوطين : ممكن .

(٥) نسبة إلى بلدة مورور . وهى من قواعد الأندلس القديمة وتقع جنوب شرقى إشبيلية و بالإسبانية Moron

(٦) السكاك هنا أى الجو .

(٧) وردت فى « ج » نبله . وفى « ك » تبله .

(٨) الأرى هو محبس الدواب .

السيوف ، وأُلحق به صغيره قَيْس ، استُخرج من بعض الخزاين ، وقد جَهَدت[١] أُمه فى إخفائه ؛ فمضى لسبيله ، وطُرح رأسه على الرعاع المجيبين لندائه ، فانفضوا لحينه ، و بقى مطروحاً موارى ، بِحِلْس[٢] دابّة من دواب الظهر ، إلى يوم بعده ، فوورى هو وأخوه بمقربة من مدفن أبيهم ، فكان من أمرهما عبرة . وقد استوفى [هذا][٣] الكتاب المسمى « بنُفاضة الجراب » من تأليفنا .

وزراء دولته

قدّم للوزارة عشية[٤] يوم ولايته، محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح الفهرى، بطالع الشؤم ، ونَعْبة النحس . عهدى بالطبيب الإسرائيلى الحبرى العظيم المهارة [فى الفن النجومى][٥] ، إبراهيم بن زَرْزار ، يتطاير بتلك الولاية بكَوْن النَّحس الأعظم فى درجة طالعها ، جِذْواً انفرد بنَحْز أديمه الجُهَّالة ، المعدودون فى البَهْم والهَمَج[٦] ، الذين لا يعبأ الله بهم ؛ فكان الخبر ، وفوق الخبر ، فلم يُر فى الأندلس وزارةٌ أثقل وطأة ، ولا أخبث عهداً ، ولا أعظم شرَهاً ، ولا أكثر حَجْراً منها . ثم كان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين من رجل حَبرْكة[٧] ، كَمِد اللون ، تنطِف سحنته مرّةً وسُمًّا ، غائر العين مطأطئ الرأس ، طَرِفٌ بعيدٌ فى الحقد والطمع ، وعىّ المنطق ، وجمود الكف ، معدنٌ من معادن الجهل ، مثلٌ فى الخيانة ؛ تناول

---

(١) وردت فى المخطوطين : جهد .

(٢) الحلس هو كساء الدابة .

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وقد أضفناها ليستقيم السياق .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » عشى .

(٥) هذه العبارة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٦) وردت فى المخطوطين : المهج . وهو تحريف لا يستقيم مع السياق .

(٧) هكذا رسمت فى المخطوطين . ولكن الرسم الشائع هو « حبركى» . والرجل الحبركى هو : الطويل الظهر القصير الرجلين ، يكاد يكون مقعداً من ضعفهما .

الأمر مُزاحماً فيه بالرئيس المتوثب ، وابن عم نفسه ، الغادر ، الضخم الجرارة ، بالوَعْث المهين ، وثور النقل ، وثعبان الفواكه ، وصاعقة الأخْوِنة(١) ، ووكيل الدولة المنحط عن خلالهم بالأبوّة والنشأة ؛ فجرت أمورها أسوأ مجاريها ، إلى أن كان ما أذن الله به ، من مداخلة الرئيس الغادر ، على قتل أميره المسكين المَهين ، مقلده [أنْوَه الرتب](٢) ، وتاركه وخطة الخيانة ؛ ثم أخذه الأخْذَة الرابية بيد من أمدَّهُ فى الغى ، وظاهره فى الخزى ، فجعله نكالاً لمـا بين يديه وما خلفَه ، وموعظةً للمتَّقين ، حسبما يأتى فى اسمه بحول الله تعالى .

كاتبـه

واستعمل فى الكتابة صاحبنا الرجل الأخرق ، الطُوال ، الأهوج ، البرىّ من الخلال الحميدة ، إلا ما كان من وَسَط الخط وسوقىّ السجع ، والدرك الأسفل من النظم ، عبد الحق بن محمد بن عطية المحاربى ، الآتى ذكره . وهو الذى أفرده الله جل جلاله ، بالغاية البعيدة من مجال سوء العهد ، وقلة الوفاء . وتولى له القضاء ، أبو جعفر أحمد بن أبى القاسم بن جُزَى أياماً ، ثم شَهَّر به قوم من الفقهاء منافسيه ، ورشقوه بما أوجب صرفه ؛ وَقَدّم للقضاء الشيخ المُسِن(٣) ، الطويل السِّباحة فى بحر الأحكام ، المُفرى الوَدَجَين والحلقوم بسِكّين القضاء ، المنبور(٤) بالموبقات فيه ، تجاوز الله عنه ، سَلْمون بن على بن سلمون . وشيخ الغزاة على عهده ، يحيى بن عُمر بن عبد الله بن عبد الحق ، شيخ الغزاة لأخيه ، أصبح يوم الكائنة فى قياده ، ونصح له فأمر له ، وضاعف برّه .

---

(١) جمع خوان وهو المائدة .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى « ك » . وفى « ح » : أبوه الرتبة .

(٣) وردت فى المخطوطين : الحسن .

(٤) أى المعروف والمشهور .

الملوك على عهده (١)

مولده

فى يوم الإثنين الثامن والعشرين لربيع الأول من عام أربعين وسبعمائة .

« وفاته »؛ حسبما تقرر آنفاً فى يوم الأربعاء [السابع والعشرين](٢) لشعبان من عام أحد وستين وسبعمائة .

أبو بكر بن إبراهيم ، الأمير أبو يحيي المَسُوفى (٣) الصحراوى

من أمراء المرابطين ، صِهرُ علىّ بن يوسف بن تاشُفين ، زوج أخته ، وأبو (٤) ولده منها يحيي ، المشهور الكرم .

« أوّليَّته » ؛ معروفة تُستقرأ (٥) عند ذكر ملوكهم .

حـاله

كان مثلاً فى الـكرم ، وآيةً فى الجود(٦) ، أنْسَى أجواد الإسلام والجاهلية إلى الغاية ، فى الحياء والشجاعة والتَّبريز فى ميدان الفضائل . استوزر الوزير الحـكيم الشهير أبا بكر بن الصائغ ، واختصه؛ فتجمَّلت دولته ونَبُـه قدره. وأخباره معه شهيرة.

---

(١) هذا العنوان ثابت فى المخطوطين . ولكن لم يثبت بعده شىء . وهذا هو الشأن أيضاً فى اللمحة البدرية .

(٢) تاريخ اليوم ساقط فى المخطوطات الثلاثة .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : المسبوفى . وهو تحريف الكلمة (المسوفى) نسبة لقبيلة «مسوفة » إحدى بطون صنهاجه .

(٤) وردت فى المخطوطين : فبنوا .

(٥) وردت فى المخطوطين : تستقر .

(٦) وردت محرفة فى المخطوطين : (أجود . جود) .

ولايتـــه

وُلّى غَرناطة سنة خمسمائة . ثم انتقل منها إلى سَرَقُسْطة ، عند خروج المستعين ابن هود [إلى] روطة(١) . فأقام بها مراسم المُلك ، وانهمك فى اللذات، وعكف على المُعاقرة ، وكان يجعل التّاج بين ندمائه ، ويتزيّا بزى الملوك ، إلى أن هلك بها تحت مضايقة طاغية الروم المستولى عليها بعد .

خروجه من الصحراء

قال المؤرخ : كان أبو بكر هذا رئيساً على بعض قَبيلِه فى الصحراء ، وكان ابن عمه منفرداً بالتدبير ؛ فاتفق يوماً أن دخل على ابن عمه فى خبائه(٢) ، وزوج ابن عمه تمتشط (٣) فى موضع قريب من الخباء ؛ فاشتغلت نفسُ أبى بكر بالمرأة لحسنها وجمالها ، فحين دخل قال لابن عمه ، فلانة تريد الوصول إليك ؛ وإنما قصد الاستئذان لرجل من أصحابه ، فنطق باسم المرأة لشُغْل باله بها ؛ فقال له ابن عمه بعد طول صَمْت وفكرة ، وقد أنكر ذلك ، عهدى بهذا الشخص لا يستأذن علينا . فرجع عقله ، وثاب لبُّه وعلم قدر ما من القبيح وقع فيه ، فخرج من ذلك المجلس ، وركب جمله ، وهان عليه مفارقة وطنه من أجل العار ، واستصحب نفراً قليلا من من أصحابه على حال استعجال ، ورحل ليلا ونهاراً ، حتى وصل سِجِلْماسَة (٤) أولى عِمالات على بن يوسف بن عمه ؛ واتصل به قدومه، فأوجب حقَّه، وعرف قدره، وعقد له على أُخته ، وولاّه على سَرَقُسْطة دار ملك بنى هُود بشرق الأندلس ، بعد ولاية غرناطة .

---

(١) روطة Rueda قاعدة أندلسية قديمة تقع على نهر خالون غربى سرقسطة ، وكان يلجأ إليها بنو هود لمناعتها كلما شعروا بالخطر على ملكهم ، وما تزال بها أطلال حصنها الأندلسى .

(٢) وردت فى المخطوطين : خباء .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : تمشط .

(٤) سجلماسة من قواعد المغرب القديمة . وهى تقع جنوبى فاس .

نبذة من أخباره فى الكرم

قالوا؛ لما حل بظاهر سِجلماسة ، مجهول الوفادة ، خافى الأمر ، نزل بظلّ نخلة بظاهرها ، لا يعرف أحداً ولا يقصده، فجاء فى ذلك الموضع رجل حداد فقراه[١] بعَنْز[٢] كان له ، وتعرف له ، وأبو بكر يستغرب أمره ؛ فلما فرغوا من أكلهم ، قال للحداد ألا تصحبنا لموضع أملِنا ، وتكون أحد إخواننا ، حتى تحمد لقاءنا ، فأجابه ؛ وصحبه الحداد ، وخدمه ، فلما قربُوا من مرَّاكُش ، استأذن أبو بكر ، علىّ ابن يوسف بن تاشفين ، وأعلمه بنفسه ، فأخرج له علىّ بن يوسف فرساً من عتاق خيله ، وكسوة من ثيابه وألف دينار ، فأمر أبو بكر بدفعها للحداد فبُهتَ الحداد ؛ وانصرف الرسول مُوجَّهاً إلى مرسله فأخبره بما عاين من كرمه وفعله ، فأعاده إليه فى الحين بفَرَسٍ أخرى ، وكِسًى كثيرة ، وآلافٍ من المال ؛ فلما دخل مرَّاكُش ، ولقى علىّ بن يوسف وأنزله ، أنزل الحداد مع نفسه فى بيت واحد ، وشاركه فى الأموال التى توجّب بها[٣] ، فانصر يجرّ وراءه دنيا عريضة .

ولما ملك سَرَقُسطة ، اختصّ الوزير الحكيم أبا بكر بن الصائغ[٤] ، ولطُفَ منه محله . ذكر أنه غاب يوماً عنه وعن حضور مجلسه بسرقسطة ، ثم بَكَّر من الغد ؛ فلما دخل قال له اين غِبْتَ يا حكيم عنا ؟ فقال يا مولاى أصابتنى سوداء واغتممت ، فأشار إلى الفتى الذى كان يقف على رأسه ، وخاطبه بلسان عجميّة ، فأحضره طبقاً مملوءاً مثاقيل مُحْشَمة[٥] وعليها نوادير ياسمين [فدفعه][٦] كله إليه ، فقال ابن باجة ،

---

(١) أى أضافه وأكرمه .

(٢) وردت فى المخطوطين : لعمر .

(٣) أى خص بها .

(٤) سبق التعريف به . (انظر الحاشية فى ص١٩٦) .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ل » محشيمة .

(٦) ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

يا مولاى لم يعرف جالينوس من هـذا الطِّبّ ، فضحك .

وذكر أنه أُنشد شعراً فى مدحه ، وقد قعد للشراب ، فاستفزَّه الطرب ، وحَلَف أن لا يمشى إلا من فوق المال إلى منزله فى طريقه ، فالتمس الخُدام بُرْنُسه بأن كانوا يطرحون من المال شيئاً له خطر ، على أوعيته حتى يغمرها ، فيمشى خَطْوًا إلى أن وصل إلى منزله ؛ وحسد الحكيم أصحابه ، ولم يقدروا على مطالبته . واتفق أن سار الأمير أبو بكر ، وأمر أصحابه بالتأهب والاستعداد ، فاستعد ابن باجة ، واتخذ الأَقْبية والأَخْبية ، واسْتَفْرَه [1] الجياد من بغال الحمولة ، فكانت له منها [2] سبعة صُفر الألوان ، حمل عليها الثياب والفرش والمال ؛ فلما نزل الأمير بمقبرة ، مرّت عليه البغال المذكورة فى أجمل الهيئات ؛ فقال لجلسائه لمن هذه البغال ، ومن يكون من رجالنا هذا ؛ فأصابوا العزّة ، فقالوا هى للحكيم ابن الصائغ صاحب سرقسطة ، وليعلم مولانا أن فى وسط كل حِمل منها ألف دينار ذهباً سوى المتاع والعدة ؛ فاستحسن ذلك . وقال أهذا حق ؟ قالوا نعم ، فدعا الخازندار على المال ، وقال له ادفع لابن باجة خمسة آلاف دينار ليُكْمل له ذلك اثنى عشر ألفاً ؛ فقد سمعته غير ما مرة يتمنى أن يكون له ذلك ؛ ثم بعث عنه فى الحين وقال له ، يا حكيم ما هذا الاستعداد ، فقال له يا مولاى كل ذلك من هِباتكم وأعطِياتِكم ولِما عَلمتُ أن أظهار ذلك يسركم به ، فسر بذلك . وأخباره رحمه الله كثيرة .

محنته

قالوا ، ولما وُلّى غرناطة سنة خمسمائة ، ثار بها ، وانبرى على قومه لأمر رابه [3] فانتبذ عنه قومه [4] . وناصبوه الحرب ، حتى استنزلوه عَنوة ، وقبضوا عليه ، ووجّهوه

(١) وردت فى المخطوطين : واستفر .

(٢) وردت فى المخطوطين : منه .

(٣) فى المخطوطين : اربه .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » أهله ، والمؤدى واحد .

الى على بن يوسف ، فآثر الإبقاء عليه ، وعفا عنه ، واستعمله [١] بسرقسطه ؛ كذا ذكره الملاَّحى ، وأشار إليه ، وعندى أن الأمر ليس [٢] كذلك ، وأن الذى جرى له ذلك، أبو بكر بن على بن يوسف بن تاشُفين فيُتَحَقَّق .

وفاته

توفى بسرقسطة فى سنة عشر وخمسمائة بعد أن ضاق ذَرْعُه بطاغية الروم ، الذى أناخ عليه بكلكله . وعندما تُعرّف خبر وفاته ، واتصلت بالأمير أبى إسحاق إبراهيم ابن تاشفين ، وهو يومئذ والى مُرْسِية ، بادر إلى سرقسطة ، فَضَبَطها ، ونظر فى ساير أمورها ، ثم صدر إلى مرسية .

رثاؤه

ورثاه الحكيم أبو بكر بن الصائغ بمراث اشتهر عنه منها قوله :

سلام وإلمام ووسمىٌّ مُزْنَةٍ ... على الجَدَث[٣] الثانى الذى لا أزوره
أحقٌّ أبو بكر تقضَّى فلا ترى ... تردُّ جماهير الوفود ستوره
لئن أنِسَت تلك اللُّحود بلَحْده ... لقد أوْحَشَت أقصاره وقصورُه

ومن ذلك قوله :

أيها الملك المُفَدَّى لعَمْرى ... نعى المجدُ ناعيك يوم قمنا فَنُحْنا[٤]
كما تقارعتَ والخطوبَ إلى أن ... غادرتك الخطوبُ فى التُّرب وهنا[٥]

---

(١) هكذا وردت فى «ك» . وفى « ج » : واستعملوه .

(٢) وردت هذه الكلمة فى « ك » وأغفلت فى « ج » .

(٣) فى المخطوطين : الحدث .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » . فبحنا .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : رهناً .

غير أنى إذا ذكرتك والدهـــر أخال اليقين فى ذاك ظَنَّا[١]
وسألنـــا متى اللقاء فقيل الحَشْـــر قلنا صبراً إليـــه وحُزْنا

إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، أمير المؤمنين الملقب بالمأمون ، مأمونُ الموحدين

أوليتـــــه

جَدُّه[٢] عبد المؤمن ، جِذع الشجرة ، ويُنبوع الجـداول ؛ هو ابن على بن علوى بن يَعْلَى بن موار بن نصر بن على بن عامر بن موسى بن عَون الله بن يحيى بن ورجانع بن سطور بن تفور بن هطهاط بن هودج بن قيس بن عَيلان بن مُضر بن نِزار بن معدّ بن عدنان . وكان طالباً بربرياً ضعيفاً ، خرج مع عمه يؤم للشرق ، وكان رأى رؤيا هالَتْه تدل على مُلك ، إذ كان صفحتُه من طعام على رُكبتيه ، يأكل منها الناس ، وكانت أمه رأت وهى حاملٌ ، كأنّ ناراً خرجت منها أحرقت المشرق والمغرب ؛ فـكانت فى نفسه حركة ، لأجل هـذه الرؤيا ؛ فلما حل بسِجلْماسة[٣] ، سمع بها عن المهدى ، وكان رجلًا يُعرف بأبى عبد الله السُّوسى ، ووُصِف له بالعـلم ، فتَشَوَّف إلى لقائه ، ليرى ما عنده فى تأويل رؤياه ؛ فانصرف إليه مع بعض الطلبة ، فلقِى رجلا قد وسمه ، على ما يزعم الناس ، حِدْثان من أبى حامد الغزالى ، وعَلَقت به دعوة منـه ، فى إذهاب مُلْكِ أهل اللِّثَامِ ، لحرق

---

(١) فى المخطوطين : ضنا .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : جدهم .

(٣) سبق التعريف بها (ص ٤١٣) .

كتابه[١] على أيديهم ، فهو مُغرًى بالخروج عليهم ، مهيأٌ[٢] فى عالم الغيب إلى تخريب دعوتهم ؛ فوافق شنٌّ طَبَقَه « وما اجتمع[٣] الدّا آن إلا ليقتتلا »[٤] والله غالب على أمره . فأجلسه ، وسأله عن اسمه ، و بلده ، وسنه ، ونسبه ، بالتعريف ؛ وأمره أن يخفى من أمره ، وعبّر له رؤياه ، بأنه يملك الأرض ؛ فاهتزّت الآمال وتعاضدت ، ونفذت مشيئةُ الله ، بأن دالت الدولة ، وهلك محمد بن تومرت[٥] المهدى ؛ فأفضى الأمر [إلى عبد المؤمن][٦] ، واستولى على مُلْك اللّمْتُونيين ، فأباد خَضْراءهم ، واستأصل شأفتهم ، واستولى على مُلك المغرب ، فأقام به رسماً عظيماً ، وأمراً جسيماً ، وأورثه بنيه من بعده ، والله يُؤتى مُلْكه من يشاء .

حاله

كان رحمه الله شهماً شجاعاً ، جريئاً[٧] ، بعيد الهمة ، نافذ العزيمة ، قوىّ الشكيمة ، لبيباً ، كاتباً أديباً ، فصيحاً ، بليغاً ، أبيًّا ، جواداً ، حازماً . وذكره ابن عسكر المالَقى ، فى تاريخ بلده ؛ قال [دخل][٨] مالقة من قِبَل أخيه ، فوصل إليها فى الحادى عشر من مُحرم ، وهو شاب حَدَث ، فكان منه من نباهة القَدْر وجلالة النفس ، وأُبَّهة المُلْك ، ما يعجز عنه كثير من الملوك . ولحين وصوله عقد مجلس مذاكرة ، استظهر[٩] له نبهاء الطلبة ، وكان الشيخ على بن عبد المجيد

---

(١) أهل اللثام أو الملثمون ، هم المرابطون . وكان على بن تاشفين قد أمر بإحراق كتاب الإمام الغزالى : « إحياء علوم الدين » ، وتكفير مؤلفه .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : مهيئاً .

(٣) فى المخطوطين : أجمع . والتصويب يقتضيه السياق .

(٤) هكذا وردت فى « ج ». وفى « ك » : ليلتقيا ، والأولى أرجح للسياق .

(٥) وردت فى المخطوطين : تامرت . وهو رسم آخر لاسم المهدى .

(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : لعبد المؤمن .

(٧) فى المخطوطين : جرياً .

(٨) ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٩) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : استحضر .

يحضره . وكان يبدو منه مع حداثة سنه ، من الذكاء والنبل والتفطُّن ، ما كان يُبْهت الحاضرين ، وكانوا ينظرون منه إلى بَدْرِىّ الحسن ، وأسَدِىّ الهيبة ، وكهلىّ الوقار والتُّؤدة ؛ واشتغل بما يشتغل به الملوك من تفخيم البناء ، كبنيان رياض السيِّد الذى على ضفة الوادى[١] بمالَقَة المعروف باسمه ، لله ورسوله ، وكان عُرفاء البنَّائين لا يتصرفون إلا بنظره ؛ واستمرت ولايته ، مُفَخَّم الأمر ، عظيم الولاية ، إلى أن نُقل منها إلى قرطبة ، ثم نقل إلى إشبيلية ، وفيها[٢] بويع بالخلافة .

تصيُّر الأمر إليه ، وجوازُه إلى العُدْوة

قام على أخيه العادل بين يدى مقلعة ، بممالأة أخيه السيد أبى زيد ، أمير بَلَنْسية ، وتحريكه إياه ، فتم له ذلك ، وعُقدت له البيعة بمرَّاكُش والأندلس . ثم إن الموحِّدين فى مراكش بدا لهم فى أمره ، وعدلوا عنه إلى ابن عمه أبى زكريا ابن الناصر ؛ واتصل به خبر خلعهم إياه فهاجت نفسُه ، وَوَقَدت جَمْرَتُه ، واستعدَّ لأخذ ثاره ، ورحل من إشْبِيليّة ، واستصحب جمعاً من فرسان الروم ، واستَجاز البحر سنة ست وعشرين وستمائة ، قاصداً مراكش ؛ وبرز ابن عمه إلى مدافعته ، والتقى الجَمْعان فكانت الهزيمة على يحيى بن الناصر ، وفر إلى الجبال ، واستولى القتل على جيشه . ودخل المأمون مراكش فأمر بتقليد شُرفاتها بالرءوس ، فعَمَّتها على اتساع السّاحة ؛ واستحضر النّاكثين لبيعته وبيعة أخيه ، وهم كبار الدولة ، واستَفْتى قاضيه بمرأى[٣] منهم ، واستحضر خطوطهم وبيعاتهم ، فأفتى بقتلهم ، فقتل جماعتهم ، وهم نحو مائة رجل ؛ واتَّصل البحث عمَّن أفْلَت منهم ، وصرف عزمه إلى محو آثار دولة الموحِّدين ، وتغيير رسمها ، فأزال اسم مَهْديها من الخطبة

---

(١) يقصد بالوادى هنا نهر « وادى المدينة » Guadalmedina الذى يخترق ثغر مالقة . وقد أجدبت ضفافه اليوم .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، وبها .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : برى .

والسِّكة والمآذن ، وقطع النداء عند الصلاة ، « فتازلت الإسلام » وكذلك « منسوب رب » « و بادرى »[١] وغير ذلك ، مما جرى عليه عمل الموحدين ؛ وأصدر[٢] فى ذلك رسالة حسنة ، من إنشائه ، يأتى ذكرها فى موضعه . وعند انصرافه من الأندلس، خلا للأمير أبى عبد الله بن هُودْ الجو ، بعد وقائع خلت بينهما ، وانتهز النصارى الفرصة ، فعظُمت الفتنة ، وجلّت المحنة .

دخوله غرناطة

لم يصح عندى أنه دخل غرناطة ، مع غَلَبَة الظن القريب من العلم بذلك ، إلا طريقه إلى مدافعته المتوكل بن هُود بجهة مُرسية ؛ فإنه تحرك لمعالجة أمره فى جيش إشبِيليّة باستدعاء أخيه السيد أبى زيد إلى بَلَنْسِية ، بعد هزائم جرت بصُقع[٣] الشرق لابن هود ؛ فتحرك المأمون إليه ، واحتلَّ غرناطة ، فى رمضان من عام خمسة وعشرين وستمائة ، وأنفذ منها كتابه إلى أخيه ، يقوِّى بصيرَته ، ويُعلمه بنفوذه إليه ؛ والتفّ عليه جيش غرناطة وما والاها ، واتصل سيرُه إلى الشرق ، فبرز ابن هُود إلى لقائه ، فكان اللقاء بخارج لُورَقَة[٤] ، فانهزم ابن هود ، وفرّ إلى مرسية ، وعساكر الموحِّدين فى عَقِبه ؛ واستقصاء مثل هذا يخرج عن الغرض .

وخاطب لأول أمره ، وأخذ الناس ببيعته ، من بأقطار الأندلس ، صادعاً بالأمر بالمعروف ، والنَّهى عن المنكر ، والحضِّ على الصلوات و إيتاء الزكاة ، و إيتاء الصدقات ، والنهى عن شرب الخمر والمسكرات[٥] ، والتحريض على

---

(١) هذه العبارات فيما يبدو ، بربرية الأصل .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : واصدل .

(٣) وردت فى « ك » كالمعتاد : بسقع .

(٤) لورقة من القواعد الأندلسية القديمة . وهى تقع جنوب غربى مرسية فى الطريق إلى غرناطة . وبالإسبانية Lorca .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : المسكر .

الدعاية[١] . فمن كتابه : « الحمد لله الذى جعل الأمر بالمعروف ، والنَّهى عن المنكر ، أصْلَين يتفرع منهما مصالحُ الدنيا والدين ، وأمر بالعدل والإحسان، إرشاداً إلى الحق المُبين؛ والصلاة [والسلام][٢] على سيدنا محمد [النبى][٣] الكريم ، المبعوث بالشريعة التى طهرت الجيوب من الأدران، واستخدمت بواطن القلوب وظواهر الأبدان، طوراً بالشدة ، وتارة باللين ؛ القائل ، ولا عدول عن قوله : « ومن اتَّقى الشُّبُهات استبرأ لدِينه وعِرضه » تنبيهاً على ترك الشَّك لليقين ؛ وعلى آله أعلام[٤] الإسلام ، المُلقِين راية الإسلام باليمين ، الذين مكَّنهم الله فى الأرض ، فأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ، وفاءً بالواجب لذلك التمكين .

ومن فصلٍ : « وإذا كنا نوفى الأمة تمهيد دنياها ، ونُعنى بحماية أقصاها وأدناها، فالدين أهمُّ وأولى ، والتهمُّمُ [بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها][٥] ، أحقُّ أن يُقدم[٦] وأحرى ، وعلينا أن نأخذ بحسَب ما يأمر به الشرع ونَدَع ، ونتبع السُّنن المشروعة ونَذَر البِدَع . ولنا أن لا ندخر عنها نصيحة ، ولا نغبنها أداة[٧] من الأدوات مريحة ، ولنا عليها أن تطيع وتسمع » .

ومن فصلٍ : « وأول ما يتناول[٨] به الأمرُ النافذ ، الصلاةُ لأوقاتها ، والأداء لها على أكمل صفاتها ، وشهودها إظهاراً لشرائع الإيمان فى جماعتها . فقد قال عليه الصلاة[٩] والسلام : أحبُّ الأعمال إلى الله الصلاة لأوقاتها . وقال : أول ما يُنظر

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الرعاية . والأولى أرجح .

(٢) ساقطة فى المخطوطين .

(٣) واردة فى « ج » ، وساقطة فى « ك »

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الأعلام .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . ووردت فى « ك » كما يأتى : (بإحياء الشريعة وإقامة شعائرها) .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يقوم .

(٧) وردت فى المخطوطين : إدارة .

(٨) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » ، تناول .

(٩) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

فيه من أعمال العبد الصلاة . وقال عُمر : إن أهمَّ أموركم عندى الصـلاةُ فمن حَفِظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيّعها فهو لما ســواها أضْيَعُ . وقال : لا حظَّ فى الإسلام لمن ترك الصلاة ، وهى الركنُ الأعظمُ من أركان الإيمان ، والأسر الأوثق لأعمال الإنسان ؛ والمواظبة على حضورها فى المساجد ، وإيثارُ ما لصلاة الجماعة من المزية على صلاة الواحد ، أمرٌ لا يضيعه المفلحون ، ولا يحافظ عليها إلا المؤمنون . قال ابن مسعود رضى الله عنه : لقد رأينا ، وما يتخلف عنها إلا المنافقون معلومو(١) النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى يتهادى بين الرَّجُلين ، حتى يقام(٢) فى الصَّف . وشهود الصبح ، والعشاء(٣) الآخرة شاهد بمحضر الإيمان . ولقد جاء : حضور(٤) الصبح فى جماعة يَعْدِل قيام ليلة ، وحسبكم بهذا الرُّجحان . ومن الواجب أن يُعتنى بهذه القاعدة الـكبرى من قواعد الدين ، ويأخذ(٥) بها فى جميع الأمصار الصغيرُ والـكبيرُ من المسلمين ، ونيط فى إلزامها قوله عليه الصلاة والسلام : مُرُوا أبناءكم بالصلاة لسَبْع واضربوهم عليها لعَشْر سنين » . وهى طويلة فى معانى متعددة .

نثره ونظمه

ولما غيّر رسوم المُوحِّدين ، وأوقع بأرباب دولتهم خـبرُ النكث ببيعته ، وبيعتى أخيه وعمه، كتب إلى الأقطار عن نفسه، ولم يُكمل إنشاءه بـكتابة رسالة بديعة اشتملت على فصول كثيرة تُنظر فى كتاب « المغرِب » و« البيان المُغْرِب» وغير ذلك . وكِتابه بخطه إلى أهل انْدُوجَر(٦) : « إلى الجماعه والـكافة من أهل فلانة ، وقاهم الله عثرات

---

(١) وردت فى المخطوطين : معلوم . والتصويب يستلزمه السياق .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يقوم .

(٣) وردت فى المخطوطين : وعشاء .

(٤) هكذا فى « ح » . وفى « ك » : شهود . والمؤدى واحد .

(٥) وردت فى المخطوطين : ويؤخذ . والتصويب لازم للسياق .

(٦) هى بلدة أندلسية تقع فى شمال شرقى قرطبة على نهر الوادى الكبير . وبالإسبانية Andujar

الألسنة ، وأرشدهم إلى مَحْو السيئة بالحسنة ؛ أما بعد فإنّه قد وصل من قِبلكم كتابكم الذى[١] جرّد لكم أسهم الانتقاد ، ورماكم من السُّهاد[٢] ، بالداهيــة السّاد ؛ أتعتذرون[٣] من المجال[٤] بضعف الحال ، وقلَّة الرجال . إذاً نُلْحقكم[٥] بربَّات الحِجال . كأنّا لا نعرف مناحى أقوالكم ، وســوء مُنْقَلبكم وأحوالكم ؛ لا جَرَم أنكم سمعتم بالعدوِّ قصمه الله ، وقَصْده إلى ذلك الموضع عصمه الله ؛ فطاشت قلوبكم خَوَراً ، وعاد صفوُكم كدراً ، وشَمَمْتم ريح الموت وِرْداً وصدراً ؛ وظننتم أنكم أُحيط بكم من كل جانب ، وأن الفضـاء قد غُصَّ بالتفاف واصطفاف المناكب ، ورأيتم غـير شىء فتخيَّلتموه طلائع الكتائب ؛ تبًّا لهمَّتكم المنحطَّة ، وشيمتكم الرَّاضية بأدْوَن خُطَّة ؛ أحين ندبتم إلى حماية إخوانكم ، والذبِّ عن كلمة إيمانكم ، نسّقتم الأقوال وهى مكذوبة ، ولفَّقتم الأعذار وهى بالباطل مَشوبة ؛ لقد آن لكم أن تتبدلوا جِلَّ الخُرْصان[٦] ، إلى مغازل النِّسوان ؛ وما لكم ولصَهَوات الخيول وإنما على الغانيات جرُّ الذيول . أتُظْهِرون العناد تخريصاً ، بل تصريحاً وتلويحاً ، ونظنُّ أن لا يجمع لكم شتًّا ، ولا يُدنى منكم نزوحاً . أين المفرُّ وأمر الله يدرككم ، وطلبنا الحثيث [لا][٧] يترككم ، فأزيلوا هذه النزعة النِّفاقيَّة من خواطركم ؛ ولا يغرنكم الإمهال ، أيُّها الجهّال» . وهى طويلة . وقال عند الإيقاع بالأشياخ أُولى الفساد على الدول ، وصلبهم فى الأشجار والأسوار[٨] ، مما كَلِف السَّلمى بحفظها واستظرافها :

---

(١) ساقطة فى « ك » .

(٢) هذا فى « ج » . وفى « ك » : الساد .

(٣) فى المخطوطين : أتعتدون . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) فى المخطوطين : المحال .

(٥) فى « ك » : انحقكم .

(٦) أى الرماح الدقيقة المرهفة .

(٧) ساقطة فى المخطوطين . ولازمة للسياق .

(٨) وردت فى المخطوطين : الصور .

أهلُ الحرابة والفساد من الورى يعزون فى التشبيه بالذُّكّار
ففساده (١) فيه الصلاح لغيره بالْقَطع والتَّعليق فى الأشجار
ذُكَّارهم ذِكرى إذا ما أُبصِروا فوق الجُذوعِ وفى ذُرَى الأغوار
لو عمَّ عفو الله سائر خَلْقه ما كان أكثرهُمُ من أهل النَّار

توقيعه

قال ابن عسكر؛ وكانت تصدر منه توقيعات نبيلة . فمنها أن امرأة رفعت (٢) رقعتها بأحد من الأجناد ممن نزل دارها ، وصدر لها أمر يُنْكر؛ فوقّع على رقعتها: « يُخرَج هذا النازل ، ولا يُعوَّض بشىء من المنازل» . وغير ذلك مما اختصرناه .

بنوه

أبو محمد عبد الواحد ولىُّ عهده ، وأمير المؤمنين بعد وفاته ، الملقب بالرشيد ؛ وعبد العزيز ، ومان ؛ وأبو الحسن على ، الملقب بالسعيد ، الوالى بعد أخيه الرشيد .

« بناته » ؛ ابنة العزيز ، وصفية ، ونجمة ، وعائشة ، وفتحونة ؛ وأمهات الجميع روميات ، وسُرِّيَّات مغربيات

وزراؤه

وزَرَ له الشيخ أبو زكريا بن أبى العُمرى وغيره .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ففاسدة .

(٢) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

« كُتّابه » ؛ كتب له جملة من مشاهير الكتاب، منهم [١] أبو زكريا الفازازى، وأبو المطرّف بن العُميرة ، وأبو الحسن الرُّعَينى ، وأبو عبدالله بن عيَّاش ، وأبو العباس ابن عُمران ، وغيرهم . وما منهم إلا شهير كبير .

وفاته

توفى رحمه الله بوادى أم الربيع [٢] وقد طوى المراحل من ظاهر سَبْتَة ، مُقلعا عن حصارها، مبادراً إلى مَرّاكُش، وقد اتصل به دخول يحيى بن الناصر إياها، فأعدّ السير وقد اشتد حَنَقه[٣] على أهلها ، وأقسم أن يُبِيح حِماها للرّوم ، ويُذهب اسمها ومُسَمّاها ، فهلك عند دنوه منها فجأة ، فكانت عند أهل مراكش من غُرَر الفرج بعد الشدة ؛ وكتمت زوجُه حُبابة الرومية ، أم الرشيد ولده ، خبر وفاته إلا عن الأفراد من قواد [٤] النصارى وبعض الأشياخ ، واتفق القول على مبايعة ابنها المذكور ، بيعةً خاصّة ثانى يوم وفاته ؛ ثم جعل فى هودج وأشيع أنه مريض ، وزحفت الجيوش على تَعْبِيته ؛ وبرز يحيى بن الناصر من مراكش إلى لقائه ، والتقى الجمعان فانهزم يحيى ، واستولى الرشيد عليه ، ودخل مراكش فاستقام الأمر ؛ وكانت وفاة المأمون أبى العَلا رحمه الله ، ليلة الخامس عشر لمحرم عام ثلاثين وستمائة .

وجرى ذكر المأمون والمهدى وأوّليّتهم فى الرجز المتضمن ذكر الدول المسلمة [٥] من نَظْمى بما نصه بعد ذكر الدولة اللّمتونية :

وَنَجَمَ المهدى وهو الدّاهية فأصبحت تلك المبانى واهية
وانحكَمَ الأمْرُ له وانجمعا فى خبر نذكر منه لُمَعَا

---

(١) فى المخطوطين : من .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : أم ربيع .
(٣) فى « ك » : خنقه .
(٤) وردت فى المخطوطين : عواد .
(٥) هو كتاب ابن الخطيب : « رقم الحلل فى نظم الدول » الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة .

لم يأل فيها أن دعا لنفسه   وكان فى الحزم فريد جِنْسه
أغرَب فى ناموسه ومذهبه   وفى الذى سَطَّره من نسبه
وعنده سياسةٌ وعلمٌ   وجرأةٌ وكرمٌ وحلمٌ (١)
ووافقت أيامُه فى الناس   لدولة المسْترشِد العبَّاسى
ثم انقضت أيامُه المُنِيفَة   وكان عبدَ المُؤْمن الخليفة
فضاءَ لونُ سَعْدِهِ ووضحا   ولاح مثل الشمس فى وقت الضُّحى
ثم تِلمْسان وفاساً فتحا   ومُلْك أصحاب اللثام (٢) قد محا

ولما انتهى القول إلى المأمون المترجم به ، بعد ذكر من يليه وعبد المؤمن (٣) جده ، قلت :

ثم تولى أمرهم أبو العَلا   فسلَّط البيض على بيض الطِّلا
وهو الذى أركب جيش الروم   وجدّ فى إزالة الرسوم

أسْباط بن جعفر بن سليمان بن أيوب بن سعد السَّعدى سعد بن بكر بن هوار الإلبيرى

هذا هو جدُّ سعيد بن جُودى ، بن سَوادة ، بن جُودى ، بن أسْباط ، أمير المغرب . وقدرهم بهذه المدينة شهير .

حاله

كان من أهل العلم والفقه، والدين المتين، والورع الشديد ، والصلاح الشهير .

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » وحزم .
(٢) هم المرابطون أو الملثمون كما تقدم .
(٣) وردت فى « ك » . وعبد الرحمن وهو سهو ناسخ .

نباهتـــــه

ولاّه الأمير عبد الرحمن قضاء إلبيرة حين بلغه زهده وورعه، وأنّه لم يَشْرِكْ إخوته فى شيء من ميراث أبيه، إذ كان لم يَحْضُر الفتْح، فبرئ به إليهم، وابتاع مَوْئلاً بوطنه أنيط به ماء، وانفرد به للعبادة والتبتُّل، فاستقْدَمه هشامُ؛ فركب حماره وقدِم عليه فى هيئة رثَّة بَذِلة، فتوسَّم فيه الخير، وقدّمه ووسَّع له فى الرِّزق، ووهب له ضياعاً كثيرة، تُعرف اليوم باسمه؛ وتُوفى هشام وهو قاضٍ بإلبيرة، فأقرّه ابنه الحكم ثم ولاَّه شُرطته، إلى أن توفى أسباط، قلت، انظر حال الشُّرطة عند الخلفاء مَنْ كان يُختار لها لولايتها [١].

أسلم بن عبد العزيز بن هشام بن خالد بن عبد الله بن خالد ابن حسين بن جعفر بن أسلم بن أبان

مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه؛ يكُنى أبا الجَعْد.

أوَّليتُـــــه

من أهل شرق الأندلس، أصلهم من لَوْشة فَتيّة غَرْناطة [٢] وموضعهم بها معروف، وإلى جدهم يُنْسب جبل أبى خالد المُطل عليها، وكان لهم ظهور هنـالك، وفيهم أعلام وفضلاء.

---

(١) وردت فى المخطوطين: لولاية.

(٢) لوشة هى بلد ابن الخطيب. وقد سبق التعريف بها فى المقدمة. وكان ابن الخطيب يسميها «بنت غرناطة» و «فتية غرناطة» اعتزازا بها.

حـــاله

كان أسلَم من خيار أهل إلبيرة ، شريف البيت ، كريم الأُبُوة من كبار أهل العلم ، وكانت فيه دُعابة ، لم يُنسب إليه قط بسببها خِزْية(١) فى دين ولا زَلَّة . قال أبو الفضل عِياض(٢) : كان أسلم من خيار أهل إلبيرة ، رفيعُ الدرجة فى العلم ، وعلوِّ الهمة فى الإدراك ، والرواية والدِّيانة ، والصُّحبة ، و بُعد الرِّحلة فى طلب العلم ، معروف النَّصيحة والإخلاص للأمراء .

مشـــيخته

لقِى بمصر ، المدنى ، ومحمـد بن عبد الحَكَم ، ويونس ، والربيع بن سليمان المؤذن ، وأحمد بن عبد الرحيم البُرْقى . وسمع من على بن عبد العزيز ، وسليمان ابن عمران بالقَيْرُوان .

« من روى عنه » : سمع من عثمان بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن يونس ، ومحمد ابن قاسم ، وغير واحد ؛ وانصرف إلى الأندلس من رحلته ، فنال الوجاهة العظيمة .

ولايتـــه

ولّاه قضاء الجماعة(٣) بغرناطة ، الناصرُ لدين الله ، أول ولايته ، وسط(٤) سنة ثلاثمائة ، إلى أن استعفى سنة تسع وثلاثمائة فأعفاه ، ثم أعاده . وكان فى قضائه

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : مرية .

(٢) هو فقيه المغرب الكبير الحافظ عياض بن موسى اليحصبى السبتى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) . وقد كتب عنه المقرى كتابه الضخم « أزهار الرياض فى أخبار عياض » . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .

(٣) قضاء الجماعة أعنى رياسة القضاء العليا . أو منصب قاضى القضاة .

(٤) هذه الكلمة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

صارماً لا هوادة عنده . قال المؤرخ ؛ كان الناصر يستخلفه فى سطح القصر إذا خرج إلى مغازيه . وحكى ابن حارث ، أن ابن‌معاذ وابن صالح أتيا يوماً، فلمَّا أخذا مجلسهما نظر إليهما، وقال ألقُوا[١] ما أنتم مُلْقون فأبْهَتهُما . ودخل عليه محمد بن وليد يوماً ، فكلمه فى شيء ، فقال أسلم سمعنا وعَصينا ، فقال ابن وليد ونحنُ قلنا واحتَسَبْنا . وأتاه فى بعض مجالسه شهود ، بعضهم من أهل المدينة بقرطبة ، و بعضهم من شُلار من الرَّبَض الشرقى ، يشهدون فى تَرْشيد امرأة من الرَّبض الغربى ، فلما أخذوا مجالسهم، فتح باب الخوخة التى فى المجلس الذى يجلس بدهليزه ، ونادى من بخارجه فاجتمعوا ؛ اسمعوا عجباً[٢] لله دَرُّ الشاعر حيث يقول :

راحت مُشَرِّقة ورُحت مغرِّبا　　　شـتَّان بين مُشرِّق ومغرِّب

هؤلاء من أهل المدينـة وشُلار، يشهدون فى ترشيد امرأة[٣] من ساكنات آخر بلاط مُغيث ؛ ثم سكت فدهَش القوم وتسللوا[٤] . و بلغه عن بعض الشهود المتهمين أنه أُرْشى فى شهادته ببِساط ، فلما أتى ليؤديَها ، ودخل على أسلم ، جعل يخلع نعليه عند المشى على بساط القاضى، فناداه : أبا فلان البِساط ، الله الله، فتنبّه بأن أمرَه عند القاضى ، ولم يجسر على أداء شهادته تلك . وخاصم فقيهٌ عند أسلم رجلًا فى خادم أغربها[٥] ، وجاء بشاهد أتى به من إشبيليّه ، فقال يا قاضى هذا شاهدى فاسمع منه ، فصعّد أسلم فى الشاهد وصوّب ، وقال أمحتسبٌ[٦] أو مكتسبٌ[٧] أصلحك الله ؛ فقال الشاهد أحسِن الظن أيها القاضى ، فليس هذا إليك ، هذا إلى الله المُطَّلع على ما فى القلوب ، ولم تقعد هـذا المقعد لتسأل عن هـذا وشَبَهه ، و إنما عليك الظاهر ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : أقوا . وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين : عجيباً .

(٣) وردت فى المخطوطين : امرأتين .

(٤) وردت فى المخطوطين : وتسلا .

(٥) وردت فى المخطوطين : أعربها .

(٦) محتسب أى مدخر أجره عند الله .

(٧) وردت فى المخطوطين : مستكب . وهو تحريف ظاهر .

وتَـكِلُ الباطن إلى الله ، فإن شئت ، فاسمع الشهادة كما يلزمنى أداؤها ، ثم اقبلها أو اضرِب بها الحائط . وفى رواية أخرى ، وليس لك أن تكشف السّتر المُنْسَدل بينك و بينى ، فإن هذا التفسير للشهود يوقِف عن الشهادة عندك ، و يعرِّضُ لإهانتك أهلَ لائقةٍ ، وفى ذلك من ضياع الحقوق ما لا يخفى ؛ فأخجل أسلم كلامُه ، وقال له ، لك ما قلت ، فأدِّ شهادتك يرحمك الله ، قال ، فأين الخادم تحضر حتى أشهد على عينها ، قال أسْلَم وفقيهٌ أيضاً ؟ هاتوا الخادم ، فجاءت من عند الأمين ، فلما مُثلَت بين يديه ، نظر منها ملياًّ ، ثم قال ، أعرفُ هذه[1] الخادم ملكا لهذا الرجل ، لا أعرف مِلْـكه زال عنها بوجه من الوجوه ، إلى حين شهادتى هـذه ، سلامٌ على القاضى ؛ ثم خرج ، فبقى أسلم متعجباً منه .

محنتُــــــه

كفَّ بصره فى أخريات أيامه ، فطلب لأجل ذلك الإعفاءَ فأُعفى ، ولزم بيته صابراً مُحْتَسباً إلى حين وفاته .

مــــولده

سنة إحدى وثلاثين ومائتين .

أسدُ بن الفُرات بن بشر بن أسَد المُرّى

من أهل قرية الصِير مورَته من إقليم البساط[2] من قرى غرناطة .

---

(١) وردت فى المخطوطين هذا .

(٢) وردت فى المخطوطين : الطين مورته . وهو تحريف. وقرية الصيرمورته هى قرية Sierra Murada الحديثة وتقع على مقربة من غرناطة .

حـاله

كان عظيم القَدْر والشرف والشهرة ، أصيل المعرفة والدين .

مشيخته

خرج إلى المشرق ، ولقى مالك بن أَنَس رضى الله عنه ؛ روى عنه سُحنون ابن سعيد .

تآليفـــه

ألف كتاب « المختلطة » ، ووُلّى القضاء بالقَيْروان أجمل ما كانت وأكثر علماً ، وولّاه زيادة الله[(١)] غزو صقلية ، ففتحها وأبلى بلاء حسناً .

وفاته[(٢)]

توفى رحمه الله محاصراً [سَرَقوسَة][(٣)] منها سنة ثلاث عشر ومائتين . هذا ما وقع فى كتاب أبى القاسم الملاّحى . وذكره عِياض فذكر خلافاً فى اسمه وفى أوّليته .

---

(١) زيادة الله بن الأغلب أمير إفريقية (تونس) من سنة ٢٠١ – ٢٢٣ هـ (٨١٦ – ٨٣٨ م).

(٢) ساقطة فى المخطوطين .

(٣) وردت « سرقسطة » فى المخطوطات الثلاثة . فإما أن يكون الناسخ قد حرف الإسم الحقيقى . وإما أن يكون ابن الخطيب ومن نقل عنهم قد أخطأوا فى ذكر هذا الإسم . ذلك أن المدينة التى توفى أسد بن الفرات وهو محاصر لها هى ثغر « سرقوسة » Syracusa الواقع جنوب شرق صقلية . أما سرقسطة فهى القاعدة الأندلسية المعروفة وقد كانت قاعدة الثغر الأعلى ، وتقع فى شمال إسبانيا وسط ولاية أراجون الحديثة . (راجع كتابى تراجم إسلامية ص ١٣٤ فى ترجمة أسد بن الفرات) .

أبو بكر المخزومى الأعمى المَوْرورى [المُدوَّرِى][1]

حـــاله

كان أعمى ، شديد القِحَة والشَّر ، معروفاً بالهجاء ، مُسَلَّطاً على الأعراض ، سريع الجواب ، ذكىَّ الذهن ، فطناً للمعاريض ، سابقاً فى ديوان الهجاء، فإذا مدح ضعف شعره .

دخولُه غَرْناطة

وذكر شىء من شعره ، ومهاترته مع[2] نزهون بنت القِلاعى .

قال أبو الحسن بن سعيد ، فى كتابه المسمى « بالطَّالع السعيد » : قدم على غرناطة أيام ولاية أبى بكر بن سعيد عَمَل[3] غَرْناطة، ونزل قريباً منه[4] ، وكان يسمع به ؛ فقال صاعقةٌ يرسلها الله عز وجلّ على من يشاء من عباده ، ثم رأى أن يبدأه بالتَّأنيس والإحسان ، قاستدعاه بهذه الأبيات :

يا ثانيـــا للمَعَرِّى   فى حُسن نظمٍ ونَثْرِ
وفَرْطِ ظَرْفٍ ونُبْلٍ   وغَوْصِ فهمٍ وفِـكْرِ

---

(١) وردت هذه الكلمة فى هامش « ج » مضافة إلى « الموروري » . والموروري نسبة إلى مورور وقد سبق التعريف بها (ص ٤٠٩) . والمدوري نسبة إلى بلدة المدور . وقد نسب ابن سعيد أبا بكر المخزومى اليها (راجع المغرب ج ١ ص ٢٢٣) . والمدور وبالإسبانية Almodovar بلدة أندلسية تقع شمال شرقى قرطبة على مقربة من المدينة الملكية Ciudad Real الحديثة .

(٢) وردت فى المخطوطين كلمة (الأسمة) قبل اسم نزهون . ولم نهتد إلى علة وجودها فحذفناها .

(٣) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » : على . والمقصود هنا « حكم غرناطة » .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى « ك » .

صِل ثم واصل حَفيًّا ... بكل شكرٍ وبرِّ
وليس إلا حديث ... كما زها عِقْـــدُ دُرِّ
وشَــادِنٌ قد تَغَنَّى ... على ربابٍ وزَمْرِ
وما يسامح فيه الغفــور من كأس خَمرِ
وبيننا عَقْدُ حِلفٍ ... لِبانُ شِرْكٍ وكُفْرِ
فَقُمْ نجدِّدْه عهـداً ... بطيب شُكرٍ وسُكرِ
والكأسُ مثلُ رَضاعٍ ... ومن كمِثْلِكَ يَدْرى (١)

ووجَّه له الوزير [أبو بكر بن سعيد](٢) عبداً صغيراً قاده . فلما استقر به المجلس، وأفعمته(٣) روائح النِّد والعود والأزهار ، وهزَّت عِطْفه الأوتار ، قال :

دارُ السُّعيدىّ ذِى أم دارُ رِضوان ... ما تشتهى النفسُ فيها حاضرٌ دانِ
سقت أبارقها للنِّد سُحب ندًى ... تحدو برعد لأوتارٍ وألْحـانِ
والبرقُ من كل دِنٍّ ساكبٌ مَطَرا ... يحيى(٤) به مَيْت أفكار وأشجانِ
هــذا النعيم الذى كنا نحدِّثه ... ولا ســبيل له إلا بآذانِ

فقال أبو بكر بن سعيد « ولا سبيل له إلا بآذان » ؛ فقال [حتى](٥) يبعث [الله](٥) ولدَ زِنا كلما أنشدتُ هذه الأبيات ؛ قال : وإن قائلها أعمى ، فقال : أما أنا فلا أنطق بحرف فى ذلك . فقال من صَمَت نجا . وكانت نزهون بنت القِلاعى الآتى ذكرها(٦) حاضرة ، فقالت ونراك(٧) يا أستاذ قديم النعمة ، بنِدٍّ وغناء وطيب

(١) كتبت هذه الأبيات فى المخطوطين كل منها شطرة واحدة يكملها بيت آخر .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى « ت ». وساقط فى المخطوطين .
(٣) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك »
(٤) هذا فى « ج » . وفى « ك » يحدا .
(٥) هاتان الكلمتان أغفلتا فى المخطوطين . والتكملة من « ت » .
(٦) فى المخطوطين : الآتية .
(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : وزيك .

شراب ، تتعجب من تأتّيه وتشبهه بنعيم الجنـة ، وتقول ما كان يُعلم إلَّا بالسماعِ ، ولا يُبلغ اليه إلا بالعِيان؛ لكن من يجيء من حصن المُدوَّر ، و ينشأ بين تيُوس و بَقر ، من أين له معرفةٌ بمجالس النَّغم . فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى ، فقالت له دعه ؛ فقال من هذه الفاعلة ؟ فقالت عجوز مقام أمك ، فقال كَذَبْتِ ما هــذا صوت عجوز ، إنما هذه نغمة قَحْبة محترقة تُشُّم روائح كذا منها على فرسخ ؛ فقال له أبو بكر : يا أستاذ هـذه نزهون بنت القلاعى الشّاعرة الأديبة ، فقال سمعت بها لا أسْمَعَها الله خيراً، ولا أراها إلا[1]... فقالت له يا شيخَ سوءٍ تناقضْتَ . وأى خير أفضل للمرأة ؟ ففكر المخزومى ساعة ثم قال :

على وَجْه نزهون من الحسن مَسْحة   وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصــدُ نزهون تُدَارِكُ غيرها   ومن قَصَــد البحر استقل السَّواقيا

فأعملت فكرها وقالت :

قل للوضيــع مقــالاً   يُتــلى إلى حين يَحشَر
من المدوَّر أُنشــئت   والخرا منــه أعْطَر
حيثُ البــداوة أمْسَت   فى أهلهــا[2] تَتبَختَر
لذلك أمسيتَ صــبًّا   بكل شىء مدوّر[3]
خُلقتَ أعمى ولــكن   تهيمُ فى كل أعْـوَر
جازيتُ شعراً بِشِعر[4]   فقل لعَمْرِىَ من أشْـعَر
إن كنتُ فى الخَلق أنثى   فإنّ شِـعْرى مُذَكَّر

---

(١) كلمة نابية رأينا حذفها .

(٢) هكذا فى المخطوطين : وفى « النفح » : مشيها . وفى « المغرب » : جهلها .

(٣) هكذا ورد هذا البيت فى المخطوطين . وورد فى المغرب كالآتى (لذلك أمسيت تهوى : حلول كل مدور) .

(٤) فى المغرب : « جاوبت هجوا بهجو . »

فقال لها اسمعى :

ألا قل لنزهونة مالها تجرُّ من التّيـه أذيالها
ولو أبصرت بَشَّةً[١] شمرت كما عودتنى سِربالهـا

فحَلف أبو بكر بن سعيد ألاّ[٢] يزيد أحدهما على الآخر فى هَجْوه كلمة ؛ فقال المخزومى أكونُ هجّاء الأندلس وأكفُّ عنها دون شىء ؛ فقال أنا أشترى منك عرضَها فاطلب ، فقال بالعَبْد الذى أرسلته فقادنى إلى منزلك ، فانه لينُ القدِّ رقيق الملمس . فقال أبو بكر لولا أنه صغير كنت أُبلِّغك فيه مرادك ، وأهِبه لك ؛ ففهم قصده ، وقال أصْبرُ عليه ، حتى يكبُر ، ولو كان كبيراً ما آثرتنى على نفسك ؛ فضحك أبو بكر وقال قد هَجوتَ نثراً ، وإن لم تَهْجُ نظماً ؛ فقال أيها الوزير ، لا تبديل لخَلْقِ الله ؛ وانفَصَل المخزومى بالعَبْد بعد ما أُصلح بينه و بين نزهون .

وقال يمدح القاضى بغرناطة أبا الحسن بن أضحى رحمهما الله :

عجباً للزمان يطلب هَضْمى وملاذى منه علىُّ بن أضحى
جاره قد سما على النَّطح عزًّا ليس يخشى من حادث الدهر نَطْحا
فكأنى [علوْتُ][٣] قرن [فلان][٣] أى تَيْس مُطول القرن ألْحـا

فقال له ابن أضحى ، هلا اقتصرت على ما أنت بسبيله ، فكم تقع فى الناس ؛ فقال أنا أعمى وهم حُفَرٌ فلا أزال أقَعُ فيها ، فقال فأعجبنى كلامه على قُبْحه . وحديث مُقامِه بغرناطة يقتضي طويلا .

وفاته

قال أبو القاسم بن خلف ، كان حيًّا بعد الأربعين وخمسمائة .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين : وفى المغرب : فيشة .
(٢) فى « ك » : أن لا .
(٣) ما بين الحاصرتين ساقطة فى المخطوطين . والتكملة من المغرب (ص ٢٢٥) .

أصْبَغ بن محمد بن الشيخ المهدى

يُكنى أبا القاسم ، عالم مشهور .

حـــاله

كان محقِّقاً بعِلْم العَدَد والهندسة ، مقدماً فى علم الهيئة والفلك وعلم النجوم ، وكانت له مع ذلك عناية بالطِّب .

تواليفه

تواليفه حسان ، وموضوعاته مفيدة ؛ منها كتاب « المَدْخل إلى الهندسة » فى تفسير كتاب إقليدس . ومنها كتاب ثمار العدد المعروف « بالمعاملات » . ومنها كتابه الكبير فى الهندسة تقصَّى فيه أجزاءها . ومنها كتاب[(١)] فى الآلة المعروفة بالأسطُرلاب . ومنها تاريخه الذى ألّفه وهو تاريخ كبير .

وفاته

قال ابن جماعة فى تاريخه ؛ أخبرنى أبو مروان[(٢)] ، سليمان بن عيسى الناشى المهندس ، أنه توفى بمدينة غرناطة قاعدة الأمير حبوس ليلة الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت لرجب سنة ست وعشرين وأربعمائة ، وهو ابن ست وخمسين سنة شمسية[(٣)] . وعدَّه من مفاخر الأندلس .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : كتابان .

(٢) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة : (أن) . ولعلها تحريف تكرار للحرفين الاخيرين من كلمة (مروان) . أو لعلها (عن) . وقد رأينا حذفها .

(٣) وردت فى المخطوطين : شمية . ونرجح التصويب .

أبو على بن هَدِيَّة

من أهل غرناطة .

حـــاله

قال أبو القاسم المَلَّاحى فيه ؛ من أهل الدين ، والفضل ، والأمانة ، والعدالة ، والمعرفة بالتكْسير والأعمال السلطانية ، ووُلّى « المُسْتَخلَص »[١] بغرناطة ، فثَقب وأجاد النظر . قال ابن الصَّيرفى : ولمـــا وُلى الوزير أبو على بن هديَّة المستخلص ، و باشر جلائل الأمور ودقائقها بنفسه ، حَمَى المناصِفين ؛ ورفع المؤن والـكُلَف[٢] عنهم ، ووسعَ بسَليف البذر[٣] عليهم ، وآثرهم بالنَّصَفَة بالتزام حصَّة بيت المال ؛ ولم يكن له حُجَّاب ولا بوَّاب ، فكان القوىُّ والضعيفُ ، والمشروف والشريف ، والـكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، شرعاً سواء فى الوصول إليه ، والتكلم فى مجلسه ، فلم يُهتَضم جانب ، ولا دُحِضت حُجَّة ؛ إلا أنه ارتفعت الرَّقْبة ، وزالت الهَيْبة ، وأُمْحِق نور الخُطّة ؛ وخَصّ أحباس[٤] جامع غرناطة بنَظَره ، بفضل مال كثير من غلَّته[٥] ؛ ونبُه باجتماعه ليزيد به بلاطين فى مَسقفه من شرقه وغربه ، فأكمل الله ذلك بسعيه وعلى يديه ؛ ورام رَبْع المسْتَخلص ، وزاد به فى حَمَّاماته ؛ ورَمَّ[٦] حوانيته ، واستحدث مَنْجى[٧] سَمَّاها المُسْتَحدثة ، وغرس قضبان الجوْز

---

(١) انظر الحاشية فى ص ١٢٢

(٢) وردت فى المخطوطين : الكف .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الزرع .

(٤) الأحباس هى ما يحبس لأغراض الخير ، وهى الأوقاف .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : خلته .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » وردم . والأولى أرجح .

(٧) وردت فى المخطوطين : منيحة . ونعتقد أن التصويب أرجح .

فى مواضع المياه ؛ وعوّض بما ذهب ، وشمّر فى جمع المال ، ووالى الحفْز على العمل ، ونصح بمقتضى جهده ، ومنتهى وُسْعه ، ولم تُمد يدُه فى مصانعة ، ولا مالت إلى مُداخلة ، ولـكنه لم يحمل فى حق ولا نُوقِش فى باطل .

أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطَّنْجالى

من أهل لَوْشَة .

نبيلةٌ حَسِيبةٌ ، تُجيد قراءة القرآن ، وتشارك فى فنون من الطَّلب ، من مبادئ غريبة ، وخلف و إقراء مسائل الطّب ، وتنظم أبياتاً من الشعر . وذ كرتها [فى][1] خاتمة « الإكليل »[2] بمانصه : « ثالثة حَمْدَة وولّادة ، وفاضلة الأدب والمَجادة ، تقلدت المحاسن من قبل ولّادة ، وأولدت أبكار الأفكار قبل سِنِّ الوِلادة . نشأت فى حِجر أبيها ، لا يدخر عنها تدريجاً ولا سهماً ، حتى نهض إدراكُها وظهر فى المعرفة حِراكها ، ودرّسها الطبَّ ففهمت أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه » . وفى ذكر شعرها :

« ولما قَدِم أبوها من المغرب ، وحَدَّث بخبرها المُغرب ، توجه بعض الصدور إلى اختبارها ، ومطالعة أخبارها ، فاستَنْبَل أغراضها واستحسنها ، واستطرف[3] لَسْنها ، وسألها عن الخط ، وهو أكسدُ بضاعة جُلِبت ، وأشَحُّ درَّة حُلِبت . فأنشدَته من نظمها :

---

(١) ساقطة فى المخطوطين .

(٢) هو كتاب ابن الخطيب المسمى : « الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر » . وقد سبق التعريف به فى المقدمة .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : واستطرب . والمؤدى واحد .

الخطُّ ليس له فى العلم فائدة وإنما هو تَزْيينٌ بقرطاس
والدرس سُؤلى لا أبغى به بدلًا بقَدْر عِلم الفَتى يَسْمو على الناس

وراجعها بعض المُجّان(١) يغفر الله له :

إن فرط الدرس يا أُمى(٢) سحق(٣) وهذا هو المشهور فى الناس
فخذ من الدرس شيئاً تافهاً خَطْماً و بالفهم يحيى كل الناس

ومن شعرها فى غرض المدح :

إن قيل من الناس ربٌّ فضيلةٍ حاز العُلا والمجد منه أصيلُ
فأقول رِضْوانُ وحيدُ زمانٍ إن الزمان بمثله لبَخِيلُ

بُلُكّين(٤) بن باديس بن حبُّوس بن ماكْسَن بن زِيرى بن مَنَاد الصِّنهاجى

الأمير الملقب بسيف الدولة، صاحب أمر والده والمرشح للولاية بعده .

حاله

قال المؤرخ : كان زيرى بن مناد ، ممن ظهر فى حرب ابن يزيد بإفريقية ، واتَّسم هو وقومه بطاعة العُبَيْدِيين أمراء الشيعة ، فكانوا حرباً لأضدادهم من زَناتة

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : المجاز .

(٢) فى المخطوطين : يا أملى .

(٣) فى المخطوطين : سحقا .

(٤) ترسم دائماً فى المخطوطين بالقاف : (بلقين) . وقد سبق أن أوضحنا حكمة التعديل (راجع الحاشية فى ص٢٦٩) .

الموالين لأملاك المَرَاوِنة[١] لتحقق جدِّهم خَزَر[٢] بولايته عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ فلما صار الأمر إلى بنى مَناد بعد انتقال مُلك الشيعة إلى المشرق ، ووَلِىَ الأمر باديس بن منصور بن بُلكِّين بن زيرى ، ذهب أعمامه وأعمام أبيه إلى استضعافه ، فلم يُعْطهم ذلك من نفسه ، ووقعت بينهم الحرب التى قتل فيها عم أبيه ماكْسَن بن زِيرِى ، فرهب[٣] الباقون منهم صولة باديس ، وخافوا عادِيَتــه على أنفسهم ، على صِغر سنِّه ؛ فخاطب شيخُ بيته يومئذ زاوِى بن زِيرى ومعه أبناء أخيه ، المُظَفَّر ابن أبى عامر ليجوز إليه إلى الأندلس رغبة فى الجهاد ، فألفى همَّة بعيدة ، وملكاً شامخاً ، يذهب إلى استخدام الأشراف واصطناع الملوك ، فأذن فى ذلك ؛ فدخل منهم جماعةٌ الأندلس مع أميرهم زاوى بن زيرى ، ومعه أبناء أخيه حُبَاسة وحَبُّوس وما كْسَنْ ؛ فأنزلهم المظفرُ وأكرمهم ، إلا أنهم كابدوا مشقة من دهرهم الذى أصارهم يخدمون بأبواب الملوك من أعدائهم غيرهم ؛ فلما انهدمت الإمامةُ ، وانشقّت عصا الجماعة ، سَعَوا فى الفِتْنة سَعْى غيرهم ، من سائر قبائل البرابرة[٤] ، عند تشديد أهل الأندلس للبربر ؛ وانحازوا عند ظهورهم على أهل الأندلس ، بملوك بنى حمُّود[٥] ، إلى بلاد تضمهم ، فانحازت صِنْهَاجة مع شيخهم ورئيسهم زاوى بن زيرى إلى مدينة غرناطة . ثم آثر زاوى العوْد إلى وطنه إفريقية، فخرج عن الأندلس حسبما يتفسر فى موضعه ؛ والتفّ قومُه على ابن أخيه حبُّوس بن ماكْسَن ، فى جماعة عظيمة تحمى حوْزته ، وأقام بها مُلْكاً ؛ وغلب على ما اتصل بمدينته من الكُور ، فتملّك قَبْرة ، وجيَّان[٦] ، واتسع نظره ، وحَمَى وطنه ورعيَّته ، ممن جاوره من البرابر ؛ وكان

---

(١) المراونة أعنى بنى مروان أو الأمويين خلفاء الأندلس .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » خوز .

(٣) وردت فى المخطوطين : فذهب . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٤) هكذا فى « ك » وفى « ج » . ويجرى ابن الخطيب على ذكر « البربر » بلفظ البرابرة . والبرابر

(٥) وردت فى المخطوطين : بنى حميد . وهو تحريف .

(٦) جيان سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص١٩٥) . وتقع قبره Cabra جنوب جيان وقد سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١٧) .

داهية شجاعاً ، فدامت رياسته ، واتصل ملكه ، إلى أن هلك . فولى بعده ابنه باديس ، وسيأتى التعريف به ؛ ووُلد له ابنه بُلُكِّين هذا المترجم به ، فرشَّحه إلى ملكه ، وأخذ له بيعة قومه ، وأهّله[١] للأمر من بعده . قال المؤرخ : ونشأ لباديس ابن حبُّوس ، ولدٌ اسمهُ بُلُكِّين ، وكان عاقلاً نبيلاً ، فرشّحه للأمر من بعده ، وسَمَّاه سيف الدولة ؛ وقال : وُلّى مالَقَة فى حياة أبيه ، وكان نبيلاً جليلاً ؛ ووقعْتُ على كتاب بخطه نصه بعد البسملة :

« هذا ما التزمه واعتقد العمل به ، بُلُكِّين بن باديس ، للوزير القاضى أبى عبد الله بن الحسن الُجذامى[٢] سلّمه الله . اعتقد به إقراره على خُطَّة الوزارة ، والقضاء فى جميع كُوَره ، وأن يجرى من الترفيع والإكرام له ، إلى أقصى غاية ، وأن يُحمل على الجراية فى جميع أملاكه بالكُوَر المذكورة ، حاضرتِها وباديتِها ، الموروثة منها ، والمكتسبة ، القديمة الاكتساب والحديثة ، وما ابتاع منها من العالى[٣] رحمه الله وغيره ، لا يلزمها وظيفٌ بوجه ، ولا يُكلّف منها كُلْفَة ، على كل حال ، وأن يجرى فى قرابته ، وخوْله وحاشيته وعامرى ضِيعه ، على المحافظة والبرّ والُحرِّية . وأقسم على ذلك كله بُلُكِّين بن باديس بالله العظيم ، والقرآن الحكيم ، وأشهد الله على نفسه وعلى التزامه له ، وكفى بالله شهيداً . وكُتب بخط يده مستهل شهر رمضان العظيم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، والله المُسْتعان » . ولا شك أن هذا المقدار يدل على نُبل ، ويُعرِّف عن كفاية .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وملكه . والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » : الحراص .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : المعالى . و « العالى » هو خليفة الأندلس إدريس بن يحيى المعتلى من بنى حمود وقد حكم غرناطة وقومونة ولقب بالعالى . وخلع سنة ٤٣٨ هـ بعد أربع سنين من حكمه .

سبب وفاته

قال صاحب البيان المُغرب وغيرُه : وأمضى باديسُ كاتبَ أبيه ووزيرَه إسماعيل ابن نَغْرالة[١] اليهودى على وزارته وكتابته وسائر أعماله ، ورفعه فوق كل منزلة ؛ وكان لولده بُلكّين ، خاصة من المسلمين يخدمونه ، وكان مُبغِضاً فى اليهودى ، فبلغه أنه تكلم فى ذلك لأبيه ، فبلغ منه كلّ مَبْلغ ؛ فدبر[٢] الحيلة ، فذكروا أنه دخل عليه يوماً فقبّل الأرض بين يديه ، فقال له الغلام : ولم ذلك ؛ فقال : يرغب العبد أن تدخل داره مع من أحْبَبْتَ من عبيدِك ورجالك ؛ فدخل إليه بعد ذلك ، فقدّم له ولرجاله طعاماً وشراباً ، ثم جعل السُّم فى الكأس لابن باديس ، فرام القىء[٣] ، فلم يقدر عليه ، فُحمل إلى قصره وقضى فيه فى يومه ؛ و بلغ الخبر إلى أبيه ولم يعلم السبب ، فقرّر اليهوديُّ عنده أن أصحابه و بعض جواريه سَمُّوه ، فقَتَل باديس جوارى ولده ، ومن فتيانه و بنى عمّه [جماعة كبيرة][٤] ، وخافه[٥] سائرهم ففرّوا عنه . وكانت وفاتُه سنة ست وخمسين وأربعمائة . و بعده قتِل اليهودى فى سنة [تسع وخمسين][٦] .

---

(١) وردت فى المخطوطين : (ابن نعراله) . ويسميه ابن بسام فى الذخيرة : ابن النغريلى : (ج ١ – ٢ ص ٢٦٥). وورد فى البيان المغرب: ابن نغزاله (ج ٣ ص ٢٦٤) . والتسمية الأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : فدفن .

(٣) وردت فى « ك » : القبر . وفى « ج » وردت لفظه غير واضحة : الفلى أو البلى. والتصويب من البيان المغرب .

(٤) هذه الزيادة من البيان المغرب وهى لازمة للسياق .

(٥) وردت فى المخطوطين : وخافوه . وهو رسم خاطىء . وكثيراً ما يرد الفعل بالجمع قبل الفاعل فى المخطوطات المغربية .

(٦) وردت فى « ك » ثمان . وفى « ج » ثمانين. وهو خطأ اقتضى التصويب وفقا لما يرد بعد فى الفصل الذى عنوانه : « ذكر مقتل اليهودى يوسف بن إسماعيل . . . »

باديس بن حبوس بن ماكْسَن بن زِيرِى بن مَناد الصِّنهاجى

كنيته أبو مَناد ، ولقبه الحاجب المُظَفَّر بالله ، الناصر لدين الله .

أوليتُه

قد تقدم الإلماع بذلك عند ذكر ابنه بُلُكِّين .

حاله

كان رئيساً يَبِساً ، طاغيةً جباراً ، شجاعاً ، داهية ، حازماً ، جَلْداً ، شديد الأمر ، سديد الرأى ، بعيد الهمة ، مأثور الإقدام ، شَرِه السيف ، وارى زِناد[١] الشرِّ ، جمّاعةً للمال ؛ ضخُمت به الدولة ، ونبهُت الألقابُ ، وأمنت لحمايته[٢] الرعايا ، وطمّ تحت جناح سيفه العُمران ، واتّسع بطاعته المُرْهبة الجوانب ببأسه النظر ، وانفسح المُلْك ؛ وكان ميمون الطائر ، مُطْعَم الظَّفَر[٣] ، مصنوعاً له فى الأعداء ، يقنع أقتاله[٤] بسلمه ، ولا يطمع أعداؤه فى حربه . قال ابن عسكر : يكنى أبا مسعود ، وكان من أهل الحزم وحماية الجانب ، وكان يخطب ويدعو للعَلَويِّين بمالقة ، فلما توفى إدريس بن يحيي العالى ، ملك مالقة سنة ثمان وأربعين وأربعمائة .

---

(١) وردت فى المخطوطين : بزناد .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : لحميته .

(٣) اعنى كثير الظفر .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : أمثاله .

وقال الفتح فى قلائده[١] : « كان باديس بن حبُّوس بغرناطة[٢] عاثياً[٣] فى فريقه ، عادلاً عن سُنن العدل وطريقه ؛ يجترئ على الله غير مُراقِب ، ويُسرى إلى ما شاء [غير ملتفت][٤] للعواقب ؛ قد حَجَب سنانُه لسانَه ، وسبقت إساءتُه إحسانَه ؛ [ناهيك][٥] من رجل لم يَبِتْ من ذنبٍ على نَدَم ، ولم يشرب الماء إلا من قُلَيب دَم ؛ أحزمَ[٦] من كاد ومكر ، وأجرمَ[٧] من راح وابتكر ؛ وما زال متَّقداً[٨] فى مناحيه ، مفتقداً لنواحِيـــه ، لا يرام برَيْث ولا عَجَل ، ولا يبيت له جار إلا على وَجَل » .

أخباره فى وقائعه

يُنظر إيقاعه بزُهَير[٩] العامرى ومن معه فى اسم زُهَير، [فقد ثبت منه هنالك][١٠] نبذة ، وإيقاعه بجيش ابن عبَّاد بمالقة عندما طرق مالقة وتملَّــكها ، واسْتَصْرخ من اسْتمسك بقصَبتها من أساودتها ، وذلك مما هو معلوم ، وشهرته مغنية عن الإطالة .

ومن أخباره فى الجبرية والقسوة . قال ابن حيّان ، عندما استوْعب الفَتْكة بأبى نصر بن أبى نور الشُقْرى[١١] أمير رُنْدة المنتزى[١٢] بها وقتله، ورجوعها إلى ابن عباد ؛

---

(١) هو كتاب : « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان .
(٢) فى المخطوطين : غرناطة . والتصويب من « القلائد » .
(٣) هذا فى القلائد . وفى المخطوطين : عابثاً .
(٤) وردت فى المخطوطين : (لا ملتفتا) . والتصويب من القلائد .
(٥) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى القلائد .
(٦) هكذا فى القلائد . وفى المخطوطين : أجرم .
(٧) هكذا فى القلائد . وفى المخطوطين : أفجر .
(٨) فى المخطوطين : ممتداً . والتصويب من القلائد .
(٩) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : ابن مقيم . وهو خطأ بين .
(١٠) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . ووردت فى « ك » : (وثبت فى ذلك منه) .
(١١) وردت فى « ج » : السفرى . وفى « ك » الأسفرى . ونعتقد أن التصويب أرجح . والشقرى هنا نسبة إلى جزيرة شقر .
(١٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : المشرى .

حكى أبو بكر الوسنشانى (١) الفقيه عن ثقة عنده من أصادقة التُّجار ، أنه حضر مدينة غرناطة ، حَضْرَة بادِيس بن حبُّوس الجبار ، أيام حدث على أبى نصر صاحب تاكُرُنَّا ما حدث ، وأن أميرها باديس قام للحادثة (٢) وقعد ، وهاج من داء عَصَبِيَّته ما قد سكن ، وشقَّ أثوابه ، وأعلن أعواله ، وهجر شرابه الذى لا صبر له عنه ، وجفا ملاذَّه ؛ وأوهمتهُ نفسُه الخبيثة تمالؤ رعيَّته من أهل الأندلس ، على مثل الذى دهى أبا نصر ، فسوّلت له نفسه حَمْل السيف على أهل حضرته جميعاً ، مستحضراً (٣) لهم ، وكيماً ينبرهم (٤) ، ويخلص برابرته وعبيده فيريح نفسه ؛ ودبر أن يأتى ذلك إليهم عند اجتماعهم بمسجدهم الجامع الأقرب أيام الجمعة ، من قوة همومه ؛ وشاور وزيره اليهودى يوسف بن اسماعيل ، مُدبِّر دولته الذى لا يقطع أمراً دونه ، مُسْتَخْلياً مُسْتكتِماً بسرِّه ، مصمماً فى عزمه ، ان هو لم يوافقه عليه ؛ فنهاه عن ذلك وخطّأ رأيه فيه ، وسأله الأناة ومَحْض الروية ، وقال له هَبْك وصلت إلى إرادتك ممّن بحَضَرتك ، على ما فى استِباحتهم من الخطر ، فأنّى تقدر على الإحاطة بجميعهم من أهل حَضْرتك ، وبسائط أعمالك ؟ أتراهم يطمئنون إلى الذُّهول عن مصائبهم ، والاستقرار فى موضعهم ؟ ما أراهم إلا سيوفاً ينتظمون عليك فى جموعٍ ، يُغرقونك فى لُجَجها أنت وجندك ؛ فردَّ نصيحته ، وأخذ الكتمان عليه ، وتقدم إلى عارضه باعتراض الجند فى السلاح ، والتَّعبية لركوبه يوم الفَتْكة ، يوم تلك الجمعة ، فارتجَّ البلد . وذُكر أن اليهودى دسّ نسواناً إلى معارف لهنّ من زعماء المسلمين بغرناطة ، ينهاهم عن حضور المسجد يومهم ، ويأمرهم بإخفاء أنفسهم ؛ وفشا الخبر فتخلَّف الناس عن شهود الجمعة ، ولم يأته إلا نفر من عامّتهم ، اقتدوا بمن أتاه (٥) من مشيخة البربر

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الرسنلشانى .

(٢) وردت فى المخطوطين : بالحادثة . والتصويب أنسب .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » مستعرضاً .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ينفدهم .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : أتاهم .

وأغفال القادمين ؛ وجاء إلى باديس الخبر والجيش فى السلاح حوالى قصره ، فساءه وفُتّ فى عَضُده ، ولم يَشُك فى فشو سرّه ، وأحضر وزيره وقلّده البَوْح بسرّه فأنكر ما قرفه[١] به ؛ وقال ومن أين يُنكر على الناس الحذر ، وأنت قد استركبت جندك وجميع جيشك فى التَّعْبية ، لا لسَفَرٍ ذكرته ، ولا لعَدُو وثب إليك ، فمن هناك حدس القوم على أنك تريدهم ، وقد أجمل[٢] الله لك الصنع فى نِفارهم ، وقادك إصارَهم ، فأعِد نظرك يا سيدى ، فسوف تحمد عاقبة رأيى وغِبْطَة نُصحى . فنصَّح وزيرَه شيخٌ من موالى صِنْهاجته ، فانعطَف لذلك بعد لأْى ، وشرح اللهُ صدره . ويجرى[٣] التعريف بشىء من أمور وزيره .

قال ابن عَذارى المرَّاكُشى فى كتابه المسمى « بالبيان المُغْرب »؛ أمضى باديسُ كاتب أبيه ووزيره ابن نَغرالة اليهودى ، وعمالاً متصرِّفين من أهل مِلَّته، فاكتسبوا الجاه فى أيامه واستطالوا على المسلمين . قال ابن حَيّان ؛ وكان هذا اللعين فى ذاته ، على ما زَوى اللهُ عنه من هدايته ، من أكْمَل الرجال علماً وحلماً وفهماً ، وذكاء ، ودماثة ، وركانة ، ودهاء ، ومكرًا ، ومِلْكاً لنفسه ، وبَسْطاً من خلقه ، ومعرفةً بزمانه ، ومداراة لعَدُوِّه ، واستِسلالاً لحقودهم بحلْمه ؛ [ناهيك][٤] من رجل كتب بالقَلَمين ، واعتنى بالعِلْمَين ، وشغف باللسان العربى ، ونظر فيه ، وقرأ كُتُبَه ، وطالع أصوله ؛ فانطلقت يده ولسانه ، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربى ، فيما احتاج إليه من فصول التّحميد لله تعالى ، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتزكية لدين الإسلام ، وذكر فضائله ما يريده ، ولا يقْصُر فيما يُنْشئه عن أوسط كتَّاب الإسلام ؛ فجمع لذلك « السَّجيح فى علوم الأوائل الرياضية »

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : قربه .

(٢) فى المخطوطين : أجمع . والتصويب أنسب للسياق .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ويجى .

(٤) أضفنا هذه الكلمة إذ يلوح لنا أنها سقطت فى المخطوطين سهواً .

وتقدم منتحليها[١] بالتدقيق[٢] للمعرفة النُّجومية ؛ و يشارك فى الهندسة والمنطق ، و يفوق فى الجدل كل مُسْتَوِل منه على غاية ؛ قليل الكلام فى ذكائه ، ماقتاً للسباب،[٣] دائمَ التفكر، جَمّاعةً للكتب . هلك فى العَشْر الثانى لمحرم سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، فجلّل اليهود نعشه ، ونكّسوا لها أعناقهم خاضعين ، وتعاقدوه جازعين ، و بكوه مُعْلنين ؛ وكان قد حمل ولده يوسف المُكنى بأبى حسين على مطالعة الكتب ، وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية ، يُعلِّمونه و يدارسونه ، وأعْلَقه بصناعة الكتابة ، ورشحه لأول حركته ، لكتابة ابن مخدومه بُلُكِّين برتبة[٤] المترشح لمكانه ، تمهيداً لقواعد خدمته ؛ فلما هلك إسماعيل فى هذا الوقت ، أدناه باديس إليه ، وأظهر الاغتباط به ، والاستعاضة بخدمته عن أبيه .

ذكر مقتل اليهودى يوسف بن إسماعيل بن نَغْرالة[٥] الإسرائيلى

قال صاحب البيان ؛ وترك[٦] ابناً له يسمى يوسف لم يعرف [ذلّ الذِّمَّة ، ولاقذر اليهودية][٧] . وكان جميل الوجه ، حادّ الذهن[٨] ، فأخذ فى الاجتهاد فى الأحوال ، وجَمع المال ، واستخراج الأموال ، واستعمال اليهود على الأعمال ، فزادت منزلتُه عند

---

(١) فى المخطوطين : منتجليها .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » بالتدين .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : للاسباب .

(٤) وردت فى المخطوطين : بريه .

(٥) هكذا وردت لأول مرة صواباً فى « ك » . ولكنها على الأغلب ترد محرفة فى المخطوطين .

(٦) فى المخطوطين : وتحرك .

(٧) وردت فى المخطوطين : (ذل اليهودية ولا قدر الذمة) . والتصويب من البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٤) .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الزهد .

أميره ؛ وكانت له عليه عيون فى قصره ، من نساءٍ وفتيانٍ ، يشملهم(١) بالإحسان ، فلا يكاد باديس يتنفس ، إلا وهو يعلم ذلك . ووقع ما تقدم ذكره ، فى ذِكر بُلكّين من اتهامه بسَمِّه(٢) ، وتوليه التهمة به عند أبيه ، للكثير من جواريه وخدّامه ، وفَتْك هذا بقريب له ، تِلوٍ له فى الخدمة والوجاهة ، يدعى بالقائد ، شعرمنه بمزاحمته إياه فتكة شهيرة ؛ واستَهْدَف للناس فشَغُلت به ألسنتهم ، ومُلئت غيظاً عليه صدورهم ، وذاعت قصيدة الزاهد أبى إسحاق الإلبيرى ، فى الإغراء بهم ؛ واتفق أن أغارت على غرناطة بعوثٌ صُمادِحية(٣) تقول إنها باستدعائه ، ليصير الأمر الصِّنْهاجىّ إلى مجهزها(٤) الأمير بمدينة ألمريَّة . وباديس فى هذه الحال منغمسٌ فى بطالته ، عاكفٌ على شرابه . ونُمى هـذا الأمر إلى رهطه من صِنهاجة ، فراحوا(٥) إلى دار اليهودى مع العامة ، فدخلوا عليه ، فاختفى ، زعموا فى بيت فَحم ، وسَوَّد وجهه ، يروم التنكير فقتلوه لمّا عرفوه ، وصلبوه على باب مدينة غرناطة ، وقُتل من اليهود فى يومه ، مقتلةٌ عظيمة ، ونُهبت دورهم ، وذلك سنة تسع وخمسين وأربعمائة . وقبرُه اليوم وقبر أبيه يعرف أصلاً من اليهود ينقلونه بتَواتُرٍ عنـدهم ، أمام باب إلبيرة ، على غَلْوة ، يعترض الطريق ، على لحده(٦) حجارة كدان جافية الجِرْم ؛ ومكانه من الترفُّه والترَّف والظَّرْف والأدب معروفٌ ؛ وإنما أتينا ببعض أخباره لكونه ممن لا يمنع ذكره فى أعلام الأدباء والأفراد إلا نحلته(٧) .

---

(١) وردت فى المخطوطين : يشغلهم . وفى البيان : شغلهم . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٢) وردت فى المخطوطين : بنسمه . وهو تحريف .

(٣) نسبة إلى ابن صمادح أمير المرية يومئذ .

(٤) وردت فى المخطوطين : مجهدها .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : فوجوا .

(٦) وردت فى المخطوطين : الحدة .

(٧) وردت فى المخطوطين : محلة .

مكان باديس من الذكاء وتولّعه بالقضايا الآتية

قال ابن الصَّيرفى ؛ حدثنى أبو الفضل جعفر الفتى ، وكان له صدقٌ ، وفى نفسه عزّة وشهامة وكرم ، وأثنى عليه ، وعرَّف به ، حسبما يأتى فى اسم جعفر المذكور . قال، خاض باديس مع أصحابه فى المجلس العلى ، من دار الشَّراب بقصره ،واصطفَّت الصّقاليب(١) والعبيد بالبَرْطَل(٢) المتصل به لتخدم إرادته، فورد عليه نبأ قام لتعرُّفه عن مجلسه ، ثم عاد إلى موضعه وقد تَجهّم وجهه ، وخَبُثت نفسه ، فحذر ندماؤه على على أنفسهم ، وتخيَّلوا وقوع الشَّر بهم ؛ ثم قال أعلمتم ما حدث ، قالوا لا والله يُطْلع على خير ؛ قال : دخل المُرابِط(٣) الدِّمنة ؛ فسُرى عن القوم ، وانطلقت ألسنتهم بالدعاء بنصره(٤)، وفُسْحة عمره ، ودوام دولته : ثم وجَموا لُوجومه ، فلما رأى تكدُّر صَفْوهم قال أقبِلوا على شأنكم ، ما نحن وذاك ، اليوم خمرٌ وغداً أمر(٥) ؛ بيننا و بينه أمداد الفَجْو ، والنّشور الجبال ، وأمواج البحار ؛ ولكن لا بد له أن يتملّك بلدى ، ويقعد منه مقعدى ، وهذا أمر لا يلحقه أحد منا ، و إنما يَشْقى أحفادُنا . قال جعفر ، فلما دخل الأمير القصر ، عند خَلْعه حفيد باديس برحبة مُؤَمِّل(٦) ، طاف بكل ركن ومكان منه ، وأنا فى جملته حتى انتهى إلى ذلك المجلس ، فبُسط له ما قعَد عليه،

(١) هم الصقالبة . وهم المماليك الفرنج من مختلف الجنسيات الأوربية الذين غصت به قصور الأندلس منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . (راجع فى نشأة الصقالبة وأحوالهم وظهورهم فى الأندلس، كتابى « دولة الإسلام فى الأندلس » ج ٢ ص ١٠٥ و ١٠٦)

(٢) البرطل هو الرسم العربى للكلمة القشتالية Portal وهو البهو ذو الشرفات المعقودة على الأعمدة.

(٣) يريد الإشارة إلى يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين وعبوره إلى الأندلس .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : فى نصره .

(٥) وردت فى المخطوطين : آخر . وهو تحريف للقول المأثور .

(٦) وردت فى المخطوطين محرفة : (برعبه مؤمل) . و « رحبة مؤمل » اسم مكان بغرناطة الإسلامية . كان يقع فى جنوب غربى الحمراء وجنوب ربض الفخارين ويشتهر برياضه ومتنزهاته . ومكانه اليوم الحى الغرناطى المسمى Campo del Principe .

فتذكرت قول باديس ، وتعجبت منه تعجُّباً ظهر علىّ ؛ فالتفت إلىّ أمير المسلمين مُنكراً ، وسألنى مابى ، فأخبرته وصَدَقْتُه ، وقصصت عليه قول باديس ، فتعجَّب ، وقام إلى المسجد بمن معه ، فصلى فيه ركعات ، وأقبل يترحَّم على قبره .

وفـــاته

قال أبو القاسم بن خلف : توفى باديس ليـلة الأحد الموفى عشرين من شوال سنة خمس وستين وأربعمائة ، ودفن بمسجد القصر . قلتُ ، وقد ذهب أثر المسجد ، وبقى القبر يحفُّ به حلقُه له باب ، كل ذلك على سبيل من الخمول ، وجَدَثُ القبر رخام ، إلى جانب قبر الأمير المجاهد أبى زكريا يحيى بن غانيـة (١) المدفون فى دولة (٢) المُوَحِّدين به .

وقد أدال اعتقاد الخليفة فى باديس بعد وفاته ، قِدمُ العهد بتعرِّف أخبار جَبَروته وعُتوِّه على الله سبحانه ، لما جبلهم عليه من الانقياد للأوهام [والانصياع للأضاليل] (٣) ؛ فعلى حُفرته اليوم من الإزدحام بطلّاب الحوائج والمسْتَشْفين من الأسقام ، حتى أولو الدواب الوجيعة ، ما ليس على قبر معروف الكَرْخى ، وأبى يزيد البسطامى .

ومن أغرب ما وقفت عليه رقعة رفعها إلى السلطان على يدى ، رجل من أهل الخير مُكَتِّب (٤) يؤمُّ فى مسجد القصبة القُدْمى من دار باديس ، يُعرف بابن باق ، وهو يتوسل إلى السلطان و يسأل منه الإذن فى دفنه [مجاوراً لقبره] (٥) . وعفو الله

---

(١) سبق التعريف به (تراجع الحاشية فى ص ١٠٣) .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : بدولة .

(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : (وانقطاع الأصاليل) .

(٤) أى يكتب للناس ما يرغبون كتابته .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . ووردت فى « ك » : (بجوار القبر) .

أوسع من أن يضيق على مثله، ممن أسرف على نفسه، وضيَّع حقَّ ربِّه. ودايره اليوم طلول قد تغيرت أشكالها وقسَّم التملكُ جنّاتها، ومع ذلك فمعاهدها إليه منسوبةٌ، وأخباره مُتداولة.

وقد ألمعت فى بعض مشاهده بقولى من قصيدة، غريبة الأغراض، تشتمل على فنون[1] أثبتها إحماضاً وفكاهة، لمن يطالع هذا الكتاب، وإن لم يكن جلبُها ضرورياً فيه فمنها:

عسى خَطْرة بالرَّكب يا حادى العِيس على الهَضْبة الشّمّاء من قصر باديس

بَكْرون بن أبى بكر بن الأشقر الحَضْرمى

يكنى أبا يحيى.

حــاله

كان من ذوى الأصالة ومشايخ الجند، فارساً نَجِدًا حازماً سديد الرأى، مسموع القول، شديد العُضْلة[2] أيِّدًا، فَحْلًا وسيماً، قائداً عند الجند الأندلسيين، فى أيام السلطان ثانى ملوك بنى نصر، من[3] أحفل ما كان الأمر، يجرُّ وراءه دنيا عريضة، وجَبى الجيش على عهده مغانم كثيرة.

قال شيخنا ابن شَبْرين[4] فى تذكرة ألفيتُها بخطه: كان له فى الخدمة مكانٌ

---

(١) وردت فى المخطوطين: فتوق.

(٢) أى الدهاء.

(٣) كذا فى «ج». وفى «ك»: بين.

(٤) هكذا فى «ك». وفى «ج»: ابن شيرين. وهو تحريف.

كبير ، وجاهٌ عريض ، ثم صرفه الأمر عن اسمه ، وأنزله الدهر عن حكمه ، تغمدنا الله و إياه برحمته .

وفاته

فى عام أربعة عشر وسبعمائة ، ودفن بمقبرة قومه بباب إلبيرة .

بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية الداخل

يُكنى أبا النصر ، رُومى الأصل .

حـاله

كان شجاعاً داهية ، حازماً فاضلا ، مصمماً تقياً ، علماً[1] من أعلام الوفاء . لازم مولاه فى أعقاب النكبة ، وصحبه إلى المغرب الأقصى ، مختصاً به ذاباً عنه ، مشتملا عليه ، وخطب له الأمر بالأندلس ، فتم له بما هو مذكور .

قال أبو مروان[2] فى المُقتَبِس : إن عبد الرحمن لما شرَّده الخوف إلى قاصية المغرب ، وتنقل بين قبائل البربر ، ودنا من ساحل الأندلس — وكان بها هَمُّه — يستخبر من قرب ، فعرف أن بلادها مُفترقةٌ بفرقتى المُضرية واليمانية ، فزاد ذلك فى أطماعه ؛ فأدخل إليهم بدراً مولاه يُحَسِّس[3] عن خبرهم ، فأتى القوم و بلى ما عندهم ، فداخل اليمانيِّين منهم ، وقد عَصَفت ريح المضريين بظهور العباس بالمشرق ، فقال لهم

---

(١) وردت فى المخطوطين : عالماً . وهو تحريف .

(٢) هو ابن حيان مؤرخ الأندلس . وقد سبقت الإشارة إليه غير مرة .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يجسس .

ما رأيكم فى رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم، فيقيم أَوَدكم ويُدرّ كم آمالكم . فقالوا : وَمَنْ لنا به فى هذه الديار، فقال بدرٌ : ما أدناه منكم ، وأنا الكفيل لكم به، هذا فلان بمكان كذا وكذا يُقدِّمنّ نفسه [فقالوا : فجىء به أهلاً][1] إنّا سُراعٌ إلى طاعته ؛ وأرسلوا بدراً بكتبهم[2] يستدعونه ، فدخل إليه بأيْمن طائر ، واستجمع إليه خلق من أنصاره ، قاتل بهم يوسف الفِهرى ، فقهره لأول وقائعه ، وأخذ الأندلس منه وأورثها عقبه .

محنتـه

قال الراوى : وكان من أكبر من أمضى عليه عبدالرحمن بن معاوية حُكم سياسته وقوَّمه معدَلَته[3] ، مولاهُ بدرُ المعتقُ منه بكل ذمّة محفوظة الخائضُ معه لكل غَمْرة مرهوبة،وكل ذلك لم يُغْن عنه نَقيرًا ، لما أسلف فى إدلاله عليه ، وكثّر من الانبساط لُحرْمته [فجمح مركب تحامله][4] حتى أورده ألمًا يضيق[5] الصدر عنه ؛ وآسف أميره ومولاه ، حتى كبح عنانه عن نفسه بعد ذلك كبْحَةً أقعى بها أو شارفَ حِمامه ، لولا أن أبقى الأمير على نفسه التى لم يزل مسرفاً عليها. قال ، فانتهى فى عقابه[5] لمّا سَخِط عليه أن سلب نعمته ، وانتزع دوره وأملاكه ، وأغْرمَه على ذلك كله أربعين ألفاً من صامته ونفاه إلى الثَّغر ، فأقصاه عن قربه ، ولم يُقلْه العَثرة[6] إلى أن هلك ، فرفع طمع الهوادة عن جميع ثُقله وخدمته ، وصيَّر خبرَه مثلاً فى الناس بعده .

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » ، وفى « ك » : (فقال يجى أهلا به) .

(٢) وردت فى المخطوطين : بكتبكم .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : معتدلة .

(٤) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : (فجمع به مركب لحامله) . وبالتصويب يتضح المعنى ويستقيم السياق .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يطيق .

(٥) كذا فى « ج » . وفى « ك » اعقابه .

(٦) هكذا فى « ج » فى « ك » العشرة .

تاشُفين بن على بن يوسف أمير المسلمين بعد أبيه بالعُدْوة

صالى[١] حروب الموحدين .

أوَّليَّته

فيما يختص به التعريف بأولية قومه ، ينظر فى اسم أبيه وجده إن شاء الله . قال ابن الورّاق فى كتاب المقياس وغيره : وفى سنة اثنين وعشرين وخمسمائة، ولّى على بن يوسف أمير لَمْتونة ، الشهير بالمرابط[٢] ولده الأمير المسمى بسِير عهده من بعده . وجعل له الأمر فى بقية حياته ؛ ورأى أن يولى ابنه تاشُفين الأندلس، فولاه مدينة غرناطة ، وألمريّة ثم قرطبه مضافة إلى ما بيده. قلت، فى قولهم رأى أن يولى الأندلس فولاه مدينة غرناطة، شاهد كبير على ما وصفناه[٣] من شرف هذه المدينة؛ فنظر فى مصالحها، وظهر له بركة[٤] فى النصر على العدو ، وخدمه الجدُّ الذى أسلمه ، وتبرأ منه فى حروبه مع الموحِّدين حسبما يتقرر فى موضعه ، فكانت له على النصارى وقائع عظيمة بَعُد لها الصيتُ ، وشاع الذكر حسبما يأتى فى موضعه . قال ، فكبُر ذلك على أخيه سِير ولى عهد أبيه ، وفاوض أباه فى ذلك وقال له : إن الأمر الذى أهّلتنى إليه لا يحسُن لى مع تاشُفين ، فإنه قد حمل الذكر والثناء دونى ، وغطّى على اسمى ، وأمال إليه جميع أهل المملكة، فليس لى معه اسمٌ ولا ذكرٌ. فأرضاه بأن عزله عن الأندلس وأمره بالوصول إلى حَضرتْه ، فرحل عن الأندلس فى أواسط سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ووصل مرّاكش، وصار من جملة[٥] من يتصرف بأمر أخيه سِير ويقف ببابه كأحد حُجّابه؛

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : طالى أو كالى .

(٢) وردت فى المخطوطين : بالمرابطين . وهو تحريف ظاهر .

(٣) وردت فى المخطوطين : أوصلنا . والتصويب من مخطوط رواق المغاربة بالأزهر المرموز له بحرفى « ر . م »

(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى « ر . م » : بارقة .

(٥) كذا فى « ج » . وفى « ك » : الجملة .

فقضى الله وفاة الأمير سير على الصورة القبيحة حسبما يذكر فى اسمه ، وثكله أبوه واشتد جزعه عليه، وكان عظيم الإيثار والإرضاء لأمه قمر، وهى التى تسببت [فى][(١)] عزل تاشُفين و إخماله نظراً إلى ابنها ، فقطع المقدار بها عن أملها بهلاكه .

ولما توفى [الأمير][(٢)] سير ،أشارت الأم المذكورة على أبيه بتقديم ولده إسحاق، وكان رؤوماً لها قد تولّت تربيته عند هلاك أُمه وتبنته ، فقال لها ، هو صغير السِّن لم يبلغ الحُلُم ؛ ولكن [حتى][(٣)] أجمع الناس فى المسجد خاصَّة وعامَّة ، وأُخبرهم فإن صرفوا الخيار إلىّ ، فعلت ما أشرتِ به . فجمع الناس وعرض عليهم الأمر ؛ فقالوا كلهم فى صوت واحد : تاشُفين ، فلم توسِعُه السياسة مخالفتهم ؛ فعقد له الولاية بعده ونقش اسمه فى الدنانير والدراهم مع اسمه ، وقلَّده النظر فى الأمور السلطانية ، فاستقر بذلك. وكتب إلى العُدْوَة والأندلس و بلاد المغرب ببيعته[(٤)]،فوصلت البيعات من كل جهة . ثم رمى به جيوش الموحِّدين الخارجين عليه، فنبا جدُّه ومرضت أيامه، وكان الأمر عليه لا له بخلاف ما صنع الله له بالأندلس .

قال أبو مروان الورّاق : [وكان أمير المسلمين][(٥)] على بن يوسف بن تاشُفين قد أمل فى ابنه تاشفين ما لم تكن الأقدار تساعده به ، فتشاءم به وعزم على خَلْعه [وصرف عهده][(٦)] إلى إسحاق ولده الأصغر ، ووجه إلى عامله على إشبيلية أغمار أن يصل إليه ليجعله شيخ ابنه ، إلى أن وافاه خبرٌ أمضّه وأقلقه ولم يمهله، فأزعج تاشفين إلى عدُوّه على غير أهبة بتفو يضه إياه ، وصرَف المدد فى إثره ، وتوفى لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين[لفعله ذلك][(٧)] .

---

(١) ساقطة فى المخطوطين .

(٢) ساقطة فى المخطوطين ، وواردة فى « ر . م » .

(٣) ساقطة فى المخطوطين وواردة فى « ر . م » .

(٤) وردت فى المخطوطين : فى بيعته .

(٥) هكذا فى « ر . م ». وفى المخطوطين : الأمير .

(٦) هكذا وردت فى « ر . م » . وفى المخطوطين : (وصرفه وعهده) .

(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : (تفعله ذلك) . وأغفلها « ر . م » .

مُلْكه ووصف حاله

فأفضى إليه ملك أبيه ، بتفويضه إياه فى حياته ، لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وكان بطلاً شجاعاً حسن الرِّكبةوالهيئة، سالكاً ناموس الشريعة، مائلاً إلى طريقة المستقيمين ، وكُتُب المريدين ؛ قيل إنه لم يشرب قط مُسكراً ولا استمع إلى قينة(١) ، ولا اشتغل بلذة(٢) مما يلهو بها الملوك .

الثناء عليه

قال ابن الصيرفى : وكان بطلاً شجاعاً ، أحبَّه النـاس ، خواصهم وعوامهم وحسنت سياسته فيهم ، وسدَّ الثُغور ، وأذكى على العدو العيون ، وآثر الجند ، ولم يكن منه إلا الجدُّ ، ولم تنل عنده الحظوة(٣) إلا بالعناء والنجدة . وبذلك حمل على الخيل ، وقلد الأسلحة ، وأوسع الأرزاق واستكثر من الرماة ، وأركبهم ، وأقام همتهم [للاعتناء بالثغور ومباشرة الحرب ، ففتح الحصون وهزم الجيوش وهابه العدو](٤) ولم ينهض إلا ظاهراً(٥) ولاصدر إلا ظافراً(٦) . وملك الملك ومهد بالحزم. وتملك نفوس الرعية بالعدل ، وقلوب الجند بالنّصَفَة . ثم قال : ولولا الإختصار الذى اشترطناه لأوردنا من سَنى(٧) خلاله ما يضيق عنه الرّحْب ، ولا يسعه الـكتْب .

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين : (غنية . عينة) .

(٢) هكذا فى « ك » و « ر . م » . وفى « ج » بمرة .

(٣) هكذا فى « ر . م » . وفى المخطوطين : حظوة .

(٤) الزيادة ما بين الحاصرتين واردة فى « ر . م » فقط .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى « ر . م » ظهر .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى « ر . م » .ظفر .

(٧) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : (من سنن خلاله) . والأولى أرجح .

دينـــــه

قال المؤرخ ، عكف على زيارة قبر أبى وهَب الزاهد بقرطبة، وصاحب أهل الإرادة، وكان وطئ الأكناف[١] ، سهل الحجاب ، يجالس الأعيان ويذاكرهم ؛ قال ابن الصيرفى ، ولما قدم غرناطة أقبل على صيام النهار ، وقيام الليل ، وتِلاوة القرآن ، وإخفاء الصَّدقة[٢] ، [وإنشاء العدل][٣] ، وإيثار الحق .

دُعابتـــــه

قالوا مر يوماً بمرج القرون ، من أحواز قلعة يحصُب[٤] ، فقال لزمَّال من عبيده كان يمازحه هذا مرجُك ؛ فقال الزمَّال ، ما هو إلا مرجك ومرج أبيك ، وأما أنا فمن أنا ؟ فضحك وأعرض عنه .

دخوله غرناطة

قالوا ، وفى عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة ،ولى الأمير أبو محمد تاشُفين بن أمير المسلمين علىّ بن أمير المسلمين يوسف ، ووافاها فى السابع عشر لذى حجة ؛ فقوّى الحصون وسدّ الثغور وأذكى العيون ، وعمد إلى رحبة القصر ، فأقام بها السقائف والبيوت ، واتخذها لخزن السلاح ومقاعد الرجال ، وضرب السهام[٥] ؛ وأنشأ السُّقى ، وعمل

---

(١) أى النواحى .

(٢) هكذا فى « ر . م » . وفى المخطوطين : صدقته .

(٣) هذه الزيادة واردة فقط فى « ر . م » .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : (يصعب) . وقلعة يحصب من حصون غرناطة القديمة . وكانت تعرف بقلعة بنى سعيد . وقد سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١٧) .

(٥) هكذا وردت فى « ر . م » . وفى المخطوطين : الهام .

الـتّراس ، ونسج الدّروع ، وصقل البيضات والسيوف ، وارتبط (١) الخيل ، وأقام المساجد فى الثغور ، و بنى لنفسه مسجداً بالقصر ، وواصل الجلوس ، للنظر فى الظُّلامات (٢) ، وقراءة الرّقاع ، وردّ الجواب ؛ وكتب التوقيعات ، وأكرم الفقهاء والطلبة ، وكان له يوم فى كل جمعة ، يتفرغ فيه للمناظرة .

وزراؤه

قال أبو بكر ؛ وقرن الله به ممن ورد معه ، الزبير بن عمر اللّمتونى ، نُدْرة (٣) الزمان كرماً و بسالة ، وحزماً وأصالة ، فكان كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولى شيئاً من أمور المسلمين فأراد الله به خيراً ، جعل الله له بطانة خيرٍ ، وجعل له وزيراً صالحاً ، إن نسى شيئاً ذكَّره ، و إن ذكَّره أعانه » .

عُمّـاله

الوزير أبو محمد الحسين بن زيد بن أيوب بن حامد بن منحل (٤) [بن يزيد] (٥) .

كـتّابه

الرئيس العالم أبو عبد الله بن أبى الخصّال ، والكاتب المؤرخ أبو بكر الصيرفى [وغيرهم] (٦) .

---

(١) هكذا فى « ر . م » . وفى المخطوطين : ورباط .

(٢) وردت فى المخطوطين : الظلمات . والتصويب من « ر . م » .

(٣) هكذا وردت فى « ك » و « ر . م » . وفى « ج » : نورة .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . و « ر . م » . وفى « ك » : محمد .

(٥) ما بين الخاصرتين وارد فقط فى « ر . م » .

(٦) الزيادة واردة فقط فى « ر . م » .

ومن أخبار [جهاده] (١)

خرج الأمير تاشُفين فى رمضان عام أربعة وعشرين وخمسمائة بجيش غرناطة ومطوِّعتها ، واتصل به جيش قرطبة إلى حصن السِّكّة من عمل طُلَيطلة ، وقد اتخذه العدو زكاباً لإضراره بالمسلمين وشحنه وجَمَّ به شوكة حادة بقومِس (٢) مشهور ؛ فأحدق به ، ونشر الحرب عليه ، فافتتحه عَنْوة ، وقتل من كان به ، وأحيا (٣) قائده «فِرَنْد» (٤) ومن معه من الفرسان ، وصدر إلى غرناطة ، فبرز له الناس بروزاً لم يُعهد مثله . وفى شهر صفر من عام خمسة وعشرين أوقع بالعدو المُضَيِّق على أوليته . وفى ربيع الأول من عام ستة وعشرين ، تعرَّف خروج عدو طُليطُلة إلى قرطبة ، فبادر الأمير تاشفين الى قرطبة ، ثم نَهَد (٥) إلى العدو فى خَفٍّ ، وترك السيقة والثُّقْل بأرْجُونة . وقد اكتسح [العدوّ] (٦) بشنت إشطيبن (٧) والوادى الأحمر . وأسْرَى الليل ، وواصل الركض ، وتلاحق بالعدو بقرية براشة . فتراءى الجمعان صُبْحاً ، وافتضح الجيش ، ونشرت الرّماح (٨) والرايات ، وهَدَرت الطبول ، وضاقت المسافة ، وانتبذ العدو عن الغنيمة ؛ والتف الجمعُ ، فتقصرت الرّماح ، ووقعت المسابقة ، ودارت الحرب على العدو ، وأخذ السيف مأخذه ، فأتى القتل على آخرهم ، وصدر إلى غرناطة ظاهراً . وفى آخر هذا العام خرج العدو «للنمط» وقد احتفل فى جيشه

---

(١) الزيادة واردة فقط . فى «ر . م» . ووردت فى المخطوطين : ومن أخباره .

(٢) القومس هنا من ألقاب الشرف ، وهو باللاتينية Comes أو الكونت .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى «ر . م» : واستحى .

(٤) هكذا فى «ر . م» . وفى المخطوطين : «فرنك» . وفرند هو Fernando .

(٥) أى برز .

(٦) واردة فقط فى «ر . م» .

(٧) هكذا فى «ر . م» ، وهو الرسم الصواب لهذا الإسم . وفى المخطوطين : (بشط اشطن) . وهو تحريف . وشنت اشطيبن وبالإسبانيه San Esteban قاعدة حصينة قديمة من قواعد ولاية جيان .

(٨) فى المخطوطين : الريح .

إلى بلاد الإسلام ، فصَبَح إشبيلية يوم النصف من رجب ، وبرز إليه الأمير أبو حفص عمر بن على بن الحاجّ ، فكانت به الدَّبرة [١] فى نفر من المسلمين استشهد جميعهم ؛ ونزل العدو على فرسخين من المدينة فجلّلها [٢] نهباً وغارةً ، فقتل عظيما ، وسبى عظيما ؛ وبلغ الخبر الأمير تاشفين ، فطوي المراحل ، ودخل إشبيلية ، وقد أسرَّها ؛ واستؤصلت باديتها ، وكثر بها التأديب والتنكيل، [٣] فأخذ أعقاب العدو ، وقد قصد ناحية بَطَلْيوْس وباجَة ويابُرَة [٤] فى ألف عديدة من أنجاد الرجال، ومشهور الأبطال ، [فراش جَوْلاً عَهْداً بالرّوع] [٥] ، فظفر بما لا يحصيه أحد ، ولا يقع عليه عدد ؛ واثنى على رِسْل [٦] انتقل السيقة ، وثقته ببعد الصّارخ ، وتجشمت بالأمير تاشفين الأدلاء كل ذِرْوةٍ وثَنِيَّة ، وأفضى به الإعداد إلى فَلَاة بقرب الزّلّاقة ، وهو المَهْيَع الذى يضطر العدو إليه، ولم يكن إلاّ كلاً ولا، حتى أقبلت الطلائعُ منذرةً بإقبال العدوّ، والغنيمة فى يده قد ملأت الأرض؛ فلما تراءى الجمعان ، واضطربت المحلاّت ، ورتبت المراكب ، فأخذت مصافَّها، ولزمت الرجال مراكبها ، فكان القلب مع الأمير ووجوه المرابطين وأصحاب الطاعات، وعليه البنود الباسقات، مكتَّبة بالآيات،وفى المجْتَبين [٧] كبار الدولة من أبطال الأندلس ، عليهم حُمْر الرايات بالصور الهائلة ؛ وفى الجناحين أهل الثغر والأوشاب من أهل الجِلادة ، عليهم الرايات المُرقَّعات [٨] بالعَذَبَات المجزَّعات؛

---

(١) الدبرة أى الهزيمة .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » فحللها .

(٣) فى المخطوطين : التأكل .

(٤) بطليوس Badajoz من أعظم قواعد الأندلس القديمة ، وتقع فى جنوب غربى اسبانيا على حدود البرتغال . وباجة Beja من قواعد الأندلس القديمة. وتقع بكورة الغرب Algarve جنوبى البرتغال . ويابره Evora تقع فى البرتغال شمال باجة ، وقد كانت من أهم قواعد الأندلس البرتغالية .

(٥) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (فراس حوالا عهد بالروع) . ونعتقد أن التصويب يؤدى معنى يستقيم مع السياق .

(٦) يبدو أن هنا كلمة ساقطة ، ولعلها « حتى » .

(٧) وردت فى « ج » : المحتبين . ومكانها بياض فى « ك » .

(٨) أعنى خرق الألوية .

وفى المقدمة مشاهيرُ زَناته[١] ولفيفُ الحشَمِ بالرايات المُصبغات، والأعلام المُنَبّقات[٢] . والتقى الجمعان ، ونزل الصبر ، وحَمِيت النفوس ، واشتدّ الضرب والضِّراب ، وكُثرت الحملات ؛ فهزم الله الكافرين ، وأعطوا رقابهم مُدْبرين ، فوقع القتل ، واستْحَمَ العدوَّ السيفُ ، واستأصله الهلاك والأسار ؛ وكان فتحاً جليلا لا كفاء له ، وصدر الأمير تاشفين ظافراً إلى بلده فى جمادى من هذا العام . ولو ذهبنا لاستقصاء حركات الأمير تاشفين وظهوره لاستدعى ذلك طولا كثيراً .

بعض ما مدح به

فمن ذلك :

أما و بيضُ الهند عنك خصوم   فالروّم تبذل ما ظِباك تَرُومُ
تمضى سيوفُك فى العِدا و يردها[٣]   عن نفسه حيث الكلام وخيم

وهذه القصائد قد اشتملت على أغراضها الحماسية . والمُلْك سوقٌ يُجْلب إليها ما يُنْفق عندها .

وفاته

قد تقدم انصرافُه عن الأندلس سنة إحدى وثلاثين وخمسماية ، وقيل سنة أُثنين ، واستقرارُه بمرّاكُش مرؤوساً لأخيه سِير ، الى أن أفضى إليه الأمرُ بعد أبيه ؛ قال ، واستقبل تاشفين مدافعة جيش [أمير][٤] الموحدين ، أبى محمد عبد المؤمن بن

---

(١) من أشهر القبائل البربرية ، وموطنها شرقى مراكش فى جنوبى منطقتى تلمسان ووهران .
(٢) أى المزركشة .
(٣) وردت فى المخطوطين : و بردها .
(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . ويستلزمها السياق .

على خليفة مَهْديهم ، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره ، والدفاع عن مُلْكٍ بلغ مداه، وتمّت أيامه ، كتابُ الله عليه ؛ فالتأث سَعْدُه ، وفُلَّ جَدَّه ، ولم تقم له قائمةٌ إلى أن هُزم ، وتبدَّد عسكره ، ولجأ إلى وَهْران ، فأحاط به الجيش ، وأخذه الحصار ؛ قالوا فكان فى تدبيره أن يلحق ببعض السواحل ، وقد تقدم به وصول ابن ميمون قائد أسطوله ، ليرفعه إلى الأندلس ؛ فخرج ليلا فى نفر من خاصّته فرّقهم الليل ، وأضلّهم الروع ، وبدّدتهم الأوعار ، فمنهم من قتل ، ومنهم من لحق بالقطائع البحرية ؛ وتردّى بتاشفين فرسُه من بعض الحافَّات ، ووُجد ميّتاً فى الغد ، وذلك ليلة سبع (١) وعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ؛ وصلبه الموحِّدون ، واستولوا على الأمر من بعده ، والبقاء لله تعالى (٢) .

ثابت بن محمد الجرجانى ثم الإستراباذى (٣)

يكنى أبا الفتوح .

حـــاله

قال ابن بسّام ؛ كان الغالب على أدواته علمُ اللِّسان ، وحفظ الغريب ، والشعر الجاهلى والإسلامى ، إلى المشاركة فى أنواع التعاليم ، والتصرُّف فى حمل السلاح ، والحذق بأنواع الجُنْدية ، والنفاذ فى أنواع الفروسيَّة ، فكان الكاملُ فى خلال جمّة . قال أبو مروان؛ ولم يدخل الأندلس أكمل من أبى الفتوح فى علمه وأدبه. قال ابن زيدون،

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : تسع .

(٢) روجعت هذه الترجمة بأكملها على مخطوط « رواق المغاربة » بالأزهر .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (الأستريادى) ، وهو تحريف . وصوابه الإستراباذى نسبة إلى إستراباذ . وهى بلد فارسية قديمة من أعمال طبرستان ، وإليها ينتسب كثير من العلماء .

لقيتُه بغرناطة ، فأخذْت عنه أخبار المشارقة ، وحكايات كثيرة ؛ وكان غزير الأدب ، قوىّ الحفظ فى اللغة ، نازعاً إلى علم الأوائل من المنطق والنجوم والحكمة ، له بذلك قوة ظاهرة .

طرووه على الأندلس

قال صاحب الذخيرة ؛ طرأ على الحاجب منذ صَدْر الفتنة للذائع من كرمه ، فأكرمه ورفع شأنه ، وأصحبه ابنه ، المرشَّحَ لمكانه ، فلم يزل له بهما المكان المكين ، إلى أن تغيّر عليه يحيي لتغير الزمان، وتقلب الليالى والأيام بالإنسان[١] ؛ ولحق بغرناطة بعسكر البرابرة ، فحلّت به من أميرهم باديس الفاقرة[٢] .

من روى عنه

قال أبو الوليد ؛ قرأت عليه بالحضرة[٣] الحماسة فى اختيار أشعار العرب، يحملها عن أحمد بن عبد السلام بن الحسين البصرى ، ولقيه ببغداد سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ، عن أبى رياش أحمد بن أبى هشام بن شِبْل العَبْسى بالبصرة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ؛ وله[٤] فى الفضائل أخبار كثيرة .

محنته ووفاته

لحقه عند باديس مع ابن عمه يدّير بن حُباسة تهمةٌ فى التدبير عليه ، والتسوُّر على سلطانه ، دعتهما إلى الفرار عن غرناطة ، واللِّحَاق بإشبيليّة . قال أبو يحيي الورّاق ؛ واشتدّ شوق أبى الفتوح إلى أهله عند هربه مع يدِّير إلى إشبيلية لما بلغه أن باديس

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : بالأسن .

(٢) الفاقرة أى الداهية .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : (بحضرتى . بحضرة) . والحضرة هنا أعنى غرناطة .

(٤) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

قبض على زوجته وابنه وحبسهم بالمُنَكَّب عند العبد قدّاح صاحب عذابه ، وكان لها من نفسه موقعٌ عظيمٌ[١] ، وكانت أندلسيَّة جميلة جدًّا لها طفلان ذكرٌ وأنثى ، لم يُطِق عنهما صبراً ، وعمل على الرجوع إلى باديس طمعاً فى أن يصفح عنه ، كما عمل مع عمّه أبى ريش ؛ فاستأمن إلى باديس يوم نزوله على باب إستِجة إِثر انهزام عسكر ابن عباد ، وفارق صاحبَه يدِّير ، ورمى هو[٢] بنفسه إلى باديس من غير توثُّق بأمان أو مراسلة ؛ فلما أُدخل[٣] عليه وسلم ، قال له ابتدى ، بأى وجهٍ جئتنى يا نمام[٤] ما أجْرأك على خَلْقك ، وأشدَّ اغترارك[٥] بسحرك ، فرّقت بين بنى ما كْسَنْ ، ثم جئت تخدعُنى كأنك لم تصنع شيئاً ؛ فلاطفه ، وقال اتق الله ياسيدى ، وارعَ ذمامى ، وارحمْ غربتى وسوء مقامى ، ولا تُلزمنى ذنب ابن عمك ، فما لى سبب فيه ، وما حملنى على الفرار معه إلا الخوف على نفسى لسابق خُلطته ؛ ولقد لَفَظتنى البلاد إليك مُقرًّا بما لم أجنِه رغبة فى صفحك ، فافعل أفعال الملوك الذين يَجِلُّون عن الحقد على مثلى من الصعاليك ؛ قال بل أفعلُ ما تستحقُّه إن شاء الله ؛ أن تنطلق إلى غرناطة ، فدُم [على][٦] حالك ، والق أهلك إلى [أن][٧] أُقبِل ، فأصلح من شأنك . فاطمأن إلى قوله ، وخرج إلى غرناطة وقد وُكِّل به فارسان ، وقد كتب إلى قدّاح بحبسه ؛ فلما شارف إلى غرناطة قبض عليه ، وحلَق رأسه ، وأُركب على بعير ، وجُعل خلفه أسودُ فَظٌّ ضخم يوالى صَفْعه ، فأدخل البلد مُشَهَّرًا ، ثم أودع حبساً ضيقاً ، ومعه رجل من أصحاب يَدِّير أُسر فى الوقعة من صِنْهاجة ، فأقاما فى الحبس معاً إلى أن قفَل باديس .

---

(١) وردت فى المخطوطين : عظيمة .

(٢) أثبتها « ج » . وأغفلها « ك » .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » . دخل .

(٤) وردت فى المخطوطين : (إتمام) . وقد رجحنا هذا التصويب الذى يستقيم به السياق .

(٥) وردت فى المخطوطين : اعتراك . وهو تحريف .

(٦) ساقطة فى المخطوطين . ويستلزمها السياق .

(٧) زيادة يستلزمها السياق .

مقتـــله

قال أبو مروان فى الـكتاب المسمى بالتيسير[١] ؛ واستراح [باديس][٢] أياماً فى غرناطة يَهيم[٣] بذكر اُلجرجانى ، ويعضُّ أنامله ، فيعارضه فيه أخوه بُلُـكِّين ، ويكذب الظنون وسعى فى تخليصه ، فارتبك باديس فى أمره أياماً ، ثم غافض[٤] أخاه بلـكين فقتله وقتاً أمن فيه [أمر][٥] معارضته ، لاشتغاله بشرابٍ وآلة[٦] ، وكانت من عادته ؛ فأحضر باديس اُلجرْجانى إلى مجلسه ، وأقبل يشتمه ويسبه ويُبكِّته ، ويطلق الشماتة ويقول ، لم تُغْن عنك نجومك يا كذَّاب ، ألم يعد أميرُكَ الجاهل، يعنى يدِّير ، أنه سوف يظفر بى ويَملِكُ بلدى ثلاثين سنة ، لِمَ لم تدقق[٧] النظر لنفسك وتحذر ورطتك ؛ قد أباح الله لى دمك . فأيقن[٨] أبو الفتوح بالموت ، وأطرق ينظر إلى الأرض ، لا يكلمه ولا ينظر إليه ؛ فزاد ذلك فى غيظ باديس ، فوثب من مجلسه والسيفُ فى يده ، فخبط به اُلجرجانى حتى جدّ له ، وأمر بجزِّ رأسه ؛ قال ، وقُدِّم الصِّنهاجى الذى كان محبوساً معه إلى السيف ، فاشتد جزعُه ، وجعل يعتذر من خطيئته ، ويلحُّ فى ضراعته[٩] ؛ فقال له باديس أما تستحى يا ابن الفاعلة ؛ يصبر المعلم الضعيفُ القلب على الموت مثل هذا الصبر ، ويَمْلكُ نفسه عن كلامه لى واستعطافى ،

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين : بالتين .

(٢) ساقطة فى المخطوطين : وواردة فى « ت » .

(٣) هكذا فى « ل » وفى « ج » : يهم .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : عافص . وغافض أخاه أعنى فاجأه وأخذه على غرة .

(٥) واردة فى « ج ». وساقطة فى « ك » .

(٦) فى « ك » : والآلة . وفى « ج » : والاه .

(٧) وردت فى « ح » محرفة ، تدقن . وفى « ل » : تتقن ، والمؤدى واحد .

(٨) وردت محرفة فى المخطوطين : (فايق) .

(٩) وردت فى المخطوطين : غراصته .

وأنت تجزع مثل هذا الجزع ، وطال ما أعددت نفسك فى أشدّاء الرجال ، لا أقال اللهُ مقيلك ؛ فضرب عنقه ، وانقضى المجلس .

ومن تمام الحكاية مما جلبه ابن حيّان . قال ، وكلّم الصنهاجيُّون باديس فى جثّةِ صِنْهاجِهم[(١)] المقتول مع أبى الفتوح ، فأمرَنى بإسلامها إليهم ، فخرجوا بها من فورهم إلى المقبرة على نعش ، فأصابوا قبرا قد احتُفر لمَيْت من أهل البلد ، فصبُّوا صاحبهم الصِّنهاجى فيه ، ووراوه من غير غُسل ولا كفن ولا صلاة ، فعجب الناس من تَسَحِّيهم[(٢)] فى الاغتصاب حتى الموتى فى قبورهم .

مولده

سنة خمسين وثلاثمائة .

وفاته

كما ذُكر ليلة السبت لاثنتين بقيتا من محرم سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ؛ قال برهون من خُدام باديس : أمرنى بمواراة أبى الفتوح إلى جانب [قبر][(٣)] أحمد بن عباس وزير زُهير العامرى ، فقَبْراهُما فى تلك البقعة مُتجاوران[(٤)] ، وقال اجعل قبرَ عدُوٍّ إلى جانب عدو إلى يوم القِصاص ، فيالهما قبران أَجَمّا[(٥)] أدبا لا كفاء له ، والبقاء لله سبحانه .

---

(١) كذا فى « ج » . وفى « ك » : ضهاهم .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : تسحبهم .

(٣) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٤) فى المخطوطين : مجاورا / .

(٥) فى « ج » : احما . وفى « ك » : احبا .

جعفر بن أحمد بن على الْخُزاعى

من أهل غرناطة ؛ ويعسُوب الثَّاغِية والرَّاغِية[١] من أهل رَبَض البَيَّازين[٢] ، يكنى أبا أحمد الشهير ذكره بشرق الأندلس ، المعروف بكرامة الناس ، المقصود الحُفرة ، المحترم التُّربة حتى من العدو ، والرائق بغير هذه الملة . خرج قومه من وطنهم عند تغلب العدوّ على الشرق ، فنزلوا ربض البيّازين ، جوفى المدينة ، وارتاشوا ، وتلثّموا[٣] ، وبنوا المسجد العتيق ، وأقاموا رسم الإرادة ، يرون أنهم تمسكوا من طريق الشيخ أبى أحمد بآثاره ، فلا يَغُبُّون بيته ، ولا يقطعون اجتماعاً ؛ على حالهم المعروفة من تِلاوة حسنة ، وإيثار ركعات ، ثم ذكْر ثم ترجيع أبياتٍ فى طريق التصوف ، مما يُنسب للحسين بن منصور الحلاّج[٤] وأمثاله ، يعرفونها منهم مشيخةٌ ، قوّالون هم [فحول][٥] الأجمة وضرائك[٦] تلك القطيعة ، يهيجون بلابلهم ، فلا ينشبون أن يحمى وطيسُهم ، ويخلط مَريعُهم بالهَمَل[٧] ، فيرقصون رقصا غير مُساوق للايقاع الموزون ، دون العجال[٨] الغالبة منهم ، بإفراد كلمات من بعض المقول ، ويكرُّ بعضهم على بعض ، وقد خلعوا خَشِن ثيابهم ، ومرقوعات قَباطيهم ودرانيكهم[٩] ، فيدوم حالهم حتى يتصببوا عرقاً ، وقُوّالُهم يحرِّكون

---

(١) يعسوب أى رئيس . والثغاء هو صريخ الشاة ، والرغاء هو صوت البعير . والمقصود أهل الشغب .

(٢) هو أحد أحياء غرناطة . وسبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص ٣٩٥) .

(٣) هكذا فى المخطوطين : وقد يعنى ذلك أنهم اتخذوا طريقة الملثمين أى المرابطين الدينية .

(٤) سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص ٢٢٦)

(٥) وردت فى المخطوطين : فحل . والتصويب لازم للسياق .

(٦) وردت فى المخطوطين صراديك . ونرجح أنها « ضرائك » ومعناها النسور .

(٧) مريعهم أعنى أكابرهم . والهمل ، الأصاغر والرعاع .

(٨) هكذا « فى « ك » . وفى « ج » : الجعال .

(٩) قباطيهم ودرانيكهم . من الواضح أنها من أصناف الثياب التى يرتديها أهل هذه الطريقة .

فتورهم ، ويَزْمِرون روحهم ، يخرجون بهم من قول إلى آخر ، ويَصِلون الشيء بمثله ، فربما أخذت نوبةُ رقصهم بطرفى الليل التمام ، ولا تزال المشيِّعة لهم يدعونهم ، ويحاجُّونهم[١] إلى منازلهم ؛ وربما استدعاهم السلطان إلى قصره مُمحضاً فى لطايف نعيمه باخْشيشانهم ، مبدياً التبرُّك بألويتهم[٢] ؛ ولهم فى الشيخ أبى أحمد والد نِحْلتهم ، وشحنة قلوبهم ، عصبيَّة له وتقليد بإيثاره ، أنفجَت[٣] لعقده أيمانهم ، وشرطٌ فى صحة دينهم ، وارتكبوا فى النُّفور عن سماع المِزْمار القَصَبى المسمى بالشَّبابة الذى أُرخص فى حضور الولائم ، مع نَفخٍ بَرَعه العدد[٤] الكثير من الجِلّة الصلحاء القُدْوة مرتكَباً ، حتى ألحقوه بالكبائر الموبِقة ، وتعدُّوا اجتنابه جِبِلّة وكراهةً طِباعِيَّة ، فتزْوى عند ذكره الوجوه ، وتُقتحم عند الاتِّهام به الدُّور ، وتسقط فيما بينهم بفَلْتَة سماعه أخوةُ الطريق ؛ وهم أهل سذاجة وسلامة ، أولو اقتصاد فى ملبس وطعمة واقتيات بأدنى بُلْغة ، ولهم فى التعصب نزعة خارجيَّة[٥] ، وأعظمهم ما بين مُكْتَسِب[٦] مُتسَبِّب ، وبين معالج مَدرَة ، ومُريع حياكة ، وبين أظهرهم من الذَّعرة[٧] والصعاليك كثير ؛ والطُّرُق إلى الله عدد أنفاس الخلايق ، جعلنا الله ممن قُبل سعيه ، وارتضى ما عنده ، ويسَّره لليسرى .

حـاله

قام هذا الرجل مقام الشيخ أبى تمام قريبه على هيئة مهلكه ، فسدَّ مسدَّه ، على

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : (ويحاجون بهم) .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : (بالوميهم . بالوليهم) .

(٣) أعنى أثارت وأخرجت .

(٤) كذا فى « ك » . وفى « ج » : العود .

(٥) نسبة إلى مذهب الخوارج .

(٦) وردت محرفة فى المخطوطين : مكسب .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الزرعة .

حال فتور وغرارة[١] حتى لان له متنُ الُخطة ، وخف عليه بالمران ثُقْلُ الوظيفة ، فأمّ وخطب ، وقاد الجماعة من أهل الإرادة . وقضى فى الأمور الشرعية بالرَّبَض ، تحت ضِبْنِ[٢] قاضى الجماعة . وهو الآن بعده على حاله ، حسنُ السَّجيَّة ، دمِثُ الأخلاق ، ليِّن العريكة ، سهل الجانب ، مقترن الصدق والعفّة ، ظاهر الجِدَة ، محمود الطريقة ، تطأه أقدام الـكُلَف ، وتطَّرح به المطارحُ القاصية ، حَوَا على الشَّفاعات ، مستور الـكفاية فى لَفْق الضعف ، متوالى شعلة الإدراك فى حِجْر الغفلة ، وجهٌ من وجوه الحضْرة فى الجمهورية ، مرعىُّ الجانب ، مخفَّف الوظايف ، مقصوداً من مُنْتامى[٣] أهل طريقه بالهدايا ، مُسْتَدعى إلى من بالجهات منهم فى كثير من الفصول ، ظاهرُ الجدوى فى نَفِير الجهاد ، رحمه الله ، ونفع بأهل الخير .

مولده

عام تسعة وسبعمائة .

وفاته

[يوم الإثنين التاسع والعشرين لرمضان خمسة وستين وسبعمائة][٤] .

جعفر بن عبد الله بن محمد بن سِيدبُونة الخزاعى

من أهل شرق الأندلس من نظر[٥] دانية ، يكنى أبا أحمد الولى الشهير .

---

(١) وردت فى المخطوطين وعرارة . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) تحت ضبنه أى فى كنفه وتحت رعايته .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : متنافى . والمقصود هنا أنصار أهل الطريقة .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى « ك » . وفى « ج » أثبتت « الوفاة » قبل « المولد » .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : سفر . وربما كانت « ثغر » وحرفت . وقد سبق التعريف بدانية (انظر الحاشية فى ص ٢٧١) .

حـــاله

كان أحد الأعلام المنقطِعِي القرين فى [طريق][١] كتاب الله، وأولى الهداية الحقة ، فذ ، شهير ، شائع الحلة ، كثير الأتباع ، بعيد الصيت ، توجبُ حقَّه حتى الأمم[٢] الداينة بغير دين الإسلام ، عند التغلب على قرية[٣] مدفنه بما يُقضى منه بالعجب ؛ قال الأستاذ أبو جعفر بن الزُّبير عند ذكره فى الصِّلة : أحد الأعلام المشاهير[٤] فضلاً وصلاحاً ، قرأ ببلَنْسية ، وتفقّه ، وكان يحفظ نصف « المدوّنة »[٥] وأقرأها ، ويؤثر الحديث والتفسير والفقه ، على غير ذلك من العلوم .

[مشيخته][٦]

أخذ القراءات السبع عن المقرئ أبى الحسن بن هُذيل ، وأبى الحسن بن النَّعمة ؛ ورحل إلى المشرق ، فلقى فى رحلته جِلَّة ، أشهرهم وأكبرهم فى باب الزهد وأنواع سَنى الأحوال ، ورفيع المقامات ، الشيخ الجليل ، الولى لله[٧] تعالى ، العارف[٨] ، أبو مدين شُعيب بن الحسين المقيم بِبجايه ؛ صحبه وانتفع به ، ورجع من عنده بعجايب دينية ، ورفيع أحوال إيمانية ؛ وغلبت عليه العبادة ، فشُهر بها حتى رحل إليه الناس للتبرك بدعائه ، والتيمُّن برؤيته ولقائه ، فظهرت بركته على القليل والكثير منهم[٩] ،

---

(١) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .
(٢) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » الإمام .
(٣) وردت فى المخطوطين : قراءة . والمرجح التصويب . وبه يستقيم المعنى .
(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » الشهيرة .
(٥) يرجع فى التعريف بهذا المصنف إلى الملحق الخاص بالكتب .
(٦) ساقطة فى المخطوطين . وقد اثبتناها تمشياً مع طريقة المؤلف . والظاهر أنها سقطت سهواً .
(٧) فى المخطوطين : الوالى .
(٨) وردت فقط فى « ك » .
(٩) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين بعد كلمة بركته . وقد أخرناها ليستقيم السياق .

وارتووا زُلالا من ذلك العذب النَّمير ، وحظه من العلم مع عمله الجليل موفور ، وعِلمهُ وعمله نورٌ على نور . لقيت قريبه الشيخ أبا تمام(١) غالب بن حسين بن سِيدبُونه حين ورد غرناطة ، فكان يحدث عنه بعجائب .

دخوله غَرْناطة

وذكر المُعتنون بأخباره بالحضْره إلى طريقه ، أنه دخل الحضرة وصلّى فى رابطة الرُّبُط من باب . . .(٢) وأقام بها أياماً ، فلذلك المسجد المزيةُ عندهم إلى اليوم . وانتقل الكثير من أهله وأذياله عند تغلُّب العدو على الشرق على بلدهم ، إلى هذه الحضرة ، فسكنوا منها رَبَض البيّازين ، على دين وانقباض وصلاح ، فيحجون بكنوز من أسراره ، ومبشراته مضنونٌ(٣) بها على الناس . و بالحضرة اليوم منهم بقية تقدَّم الإلماع بذكرهم .

وفاته

توفى رحمه الله بالموضع المعروف بزَناتة فى شوال سنة أربع وعشرين وستمائة ، وقد نيفَ على الثمانين .

الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبى الأحْوَص القُرشى الفِهرى

نشأ بغرناطة ، يكنى أبا على ، و يعرف بابن النَّاظر .

---

(١) وردت فى المخطوطين : « أبو تمام » . والخطأ فى رسم الأسماء الخمسة شائع فى المخطوطين . ونعتقد أنه سهو الناسخ .

(٢) بياض فى المخطوطات الثلاث .

(٣) فى المخطوطين : مظنون .

حـاله

كان متفنناً فى جملة معارف ، أخذ من كل علم سَنى بحظ وافر ، [حافظاً](١) للحديث والتفسير ، ذاكراً للأدب واللغة والتواريخ ، شديد العناية بالعلم ، مُكباً على استفادته و إفادته ، حسن اللقاء لطلبة العلم ، حريصاً عل نفعهم ، جميل المشاركة لهم . وقال الأستاذ : كان من بقايا أهل الضبط والإتقان لما رواه ، وآخر مُقرئى القرآن ، ممن يُعتبر(٢) فى الأسانيد ومعرفة الطرق والروايات ، متقدماً فى ذلك على أهل وقته ؛ وهو أوفر من كان بالأندلس فى ذلك ؛ [أقرأ](٣) القرآن والعربية بغرناطة مدة ، ثم انتقل إلى مالَقَة فأقر أبها يسيراً ؛ ثم انقبض عن الإقراء ، و بقى خطيباً بقصبة مالقة نحواً من خمسة وعشرين سنة ؛ ثم كرَّ منتقلاً إلى غرناطة ، فولى قضاء ألْمَرِيّة ، ثم قضاء بَسْطة ، ثم قضاء مالقة .

« وصمته » ؛ قال الأستاذ : إلا أنه كان فيه خُلُق(٤) أخلّت به ، وحملته على إعداء ما ليس من شأنه ؛ عفا الله عنه ، فكان ذلك مما يُزهِّد فيه .

مشيخته

روى عن الأستاذ المقرئ أبى محمد عبد الله بن حسين الكوّاب ، أخذ عنه قراءة السبع وغير ذلك ، وعن أبى على وأبى الحسن بن سهل بن مالك الأزْدى ، وأبى عبد الله محمد بن يحيى المعروف بالحلبى ، وجماعة غير هؤلاء ؛ ورحل إلى إشبيليّة فروى بها عن الشيخ الأستاذ أبى على أ كثر كُتَّاب سيبويه تفقُّهاً ، وغير ذلك .

---

(١) وردت فقط فى « ك » .

(٢) وردت فى المخطوطين : يعبد . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٣) ساقطة فى المخطوطين . ويستلزمها السياق .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » خلة . والمؤدى واحد .

وأخذ عن جماعة كثيرة من أهلها ، وقدم عليها إذ ذاك القاضى أبو القاسم بن بَقِيّ ، فلقيه بها وأخذ عنه ؛ ورحل إلى بلَنْسِية ، فأخذ بها عن الحاج [أبى الحسن] (١) ابن خيرة ، وأبى الربيع بن سالم ؛ وسمع عليه جملةً صالحة كأبى عامر بن يزيد بن أبى العطاء بن يزيد وغيرهم ؛ وبجزيرة شُقْر عن أبى بكر بن وضّاح ؛ وبمُرْسِية عن جماعة من أهلها ؛ وبأُرْيُولة عن أبى الحسن بن بَقِيّ ؛ وبمالقة عن آخرين ، وتحصّل له جماعة نيفوا على الستين .

« تصانيفه » ؛ منها المُسلسلات ، والأربعون حديثاً ، والترشيد فى صناعة التّجويد ، وبرنامج رواياته وهو نبيل .

« شعره » ؛ كان يقرض شعراً لا يُرْضى لمثله ، ممن برّز تبريزه فى المعارف .

مولده

يوم الخميس لاثنى [عشر] (٢) ليلة بقيت من شوال سنة خمسين وستمائة .

« وفاته » ؛ توفى بغرناطة لأربع عشر ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة [تسع وتسعين] (٣) وستمائة .

الحسن بن محمد بن الحسن النُّباهى الُجذامى

من أهل مالقة ، يكنى أبا على .

أوليّتـــه

قال القاضى المؤرخ أبو عبد الله بن أبى عسكر فيه ؛ من حُسَباء مالقة وأعيانها

---

(١) ساقطة فى « ك » .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطات الثلاثة . ويقتضى إثباتها السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : ثمانين . والتصويب من كتاب قضاة الأندلس (ص١٢٧) وهو أرجح .

وقضاتها ، وهو جدُّ بنى الحسن المالَقيين ، و بيته بيت قضاء وعلم وجلالة ، لم يزالوا يرثون ذلك كابراً عن كابر ؛ استَقْضَى جدَّه المنصور بن أبى عامر ، وكانت له ولأصحابه حكاية(١) مع المنصور .

قال القاضى ابن بياض ، أخبرنى أبى ، قال : اجتمعنا يوماً فى متنزَّه لنا بجهة النَّاعُورة بقرطبة مع المنصور بن أبى عامر فى حداثة سنِّه ، وأوان طَلَبه ، وهو مُرتج مُؤمِّل ، ومعنا ابن عمه عمر بن عبد الله بن عسقلان ، والـكاتب ابن المَرْعزى ، والفقيه أبو الحسن المالقى ؛ وكانت(٢) سفرة فيها طعام ، فقال ابن أبى عامر من ذلك الكلام الذى كان يتكلم به ، لا بد أن نملك الأندلس ، ونحن نضحك منه ومن قوله . ثم قال : يتمنَّى كلٌّ واحد منكم علىّ ما شاء أُوَلِّيه ؛ فقال عمر : أتمنى أن توليني المدينة ، نضرب ظهور الجنَّات ؛ وقال ابن المرعزى : وأنا أشتهى الأسْفَحَ(٣) ، القضاء فى أحكام السُّوق ؛ وقال أبو الحسن : وأنا أحب هذه ، أن [توليني](٤) قضاء مالَقَة بلدى . قال موسى بن غَدْرون ، قال لى تمن أنت ، فشَقَقْتُ لحيته بيدى ، واضطربت به وقلت قولًا قبيحاً من قول السفهاء . فلما مَلَكَ ابن أبى عامر الأندلس ، ولىّ ابن عمه المدينة ، وولى ابن المَرْعَزى أحكام السوق، وولى أبا الحسن المالقى قضاء رية(٥) ؛ و بلغ كل واحد ما تمنى ، وأخذ مِنّى مالاً عظيماً أفقرَنى لقبح قولى . فبيت بنى الحسن شهير ، وسيأتى من أعلامه ما فيه كفاية .

حـاله

قال ابن الزُّبير ؛ كان طالباً نبيلاً من أهل الدين والفضل والنُّهى والنباهة .

---

(١) فى المخطوطين جاءت كلمة (ولأصحابه) ، بعد كلمة (حكاية) . ووضعها فى مكانها أنسب

(٢) فى المخطوطين : وكان .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الاسفنج .والأسفح ، أعنى الأقل جدوى .

(٤) وارده فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٥) هو الاسم التقديم لولاية مالقة .

[« نباهته » ؛ قال ابن الزبير فى كتاب نُزهة البصائر والأبصار ، استُقْضِى بغرناطة][1] .

وفاته

توفى سنة اثنين وسبعين وأربعمائة ؛ ذكره ابن بَشْكُوال فى الصِّلة ، وعرّف بولايته قضاء غرناطة ؛ وذكره ابن عسكر ، وتوهَّم فيه المَلَّاحى ، فقال ، هو من أهل إلبيرة .

حسن بن محمد بن حسن القيسى

من أهل مالقة ، يكنى أبا على ، ويعرف بالقِلنار .

حـــاله

كان رحمه الله بقيَّة شيوخ الأطباء ببلده ، حافظاً للمسائل الطِّبية ، ذاكراً للدواء ، فسيح التَّجربة ، طويل المُزاولة ، متصرفاً فى الأمور التى ترجع إلى صناعة اليدين[2] صَدْلةً وإخراعةً[3] ، محارباً ، مقدوراً عليه فى أخرياته[4] ، ساذجاً ، مُخْشَوْشناً ، كثير الصحة والسلامة ، محفوظ العقيـدة ، قليل المصانعة ، بريًّا من التشمت ، يعالج معيشته بيده فى صُبابة فلاحة. أخذ صناعة الطب عن أبى الحسن الأرْكُشى،[5]

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى « ج » .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الدين .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وقد تعنى (صيدلة واختراعاً) .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : آخر أيامه .

(٥) نسبة إلى أركش Arcos وهى بلدة أندلسية صغيرة من أعمال شريش تقع على نهر وادى لكه.

ومعرفة أعيان النبات عن المُصْحفى ، وسَرَح معه ، وارتاد منابت[(١)] العُشب فى صحبته ، فكان آخر السحَّارين[(٢)] بالأندلس ؛ وحاول عمل التِّرياق الفارق بالديار السلطانية عام اثنين وخمسين وسبعمائة مبرِّزاً فى اختيار[(٣)] أجزائه ، وإحكام تركيبه ، وإقدام على اختبار مرهُوبِ حياته ، قتلاً وصَنْجاً وتقريصاً ، بما يعجب من إدلاله فيه ، وفراهته عليه .

حسن بن محمد بن باصَة[(٤)]

يكنى أبا على ، ويعرف بالصَّعَلْعَل ، رئيس المؤقِّتين بالمسجد الأعظم من غرناطة ؛ أصله من شرق الأندلس .

حاله

كان فقيهاً إماماً فى علم الحساب والهيئة ؛ أخذ عنه الجِلَّة والنبهاء ، قائماً على الأطلال والرَّخائم والآلات الشعاعية[(٥)] ، ماهراً فى التعديل ، مع التزام السُّنَّة ، والوقوف عند ما حدَّ العلماء فى ذلك ، مداوم النظر ، ذا مُسْتَنبطات ومُسْتَدركات وتواليف ، نسيج وحده ورَحْقَة وقته .

وفاته

توفى بغرناطة عام ستة عشر وسبعمائة .

---

(١) فى المخطوطين : مناقب . والتصويب أرجح .
(٢) هكذا فى « ج » وفى « ك » : السحارير .
(٣) هكذا فى « ج » وفى « ك » : اختبار .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ماصه .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الشاعية .

الحسن بن محمد بن على الأنصارى

من أهل . . .[1] يكنى أبا على ويعرف بابن كِسرى .

حاله

كان متقدماً فى حفظ الأدب واللغة ، مبرِّزاً فى علم النحو ، شاعراً مُجيداً ، ممتع المؤانسة ، كثير المواساة ، حسن الخُلُق ، كريم النفس ، مُثرِيًّا[2] فى نظم الشعر [فى غير فن][3] ؛ مدح الملوك والرؤساء ، مؤثراً للخُمول على الظهور ، وفى تخامُله يقول شعراً ثبت فى موضعه .

مشيخته

روى عن أبى بكر بن عبد الله بن ميمون الكِندى ، وأبى عبد الله الكندى ، وأبى الحكم بن هرودس[4] ، وأبى عبد الله بن غالب الرُّصافى .

« ممن روى عنه » ؛ روى عنه أبو الطاهر أحمد بن على الهوارى السَّبْتى ، وأبو عبد الله إبراهيم بن جزيرة ، وإبراهيم بن سالم بن صالح بن سالم .

نباهته وإدراكه

من كتاب نُزهة البصائر والأبصار ؛ قال القاضى أبو عبد الله بن عسكر ، نقلت

---

(١) مكانها بياض فى المخطوطين .

(٢) أعنى خصباً مكثرا .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : (فى فن غير) .

(٤) وردت فى المخطوطين : ابن هردوس . والتصويب من صلة ابن الزبير (رقم ١٨٤) .

من خط صاحبنا الفقيه القاضى رحمه الله ما معناه :

قال ؛ حدثنى الفقيه الأديب أبو على ، قال كنت بإشبيلية ، وقد قصدتها لبعض الملوك ؛ فبينما أنا أسير فى بعض طرقها ، لقيتُ الشيخ أبا العباس ، فسلَّمتُ عليه ، ووقفت معه ، وكنت قد ذُكر لى أن بها رجلا من الصالحين ، زاهداً ، فاضلاً ينتقد من الشعر فى الزهد والرقائق ، ببدائع تعجب [وكان بالمغرب قد قصّد الهربىّ والنادر](١) ؛ فسألنى أبو العباس عن مصيرى ، فأعلمته بقصدى ، فرغب أن يصحبنى إليه ، حتى أتيناه ، فرأيناه رجلاً عاقلاً ، قاعداً فى موضع قذر ، فسلمنا عليه ، فرد علينا ؛ وسألناه عن قعوده فى ذلك الموضع ، فقال أتذكَّرُ الدُّنيا وسيرتها ، فزِدْنا به غِبطة ؛ ثم استَنْشدناه فى ذلك الغرض من كلامه ، ففكَّر ساعة ثم(٢) أنشدنا كلاماً قبيحاً ، تضمن من القبيح ومن الإقذاع والفواحش ما لا يحلّ سماعه ؛ فقمنا نَلْعنه ، وخجِلت من أبى العباس ، واعتذرت له . ثم اتفق أن اجتمعنا فى مجلس الأمير الذى كنت قد قصدته ؛ فقال أبو العباس ، إن أبا علىّ قد حفظ لبعض الحاضرين شعراً فى الزهد ، من أعذب الكلام وأحسنه ؛ فسألنى الأمير وطاب منى إنشاده ، فخجلت ثم ثاب إلىّ عقلى ، فنظمت بيتين فأنشدتهما إياه وهما :

أشهد أن لا إله إلا الله   محمـــد المصطفى رسول الله
لا حَوْل للخَلْق فى أمورهم   إنما الحَوْلُ كـــلُّه لله

قال ، فأعجب الأمير ذلك واستحسنه .

ومن مقاماته بين يدى الملوك و بعض حاله ؛ نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضى أبى الحسن بن أبى الحسن ، قال ، المروى منسوب إلى قرية بقرب مالقة ، وهو الذى قال فيه الشيخ أبو الحجاج بن الشيخ رضى الله عنه :

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفقط أدخلنا الباء على كلمة « المغرب » فصارت تؤدى معنى يستقيم مع السياق . وهو أن هذا الزاهد كان أثناء مقامه بالمغرب ينظم القصائد المعضلة النادرة .

(٢) وردت فى المخطوطين كلمة (قال) بعد (ثم) فلم نر موضعاً لإثباتها .

إذا سمعت مَنْ أسرى ومن إلى المسجد أسْرَى
فَقُــلْ ولا تَتَوَقَّف أبا على[١] بن كِسْرى

قال وهو قريب الأستاذ الأديب أبى على[٢] الإسْتِجى[٣] ومعلُّمه ، وأحد طلبة الأستاذ أبى القاسم السُّهيلى ، وممن نبع[٤] صغيراً ؛ وارتحل إلى غرناطة ومُرسية ، وهو الذى أنشد فى طفولته السيد أبا إسحق بإشبيلية :

قسماً بِحِمْصٍ[٥] وإنّه لعظيم وهى المقــامُ وأنت إبراهيم

وكان بالحضْرة أبو القاسم السُّهيلى ، فقام عند إتمامه القصيدة ، وقال لمثل هذا هذا أُحْسِيك الحسا ، وأواصل فى تعليمك الإصباح والإمْسا، وكان يوماً مشهوداً[٦].
وأنشد الأميرَ أبا يعقوب حين حلّها :

أمَعْشَر أهل الأرض فى الطول والعرض بهذا استنادى[٧] فى القيامة والعرض
لقد قال فيك الله ما أنت أهــلُه فيقضى بحكم الله فيك بلا نَقْضِ
وإياكَ يُعنى ذو الجــلال بقوله كذلك مَـكَّنَّا ليوسُف فى الأرض

وذكره ابن الزُّبير ، وابن عبد الملك ، وابن عسكر ، وغيرهم .

---

(١) كذا فى « ج » . وفى « ك » : أبو على .

(٢) فى المخطوطين : أبو على . وهو تحريف كثيراً ما يقع أمثاله فى المخطوطين .

(٣) نسبة إلى مدينة إستجه Ecija من قواعد الأندلس القديمة ، وتقع جنوب غربى قرطبة على على مقربة منها .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » تبع . وقد تكون : نبغ . والمعنى قائم بدون تصويب .

(٥) كان اسم حمص يطلق على مدينة إشبيلية لما كان بينها وبين حمص الشام من وجوه الشبه فى الموقع والمناخ . قال أبو البقاء الرندى فى مرثيته الشهيرة مشيراً إلى إشبيلية :

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن

(٦) وردت فى المخطوطين : مشهوراً . والتصويب أنسب .

(٧) وردت فى « ك » : أستاذى . وفى « ج » : السادى . والتصويب من « ت » .

ومن شعره فى معنى الانقطاع والتسليم إلى الله تعالى ، وهى لزومية ، ولنختتم بها ، ختم الله لنا بالحسنى :

إلهى أنت [الله](١) رُكنى وملجئى ... ومالى إلى خَلْق سواك رُكون
رأيتُ بَنى الأيام عُقبى سكونهم ... حِراكٌ وفى عُقبى الحِراك سكون
رِضًى بالذى قَدَّرتَ تسليم عالِمٍ ... بأن الذى لا بدَّ منه يكون

وفاته

توفى بمدينة مالَقَة فى حدود ثلاث وستمائة .

الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق التَّغْلِبى

يكنى أبا على، مُرْسِىٌّ [الأصل](٢) سَبْتِىُّ الاستيطان ، مُنْتَمٍ إلى صاحب الثورة على المعتمد .

حاله

كان نسيج وحده ، وفريد دهره ، إتقاناً ومعرفة ، ومشاركة فى كثير من الفنون اللسانية والتعالِميّة ، متبحراً فى التاريخ ، ريَّاناً من الأدب ، شاعراً مُفْلِقاً ، عجيب الإستنباط ، قادراً على الإختراع والأوضاع ، جَهْم المحيا ، موحِش الشكل ، يضم بُرْداه طوياً لا كفاء له ؛ تحرّف بالعدالة ، وبرّز بمدينة سَبْتَة ، وكتب عن أميرها ، وجرت بينه و بين الأديب أبى الحكَم مالك بن المُرحِّل من المُلاحات

---

(١) ساقطة فى المخطوطين .

(٢) وردت فى « ك » ، وأغفلت فى « ج » .

والمهاترات أشدّ ما يَجْرى بين متناقضين ، آلت به إلى الحكاية الشهيرة ، وذلك أنه نظم قصيدة نصها :

لِكلاب سَبْتَة فى النّباح مدارِكُ ... وأشدها [دَرَكاً لذلك] (١) مالِكُ
شيخ تفانى فى البطالة عُمْرُه ... وأحال فَكَّيه الكلامُ الآفك
كَلْبٌ له فى كل عِرْضٍ عضَّة ... وبكل مُحْصَنَةٍ لسانٌ آفك
مُتْهم بذوى الخنا مُتَزَمِّعٌ (٢) ... متهازلٌ بذوى التُّقى متضاحكُ
أحلى شمائله السِّبابُ المُفْتَرى ... وأعفُّ سيرتِه الهِجاء الماعك
وألذُّ شىء عنده فى محفلٍ ... لَمزٌ لأستار المحافل هاتك
يَغْشى مخاطِرَه اللئيمُ تفكُّها ... ويَعاف (٣) رؤيته الحليمُ النَّاسك
لو أن شخصاً يستحيلُ كلامُه ... خِرْءاً لَلاكَ الخِرء منه لائك (٤)
فكأنّه التمساح يقذف جوفُه ... مِن فِيه ما فيه ولا يتماسك
أنفاسُه وفُساؤُه من عنصر ... وسُعالُه وضُراطُه متشارك
[ما ضرفا من معدٍّ الله ... لو أسْلَمته نواجذٌ وضَواحِك] (٥)
فى شعره من جاهلية طَبْعه ... أثقالُ أرضٍ لم ينلها فاتك
صدر وقافية [تعارضتا معاً] (٦) ... فى بيت عَنْسٍ أو بعُرْسٍ فارك
قد عَمّ أهل الأرض بِلَعْنه ... فللاعنيه فى السماء ملائكُ
ولأعْجَبُ العجب أنَّ كلامه ... لخلاله مِسْكٌ يروح ورامَك

---

(١) وردت مكانها فى « ج » : رأس . وفى « ك » : وشن . والتصويب من « ت » .
(٢) هكذا وردت فى « ج ». وفى « ك » : متدمع
(٣) فى المخطوطين : ويعافر .
(٤) وردت هذه العبارة فى « ج » (للاك الحرومية لائك) . وفى « ك » : (الملاك الحروسه) .
(٥) هكذا ورد هذا البيت فى المخطوطين .
(٦) فى المخطوطين : تعارض .

إن سام مكرُمَةً جثا متثاقلا　　يَرْغو كما يرغو البعير البارك
ويدبُّ فى جُنْح الظلام إلى الخنا　　عَدْواً كما يعدو الظَّليم الراتك
نَبَذ الوقار لِصِبْيَةٍ يَهْجُونه　　فسبالُه فرشٌ لهم وأرائكُ
يُبْدى لهم سوآتِه ليسوءهم　　بمسالك لا يرتَضِيها سالك
والدهرُ باكٍ لانقلاب صروفه　　ظَهراً لبَطْن وهُو لاهٍ ضاحك
واللسْنُ تَنصحُه بأفصَح منطق　　لو كان ينجو بالنّصيحة هالك
تُبْ يا ابن تسعين فقد جُزْتَ المدَا　　وارتاح للُّقْيا بسنِّك مالك
[أو ما ترى من حافديك](١) تشابها　　ابنٌ يضاجع جَدَّه ويُناسك
هيهات أيّةَ عِشْرة لَهَجَتْ به　　هَنوات مملوك وطَيِّع مالك
يا ابن المُرحَّل لو شهدت مُرَحَّلا　　وقد انحنى بالرَّحْل منه الحارك
وطريدُ لومٍ لا يحل بمَعْشَرٍ　　الا أمال قَفَاه صفعٌ دالك
[مركوب لهو لجاجة وركاكة](٢)　　وأراك من ذاك اللجاج البارك
لرأيت لِلْعين اللئيمة لمحةً　　وعلا بصَفْع عَرْك أُذْنك عاركُ
وشغُلتَ عن ذمِّ الأنام بشاغل　　وثَناك خصمٌ من أبيك مُماحك
قسماً بمن سَمَك السماء مكانها　　ولديه وشكَ رداءِ نفسِك شائك
لأقول للمغرور منك بشيبةٍ　　بيضاء طيُّ الصُّحفِ منها حالِك
لا تأمنَنْ للذئب دفع مضَرَّة　　فالذئبُ إن أعفيتَه بك فاتك(٣)
عارٌ على الملِكِ المنزَّه أن يرى　　فى مثل هذا للملوك مسالك
فكلامُه للدِّين سمٌّ قاتل　　ودنوُّه للعِرْض داءٌ ناهك

(١) هكذا فى «ت». وفى «ك»: (لو ما ترى حنفد).
(٢) فى «ك»: (ركوب لهو المحجة ركاكة)
(٣) فى «ك»: شارك.

فعليه ثم على الذى يُصغى له ويلٌ يعاجُله وحتْفٌ واشك

وأتاه من مثواه آت مُجهزٍ لِدَم الخناجر بالخناجر سافك

وهى طويلة تشتمل من التعريض والتصريح على كل غريب ، واتخذ لها ِكنانة خشبية كأوعية الكتب ، وكتب عليها : «رقّاص مُعَجَّل ، إلى مالك بن المُرَحِّل » . وعمد إلى كلب ، وجعلها فى عنقه ، وأوْجَعه خبطاً حتى لا يأوى إلى أحد ، ولا يستقر ، وطرده بالزقاق متكتما بذلك . وذهب الكلب وخلفه من الناس أمَّة ، وقرئ مكتوب الكِنانة(١) ، واحتُمِل إلى أبى الحكم ، ونُزِعت من عنق الكلب ، ودُفعت إليه فوقف منها على كل فاقرةٍ(٢) كفَّت من طِماحه ، وغضَّت عن عِنان مجاراته ، وتُحدِّث بها مدة ، ولم يَغب عنه أنها من حيل ابن رشيق ؛ فعوّق سهام المُراجعة ، ثم أقصر مكبُوحا ، وفى أجو بته عن ذلك يقول :

كلاب المزابل آذيننى(٣) بأبوالهن على باب دارى

وقد كنتُ أوجِعُها بالعصا ولكن عَوَت من وراء الجدار

واستدعاه بآخرةٍ أمير المغرب السلطان أبو يعقوب ، فاستكتبه ، واستكتب أبا الحكم صدَقَةً ، فيقال أن جرَّ عليه خَجْلَةً كانت سبب وفاة أبى على . ودخل الأندلس ، وحطَّ بها بالمريَّة ، وقد أصيب بأسر عياله ، فتوسل إلى واليها من قرابة السلطان الغالب بالله ، بشعر مدحه فيه من قصيدة أولها :

مُلْقى النوى ملقٍ لبعض نوالكا فاشفِ المُحِبَّ ولو بِطَيْف خيالكا

ومنها :

لا تحسَبَنّى من فلانٍ أو فلا(٤) أنا من رجال الله ثم رجالِكا

---

(١) فى « ك » : الكتابة .

(٢) أى داهية .

(٣) فى « ك » : أدبتنى .

(٤) فى « ك » : فل .

ومنها :

نصبَ العدُوُّ حبائلاً لحبـائبى وعَلِقْتُ فى استخلاصها بحبالـكا

وفى خاتمها :

وكفاك شرَّ العين عيبٌ واحد لا عيب فيه سوى فلول نِصالـكا

ولحق بغرناطة ، ومدح السلطان بها ، ونجحت لديه مشاركة الرئيس بألمريّـة . فجبر الله حاله ، وخلّص أسره .

ومما جمع فيه بين نثره ونظمه [ما كتبه][1] لمّا كتب إليه الأديب الطبيب صالح ابن شريف بهاتين القصيدتين، اللتين تَنازع فيهما الأقوامُ، واتفقوا[2] على أن يُحكّم بينهما الأحلام ، وعبّر عن ذلك الأقلام ؛ ولينظرهما من تشوّق إليهما بغير هذا الموضع .

تآليفه

وأوضاعُه غريبة ، واختراعاته عجيبة ، تعرّفت أنه اخترع فى سُفرة ، الشطرنج ، شكلا مستديراً . وله الـكتاب الـكبير فى التاريخ ، والتلخيص المسمى « بميزان العمل » وهو من أظرف الموضوعات ، وأحسنها شهرة[3] .

وفاته

كان حيا عام أربعة وسبعين وستمائة[4] .

---

(١) ساقطة فى « ك » .

(٢) فى « ك » وانتفقوا .

(٣) وردت فى المخطوطين : شهير .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » وسبعمائة . وهو تحريف .

حبُّوس بن ماكْسَن بن زِيرى بن مَناد الصِّنهاجى

يكنى أبا مسعود ، ملك إلبيرة وغرناطة ، وما والاها .

حاله وأوليتُه

أما أوّليّته فقد مر ذلك بما فيه كفاية عند ذكر بُلُكِّين . ولما دخل زاوى بن زيرى على الأندلس غبّ إيقاعه بالمرتضى ، الذى نَصَبَته الجماعة ، واستيلائه على محلّته بظاهر غرناطة ، وخاف تمالُؤ الأندلس عليه ، ونظر للعاقبة ، فأسند الأمر إلى ابن أخيه ، حَبُّوس بن ماكْسَن ، وكان بحصن أشتر[1] ؛ فلما ركب البحر من المُنَكَّب ، وودّعه به زعيم البلدة ، وكبير فقهائها أبو عبد الله بن أبى زَمْنين ، ذهب إلى ابن أخيه المذكور واستقدمه ، وجرت بينه و بين ابن عمه المُتخلِّف على غرناطة من قبل والده ، محاورة أنجلَت عن رحيله تبعاً لأبيه ؛ وانفرد[2] حبُّوس ، فاستبد بالملك ، ورأب الصَّدْع سنة أحد عشر وأربعمائة ؛ قال ابن عَذارِى فى تاريخه : فانحازت صِنهاجة مع شيخهم ورئيسهم حبُّوس ابن ماكْسَن ، وقد كان أخوه حُباسة هلك فى الفتنة ، و بقى منهم معه بعد انصراف زاوى إلى إفريقية ، جماعة عظيمة ، فانحازوا إلى مدينة[3] غرناطة ، وأقام حبُّوس بها مُلْكاً عظيماً ، وحامى رعيته ممن جاوره من سائر البرابرة المنتشرين حوله ، فدامت[4] رياسته .

وفاته

توفى بغرناطة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة .

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين : أشد . وأشتر من حصون غرناطة القديمة .

(٢) فى المخطوطين : وأنفد .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : المدنية .

(٤) كذا فى « ج » . وفى « ك » : فرامت .

الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

صفته وحاله

كان أصْهَبَ العين ، أسمر ، أقْنى ، مُعسَّل اللحية ، جهير الصوت ، طويل الصُّلب ، قصير الساقين ، عظيم الساعد ، أفصم[(١)] ؛ وكان ملكاً جليلاً ، عظيم الصِّيت ، رفيع القدر ، عالى الهمة ، فقيهاً بالمذهب ، عالماً بالأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جمّاعًا للكتب ، محبًّا فى العلم والعلماء ، مشيراً[(٢)] للرجال من كل بلد ؛ جمع العلماء من كل قطر ؛ ولم يكن فى بنى أمية أعظم همة ، ولا أجلّ رتبة فى العلوم ، وغوامض الفنون منه . واشتهر بهمَّته بالجهاد ، وتُحدِّث بصدقاته فى المُحُول ، وأمّلته الجبابرة والملوك .

دخوله إلبيرة

قال ابن الفيّاض ؛ كُتب إليه من الثغر الجنوبى[(٣)] أن عظيم الفِرَنْجة من النصارى حشدوا إليه [وسألوه الممرة][(٤)] بطول المحاصرة[(٥)] ؛ فاحتسب شخوصه بنفسه إلى ألْمَرِيَّة[(٦)] فى رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ، فى جحفل لجِبٍ من

(١) كذا فى « ج » . وفى « ك » : أفضم .

(٢) كذا فى « ج » . وفى « ك » : مشاراً .

(٣) وردت فى المخطوطين : الحنوى وهو تحريف . وما يرد بعد ذلك يؤيد صحة التصويب .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : (وسأله الميرة) والمقصود هنا : وسألوه الاستمرار .

(٥) وردت فى المخطوطين : مطول المحاضرة .

(٦) وردت فى « ج » : المريبة . وفى « ك » : المرتلة . وقد رجحنا أن يكون الثغر المقصود « المرية » . وهو قريب ما رسمه « ج » . وقد يكون هذا الثغر أيضاً هو ثغر « مربلة » وهو قريب من الرسم الذى أورده « ك » .

نَجدة[١] الأولياء وأهل المراتب . ولما أحَلّ إلبيرة ورد عليه كتاب أحمد بن يَعْلى من طُرْطُوشه بنصر الله العزيز وصنعه الكريم على الرّوم ؛ ووافى ألمريّة ، وأشرف على أمورها ، ونظر إلى أسطولها وجدَّده ، وعُدَّته يومئذ ثلاثمائة قطعة ، وانصرف إلى قرطبة .

مولده

لستٍ بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثمائة .

وفاته

لأربع خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة ، وعمره نحوٌ من ثلاث وستين سنة ، وهو خاتمة العظماء من بنى أمية .

الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مَرْوان بن أمية

كنيته أبو العاصى .

« صفته » : آدَمُ ، شديد الأُدْمة[٢] ، طويل ، أشمّ ، نحيف ، لم يخْضِب .

بنُوه تسعة عشر من الذكور ، منهم عبد الرحمن ولى عهده .

« بناته » : إحدى وعشرون ؛ أمه أمُّ ولَد اسمها زُخْرُف .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : صفحة .

(٢) الأدمة : أى السمرة .

« وزراؤه وقوّاده » ؛ خمسة منهم إسحاق بن المنذر ، والعباس بن عبد الله ، وعبد الكريم بن عبد الواحد ، وفُطَيس بن سليمان ، وسعيد بن حسّان .

« قضاته » ؛ مُصْعَب بن عُمران ، وعمر بن بشر ، والفرج بن كِنانة [١] ، و بشر ابن قَطَن ، وعبدالله بن موسى ، ومحمد بن تَلِيد ، وحامد بن محمد بن يحيى .

« كتّابه » ؛ فُطَيس بن سليمان . وعطّاف بن زيد ، وحجّاج بن العُقَيلي .

« حاجبه » ؛ عبدُ الكريم بن عبد الواحد بن مُغِيث .

حاله

كان الحكم شديد الحزم ، ماضى العزم ، ذا صولةٍ تُتَّقى ؛ وكان حسن التدبير فى سلطانه ، وتولية أهل الفضل ، والعدل فى رعيته ، مبسوط اليد بالعطاء الكثير، وكان فصيحاً ، بليغاً ، شاعراً مُجيدا ، أديباً ، نحويا .

قال ابن عَذارى ؛ كانت فيه بِطالة ، إلا أنّه كان شجاعاً ، مبسوط اليد [٢] ، عظيم العفو ، وكان يُسلّط قضاته وحكّامه على نفسه ، فضلا عن ولَدِه وخاصّته ؛ وهو الذى جَرَتْ على يده الفَتْكَةُ العظيمةُ بأهل رَبَضِ قُرْطُبة [٣] . الذين هاجوا به وهتفوا بخُلْعانه ، فأظهره الله عليهم ، فى خَبَر شهير ؛ وهو الذى أوقع بأهل طُلَيطُلة أيضاً ، فأبادهم بحيلة الدُّعاء إلى الطعام بما هو معلوم

---

(١) وردت فى المخطوطين : قتامه ، وهو تحريف والصواب ما أثبتناه . وقد كان الفرج بن كنانة ، قاضى الجماعة بقرطبة أيام الحكم بن هشام (انظر قضاة الأندلس ص ٥٣ . وقضاة قرطبة – القاهرة – رقم ٢٣) .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى البيان المغرب : باسط الكف (ج ٢ ص ٨١) .

(٣) الربض : ضاحية قرطبة . وقد حدثت هذه الواقعة التى نكل فيها الحكم بثوار ضاحية الربض سنة ٢٠٢ هـ (٨١٧ م) .

دخوله غرناطة

قالوا ، و بالبيرة وأحوازها تلاقى مع عمه أبى أيوب سليمان بن عبد الرحمن ، فهزمه وقتله حسبما ثبت فى اسم أبى أيوب .

شـــعره

قالوا ؛ وكان له خمس جَوارٍ قد استخلَصَهُنَّ لنفسه ، وملَّكَهُنَّ أمره ؛ فذهب يوماً إلى الدخول عليهن ، فتأبَّيْنَ عليه ، وأعرضْنَ عنه ، وكان لا يصبر عنهن ، فقال :

قُضُبٌ من البان ماسَتْ فوق كُثبان ... ولَّين عنى وقد أزمَعن هِجْرانى
ناشدتُهُنَّ بحقِّى فاعتَزَمْنَ على الـ ... ـعصيان حتى خلا منهن هِمْيانى
مَلَكْننى مِلكَ من ذَلّت عزيمته ... للحُبِّ ذُلَّ أسيرٍ مُوثَقٍ عانِى
من لى بِمُغتَصِباتِ الرُّوحِ من بَدَنى ... يَغْصِبْنَنى (١) فى الهوى عِزِّى وسُلْطانى

ثم عَطفْن عليه بالوصال فقال :

نلتُ الوصال بعد البُعاد ... فكأنِّى مَلَكْتُ كلَّ العِباد
وتنا هى السرورُ إذ نلت مالم ... يُغْنِ عنه تَكاثُفُ الأجناد

مناقبُه

أنهى إليه عباس بن ناصح (٢) وقد عاد [من] (٣) الثغر (٤) أن امرأة من ناحية

---

(١) وردت فى المخطوطين : عصبتنى . وهو تحريف .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة : صالح . والتصويب من البيان المغرب (ج ٢ ص ٧٥)

(٣) ساقطة فى المخطوطين . ولازمة للسياق .

(٤) كلمة الثغر يقصد بها هنا : « الثغر الأدنى » الذى يشمل طليطلة وأعمالها . وهو يقابل اليوم ولاية قشتالة القديمة . وأما الثغر الأعلى فقد كان يشمل سرقسطة وأعمالها . ويقابل اليوم ولاية أراجون (راجع الحاشية فى ص١٨٩) .

وادى الحِجارة [١] سمعها تقول ، واغوثاه ،يا حَكَم ضيَّعتنا ، وأسلمتَنا ، واشتغلت عنا حتى استأسَدَ [٢] العدو علينا ؛ ورُفع إليه شعر فى هذا المعنى والغرض ، فخرج من قُرْطُبة كاتماً وُجْهَتَه ، وأوْغَل فى بلاد الشرك ، ففتح الحصون ، وهدّم المنازل ، وقتل وسبى ، وقفل بالغنائم على الناحية التى فيها تلك المرأة ؛ فأمر لأهل تلك الناحية بمال من الغنائم يَفْدُون به أسْراهم ، و يصلحون به أحوالهم ؛ وخصَّ المرأة وآثرها ، وأعطاها عدداً من الأسرى ، وقال لها ، هل أغاثكِ الحكَم؟ قالت أى والله أغاثنا وما غَفَل عنا ، أعانه الله وأعز نصره .

وفاتـــه

توفى لأربع بقين لذى الحجة سنة ست ومائتين ، وكان عمره اثنين وخمسين سنة. وجرى ذكره فى الرجز من نظمى فى تاريخ دول الإسلام [٣] بما نصه :

حتى إذا الدهر عليه احتكما ... قام بها ابنــه المسمَّى حَكَما
واسْتَشْعَرَ الثورة فيها وانْقَبَض ... مستوحِشاً كاللَّيْثِ أقْعَى وَرَبض
حتى إذا فُرصتُه لاحَتْ تَفِض ... فأفحش الوقعـة فى أهـل الرَّبَض
[وكان جَبَّارا بعيـدَ الهِمّة ... لم يَرْعَ من آلٍ بها أو ذِمَّة] [٤]

---

(١) وادى الحجارة هى مدينة من مدن الأندلس القديمة ما تزال قائمة حتى اليوم . وهى تقع شمال غربى مدريد على مقربة منها . وبالإسبانية Guadal ajara .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : أست أسر .

(٣) هو كتاب رقم الحلل الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة .

(٤) هذا البيت وارد فى المخطوطين ، وساقط فى « ت » .

حكم بن أحمد بن رجا[١] الأنصارى

من أهل غرناطة ، يُكنى أبا العاصى .

حـاله

كان من قرائها [٢] ، ونبهائها ؛ وكان من أهل الفضل والطلَب ، وإليه يُنسب مسجدُ أبى العاصى، وحمام أبى العاصى ودربُه بغرناطة ، وكفى بذلك دليلا على الأصالة والتأثل ؛ ذكره أبو القاسم ولم يذكر [من] [٣] أمره مزيداً على ذلك .

حاتم بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله
ابن سعيد بن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد الملك بن
سعيد بن عمار بن ياسِر

« أوليَّته »، قد مرّ بعض [٤] ذلك وسيأتى بحول الله .

حاله

قال أبو الحسن بن سعيد فى كتابه الموضوع فى مآثر القلعة [٥] : كان صاحب

---

(١) هكذا فى « ت » . وفى « ك » : وجا . وفى « ج » : رجلا .

(٢) فى « ج » : قراريها . وهو تحريف . وفى « ك » وزارئها . والأولى أرجح . وتؤيده سيرة المترجم له .

(٣) ساقطة فى المخطوطين .

(٤) فى المخطوطين : بعين . وهو تحريف .

(٥) هو كتاب « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » . والقلعة هى قلعة يحصب .

سيف وقلم وعلم ، ودخل فى الفتنة المَرْدِنيشِيَّة [(١)] حسبما مر ذلك عند ذكر أخيه أبى جعفر ، فصار من جُلَساء الأمير أبى عبدالله [محمد] [(٢)] بن سعد بن مَرْدِنيش بمرسية ، وأرباب آرائه ، وذوى الخاصَّة من وزرائه ، وكان مشهوراً بالفروسية والشجاعة [والرأى] . [(٣)]

حكاياته و نوادره

قال ، كان التَّنْدير والهزل قد غلبا عليه ، وعُرِف بذلك فصار يُحمل منه مالا يحمل من غيره ؛ قالوا ، فحضر يوماً مع الأمير محمد بن سعد ، يوم الحلاب [(٤)] من حروبه ، وقد صبر الأمير صبراً جميلاً [(٥)] ، ووالى الكرَّ المرَّة بعد المرة ، وذلك بمرأى من حاتم ؛ فرد رأسه اليه ، وقال ياقائداً أبا الكرَم كيف رأيت ، فقال له حاتم ، لو رآك السُّلطان اليوم لزاد فى مرتَّبك ، فضحك ابن مَرْدِنيش ، وعلم أنه أراد بذلك : لاتليق به المُخاطرة ، و إنما هو للثَّبات والتدبير . وقال له يوماً وقد جرى ذكر الجَنَّات ، جُنَّ اليوم يا أبا الكرم على بستانك بالزَّنقات ، وأردت أن أكون من ضيافتك ؛ فقال عبد الرحمن بن عبد الملك وهو إذ ذاك وزير الأمير ، و بيده المجابى والأعمال ، لعل الأمير اغترَّ بسماع اسمه حاتم ، ما فيه من الكرم إلا الإسم ؛ فقال الحاتم [(٦)] ، ولعل الأمير اغترَّ [(٧)] بسماع [أمانة] [(٨)] عبد الرحمن ، فقدَّمه على وزرائه ، وما عنده من

---

(١) نسبة إلى ابن مردنيش . وقد سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص٢٢٥) .

(٢) الزيادة من عندنا إكمالا للإسم .

(٣) الزيادة من « ت » .

(٤) يوم الحلاب . قد يكون المقصود به يرم كثير الندى . وحلاب بالتشديد بمعنى ندى .

(٥) كذا فى « ج » . وفى « ك » : عظيما .

(٦) هكذا فى المخطوطين .

(٧) ساقطة فى المخطوطين . ويحتمها السياق .

(٨) واردة فى (ك) . وساقطة فى « ج » .

الأمانة إلا الإسم ؛ فقال ابن مَرْدِ نيش وقد ضحك ، الأولى فهمتُ ، ولم أفهم الثانية ؛ فقال له كاتبه أبو محمد السلمى ، إنما أشار إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : أمير هذه الأمة ، وأميرٌ فى أهل السماء ، وأميرٌ فى أهل الأرض ؛ فطرب ابن مردنيش ، وجعل يقول : أحسنتما أحسنتما .

شعره

قال أبو الحسن ، ولم أحفظ (١) من شعر حاتم ما أورِدُه فى هذا المكان إلا قوله يخاطب حفصة الرَّكّونية الشاعرة ، التى يأتى ذكرها ، حين فرَّ إلى مرسية ، وتركها بغرناطة :

أحنُّ إلى ديارك يا حياتى ... [وأبصر ذو هد سيل الظبات] (٢)
وأهوى أن أعود إليك لكن ... [خفوق البند عاق عن القنات] (٣)
وكيف إلى جَنابك (٤) من سبيل ... وليس يحُلُّه إلا عُداتى

مولده

فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . وقال أبو القاسم الغافقى فيه عند ذكره : كان طالباً نبيهاً جميلاً سَرِيّاً ، تام المروءة ، جميل العشرة .

وفاته

قال ، مات بغرناطة سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

---

(١) كذا فى « ج » . وفى « ك » : حفظت .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين .

(٣) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين كالآتى : (خفوق البندر عاق القنات) .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : جانبك .

حُباسة [بن ماكْسَن بن زِيرى بن مَناد الصِّنهاجى](١)

كان شهماً ، هيِّباً ، بُهْمَةً من البُهم ، كريماً فى قومه ، أبيًّا فى نفسه ، صَدْرًا من صدور صِنْهاجة ؛ وكان أشجع من أخيه حَبُّوس .

وفـــاته

قال أبو مروان عند ذكر وقعة « رمداى » بطرف قرطبة فى حروب البرابرة لأهلها فى شوال عام اثنين وأربعمائة ، قال : واسْتَلْحَم حُباسة بن ماكْسَن الصنهاجى ابن أخى زاوى بن زيرى ، [وهو](٢) فارس صنهاجة طُرًّا وفَتاها ؛ وكان قد تقدم إلى هذه الناحية ، زعموا لما بلغه اشتداد الأمر فيها ، فرمى بنفسه على طُلَّابها ، واتفق أن ركِب بسرج طَرِى العمل مُتفتح اللِّبْد ، وخانه مقعدُه عند المجاولة ، لتقلُّبه على الصَّهوة ؛ وقيل إنه كان مُنتبذًا على ذلك فتطارح على من بإزائه ، ومضى قُدُماً بسَكْرَى شجاعته ونَشْوَته ، يصافح البيوت بصفحته ، ويستقبل القنا بلَبَّاته ، لا يعرض له شىء إلا حطَّه ، إلى أن مال به سرجُه ، فأتيح حِمامُه لاشتغاله بذلك ، بطعنة من يد المسمى النبيه النصرانى ، أحد فرسان الموالى العامريين ؛ فسقط لفيه ، وانتظمته رماحُ الموالى فأبادته ؛ وحامى أخوه حَبُّوس ، وبنو عمه ، وغيرهم من أنجاد البرابرة على جثَّته ، فلم يقدروا على استنقاذها ، بعد جلادٍ طويل ، وغلب عليه الموالى فاحتزُّوا رأسه ، وعجّلوا به إلى قصر السلطان ، وأسْلموا جسده العامة ؛ فركبوه بكل عظيمة ، واجتمعوا إليه اجتماع البُغاث(٣) على كبير الصُّقُورة ، فجرُّوه فى الطرق

---

(١) وردت كلمة حباسة فقط فى المخطوطين . والزيادة ما بين الحاصرتين من عندنا . ويبدو أن هذه الترجمة وردت فى الإحاطة فى غير موضعها من حيث الترتيب الأبجدى .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٣) فى المخطوطين : النفاث .

وطافوا به الأسواق ، وقطعوا بعض أعضائه ، وأبدوا شِواره وكبده بكل مكروه من أنواع الأذى ، بأعظم ما رُكب ميت ؛ فلما سئموا تجراره[١] ، أوقدوا له ناراً فحرقوه بها جرياً على ذميم عادتهم ، فى قُبْح المثلة ، ولؤم القُدْرة ؛ وانجلت الحروب فى هذا اليوم لمُصابه ، عن أمر عظيم ، و بلغ من جميع البرابرة الحزن عليه مناله ، ورأت أن دماء أهل قُرْطبة جميعاً لا تعدله . من الكتاب المتين .

حبيب بن محمد بن حبيب

من أهل النَّجَش ، من وادى المنصورة[٢] أخوه مالك ، النّجشى ، ذُباب الحَلَقات ، ومِداد أذناب المقربين .

حـــاله

كان على سجيَّة غريبة من الإنقباض المشوب[٣] بالاسترسال ، والأمانة مع الحاجة ، بادى الزِّى واللسان ، يحفظ الغريب من اللغة ، ويحرِّك شعراً لا غاية وراءه فى الرَّكاكة ، وله قيامٌ على الفقه وحفظ القرآن ، ونَغَمَةٌ حسنة عند التِّلاوة . قَدِم الحضرة غير مرة ، وكان الأستاذ ، إمامُ الجماعة ، وسيبويه الصناعة ، أبو عبد الله ابن الفخّار ، المعروف بالبيرى[٤] ، أبا مثواه ومحطَّ طيَّته ، يطلب منه مشاركته[٥] بباب السلطان فى جراية يرغب فى تسميتها ، وحال يروم إصلاحها ، فقصدنى مُصْحباً

---

(١) هكذا فى المخطوطين .

(٢) وادى المنصورة هو المنطقة الواقعة على نهر المنصورة الذى يخترق شمال ولاية المرية بين برشانة ومدينة المنصورة الواقعة على النهر المذكور .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : المنشوب .

(٤) أعنى الإلبيرى نسبة إلى إلبيرة .

(٥) وردت فى المخطوطين محرفة (ممتاركته . مماركته) .

منه رقعة تتضمن الشَّفاعة ، وعرض علىّ قصيدة من شعره [يروم] (١) إيصالها إلى السلطان ، فراجعت الأستاذ برقعة أثبتها على جهة الإحماض (٢) وهى :

« يا سيدى الذى أتشرَّفُ ، وبالانتماء إلى معارفه أتميَّزُ وأتعرَّفُ ، وصل إلىَّ عميدُ حصن النجش ، وناهض أفراخ ذلك العُشّ (٣) ، تلوح عليه مخائل أخيه المسمى بمالك ، ويترجَّح به الحكم فى الغاية فى أمثال تلك المسالك ، أشبه من الغُراب بالغُراب ، وإنها لمن عجائب الماء والتراب ؛ فألقى من ثنائكم الذى أوْجَبَتْه السيادةُ والأبوّةُ ، ما يقصر عن طيب الأُلوَّة ، وتخجل عند مشاهدته الغرر المَجْلُوَّةُ ؛ وليست بأولى بِرٍّ أسْدَيتُم ، ومكرُمة أعَدْتُم وأبْدَيتم ، والحسنات وإن كانت فهى [إليكم] (٤) منسوبة ، وفى أياديكم محسوبة ؛ وبَلَوتُ من الرجل طلعة نُنْفَة ، لم يغادر من صفات النبل صفة ، حاضر بمسائل الغريب ، وقعد مقْعَد الذكى (٥) الأريب ، وعرض علىّ حاجته وغرضه ، وطلب منى المشاركة ، وهى منى لأمثاله مُفْتَرَضة ، ووعدنى بإيقافى على قصيدة حَبَّرها ، وأنسى بالخبر خبرها ؛ وباكرنى بها اليوم مُباكرة السَّاقى بدِهاقه ، وعرَضها علىّ عرض التاجر نفائِسَ أعلاقه ، وطلب منى أن أهذب له ما أمكن من معانيها وألفاظها ، وأجلو القذى عن ألحاظها ؛ فنظرت منها إلى روضٍ كثرت أثغابه (٦) وجيشٍ من الكلام زاحم خواصُّه أوشابه ، ورُمْتُ الإصلاح ما استطعتُ ، فعجزتُ عن ذلك وانقطعتُ ، ورأيت لا جدوى (٧) إلى ذلك الغرض ، ما لم تُبَدَّلُ الأرضُ غير الأرض . وهذا

---

(١) ساقطة فى المخطوطين .

(٢) أى على سبيل التفكهة .

(٣) هكذا فى « ج » وفى « ك » : العشر .

(٤) ساقطة فى المخطوطين .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الزكى .

(٦) أغفلت فى المخطوطين .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : جدنوا .

الفنّ ، أبقى الله سيدى ، ما لم يمتّ إلى الإجادة بسبب وثيق ، ويَنْتمى فى الإحسان إلى مجد عريق ، كان رفضه أحسن وأحمد ، واطِّراحُه بالفائدة أعْوَد ؛ وإذا اعتبره من عَدل أو قسط ، وجده طريقين لا يقبل الوسط ، فمنهما مالٌ يُقتنى ويُدَّخَر ، وسافلٌ يُهزء به ويُسخَر ، والوسط ثقيل لا يُتَلبَّسُ به [نَبيل](١) . قيل لبعضهم ألا تقول الشعر ؟ فقال أريدُ منه ما لا يتأتَّى لى ، ويتأتَّى لى منه ما لا أريدُه . وقال بعضهم ، فلان كمُغَنٍّ وسط لا يجيد فَيُطرب ، ولا يُسىء فيُسلى(٢) . فاقتضى نظرُكُم الذى لا يفارق السَّداد والتَّوْفيق ، وإرشادُكم الذى رافقه(٣) الهدى ونعم الرفيق ، أن يشير عليه بالاستغناء عن رفعها ، والامتساك عن دفعها ، فهو أقوى لأمْته(٤) وأبقى على سكنته وسَمته ، وأسترُ لما لديه ، قبل أن يمدَّ أبو حنيفة رجليه ؛ [وإنْ](٥) أصمَّت عن هذا العَذْل مسامعهُ ، وهَفَت به إلى النجاح مطامعهُ ، فليَعتمد على الاختصار ، فذو الإكثار جَمُّ العَثار ، وليَعْدل إلى الجادَّة عن ثِنيات(٦) الطُّرُق ، ويجتزئ عن القِلادة بما أحاط بالعُنُق ؛ فإذا رتَّبها(٧) وهذَّبها ، وأوردها من موارد العبارة أعْذَبها ، توليتُ زفافها وإهداءها ، وأَمطْتُ بين يدى الكفوء الكريم رواءها ، والسلام » .

حَمْدَة بنت زِياد المُكتِّب

من ساكنى وادى الحمَّة بقرية بادى من وادى آشْ .

---

(١) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : فيلهى . والمؤدى واحد .

(٣) فى المخطوطين : ارفقه .

(٤) الأمت هو المكان المرتفع . والمقصود هنا مقامه ومكانه .

(٥) ناقصة فى المخطوطين . ويستلزمها السياق .

(٦) فى المخطوطين : نيبات .

(٧) فى المخطوطين : رهبها . وهو تحريف .

حمـــالها

قال أبو القاسم ، نبيلةٌ ، شاعرةٌ ، كاتبة ؛ ومن شعرها وهو مشهور :

أباحَ الدمعُ أسرارِى بوادى ... له فى الحُسْن آثارٌ بَوادى

فمن نَهْرٍ [١] يطوفُ بكلِّ روْضٍ ... ومن روضٍ يطوف بكل وادى

ومن بين الظِّبا مهات إنس [٢] ... [سبَتْ لُبى] [٣] وقد سلبت فؤادى

لها لحظٌ ترقّــــده لأمرٍ ... وذاك الأمرُ يمنَعُنى رُقادى

إذا سَدَلت ذوائبهـا عليهـا ... رأيت البـدْر فى جُنْح السوادى

كأن الصُّبْحَ مات له شقيق ... فمن حزنٍ تسربل فى الحدادى

ومن غرائبها :

ولمـا أبى الواشون إلا قتالنا [٤] ... وما لهم عندى وعندك من ثار

وشَنُّوا على آذاننا [٥] كل غارة ... وقلّت حُماتى عند ذاك وأنصارى

رَمَيْتهُم [٦] من مُقلتيك وأدمُعى ... ومن نفسى [بالسَّيف والسيل] [٧] والنار

وقال أبو الحسن بن سعيد فى حَمْدة وأختها زينب : شاعرتان ، أديبتان ، من أهل الجمال ، والمال ، والمعارف والصَّون ، إلا أن حُب الأدب ، كان يَحْمِلُهما على مخالطة أهله ، مع صيانة مشهورة ، ونزاهةٍ موثق بها .

---

(١) فى المخطوطين : واد . والتصويب من النفح .

(٢) فى المخطوطين . رمل . والتصويب من النفح .

(٣) هكذا فى النفح . وفى « ج » هبت لى . وفى « ك » : مبت لى . وفى المغرب : لها لى

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والمغرب : فراقنا .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والمغرب : أسماعنا .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى المغرب والنفح : غزوتهم .

(٧) فى المخطوطين : السيل . واليل . والتصويب من النفح .

حَفْصَة بنت الحاج الرَّكُّونى (١)

من أهل غرناطة ، فريدةُ الزمان فى الحسن ، والظرف ، والأدب ، واللوّذَعِيَّة ؛ قال أبو القاسم ، كانت أديبة ، نبيلة ، جيِّدة البديهة ، سريعة الشعر .

بعض أخبارها

قال الوزير أبو بكر بن يحي بن محمد بن عمر الهَمْدانى ، رَغبتْ أختى إلى حَفْصة أن تكتب شيئاً بخطها فكتبت :

يا رَبَّةَ الحُسْن بل يا رَبَّةَ الكَرَم ... غُضِّى جُفُونَكِ عما خطه القلم
تصفحيه [بلَحْظِ الوُدُّ مُنْعمة](٢) ... لا تحفلى بقبيح(٣) الخَطِّ والكَلِم

قال أبو الحسن بن سعيد ، وقد ذكر أنهما باتا بحَوْز مُؤَمِّل(٤) فى جَنَّة له هنالك على ما يبيتُ عليه أهل الظرف والأدب ، قال :

رعى الله ليلًا لم يُرَع بمذمّم ... [رعانا ودارانا بحَوْزِ مُؤَمِّل](٥)
وقد نفحت من نحو نجدٍ أريجه(٦) ... إذا نَفَحتْ هبَّتْ بريح(٧) القرَنْفُل
وغرّد قمرىٌّ على الدَّوْح وانثنى ... قضيبٌ من الريحان من فوق جدول
يَرَى الرَّوْض مسروراً بما قد بدا له ... عناقٌ وضَمٌّ وارتشافُ مُقَبَّل

---

(١) نسبة إلى ركانة Requena ، وهى بلدة اندلسية قديمة تقع غربى ثغر بلنسية .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ووردت محرفة فى المخطوطين : (خط الود سقيه) .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح : بردىء .

(٤) هو بقعة من متنزهات غرناطة الإسلامية اشتهرت بجمالها . (راجع الحاشية فى ص ٤٤٩) .

(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين . ووردت فى النفح كالآتى : (عشية دارانا بحوز مؤمل) .

(٦) فى المخطوطين : أريحية . والتصويب من النفح .

(٧) فى النفح : برياً .

فقالت :

[لعمرك ماسَرَّ الرياض وصالُنا][١] ولـكنه أبدى لنا الغِلَّ والحَسَد
ولا صفَّق النهرُ ارتياحاً لقُربنا ولا مَدَح[٢] القمرىُّ الَّا لما وَجَد
فلا تحسبنّ الظَّن الذى أنت أهلُه فمـا هو فى كل المواطن بالرَّشَد
فما خِلتُ هذا الأُفق أبدى نجومه لأمرٍ سوى كى ما يكون لنا رَصَد

قال أبو الحسن بن سعيد ، ويا لله ما أبدع ما كَتَبتْ به إليه وقد بلغها[٣] أنه عَلِق بجارية سوداء أسعتْ له من بعض القصور . فاعتكف معها أياماً وليالى ، بظاهر غَرْناطة ، فى ظلٍّ مَمْدود ، وطيب هوى مَقْصور ومَمْدود :

يا أظرفَ الناسِ قَبْل حالٍ أوقعـه نحـوه القدَر
عَشِقْتَ سوداءَ مثـل ليلٍ بدائعُ الحُسْنِ قَدْ سَـتَر
لا يظهر البِشْرُ فى دُجاها كلاَّ ولا يُبْصَرُ الخَفَرُ
بالله قل لى وأنت أدْرَى بكُلِّ مَنْ هام فى الصور[٤]
مَنْ الذى هام فى جِنان لانُوَّار فيه ولا زَهر

فكتب إليها[٥] بأظرف اعتذار ، وألطف أنوار :

لا حُـكْم إلا لآمرٍ ناهٍ له من ذَنْبـه مُعْتَـذر
له مُحيَّـا به حيـاتى أعيـذُ مـداه بالسُّور
كصُحْبة العيـد فى ابتهاج وطَلعةِ الشَّمس والقمـر

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح : (لعمرك ما سر الرياض بوصلنا) .
(٢) فى النفح : غرد .
(٣) فى المخطوطين : بلغنا ، وهو تحريف .
(٤) فى المخطوطين : المسطور .
(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : إليه .

سَعْدُه لم أمِل إليه إلا اطِّــرافاً له خَــبَر
عَدِمت صُبْحى فاسودَّ عِشْ قى وانعكس الفِكْرُ والنَّظَر
إن لم تَلُح يا نعيم رو حى فكيف لا تَفْسُدُ الفِكَر

قال ، وبلغنا أنه خلا مع حاتم وغيره من أقاربهم ، لهم طربٌ ولهو ، فمرَّتْ على الباب مُسْتترة ، وأعطت البوّاب بطاقةً فيها مكتوب :

زائر قد أتى بجيد غزال[١] طامع من مُحبه بالوصال
أتُرا كم بإذْنكم مُسْعِفيـه أم لكُم شاغلٌ من الأشغال

فلما وصلت الرقعة إليه ، قال ورب الـكعبة ، ما صاحبُ هذه الرِّقعة ، إلا الرَّقيعة حفصة ؛ ثم طُلِبت فلم تُوجد ، فـكتب إليها راغباً فى الوصال والأُنس الموصول :

أىْ شُغْلٍ عن الحبيب يعوقُ يا صاحباً قد آن منه الشُّروق
صِلْ وواصِلْ فأنْتَ أشهى إلينا من جميع المنى فكم ذا تَشُوق
بحياة الرِّضَى يَطيبُ صَبوحُ عَرْفاً إن جَفَوْتَنَــا أو غُبُوق
لا وَذُلِّ الهوى وعزِّ التلاقى واجتماعٍ إليـه عَزّ الطريق

وذكرها الأستاذ فى «صِلَته» ، فقال : وكانت أستاذة وقتها ، وانتهت [إلى][٢] أن علَّمت النساء فى دار المنصور ؛ وسألها يوماً أن تُنْشده ارتجالاً فقالت :

أمنُنْ علىَّ بصَــكٍّ يكُونُ للدهر عُدَّة
تَخُطُّ يُمناك فيــه الحمدُ لِلّه وَحْدَه

قال : فَمَنَّ عليها ، وحرَّز لها ما كان لها من مِلْك .

---

(١) فى نفح الطيب : الغزال .
(٢) ناقصة فى المخطوطين ويقتضيها السياق .

وفاتها

قالوا : تُوفيت بحَضْرَة مَرّاكُش فى آخر سنة ثمانين أو إحدى وثمانين وخمسمائة .

الخضر بن أحمد بن الخضر بن أبى العافية

من أهل غرناطة ، يكنى أبا القاسم .

حاله

من كتاب « عائد الصلة » : كان رحمه الله صَدْراً من صدور القضاة ، من أهل النّظر والتّقييد ، والعُكوف على الطّلب ، مضطّلعاً بالمسائل ، مسائل الأحكام ، مهتدياً لمظنّات النُّصوص ، نسخ بيده الكثير ، وقيّد على الكثير من المسائل ، حتى عُرف فضلُه ، واستشاره الناس فى المشكلات . وكان بصيراً بعَقْد الشروط ، ظريف الخط(1) ، بارع الأدب ، شاعراً مُكثراً ، مصيباً غرض الإجادة . وتصرّف فى الكتابة السلطانية ، ثم فى القضاء ، وانتقل فى الولايات(2) الرفيعة النّبيهة . وجرى ذكرُه فى « التّاج المُحَلّى » بما نصه :

« فارسٌ فى ميدان البيان ، وليس الخبرُ كالعِيان ؛ وحاملُ لواء الإحسان ، لأهل هذا الشّان ؛ رَفَل فى حُلَل البدائع فسحب أذيالهـا ، وشَعْشَع أكواس العجائب فأدار جرياً لها ، واقتحم على الفحول أغْيالها(3) ، وطَمَح إلى الغاية البعيدة

---

(1) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الخطاب . والأولى أرجح .

(2) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الولاية . والأولى أنسب للسياق .

(3) أى أجماتها .

فنالها ، وتذوكرت المُعْضلات(١) فقال أنا لها . عكف واجتهد ، وبرز إلى مُقارعة المُشكلات ونَهَد ، فعلّم وحصّل ، وبلغ الغاية وتوصّل ؛ وتولّى القضاء ، فاضطّلع بأحكام الشّرع ، وبرع فى معرفة الأصل والفرع ، وتميّز فى المسائل بطول الباع ، وسَعَة الذراع ، فأصبحَ صدْراً فى مِصْره ، وغُرَّة فى صفحة عصره . وسيمرُّ من بديع كلامه ، وهثّات(٢) أقلامه ، وغُرر إبداعه ، ودُرَر اختراعه ، ما يستنير لعلم الحليم ، وتُلْقى له البلغاء يد التسليم » .

شـــعره

قال فى غرض الحكمة والأمثال :

عزُّ الهوى نُقْصان والرأىُ الذى ... يُنجيك منه [إذا ارتأيْتَ مَرُوما](٣)
فإذا رأيتَ الرأى يتّبعُ الهوَى ... خالِفْ وفاقَهما تُعَدَّ حكيما
[وكيف تخاف من الحليم مراجياً](٤) ... خِفْ مِنْ نَصيحِك ذى السّفاهة شوما(٥)
واحذر مُعادات الرجال توقّياً ... منهم ظَلُوماً كنت أو مظلوما
فالناس إما جاهلٌ لا يتّقى ... عاراً ولا يخشى العقوبةَ لُؤما
أو عاقلٌ يُرمى بسَهْمِ مكيدةٍ ... كالقوْسِ تُرْسل سَهْمها مَسْموما
فاحْلَمْ عن القِسْمين تَسْلَمْ منهما ... وتَسُدْ فتُدْعى سيِّداً وحليما
ودَعِ المُعادات التى من شأنها ... أن لا تُديم على الصَّفاء قديما

---

(١) كذا فى « ج » . وفى « ك » المخترعات .

(٢) هثات أى الكتابة السريعة العابرة .

(٣) وفى نص آخر : (إن نأيت خزيماً) .

(٤) وفى نص آخر : (فكما تروم من الحليم مراحماً) .

(٥) فى « ك » : شر ما . وفى « ج » : نثر ما .

أبت المغالَبَةُ الوِدَاد فلا تكُنْ ممن يُغـــالب ما حَييت نَدِيما
وإذا مُنيت(١) بقُرْبِه فاخفِضْ له جَنـــاح الذُّل واخضَعْ ظَاعِناً ومُقيما
إنَّ الغريب لكالْقَضِيب مُحـــاير إن لم يمِل للريح عاد رميما
وارْع(٢) الـكِفاف ولا تجاوِز حدَّه ما بعدَه يَجْنِى عليك هُمُـــوما
وابْسُطْ يدَيْك متى غَنيت ولا تكُنْ فيما يكونُ به المـــديحُ ذَميما
وإذا بَذَلْت فلا تُبذر إنّ ذا التَّبـــذِير [يومئذ أخُوه](٣) رجيما
وعِف الورود إذا تزاحم مَوْرِدٌ واحسَبْ ورودَ المـــاء منه حميما
واصحَبْ كريم الأصل ذا فَضْلٍ فمن يَصْـحَب لئيم الأصْل عُدَّ(٤) لئيما
فالفضلُ من لِبْس الـكرام فمن عرا عنه فليس لمـــا يقول كريما
إن المقارَنَ بالمقارَنِ يقْتَدى مثلٌ [جرَى جرْى الرياح](٥) قديما
وجِمـــاعُ كلِّ الخير فى التَّقوى فلا تَعْدَم حُـــلَى التَّقوى تُعَدَّ عديما

وقال يصف الشَّيْب من قصيدة ، وهى طويلة ، أولها :

لاح الصباحُ ، صباحُ شَيْب المَفْرِق فاحمــــد سُراك نجوتَ ممَّا تتَّقى
هى شَيْبَةُ الإسلام فاقْدِر قَدْرَها قد أعتقَتْـــك وحَقٍّ قدر المُعْتِق
خَطَّت بفَوْدك أبيضاً فى أسْـــودٍ بالعكس من مَعْهُود خطٍّ مُهْرق
كالبَرْق راعَ بسَيْفه طَرَف الدُّجا فأعار دُهْمَته شَـــتات الأبْلَق
كالفَجْر يُرْسِـــل فى الدَّجْنة خيطه ويجُرُّ(٦) ثوب ضِـــيائه بالمشرِق

---

(١) فى المخطوطين : مننت .
(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : واربع .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : مثل أخيه .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يعد .
(٥) فى نص آخر : (جرى بين الأنام) .
(٦) فى المخطوطين : ويحرك .

كالماء يستُرُه بقعر طحلب ... فتراه بين خِـلاله كالزِّئبق
كالحيَّـــة الرقشاء إلا أنه ... لا يَبْرَأُ الملسوعُ منه إذا رقى
كالنَّجم عُدَّ لرَجْم شـيطان الصِّبا ... يا ليت شيطان الصِّبا لم يُحْرق
كالزَّهْرِ إلا أنه لم يَسْتَنِم (١) ... إلا بغُصْنٍ ذابلٍ لم يُورِق
كتَبَسُّم الزِّنْجى إلا أنه ... يُبكى العيونَ بدمعـه المُتَرقْرِق
وكذا البياض قذى العيون ولا ترى ... للعين (٢) أبْـكَى من بَياض المَفْرِق
ما للغَوَانى وهُو لون خـدُودها ... يَجْزَعْن من لألائه المُتأَلِّق
وأخَلْنـه لمع السُّيوف [ومن يشم ... لمع السُّيوف] (٣) على المَفارق يَفرْق
هو ليس ذاك ولا الذى أنـكرتُه ... فـكُنْ خائفاً ما خِفْنَ منه واتَّق
داءٌ يَعزُّ على الطبيب دواؤُه ... و يَضِـيع خُسْراً فيه مالُ المُنْفِق
لـكنّه والحقُّ أصدقُ مِقْوَلٍ ... شَيْنُ المسِىء الفِعـل زينُ المتَّقِى

ومن مقطوعاته قوله :

أقِلِّى فمـا الفقْرُ بالمرء عاراً ... ولا دارُ من يَألَفُ الهوْن دارا
وما يُـكْسِبُ العِزَّ إلا الغِنى ... غِنى النَّفْس فاتَّخِذْه شـعارا
وما اجتمع الشَّمْلُ فى غيره ... فيَحسُن إلا وساء انتشارا
فدَهْرُ غيرك لا تَنْظُرن ... فَيألَمَ قلبُك [منه] (٤) انكسارا
وهُزِّى إليك بجذع الرِّضى ... تَساقط عليك الأمانى ثِمـارا

(١) هكذا المخطوطين . وفى نص : يبتسم .
(٢) فى المخطوطين : للعيون .
(٣) هذه الكلمات وردت فى « ج »، وأغفلت فى « ك » .
(٤) ساقطة فى المخطوطين .

وقال أيضاً :

العلمُ حُسْنٌ وزَينُ   والجهلُ قُبْحٌ وشَيْنُ
والمـــالُ عزٌّ وعَيْشٌ   والفقرُ ذُلٌّ وحَينُ
والناسُ أعضاءُ جِسْمٍ   فمنهُم أَسَتٌ وعَيْنُ
هـذى مقالةُ حقٍّ   ما فى الذى قلت مَيْن

وقال أيضاً :

إن أراكَ الزمانُ وجهاً عَبُوساً[١]   فستَلقْاه[٢] من بعد ذاكَ طَلْقا
لا يهمَّنْكَ حالُه إن فى طُرْ   فَةِ عَيْنٍ ترتاح فيـه وتَشْقَى[٣]
أىُّ عِزٍّ رأيت أو أىُّ ذُلٍّ   لذوى الحالتين فى الدهر يَبْقَى
سَلْ نُجُومَ الدُّجى إذا ما استنارت   ما الذى فى وقت الظَّهيرَة تَلْقَى
وتَفـكَّر وقُلْ بغير ارتيـابٍ   كلُّ شىء يَفْـنَى وربُّكَ يَبْقَى

وقال أيضاً :

لو أنَّ أيَّام الشَّـباب تعود لى   عَوْد النَّضارة للقَضيب المُورِق
ما إن بَكَيْتُ على شبابٍ قد ذَوى   و بقيتُ منتظراً لآخر مُونِق

وقال فى القلم :

لك القلمُ الأعلى الذى طال فخرُه   و إن لم يكن إلا قصيراً مُجَوَّفا
تُعلِّمُ منه [الناس][٤] أبْدَع حكمة   فها هو أمْضَى ما يكُونُ مُحَرَّفا

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : حبوسا .
(٢) فى المخطوطين : فستلقى .
(٣) فى المخطوطين : ويشقى .
(٤) ناقصة فى المخطوطين .

وقال فى التشبيه :

كأنما السُّوسن الغضُّ الذى افتُتِحَـــت منه كمائمُه المبيَضَّة اللوْن
بنانُ كفٍّ فتاةٍ قط ما خَضَبَت[(١)] تَلْقَى بها مَنْ يراها خيفَة العَيْن

وقال يُعرِّض بقوم من بنى أرقم :

إذا ما نَزَلْتَ بوادى الآشى فقل ربِّ من لَدْغِه سَـــلِّمِ
وكيف السلامةُ فى مَوْطِنٍ به عُصْبَةٌ من بنى أرْقم

وقال موريّاً بالفقه ، وهو بديع :

لى دَيْنٌ على الليالى قديمٌ ثابتُ الرَّسْمِ منذُ خمسين حِجَّة
أقاعداً بالحكْمِ عليها أم لهـا فى تقـادُم الدَّهر حُجَّـة

ونختم مقطوعاته بقوله :

نَجَوْتُ بفضل الله مِمَّـا أخافُه ولِمَ لا وخَيْرُ العَالمينَ شَفِيعُ
وما ضِعْتُ فى الدنيا بغير شفاعة فـكَيْفَ إذا كان الشفيعُ أضيعُ

وقال أيضاً :

عليك بتقوى الله فيما ترُومُه من الأمر تَخْلُص بالمرام و بالأجر
ولا تَرْجُ غيرَ الله فى نَيْل حاجةٍ ولا دَفْع ضُرٍّ فى سِرارٍ ولا جَهْرِ
فمن أمَّ[(٢)] غير الله أشْرَكَ عاجلاً وفارقه إيمـانُه وهو لا يَدْرِ

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : خطبت .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » رام .

وفاته

توفى قاضياً ببُرجَة[١] ؛ وسيق إلى غرناطة فدفن بباب إلبيرة عصر يوم الأربعاء آخر يوم من ربيع الأول عام خمسة وأربعين وسبعمائة .

خالد بن عيسى بن إبراهيم بن أبى خالد البَلَوى

من أهل قَنْتُورية[٢] ، من حصون وادى المنصورة .

حـــاله

هـذا الرجل من أهل الفضل والسَّذاجة ، كثير التواضع ، منحطٌّ فى ذِمَّة التَّخَلُّق ، نابه الهيئة ، حسن الأخلاق ، جميلُ العشرة ، مُحَبَّبٌ[٣] فى الأدب ؛ قضى ببلده وبغيره ، وحجَّ وقيَّد رحلته فى سِفْرٍ[٤] ، وصف فيه البلاد ومن لَقِى ، بفصول جلب أكثرها من كلام العِماد الأصْبهانى ، وصَفْوان وغيرهما من مُلح . وقَفَل إلى الأندلس ، وارتَسَم فى الكتابة عن أميرها زماناً يسيراً ؛ وهو الآن قاضٍ ببعض الجهات الشرقية .

وجرى ذكره فى الرِّحلة[٥] التى صدرت عنى فى صُحْبَة الرِّكاب السلطانى عند

---

(١) سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص١٦٤) .

(٢) قنتورية . وبالإسبانية Cantoria . وهى بلدة صغيرة من أعمال ولاية ألمرية . تقع على نهر المنصورة على مقربة من بلدة المنصورة . وقد سبق التعريف بهذا النهر وواديه (راجع الحاشية فى ص٤٩٥) .

(٣) فى المخطوطين : محب .

(٤) وردت فى المخطوطين : سفن . وهو تحريف .

(٥) هى رسالة ابن الخطيب المسماة « خطرة الصيف فى رحلة الشتاء والصيف » . وقد عرفنا بها فى المقدمة .

تَفَقُّد البلاد الشرقية ، فى فصل حَفِظه الناس ، وأجروه فى فكاهاتهم وهو :

« حتّى إذا الفجرُ تَبلّج[١] ، والصُّبح من باب المَشْرق توَلَّج ، عُدْنا[٢] وتوفيق الله قائدٌ ، وكَنَفُنا[٣] من عنايته صلةٌ وعائدٌ ، تتلقى ركابنا الأفواجُ ، وتُحَيِّينا الهِضاب والفِجاجُ إلى قَنْتُورْيَة ، فناهيك من مرحلة قصيرة كأيام الوصال ، قريبةِ البُكَر من الآصال ، كان المُبيتُ بإزاء قَلْعتها السَّامية الارتفاع، الشهيرة الامتناع ؛ وقد بَرَزَ أهلُها فى العَديد والعُدَّة ، والاحتفال الذى قَدِم به العهدُ على طول المُدَّة ، صفوفاً بتلك البُقْعة خيلًا ورجالًا كشطرنج الرُّقْعَة ، لم يتَخَلَّف ولدٌ عن والدٍ ، ورَكْبُ قاضيها ابن أبى خالد ؛ وقد شَهَرَتْهُ النَّزْعَةُ الحِجازِيَّةُ ، وقد لَبِس من الحجازىّ وأرخى من البياض طَيْلَسانا[٤] ، وتشَبَّه بالمشارقة شَكْلًا ولسانًا ، وصَبَغ لِحْيَته بالحِنَّاء والكَتَمِ[٥] ، ولاث عمامته واختتم، والبداوةُ تَسِيمهُ على الخُرْطُوم ، وطَبْعُ الماء والهواء يقودُه قَوْدَ الجمل المخْطُوم ؛ فداعبتُه مداعبة الأديب للأديب ، والأريب للأريب ، وخيَّرتهُ بين خَصْلَتين ، وقلت نَظَمْتُ مقْطُوعَتَين ، إحداهما مَدْحٌ ، والأخرى قَدْحٌ ؛ فإن هَمَتْ دِيمَتُك ، وكَرُمَتْ شيمتُك ، فللذين أحسَنُوا الحُسْنى ، وإلا فالمثلُ الأدنى . فقال ، انشِدْنى لأرى على أىِّ أمرى أتيتَ ، وأفرقُ بين ما جَنّيْتَنى وما جنيتُ ، فقلت :

قالوا وقد عظُمَتْ سِيرةُ خالد قارِى الضيوف بطارفٍ[٦] وبتالد
ماذا تَمَتْ[٧] به فجئتَ بحجّة قَطَعت بكل مجادل ومُجالد

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : تلج .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » زهدنا .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى : « ج » وكنفه .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : كيطلسان .

(٥) هو نبات يخضب به للسواد .

(٦) فى المخطوطين : بالطارف . وهو لا يستقيم على الوزن والسياق .

(٧) فى المخطوطين : تمت .

أن يَفْتَرِقْ نسبٌ يُؤَلِّفُ بيننا　　　أدبٌ أتاه فى مقــام الوالد

وأما الثانية فيكفى من البَرْق شُعاعُه ، وحَسْبُك من شَرٍّ سماعُه . ويَسِيرُ التنبيهِ كافٍ للنَّبيه(١) ؛ فقال ، لستَ إلى قِراى بذى حاجة ، وإذا عزمت(٢) فأصالحُك على دجاجة ؛ فقلت ضريبةٌ غريبةٌ ، ومُؤْنَةٌ قريبةٌ ، عجِّل ولا تُؤَجِّل ، وإن أضرم أمرُ النهار أسْجِل ؛ فلم يكن إلا كَـلَّا ولا ، وأعوانُه من القَلْعة تَنْحدر ، والبِشْرُ منهم بقُدُومها يَبْتَدر ، يزُفُّونَها كالعَرُوس فوق الرُّؤوس ؛ فمن قائلٍ يقول أمُّها يمانيَّة ، وآخرُ يقول أخُوها الخِصِىّ المُوَجَّه إلى الحَضْرة العَليَّة ، وأدْنُوا مرابِطَها من المَضْرب ، بعد صلاة المَغْرب، وألحَفُوا فى السؤال ، وتشطَّطُوا فى طلب النَّوال ؛ فقلتُ يا بَنِى اللَّـكِيعة لو جئتُم ببازى ، بماذا كنت أجازى ، فانصرفوا وما كادوا يفعلون ، وأقبل بعضُهم على بعض يتلاوَمُون ؛ حتى إذا سُلَّت لذَبْحها المُدى ، وبلغت من طول(٣) أعمارها المَدَى ، قلت يا قومِ ظَفِرتُم بقُرَّة(٤) العين ، وابْشِرُوا باقتراب(٥) اللقاء ، فقد ذَبَحْتُ لَـكم غُراب البَيْن » .

ولقد بلغنى أنه لهذا العهد بعد أن طال المَدَى ، يتظلَّم من ذلك ، ويَنْطوى من أجله على الوَجْدَة ؛ فكتَبْتُ إليه : وصل الله عِزَّة الفقيه النَّبيه ، العديم النظير والتَّشْبيه ؛ وارث العدالة عن عمّه وابن أبيه ، فى عزّة تُظلّله ، وولاية تُتَوّج جاهه وتُكلّله .

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : التنبه .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : اعزمت .

(٣) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٤) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » : بالعتراب .

داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر ابن حَوْط الله الأنصارى الحارثى الأُنْدِى[١]

يكنى أبا سليمان .

أوّليّتــــه

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : من بيت علم وعفاف ، أصله من أُنْدَة[٢] ، حصن بشرقى الأندلس ، وانتقل أبو سليمان هذا مع أخيه القاضى أبى محمد إلى حيث يذكر بعد .

حــاله

قال ابن عبد الملك : كان حافظاً للقراءة ، عارفاً بإقراء القرآن بها ، أتْقَن ذلك عن أبيه ، ثم أخيه كبيره أبى محمد ، محدِّثاً متسع الرواية ، شديد العناية بها ، كثير السماع ، ثقةً ، مُكثرًا ، عَدْلًا ، ضابطاً لما ينقله ، عارفاً بطرق الحديث ، أطال الرِّحلة فى بلاد الأندلس ، شرقها وغربها ، طالباً للعلم بها ، ورحل إلى سَبْتَة وغيرها من بلاد[٣] العُدْوة[٤] ، وعُنى بلقاء الشيوخ كباراً وصغاراً ، والأخذ منهم ، أتمّ عناية ؛

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (الأبدى) نسبة إلى أبدة . وهو تحريف . وصوابه (الأندى) نسبة إلى بلدة « أندة » كما هو مسطور فى سياق الترجمة فى غير موضع .

(٢) أندة بلدة أندلسية قديمة من بلاد ولاية بلنسية .

(٣) وردت بعد هذه الكلمة فى المخطوطين كلمة : (الاندلس) . وظاهر من سياق الكلام أن لا محل لها هنا وأنها وردت سهواً فقط .

(٤) أعنى بلاد المغرب .

وحصل له بذلك ما لم يحصل لغيره ؛ وكان فهمًا بصيرًا بعَقْد الشروط ، حاذقاً فى استخراج نُكتِها ، تَلَبَّس بكَتْبها زماناً طويلاً بمسجد الوحيد من مالقة ؛ وكان محباً فى العلم وأهله ، حريصاً على إفادته أياهم ، صَبُوراً على سماع الحديث ، حسن الخُلُق طيِّب النفس ، متواضعاً ، ورِعاً ، مُنْقَبضاً ، ليِّن الجانب ، مخفوض الجناح ، حسن الهُدى ، نزيه النفس ، كثير الحياء ، رقيق القلب ، تعدَّد الثناء عليه من الجِلَّة .

قال ابن الزُّبير : كان من أهل العدالة والفضل ، وحسن الخُلق ، وطِيبِ النفس والتَّواضع ، وكثرة الحياء . وقال ابن عبد المجيد ؛ كان ممن فَضّله الله بحسن الخلق والحياء . على كثير من العلماء . وقال أبو عبد الله بن سلمة [مثلَ ذلك] (١) . وقال ابن (٢) ... بمثله .

مشـــيخته

قال الأستاذ : أقرأ بمُرْسِية ، وأخذ بها ، و بقُرطبة ، ومالقة ، و إشبِيليَّة ، وغَرْناطة وسَبْتة ، وغيرها من بلاد الأندلس ، وغرب العُدْوة ؛ واعتناؤه يُعينُه [وأخاه] (٣) بباب الرُّواة ، والأخذِ عن الشيوخ ، حتى اجتمع لهما ما لم يجتمع لأحد من أهل عَصْرهما ؛ فمن ذلك أبُوهُما ، أبو داود (٤) ، وأبو الحسن صالح بن يحيى بن صالح الأنصارى ، وأبو القاسم بن حسن ، وأبو عبد الله بن حُمَيد ، وأبو زيد السُّهَيلى ، وأبو عبدالله محمد ابن محمد بن عراق الغافقى ، وأبو العباس يحيى بن عبد الرحمن المَجْرِيطى (٥) ، وعن

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : كذلك .

(٢) لم يرد بعدها باقى الإسم فى المخطوطات الثلاث .

(٣) وردت فى المخطوطين : (أخباره) . وقد رجحنا أن تكون تحريفاً لكلمة (واخاه) . يؤيد ذلك باقى السياق .

(٤) وردت فى « ج » وأغفلت فى « ك » .

(٥) نسبة إلى مجريط (وبالإسبانية Magerit) . وهى القاعدة الإسلامية الحصينة التى كانت تقع شمال مدينة مدريد الحديثة ، والتى حرف اسمها فيما بعد إلى اسم العاصمة الإسبانية .

ابن بَشْـكُوال(١)؛ وأخذ عن أبى بكر بن الجد ، وأبى عبد الله بن زَرْقون ، وأبى محمد ابن عبد الله ، وأبى عبدالله بن الفخّار الحافظ ، وأبى العباس بن مضاء ، وأبى محمد بن بُونَه(٢) ، وأبى محمد بن عبد الصمد بن يعِيش الغَسَّانى ، وأبى بكر بن أبى حمزة ، وأبى جعفر بن حَـكَم الزَّاهد ، وأبى خالد بن يزيد بن رفاعة ، وأبى محمد عبد المنعم ابن الفرَس ، وأبى الحسن بن كَوْثَر ، وأبى عبد الله بن عَرُوس ، وأبى بكر ابن أبى زَمْنِين ، وأبى محمد بن جُمْهُور ، وأبى بكر بن النيَّار ، وأبى الحسن بن محمد بن عبدالعزيز الغافِقى الشُّقُورى ، وأبى القاسم الحُوفى القاضى ، وأبى بكر بن بييش(٣) بن محمد بن بييش(٣) العَبْدَرى ، وأبى الوليد بن جابر بن هشام الحَضْرَمى ، وأبى بكر بن مالك الشَّريشى ، وأبى عبداليُسْر الجزيرى ، وأبى بكر بن عبدالله السَّـكْسَكى(٤) وأبى الحجاج ابن الشيخ الفهرى ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم.

قضاؤه وسيرته فيه

قال ابن أبى الربيع(٥) لازمت ابنَى(٦) حَوْطِ الله ، فكان أبو محمد يفوق أخاه والناسَ فى العلم ، وكان أبو سليمان يفوق أخاه والناسَ فى الحِلْم. واسْتُقضى بسَبْتَة والمَرِيَّة والجزيرة الخضراء ، وقام قاضياً بها مدة ، ثم نقل منها إلى قضاء بَلَنْسِيَة آخر ثمان وستمائه، ثم صُرف بأبى القاسم بن نُوح ، وقُدِّم على القضاء بمالقة فى حدود احدى عشر وستمائة ، فشُكرت أحوالهُ كلُّها ، وعُرف فى قضائه بالنزاهة . قال

(١) وردت فى المخطوطين محرفة : ابن شكوال .

(٢) وردت فى المخطوطين محرفة : بونو . وبونوا . والتصويب من « صلة الصلة » (ص ٧) .

(٣) هكذا وردتا فى « ك » . ووردتا محرفتين فى « ج » : (يبشر . بيش) .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، والسكسا كى .

(٥) فى المخطوطين : ابن الربيع .

(٦) وردت فى المخطوطين : أبى : والتصويب يستلزمه السياق .

أبو عبدالله بن سَلْمة ؛ كان إذا أحضر خَصماً [١] ، ظهر منه [من][٢] التواضع ، ووطْأةِ الأكْناف ، وتبْيين المراشد ، والصبر على المُداراة ، والمُلاطفة ، وتَحْبيب الحق ، وتكْريه الباطل ، ما يُعجز عنه . ولقد حضرتُه ، وقد أوْجَبت الأحكامُ عنده [٣] الحدود على رجلٍ ، فهاله الأمر ، وذَرَفت عيناهُ ، وأخذ يَعْتِبُ عليه ويؤَنِّبُه على أن ساق نَفْسَه إلى هذا ، وأمر بإخراجه ، ليُحَدَّ بشهود فى موضع آخر لرقَّة نفسه ، وشدَّة إشفاقه . واستمرت ولايته بمالقة إلى أن توفى .

مولده

ببلدة أُنْدَة سنة ستين وخمسمائة .

وفاته

قال أبو عبد الرحمن بن غالب ؛ توفى إثْر صلاة الصبح من يوم السبت سادس ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وستمائة ، ودفن إثر صلاة العصر يوم وفاته ، بسفح جبل فارَة [٤] ، فى الروضة المدفون بها أخوه أبو محمد ، فأتْبعَه الناس ثناءً جميلا ؛ ذكرواختلفوا فى جنازته ، وخَرج إليها النساءُ والصبيانُ داعين مُتبكِّين .

رِضْوان النَّصْرى الحاجبُ المُعظّم

حَسَنَةُ الدولة النصرية ، وفخرُ مواليها .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » خصوماً .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . ولازمة للسياق .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » عند .

(٤) هو الجبل الذى يشرف على مدينة مالقة من ناحية الجنوب الشرقى . وهو يقع تجاه قصبة مالقة . ويقع عليه الحصن المسمى بنفس الإسم . وهو بالإسبانية Gibralfaro

أوليتـــــه

رومىّ الأصل . أخبرنى أنه من أهل القَلْصَادَة (١) ، وأن انتسابه يتجاذَ به القَشْتَالِيةُ من طَرَف العمومة ، والبَرْجِلُونِيّة (٢) من طرف الخُؤولة ، وكلاهما نبيه فى قومه ، وأن أباه ألجأهُ الخوف بدم ارتكبه فى محل أصالته من داخل قَشْتالة إلى السُّكنى بحيث ذكر ؛ ووقع عليه سِباءٌ (٣) فى سن الطفولية (٤) ، واستقرّ بسببه بالدار السلطانية ، ومَحَضَ (٥) إحرازَ رقِّه ، السلطان دايل قومه ، أبو الوليد المارُّ ذكره ؛ فاختصَّ به ، ولازمه قبل تَصْيير المُلْك إليه ، موثِراً له ، مغتبطاً بمخائل فضله ، وتَمَاثُل استقامته ؛ ثم صُيِّر الملك إليه ، فتدرَّج فى معارج حُظوته ، واختصَّ بتربية ولده ، ورَكَنَ إلى فضل أمانته ، وخلطه فى قُرْب الجوار بنفسه ، واسْتَجْلى الأمور المُشْكِلة بصِدْقه ، وجعل الجوائز السنيَّة لعظماء دولته على يده ؛ وكان يوجب حقَّه ويعرف فضله ، إلى أن هلك ؛ فتعلَّق بكَنَف ولده ، وحَفِظ شَمْله ، ودَبَّر مُلْكه ، فكان آخر اللَّخْف ، وسترا للحرم ، وشجىً للعِدا ، وعُدَّةً فى الشِّدة ، وزَيْنا فى الرَّخاء ، رحمة الله عليه .

حـــــاله وصفته

كان هذا الرجل مليح الشَّيْبة والهيئة ، معتـدل القَدِّ والسَّحْنة ، مُرهب البدن ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : (القلصارة) بالراء . وهو تحريف . وصوابه القلصادة . وهى بلدة La Calzada de Calatrava الواقعة جنوب قشتالة فى شمال مدينة بياسة فى منتصف الطريق بينها وبين طليطلة.

(٢) القشتالية نسبة إلى قشتالة Castile . والبرجلونية نسبة إلى برجلونة أو برشلونة أو بعبارة أخرى إلى أراجون .

(٣) أى أسر .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين .

(٥) فى المخطوطين : محمض .

مُقبل الصورة ، حسن الخلق ، واسع الصدر(١) ، أصيل الرأى ، رصين (٢) العقل ، كثير التجمل ، عظيم الصبر ، قليل الخوف فى الهَيْعات ، ثابت القدم فى الأزمات ، ميمون النَّقيبة(٣) ، عزيز النَّفس ، عالى الهمَّة ، بادى الحشمة ، آية فى العفَّة ، مثلًا فى النزاهة، ملتزماً للسُنَّة ،دؤُبا على الجماعة، جليس القِبْلة، شديد الإدراك مع السكون ، ثاقب الذهن مع إظهار الغَفْلة ، مليح الدُعابة مع الوقار والسكينة ، مستظهراً لعيون التاريخ، ذاكراً للكثير من الفقه والحديث، كثير الدّالة(٤) على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد ،عارفا للسياسة ، مُكرما للعلماء ، مُترِكا للهَوادة (٥) ، قليل التصنُّع ، نافراً من أهل البِدَع ، متساوى الظاهر والباطن ، مقتصداً فى المطعم والملبس .

مكانته من الدين

اتُفق على أنه لم يُعاقر مُسكراً ، ولا زُنَّ بهَناة ، ولا لُطِخ بريبة ، ولا وُصم بخلَّة تَقْدح فى مَنصِب ، ولا باشر عقاب جاز(٦) ، ولا أظهر شفاءً من غائظ ، ولا اكتسب من غير التَّجر والفلاحة مالا .

آثـــاره

أحدث المدرسة بغرناطة . ولم تكن بها بعد ، وسبّب إليها الفوائد ، ووقف عليها

---

(١) وردت بعدها فى المخطوطين هذه العبارة : (متين . سليم الصدر) . ويلوح لنا أنه تكرار وتحريف . ولهذا رأينا حذفها .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : رصيد .

(٣) أى محمود المخبر .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين : والمقصود بها العلم والإحاطة .

(٥) فى المخطوطين : للهودة .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين : وقد تعنى عقاب مستحق له .

الرِّباع المُغلّة ، وانفرد بمَنْقَبها[١] ، فجاءت نسيجة وحدها بهجة ورصَداً وظرفاً وفخامة ، وجَلَب الماء المُوقَف ، فأبّد سقيَه عليها ؛ وأدار السُّور الأعظم على الرَّبَض الكبير المنسوب للبيّازين[٢] ، فانتظم منه النَّجد والغُور ، فى زمان قريب ، وشارف التمام الى هذا العهد ؛ و بنى من الأبراج المنيعة فى مَثالم الثُّغور وروابى[٣] مطالعها المُنْذِرة ، مايَنيفُ على أربعين بُرْجا ، فهى ماثلة كالنجوم ما بين البحر الشرقى من ثغر بيرة[٤] إلى الأحواز الغربية ؛ وأجرى الماء بجبل مَوْرُور ، مُهْتديا إلى ما خفى على من تقدَّمه ، وأفذاذ أمثال هذه الأنقاب يشقُّ تعداده .

جهاده

غزا فى السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة بجيش مدينة باغة[٥] ، وهى ما هى من الشهرة ، وكرم البُقعة ، فأخذ بمُخنَّقها ، وشدَّ حصارها وعاق الصريخ عنها ، فتملكَّها عَنْوة ، وعمّرها بالحماة ، ورتَّبها بالمُرابطة ، فكان الفتح فيها عظيما . وفى أوائل شهر المحرم من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عَدْو المشرق ، وطوى المراحل مجتازاً على بلاد قَشْتالة ، لُورَقَة ومُرْسية ، وأمعن فيها ، ونازل حصن المُدَوَّر ، وهو حصن أمِن غائلة العدو [مكْتنَفٌ بالبلاد ، مُدَّ بالبَسِينى[٦] ، موضوعٌ على طيَّة التجارة ، وناشبه القتال ، فاستولى عَنْوة][٧] عليه منتصف المحرم من العام المذكور ، وآبَ مملوء الحقائب سَبياً وغُنْماً .

---

(١) أى بفضلها وأثرتها .

(٢) ما تزال ثمة إلى اليوم بقية من هذا السور قائمة وراء ربض البيازين بغرناطة .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ورواقى .

(٤) بيرة Vera وقد سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص١١٥) .

(٥) باغة وبالإسبانية Priego هى بلدة حصينة قديمة تقع شمال لوشة فى ولاية جيان .

(٦) الآلات والتجهيزات الضخمة .

(٧) ما بين الحاصرتين وارد فى « ك » . وساقط فى « ج » .

وغزواته كثيرة ، كمظاهرة الأمير الشهير أبى مالك على مُنازَلة جبل الفتح ، وما اشتهر عنه فيه من الجد والصبر ، وأوثر عنه من المَنْقَبة ، الدّالة على صحة اليقين ، وصدق الجهاد ، إذ أصابه سهم فى ذراعه وهو يصلى ، فلم يشغله عن صلاته ، ولا حمله توقعُ الإغارة على إبطال عمله .

ترتيب خدمته
وما تخلل ذلك من محنته

لما استوثق أمرُ الأمير المخصوص بتربيته ، محمد ، بن أمير المسلمين أبى الوليد نصر ، وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن المحروق ، ووقع بينه و بين المترجم عهدٌ على الوفاء والمُناصحة ، ولم يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين وسبعمائة ، و بعثه ليلا الى مَرْسَى المُنَكَّب [١] ، واعتقله فى المُطْبَق من قصبتها ، بَغْياً عليه ، وارتكب فيه أُشنُوعة أساءت به العامّة ، وأنذرت باختلال الحال ، ثم أجازه البحر ، فاستقر بِتِلِمْسان ؛ ولم يلبث أن قُتل المذكور ؛ وبادر سلطانه الموتور بفرقته [٢] عن سُدَّته ، فاستدعاه [٣] فلحق محله من هَضْبَة المُلك مُتَمَلِّيا ما شاء من عز وعناية ، فصُرفت إليه المقاليد ، ونيطت به الأمور ، وسُلم إليه المُلْك ، وأُطلقت يده فى المال [٤] ؛ واستمرت الأحوال إلى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، والتاث الأمر ، وظهر من سلطانه التنكر [٥]

---

(١) المنكب Almunecar هو ثغر صغير يقع على البحر الأبيض المتوسط فى جنوبى ولاية غرناطة وقد اشتهر فى تاريخ الأندلس بنزول عبد الرحمن الداخل فيه .

(٢) وردت فى المخطوطين . بغرفيه ، وهو تحريف . و بالتصويب يستقيم السياق .

(٣) فى المخطوطين : استدعاه .

(٤) وردت فى المخطوطين : الحال . ونعتقد أن التصويب فى محله .

(٥) فى المخطوطين : المتنكر .

عليه ، فعاجله الحِمام ، فخلّصه الله منه ؛ وولى أخوه أبو الحجاج من بعده ، فوقع الإجماع على اختياره للوزارة أوائل المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، فرضى الكلّ به ، وفرحت العامة والخاصة للخطة ، لارتفاع المنافسات بمكانه ، ورضى الأضداد بتوسطه ، وطابت النفوس بالأمن من غائلته ؛ فتولّى الوزارة وسَحَب أذيال المُلك ، وانفرد بالأمر ، واجتهد فى تنفيذ الأحكام ، وتقدُّم الولاة ، وجواب المخاطبات ، وقُوَّاد الجيوش ، إلى ليلة الأحد الثانى والعشرين من رجب عام أربعين وسبعمائة ، فنكبه الأمير المذكور نكبة ثقيلة (١) البَرك ، هائلة الفَجْأة ، من غير زلّة مأثورة ، ولا سَقْطة معروفة ، إلا مالا يُعدم بأبواب الملوك من شرور المنافسات ، ودَبيبِ السِّعايات الكاذبة ؛ وقبض عليه بين يدى محراب الجامع من الحمراء(٢) إثر صلاة المغرب ، وقد شهَرَ الرجال سيوفهم فوقه يحفُّون به ، ويقودونه إلى بعض دور الحمراء ؛ وكبَسَ ثُقات السلطان منزله ، فاستوعبوا ما اشتمل عليه من نعمةٍ ، وضم إلى المستخلص (٣) عقاره ، وسوَّغ الخبرُ عظيم غلاّته ؛ ثم نُقل بعد أيام إلى قصبة ألمِرِيَّة محمولا على الظّهر ، فشُدَّ بها اعتقاله ، ورتب الحرس عليه إلى أوائل شهر ربيع الثاني من عام أحد وأربعين وسبعمائة ؛ فبدا للسلطان فى أمره واضطر إلى إعادته (٤) ، ووجَد فَقْد نُصحه ، وأشفق لما عَدِم من أمانته ، والانتفاع برأيه ، وعُرض عليه بالنوم الكفُّ والإقصار عن ضَرِّه ؛ فعفا عنه ، وأعاده إلى محله من الكرامة ، وصرف عليه من ماله ، وعرض الوزارة فأباها ، واختار بُرد العافية ، وأَنِس لذّة التّخلى ، فقدِّم لذلك مَنْ سَدَّ الثغور ، فكان له اللفظ ، ولهذا الرجل المعنى ؛ فلم [يزل](٥) مفزعاً للرأى ، مُحلّى فى العِظة على الولاية ، كثير الآمل والغاشى ،

---

(١) فى « ج » بقيلة . و « ك » نفيلة . والتصويب أرجح .

(٢) مسجد الحمراء الكبير ، كان يقوم فوق هضبة الحمراء على مقربة من القصر ، ومكانه اليوم كنيسة سانتا ماريا الواقعة على مقربة من قصر شارلكان القائم تجاه قصر الحمراء .

(٣) المستخلص أى أملاك السلطان .

(٤) وردت فى المخطوطين : إعانته . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٥) ساقطة فى المخطوطين .

إلى أن توفى السلطان المذكور غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، فَشَعَبَ الثّاىَ (١) ، وحَفِظ البلوى ، وأخذ البيعة لولده سلطانِنا الأسعد أبى عبد الله ، وقام خير قيام بأمره ، وجرى على معهود استبرائه (٢) ، وقد تحكمت التجربة ، وعَلَت السّن ، وزادت أنّة الخَشْيةِ ، وقَرُبت من لقاء الله الشُّقّة ، فلا تسأل عما حطّ من خَل ، وأفاض من عدل ، و بذل من مُداراة ؛ وحاول عقد السَّلمِ ، وسدّ أمور الجند على القِل ؛ ودامت حالهُ متصلةً على ما ذكر ، وسنُّه تتوسط عَشر التسعين إلى أن لحق بربه . وقد علم الله أنى لم يحملنى على تقرير سيرته ، والإشادة بمَنْقَبَتِه داعيةٌ ، و إنما هو قول بالحق ، وتسليم لحُجَّة الفضل ، وعدل فى الوصف ، والله عز وجل يقول : « و إذا قلتم فاعدلوا » .

وفاته

فى ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ستين وسبعمائة ، طرق منزله بعد فراغه من إحياء ثُلْث الليل ، مُتَبذِّل اللّبسة ،خالص، الطويّة مقتضياً للأمن مستشعراً للعافية ، قائماً على المسلمين بالكَلّ ، حاملا للعظيمة ، وقد بادره الغادرون بسلطانه ، فكسروا غَلَقَه بعد طول معالجة ، ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله ووَلده ، وذهبُوا إلى الدّايل برأسه ، وفجعوا الإسلام ، بالسَّائس الخصيب المتغاضى (٣) ، راكب متن الصبر ، ومطوّق طَوْق النزاهة والعفاف ، وآخر رجال الكمال والسّتر ، الضّافى على الأندلس ؛ ولوئم من الغد بين رأسه وجسده ، ودُفن بإزاء لحود (٤) مواليه (٥)

---

(١) وردت فى « ك » الشائن . وفى « ج » الشانى .

(٢) تقرأ فى المخطوطين : استبراده . هو تحريف .

(٣) وردت فى « ج » المغاضى . وفى « ك » المقاضى .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : (لجود . انجود) .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : مواليفه .

من السييكه [١] ظهراً ، ولم يشهد جنازته إلا القليل من الناس، وتُبُرِّك بعدُ بقبره . وقلت عند الصلاة عليه ، أُخاطبه دون الجهر من القول لمكان التقية :

أرِضوان لا تُوحشك فَتْكةُ ظالمٍ … فلا موْردٌ إلا سيتلوه مَصْدَرُ
ولله سرٌّ فى العباد مُغَيَّبٌ … يشيد بخافيه [٢] القضاء المُقدّرُ
سَميُّك مرتاحٌ إليك مُسَلِّمٌ … عليك ورِضْوان من الله أ كْبرُ
فحثَّ المَطَا لَيْسَ النعيم مُنَغَّصٌ … ولا العيشُ فى دار الخلود مُكَدَّرُ

زَاوِى بن زِيرى بن مَنَاد الصِّنهاجى

الحاجب المنصور ، يكنى أبا مُثْنى .

أوليَّتــــه

قدم ما حدث بين أبيه زيرى و بين قرابته من ملوك إفريقية ، بادِيس بن منصور من المُشاحنة التى أوجبت مخاطبة المُظفر بن أبى عامر فى اللِّحاق بالأندلس ، وإذْ نه فى ذلك . فدخل الأندلسَ منهم على عهده جماعة وافرة من مساعير الحروب وآثار [٣] الحتُوف ، مع شيخهم هذا وأميرهم ، ودخل منهم معه أبناء أخيه ماكْسَن وحُباسة وحَبُّوس، وقاموا فى جُمْلة المظفَّر، وزاوى مخصوصٌ باسم الحجابة؛ فلما اختلّ بناء الخلافة ، بمحمد بن عبد الجبار المُلقب بالمهدى ، أذلَّهم وتنكر لهم ، وأشاع بينهم و بين أمثالهم من البرابر ، المُغايَرة ، فكان ذلك سبب الفتنة التى يسمّيها أهل الأندلس

---

(١) سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص١٢٢) .
(٢) وردت فى المخطوطين : تجافيه .
(٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : وأطار .

بالبَرْبرية ؛ فانحاشوا ، ونفروا(١) عهـده ، وبايعوا سليمان بن الحكم ، واستعانوا بالنصارى ، وحركوا على أهل قُرْطبة خصوصاً ، وعلى أهل الأندلس عموماً ، ما شاء الله من استباحة(٢) ، وإهلاك النفوس ، وغلبوا على مُلْك الأندلس ، وما وراء البَيْضة ، واقتسموا أمّهات الأقطار ؛ وانحازوا(٣) إلى بلاد تضُمُّهم ، فانحازت صِنْهاجة مع رئيسهم المذكور إلى غرناطة ، فأوُوا إليها ، واتَّخذوها ملجأً ، وحماها زاوى المذكور ، وأقام(٤) بها ملكا ، وأثّل بها سلطانا لذويه ، فهو أوّل من مدَّن غرناطة ، وبناها وزادها تشييداً ومَنَعة ؛ واتصل ملكه بها ، وأرشحت عروقه ، إلى أن كان من ظهوره بها وأحوازها ، على عساكر الموالى ، الراجعين بإمامهم المُرتضى إلى قرطبة ، البادين بقتاله ، والآخذين بكَظَمِه ، بما تقرر وينتقرر فى اسم المُرْتضى ، من باب المُحَمَّدين بحول الله .

وكان زاوى كَبْش الحروب ، وكاشف الكروب ، خدم قومه ، شهير الذِّكر ، أصيل المجد ، المثل المضروب فى الدهاء ، والرأى ، والشجاعة ، والأنفة ، والحزم .

قال بعضهم ، أحكم التدبير ، والدولة تُسعده ، والمقدار(٥) ينجده ؛ وحُكيت له فى الحروب حكايات عجيبة .

بعض أخباره فى الرأى

قال أبو مروان ، وقد مرَّ ذكرُ الفتنة البربرية ؛ لما خَلَص ملأُ القوم ، لتشاوُر أميرهم ، وهم فرض فى خروجهم من قرطبة ، عند ما انتهوا إلى فَحْص هلال ،

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : ونفدوا .

(٢) وردت فى « ج » . واستبحه . وفى « ك » استباحات .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ال واجتازوا .

(٤) فى المخطوطين : وقام .

(٥) هنا بمعنى القدر .

اجتمعوا على التّأسّى ، وضرب لهم زعيمهم زاوى بن زيرى بن مناد الصّنهاجى ، مثلا بأرماح خمسة جمعها مشدودة ، ودفعها لأشدّ من حضره منهم ، وقال له ، إجهد نفسك فى كسرها كما هى وأغْمِزها ، فعالج ذلك فلم يقدر عليه ؛ فقال له حِلها وعالجها رُمْحًا رُمحًا ، فلم يبعُد عليه دقّها ؛ فأقبلَ على الجماعة ، فقال : هذا مَثلكم يابرابرة ، إن جُمعتم لم تُطاقوا ، وإن تفرّقتمُ لم تبقوا ، والجماعة فى طلبكم ، فانظروا لأنفسكم وعجلوا ، فقالوا نأخذ(١) بالوثيقة ، ولا نُلقى(٢) بأيدينا [إلى](٣) التهلكة ؛ فقال لهم بايعوا لهذا القُرشى سليمان ، يرفع عنكم الأنفَة فى الرياسات(٤) ، وتستميلون إليه العامة بالجنسية ؛ ففعلوا ، فلما تمَّت البيعة ، قال إن مثل هذا الحال لا يقوى على أهل الإستطالة ، فيقيّد له رئيس كل قبيلة منكم ، قبيلة يتكفّل السلطان بتَقْويمهم ، وأنا الكفيلُ بصِنْهاجة ؛ قال ، وامتارت بطون القبائل على أرحامها(٥) ، وقبائلها إلى أفخاذها وفصائلها ؛ فاجتمع كل فريق منهم على تقديم سيّده ، فاجتمعت صِنْهاجة على كبيرها زاوى، ولم تزل(٦) تلك القبائل المتألفة بالأندلس لطاعة أميرها، المنادين(٧) [له](٨) إلى أن أورثوهم الإمارة .

التــــوقيع

قالوا ، ولما نازله المُرْتَضى الذى أجْلَبَ به الموالى العامريين بظاهر غرناطة ، خاطبه

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : نأخذوا .

(٢) وردت فى المخطوطين : نلقوا على منوال ما يقع فى مواطن كثيرة من إيراد الفعل بالجمع مكان المفرد . وقد فضلنا التصويب ليستقيم السياق .

(٣) ساقطة فى المخطوطين .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الرياسة .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : أرحامهم .

(٦) وردت فى المخطوطين : ولم تر الذم . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٧) فى المخطوطين : المغاديين .

(٨) ساقطة فى المخطوطين، ويقتضيها السياق .

بكتاب يدعوه فيه إلى طاعته ، وأجمل موعده فيه ؛ فلما قُرِئ على زاوى قال لكاتبه ، اكتب على ظهر رقعته : « قل يا أيها الكافرون » السورة . فلما بلغت[١] المرتضى أعاد عليه كتاباً يعده فيه بوعيده ، فلما قُرِئ على زاوى ، قال رد عليه : « ألهاكم التّكاثر » إلى آخرها ، فازداد المرتضى غيظاً ، وناشبه القتال، فكان الظُّهور لزاوى.

قال المؤرخ ؛ واقتتلت صِنْهاجة مع أميرهم مُستميتين لما دَهَمَهم من بحر العساكر ، على انفرادهم وقلة عددهم ، إلى أن انهزم أهل الأندلس ، وطاروا على وجوههم ، مُسْلِمُوهم و إفرنْجُهم ، لا يلوون[٢] على أحد ، فأوقع[٣] البرابر[٤] بهم السيف ، ونَهبوا تلك المحلّات، واحتووا على ما لا كَفاء له اتسّاعاً وكَثْرة ؛ ظلّ الفارس يجيء من أتباع المُنْهزمين ومعه العَشْرة ، ولا تسل عما دون ذلك من فاخر النَّهب ، وخير الفَساطيط ، ومضارب الأمراء والرؤساء .

قال ابن حيّان ؛ فحلّ بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبةٌ أنْسَت ما قبلها ، ولم يجتمع لهم جمعٌ بعدها ، وفرّوا بإدبار ، و باءوا بالصِّغار .

مُنْصَرَفُه عن الأندلس

قال المؤرخ ؛ ولهول ما عاينه زاوى من اقتدار [أهل][٥] الأندلس فى أيّام تلك الحروب وجَعَاجعهم ، وإشرافهم على التغلُّب عليه ، هان سلطانُه عنده بالأندلس ، وخرج عنها نظراً إلى عاقبة أمره ، ودعا بجماعة من قومه لذلك فعصوه ، وركب البحر

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » . أبلغ .

(٢) وردت فى المخطوطين : يلوا . وقد لزم التصويب .

(٣) وردت فى المخطوطين : فوقع .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وهو يستعمل هنا كلمة « البرابر» للتعبير عن البربر . وقد استعمل من قبل كلمة « البرابرة » فى مواطن عدة .

(٥) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

بجيشه وأهله ، فلحِق بإفريقية وطنه . قال ، فكان من أغرب الأخبار فى الدولة الحَمُّودية[١] انزعاجُ ذلك الشيخ زاوى عن سلطانه بعد ذلك الفتح العظيم الذى [ناله][٢] على أهل الأندلس، وعبورُه البحر، بعد أن استأذن ابن عمه المُعز بن بادِيس، فأذِن له . وحَرِص بنو عمه[٣] بالقَيْرُوان ، على رجوعه لهم [لحال سِّنه][٤] ، وتقريبهم يومئذ مَنْ مِثْلُه من مشيختهم لمهلك جميع إخوتهم، وحصوله هو [على][٥] مُقَرَّرِ بنى مناد الغريب الشأن ، فى أن لا تُحجب عنهم نساؤهم [وكن][٦] زُهاء ألف امرأة فى ذلك الوقت، هُن ذوات مَحْرَم من بنات أخوته و بناتهن وبنى بنيهن. وكان رحيل زاوى عن الأندلس سنة ستة عشر وأربعمائة . قال ابن حيّان ، وأخبار هذا[٧] الداهية كثيرة ، وأفعاله ونوادره مأثورة .

زهير العامرىّ ، فتى المنصور بن أبى عامر

حـــاله

كان شهماً داهية ، سديد المذهب ، مؤثراً للأناة ؛ ولِي بعد خَيْران صاحب ألمريّة ، وقام بأمره أحمد قيام ، سنة تسعة عشر وأربعمائة ، يوم الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى . وكان أميراً بمرسية ، فوجه عنه خيران حين أحسَّ بالموت ، فوصل

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : المحمودية .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . ويستلزمها السياق .

(٣) فى المخطوطين : بنى عمه. وهو تحريف شائع فى المخطوطين .

(٤) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (بحال سيئة) . ونعتقد أن هذا التصويب الذى نورده من « الذخيرة » ، أرجح وأنسب للمعنى والسياق .

(٥) إضافة يقتضيها السياق .

(٦) إضافة يقتضيها السياق .

(٧) فى المخطوطين : هذه .

إليه ، وكان عنده إلى أن مات . فخرج زُهيرمع ابن عباس[١] إلى الناس ، فقال لهم ، أمَّا الخليفة خيران فقد مات ، وقد قدَّم أخاه زهيراً هذا ، فما تقولون ؛ فرضى الناس به ، فدامت مدة[٢] ولايته عشرة أعوام ونصف عام إلى أن قُتل .

منـــاقبُه

قال أبو القاسم الغافقى ؛ وكان حسن السيرة جميلها ؛ بنى المسجد فى ألمريّة[٣] ، ودار فيه من جهاته الثلاث ، المشرق والمغرب والجوف ؛ و بنى مسجداً ببِجاية ، وشاور الفقهاء ، وعمل بقولهم ؛ وملك قرطبة ، ودخل قصرها ، يوم الأحد لخمس بقين من شعبان سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، ودام سلطانُه عليها خمسة عشر شهراً ونصف شهر .

قال ابن عذارى ؛ وأما زُهير الفتى فامتدَّت أطنابُ مملكته من ألمَرِيَّة إلى قُرْطُبة ونواحيها ، وإلى شاطِبة وما يليها ، وإلى بَيَّاسة[٤] ، وإلى الفَجِّ من أول طليطلة . وقالوا[٥] : قرّمابينه و بين باديس [فأرسل باديس][٦] ،إلى زهير رسولهمكاتباً مُسْتدعياً تجديد المحالفة[٧] ، فسارع زهير ، وأقبل نحوه ، وضيَّع الحزم ، واغترَّ بالعُجْب ،

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ابن العباس وهو تحريف . وابن عباس هو أحمد بن عباس بن زكريا الأنصارى وزير خيران العامرى . وقد سبقت ترجمته (ص ٢٦٧-٢٧٠) .

(٢) أغفلت هذه الكلمة فى « ك » .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : بالمرية .

(٤) وردت فى المخطوطين : بيانه . والتصويب من « البيان المغرب » . والواقع أن بيانه كانت داخل المملكة الإسلامية جنوبى قرطبة والاستيلاء عليها لا يعتبر توسعاً ذو شأن . أما بياسة (وبالإسبانية Baeza) فقد كانت فى الشمال ، فى أطراف المملكة الإسلامية .

(٥) ما سيلى من كلام ابن حيان فى « المقتبس » نقله ابن بسام فى « الذخيرة ». وقد رجعنا فى تحقيق بعض ما ورد فيه إلى الذخيرة (القسم الثانى من المجد الأول ص ١٦٦ وما بعدها) .

(٦) أغفلت هذه العبارة فى المخطوطين . ونقلناها عن الذخيرة .

(٧) فى المخطوطين : المخالفة . والتصويب من الذخيرة .

ووثق بالكثرة ، أشبه شيء بمجئ الأمير الضخم إلى عامل من عُمَّاله ، قد ترك رسم الإلتقاء بالنُّظراء وغير ذلك من وجوه الحزم ، وأعرض عن ذلك كله ؛ وأقبل ضاربًا بسوطه[١] ، حتى تجاوز الحدَّ الذى جرت العادة بالوقوف عنده من عمل باديس دون إذْنه ؛ وصيَّر الأوعار والمضايق خَلْف ظهره ، فلا يفكر فيها ، واقتحم البلد ، حتى صار[٢] إلى باب غرناطة . ولما وصل خرج باديس فى جَمْعِه ، وقد أنكر اقتحامه عليه ، وعدَّه حاصلًا فى قَبْضته ؛ [فبَدَأه بالجميل][٣] والتَّكْريم ، وأوسع عليه وعلى رجاله فى العطاء والقِرى ، والتعظيم بما مكَّن اغترارهم ، وثَبَّت طُمأنينتهم ؛ ووقعت المناظرة بين زهير و باديس ، ومن حضرهما من رجال دولتهما ، فنشأ بينهما عارض الخلاف[٤] لأول وهلة ، وحمل زهير أمره على التَّشَطُّط ؛ فعزم باديس على اللقاء ووافقه عليه قوم من خُدَّامه ، فأقام المراتب ، ونصب الكتائب ، وقطع قنطرة لا محيد عنها لزُهير ، والحائن[٥] لا يشعر ؛ وغاداه عن تَعْبية مُحكمة ، فلم يرُعْه إلا رجة[٦] القوم راجعين ، فدهِش زُهير وأصحابه ، إلا أنه أحسن تدبير الثبات لو استتمه ؛ وقام فنصب الحرب ، وثبت فى قلب العسكر ، وقدَّم خليفته هُذَيلًا فى وجوه أصحابه إلى الموالى ؛ فلما رأتهم[٧] صنهاجة ، علموا أنهم الحُماة والشَّوكَة ، ومتَى حُصِدوا[٨] لم يَثْبُت مَنْ وراءهم ، فاختلطوا بهم ، واشتد القتال ، فحكم الله لأقلِّ الطائفتين من صِنهاجة ليُرِى قدْرَته ، فانهزم زُهير وأصحابه وتقَطَّعوا ،

---

(١) هكذا فى الذخيرة وفى المخطوطين : سوطه .

(٢) فى المخطوطين : طار .

(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : (فبدا له بالجيل . فبدا له بالحيل) . والتصويب من الذخيرة .

(٤) ساقطة فى « ك » .

(٥) هكذا فى الذخيرة وفى المخطوطين وفى البيان المغرب : الخائن .

(٦) فى المخطوطين : وجوه . والتصويب من البيان المغرب .

(٧) وردت فى المخطوطين : راوهم . والتصويب أنسب .

(٨) فى المخطوطين : حضروا . والتصويب من الذخيرة .

وعمِل السيف فيهم فمُزِّقوا ، وقتل زهير ، وجُهل مصرعه ، وغنم(١) رجال باديس من المـال والمرافق والأسلحة والْحِلية والعُدَّة والغلمان والخيـام ، ما لا يُحاط بوصفه . وكانت وفاة زهير يوم الجمعة عقب شوال ، سنة تسع وعشرين وأربعمائة بقرية ألفُنْت(٢) خارج غرناطة .

طلحة بن عبد العزيز بن سعيد البَطَلْيوسى وأخواه أبو بكر وأبو الحسن بنو القَبَطُرْنة(٣)

يكنى أبا محمد .

حـــالهم

كانوا عيوناً من عُيُون الأدب بالأندلس ، ممن اشتهروا بالظَّرف ، والشَّرف(٤) والجلالة . وقال أبو الحسن بن بسَّام وقد ذكر أبا بكر منهم ؛ فقال ، أحد فرسان الـكلام ، وحَمَلة السيوف والأقلام ، من أسرة أصالة ، و بيت جلالة ؛ أخذوا العلم أولًا عن آخر ، وورِثوه كابراً عن كابر ؛ ثلاثة(٥) كهقْعة الجَوْزاء(٦) ، وإن أربوا

---

(١) وردت فى المخطوطين : وختم .

(٢) الفنت . وبالاسبانية Daifontes . بلدة صغيرة تقع على قيد نحو خمسة كيلومترات من شمالى غرناطة .

(٣) وفى هامش « ج » : (الوزراء بنو القبطرنة) . وقد وردت التسمية فى « قلائد الأعيان » : (بنو القبطرنيه) . ووردت فى كتاب المغرب لابن سعيد (ج ١ ص ٣٦٧) : (بنو القبطورنه) . وواضح أن هذه التسمية ليست عربية . والراجح فى شأنها أنها ترجع إلى أصل إسبانى ، وأن أصحابها هم على الأغلب من الأندلسيين المولدين . ولعلها اشتقت من الكلمة الإسبانية Cavador ومعناها الحفار . أو Capotero ومعناها بائع المعاطف .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : والسرور ، والأولى أرجح .

(٥) فى « ك » : كلاثمة .

(٦) ثلاثة كهقعة الجوزاء . أعنى ثلاثة نجوم فوق منكب الجوزاء وهى الشاة التى يشق البياض ظهرها .

عن الشهر فى السنا والسناء . كتب أبو محمد عبد العزيز وأخواه عن ملك لمتُونة ودخلوا معه غرناطة . ذكر ذلك غير واحد . واجتزأت(١) بذكر أبى محمد ، وأُتبعه أخويه اختصاراً .

شـــعره

من شعر أبى محمد ، قوله فى الاستدعاء :

هلم إلى رَوْضنا(٢) يا زُهـــيرُ ولُحْ فى سماء المُنَى يا قمر
وفوِّق إلى الأُنْسِ سَهْمَ الأخا ء فقد عُطِّلت قوسُه والوتر
إذا لم تكن عندنا حاضراً فما بغصون الأمانى ثَمَر
وقعتَ من القلب وقْعَ المنى وحُزْتَ من العين حُسْنَ الحَوَر

قال أبو نصر(٣) : بات مع أخويه فى أيام صِباه ، واستطابة جنوب الشَّباب(٤) وصَباه ، بالمُنْية المسماة بالبديع ، وهو روض كان المُتوكل يَكْلَف بموافاته ، ويبتهج بحسن صفاته ، ويقطف رَيْحانه وزهره ، ويقف عليه إغفاءه وسهره ، ويستفزُّه الطرب متى ذكره ، وينتهز فرص الأنس فيه روحاته وبُكَره ، ويدير حمياه على ضفة نهره(٥) ، ويخلع سرَّه فيه لطاعة جَهْره ، ومعه أخواه ؛ فطاردوا اللذات حتى قضَوها(٦) ، ولبسوا بُرُود السرور فما نَضَوْها ، حتى صرعتهم العقار ،

---

(١) فى « ج » : واجتزيت وهو رسم آخر للكلمة . وفى « ك » : واجتزت . وهو تحريف .
(٢) فى المخطوطين : أرضنا . والتصويب من « قلائد العقيان » .
(٣) هو أبو نصر الفتح بن خاقان مؤلف « قلائد العقيان » .
(٤) فى المخطوطين : الشمال . والتصويب من « القلائد » .
(٥) هكذا فى « ج » وفى القلائد . وفى « ك » : قصره .
(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والقلائد : أنضوها .

وطَلَحتهم[١] تلك الأوقار ؛ فلما همَّ رداءُ الفجر أن يَندِى ، وجبين الصبح أن يَبْتَدى ، قام الوزير أبو محمد فقال :

يا شقيقىّ وافى الصَّباح بوجهه ... سَتَرَ اللّيلَ نورُه وبهاؤه
فاصطبح واغتنم مَسَرَّةَ يومٍ ... لستَ تدرى بما يجيءُ مساؤه

ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال :

يا أخى قم تَرَ النَّسيم عَليلاً ... باكَرَ الرّوضَ والمُدام شُمُولا
[فى رياض تَعانقَ الزهرُ فيها ... مثلُ ما عانق الخليلُ خليلا][٢]
لا تنم واغتنم مَسَرَّةَ يوم ... إنَّ تحْتَ التُّرابِ نوماً طويلا

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن [وقد ذهب من عقله الوَسن][٣] ، فقال :

يا صاحبى ذَرَا لَوْمى ومعْتَبَتى ... قم نصطبح قهوة[٤] من خير ما ذخروا
وبادرا غَفْلَةَ الأيَّام واغتنما ... فاليوم خمرٌ ويبدو فى غد خبرُ[٥]

وقال أبو بكر فى بقرة أخذها له الرنق[٦] صاحب قُلُمُورية[٧] ، وقد أعاد أرضه :

وأفقدنيها الرنق أُمًّا حَفِيَّةً ... إذا هى حفت ألفت بين وفدين

---

(١) هكذا فى « ك » ، والقلائد . وفى « ج » : طرحتم .

(٢) هذا البيت ساقط فى المخطوطين . ونقلناه عن « القلائد » .

(٣) ما بين الحاصرتين من القلائد .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : نهوة . ومن الغريب أن تذكر القهوة فى هذا الشعر القديم .

(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى « ج » والقلائد . ووردت فى « ك » كما يلى : (فاليوم خمر وليل وفى غد خبر) .

(٦) وردت فى المخطوطين : (الرتو) وهو تحريف لكلمة (ابن الرنق) ، (أو ابن الريق) وهو الإسم الذى تطلقه الرواية الإسلامية على ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال (١١٢٨–١١٨٥م) وصاحب مدينة قلمرية التى كانت يومئذ عاصمة للبرتغال . وقد عاش أبو بكر فى هذا العصر وتوفى بعد سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) فى عهد الملك المشار إليه .

(٧) هكذا رسمت فى المخطوطين ، والرسم الأصح : قلمرية . وهى مدينة أندلسية قديمة تقع فى شمالى البرتغال . وبالإفرنجية Coimbra .

تُعنفني أمِّى على أنْ رثَيْتها   وأن أتبعتهـــا الدّم من عين
لهـا الفَضْلُ عندى أرْضَعتنى   [و بالرغم مابلّغتنى وأمى حولين](١)

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر

الرئيس المتوثِّب على المُلْك ، وحِيُّ كرسى الإمارة ، وعاقدُ صفقة الخُسْران المُبين ، يكنى أبا عبد الله .

« أوّليّته » ، معروفة .

حـــاله

« من نُفاضة الجراب » وغيره ؛ كان شيطاناً ، ذميم الخُلُق ، حَرْفوشاً ، على عُرْف المشارقة ، مُترامياً للخسائِس ، مَألَفاً للذّعرة والأجلاف والسُّوّار(٢) وأولى الريب ، خبيثاً كثير النُّكر ، منغمساً فى العِهْن ، كَلِفاً بالأحداث ، مُتقلباً عليهم فى الطرق ، خليع الرَّسَن ، ساقط الحشمة ، كثير التّبذُّل ، [قوّاد عُصْبَة كِلابٍ](٣) ، معالجاً لأمراضها ، مباشراً للصّيد بها ، راجلًا فى ثيـاب مُنْتاب الشّعر من الجلود والسوابل والأسمال ؛ عقَد له السلطان على بنته لوقوع القحط فى رجال بيتهم ، ونوّهه(٤) بالولاية ، وأركبه ، وأعطى له من مُوبِقات تَقَصُر به ، إلى أن هلك ؛ وحاد الأمر عن شقيق زوجه ، واستقرَّ فى أخيه ، وثُقُل على الدولة ،

(١) هكذا رسمت فى المخطوطين : وتوجد نصوص أخرى .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : السرار . والسوار أى الناقمون .

(٣) فى المخطوطين : (قواداً عصبة كلاباً) . وهو تحريف .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : وتوجهه .

لكراهة طلعته ، وسوء الأُحدوثة به ، فأُمر بترك المباشرة ، والدخول [على القلعة][١] ، وأُذن له فى التَّصرف فى البلد والفَحْص ، وأُبقيت عليه النعمة ؛ فداخل أُم زوجه ، وضمن لها تمـام الأمر لولدها ، وأمدَّته[٢] بالمـال ، فنظر من المساعير شيعَةً ، من كَسَرة الأغلاق ، وقَتلة الزُّقاق ، ومختلسى البضائع ، ومُخِيفى السَّابلة ، واستضاف من أسافلة الدولة ، من آسَفَتْه بإقصار قصد ، أو مَطْل وعد ، أو حطِّ رُتْبة ، أو عَزل عن ولاية ، فاستظهر منهم بعدد ولا ، كالشَّقى الذليل المَوْرُورى ، الغريب الطَّور ، وابراهيم بن أبى الفتح المنبوذ بالإضْليع ، قريعِ الجهل ، ومستور العظيمة ، وارتادوا عَوْرة القلعة فاهتدوا منها إلى ما شاءوا ، وتألَّفوا[٣] بخارج ؛ ثم تسلَّلوا ببطن الوادى المعروف « بهدَارُه »[٤] ، تحت الظلام ، إلى أن لَصِقوا بجناح السُّور الصَّاعد ، الراكبة قوسُه جَرْية النهر ، وصعدوا مُساوقين جناحه المتَّصل بسور القلعة ، وقد نقص كثير من ارتفاعه ، لِحدْثان إصلاح فيه ، فتسوَّروه عن سُلَّم ، ودافع بعض محار بيهم بعضاً ، فى استباق أدراجه ، فدخلوا البلد فى الثُّلْث الأخير من ليلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان ، [عام ستين وسبعمائة][٥] ثم استغلظوا بالمشاعل[٦] ، [وأسموا الناس ومور][٧] ، وقتلوا نائب الملك رضواناً النَّصرى سايس الأمر ، وبقيَّة المَشْيخة ، واستخرجوا السلطان الذى هو يزيفه[٨] ، فنَصبوه للناس ، وتم الأمر ،

---

(١) هكذا فى « ج » وفى « ك » : للقلعة .

(٢) فى المخطوطين : وأمرته . وهو تحريف .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وتابعوا .

(٤) هداره أو حداره ، وبالإسبانية El Darro هو اسم النهر الذى يخترق غرناطة ، وهو فرع صغير من نهر شنيل .

(٥) هذه الزيادة من اللمحة البدرية .

(٦) فى المخطوطين : بالمشاغيل . والتصويب من اللمحة .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى « ك » وفى « ج » (اسموا الناس ومور) ولم نوفق إلى تصويبها أو استقرائها فتركناها كما هى .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : يفه .

بما دلّ على احتقار الدنيا عند الله ؛ وانخرط هذا الخَبُّ(١) فى طور غريب من التنزُّل للسلطان ، والاستخدام لأمه ، والتهالُك فى نُصحه ، وخلط نفسه فيه ، وتبذل فى خدمته ، يتولى له الأمور ، ويمشى فى زىِّ الأشراط بين يديه ، ويتأتَّى لشهواته ، ويتظاهر بحراسته . ولما علم أن الأمر يشُق تصيُّره إليه من غير واسطة ، بغير انقياد الناس إليه ، من غير [تَدْريج كادِه](٢) ، فألطَف الحيلة فى مساعدته على اللذَّات ، وإغرائه بالخبائث ، وشَغْله بالعهَر ، وقَتْله بالشَّهوات المنحرفة ؛ وجعل يتبرَّأ من دَنيّته وينفِق بين الناس من سلع اغتيابه ، ويُرى الجماهير الإنكار لصَنيعه ، ويزيِّنُ لهم الإستعاضة منه بعد ما غَلُظَت(٣) شوكته ، وضمَّ الرجال إلى نفسه مُورياً بحِفْظِه، والاستظهار على صَوْنه . وفى الرابع من شعبان [عام] أحد وستين وسبعماية ، ثار به فى محل سكناه فى جواره ، واستجاش أولياء غدره ، وكبس منزله ، مداخلا للوزير المشئوم ، عاقداً معه صفقة الغدر ؛ وامتنع السلطان بالبُرْج الأعظم ، فاستنزله وقتله ، كما مر فى اسم المذكور قبل ، واستولى على المُلْك ، فلم يختلف عليه اثنان . واشتغل طاغية الروم بحرب ، كان بينه وبين القَطالنيِّين(٤) ، فتمالأ لمسالمته ؛ فاغتبط الصنيع وتهنَّأ المنحة ، وتشطط على الروم فى شروط غيرِ معتادة ، سامحوه بها ، مكيدةً واستدراجاً ؛ واجتاز أميرُ المسلمين المصابُ بغدره إلى الأندلس ، طالباً لحقِّه ، ومبادراً إلى ردِّ أمره ، فسُقِط فى يده ، ووجَّه الجيش إليه بمثواه من بلد رُنْدَة ، فانصرف عنها خائباً ، ورجع أدراجه ، يشُكُّ فى النجاة ؛ وتفرغ إليه الطاغية ، [ففَضَّ عليه جَمَّه](٥) ، وقد أجْرَت عليه شوكته وقيعةً ، نصر الله

---

(١) فى المخطوطين : الحب .

(٢) وردت هذه العبارة فى المخطوطين ، وفيها بعض الغموض . وكاده من الكده وهو الغلبة وقد تعنى الإخضاع القهرى .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ح » : غلظ .

(٤) أعنى القطلان سكان قطلونية Cataluna .

(٥) هذا ما أثبته « ك » . وفى « ج » : (ففغر عليه فمه) . والمؤدى واحد .

فيها الدِّين ، وأُملِي لهذا الوغد(١) ، فلم يُقلْه(٢) العَثْرة بعدها ، ونازل حصونه المُهتضمة ، واستولى على كثير منها ، وحام فلم يُصحر غَلْوة ، وأكذب ما موّه به من البسالة ، وظهر(٣) للناس بلبس الصوف ، وأظهر التَّوبة على سريرةٍ دَخِلة ، وفسق مبين ؛ وقل ما بيده ، ونَفِد بيتُ ماله ، فلم يجد شيئاً يرجع إليه ، من بعد ما سَبَك الآنية والحِلْية ، وباع العقار لتبذيره ، وسَحّه المال سحًّا ، فى أبواب الأراجيف والاختلافات ، والبهج بالغنا ، فشرف الإنقاب إلى الفرار ، وأزمع إلى الانسلال . وعندما تحرك السلطان إلى غربىّ مالقة ، ونَجَع أهلها بطاعته ودخلوا فى أمره ، وسقط عليه الخبر ، اشتمل على الذخيرة جمعاء ، وهى التى لم تشتمل خزائن الملوك مطلقاً على مثلها ، من الأحجار واللؤلؤ والقَصَب ؛ والتفَّ عليه الجمع المُسْتميت ، بَجمعُ الضلال ومَرَدُّ الغىّ ؛ وخرج عن المدينة ليلة الأربعاء السابع عشر من جمادى الآخرة ، وصوَّب وجهه إلى سلطان قَشْتالة ، مَكْظُومُ تَجَنّيه ، وموتُورُ سوء جِواره ، من غير عهد ، إلا ما أمل من التبقى عنده من التَّذْميم به ، وضمان إتلاف الإسلام ، واستباحةِ البلاد والعباد بنُـكْرته(٤) .

ولما استقرَّ لديه نَزْلُه ، تقبَّض عليه ، وعلى شِرذِمَته المُنيفة على ثلاثمائة فارس من البُغاة(٥) ، كشيخ جنده الغربى إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الله بن عبد الحق ، ومَنْ سواه ؛ تحصَّل بسببهم بيد الطَّاغية ، كلُّ ما تسمو إليه الآمال ، من جواد فارِه ، أو مَنْطقة ثقيلةٍ ، وسلاح مُحَلًّى ، وجَوْشَن رفيع ، ودِرْع حصينة ، وبُلْبُلة(٦) منيعة ، وبيضة مذهبة ، وبِزَّة فاخرة ، وصامت عتيد ، وذخيرة

---

(١) فى المخطوطين : الوعد .

(٢) فى المخطوطين : يلقه : وهو تحريف .

(٣) فى المخطوطين : وطور .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : (بكرته . فكرته) .

(٥) وردت فى المخطوطين : (البغاوة . البغارة) .

(٦) وردت فى المخطوطين : وبلبة .

شريفة ، فتنخّل[1] منهم مُتولى التسوُّر ، فجعلهم أُسْوة رأسهم فى القتل ، خرَّ بعضهم يومئذ على بعض ، فى القتـل ، وأخذتهم السيوف ، فخلّوا بعد الشُّهرة ، والتمثيل فى أزقة المدينة ، و إشاعة النداء فى الجزيرة ، ثانى رجب من العام المؤرخ به ؛ وركب أسْوق سايرهم الأداهم ، واستَخْلَصهم الإسار ، و بادر بتوجيه رؤوسهم ، فنَصُبت من فوق العَوْرة التى كان منها تسوُّرُهم القلعـة ، فمكثت بها إلى أن استُنْزلت ووُوريت ؛ وانقضى أمرُه على هذه الوتيرة[2] مشئوماً دَبيراً ، لم يُمتِّعه الله[3] بالنعيم ، ولا هنَّأه سكنى المحل الـكريم ، ولا سوَّغه راحة ، ولا ملأه مَوْهبة ، ولا أقام على فضله حُجّة ، ولا أعانه على زُلْفة ؛ إنما كان رئيس السرَّاق ، وعريف الخراب ، و إمام الشّرار ؛ نَذَر يوماً فى نفسه ، وقد رفعت إليه امرأة من البدو تدّعى أنها سُرقت دارها ، قال : إن كان ليلا بعد ما سُدّ باب الحمراء علىّ وعلى ناسى ، فهى والله كاذبة ، إذ لم يبق سارق فى الدنيا ، أو فى البلاد[4] ، إلا وقد تحصّل خَلْفه ؛ وقانا الله المحن ، وثبَّتنا على مُسْـتقر الرُّشد ، ولا عاقنا عن جادّة الاستقامة .

وزراء دولته

استوزر الوزير المشئومَ ُممدَّه فى الغىِّ ، الوغد ، الجهول ، المرتاش من السرقة ، الحقود على عباد الله ، لغير علَّة عن سوء العاقبة ، المخالف فى الأدب سُنن الشريعة ، البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة ، دودة القزِّ ، و بَغْل طاحونة الغـدر ، وزقَّ القَطْران[4] ، محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح الفِهرى ؛ فانطلقت يدُه على الإبشار ،

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : فتنخذ .
(٢) وردت فى المخطوطين : الوثيرة .
(٣) هذه الكلمة أغفلها « ك » .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » . البلد .
(٥) فى المخطوطين : القطر .

ولسانُه على الأعراض ، وعينــه على النظر الشَّزْر ، وصدرُه على التأوه والرَّين ؛ يَلقى الرجل كأنه قاتل أبيه ، مُحدّقاً إلى كمّيه ، يحترِشُ بهما خبيئة ، أو يظن بهما رشوة ؛ فأجاب الله دعاء(١) المضطّرين ، وغِياث السّائلين ، وعاجله بالأخْذة الرّابية ، والبَطْشة القاضية ؛ فقُبض عليه ، فى ليلة السبت العاشر لرمضان من العام المذكور ، وعلى ابن عمه العصرفوط(٢) ، وعلى الُحيَرا من نواهض بيتهما(٣) ، وأنفذ الأمر بتفريطهم(٤) ، فمضى حكمُ الله بهذه المَنيّة الفرعونية فيهم [لا تبديل لكلمات الله](٥) ، قاهر الجبابرة ، وغالب الغُلّاب ، وجاعل العاقبة للمتقين .

واستوزر بعده ، أوْلى الناس وأنسبهم إلى دولته ، وأحقّهم بمظاهرته ، المسوس ، الجبّار البأس والفِطرة ، المخْتبل الفكرة ، القِيل ، المُرجَّس ، الُحوّل ، الشهير(٦) ، الضَّجر ، محمد بن على بن مسعود ؛ فما بُلى الناس على طول الُحمرة ، وانفساح زمان التجربة ، أسوأ تدبيراً ، ولا أشرَّ معاملةً ، ولا أبْذأ لساناً ، ولا أكثر شكوى ومعاتبة ، ولا أشحَّ يداً ، ولا أجْدَب خِواناً ، من ذلك المشئوم ، [بنَعق البُوم](٧) ، ينعقُ بما لا يسمع ، ويسرد الأكاذيب ، ويسىء السَّمع ، فيسىء الإجابة ، ويقود الجيش فيعود بالخيبة ؛ إلى أن كان الفرار ، فصَحِبه إلى مصرعه ؛ وكان ممن استُؤثر به القيدُ الثقيـل ، والأسر الشديد ، والعذاب الأليم ، عادة بذلك عبد « المالاخوينا »(٨) ، التى كان يَحْجب سِمَتَها ، زمان ترْفيهه ، فقضت عليه سىِّء المَيْتة ، مُطرح الجثة . سترنا الله بستره ولا سَلَبنا فى الحياة ، ولا فى الممات ثوب عنايته .

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : دعوة .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : العصربوط .

(٣) فى المخطوطين : بينهما .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » . بتعريطهم .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (لا مبدل لكلمته) .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى « ج » .

(٧) وردت فى المخطوطين : (ينعق اليوم) ، والمرجح ما أثبتناه .

(٨) هكذا فى المخطوطين . والظاهر أنه يعنى بذلك مرضاً معينا .

كاتبُ سِرِّه

صاحبُنا الفقيه الأهْوَج ، قصب الريح ، وشجرة الخَوَر ، وصوت الصَّدى ، أبو محمد عبد الحق بن عَطية ، المستبد بتدبير الدّبير ، خُطّاً فوق الرِّقاع الجاهلة ، ومسارَّةً فى الخلوات الفاسقة ، وصَدْعاً فوق المنابر الكَبِيبة ، بحُلة لثِّ الدّاية ، ويذُبُّ عنه ذبَّ الوالدة ، ينتهى فى الاعتذار عن هَناته إلى الغايات القاصرة .

قضاته

شيخنا أبو البركات ، قيسُ لَيْلى القضاء ، المخدوعُ بزخرُف الدنيا على الكِبْرة والعناء ، لطف الله به ، وألهمه رشده .

شيخ الغزاة على عهده

إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الحق بن مَحيو[1] ، بقية بيت الدَّبْرة ، ووشيجة الشجرة المُجْتثَّة ، عُذّب فى الُجملة من أهل بيته عند القبض عليهم ؛ واستقرَّ فى القبض الأشهب من قَبيلِه بالمغرب ، مُطْلق الإقطاع ، مرموقاً بعين التجلِة ، مكنوفاً بشهرة الأب ، إلى أن سُعى به إلى السلطان ، نسيج وحده فارس بن على ، واستشعر البَثَّ فطار به الذُّعر لا يلوى عِناناً ، حتى سقط بإفريقيّة ، وعبر البحر إلى ملك بَرْجِلونة[2] ؛ ثم اتَّصل بالدولة النصرية ، بين إدالة الغدر[3] ، و إيالة الشّر ، فقلّده الدائلُ مشيخة الغُزاة ، ونوّه به ، فاستراب مُعْزلُه يحيى بن عمر ، ففرّ إلى

---

(١) وردت فى المخطوطين : فحو . وهو تحريف .

(٢) أعنى برشلونة . يريد ملك أراجون .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : (العذر . العدد) .

أرض الروم حسبما يذكر فى اسمه ؛ فقام له بهذا الوظيف ، ظاهر الشهرة والأُبَّهة ، مخصوصاً منه بالتجلَّة ، إلى أن كان ما كان من إزمانه وفراره ؛ فوفَّى له وصَحِبه ركابه ، وقاسمه المَنْسجة شقّ الأبلة ، واستقرّ بعد قتله أسيراً عانياً غلق الذهن[١] ، لضنانة العدو بمثله ، إلى أن أفلت من دون الأغْلاق ، وشدِّ الوثاق ، ولحِق بالمسلمين فى خبر لم يشتمل كتابُ الفرَج بعد الشدَّة على مِثله ، والإغْراب منه ، يستقرُّ فى اسمه إلماعٌ[٢] به ؛ ثم استقر بالمغرب مُعْتقلا ، ثم مات رحمه الله .

من كان على عهده من الملوك

وأولاً بمدينة فاس دار مُلْك المغرب ، السلطانُ ، الخيِّرُ ، الكريم الأبوَّة ، الموددو قبل الولاية ، اللِّين العريكة ، الشهير الفضل فى الحياة ، آية الله فى إغراب الصُّنع ، وإغراب الإدبار[٣] ، أبو سالم إبراهيم بن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، أمير المسلمين ، المترجم به فى حرف [الألف][٤] . ولما قُتل يوم الحادى والعشرين لذى قعدة من عام اثنين وستين ، قام بالأمر بعده أخوه المُتَحَيِّل أبو عامر تاشفين بن على إلى أواخر صفر عام ثلاثة وستين ؛ ولحق بالبلد الجديد ، الأميرُ أبو محمد زيان بن الأمير أبى عبد الرحمن بن على بن عثمان المترجم به فى بابه ، ثم المتولى من عام ثمانية وستين وسبعمائة السلطان أبو فارس عمُّه المُؤَمَّل لِلَمِّ الشَّعَث ، وضَمِّ النَّشْر ، وتجديد الأمر بحول الله ، ابن السلطان الكبير المُقَدَّس ، أبى الحسن ابن سعيد بن يعقوب بن عبد الحق ، وهو بعد متَّصل الحال إلى اليوم .

---

(١) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » : الدهر .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الأمام .

(٣) هكذا فى المخطوطين .

(٤) مكانها بياض فى المخطوطين . وقد ترجم ابن الخطيب لهذا الأمير فيما تقدم فى حرف الألف . (ص ٣١١ - ٣١٨)

وبتِلِمْسان الأمير أبو حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيي بن يَغُمْراسن[١] بن زيان .

وبإفريقية الأمير الخليفة على عُرفهم ، إبراهيم بن أمير المؤمنين أبى يحيى بن حفص .

وبقَشتالة ، بَطْرة بن الهنشة[٢] بن هراندة بن شانجة المصنوع له ، ولىُّ النعمة منه ، ومستوجبُ الشكر من المسلمين لأجله ، بإراحته منهم .

وبرَغُون ، بطرة بن شانجة[٣] .

وبرُندة ، مزاحمه بالمُلك[٤] الفخم ، أمير المسلمين حقيقة ، المرتَّب الحق ، المعقود البَيْعة ، وصاحب الكرَّة ، وولىُّ حسن العاقبة ، مجتثُّ شجرته الخبيثة ، وصارخُ إيالته الدّنيَّة ، أبو عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبى الحجاج ، بن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر .

مولده

مولد هذه النَّسَمة المشئومة أول يوم من رجب عام اثنين وثلاثين وسبعمائة .

وفاته

توفى قتيلًا ، مُمَثَّلًا به بطيلاطة ، من ظاهر إشبيلية فى ثانى من رجب عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، وسيقَت رؤوس أشياعه[٥] الغادرين مع رأسه إلى الحَضْرة فصُلبت بها . وفى ذلك قلت :

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين : (بغراسان) .

(٢) هو پيدرو الثالث بن الفونسو الحادى عشر . وقد حكم قشتالة من سنة ١٣٥٠ إلى سنة ١٣٦٨م

(٣) هو پيدرو الرابع ملك أراجون وقد حكم من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٨٧ م .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » بالمنكب .

(٥) هكذا فى « ج ». وفى « ك » : أتباعه .

في غير حِفظ الله من هامَةٍ   هام بها الشَّيْطان في كل واد
لا خَلَّفَتْ ذِكرًا ولا رَحْمَةً   في فَمِ إنسانٍ ولا في فؤاد

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد ابن أحمد بن خميس بن نصر الخَزْرَجي

أمير المسلمين بالأندلس بعد أبيه رحمه الله .

أوّليّتـــه

معروفة .

حـــاله

كان معدوداً في نُبَلاء الملوك ، صيانة ، وعِزًّا ، وشهامة ، وجمالًا ، وخَصْلًا ؛ عَذْب الشمائل ، حُلوًا لبِقًا ، لَوْذَعِيًّا ، هشًّا ، سخيًّا ؛ المثلَ المضروب به في الشجاعة المقتَحِمة حدّ التهور(١) ، حِلْسَ(٢) ظهور الخيل ، وأفرسَ من جال على ظهورها(٣) ، لا تقع العين ، وإن غُصَّت الميادين على أَدْرَب بركض الجياد منه ، مغرماً بالصَّيد ، عارفاً بسِمات السِّقار(٤) وشَتات الخيل ؛ يحب الأدب ، ويرتاح إلى الشعر وينبّه على العُيون ، ويلِمُّ بالنادرة الحارّة . أخذت له البيعة يوم مهلك أبيه ، وهو يوم الثلاثاء السابع والعشرين لرجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، وناله الحَجْب ، واشتملت

---

(١) في المخطوطين : الهور .
(٢) هكذا في « ك » . وفي « ج » ، جلس . وكلتاهما صالحة للمعنى المقصود .
(٣) في المخطوطين : ظهوره .
(٤) السقار أي الصقورة .

عليه الكفالة إلى أن شبَّ وظهر ، وفتك بوزيره ، المتغلب على ملكه ، وهو غلام لم يَبْقِل خَدُّه ، فهِيب شأنُه[١] ، ورُهبت سطوته ، وبرز لمباشرة الميادين ، وارتياد المطارد ، واجتلاء الوجوه[٢] ، فكان ملء العيون والصدور .

ذكاؤه

حدّثنى القائد أبو القاسم بن الوزير أبى عبد الله بن عيسى وزير جدِّه ، قال ، تُذوكر يوماً بحضرته تباينُ قول المتنبى :

ألا خَــدّد الله وَرْد الخدود ۞ وقدّ قُدُودَ الحِسان القُود[٣]

وقول امرئ القيس :

وإن كنتِ قد ساءَتْكِ منى خَلِيقَةٌ ۞ فسُلِّى ثيابى من ثيـابك تَنْسُلِ

وقول إبراهيم بن سَهْل :

أنَّى له من دَمِى المَسْفُوك مُعْتَذَرًا ۞ أقولُ حَمَّلتُه فى سَفْـكه تَعَبا

فقال رحمه الله ، بديهةً : بينهما ما بين نَفْس مَلِكٍ عربى وشاعِر ، ونَفْسِ يهودى تحت الذِمَّة ، وإنما تتنفّس بِقَدْر همّتها ، أو كلاماً هذا معناه . ولما نازل مدينة قَبْرَة[٤] ودخل جَفْنَها عَنْوة ، وقاتل قصبتها ، ورماها بالنَّفْط ، وتغلَّب عليها ، وهى ما هى عند المسلمين ، وعند النصارى من الشهرة والجلالة ، بادرناه نُهنيه بما نُسق له ، فزَوَى وجهه عنا ، وقال ، ماذا تهنوننى[٥] به ، كأنكم رأيتم تلك الخِرْقة

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين : شاه .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الوجدة .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » القدور .

(٤) سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص١١٧) .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطين : همونى . تهمونى .

بـكذا يعنى العلَم الكبير فى منـار إشبيلية[١] ، فعجبنا من بُعد همّته ، ومرمى عزمه .

شجاعته

أقسم أن يغير على باب مدينة بيّانة[٢] فى عدّة قليلة عيّنها المَيْمنُ ، فوقع البُهْتُ وتُوقِّعت الفاقِرةُ ، لقرب الصَّريخ ، ومَنَعة الحَوْزة ، وكثرة الحامية ، واتصال[٣] تخوم البلاد ، ووفور الفرسان بذلك الصُّقْع ؛ وتنخَّل أهل الحفاظ ، وهجم على باب الـكفار نهاراً ، وانتهى إلى باب المدينة ، وقد برزت الحامية. ، وتوقع فرسان الرُّوم الكُمَناء ، فأقْصَرُوا عن الإحصار ، وحَمِى المسلمون فشُدَّ عليهم ، فأعطوهم الضَّمة ودخلوا أمامهم المدينة ؛ ورمى السلطان أحد الرجال النَّاشبة بمزراق كان بيده مُحلى السنان رفيع القيمة ، وتحامل يريد الباب ، فمنع الإجهاز عليه ، وانتزاع الرُّمح الذى كان يجرُّه خلفه ، وقال اتركوه يُعالج به رُمْحه أن كان أخطأته المَنِيَّة ، وقد أفلت من أُنْشُوطة خطر عظيم .

جهــــاده ومناقبه

كان له وقائع فى الـكفار ، على قلة أيامه ، وتحرك ونال البـلاد ، وفتح قَبْرة ، ومُقدّم جيش العدو الذى بَيَّت بظاهرها وأثخن فيه ، وفتح الله على يده مدينـة

---

(١) المقصود به منار جامع إشبيلية الأعظم الذى شيده الملك المنصور الموحدى . وقد حول فيما بعد إلى برج أجراس لكنيسة إشبيلية العظمى. وما يزال قائماً حتى اليوم ويعرف باسم «الخيرالدا» La Giralda وهو من أجل الآثار الأندلسية .

(٢) بيانه سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ٢١٠) .

(٣) فى المخطوطين : واتصل .

باغوة[١] ؛ وتغلب المسلمون على حصن قشْتالة ، ونازل حصن قَشْرة[٢] بنفسه لدى قُرْطبة ، فكاد أن يتغلب عليه ، لولا مددٌ اتّصل للنصارى به . وأعظم مناقبه تخليص جَبَل الفَتْح[٣] ، وقد أخذ الطاغيةُ بكَظَمه ، ونازله على قرب العهد من تملك المسلمين إياه ، وناخ بكلْكله ، وهدّ بالمجانيق أسواره ، فدارى[٤] الطّاغية ، واستَنْزل عزمَه وتحفه ، ولحق فى موضع اختلاله ، إلى أن صرفه عنه ، وعقد له صلحاً ، ففازت به قِداح الإسلام ، وتخلّصه من بين ناب العدو وظُفُره ، فكان الفتح عظيماً لا كفاء له .

بعض الأحداث فى دولته

وفى شهر المحرم من عام سبعة وعشرين وسبعمائة ، نشأت بين المتغلِّب على دولته ، وزيره ، و بين شيخ الغزاة وأمير القبائل العُدْوية[٥] ، عثمان بن أبى العلاء ، الوَحْشة وألقحت ريحها السعايات ، فصبّت على المسلمين شؤبوب فتنة عظُم فيهم أثرها معاطباً ؛ وسئم الانصراف عن الأندلس ، فلحق بساحل ألمريّة ، وأحْوَزته المذاهب ، وتحامت جواره الملوك ، فداخل أهل حصن أنْدَرَش[٦] ، فدخل فى طاعته ؛ ثم استضاف إليه ما يجاوره ، فأعْضل الداء[٧] ، وتفاقمت اللأواء[٨] ، وغامت سماء الفتنة ، واستنفد[٩]

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . ونرجح أنها مدينة باغة Priego التى سبق التعريف بها ، وهى قريبة من قبرة .

(٢) حصن قشرة ونرجح أنه حصن Castro الواقع بين بيانه وقبرة .

(٣) أعنى جبل طارق .

(٤) هكذا فى « ج ». وفى « ك » : فدار .

(٥) أعنى القبائل المغربية .

(٦) سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١٦٤) .

(٧) وردت فى المخطوطين : الدواء . وهو تحريف .

(٨) وردت محرفة فى المخطوطين : الألواء . واللأواء أعنى الداهية .

(٩) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : واستبعز .

خزائن الأموال المستعدة لدفاع العدو ، واستلحق الشيخ أبو سعيد عم السلطان ، وقد استقر بتلمسان ، فلحق به، وقام بدعوته فى أُخريات صفر عام سبعة وعشرين وسبعمائة؛ واغتنم الطّاغية فتنة المسلمين فنزل ثغر بيرة[١] ، ركاب الجهاد ، وشجى العدو ، فتغلّب عليه ، واستولى على جملة من الحصون التى تجاوره ، فاتسع نِطاق الخوف ، وأعيى داء الشَّر ؛ وصُرف إلى [نظر][٢] ملاك المغرب، فى أخريات العام، رُنْدَة ومَرْبلة[٣] وما يليهما[٤] ، وترددت الرسائل بين السلطان و بين شيخ الغزاة ، فأجْلَت الحال عن مهادنة ، ومُعاودة للطاعة ، فصرف أميرهم أدراجه إلى العُدوة ، وانتقلوا إلى سكنى وادى آش على رَسْم الخدمة والحماية على شروط مقررة[٥] ؛ وأوقع السلطان بوزيره ، وأعاد الشيخ إلى محلّه من حَضْرته ، أوائل عام ثمانية وعشرين بعده ، واستقدم القائد الحاجب أبا النعيم رضوان من أعاصم حِبالته[٦] فتيلة ، فقام بأمره أحسن قيـام . وعبر البحر بنفسه بعد استقرار ملكه فى الرابع والعشرين من شهر ذى حجة من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ، فاجتمع مع ملك المغرب السلطان الكبير أبى الحسن ابن عثمان ، فأكرم نزْله ، وأصحبه إلى الأندلس ، وحباه بما لم يُحْب به ملك تقدَّمه ، من مغْرَبيّات الخيل ، وخطير الذّخيرة ، ومُسْتجاد العُدّة ؛ ونزل الجيش على أثره جبل الفتح ، وتوجه الحاجب أبو النعيم بأكبر إخوة السلطان ، مُظاهراً على سبيل

---

(١) وردت فى المخطوطين : ويده — ويره . ويلوح لنا أن المقصود هنا هو ثغر بيرة Vera الواقع شمال شرقى ألمرية على مقربة من البحر الأبيض المتوسط ، وكان يومئذ أقصى ثغور الأندلس الشرقية (انظر الحاشية فى ص١١٥) .

(٢) هذه الكلمة الزائدة من اللمحة البدرية .

(٣) رندة من أهم وأمنع قواعد الأندلس القديمة. وتقع غربى مالقة. وقد لعبت أدوارا هامة فى تاريخ مملكة غرناطة . ومربلة سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص٢٠٤) .

(٤) هكذا فى « ك » . ووردت محرفة فى « ج » : وما آل إليها .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى « ك » .

(٦) وردت فى المخطوطين : حباليه . وبالتصويب يستقيم المعنى نوعاً .

النيابة ، وهيَّأ[١] الله فتحه ، ثم استنقاذه[٢] بلحاق السلطان ، ومحاولة أمره كما تقدم ، فتمَّ ذلك يوم الثلاثاء الثانى عشر لذى حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة .

وزراء دولتـــه

وزَرَ له وزير أبيه ، وأخذ له البيعة ، وهو مُثخن[٣] بالجراحات ، التى أصابته يوم الفَتْك بأبيه السلطان أبى الوليد ، ولم ينشب[٤] أن أجهز جُرْح تجاوز عَظْم الدماغ ، بعد مُصابرة ألم العلاج الشديد ، حسبما يأتى فى اسمه ، وهو أبو الحسن على بن مسعود بن يحيى بن مسعود المحاربى ؛ وترقى إلى الوزارة والحجابة وكيل أبيه محمد بن أحمد المحروق ، من أهل غرناطة ، يوم الإثنين غرة شهر رمضان من عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، ويأتى التعريف بهم . ثم اغتِيل بأمره ، عشىّ ثانى يوم من محرم فاتح تسعة وعشرين وسبعمائة ؛ ثم وزر له ، القائد أبو عبد الله بن القائد أبى بكر عتيق بن يحيى بن المَوْل من وجوه الدولة ، وصدور من يَمُتُّ بوصْلِه ، إلى السابع عشر من رجب من العـام ؛ ثم صُرف إلى العُدْوة ، وأقام رسم الوزارة والحجابة والنيابة ، أبو النعيم مولى أبيه ، إلى آخر مدته ، بعد أن التأث[٥] أمرُه لديه ، وزاحمه بأحد المماليك المسمى بعصام حسبما يأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله .

رئيس كتابه

كتب له كاتب أبيه قبله ، وأخيه بعده ، شيخُنا نسيجُ وحده ، أبو الحسن على بن الجيَّاب الآتى ذكره فى موضعه إن شاء الله .

---

(١) فى المخطوطين : هنا . وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين : استقاده .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ثخن .

(٤) فى المخطوطين : يتشبث . والتصويب من اللمحة البدرية .

(٥) أى التبس .

قضـــاته

استمرت الأحكام لقاضى أبيه ، أخي وزيره ، الشيخ الفقيه أبى بكر بن مسعود رحمه الله إلى عام سبعة وعشرين وسبعمائة ، ووجَّهه رسولًا عنه إلى ملك المغرب ، فأدركته وفاته بمدينة سَـلا ، فدفن بمقبرة سلا . رأيت قبرَه بها رحمه الله . وتخلَّف ابنه أبا يحيى مسعود عام أحد وثلاثين وسبعمائة ؛ وتولى الأحكام الشرعية القاضى أبو عبدالله محمد بن يحيى بن بكر الأشعرى ، خاتمة الفقهاء ، وصدر العلماء ، رحمه الله ، فاستمرت الأحكام إلى تمام مدة أخيه بعده .

أمـــه

رومية اسمها « عَلْوَة » ، وكانت أحظى لدَّاتها[1] عند أبيه ، وأمَّ بِكره ، إلى أن نَزَع عنها فى أخريات أمره ، لأمر جرَّته الدّالَّة ، وتأخرت وفاتها عنه إلى مدة أخيه .

من كان على عهده من الملوك
بأقطار المسلمين والنصارى

فبِفاس ، السلطان الكبير ، الشهير ، الجواد ، خِدْنُ[2] العافية ، وحِلْفُ السعادة ، وبحر الجود ، وهَضْبة الحلم ، أبو سعيد عثمان بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى بذل[3] المعروف ، وقرَّب الصلحاء والعلماء ، وأدنى مكانهم ، وأعمل

---

(١) وردت فى المخطوطين : لذاتها .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : حون . وهو تحريف .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » . بدا .

إشارتهم ، وأوْسَع بأعطيته المؤمنين المُسْترْفِدين ، وعظُم قدره ، واشتهر فى الأقطار صيته ، وفشا معروفه ، وعُرفت بالكف عن الدماء والحرمات عفَّته ، إلى أن توفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذى قعدة عام أحد وثلاثين وسبعمائة ؛ ثم صار الأمر إلى ولده السلطان ، مُقتفى سُنَنه فى الفضل والمجد، وضخامة السلطان، مبرًّا عليه ، بالبأس المرهوب ، والعزم الغالب ، والجدِّ الذى لا يشوبه هزل ، والاجتهاد الذى لا يتخلله راحة ؛ الذى بَعُد مداه ، وأذعن لصولته عُداه ، واتصلت [ولايته][1] مدته ، ومعظم مدة أخيه الوالى بعده .

وبتِلِمْسان الأمير عبد الرحمن بن موسى بن يَغُمْراسِن ، من بنى عبد الواد ، مُشيِّد القصور ، ومُروِّض الغروس[2] ، ومُتبنِّك[3] الترف ، واتّصل إلى تمام مدته ، وصدرا من مدة أخيه بعده .

وبتونس الأمير أبو يحيى ، أبو بكر بن الأمير أبى زكريا بن الأمير أبى إسحاق لَبِنة تمام قومه ، وصَقْرُ الجوارح من عُشِّه ، وسابق الجياد من حَلْبته ، إلى تمام المدة، وصدراً كبيراً من دولة أخيه بعده .

ومن ملوك النصارى ، ملك على عهده الجفْرتين[4] القنيطية والتاكرونية[5] ، الطاغية المرهوب الشّبا ، المسلط على دين الهدى ، الهنشة[6] بن هِراندة بن شانجة بن الفُنش بن هراندة ، الذى احتوى على كثير من بلاد المسلمين حتى الجفرتين[7]

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٢) فى المخطوطين : العروس .

(٣) فى المخطوطين : متبك . وهو تحريف . والتصويب من اللمحة . وتبنك أى أقام فى ظله .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » الخفرتين .

(٥) وردت فى المخطوطين : التاركونيه . وهو فيما يبدو تحريف الكلمة : التاكرونية .

(٦) هو ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة الذى حكم من سنة ١٣١٢ إلى سنة ١٣٥٠ م .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الخفرتين . ويلوح لنا أن المقصود هنا هو افتتاح النصارى لثغرى الجزيرة الخضراء وطريف . وهما الثغران المتقابلان للمثلث الإسبانى . والجفر صفة لما اتسع جنباه .

واتصلت أيامه إلى أُخريات أيام أخيه ، وأوقع بالمسلمين على عهده ، وتملك الجزيرة الخضراء وغيرها .

وبرَغُون ، ألفنش[١] بن جايمش بن الفنش[٢] بن بَطْرة بن جايمش الذى استولى على بَلَنْسية ، ودام إلى آخر مدته ، وصدراً من مدة أخيه . وقد استقصينا من العيون أقصى ما سحَّ به الاستقصاء ، وما أغفلناه أكثر ، ولله الإحاطة .

مولده

فى الثامن للشهر المحرم من عام خمسة عشر وسبعماية .

وفاته

وإلى هـذا العهد مات ؛ وغِرت عليه من رؤوس الجند ، من قبائل العُدْوة ، الصُدُور ، وشُحنت عليه القلوب غيظاً ؛ وكان شَرِهاً لسانُه ، غير جزوع ولا هيَّاب، فربما يتكلم بملء فيه[٣] من الوعيد الذى لا يخفى على المُعْتَمد به ؛ وفى ثانى يوم من إقلاع الطاغية من الجَبَل ، وهو يوم الأربعاء الثانى عشر من ذى حجة ، وقد عزم على ركوب البحر من ساحل منزله ، فهو مع وادى ياروا من ظاهر جبل الفتح ، تخفيفاً للمؤنة ، واستعجالا للصُّدور ، وقد أُخذت على حركته المراصد ؛ فلما توسط كمين القوم ، ثاروا إليه وهو راكب بَغْلا أثابه به ملك الروم ، فشرعوا فى عَتْبه بكلام غليظ ، وتأنيب قبيح ، و بدءوا بوكيله فقتلوه، وعجَّل بعضهم بطَعْنه، وترامى عليه مملوك من مماليك أبيه ، زَنَمة[٤] من أخابيث العلوج يسمى زِياناً ، صُونع على

---

(١) هذا خطأ من المؤلف . فقد كان الجالس على عرش أراجون يومئذ هو بيدرو الرابع بن خايمى (جايمش) وقد حكم من سنة ١٣٣٦–١٣٨٧ م . أما بلنسية فقد سقطت فى يد النصارى سنة ١٢٣٨ م .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : (القتيل . الفنيل) .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : بما فيه .

(٤) أى وغد زنيم .

مباشرة الإجهاز عليه ، فقضى لحينه بسَفح الربوة الماثلة ، يَسرة العابر[١] للوادى ممن يقصد جبل الفتح ، وتركوه بالعراء بادى البوار ، مسلوب البزَّة ، سيء المصرع ، قد عَدَت عليه نعمُه ، وأوْبقه[٢] سلاحه ، وأسْلمه[٣] أنصاره وحُماته .

ولما فرغ القوم من مبايعة أخيه السلطان أبى الحجاج ، صُرفت الوجوه يومئذ إلى دار الملك ، ونُقل القتيل إلى مالقة ، فدُفن على حاله تلك برياضٍ تجاور مُنْية السَّيد ، فكانت وفاته ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر لذى حجة من عام ثلاث وثلاثين وسبعمائة ، وأقيمت على قبره بعد حين قُبة ، ونُوِّه بقبره ، وهو اليوم ماثلٌ رَهْن غرْبةٍ ، وحالِبِ عِبرة ، جعلنا الله للقائه على حذر وأُهبة ؛ وبِلَوْح الرخام الماثل عند رأسه مكتوب :

« هذا قبرُ السلطان الأجلِّ ، الملك الهمامِ ، الأمضى الباسل ، الجواد ذى المجد الأثيل ، والملك الأصيل ، المقدس ، المرحوم ، أبى عبد الله محمد بن السلطان الجليل ، الكبير ، الرفيع ، الأوحد ، المجاهد ، الهمام ، صاحب الفتوح المسطورة ، والمغازى المشهورة ، سلالة أنصار النبى صلى الله عليه وسلم ، أمير المؤمنين[٤] ، وناصر الدين ، الشهيد ، المقدس ، المرحوم أبى الوليد [بن فرج][٥] بن نصر ، قدَّس الله روحه ، وبرَّد ضريحه . كان مولده فى الثانى لمحرم عام خمسة عشر وسبعمائة ، وبويع فى اليوم الذى استَشْهد فيه والدُه رضى الله عنه السادس والعشرين [لرجب عام خمسة وعشرين][٦] وسبعمائة ؛ وتوفى رحمه الله فى الثالث عشر لذى حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، فسبحان من لا يموت » .

---

(١) فى المخطوطين : العابرة . والتصويب من اللمحة .

(٢) فى المخطوطين : وأوافقه . والتصويب من اللمحة .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : واسلموه .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة : المسلمين .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من اللمحة .

(٦) ما بين الخاصرتين ساقط فى المخطوطين ووارد فى اللمحة .

يا قبرَ سلطانِ الشجاعة والنّدى   فرع الملوكِ الصيدِ أعلام الهدى
وسـلالةِ السلفِ الذى آثارُه   وضَّاحَة(١) لمن اقتدى ومن اهتدى
سلفٌ لأنصـار النبى نجـارُه   قد حلّ منه فى المكارم مَحْتِدا
متوسّطُ البيت الذى قد أسسته سادة الأملاك(٢) أوحد أوحدا
بيتٌ بنـاه مُحَمَّدُون ثلاثةٌ   من آل نصر أورثوه مُحمّـدا
أودعتَ وجها قد تهلل حسنه   بدراً بآفاق الجلالة [قد بدا](٣)
ونداً يَسُحُّ على العفاة مواهباً   مُثنى الأيادى السابغات وموحدا
يَبْكيك مذعورٌ بك استَعْدى على   أعـدائه فسقَيْتهم كاس الردى
[يبكيك محتاجٌ أتاك مُـؤمّلا   فغدا وقد شفَعَتْ يداك له اليدا](٤)
أما سمـاحُك فهـو أسْنى ديَّة   أما جلالُك فهو أسْمى مصعدا
جادت ثَراكَ من الإلـه سحابةٌ   لرضاه عنك تجودُ هذا المَعْهدا

وشرُّ ما تبع هذا السلطان تواطؤ قتلته من بنى أبى العلاء وأصهارهم وسواهم من شيوخ خدَّامه ، كالوكيل فى مدة أخيه بعد ، الشيخ الذهول مسافر بن حرطات(٥) وسواه ، على اكتتاب عَقْد بعد(٦) وفاته ، بأمور من القول تَقْدح فى أصل الديانه ، وأغراض تقتضى إلى الوهن فى الدِّين ، وهَنَات تُسوِّغ إراقة دمـه الذى توفَّرت الدواعى على حِياطته ، والذّب عنه ، تولى كُبْرها شيخنا أبو الحسن بن الجَيَّاب ، مرتكباً منها وصمة(٧) محَتْ على غُرر فضله إلى كثير من خُدَّامه ومماليكه ، و بعثوا

---

(١) فى المخطوطين : واضحة ؛ والتصويب فى اللمحة
(٢) فى المخطوطين : أملاك . والتصويب من اللمحة .
(٣) هكذا فى اللمحة . وفى المخطوطين : مربداً .
(٤) هذا البيت وارد فى اللمحة . وساقط فى المخطوطين .
(٥) هكذا فى « ك » . وربما كانت : (حوطات) . وفى « ج » : حركات .
(٦) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .
(٧) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وصمته .

بها إلى ملك المغرب ، فاقتطعت جانب التمهيل والتأخير واللبث عن الحكم ، والتعليل عن السماع ، وبُروز[١] الأغراض ، واتباع السيئة أمثالها . وقد كان رحمه الله من الجهاد[٢] وإقامة رسم الدين ، بحيث تَزُل عن هذه الهَنات صفاته ، وتُنْكر هذه المذمّات[٣] صفاته ، وكان بمكانٍ من العز ، و إرسال السَّجية ، ربما عَذَله الشيخ فى بعض الأمر، فيَسجُم إضجاراً وتمليحاً بإخراجه ؛ ولم يمر إلا الزمان اليسير ، وأوقع الله بالعُصْبة المتمالئة عليه من أولاد عبد الله ، فسَفَتْهُم رياح النَّكبات، واستأصلت نعمَهم أيدى النَّقمات ، ولم تقم لهم من [بعد][٤] ذلك قائمة ، والله غالب على أمره .

وتَبعت[٥] هذا السلطان نفوس أهل الحرية ، ممن له طبع رقيق ، وحسٌّ[٦] لطيف ، ووفاءٌ كريم ، ممن كان بينه و بين سطوته دفاعٌ ، وفى جو اعتقاده له صفاءٌ ، فصدرت مراث[٧] مؤثرة ، وأقاويل للشجون مهيجة، نثبت[٨] منها يسيراً على العادة. فمن ذلك ما نظمه الشيخ الكاتب القاضى أبو بكر بن شَبرين ؛ وكان على فصاحة ظرفه ، وجمال روايته ، غُراب قُرْبه ، ونائحة مأتمه ، يرثيه ويُعرِّض ببعض من حمل عليه من ناسه وخدامه :

استقلَّا ودعانى طائفاً بين المغانى

وانعما[٩] بالصبر إنى لا أرى ما تريان

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وبدو .

(٢) فى المخطوطين : الجياد . وهو تحريف .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » . المهمات .

(٤) ساقطة فى المخطوطين .

(٥) وردت فى المخطوطين : وتبعث .

(٦) وردت فى المخطوطين : وحسن .

(٧) فى المخطوطين : مداثر .

(٨) واردة فى « ك » وساقطة فى « ج » .

(٩) هكذا فى اللمحة . وفى المخطوطين : واقسما . والأولى أرجح بالنسبة للمعنى .

ومن قوله :

عينُ بكى لميْت غادروه   فى ثراه مُلْقًى وقد غدروه
دفنوه ولم يُصَلِّ عليـه   أحدٌ منهم ولا غسّلوه
إنما مات يوم مات شهيداً   فأقاموا رسماً ولم يَقْصِدوه

محمد بن محمد [بن محمد](١) بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن نصر بن قيْس الخزْرَجى

ثالثُ الملوكِ من بنى نصر ، يكنى أبا عبد الله .

« أوّليّته » ؛ معروفة .

حـــاله

كان من أعاظم أهل بيته ، صيتاً وهمّة ، أصيل المجد ، مليح الصورة ، عريق الإمارة ، ميمون النّقيبة ، سعيد [النّصبة](٢) ، عظيم الإدراك ؛ تهنّأ العيش مدة أبيه ، وتملّى(٣) السياسة [فى](٤) حياته ، و باشر الأمـور بين يديه ، فجاء نسيج وحده إدرا كا ، و نُبلا ، وفخاراً ، وشأواً . ثم تولى الأمر بعد أبيه ، فأجراه على ديد نه ، وتقبل سيرته ، ونسج على منواله ؛ وقد كان الدهر ضايقه فى حصّته(٥) ، ونغّصه

---

(١) ساقطة فى المخطوطين : وإثباتها ضرورى لصحة الاسم .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من اللمحة .

(٣) فى المخطوطين : وتملأ . وهو رسم آخر لنفس الكلمة .

(٤) زيادة يستلزمها السياق .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : عصته .

ملاذ الملك بزمانةٍ[١] ، سَدِكت[٢] بعينيه لمداخلة السَّهر ، ومباشرة [أنوار][٣] ضخام الشمع ، إذ كانت تُتخذ له منها جذوع فى أجسادها مواقيت تخبر بانقضاء ساعات الليل ، ومضى الرُّبع[٤] ؛ وعلى التزامه لِـكِنِّه وغيبوبته فى كِسْر بيته ، فقد خـدمته السُّعود ، وأملت بابه الفتوح ، وسالمته الملوك ، وكانت أيامُه أعياداً .
وكان يَقْرض الشعر ، ويُصغى إليه ، ويُثيب عليه ، فيجيز[٥] الشعراء ، ويرضخ للندماء[٦] ، ويعرف مقادر العلماء ، ويُواكل[٧] الأشراف والرؤساء ، [ضاربا][٨] فى كل إصلاح بسهم[٩] ، مالئا من كل تجربة وحُنكة ، حارّ النادرة ، حسن التوقيع ، مليح الخط ، تغلب عليه الفظاظة والقسوة .

شعره

كان له شعر مُسْتَظرف من مثله ، لا بل يَفْضُل به الكثيرَ ممن ينتحل الشعر من الملوك . ووقَعْتُ على مجموع له ، ألّفه بعض خدّامه ، فنقلت من مطولاته :

واعَدَنى وعدًا وقد أخْلَفا ‏‏ أقلُّ شىء فى المليح[١٠] الوَفا
وحال عن عَهْدى ولم يَرْعَه ‏‏ ما ضَرَّه لو أنّه أنْصَفا

---

(١) أعنى بمرض مزمن .
(٢) سدكت أى لزمت .
(٣) الزيادة من اللمحة .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة : الهزيع .
(٥) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » : ويحسن . وفى « ك » : يحرز .
(٦) فى المخطوطين : (النداد . الند) . والتصويب من اللمحة .
(٧) فى المخطوطين : ويوكل .
(٨) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من اللمحة .
(٩) هكذا فى اللمحة . وفى المخطوطين : سباهم .
(١٠) هكذا فى المخطوطين وفى اللمحة : الملاح .

ما بالُهـا لم تتعطّف على صاحبٍ لها ما زال مُسْتَعْطفا
يَسْتَطْلع الأنباء من نحـوها ويرقُبُ الـبرْق إذا ماهَفا
خَفيتُ سُقْماً عن عيون الورَى وبان حُبى بعد ما قد خَفا
لله كم [من] لَيلةٍ بتُّها أُدير من ذاك اللمى قرْقَفا
متَّعتنى بالوَصْل منهـا وما أخْلَفَتْ وعداً خِلْت أن يُخلفا

ومنهـا :

مَلَّكْتُكِ [القلب](1) وانى امرؤٌ على مُلك الأرض قد وُقّفا
أوامرى فى النـاس مسمـوعَةٌ وليس مِنّى فى الوَرَى أشْرفا(2)
يُرهف سيفى فى الوغى مُصلتاً ويُتقى عـزمى إذا أُرْهِفـا
وتُرْتجى يُمنـاى يوم النَّـدى تخالُها السُّحب غدت وُكفا
نحن مـلوكُ الأرض مَنْ مثلنا حُزْنا تَليـد الفَخر والمُطْرَفا
نُخَاف إقدامـاً ونُرجى نـدًا لله ما أرْجَى وما أخْـوَفا
لى رايةٌ فى الحرب كم غادَرتْ رَبْع العِدا قاعاً بهـا صَفْصَفا
ياليـت شعـرى والمُنى جمـة والدهرُ يوماً هل يُرَى مُنْصِفا
هل يَرْتَجِى العبدُ(3) تداينكم أو يُصْبح الدهـر له مُسعفا

منـــاقبه

وأعظم مناقبه المسجدُ الجامع بالحمراء(5)، على ما هو عليه ، من الظرف والتنجيد ،

---

(1) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى اللمحة .

(2) فى المخطوطين : أسرفا . والتصويب من اللمحة .

(3) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفى اللمحة : (هل نرتجى اليوم) .

(4) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : مضعفاً .

(5) سبق التعريف بموقعه . (انظر الحاشية فى ص ٥١٩) .

والتَّرقيش ، وفخامة العُمُد ، وإحكام أنوار الفضة ، وإبداع ثُراها ؛ ووقف عليه الحمّام بإزائه ، وأنفق فيه مال الجِزْية ، أغْرَمها لمن يليه من الكفار ، فدَوا به زرعا ، نَهَد إليه صائفتُه[1] لانتسافه ، وقد أهمتهم فتنة ، فظهر بها مَنْقَبة يتيمة ، ومعلوّة[2] فذّة ، فاق بها من تقدمه ، ومن تأخره من قومه .

جهـــاده

أغزى الجيس لأول أمره مدينة المنظر[3] ، فاستولى عليها عَنْوة ، وملك من احتوت عليه المدينة ، ومن جملتهم الزَّعيمة صاحبة المدينة ، من أفراد عقائل الروم ، فقَدِمت الحَضْرة فى جملة السَّبى ، نبيهة المَرْكَب ، ظاهرة الملبس ، رائقة الجمال ، خُص بها ملك المغرب ، فاتَّخذها لنفسه ، وكان هذا الفتح عظيما ، والصيت بمزايه عظيما بعيداً [أنشدنى][4] .

ما نُقل عنه من الفظاظة والقسوة

هجم لأول أمره على طائفة من مماليك أبيه ، وكان سيِّئ الرأى فيهم ، فسجنهم فى مُطْبَق الأرىّ من حمرائه ، وأمسك مفتاح قفله عنده ، وتوعَّد من يُرْمِقهم بقُوت بالقتل ، فمكثوا أياما ، وصارت أصواتهم تعلو بشكوى الجوع ، حتى خَفَتت[5] ضَعْفاً ، بعد

---

(١) أعنى قوات الجيش التى تخرج صيفاً للغزو .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : معلومة .

(٣) يفهم من كلام ابن الخطيب فى مناسبة سابقة (راجع ص ٣٥٠) أن هذه البلدة كانت من أعمال وادى آش . ولكن يبدو من ذكرها مع بلدة شوظر (شوذر) Jodar أنها ربما كانت من أعمال جنوبى ولاية جيان ، وعلى مقربة من البلدة المذكورة . وعلى أى حال فإننا لم نستدل بالبحث على وجودها ، أو مقابلها الإسبانى . وأغلب الظن أنها دثرت .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . ولم يرد بعدها شعر .

(٥) فى المخطوطين : خفضت

أن اقتات آخِرُهم موتاً من لحم من سبقه ؛ وحملت الشفقة حارساً كان برأس المُطْبق ، على أن طرح لهم خُبْزاً يسيراً ، تنقص أكله ، مع مباشرة بَلْواهم ، ونمى إليه ذلك ، فأمر بذبحه على حافة الجُبِّ ، فسالت عليهم دماؤه ؛ وقانا الله مصارع السُّوء ؛ وما زالت المقالة[1] عنها شنيعة ، والله أعلم بجريرتهم لديه .

وزراؤه

بقى على خطة الوزارة ، وزير أبيه أبو سلطان عزيزُ بن على بن عبد المنعم الدانى ، الجارى ذكره بحول الله فى محله ، مُتَبرماً بحياته إلى أن توفى ، فأنشد عند موته :

مات أبو زيد فواحسرتا   إن لم يكن مات من جمعة
مصيبة لا غفر الله لى   أن كنت أجريتُ لها دمعة

وتمادى بها أمره ، يقوم بها حاشيته ، وقد ارتاح إليها مُتوليها بعده ، المترفِّع[2] بدولته ، القائد الشهير ، البُهْمة أبو بكر بن المَوْل . حدّث قارىء العَشْر من القرآن بين يدى السلطان ، ويعرف بابن بَكْرُون ، وكان شيخاً مُتَصاوناً ظريفاً ، قال : عزم السلطان على تقديم هذا الرجل وزيراً ، وكان السلطان يؤثر الفَأل ، وله فى هذا المعنى وساوس مُلازمة ، فوجّه إلىّ الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى يومئذ ، أبوعبدالله بن الحكيم المستأثر بها دونه ، والمُتلفِّف لكرّتها قبله ، وخرج لى عن الأمر ، وطلب منى أن أقرأ آياً يخرج فألها عن الغرض ؛ قال فلما غدوت[3] لشأنى تلوتُ بعد التعوُّذ قوله عزّوجلّ : « يا أيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذوا بِطَانَةً من دُونِكم لا يألونكم خَبَالاً ، ودُّوا ماعنِتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم ، إلى قوله لنا »[4] .

---

(١) وردت فى المخطوطين : المالقة وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين : المتوقع .

(٣) فى المخطوطين : عدوت .

(٤) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

فلما فرَغت الآيةُ ، سمعتهُ حاد عن رأيه الذى كان أزمعه ، وقدّم للوزارة كاتبه أبا عبد الله بن الحكيم فى ذى قعدة من عام ثلاثة وسبعمائة ، وصَرف إليه تدبير مُلْكه ، فلم يلبث أن تغلَّب على أمره ، وتقلّد جميع شئونه ، حسبما يأتى فى موضعه إن شاء الله .

كُتَّابه

استقل برياسته وزيره المذكور ، وكان ببابه من كُتّابه(1) جملةٌ تباهى بهم دسوت الملوك أدباً وتفننا وفضلا وظَرْفاً، كشيخنا تِلْوه وولى الرُّتبة الكتابية من بعده وفاصل الخُطبة على أثره، وغيره ممن يشار إليه فى تضاعيف الأسماء ، كالشيخ الفقيه القاضى أبى بكر بن شبرين (2) ، والوزير الكاتب أبى عبد الله بن عاصم ، والفقيه الأديب أبى إسحاق بن جابر ، والوزير الشاعر المُفلِق أبى عبدالله اللَّوْشى ، من كبار القادمين عليه ، والفقيه الرئيس أبى محمد الحَضْرمى ، والقاضى الكاتب أبى الحجاج الطرْطُوشى ، والشاعر المُكْثِر أبى العباس القرَّاق (3) وغيرهم .

قضـــــــاته

استمرت ولاية قاضى [أبيه](4) الشيخ الفقيه أبى عبد الله محمد بن هشام الألِشى(5) قاضى العدل ، وخاتمة أولى الفضل، إلى أن توفى عام أربع وسبعمائة . وتولى له القضاء،

---

(1) فى المخطوطين : كتاب .

(2) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : بشرين . وهو تحريف .

(3) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : العراق .

(4) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى اللمحة .

(5) نسبة إلى ألش Elche وهى بلدة أندلسية قديمة تقع على مقربة من أريولة فى شرق الأندلس. وهى اليوم مصيف جميل وتشتهر بغابات النخيل التى تمتد بجانبها لمسافة طويلة .

القاضى أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد[بن محمد بن أحمد][1] القُرَشى المنبور[2] بابن فركون ، وتقدم التعريف به ، والتنبيه على فضله ، إلى آخر أيامه .

مَنْ كان على عهده من الملوك بالأقطار

وأول ذلك بفاس ؛ كان على عهده بها ، السلطان الرفيع القدر ، السامى الخطر ، المرهوب الشَّبا ، المستولى فى العز و بعد الصيت على المدى ، أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المنصور ، بن عبد الحق ، وهو الذى وطّد الدولة المَرِينيَّة ، وجبا الأموال العريقة ، واستأصل من تُتَّقى شوكته من القرابة وغيرهم ، وجاز إلى الأندلس فى أيام أبيه و بعده ، غازياً ، ثم حاصر تِلِمْسان ، وهلك عليها فى أوائل ذى قعدة عام ستة وسبعمائة ، فكانت دولته إحدى وعشرين سنة وأشهراً . ثم صار الأمر إلى حافِدِه أبى ثابت عامر بن الأمير أبى عامر عبدالله بن يوسف بن يعقوب بعد اختلاف وقع ، ونزاع انجلى عن قتل جماعة من كِبارهم ؛ منهم[3] الأمير أبو يحيى بن السلطان أبى يوسف ، والأمير أبو سالم بن السلطان أبى يعقوب؛ واستمر الأمر للسلطان أبى ثابت إلى صفر من عام ثمانية وسبعمائة ، وصار الأمر إلى أخيه أبى الربيع سليمان تمام مدَّة مُلْكه وصدرا من دولة أخيه نصر ، حسبما يذكر فى موضعه إن شاء الله .

و بتِلِمْسان الأمير أبو سعيد عثمان [بن يَغُمْراسن][4] ، ثم أخوه أبو عمران[5] موسى ، ثم ولده أبو تاشفين عبد الرحمن إلى [آخر][6] مدته .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى « ج » . وساقط فى « ك » .

(٢) وردت فى المخطوطين : المنبوز . وهو تحريف . والمنبور أى المعروف أو الشهير .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : سلم . بلم .

(٤) واردة فى « ك » وفى اللمحة . ومكانها فى « ج » : (ثم يغمر أخيه) .

(٥) فى « ج » أبو عمر ، وفى « ك » أبو محمد . وهو تحريف .

(٦) هذه الكلمة واردة فى اللمحة . وساقطة فى المخطوطين .

و بتونس؛ السلطان الفاضل ، الميمون النَّقِيبة ، المشهور الفضيلة ، أبو عبدالله محمد ابن الواثق يحيى بن المستنصر أبى عبدالله بن الأمير أبى زكريا بن أبى حفص، من أولى العفَّة ، والنزاهة ، والتؤدة ، والحشمة ، والعقل ؛ عنى بالصالحين ، واختص بأبى محمد المرجانى ، فأشار بتقويمه ، وظهرت عليه بركته ، وكان يرتبط إليه ، و يقف فى الأمور عنده ، فلم تعدم الرعية بركة ولا صلاحاً فى أيامه ، إلى أن هلك فى ربيع الآخر عام تسعة وسبعمائة ، ووقعت بينه و بين هذا الأمير المترجم به المراسلة والمهاداة .

و بقَشْتَالة ؛ هراندة بن شانجة بن أدفونش بن هراندة (١) ، المستولى على إشبِيلِيَّة وقرُطبة ، ومرُسية ، وجَيَّان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ هلك أبوه وتركه صغيراً ، مكفولا على عادتهم ، فتنفَّس المُخَنَّق ، وانعقدت السلم ، واتصل الأمان مدة أيامه ، وهلك فى دولة أخيه .

و برغون ؛ جايمش بن ألفنش بن بطرة (٢) .

الأحداث

فى عام ثلاثة وسبعمائة ، نَقِم على قريبه الرئيس أبى الحجاج بن نصر الوالى بمدينة وادى آش (٣) ، أمراً أوجب عزله ، عنها ، وكان مقيما بحضرته فاتخذ [الليل] جملا (٤) وكان أملَكَ بأمرها ؛ وذاع الخبر ، فاستركب الجيش، وقد حدَّ ما ينزل فى استطلابه، وجدَّد الصكوك بولايته خوفاً من اشتعال الفتنة ، وقد أخذ على يديه ، وأغرى أهل

---

(١) هو الملك فرناندو الثالث المسمى بالقديس فرناندو San Fernando . وقد سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص ٣٩١) .

(٢) وردت فى المخطوطين : نصره . وهو تحريف .

(٣) فى المخطوطين : واداش : وهو تحريف .

(٤) أضفنا كلمة (الليل) ليستقيم المعنى . والظاهر أنها سقطت من المخطوطين سهواً . وهذا التعبير يستعمله ابن الخطيب فى غير مناسبة . ومعناه « سار تحت جنح الليل » .

المدينة بحر به ، فتداعوا لحين شعورهم باستعداده وأحاطوا به، فدهموه وعاجلوه، فتغلبوا عليه وقيد إلى بابه أسيراً مُصَفَّدًا ، فأمر أحد أبناء عمه فقتله صبرًا ، وتملاّ فتحاً كبيراً ، وأمِن فتنة عظيمة . وفى شهر شوال من عام خمسة وسبعمائة قرع الأسماع النبأُ العظم ، الغريب ، من تَمَلُّك سَبْتَة وحصولها فى قبضته، وانتزاعها من يد رئيسها أبى طالب عبدالله ابن أبى القاسم ، الرئيس الفقيه ، ابن الإمام المحدث أبى العباس العَزَفى حسبما يتقرر فى إسم الرئيس الفقيه أبى طالب أن بلَّغنا الله ذلك ؛ واستأصَل ما كان لأهلها من الذخائر والأموال ، ونقل رؤساءها ، وهم عدَّة ، إلى حَضْرته غرناطة فى غرة المحرم من العام ، فدخلوا عليه ، وقد احتفل بالمُلْك ، واستركب فى الأبهة الجندُ، فلثموا أطرافه ، واستعطفه شعراؤهم بالمنظوم من القول ، وخطباؤهم بالمنثور منه ، فطمأن روعهم [(١)] وسكَّن جأشهم ، وأسكنهم فى جواره ، وأجرى عليهم الأرزاق الهلالية ، وتفقَّدهم فى الفصول إلى أن كان من أمرهم ما هو معلوم .

اختلاعه

فى يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة أُحيط بهذا السلطان ، وأتت الحيلة عليه ، وهو مصاب بعينيه ، مقعدٌ فى رِكْنه ، فداخلت طائفة من وجوه الدولة أخاه ، وفتكت بوزيره الفقيه أبى عبد الله بن الحكيم ، ونَصَبَتْ للناس الأمير أبا الجيوش نصر أخاه ، وكبست منزل السلطان ، فأُحيط به ، وجُعل الحرس [عليه] [(٢)] ؛ وتُسُومِع بالكائنة فكان البُهْت ، وسال من الغوغاء البحر ، فتعلقوا بالحمراء ، يسألون عن الحادثة ، فشغلوا بانتهاب [(٣)] دار الوزير ، وبها من مال الله ما يفوت الوصف ؛ وكان الفَجع فى إضاعته على المسلمين ، وإطلاق الأيدى الخبيثة عليه

---

(١) فى المخطوطين : روحهم .

(٢) ناقصة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : بإنهاب .

عِظا ؛ وفى آخر اليوم عند الفراغ من الأمر ، دخل على السلطان المخلوع ، الشهداء عليه بخلعه ، بعد نقله من دار مُلْكه إلى دار أُخرى ، فأمْلَى رحمه الله ، زعموا ، وثيقة خلعه ، مع شَغْب الفكر ، وعِظَم الداهية ؛ وانتقل رحمه الله بعد ، إلى القصر المنسوب إلى السيد [1] بخارج الحضرة ؛ أقام به يسيراً ، ثم نقل إلى مدينة المُنَكّب ، وكان من أمره ما يذكر إن شاء الله .

ومما يؤثر من ظَرْفه ؛ حدّث من كان منوطاً به من خاصته ، مدة أيام إقامته بقصر نَجْد ، قبل خلعه ، قال : أرسل الله[2] الأغرِبة على سقف القصر ، وكان شديد التطيُّر والقلق لذلك حسبما تقدم من الإشارة إلى ذلك بحديث العَشْر ؛ وكان من جملتها[3] غُرابٌ[4] ، شديد الإلحاح ، حادُّ النَّعيب والصياح ، فأغرى به الرماة من مماليكه بأنواع القِسيّ ، فأبادوا من الغرْبان[5] أمّة ، وتخطَّأ الحَتْفُ ذلك الغراب الخبيث [العِبقّان][6] ؛ فلما انتقل إلى سكنى الحمراء ، ظهر ذلك الغراب على سقفه ؛ ثم لما أُهبِط مخلوعاً إلى قصر شَنيل[7] تبعه ، وقام فى بعض السَّقف أمامه ، فقال[8] يخاطبه رحمه الله : يا مشئوم ، يا محروم بين الغربان ، قد خَلَّصتَ أمرنا ، ولم يبق لك علينا طلب ، ولا بيننا و بينك كلام ؛ إرجع إلى هؤلاء المحارم فاشتغِل بهم؛ قال ، فأضحَكنا على حال الكآبة ، بعذوبة منطقه ، وخفَّة روحه .

---

(١) سبق التعريف به و بموقعه خارج غرناطة (انظر الحاشية فى ص١٢٥) .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : تعالى .

(٣) وردت فى المخطوطين : جملتهم . وهو تحريف .

(٤) فى المخطوطين : غريب .

(٥) فى المخطوطين : غربان .

(٦) وردت هذه الكلمة محرفة فى « ج » : (العبتاق) . ولم ترد فى « ك » والصواب : العبقان . وهو السيىء الخلق .

(٧) هو قصر السيد الذى سبق التعريف به . وتعرف بقاياه حتى اليوم فى غرناطة بقصر شنيل Alcazar Genil

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : فقام .

وفاته

قد تقدم ذكرُ استقراره بالمُنَكب . وفى أخريات شهر جمادى الآخرة عام عشرة وسبعمائة ، أصابت السلطان نصراً سكْتةٌ ، تُوقِّع منها موته، بل شُكّ فى حياته ؛ فوقع التفاوض الذى تمحض[١] إلى التوجيه عن السلطان المخلوع الذى بالمنكّب ليعود إلى الأمر ، فكان ذلك ؛ وأُسرع إيصالُه[٢] إلى غرناطة فى مِحَفّة ، فكان حلوله بها فى رجب من العام المذكور . وكان من قَدَر الله ، أن أفاق أخوه من مرضه ، ولم يتم للمخلوع الأمر ، فنقل من الدار التى كان بها إلى دار أخيه الكبرى ، فكان آخر العهد به . ثم شاعت وفاته أوائل شوال من العام المذكور ، فذُكر أنه اغتيل غريقاً فى البركة فى الدار المذكورة لما تُوقع من عادية[٣] جواره ؛ ودفن بمقبرة السَّبيكة ، مدفن قومه ، بجوار الغالب بالله جده ، ونُوِّه بجَدَثه وعليه مكتوب ما نصه :

« هذا قبر السلطان الفاضل ، الإمام العادل ، علم الأتقياء ، أحد الملوك الصلحاء ، المُخْبت[٤] الأوّاه ، المجاهد فى سبيل الله ، الرّضى الأوْرَع ، الأخْشَى الله الأخْشَع ، المراقِب فى السرّ والإعلان ، المعمور الجَنان بذكره واللسان ، السالك فى سياسة الخلْق وإقامة الحقّ ، مِنهاج التقوى والرِّضوان ، كافلُ الأمة بالرأفة والحنان ، الفاتح لها بفضل سيرته ، وصِدْق سريرته ، ونور بصيرته ، أبواب اليُمْن والأمان ، المُنيب الأوّاب ، العامل ما يجدُه نوراً مُبيناً يوم الحساب ، ذى الآثار السَّنِيَّة ، والأعمال الطاهرة ، القائم فى جهاد الكفار بماضى العَزْم وخالص النيَّة ،

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : تخمص وهو تحريف .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : أصالة .

(٣) وردت فى المخطوطين : علاديته .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » المبخت .

المقيم قسطاس العدل ، المنير منهاج الحلم والفضل ، حامى الذِّمار ، وناصر دين المصطفى المختار ، المُقْتدى بأجداده الأنصار ، المتوسِّل بفضل ما أسْلَفوه من أعمال البر والجهاد ، ورعاية العباد والبلاد ، إلى الملك القهّار ؛ أمير المسلمين ، وقامع المعتدين ، المنصور بفضل الله ، أبى عبد الله ، بن أمير المسلمين الغالب بالله ؛ السلطان الأعلى ، إمام الهُدى ، وغمام النَّدى ، مُحيي السُّـنَّة ، حسن الأُمَّة ، المجاهد فى سبيل الله ، الناصر لدين الله ، أبى عبد الله ، بن أمير المسلمين الغالب بالله ، أبى عبد الله ، بن يوسف بن نصر ، كَرَّم الله وجهه ومَثْواه ، ونعَّمه برضاه . وُلد رضى الله عنه يوم الأربعاء الثالث لشعبان المكرم عام أحد وسبعمائة ، رفعه الله إلى منازل أوليائه الأبرار ، وألْحقه بأئمة الدين ، لهُم عُقْبى الدّار ، وصلى الله على سيدنا محمد المختار ، وعلى آله ، وسلم تسليماً » .

ومن الجانب الآخر :

رِضَى المَلِكِ الأعلى يرُوح ويَغْتَدى ... على قَبْر مـــولانا الإمام المُؤَيَّد
مقرّ[(١)] العُلى والمُلْك والبأس والنَّدى ... فقُـــدِّس من مَغْنى كريم ومشهد
ومثوى الهُدى والفضل والعدل والتُّقى ... فبُورِكَ من مثْوَى زكى ومَلْحد
فيا عجباً طَودُ الوقار جـــلالةً ... ثوى تحت أطباق الصفيح المُنَضَّد
وواسِطةَ العقد الكريم الذى له ... مآثر فخرٍ[(٢)] بين مثنى وموحد
محمد الرَّضِيُّ سليل محمـــــد ... إمامُ النَّدى نجلُ الإمام محمد
فيا نُخْبَةَ الأملاك غير منازَعٍ ... ويا علَمَ الأعلام غير مُفَـــنَّد
بكَتْكَ بلادٌ كنت فى ذِمارها ... بعَزْمٍ أصيلٍ أو برأى مُسدد

---

(١) هكذا فى « ج » واللمحة . وفى « ك » : قصر .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة : مجد .

وكم مَعْلَمَ للدين أوْضَحت رَسْمه [بَنَى][1] لك فى الفردوس أرفع مصعد
كأنك ما سُست البلاد وأهلها بسيرة مَيْمُون النَّقيبة مُهْتَد
كأنك ما قُدت الجيوش إلى العِدا فصيَّرتهم نَهْبَ القنا المُتقصِّد
وفَتَحْتَ من أقْطارهم كلَّ مُبهم فتحتَ به باب النَّعيم المُخَلَّد
كأنَّك ما أنفقت عُمرك فى الرِّضى بتجديد غَزْوات وتشييد مَسْجد
وإنصافِ مظلومٍ وتأمين خائفٍ وإصراخ مذعورٍ وإسعاف مُجْتد
كأنّك ما أحيَيْت للخَلْق سُنَّة تُجادل عنها باللسان وباليد
كأنّك ما أمضَيْت فى الله عَزْمَةً تُدافع فيها بالُحسام المُهَنَّد
فإن تَجْهَل الدنيا عليك وأهلُها بذاكَ ثوابُ الله يَلقاكَ فى غَدِ
تعَوَّضْتَ ذُخراً من مقام خلافة مقيمٍ منيبٍ خاشعٍ متعبِّدِ
وكلُّ الورى مَنْ كان أو هو كائنٌ صريعُ الرَّدى إن يَكُن فكأن قَدِ
فلا زال جاراً للرسول محمد بدارِ نعيمٍ فى رِضَى الله سَرْمد
وهذى القوافى قد وفَيْتُ بنظمها فيا ليتَ شعرى هل يَصيخُ[2] لُمنْشد

محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر الأنصارى الخزرجى

ثانى الملوك الغالبين من بنى نصر ، وأساس أمرهم ، وفَحلُ جماعتهم .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى اللمحة .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يصح .

أوّليّتُـــه

تُقرر بحول الله فى اسم أبيه الآتى بعد حسب الترتيب المشترط .

حـــاله

من كتاب « طُرْفة[١] العصر » من تأليفنا ؛ كان هذا السلطان أوْحَد الملوك جلالة ، وصرامة ، وحزماً[٢] . مهّد الدولة ، ووضع ألقاب خدمتها ، وقرّر مراتبها ، واستجاد أبطالها ، وأقام رسوم المُلْك فيها ، واستَدرّ جباياتها ، مستظهراً على ذلك بسعة الذّرع ، وأصالة السياسة ، ورصانة العقل ، وشدة الأمور ، ونور الدهاء ، وطول الحُنْكة ، وتملؤ[٣] التجربة ؛ مليح الصورة ، تام الخَلْق ، بعيد الهمّة ، كريم[٤] الخُلق ، كثير الأناة . قام بالأمر بعد أبيه ، وباشره مباشرة الوزير أيام حياته ، فجرى على سُنن أبيـــه ، من اصطناع أجناسه ، ومداراة عدوه ، وأجرى صدقاته ، وأرْبَى عليه بخلال ، منها براعة الخط ، وحسن التوقيع ، وإيثار العلماء ، والأطباء ، والعدلين[٥] ، والحكماء ، والكتاب ، والشعراء ، وقَرْض الأبيات الحسنة ، وكثرة المُلَح ، وحرارة النّادرة . وطما بحرٌ من الفتنة لأول استقرار أمره ، وكثُر عليه المُنتزون والثُّوار ، وارتجّت الأندلس ، وسط أكلُب[٦] الكفار ، فصبر لزلزالها ، رابط الجأش ، ثابت المركز ، وبذل من الاحتيال ، والدّهاء ،

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ظرف .

(٢) هكذا فى « ج » واللمحة . وفى « ك » : جزماً .

(٣) فى المخطوطين : وتلو . والتصويب من اللمحة .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : كثير .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة : المنجمين .

(٦) فى المخطوطين : كلب . وهو تحريف .

المكْنُوفين بجميل الصبر ، [ما أظفره][1] بخلوّ الجوّ . وطال عمره ، وجدَّ صيتُه[2] ، واشتهر فى البلاد ذكره ، وعظمت غزواته . وسيمر من ذكره ما يدل على أجل من ذلك إن شاء الله .

شعره وتوقيعه

وقفتُ على كثير من شعره ، وهو نَمَطٌ منحط بالنسبة إلى أعلام الشعراء[3] ، ومُسْتظرفٌ من الملوك والأمراء . من ذلك ، يخاطب وزيره :

تذكر عزيزَ ليـالٍ مَضَتْ   وإعطاءنا المال بالرَّاحتين
وقد قَصَدتْنـا ملوكُ الجها   ت ومالوا إلينا من العُدْوتين
وإذا سأل السَّـلْمَ منّا اللعيـ   ـنُ[4] فلم يَحظَ إلا بِخُفَّى حُنين

وتوقيعه يشُذُّ عن الإحصاء ، وبأيدى الناس إلى هذا العهد كثير من ذلك ؛ فمما كتب به على رقعة كان رافعها يسأل التصرُّف فى بعض الشهادات ويلح عليها :

يموتُ على الشّهادة وهو حىٌّ   إلٰهى لا تُمتْـه على الشهادة

وأطال الخطّ عند إلٰهى إشعاراً بالضّراعة عند الدعاء والجد . ويُذكر أنه وقّع بظهر رقعة لآخر اشتكى ضرر أحد الجند المُنْزلين فى الدُّور ، ونَبَزَه[5] بالتَّعرُّض لزَوْجه : « يُخرج هذا النّازل ولا يُعوَّضُ بشىْء من المنازل »[6] .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين : وما أظهره . والتصويب من اللمحة .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : (صمتته . صننة) .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الشعر .

(٤) وردت فى المخطوطين : لمعين . والتصويب من اللمحة .

(٥) أى اتهمه .

(٦) يلاحظ أن هذه القصة وردت قبل ذلك منسوبة للمأمون خليفة الموحدين (راجع ص ٤٢٤) .

بنـــوه

ثلاثة ، ولىّ عهده أبو عبد الله المتقدم الذكر ، وفرج المُغتال أيام أخيه ، ونصر الأمير بعد أخيه .

بنـــاته

أربع ، عَقَد لهن ، جمع أبرزهن إلى أزواجهن ، من قرابتهن ، تحت أحوال ملوكية ، ودُنيا عريضة ، وهن : فاطمة ، ومؤمنة ، وشمس ، وعائشة . وفاطمة منهن أمّ حفيده إسماعيل الذى ابتزّ ملك بنيه عام ثلاثة عشر وسبعمائة .

وزيره

كان وزيره ، الوزير الجليل الفاضل ، أبو سلطان ، لتقارب الشَّبه ، زعموا فى السّن والصورة ، وفضل الذَّات ، ومتانة الدين ، وصحَّة الطبع ، وجمال الرُّواء . أغنى وحسُنَت واسطتُه ، ورُفعت إليه الرسائل ، وطُرِّزت بإسمه الأوضاع ، واتصلت أيامه إلى أيام مُستوزرة ، ثم صدراً من أيام ولى عهده .

كتّـــابُه

ولى له خُطّة الكتابة والرياسة العليا فى الإنشاء جملةٌ ، منهم كاتب أبيه أبو بكر بن أبى عمرو اللَّوْشى ، ثم الأخَوان أبو على الحسن والحسين ، ابنا محمد بن يوسف بن سعيد اللَّوشى ؛ سَبَق الحسنُ وتلاه الحسين ، وكانا [توأمين][1] ، ووفاتهما

(١) وردت فى المخطوطين : راميين . والتصويب من اللمحة .

متقاربة . ثم كتب له الفقيه أبو القاسم محمد بن محمد بن العابد الأنصارى ، آخرُ الشيوخ ، وبقيةُ الصُّدور والأدباء ؛ أقام كاتباً [مدة][(١)] إلى أن أبْرَمه انحطاطه فى هوى نفسه ، وإيثاره المعاقَرَة ، حتى زعموا أنه قاء ذات يوم بين يديه ، فأخَّره عن الرُّتبة ، وأقامه فى عِداد[(٢)] كُتّابه إلى أن توفى تحت رِفْده[(٣)] . وتولى الكتابة الوزير أبو عبد الله بن الحكيم ، فاضطّلع بها إلى آخر دولته .

قضـــاته

تولى له خُطَّة القضاء ، قاضى أبيه ، الفقيه العدل ، أبو بكر بن محمد بن فتح الإشبيلى الملقب بالأشبرون . تولى قبل ذلك خُطة السُّوق ، فلقى سكران[(٤)] أفرط فى قحته[(٥)] ، واشتد فى عربدته ، وحمل على الناس ، فأفرجوا عنه ؛ فاعترضه واشتدّ عليه حتى تمكن منه بنفسه ، واستنصر[(٦)] فى حدِّه ، وبالغ فى نَكاله ؛ واشتهر ذلك عنه فجُمع له أمرُ الشرطة وخُطَّة السوق ، ثم ولى القضاء . فذهب أقصى مذاهب الصَّرامة ، إلى أن هلك ؛ فولى خطّة القضاء بعده الفقيه، العدل أبو عبد الله محمد بن هشام من أهل أَلْش[(٧)] ، لحكاية غَبطت السلطان بدينه ، ودلّته على محله من العدل والفضل ؛ فاتَّصلت أيام قضائه إلى أيام مُسْتَقْضِيه ، رحمه الله .

---

(١) ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من اللمحة .

(٢) هكذا فى اللمحة . وفى المخطوطين : إعداد .

(٣) أى تحت كنفه وعطائه .

(٤) فى المخطوطين . سكراناً .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطين : (محنه . محنته) .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة البدرية : استبصر .

(٧) هكذا وردت فى اللمحة . وفى المخطوطين : الشر . وهو تحريف ظاهر . وقد سبق التعريف بمدينة الش (انظر الحاشية فى ص٥٥٧) .

جهـــاده

وباشر هذا السلطان الوقائع ، فانجلت ظلماتها ، عن صُبح نَصْره ، وطُرِّزت مواقعها بطراز جلادته وصبره ؛ فمنها وقيعة المطران وغيرها ، مما يضيق التأليف عن استقصائه . وفى شهر المحرم من عام خمسة وتسعين وستمائة(١) ، على تفَئة (٢) هلاك طاغية الروم ، شانجة بن أدفونش (٣) ، عاجل الكفار لحين دَهْشهم ، فحشد أهل الأندلس ، واستنفر المسلمين ، [فاغتنم] (٤) الداعية ، وتحرك فى جيش ، يجرّ الشَّوك والشجر ، ونازل مدينة قَيْجَاطَه (٥) وأخذ بكَظَمها ، ففتحها الله على يديه ، وتملك بسببها جملة من الحصون التى ترجع إليها ؛ وكان الفتح فى ذلك عظيما، وأسكنها جيشاً من المسلمين ، وطائفة من الحامية ، فأشْرَقت العدُوُّ بريقِه . وفى صائفة عام تسعة وتسعين وستمائة، نازل مدينة القبذاق (٦) فدخل جفْنها ، واعتصم من تأخّرأجله بقصبتها ، ذات القاهرة العظيمة الشأن ، الشهيرة فى البلدان ، فأحيط بهم ، فخُذُلوا وزلزل الله أقدامهم ، فألقَوا باليد ، وكانوا أمنع من عُقاب الجو ؛ وتَمَلَّكها على حكمه ، وهى من جلالة الوضع ، وشهرة المنعة ، وخِصْب السَّاحة ، وطيبِ المـاء ، والوصول إلى أفلاذ الـكفر ، والاطِّلاع على عَوْراته ، بحيث شهر . فكان تيسُّر فتحها من غرائب الوجود ، وشواهد اللُّطف ، وذلك فى صلاة الظهر من يوم الأحد

---

(١) هكذا فى اللمحة وهو الصواب . وفى « ك » سبعمائة صححت إلى ستمائة . وفى « ج » سبعمائه وهو تحريف .

(٢) أى على أثره وعلى حينه .

(٣) هكذا رسمت فى « ك » . وفى « ج » : دفونش .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من اللمحة .

(٥) هى مدينة أندلسية قديمة من أعمال ولاية جيان تقع على مقربة من أبدة. ومكانها اليوم المدينة الإسبانية الحديثة Quesada .

(٦) هكذا فى « ج » واللمحة . وفى « ك » : النبذان . والقبذاق مدينة أندلسية قديمة من أعمال قرطبة .

الثامن لشهر شوال عام تسعة وتسعين[١] وستمائة ؛ وأسكن بها رابطة المسلمين، و باشر العمل فى خندقها بيده رحمه الله ، فتساقط الناس ، من ظهور دوابّهم إلى العمل ، فتم ما أُريد* منه سريعاً .

وأنشدنى شيخُنا أبو الحسن الجيَّاب يهنئه بهذا الفتح :

عدوُّك مقهورٌ وحِزبك غالبُ ... وأمرُك منصور وسَهْمُك صائبُ
وشخصُك مهما لاح للخلق أذْعَنت ... لهيْبَتِه عجمُ الوَرَى والأعاربُ

وهى طويلة .

من كان على عهده من الملوك

كان على عهده بالمغرب ، السلطان الجليل ، أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ، الملقب بالمنصور ؛ وكان ملكا صالحاً ، ظاهر السذاجة ، سليم الصدر ، مخفوض الجَناح ، شارعاً أبواب الدَّالة عليه منهم ؛ أشبه بالشيوخ منه بالملوك ، فى إخمال اللَّفظ والإغضاء عن الجَفْوة ، والنداء بالكُنية[٢] . وهو الذى استولى على مُلك الموحدين ، واجتَث شجرتهم من فوق الأرض ، وورِث سلطانهم ، واجتاز إلى الأندلس ، كما تقدَّم ، مرَّات ثلاث أو أزيد منها ، وغزا العدُوَّ ، وجرت بينه و بين السلطان المُترجم به أمور ، من سَلْم ومُناقضة ، و إعتاب ، وعَتْب[٣] ، حسبما تدلُّ على ذلك القصائد الشَّهيرة المُتَداولة ؛ وأولها ما كتب به على عهده ، الفقيه الكاتب الصّدر ، أبو عمرو بن المُرابط ، فى غرض استنفاد للجهاد :

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » وسبعين . وهو تحريف .

* وهنا ينتهى مخطوط دار الكتب المصرية المرموز له فيما تقدم بحرف « ك » . وقد قطع الكلام قطعاً فى لوحته الأخيرة رقم ١٢٢ مما يدل على أنه لم يكن سوى قطعة كبيرة من كتاب « الإحاطة » حسبما أوضحنا ذلك فى مقدمة الكتاب .

(٢) وردت فى « ج » : والكينة . والتصويب من اللمحة .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى اللمحة : وعتب وإعتاب .

هل من مُعينى فى الهوى أو مُنْجدى　　من متهم فى الأرض أو من منجد

وتوفى السلطان المذكور بالجزيرة الخضراء فى عُنْفوان وَحْشة بينه و بين هـذا السلطان فى محرم خمسة وثمانين وستمائة ؛ وولى بعده ولده ، العظيم الهمَّة ، القوى العزيمة ، أبو يعقوب يوسف ، وجاز إلى الأندلس على عهده ، واجتمع به بظاهر[1] مَرْبلَّة ، وتجدّد العهد ، وتأكَّد الوُدُّ ؛ ثم عادت[2] الوَحْشة المُفْضية إلى تغلب العدو على مدينة طريف ، فُرْضَة[3] المجاز الأدنى ، واستمرت أيام السلطان أبى يعقوب إلى آخر مدة السلطان المترجم به ، ومدة ولده بعده .

وبوطن تِلِمْسان ، أبو يحيى يَغمور ، وهو يَغْمُراسِن بن زَيَّان بن ثابت بن محمد ابن بندوسن[4] بن طاع الله بن على بن يمل ، وهو أوحدُ أهل زمانه جرأة وشهامة ، ودهاء ، وجزالة ، وحزماً . مواقفه فى الحروب شهيرة ، وكانت بينه و بين بنى مَرين وقائع ، كان عليه[5] فيها الظهور ، ور بما نَدَرت الممانعة ؛ وعلى ذلك فقوى الشكيمة ، ظاهر المَنعَة . ثم ولى بعده ولده عثمان إلى تمام مدة السلطان المترجم به ، [و بعضاً من دولة ولده][6] .

وبوطن إفريقيَّة ، الأمير الخليفـة ، أبو عبد الله بن أبى زكريا بن أبى حَفْص ، الملقب بالمستنصر ، المثل المضروب ، فى البأس والأنفـة ، وعِظَم الجَبَروت ، وبُعد الصيت ، إلى أن هلك سنة أر بعة وسبعين وستمائة ؛ ثم ولده الواثق بعده ، ثم الأمير أبو إسحاق[7] وقد تقدم ذكره . ثم كانت دولة الدَّعِىّ ابن أبى عمارة[8] المتوثّب

---

(١) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » : على ظاهر .

(٢) فى « ج » عاهد . والتصويب من اللمحة .

(٣) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » : فرصة .

(٤) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » : بندوهن . والأولى أرجح .

(٥) فى « ج » عليها . والتصويب من اللمحة .

(٦) هذه الزيادة من اللمحة .

(٧) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » إسحاق .

(٨) سبق أن عرف ابن الخطيب بأخباره (انظر ص ٣٢٤-٣٢٦) .

على مُلْكهم ؛ ثم دولة أبى حفص مَسْتَنْقذها من يده ، وهو عمر بن أبى زكريا بن عبد الواحد ؛ ثم السلطانُ الخليفةُ الفاضل ، الميمون النَّقيبة ، أبو عبد الله بن الواثق يحيى بن المستنصر أبى عبد الله ، بن الأمير زكريا .

وبوطن النَّصارى ، بقَشْتالة ، الفُنش بن هِراندة ، إلى أن ثار عليه ولده شانْجَة ، واقتضت الحال إجازة سلطان المغرب ، واستجار به ؛ وكان من لقائه بأحواز الصَّخرة من كورة تاكُرُنّا ما هو معلوم . ثم ملك[1] بعده ولده شانجة ، واتّصلت ولايته مدة أيام السلطان ، وجرت بينهما خُطوب إلى أن هلك عام أربع وسبعين وستمائه . وولى بعده ولده هِراندة سبعة عشر عاماً ، وصار المُلك إليه ، وهو صبىٌّ صغير ، فتنفَّس مُخنَّق [أهل][2] الأندلس ، وغزا سلطانهم [وظهر][3] إلى آخر مدته

وبرَغُون ، الفُنْش بن جايمش بن بَطْرة بن جايمش المستولى على بلنسية . ثم هلك وولى بعده جايمش ولده ، وهو الذى نازل مدينة ألمريَّة على عهد نصرٍ ولده ، واستمرت أيام حياته إلى آخر مدته . وكان لا نظير له فى الدَّهاء ، والحزم ، والقوة .

ومن الأحداث فى أيامه

على عهده تفاقم الشَّر ، وأعيا داء الفتنة ، ولقَحَت حرب الرؤساء ، الأصهار من بنى إشْقَيلولة ، فمن دونهم ، وطَنَب سُرادِق الخلاف ، وأصاب الأُسَر وفحول الثروة الرؤساء ؛ فكان بوادى آش الرئيسان أبو محمد وأبو الحسن ؛ وبمالقَة وقمارِش الرئيس أبو محمد عبد الله ؛ وبقُمارش ، رئيس آخر ، [هو][4] الرئيس أبو إسحاق . فأما الرئيس أبو محمد فهلك ، وقام بأمره بمالقة ، ولده ، وابن أخت

---

(١) وردت فى « ج » : هلك ، وهو تحريف والتصويب من اللمحة .

(٢) هذه الكلمة الزائدة واردة فى اللمحة .

(٣) هذه الزيادة من اللمحة .

(٤) ساقطة فى « ج » . ويقتضيها السياق .

السلطان المترجم به . ثم خرج عنها فى سبيل الإنحراف والمُنابذة إلى ملك المغرب ، ثم تصيّر أمرها إلى السلطان ، على يد واليها من بنى على . وأما الرئيسان فصابرا[١] المضايقة ، وعزما على النطاق والمقاطعة بوادى آش زماناً طويلا ، وكان آخر أمرهما الخروج عن وادى آش إلى ملك المغرب ، مُعَوَّضين[٢] بقصر كِتامة ، حسبما يذكر فى أسمائهم ، إن بلَّغنا الله إليه .

وفى أيامه ، كان جواز السلطان المجاهد أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، إلى الأندلس ، مُغازياً ومجاهداً فى سبيل الله ، فى أوائل عام اثنين وسبعين وستمائة ، وقد فَسَد ما بين سلطان النصارى وابنه . واغتنم المسلمون الغرّة واستُدعى سلطان المغرب إلى الجواز ، ولحق به السلطان المترجم به ، وجمع مجلسه بين المُنْتَزين عليه وبينه ، وأجلت الحال عن وَحْشَة ، وقُضِيت الغُزاة ، وآب السلطان إلى مستقرّه .

وفى العام بعده ، كان إيقاع السلطان ملك المغرب بالزعيم « ذُنُونَه »[٣] ، واستئصال شأفته ، وحصْدُ شوكته . ثم عبر البحر ثانية بعد رجوعه إلى العُدْوة ، واحتلّ بمدينة طريف فى أوائل ربيع الأول عام سبعة وسبعين وستمائة ، ونازل إشبيليَّة ؛ وكان اجتماع السلاطين[٤] بظاهر قُرطبة ، فاتصلت اليد ، وصلُحت الضمائر ؛ ثم لم تلبث الحال أن استحالت إلى فساد ، فاستولى ملك المغرب على مالقة ، بخروج[٥] المنتزى بها إليه ، إلى يوم الأربعاء التاسع والعشرين لرمضان عام سبعة

---

(١) فى « ج » : فصار . والتصويب من اللمحة .

(٢) فى « ج » : معرضين . وهو تحريف .

(٣) هو دون نونيو دى لارا Nuno de Lara صهر ملك قشتالة الفونسو العاشر . وكان يقود الجيش القشتالى فى هذه المعركة الشهيرة التى التقى فيها النصارى بالجيوش المغربية والأندلسية المتحدة بقيادة السلطان أبى يوسف يعقوب على مقربة من مدينة إستجه ، والتى أحرز فيها المسلمون نصراً باهراً . وذلك فى ربيع الأول سنة ٦٧٤ هـ . (سبتمبر سنة ١٢٧٥ م) .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى اللمحة : السلطانين . وربما كان المقصود بالجمع سلطان المغرب وولده وسلطان الأندلس .

(٥) فى « ج » : وخروج . والتصويب من اللمحة .

وسبعين وستمائة . ثم رجعت إلى مَلِكِ الأندلس بمُداخلة من كانت بيده ولنظره [1] ، حسبما يأتى بعد إن شاء الله .

وعلى عهده نازل طاغية الروم الجزيرة الخضراء ، وأخذ بمُخَنَّقِها ، وأشرف على افتتاحها ، فدافع الله عنها ، ونَفَّس حصارها ، وأجاز الرُّوم بحرها ، على يد الفئة القليلة من المسلمين ؛ فعظم المَنْحُ ، وأسفر الليل ، وانجلَت الشِّدة ، فى وسط ربيع الأول من عام ثمانية وسبعين وستمائة .

مولده

بغرناطة عام ثلاثة وثلاثين وستمائة . وأيام دولته ثلاثون سنة ، وشهر واحد ، وستة أيام .

وفاته

من كتاب « طُرْفة العصر » من تأليفنا فى التاريخ ؛ قال ، واستمرت الحال إلى أحد وسبعمائة ، فكانت فى ليلة الأحد الثامن من شهر شعبان فى صلاة العصر ؛ وكان السلطان رحمه الله فى مصلاّه ، متوجِّهاً إلى القِبْلة لأداء فريضته ، على أتم ما يكون عليه المُسْلم من الخَشْية والتأهُّب ؛ زعموا أن شَرقاً كان ينتابُه ، لمادة كانت تنزل من دماغه ، وقد رَجَمت الظنُون فى غير ذلك لتناوله عشيَّة يومه كعكا اتُّخذت له بدار ولى عهده ، والله أعلم بحقيقة ذلك ودفن منفرداً ، عن مدفن سلفه ، شرقيّ المسجد الأعظم ، فى الجِنان المتَّصل بداره . ثم ثُنى بخافده السلطان أبى الوليد ، وعُزِّز بثالث كريم من سُلالته ، وهو السلطان أبو الحجاج بن أبى الوليد ، تغمد الله جميعهم برحمته ، وشمَلَهم بواسع مغفرته وفضله .

« تم المجلد الأول »

---

(١) وردت فى « ج » قبلها كلمة (وقائع) . والظاهر أنها وضعت هنا سهواً .

فهارس المجلد الأول

من كتاب الإحاطة

فهرست الموضوعات والتراجم

القسم الأول

فى حلى المعاهد والأماكن
والمنازل والمساكن

القسم الثانى

فى حلى الزائر والقاطن
والمتحرك والساكن

صفحة

صفحة

صفحة

فهرست الرسائل والقطع النثرية

فهرست الشعر والشعراء[1]

---

(١) نورد هنا أسماء الشعراء مرتبة على حروف المعجم ونشير إلى شعرهم بإيراد الشطرة الأولى من البيت الأول من كل قصيدة أو قطعة من المنظوم .

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرست الكتب

التى ورد ذكرها خلال الكتاب

ا

ب

ت ـ ث

ج – خ

د – ذ

ر — ز

س

ش

ص ــ ط

ع

ف

ق

ك

ل

م

ن — ى

فهرست البلدان والأماكن

ب

ت ـ ث

ر ـ ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

فهرست القبائل والطوائف

فهرست الأعلام

ب

ت — ث

ج

ح

خ

ف

ق ــ ل

م

ن

هـ

و

ى

ذخائر العرب
١٧

الإحاطة
فى أخبار غرناطة

للوزير لسان الدّين بن الخطيب

حققه وقدم له
محمد عبد الله عنان

المجلد الأول

دار المعارف بمصر

ARAB TREASURES
17

THE HISTORY OF GRANADA

entitled

AL-IHATA FI AKHBAR GHARNATA

BY

LISAN-ud-DIN IBN-ul-KHATIB

Edited, with an Introduction and Notes,

BY

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of 'Decisive Moments in the History of Islam' 'Moorish Empire in Spain' 'Life and Work of Ibn Khaldun' etc.

VOLUME I

Printed & Published by
DAR AL MAAREF, CAIRO


COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0044079966

